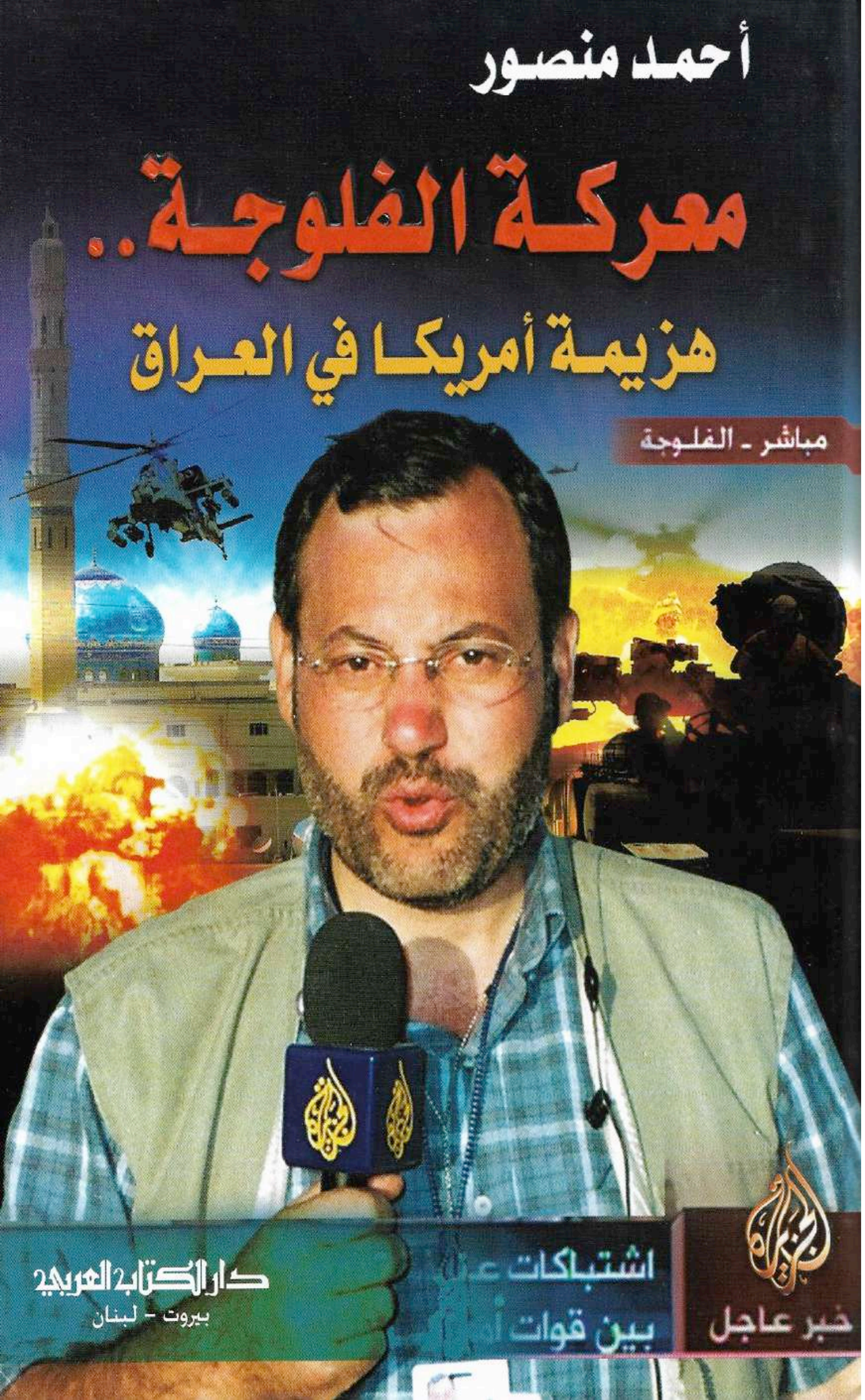

أحمد منصور
معركة الفلوجة..
هزيمة أمريكا في العراق
مباشر - الفلوجة
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان
خبر عاجل

معركة الفلوجة

هزيمة أمريكا في العراق

أحمد منصور

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

أحمد منصور

معركة الفلوجة..

هزيمة أمريكا في العراق



معركة الفلوجة..

هزيمة أمريكا في العراق

أحمد منصور

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

معركة الفلوجة.. هزيمة أمريكا في العراق

ISBN: 978-9953-27-792-9

دار الكتاب العربي Dar Al Kitab Al Arabi

ص. ب. P.O.Box 11-5769
بيروت، 2200 1107 لبنان Beirut 1107 2200 Lebanon
هاتف Tel (961 1) 800811 - 862905 - 800832
فاكس Fax (961 1) 805478
بريد إلكتروني E-mail daralkitab@idm.net.lb
موقعنا على الوب Our Web site **dar-alkitab-alarabi.com**
academiainternational.com

المحتويات



إهداء

إلى ولدي محمد ..

الذي كان جنيناً أنتظر ولادته في أي لحظة ..

حينما كنت هناك فى الفلوجة ..

أعيش معظم أهوال وأحداث هذا الكتاب مع أهلها....

آملا أن يكون هو وجيله أفضل من جيلنا....

وأن يعيد الله على أيديهم الأمل والنصر والعز والمجد للأمة.

أحمد....

المقدمة

"لقد واجهت قواتنا أسبوعاً قاسياً... وأنا أصلي كلَّ يوم من أجل أن تتراجع الخسائر". بهذه اللغة المليئة بالهزيمة والانكسار خاطب الرئيس الأمريكي جورج بوش بعض عائلات القتلى الأمريكيين في العراق في خطاب ألقاه في قاعدة "فورت هود" في تكساس في الحادي عشر من أبريل/نيسان عام 2004 حيث كانت قواته المدجَّجة بأحدث أنواع الأسلحة والتدريب في العالم، تتقهقر وتنهزم أمام بضع عشرات من المقاتلين العراقيين في معركة الفلوجة الأولى.

وفي خطابه الأسبوعي الإذاعي الذي بُثَّ في نفس اليوم قال بوش مخاطباً الأمريكيين بنبرة مليئة بالحزن والهزيمة: "هذا الأسبوع في العراق واجهت قوات التحالف تحدياً ونقلت القتال إلى ساحة العدو". وأضاف: "وإن إرادتنا الدفاعية سوف تستمر خلال الأسابيع المقبلة". في هذا الوقت كما قال بوش أصبح الأمريكيون في إطار الإرادة الدفاعية وليس الهجومية، أي إرادة المنهزم، وهذا ما عبَّرت عنه وكالة الأنباء الفرنسية في تقرير نشرته في نفس اليوم جاء فيه: "إن معركة الفلوجة أفقدت الأمريكيين منزلة المقاتلين الذين لا يُقهرون حيث عجز أقوى جيش في العالم عن تحقيق انتصار على مقاتلين يقاومون بأسلحة خفيفة مثل الفلوجة". لقد كانت معركة الفلوجة هزيمة مدوية لأقوى جيوش العالم.

وفي ليلة الرابع عشر من أبريل/نيسان 2004 ظهر بوش يحمل كل علامات الهزيمة على وجهه بينما كان يجيب الصحفيين عن سؤال حول طلب قائد

المنطقة الوسطى الجنرال جون أبي زيد لمزيد من القوات لمواجهة المقاومة الشرسة للقوات الأمريكية في الفلوجة والعراق، فأجاب بوش: "إذا كان هذا ما يريده فسوف يحصل عليه". ثم أضاف بوش الذي بدا متأزماً إلى حد بعيد: "لقد أصدرت أوامري للقادة العسكريين بعمل ما أمكن لاستخدام القوة الحاسمة إذا تطلَّب الأمر للحفاظ على النظام ولحماية قواتنا". وقال: "إن عواقب الفشل في العراق سيكون من الصعب تخيلها" مشيراً إلى أنه في حال حدوث ذلك فإن "جميع أعداء أمريكا في العالم سيفرحون، معلنين ضعفنا وتراجعنا، وسيستخدمون هذا الانتصار لتجنيد جيل جديد من القتلة في المنطقة". هكذا كان بوش يعيش مع إدارته وقواته حالة الهزيمة بكل أبعادها.

أما وزير خارجيته كولن باول فقد اعترف أمام لجنة نوعية بمجلس الشيوخ الأمريكي في التاسع من أبريل/نيسان 2004، وهو اليوم الذي كان يصادف ذكرى مرور عام على إعلان الاحتلال الأمريكي للعراق بأنه يشعر بالقلق على القوات الأمريكية التي تواجه مقاومة عنيفة في الفلوجة ومُدُنٍ أخرى، وقال باول: "المواجهات المسلحة في العراق أقوى مما كان متوقعاً". واعترف بأن "القوات الأمريكية تمر بوقت صعب".

أما الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر فقد تحدَّث عن هزيمة حقيقية كانت تعيشها الولايات المتحدة كلها بسبب معركة الفلوجة قائلاً في صفحة 419 من مذكراته: "تبيَّن أن العمليات المتواصلة في الفلوجة ستؤدي إلى انهيار العملية السياسية بأكملها وتجبرنا على تأجيل نقل السيادة إلى العراقيين وكنت واثقاً من أن ذلك سيؤدي إلى تصاعد التمرد ومقتل مزيد من الأمريكيين".

أما وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد الذي كان يوصف بأنه "الوزير المهزوم"، فلم يجد وسيلة للرد على أسئلة الصحفيين حينما واجهوه بالحقائق التي كانت تبثها قناة الجزيرة من خلال فريقها التليفزيوني داخل مدينة الفلوجة والذي كنت على رأسه حول وضع المدينة ووضع القوات الأمريكية ووضع العراق سوى أن يقوم بالهجوم على قناة الجزيرة محملاً إياها بأسلوب غير مباشر مسؤولية الهزيمة التي كانت تعيشها أمريكا حيث قال في المؤتمر الصحفي لوزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون في الخامس عشر من أبريل/نيسان من العام

2004": "أستطيع القول وبشكل قاطع إن ما تفعله الجزيرة عمل شرير وغير دقيق ولا يمكن تبريره".

على الجانب الآخر كان العراقيون يعيشون حالة من الشعور بالانتصار على هذه القوة الغاشمة التي احتلت بلادهم واستباحت حرماتهم ودمائهم، وذلك رغم الفوارق الهائلة في الإمكانات وعناصر القوة بين الطرفين، وينظرون إلى معركة الفلوجة على أنها معركة العراق. ومن فوق منبر مسجد أم القرى في بغداد وقف الدكتور حارث الضاري الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في العراق في خطبة الجمعة التي ألقاها في الذكرى الأولى لاحتلال العراق التاسع من أبريل/ نيسان عام 2004 يحفز أهل العراق على مقاومة سلطات الاحتلال وقواتها الباغية والصبر في مواجهتهم، وصاغ كلمات حفرت في صفحات التاريخ وبثت عبر شاشات كثير من القنوات الفضائية التليفزيونية ونقلتها وكالات الأنباء حيث قال الضاري مخاطباً كل العراقيين: "إلى الجهاد... إلى الجهاد.. إن معركة الفلوجة هي معركة التاريخ... ومعركة العراق... وأحباؤكم في الفلوجة يقاتلون ويرحبون بالموت والشهادة".

هل كانت معركة الفلوجة بحق هي معركة التاريخ ومعركة العراق كما قال الشيخ الضاري؟ حينما حاولت البحث عن إجابة لدى الأطراف الأخرى حول هذا السؤال وجدتها واضحة جلية في تصريحات وأقوال معظم المسؤولين الأمريكيين بدءاً بالرئيس بوش ووزرائه وقادته المدنيين والعسكريين، وصولاً إلى الكولونيل جونن كولمان رئيس أركان قوة المهام في فرقة مشاة البحرية الأولى التي كانت مكلَّفة بالهجوم على الفلوجة الذي قال كلاماً شبه متطابق مع ما قاله الدكتور حارث الضاري نشر في 23 أبريل/نيسان 2004 مما جاء فيه": "ما ستؤول إليه الفلوجة، سيؤول إليه وسط العراق، وما سيؤول إليه وسط العراق ستؤول إليه البلاد.. إن الفلوجة هي مركز الجاذبية".

وقد كانت هذه كذلك هي رؤية واحد من أبرز المراسلين والمحللين العسكريين على مستوى العالم البريطاني روبرت فيسك الذي كان يغطي أحداث العراق في ذلك الوقت وكتب مقالاً في عدد 13 أبريل/نيسان 2004 من صحيفة

الأندبندنت البريطانية قال فيه: "إن معركة الفلوجة هي التي ستحدد مستقبل العراق".

ولأن الفلوجة هي مركز الجاذبية الذي سيحدد مستقبل العراق بالنسبة للعراقيين وللأمريكيين وحتى للمراقبين فقد قام وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد بزيارة سرية إلى العراق في أعقاب هزيمة أمريكا في معركة الفلوجة وذلك في منتصف مايو/أيار من العام 2004 تحدث عنها بول بريمر في مذكراته حيث كان أول سؤال من رامسفيلد إلى بريمر عن الفلوجة. وقد تحدث عن اللقاء بريمر في مذكراته فقال: "سألني رامسفيلد: ما هو رأيك بشأن الوضع في الفلوجة؟" أجاب بريمر: "سيدي الوزير أنا لست متفائلاً بعكس بعض العسكريين".

وكان بريمر قد أشار إلى حجم الاختناق الذي عاشه الأمريكيون جميعاً بسبب معركة الفلوجة حتى إنه حينما تم عقد هدنة نهائية مع أهل المدينة في نهاية أبريل/نيسان قال عنها بريمر": "اتصل أبي زيد وقال: أعتقد أن لدينا مجالاً للتنفس في الفلوجة، لقد تحدّثت إلى كونواي وهو راض عن الوضع".

هذا المجال الذي استطاع فيه الأمريكيون التنفس من هزيمتهم أمام رجال المقاومة في معركة الفلوجة الأولى لم يكن سوى مرحلة لترتيب أكبر عملية انتقام وقعت في العراق، وهي حرق مدينة الفلوجة وتدميرها على رؤوس أهلها في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، وكان ذلك تحت رعاية الرئيس بوش شخصياً وكبار مساعديه.

فقد نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية في عددها الصادر في 7 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 تقريراً قالت فيه: "إن الرئيس جورج بوش اجتمع مع مستشاريه للأمن القومي وناقش معهم في "كامب ديفيد "تفاصيل خطة الهجوم على الفلوجة". وقد بدأ الهجوم الكاسح على المدينة بالفعل مساء نفس اليوم. وبعدما بدأت معركة الانتقام من الفلوجة قالت "نيويورك تايمز" في عددها الصادر في 9 نوفمبر/تشرين الثاني إن وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد والجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة كانا يراقبان الاستعدادات ويتلقيان آخر التقارير عن العمليات القتالية، وأعلن رامسفيلد - رغم كل

الاستعدادات الهائلة للمعركة ـ أن "معركة الفلوجة ستكون صعبة وسوف تستغرق بعض الوقت". وفي نفس اليوم نقلت عنه صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" الأمريكية تصريحات أخرى قال فيها رامسفيلد: "إن نجاحنا في الفلوجة سيسدِّد ضربة قاصمة للإرهابيين في كل البلاد، كما أنه سيبعد العراق عن مستقبل مليء بالعنف إلى مستقبل من الحرية والفرص السعيدة لكل شعب العراق". وقد علقت الصحيفة على الهجوم الأمريكي على الفلوجة بأنه لن يكون خالياً من المغامرة لا سيما بعدما تحولت الفلوجة إلى "رمز لعجز الولايات المتحدة في العراق".

لقد دخلت الفلوجة السجل العسكري الأمريكي على أنها رمز المقاومة في العراق وأنها المدينة التي هزمت الجيش الأمريكي أقوى جيوش العالم، وأنها المدينة التي حطمت المشروع الأمريكي في العراق والمنطقة، كما أنها المدينة التي دقت المسمار الكبير في نعش الأمبراطورية الأمريكية، وهي المدينة التي أذلت بوش ورجاله وبالتالي لا بد من الانتقام من الفلوجة وأهلها بل وحتى من بيوتها وشوارعها وأحجارها ومياه نهر الفرات الذي يمر من حدودها الغربية، وكل مظاهر الحياة فيها. وما كان يحدث في ذلك الوقت لم يكن سوى جانبٍ من الانتقام من أهلها ومحاولة كسر شوكة المقاومة بها، والمبررات الأمريكية لكل الجرائم الأمريكية التي ترتكب كانت دائماً جاهزة، تساعدها آلة إعلامية عالمية هائلة، وحكومة عراقية عميلة هدفها استرضاء المحتل بأي ثمن.

وقد كان بوش يتابع معركة الانتقام من الفلوجة بنفسه يوماً بيوم وساعة بساعة، وفي يوم الأربعاء 10 نوفمبر/تشرين الثاني أعلن بوش أن: "العمليات تجري في الفلوجة على ما يرام" وقال للصحفيين في ختام لقاء عقده في البيت الأبيض مع الأمين العام لحلف شمال الأطلسي ياب دو هو شيفر": "التقيت المسؤول عن العمليات الميدانية أمس الجنرال كايسي وقال: إن الأمور تجري على ما يرام في الفلوجة وأنهم يبذلون جهوداً جيدة لبسط الأمن في البلاد".

وفي 12 نوفمبر/تشرين الثاني التقى في واشنطن مع حليفه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الذي قال قبل اجتماعه مع بوش: " قبل كل شيء علينا أن نحيي القوات الأمريكية والعراقية لما تقوم به في الفلوجة". هذه التحية أرسلها بلير في الوقت الذي كانت فيه القوات الأمريكية والمرتزقة الذين يقاتلون

إلى جوارهم يقومون بارتكاب جرائم حرب في الفلوجة ويدمرونها بآلاف الأطنان من القنابل على رؤوس أهلها ويستخدمون أسلحة محرمة ويحرقونها بالفوسفور الأبيض.

وقد اعترف الميجور جنرال ريتشارد ناتونسكي قائد قوات المارينز بأنه حصل على الضوء الأخضر من بوش ورامسفيلد لتدمير الفلوجة على رؤوس من فيها، وقال في تصريحات نشرت في 16 نوفمبر/تشرين الثاني، أي بعد أسبوع من بداية عملية تدمير وحرق المدينة: "حصلنا على الضوء الأخضر هذه المرة أن نقوم بالعمل حتى النهاية بأكبر قدر ممكن من النيران وفي أسرع وقت ممكن بعيداً عن أنظار العالم". وقال: "أنجزنا العمل في ستة أيام ولم تبق إلا جماعات متفرقة من المقاتلين تتروح أعدادهم بين 5 و30 شخصاً " وأشار إلى أن: "هؤلاء المقاتلين يحاولون باستماتة الالتفاف وراء القوات الأمريكية" وتكهن بالحاجة إلى "أيام قليلة" لإكمال إخضاع الفلوجة.

إذن وباعتراف قائد المارينز كل جرائم الحرب التي ارتكبت في المدينة تم الترتيب لها أن تتم "بعيداً عن أنظار العالم" و"بأكبر قدر ممكن من النيران" و"في أسرع وقت" وقد تمت كلها تحت مسؤولية بوش ورامسفيلد بما في ذلك الجريمة الكبرى التي تم الكشف عنها بعد عام من إبادة وإخضاع المدينة وهي جريمة حرق الفلوجة بالفوسفور الأبيض.

ولا زالت الفلوجة بعد مرور ما يقرب من أربع سنوات على حرقها وتدميرها محاصرة من القوات الأمريكية ولا يسمح لغير أهلها بدخولها، مع تعتيم تام على جرائم الإبادة التي ارتكبتها القوات الأمريكية فيها.

ولأن معركة الفلوجة بشهادة كل الأطراف كانت معركة التاريخ والعراق والاحتلال ومستقبل العراق، فقد سعيت لإعداد هذا الكتاب حتى لا تكون الفلوجة ومعركتها الفاصلة في نهاية الأمر مجرد سطر في كتب التاريخ، وكتابتي هنا في معظمها كتابة "شاهد عيان" حيث كنت على رأس فريق قناة الجزيرة الذي قام بتغطية معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004 من بداية الحصار للمدينة وحتى انهياره. وكما نجح رجال المقاومة المدافعون عن المدينة في تحقيق هزيمة مدوية للقوات الأمريكية التي تشكل أقوى جيوش العالم خلال

ستة أيام ومنعوهم من اختراق المدينة أو دخولها، حرص الأمريكيون في معركة الفلوجة الثانية في نوفمبر/تشرين الثاني 2004 التي كانت معركة الانتقام والتدمير للمدينة أن يتموا عملية الحرق والإبادة خلال ستة أيام أيضا كما قال قائد المارينز الميجور جنرال ريتشارد ناتونسكي.

وفي هذا الكتاب سيجد القارىء القصة التي لم ترو من قبل عن معركة الفلوجة أو التي رويت متناثرة في مئات المصادر، وسيدرك كيف كانت معركة الفلوجة هي معركة العراق ومعركة التاريخ الذي تغير بالكامل بعدها. فالتاريخ الذي كان يخطط بوش لصناعته في العراق والمنطقة مستخدماً أقوى جيوش العالم، أُحبط ودُمِّر وتغير على مداخل الفلوجة، وعاشت الولايات المتحدة الهزيمة منذ تلك المعركة في أبريل/نيسان 2004 ولا زالت وستظل تعيشها حتى تخرج بجيوشها مهزومة من العراق، وربما ستظل تعيشها لعقود يمكن أن تؤدي كما قال مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق زبيغنيو بريجنسكي في كتابه "الفرصة الثانية" الذي صدر في مارس/آذار 2007 إلى نهاية المشروع الأمبراطوري الأمريكي في المنطقة.

فى الفصل الأول من هذا الكتاب أعطيت صورة عن واقع العراق بعد عام من الاحتلال الأمريكي، أي العام الذي سبق معركة الفلوجة في الفترة من أبريل/نيسان 2003 إلى أبريل/نيسان 2004، فتحدثت من خلال مشاهداتي عن النهب المنظم الذي تعرَّض له العراق على يد قوات الاحتلال في العام الأول بالأرقام والإحصاءات، ثم عن الوضع الاقتصادي المتردي الذي بدأ يعيش فيه الشعب العراقي عبر انتشار البطالة والفقر، ثم الفوضى الهائلة في إصدارات الصحف التي زادت عن مئتي صحيفة، وفضيحة سلطات الاحتلال في تمويل كثير منها ونشر عشرات المقالات مقابل عمولات مالية بأسماء صحفيين عراقيين، ثم الفوضى الشاملة في الأحزاب السياسية كذلك التي وصل المعروف منها حتى بداية أبريل/نيسان 2004 إلى 237 حزباً، ثم انتشار الفوضى الأمنية والتصفيات والاغتيالات السياسية. ثم تحدثت عن شواهد عديدة عن تعامل سلطات الاحتلال مع العراقيين وكيف أنهم من أول يوم صنعوا كماً هائلاً من الكراهية في نفوس العراقيين تجاههم، ثم مجلس الحكم الذي كان بداية التقسيم الطائفي والتلاعب

السياسي والمطية الأولى للمشروع السياسي الأمريكي في العراق، وكيف كان الأمريكيون يستخدمون مجلس الحكم وأعضاءه كألعوبة، وحينما استنفدوا أغراضهم منه ألقوه بمن فيه في مزبلة التاريخ.

في الفصل الثاني تحدثت عن المرتزقة في العراق الذين كان مقتل أربعة منهم وسحل جثثهم في شوارع الفلوجة أحد أسباب المعركة. وتحدثت عن الفلوجة وتاريخها المقاوم لسلطات الاحتلال طوال العام الأول، وأهم الاشتباكات والمعارك التي وقعت فيها وخسائر قوات الاحتلال في الفلوجة خلال عام الاحتلال الأول. ثم استعرضت جانباً من تاريخها المقاوم أثناء الاحتلال البريطاني، وأسباب الكراهية الشديدة بين أهلها وقوات الاحتلال الأمريكية، وكيف صنع الأمريكيون هذه الكراهية بينهم وبين أهل الفلوجة. ثم رويت بالتفصيل قصة مقتل المرتزقة الأربعة في 31 مارس/آذار 2004 حيث كنت هناك في العراق.

ثم تحدثت عن جيش المرتزقة الكبير الذي يعمل إلى جوار القوات الأمريكية والذي يصل إلى عدد متقارب من عدد القوات الأمريكية وطبيعة الأعمال والمهام التي يقومون بها، وكيف أعاد مقتل أربعة منهم وسحلهم في شوارع الفلوجة شبح الصومال إلى الولايات المتحدة التي قامت بسحب قواتها من هناك بعد حادث مشابه عام 1993، وكيف أصبحت مدينة الفلوجة تمثل عقدة للرئيس الأمريكي جورج بوش وإدارته حيث بدأت القوات الأمريكية توجه التهديدات للمدينة ثم أعدت خطة للهجوم عليها سمتها "الرد الساحق". وكيف أدت هذه التطورات السريعة إلى أن تهيمن أخبار الفلوجة على الاهتمام الأمريكي وتتصدَّر الأخبار الرئيسية في وسائل الإعلام الأمريكية حيث بدأ الإعداد والتنفيذ لخطة الهجوم على المدينة. وقد تابعت هذه التطورات من خلال زيارة قمت بها إلى مدينة الفلوجة في اليوم التالي لحادث المرتزقة، ثم توجهت من الفلوجة إلى سامراء التي تعتبر أيضاً من المدن العصية على القوات الأمريكية، وتحدثت بشكل مستفيض عنها، ثم ختمت الفصل ببداية الهجوم على الفلوجة، وكيف تم ترتيب قيام فريق من مكتب قناة الجزيرة في بغداد للذهاب إلى الفلوجة لتغطية الأحداث هناك وكنت على رأس هذا الفريق.

أما في الفصل الثالث فقد تحدثت عن رحلتنا من بغداد إلى الفلوجة، والفريق الذي كان معي والذي كان يتكوَّن من ستة من الزملاء، وكيف أننا وجدنا كل الطرق التي تؤدي إلى مدينة الفلوجة مغلقة والمدينة كلها مطوَّقة من القوات الأمريكية، وكشفت للمرة الأولى بالتفصيل كيف خاطرنا بأنفسنا ونجحنا كفريق لقناة الجزيرة في اختراق هذا الحصار، وتحدثت عن كل المخاطر والتهديدات التي واجهتنا، وكنا الفريق التليفزيوني الوحيد الذي تمكن من دخول المدينة وتغطية المعركة كاملة.

أما الفصل الرابع فهو أكبر فصول الكتاب وأكثرها إثارة حيث تحدثت فيه بالتفصيل عن الفلوجة ومعركتها التي أدخلتها التاريخ من أوسع أبوابه، وذلك بعدما نجحنا في دخولها وكيف قمنا كفريق تليفزيوني وحيد يغطي الأحداث داخل المدينة بواحدة من أهم المهمات المهنية والإنسانية التي قمت بها في حياتي. وصفت المدينة حينما دخلنا إليها، وحجم الدمار الذي ألمَّ بها، وكيف كان حال ثلاث مئة ألف مدني هم سكانها الذين حاصرتهم القوات الأمريكية داخلها. وفي هذا الفصل سيجد القارىء خليطاً من المهنية والمشاعر الإنسانية والأحاسيس والمخاطر ومواجهة الموت بشكل شبه دائم، لذلك سميت هذا الفصل "تحت وابل النيران في الفلوجة".

كان أهم شيء عندي كيف أدير فريق العمل الصغير الذي معي والذي يتكوَّن من سبعة أشخاص بعدما انضم إلينا الزميل حسين دلي المراسل المقيم داخل المدينة، لأغطي الأحداث في مدينة مساحتها أربعون كيلو متراً مربعاً وتتعرض لحصار ومعركة من كل أطرافها، ويستطيع القارىء أن يعيش معي ومع زملائي كل تفصيلات هذه الأحداث التي أعتبر أيامها عمراً خاصاً في حياتي، ولهذا فإن كل الذين تابعوا تغطيتنا التليفزيونية لمعركة الفلوجة عليهم أن يعودوا مرة أخرى ليعيشوا معنا هنا عبر صفحات الكتاب حتى يعرفوا كيف كنا نعمل؟ كيف كنا نحصل على الأخبار وكيف كنا نصنعها؟ وكيف كنا نتواجد عند كل قذيفة أو صاروخ يسقط؟ وكيف كنا نتعامل مع زملائنا في غرفة الأخبار في مقر الجزيرة في الدوحة؟ وكيف كنا نتعامل مع زملائنا في نشرات الأخبار على الهواء؟ وماذا فعلنا حينما تعطل جهاز البث الذي يربطنا بالأقمار الصناعية؟ وكيف

خاطرنا ونجحنا في اختراق الحصار الأمريكي للمدينة ذهاباً وإياباً واستبدلناه بجهاز آخر؟ ومن هم الزملاء الأبطال الذين قاموا بهذه المخاطرة المميتة، وكيف استشهد أحدهم في مهمة مشابهة بعد ذلك؟ وكيف كان تصرفنا حينما وجدنا أنفسنا فجأة في مواجهة دبابتين أمريكيتين ومدافعهما موجهة إلينا بينما كان يرصدنا جنود قناصة من على مسافات قريبة؟ وكيف تكرَّر وقوعنا في هذا المأزق أكثر من مرة؟ وكيف وجدنا الدبابات تسد طريقنا ذات مرة ولم نجد مهرباً منها إلا إليها؟ وكيف كنا نتعرض للتهديدات والمخاطر والمعارك التي نشبت وكنا في منتصفها؟ وكيف عشنا محاصرين يومين تحت نيران القناصة الأمريكيين وكاد أحدنا أن يقتل؟ وكيف دبرنا بعد ذلك خطة الهروب من حصار القناصة الأمريكيين والوصول إلى قلب المدينة؟ وكيف ألهبت المقاومة في الفلوجة أهل العراق جميعاً ووحَّدتهم فقاموا بانتفاضة شاملة في كل أنحاء العراق ضد الاحتلال كادت تُفشِل المشروع الأمريكي في العراق؟ وقد أفردت جانباً هاماً للمعارك العسكرية والخطط الاستراتيجية الأمريكية في الهجوم على الفلوجة وكيف أفشلتها المقاومة وحققت أكبر انتصار على الاحتلال الأمريكي في العراق؟ وكيف أن الرئيس الأمريكي جورج بوش كان يتابع بنفسه أحداث معركة الفلوجة ويعتبرها معركته في العراق؟

تحدثت عن المدينة وأهلها تحت الحصار وكيف كان يعمل الأطباء؟ وكيف كان يعيش الناس؟ وكيف كنا نعيش نحن أيضاً؟ ثم تحدثت عن يوم الجمعة الدامي 9 أبريل/نيسان والمذابح التي ارتكبتها القوات الأمريكية في المدينة، ولم يكن الأحياء وحدهم يعانون وإنما كتبت عن مأساة الأموات في الفلوجة، ورويت كثيراً من القصص والمآسي التي عايشناها مع أهل الفلوجة، تحدثت عن أطفال الفلوجة ونسائها وشيوخها وكيف كنت أرى وجوه أولادي في وجوه أطفال الفلوجة الذين كانوا يعيشون الأهوال، وانعكاسات ذلك على نفسي.

بعد ذلك تحدثت عن الشروط التي فرضتها القوات الأمريكية لوقف إطلاق النار ورفع الحصار عن المدينة وكيف كان أول شرط فيها هو خروجي مع فريق قناة الجزيرة من الفلوجة. ثم توجيه الجنرال مارك كيميت نائب قائد القوات الأمريكية في العراق والناطق الرسمي باسمها اتهامات مباشرة لي وعلى الهواء بأني أروِّج الأكاذيب من المدينة، ثم تأكيد الوفد المفاوض الموفد من قبل بريمر

على شرط خروجنا من المدينة، والضغوط التي مورست علينا حتى خرجت من المدينة بعدما كسر أهلها ورجال المقاومة الحصار عنها.

أما في الفصل الخامس فقد كشفت بالتفصيل عن خفايا المعركة التي كانت تدور وراء الكواليس والتي شنتها الإدارة الأمريكية ضد قناة الجزيرة ولا سيما الفريق التليفزيوني الذي قام بتغطية معركة الفلوجة، حيث اتهمنا الأمريكيون بشكل مباشر وغير مباشر أحياناً أخرى بأننا الذين أفشلنا مشروعهم في العراق ومعركتهم في الفلوجة، وكيف أن أركان الإدارة الأمريكية أخذوا يشنون هجمات على قناة الجزيرة في تصريحاتهم أمام وسائل الإعلام العالمية بشكل دائم، حتى إن الرئيس بوش نفسه وصل به الجنون إلى أن يقرر قصف مقر قناة الجزيرة في الدوحة وبعض مكاتبها الخارجية رداً على ما قمنا به من تغطية ونشر للحقائق والجرائم التي ارتكبتها قواته في الفلوجة، ثم قيام الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية بتوجيه اتهامات شخصية لي بأني كنت أروِّج الأكاذيب وقيام الصحفيين والكتّاب الأمريكيين اليمينيين الموالين للإدارة الأمريكية بشن هجمات شخصية عليَّ في وسائل الإعلام الأمريكية المختلفة، ثم ممارسة ضغوط هائلة على الزميل سامي الحاج المعتقل في غوانتامو حتى يقدم شهادة ضدي أني أعمل لصالح تنظيم القاعدة وأروِّج له من خلال عملي في قناة الجزيرة، وكيف حاولوا تدميري نفسياً واغتيالي مهنياً بشتى السبل لأني لم أفعل شيئا سوى أني كنت شاهداً على ما ارتكبوه من جرائم في الفلوجة وقدمت شهادتي موثقة بالصور إلى العالم بشكل مهني وإنساني عبر قناة الجزيرة. ثم تحدثت عن أكذوبة الحياد الإعلامي التي يروِّجون لها، وكيف تعرضنا نحن فريق قناة الجزيرة للقصف من القوات الأمريكية مساء التاسع من أبريل/نيسان، وكيف أنهم قاموا بعد ذلك بإغلاق مكتب الجزيرة في بغداد في شهر أغسطس/آب من العام 2004 حتى لا يكون هناك شهود على ما يقومون به في العراق وحتى يمنعوا الجزيرة من تقديم الحقيقة التي يكرهونها، ثم قاموا بعد ذلك بارتكاب جريمة حرق الفلوجة وتدميرها في المعركة الثانية في نوفمبر/تشرين الثاني دون شهود وبعيداً عن أعين العالم كما قال قائد المارينز.

بعد ذلك تحدثت عن اللقاء الذي جمعني مع الجنرال مارك كيميت بعد عامين في الإستديو في قناة الجزيرة في الدوحة عبر برنامجي بلا حدود، وكيف

تم ترتيب هذا اللقاء الذي كان إتماماً للمعركة الإعلامية التي قامت بيني وبينه حينما كنت في الفلوجة في أبريل/نيسان من العام 2004 حيث كنت أنقل ما يحدث داخل المدينة وأعبِّر عن واقع أهلها المحاصرين الذين كانوا يتعرضون للقتل والدمار، بينما كان هو يمثل القوات الأمريكية على الطرف الآخر، وكيف سجَّل الجنرال كيميت شهادة بحقي في حضور الزملاء حينما قال لي: "أنا أختلف معك لكني أود أن أعبر عن احترامي لك وتقديري لشجاعتك حينما كنت في الفلوجة".

فى الفصل السادس تحدثت عن هزيمة أمريكا في معركة الفلوجة، ودلَّلت بالمعلومات الموثقة التي اعتمدتها نهجاً للكتاب كله على معالم هذه الهزيمة وتفصيلاتها، من خلال شهادة الأمريكيين أنفسهم ومن معطيات الواقع، فالقوات الأمريكية التي كانت تحاصر المدينة وقعت تحت الحصار من قبل المقاومة وأصبحت بين فكّي كماشة، والجيش العراقي الذي كانوا يأملون في أن يقاتل إلى جوارهم هرب جنوده، والجنرال جون أبي زيد استنجد بالرئيس بوش يطلب إمدادات، وبوش وقف عدة مرات بنبرات مهزومة يتحدث عن الأيام العصيبة التي تعيشها قواته، ورامسفيلد لم يجد مشجباً يعلِّق عليه هزيمة قواته سوى تحميل قناة الجزيرة المسؤولية، ورجال الكونغرس حاصروا بوش ورجاله بالأسئلة وارتفعت أصواتهم للمطالبة بالانسحاب من العراق، والإعلام الأمريكي تغير تناوله لأحداث العراق بعد المعركة وأصبح يتحدث عن الهزيمة، وخيَّم شبح فيتنام على الولايات المتحدة بعد تصاعد المقاومة أثناء معركة الفلوجة. ثم تحدثت عن مظاهر الهزيمة وكيف أصبحت الفلوجة لعنة على جورج بوش، وكيف اضطر أن يقر بالهزيمة وإن كان بعبارات مبطنة، وهذا ما دفعه إلى أن يأخذ قراره بتدمير الفلوجة وحرقها والانتقام من أهلها.

في الفصل السابع تحدثت عن معركة الفلوجة الثانية وحرق وتدمير المدينة في نوفمبر/تشرين الثاني 2004، لكني بدأت سرد التفاصيل من نهاية المعركة الأولى وكيف توالت الأحداث من أبريل/نيسان وحتى نوفمبر/تشرين الثاني 2004، حيث تم توقيع وقف إطلاق النار ورضخت القوات الأمريكية لشروط المقاومة في نهاية أبريل/نيسان حتى إنهم قاموا بدورية واحدة مشتركة مع لواء

الفلوجة في المدينة بموافقة المقاومة، ثم انسحبوا وظلوا خارج المدينة حتى دخلوها في المعركة الثانية في 7 نوفمبر/تشرين الثاني 2004. لكن بين أبريل/نيسان ونوفمبر/تشرين الثاني حدثت تطورات كثيرة من أهمها المخطط الذي بدأ بوش يعده لتدمير أو إخضاع المدينة، وكيف أن بريمر اقترح أن تقوم به حكومة علاوي بعد خروجه هو من العراق في نهاية يونيو/حزيران 2004، وكيف توَّج بوش علاوي في الكونغرس في سبتمبر/أيلول، ثم بدأت بعد ذلك مقدمات الانتقام من الفلوجة، ثم تهديد علاوي لأهلها، وكيف بدأت العمليات تتصاعد شيئاً فشيئاً ضد المدينة، حتى أشرف بوش مع كبار مساعديه العسكريين على وضع الخطط الأخيرة لتدمير المدينة ثم أعطى الضوء الأخضر للقوات حتى تشن الحرب على المدينة وتبيدها على رؤوس من فيها، وقد قدمت تصوراً لتوازن القوى بين الطرفين، وكيف تم تنظيف المدينة من وسائل الإعلام قبل المعركة لا سيما الكاميرات حتى تتم المعركة بكل ما فيها من جرائم حرب بعيداً عن الأعين والكاميرات، ولم يبق في الفلوجة طوعاً إلا الصحفيين من أبنائها وكلهم كانوا مراسلين لوكالات أنباء إخبارية وكانوا يشاركون بالهاتف مع المحطات التلفزيونية دون كاميرات.

إذن حقَّق بوش هدفه بغياب الكاميرات عن تصوير ما سوف يرتكب من جرائم، وتم ارتكاب الجريمة بعيداً عن الأعين والكاميرات.

بدأ اجتياح المدينة مساء السابع من نوفمبر/تشرين الثاني بعد إعلان علاوي حالة الطوارىء في العراق وأغلق حدوده البرية والجوية، إنها معركة الانتقام من المدينة التي هزمت الأمبراطورية الأمريكية، كان بوش ورامسفيلد وباول يديرون المعركة، التي شارك فيها عشرون ألف جندي أمريكي خلاف المرتزقة العراقيين والأجانب، وقد وصفت بالتفصيل "أهوال الجحيم" التي عاشها أهل الفلوجة من خلال شهادات من نجا من تلك الجريمة البشعة حيث تشير التقديرات إلى أن مئة ألف من أهل المدينة كانوا بداخلها.

تحدثت عن جرائم القوات الأمريكية من خلال شهادات الشهود وكذلك بطولات المقاومة من خلال شهادة الجنود الأمريكيين، وكيف كبَّد رجال المقاومة الذين كانوا لا يزيدون عن ألفين حسب أعلى التقديرات القوات الأمريكية عدداً

كبيراً من القتلى والجرحى مما جعل بوش ورجاله يحرقون المدينة بالفوسفور الأبيض والأسلحة الكيماوية بعد المقاومة الشرسة التي واجهوها في الأيام الأولى، ثم قدمت إحصاء في النهاية لقتلى الفلوجة الذين كانوا ضحية هذه الجريمة.

في الفصل الثامن تحدثت عن جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأمريكية في الفلوجة مثل قتل المدنيين بدم بارد، وكذلك تدمير المراكز الطبية؛ والجرائم ضد الأطباء، ومنع الجرحى من التداوي وقتلهم، واستخدام الأسلحة الكيماوية والمحرمة دولياً ضد المدنيين، والجرائم ضد الأطفال وتهجير أهل المدينة وحرقها وتدمير المساجد بها، ومنع الغذاء عن المدنيين وتجويعهم، ثم حصار المدينة حتى الآن وعدم السماح لغير أهلها بالدخول إليها والخروج منها، ودفن معالم الجرائم من خلال دفن القتلى في مقابر جماعية بعد المعركة بعيداً عن وسائل الإعلام، وكيف أن كل هذا وغيره يندرج تحت بنود جرائم الحرب.

في الفصل التاسع تحدثت عن الهزيمة السياسية والاستراتيجية التي ألحقتها الفلوجة بالولايات المتحدة والرئيس الأمريكي جورج بوش في العراق وذلك من خلال الفشل في كل الخطط الاستراتيجية التي أعلنها بوش، وجهل الأمريكيين وعلي رأسهم بول بريمر بالعراق وأهله، وكيف أظهرت الوثائق الأمريكية أن كل الخطط التي أعلنها بوش عن العراق كانت "افتراضات وهمية" وكيف اضطر بوش أن يعترف أكثر من مرة في خطاباته بالهزيمة والفوضى القائمة في العراق. ثم كشفت عن حجم التدليس السياسي في تقرير لجنة "بيكر هاملتون" حول الوضع في العراق، وكيف اعترف كثير من قادة المحافظين الجدد الذين أشعلوا الحرب في العراق بالهزيمة، وأصبح بعضهم يطالبون بالانسحاب لكن بوش مع كل ذلك يصر على أخطائه ومواصلة الطريق لتحقيق النصر على حد زعمه. ثم تحدثت عن موقف البريطانيين من استراتيجية بوش ونهاية حليفه توني بلير، الذي أجمع كثير من البريطانيين على أن العراق هي التي هزمت بلير ومن ثم فهي التي ستهزم بوش. ثم تحدثت عن أمل بوش الأخير في العراق من خلال تعيينه للجنرال بتريوس ليخرجه من حالة الهزيمة التي يعيشها، فقدمت

تعريفاً بالجنرال بتريوس وخطته وكيف تنبأ كثير من العسكريين الأمريكيين أنها خطة فاشلة.

في الفصل العاشر تحدثت عن الهزيمة العسكرية لأمريكا في العراق، وأول أشكال الهزيمة الارتفاع الكبير في القتلى، ثم أوردت الأدلة التي تتعلق بالتشكيك في أعدادهم ورويت قصص بعضهم مثل القتيل رقم 2000 والقتيل رقم 3000، ثم أكثر الشهور دموية للقوات الأمريكية في العراق. ثم رويت قصص أكثر الحوادث دموية للقوات الأمريكية خلال سنوات الاحتلال، وكيف ينعي بوش جنوده بينما يرى وزير دفاعه أن أسوأ اللحظات لديه حينما يجلس مساء كل يوم ليوقع رسائل العزاء لعائلات الجنود القتلى.

ورغم التكتم الشديد والسرية التي تحيط بها القوات الأمريكية مراسم الجنازات للجنود فقد تتبعت رحلة جثث الجنود منذ مقتلهم في بغداد وحتى وصولهم إلى المقابر هناك عبر أكبر مستودع للجثث في العالم في قاعدة دوفر الجوية، والغضب العارم من أهالي القتلى من الإدارة بسبب معاملتها للجثث وكأنها جثث مجرمين وليسوا أبطالاً كانوا يدافعون عن الشرف الأمريكي، وكيف تغلب البعض على قرار السرية ونشر صور النعوش العائدة التي تحمل عار الهزيمة، وكيف أن أم أحد الجنود وهي الناشطة سيندي شيهان حوَّلت حياة الرئيس بوش إلى جحيم وأقضَّت مضجعه مع الآلاف من أسر الضحايا والمعارضين للحرب. ثم تحدثت عن الهزيمة النفسية التي يعيشها الجنود الأمريكيون والتكلفة الهائلة للجنود العائدين من المعركة ونسبة المرضى النفسيين منهم، وبيَّنت من خلال تقارير رسمية أمريكية كيف أن عدد الذين انتحروا من الجنود بعد عودتهم من حرب العراق أكبر من عدد الذين أعلن رسمياً عن مقتلهم حيث ينتحر كل عام ألف جندي من الذين شاركوا في حرب العراق بعد عودتهم للولايات المتحدة. وفي نهاية الفصل تحدثت عن التركة التي سيتركها الرئيس بوش للأمريكيين والتي ليست سوى نُصُبٍ تذكارية للقتلى وشواهد للقبور ومقابر جديدة، وجنود سابقين مرضى من ذوي العاهات الدائمة أو معتوهين أو مشوهين وأمة مكروهة في أرجاء الدنيا وعار الهزيمة في العراق.

أما في الفصل الحادي عشر والأخير فقد تحدثت عن مستقبل العراق

والمنطقة بعد هزيمة أمريكا، وكيف أن الولايات المتحدة عاجلاً أم آجلاً ستنسحب قواتها من العراق مجلّلة بالهزيمة والخيبة والعار. ونقلت عن خبراء أمريكيين آراءهم عن الفشل الكارثي للولايات المتحدة، وكيف أن هذه الهزيمة التي لحقت بها في العراق لن تقف بها عند حدود العراق وإنما يمكن أن تحطم مشروعها وسيادتها على العالم ونفوذها في منطقة الشرق الأوسط، بل ستتعدى ذلك إلى حليفتها إسرائيل، وأشرت إلى أن القضية الآن ليست هزيمة أمريكا في العراق فقد هزمت بالفعل، ولكن القضية هي ما بعد هزيمة أمريكا في العراق.

وفي الختام ألحقت بعض الوثائق التي ورد الحديث عنها في الكتاب في ملحق، كما اخترت بعض الصور من معركة الفلوجة رتبت في ملزمة خاصة أيضاً.

وقبل أن أترك القارىء ليبدأ رحلته التفصيلية مع صفحات الكتاب أود أن أشكر كل من ساهم في خروج هذا الكتاب - الذي استغرق إعداده مني ثلاث سنوات - إلى القراء، وعلى رأسهم أهل الفلوجة الذين شكلوا مادته الأساسية وأخص منهم آل حديد الذين وسعوني وزملائي بقلوبهم قبل أن يسعونا بالكرم وحسن الضيافة خلال وجودنا في الفلوجة، ورغم حرصي على عدم ذكر الأسماء حتى لا أنسى الكثيرين الذين قدموا مساهماتهم ومساعدتهم لي، إلا أني أخص بالشكر زوجتي وأولادي الذين يعيشون حياتهم معي على الانتظار فأنا إما غائب عنهم في أسفاري أو مشغول عنهم في حضوري، كما أشكر كل الزملاء والأصدقاء الذين ساهموا بجهد كبير معي فيما طلبت منهم خلال كافة مراحل إعداد هذا الكتاب وأخص منهم حامد حديد وعبد العظيم محمد وليث مشتاق وحسين دلي وخالد مرسي وسمير بيومي وأيمن كامل وفاضل البدراني، والمبدع أحمد عاشور الذي صمَّم غلاف الكتاب وساعدني في اختيار الصور، كما أشكر الصديقين الناشرين محمد ونبيل إيراني فلولا متابعتهما الدائمة لي طوال عامين كاملين حتى أنجز الكتاب ربما أُخِّرت إصداره الانشغالات الأخرى أكثر من ذلك، وهناك الكثيرون الذين لا يتسع المجال لذكر أسمائهم وأستميح العذر ممن نسيت ذكره منهم.

وفي الختام أود أن أنوِّه إلى أن كل ما ورد في هذا الكتاب يعبر عن آرائي وتجربتي الخاصة والشخصية دون أدنى مسؤولية على قناة الجزيرة وإدارتها

الذين أخص منهم بالشكر الأخ والصديق الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني رئيس مجلس الإدارة وكذلك الزميل والصديق وضاح خنفر المدير العام حيث كان لهما الدور الأكبر في دعم فريق الجزيرة ورعايته ورفع معنوياته والحرص الكامل علينا أثناء تغطيتنا لمعركة الفلوجة.

وأود هنا أن أسجل النقصان على نفسي فيما قمت به، فرغم مراجعتي لمادة الكتاب بعد الانتهاء منه أكثر من خمس مرات وكنت أجدني في كل مرة كمن يكتب من جديد، إلا أني كلما نظرت فيما كتبت أجد به نقصاناً يحتاج للمزيد، لكنه في النهاية جهد المقل الذي يريد أن يقدم الحقيقة التي كان شاهداً عليها للناس والتاريخ، حتى لا تنسى أو تطوى مع الأيام، آملا أن يفتح هذا الكتاب المجال لمزيد من العطاء والكتابة وتدوين حقائق ما جرى في العراق لكل من عايش هذه الأحداث حتى لا تبقى معركة الفلوجة والأهوال التي عاشها أهل العراق جميعاً تحت الاحتلال الأمريكي مجرد سطور، أو جمل، أو عبارات متناثرة في كتب التاريخ.

أحمد منصور

اسطنبول، الأول من جمادى الآخرة 1428

16 يونيو/حزيران 2007

الفصل الأول

العراق قبل معركة الفلوجة الأولى

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بقليل حينما كنت أجلس في غرفة الأخبار التي كان الزملاء في مكتب قناة الجزيرة في بغداد قد انتهوا للتو من تجهيزها وافتتاحها في مقر المكتب الذي كان يقع في فندق بحيرة البجع المطل على ساحة كهرمانه في حي الكرادة في مدينة بغداد، وبينما كنت مستغرقاً في مراجعة تقرير صحفي أعددته عن زيارتي لمدينة سامراء، فجأة.. دق جرس الهاتف، فقام الزميل حامد حديد الذي كان يجلس إلى جواري بالرد عليه.

أفقت من استغراقي في مراجعة ما كتبت على وقع تساؤلات من حامد يطرحها على المتحدث من الطرف الآخر الذي فهمت مباشرة أنه مدير قناة الجزيرة وضاح خنفر الذي كان يتحدث من مقر القناة الرئيسي في الدوحة. أدركت من مسار المكالمة أن هناك شيئاً غير عادي يحدث في مدينة الفلوجة أو حولها، وحينما أنهى حامد مكالمته التفت إليَّ وقال: "وضاح يقول إن لديه معلومات تفيد بأن هناك قوات أمريكية بأعداد كبيرة قد طوقت مدينة الفلوجة وحاصرتها، وطلب مني تحري الأمر ومعرفة ماذا يدور هناك". قلت له: "إن الساعة قد جاوزت منتصف الليل، فكيف يتم معرفة ذلك؟"، قال:"سوف نتصل بمراسلنا في الفلوجة حسين دلي ونعرف ماذا يدور هناك". وقام حامد بالاتصال بالزميل حسين دلي مراسل الجزيرة المقيم في مدينة الفلوجة وأخذ يتحدث معه ويستفسر منه، وكان واضحاً من مسار المكالمة أن حسيناً لا يعرف شيئاً عما يدور خارج المدينة، وطلب من حامد أن يمهله قليلاً حتى يخرج من بيته ويدور في بعض الشوارع ويصل إلى أطراف المدينة حتى يرى

إذا ما كانت هناك أية تحركات غير عادية أو قوات أمريكية قريبة من مداخل المدينة.

وبعد ما يقرب من ساعة اتصل حسين وأخبرنا بعد جولة قام بها في أحياء المدينة وعلى أطرافها القريبة أن المدينة هادئة وليس هناك شيء غير عادي يدور داخلها أو على مخارجها القريبة يفيد بأنها قد تمت محاصرتها.

تداولنا في الأمر بعد ذلك، ووضعنا كافة الاحتمالات أمامنا وما الذي يتوجب علينا فعله لا سيما وأن الوضع كان متوتراً للغاية في الفلوجة بعدما قام رجال المقاومة في 31 مارس/آذار 2004 بالهجوم على سيارة تقل بعض المرتزقة الذين يعملون مع القوات الأمريكية وقتلوا أربعة منهم احترقت بهم سيارتهم بعد قتلهم، ثم قام عامة الناس بسحل بعض جثث المرتزقة في الشوارع، مما أعاد سيناريو الصومال مرة أخرى بعدما نقلت وكالات الأنباء الصور إلى كافة أنحاء العالم. وكان مراسل الجزيرة حسين دلي من بين الذين تمكنوا من التقاط صور مميَّزة لما حدث تمَّ بثُّها على شاشة قناة الجزيرة وعلى شاشات التلفزة العالمية، بعدها لم تتوقف تهديدات المسؤولين الأمريكيين وعلى رأسهم الرئيس بوش من أن هذا الحادث لن يمر دون الانتقام ممن قاموا به، وفي لحظات الترقب هذه جاءنا خبر تطويق القوات الأمريكية للمدينة ليل الأحد الرابع من أبريل/نيسان من العام 2004.

كانت ترتيباتنا في قناة الجزيرة لتغطية يوم التاسع من أبريل/نيسان 2004 والذي يصادف ذكرى مرور عام على الاحتلال الأمريكي للعراق هي تكوين أربع فرق تليفزيونية تتواجد في أربع مناطق رئيسية تغطي أنحاء العراق، على رأس كل فرقة أحد مقدمي الأخبار أو البرامج المميزين.

الفريق الأول يكون مقره في بغداد وعلى رأسه الزميل محمد كريشان، والفريق الثاني في أربيل شمال العراق وكان مقرراً أن يكون الزميل غسان بن جدو على رأسه، لكن مهمة هذا الفريق لم تتم ولم يأت غسان لأسباب لم أعرفها ولم أسأل عنها. أما الفريق الثالث فقد كان مقرراً أن يتواجد في كربلاء والنجف وأن يكون على رأسه الزميل عبد القادر عياض الذي رافقني من الدوحة وقام بتقديم بعض حلقات برنامج المشهد العراقي، لكن عبد القادر بقي بعد ذلك في

بغداد لمشاركة محمد كريشان في تقديم أحداث التاسع من أبريل/نيسان، أما الفريق الرابع فقد تقرر أن يكون مقره مدينة الفلوجة وكلفت أنا أحمد منصور أن أكون على رأسه، علاوة على ذلك كان لديَّ مهام أخرى عديدة، منها تقديم عدة حلقات من برنامجي بلا حدود مع بعض القادة العسكريين الذين عايشوا معركة بغداد الأخيرة في العام 2003 وتقديم جانب من الصورة الخفية لهذه الحرب وخفاياها. وقدمت حلقتين بالفعل من برنامج بلا حدود آنذاك مع خمسة من كبار العسكريين العراقيين الذين تيسَّر لي لقاؤهم أو الذين قبلوا الحديث معي حيث إن الأمر لم يكن سهلاً في ظل تجريم سلطات الاحتلال ومجلس الحكم آنذاك لمعظم العراقيين الذين عملوا مع النظام السابق. الأمر الآخر هو البحث عن ضيوف لبرنامجي الآخر "شاهد على العصر" من صناع القرار والمسؤولين العراقيين السابقين، لذلك حينما جلسنا في مكتب قناة الجزيرة نتداول في أمر الفلوجة بعدما أبلغنا وضاح خنفر بحصارها ليل الأحد الرابع من أبريل/نيسان انتهينا في نقاشنا الذي امتد إلى قرابة الثانية بعد منتصف الليل إلى أن أتحرك صباح الاثنين الخامس من أبريل/نيسان مع فريق العمل الذي كان من المقرر أن يصحبني يوم التاسع من أبريل/نيسان إلى الفلوجة، وأن ندخل إلى المدينة ونبقى بها إلى التاسع من أبريل/نيسان.

هكذا كان تصورنا، فالصورة لم تكن واضحة لدينا بعد، ولم نكن نعلم أن المدينة قد حوصرت من كافة الطرق والجوانب، حتى الطرق الفرعية أغلقتها القوات الأمريكية، ولم يعد هناك أي مجال للدخول، ولأن الإرهاق قد بلغ بي مبلغه وكذلك الزملاء الذين كانوا معي فقد قررنا أن نخلد إلى النوم ولو قليلاً حتى نتمكن في الصباح من القيام بمهمتنا الشاقة التي لم نكن نعلم أي شيء عن تفاصيلها.

ولكن قبل أن نبدأ طريقنا إلى الفلوجة لنتعرف أولاً عن وضع العراق قبل معركة الفلوجة الأولى وتحديداً بعد عام من الاحتلال الأمريكي؟

العراق بعد عام من الاحتلال

كنت أتجول بعد عام من الاحتلال الأمريكي للعراق، وتحديداً في الثاني من

أبريل/نيسان من العام 2004، في السوق القديم لمدينة سامراء - إحدى أقدم مدن العراق - حيث أحب دائماً أن أتجول في أسواق المدن القديمة رغم الأوضاع غير الآمنة التي كانت تعم العراق، ورغم أني كنت أحاول إخفاء ملامحي بوضع قبعة على رأسي ونظارة شمس سوداء على وجهي حتى أتحاشى فضول من يمكنهم التعرف عليَّ من خلال مشاهدتهم لبرامجي التليفزيونية، رغم كل ذلك اقترب مني فجأة عجوز عراقي وأمسك بيدي وقال لي وهو يتفرس في وجهي: "ألست أحمد منصور؟" قلت له وأنا أبتسم: نعم، قال بشكل مباشر: "أريدك أن تبلغ الناس بأن ما فعله الأمريكيون في العراق من خراب ودمار على مدار عام واحد من الاحتلال هو أكبر مما فعله صدام حسين على مدى خمسة وثلاثين عاماً، نحن لم نكن نحب صداماً، لكن الأمريكان أسوأ منه ألف مرة"، وظل الرجل يتحدث في هذا الإطار بضع دقائق فأنصت إليه أدباً ثم ودعته ومضيت.

وفي ذلك اليوم الذي نزلت فيه ضيفاً على الشيخ ناهض السامرائي التقيت مع كثير من أهل سامراء ووجهائها، وروى لي كثير منهم ما قامت به القوات الأمريكية في سامراء وما حولها طوال عام من الاحتلال مما سيأتي ذكره فيما بعد.

وفي اليوم التالي الثالث من أبريل/نيسان 2004 التقيت في بغداد الدكتور علي المشهداني رئيس رابطة خبراء النفط العراقيين حيث إنه كان أحد الضيوف الذين رتبت معهم أن يشتركوا معي في التغطية المزمعة من الفلوجة في التاسع من أبريل/نيسان، وقد سمعت منه نفس الكلام الذي قاله لى عجوز سامراء ولكن بلغة علمية وبأرقام وإحصاءات خبير في النفط والاقتصاد والمعلومات.

وكان خلاصة ما قاله لي الدكتور المشهداني آنذاك هو: "إن مجموع ما خسره العراق خلال عام واحد من الاحتلال الأمريكي بلغ 475 مليار دولار". فقلت له متسائلاً بتعجب: "هذا رقم ضخم للغاية فعلى أي أساس حسبته وقدرته يا سيدي؟"، قال: "لم أحسبه ولم أقدره وحدي، وإنما جلسنا مجموعة من الخبراء العراقيين في النفط والاقتصاد ووصلنا إلى هذه المحصلة الحقيقية من خلال ممتلكات ومخصصات الدولة، فالخسائر المالية لا تحسب على ما فقد أو ضاع ولكن لها حسابات أخرى، فقبل سقوط نظام صدام حسين كان 90% من

مدخول العراق النفطي يوجه إلى التسلح، والآن تم تدمير كافة ممتلكات الدولة من السلاح والمعدات والمصانع الحربية والمطارات والمنشآت.

فالطائرات العراقية الحربية وكان معظمها محفوظاً في المزارع وصالحاً للطيران تُقطع الآن بمناشير خاصة إلى أجزاء وتبيعها سلطات الاحتلال بالطن كحديد خردة، ويباع الطن بقيمة ثلاثين دولاراً فقط، وهذا يعني أن الطائرة التي كان ثمنها عدة ملايين من الدولارات اقتطعت من أموال الشعب العراقي ومقدراته تباع الآن كخردة للمقاولين بعدة مئات من الدولارات، وأن الدبابة تي 72 الصالحة للاستخدام والتي يزيد وزنها عن 40 طناً والتي كان ثمنها يزيد عن مليون دولار تباع الآن بحوالي ألف دولار بعدما يتم تقطيعها إلى أربع قطع بمناشير خاصة جلبها المقاولون ويتم شحنها إلى خارج العراق حيث تباع كخردة ولا أحد يسأل سلطات الاحتلال عما تفعل، لأنه ليس هناك سلطة لأحد كي يسأل. وقد قمنا بعمل دراسات معمقة لمقدرات العراق العسكرية من معدات حربية ومصانع ومؤسسات ومنشآت ومعسكرات فوجدناها تزيد على (250) مئتين وخمسين مليار دولار كلها خربت وضاعت، وأرجو ألا تنسى أن الجيش العراقي الذي أسس بعد العام 1921 قد أزيل الآن، بمعنى أنه لم تتم إزالة المقدرات العسكرية فقط للجيش العراقي ولكنه أزيل كقوة يزيد تاريخها عن ثمانين عاماً، وهذا أمر لا يقدر بثمن.

أما المبالغ التي صرفت من خزينة الدولة العراقية على إعداد الكوادر في كافة المجالات من مدنيين وعسكريين، وأقصد هؤلاء الذين تم منحهم بعثات في الخارج ودورات خاصة خلال الثلاثين عاماً الماضية فقد زادوا عن (250) مئتين وخمسين ألف شخص، تكلفة كل واحد منهم تزيد عن 500 ألف دولار كمخصصات ودورات تدريبية وسفرات وبعثات وغيرها، وبالتالي فإن مجموع ما أنفق على إعداد الكوادر المدنية والعسكرية خلال الثلاثين عاماً الماضية بلغ (125) مئة وخمسة وعشرين مليار دولار، وهذا ـ على حد قوله ـ رقم علمي دقيق.

ثالثاً: هناك خمسون مليار دولار من المخصصات التي حصل عليها النظام السابق من مشروع النفط مقابل الغذاء تم إنفاقها على شراء معدات مدنية خلال

سنوات الحصار، هذه المعدات كان معظمها في الصناديق، وبعضها رُكِّب ولم يكن قد تمّ تشغيله بعد، وبعضها كان قد تم تشغيله لفترة قصيرة، شحنها الاحتلال كلها ـ بمعرفة الكثيرين ومعظمها معدات جديدة ـ في أكثر من ألف شاحنة إلى خارج العراق ولا ندري كيف بيعت. وبعضها تم إهداؤه من الأمريكان إلى بعض حلفائهم ولا ندري من الذي منحهم حق التصرف في ممتلكات الشعب العراقي بهذا الشكل؟".

وأضاف المشهداني قائلاً: "هذا خلاف الدمار الذي حدث في جوانب كثيرة منها جانب الزراعة التي نقوم بإحصائها الآن. أما مؤسسات وآبار النفط فإنها تتعرض لأكبر عملية تدمير للمكامن النفطية. فالكوادر العراقية الخبيرة في النفط هربت للخارج بعدما أصبحت مهدَّدة بالاغتيال، بل إن هناك عمليات تصفية منظمة منذ بداية الاحتلال لكافة الكفاءات العراقية المتميزة ويومياً هناك اغتيالات وتصفيات تحت دعاوى مختلفة لكنها كلها تصب في تفريغ العراق من أبنائه المبدعين والإبقاء فقط على من لا تقوم الدولة على أكتافهم".

أصابني كلام الدكتور المشهداني بالصدمة، لأن مثل هذه الحقائق لا يعلم بها كثير من الناس، كما كان كثيرون لا يزالون ـ في ذلك الوقت ـ بعد عام من الاحتلال الأمريكي للعراق يتحدثون عن كارثة نهب المتحف العراقي، لكن يبدو أن ما تم بعد نهب المتحف أضخم وأكبر بكثير مما يمكن أن يتخيل. وقد قمت خلال ما يقرب من شهر قضيته في العراق بين مارس/آذار وأبريل/نيسان 2004 وقبيل معركة الفلوجة الأولى مباشرة بزيارة لكثير من المدن العراقية ووقفت على كثير من الحقائق المذهلة عما وقع للعراق خلال عام من الاحتلال، لكن الأرقام الدقيقة وهي اللغة التي عادة ما أتعامل بها لا يعرف بها الكثير من الناس، لأن الأرقام الحقيقية لدى طرفين هما سلطات الاحتلال والمقاولون الذين كانوا لا يزالون يقومون بتفكيك المصانع والمؤسسات ويفرغون المخازن من محتوياتها وشحنها كلها إلى خارج العراق، وكان باستطاعة أي متجول آنذاك على الطرق السريعة التي تربط العراق بدول الجوار أن يحصي الحجم الذي لا يُتخيل للشاحنات العملاقة التي كانت تحمل كل شيء، ولكن معظم ما كانت تحمله كان مغطى وغير ظاهر.

وأذكر أني في طريق عودتي من تكريت إلى بغداد في إحدى زياراتي المتكررة لها خلال النصف الثاني من مارس/آذار 2004، وجدت حادثاً على الطريق حيث كانت إحدى الشاحنات الضخمة مقلوبة، وكانت قوات من الشرطة العراقية وقوات أمريكية تطوّق المكان، فطلبت من السائق المرافق لي أن يتوقف حتى أعرف ماذا يجري، وأبرزت هويتي الصحفية، وطلبت من الشرطة العراقية أن يسمحوا لي بالوصول إلى موقع الشاحنة ومعرفة ما حدث، فتعرفوا عليَّ من خلال عملي التليفزيوني لكنهم أخبروني أن القوات الأمريكية طلبت منهم عدم السماح لأحد بالاقتراب، وحينما حاولت أن أتعرف منهم على طبيعة الحادث لم يقدموا لي أية معلومات ذات قيمة، فهم عادة لا يعرفون شيئاً والحادث وقع لشاحنة في قافلة كبيرة كانت تضم عشرات الشاحنات الأخرى التي كانت تحرسها القوات الأمريكية وكانت القافلة ضخمة للغاية. وبعد نقاشات مع الجنود العراقيين جاء أحد الضباط وتعرف عليَّ ثم سمح لي أن أتقدم وأن أقترب من الشاحنة حتى أعرف ماذا تحمل، فوجدتها تحمل قطعة ضخمة أبلغني الضابط العراقي أنها لأحد معامل تكرير النفط وتم تفكيكها من هناك. سألته إلى أين تذهب هذه؟ قال: لا أعرف. وحينما رآني أحد الجنود الأمريكيين أبرزت له هويتي الصحفية وقلت له: "أريد أن أعرف طبيعة الحادث وماذا تحمل الشاحنة وإلى أين هي متجهة؟" لم يجب على سؤالي ولكن طلب مني الابتعاد فوراً عن المكان ورفض الإدلاء بأية معلومات لي ومنعني من التصوير.

هذا الطريق هو نفسه الطريق الدولي الذي يربط بغداد أيضاً مع تركيا عبر الموصل، لكني حينما ذهبت إلى مدينة سامراء قلب ما يسمى بالمثلث السني، حيث توجد جزيرة بحيرة الثرثار التي كانت تقع بها المخازن الرئيسية للحكومة العراقية، والتي كانت تحوي كثيراً من مقدرات الدولة ومخزوناتها الاحتياطية في كافة المجالات العسكرية والمدنية، بدءاً من الغذاء وحتى العتاد العسكري، وقفت على معلومات أخرى مذهلة. فقد قدَّر لي بعض الخبراء العراقيين مساحة هذه المخازن بأنها تبلغ حوالي مليون هكتار من المباني، وكل هكتار كانت تبلغ مساحته 2500 متر، هذه المخازن الضخمة والرهيبة في مساحتها كانت ممتلئة بكل شيء، وقد وقعت بعد عدة أسابيع من الاحتلال تحت أيدي القوات الأمريكية بكل محتوياتها، وأبلغني أحد المسؤولين في مجلس الحكم في مدينة سامراء

آنذاك أن العراقيين فوجئوا بعد عدة أشهر من الاحتلال، بمقاولين أجانب وعراقيين ينقلون محتويات هذه المخازن التي هى بحاجة إلى أساطيل من سيارات النقل وعدة سنوات حتى يتم تفريغها من محتوياتها وشحنها، فاكتشفوا أن الأمريكان هم الذين يقومون بعملية البيع لمحتويات هذه المخازن وبشكل مخيف، وأن هؤلاء المقاولين لديهم عقود بيع وتفريغ لهذه المخازن التي تحوي مقدرات هائلة للعراقيين وبها كميات كبيرة من السلاح والعتاد والمعدات الحربية التي لم تستخدم بعد، كذلك يوجد بها مواد تموينية وأغذية ومعدات مدنية وصناعية وأجهزة كمبيوتر وكل ما يمكن أن تكون الدولة بحاجة إليه".

وأضاف بأن "المنطقة كان بها أيضاً منشأة صناعية ضخمة اسمها منشأة صلاح الدين، كان النظام السابق قد أقامها بترتيب مع الفرنسيين وكانت مجهَّزة بأجهزة كمبيوترية عملاقة تستطيع صنع معدات وأجهزة رقمية بما فيها أقمار اصطناعية مدنية ومعدات وأجهزة مصانع، وكانت هذه المنشأة جديدة ولم تفتتح رسمياً بعد، لكننا اكتشفنا مجيء مقاولين بشاحنات من أجل فك الأجهزة ونقلها، فأبلغنا الشرطة العراقية والمحافظ وجاءت قوات من الشرطة لوقف هذه العملية التخريبية الكبرى لكن أحداً، حتى المحافظ، لم يستطع أن يمنع عملية التفكيك والنقل لهذه المنشأة العملاقة واكتشفنا أن هؤلاء المقاولين معهم عقد بيع من القوات الأمريكية وأن الموقِّع لهم على عقد البيع من الطرف الأمريكي هو جندي أمريكي برتبة عريف، وأؤكد لك وكلّي خجل أن قوة العريف الأمريكي الآن هي أقوى من سلطة المحافظ العراقي بل أقوى من أي عضو في مجلس الحكم حتى لو كان رئيس مجلس الحكم نفسه".

وأضاف قائلاً: "وأنا منذ عام أي منذ وقوع الاحتلال وأنا أسعى مع كثير من العراقيين المخلصين للحفاظ على ما تبقى من ثروة أمتنا لكننا فشلنا حتى الآن وثروة بلادنا تفكك وتباع، بل وبعضها يهدى لمن وقفوا مع المحتل ممن يُسمّون بالحلفاء ونحن عاجزون عن حمايتها، وأؤكد لك أن متحف بغداد لم يحرق ولم يذهب وحده ولكن ما تم خلال عام واحد من الاحتلال من تدمير مقدرات الدولة وسرقتها أكثر فظاعة مما شاهده الناس على شاشات التلفزة خلال فترة الحرب، وكل ما يتم الترويج له الآن هو تغطية على عمليات النهب المنظم لما

تبقى من ممتلكات ومؤسسات الدولة ومخازنها وثرواتها والتي يمكن أن تستمر لسنوات أخرى قادمة، ولا أحد يتكلم، لأن لا أحد يعلم حقيقة ما يدور، ولا أحد يسمع لنا فالكل مصاب والكل يتألم إما بمفقود أو معتقل. أما مقدرات الدولة وثروة الشعب العراقي من معدات لتصنيع الأقمار الاصطناعية وثروات أخرى فإنها تباع في المزاد ويوقع على عقد البيع جندي أمريكي.. هذا ما يحدث الآن في العراق بعد عام من الاحتلال".

انتشار البطالة والفقر

الحديث عن البطالة في العراق بعد عام واحد فقط من الاحتلال يعتبر شيئاً مريعاً، فهناك جيش كان يزيد عدد المنتسبين والمحترفين فيه عن نصف مليون جندي، وهناك دولة كان يعمل بها من الموظفين ما يزيد على سبعة ملايين شخص، أصبح معظمهم بل كلهم عاطلين عن العمل، وقد التقيت في بغداد آنذاك ضباطاً وموظفين كباراً سابقين كانوا يعيشون حالة مأساوية، فبعضهم كان يعمل سائقاً وآخرون يبيعون أشياء بسيطة في الشوارع حتى يعولوا أسرهم، حتى إن أحدهم قال لي وهو يطرق بوجهه: "لديّ خمس بنات بعضهن في الجامعات يا سيدي وأنا كنت برتبة لواء ركن وكنت أعمل أستاذاً في كلية الحرب العليا أعلى أكاديمية عسكرية في العراق، ومعي ثلاث شهادات للدكتوراه في العلوم العسكرية لكني الآن بلا عمل فمن أين أطعم أولادي وكيف أعيش؟".

وفى محافظة صلاح الدين التي تقع بها مدينة تكريت التي كان ينتسب لها الرئيس السابق صدام حسين، كان أغلب الناس الذين التقيت بهم ينتسبون للجيش والأمن الخاص والحرس الجمهوري أو موظفين عامين في الدولة، وهذا يعني أن الوظيفة سواء كانت عسكرية أو مدنية كانت هي مورد رزقهم الأساسي، وجدت بعضهم يعمل بائعاً في الأسواق وبعضهم عاد يعمل في الفلاحة ممن كان لديهم أراض زراعية، لكن الأغلبية ليس لها عمل وتشكو الفاقة.

أما المؤسسات التابعة للإدارات المحلية فكلها تعيش حالة من الفوضى، ومن يذهب للعمل في الشرطة أو الدفاع الوطني بشكل عام في العراق فإنهم يوصفون بأنهم يعملون مع سلطات الاحتلال وبالتالي فهم إما أن يكونوا هدفاً

لرجال المقاومة أو ينظر إليهم باحتقار من الناس، لكن في النهاية كما انتسب لحزب البعث سبعة ملايين معظمهم للبحث عن وظيفة فقد فعلت سلطات الاحتلال نفس الشيء ولكن في ظل فوضى عارمة.

ولم يكن هذا في بغداد وحدها أو المدن الكبرى، ولكنه كان شاملاً لكل مدن العراق وربما لم ينج منه إلا هؤلاء الذين كانوا يعملون في التجارة أو الزراعة من قبل، وقد رأيت أحد القادة العسكريين حينما زرته في قريته التي تبعد عن بغداد حوالى مئتي كيلو متر يعمل بالفلاحة في مزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، وحينما وصلت إلى بيته طلبوا مني أن أنتظر حتى ينادوه من المزرعة، فجاء الرجل مهرولاً ثم قال لي والحرج يعلوه - حيث ذهبت إليه دون موعد لعدم وجود هاتف لديه - وهو يستقبلني بجلبابه ويديه المتسختين بالطين حيث كان يروي مزرعته بيديه: "آسف سأغسل يدي ثم أعود إليك". وبعدما عاد قال لي وهو يطرق بنظره للأرض حرجاً مني: "لم أجد شيئاً بعدما دمر جيشنا واحتلت بلادنا إلا ما تركه لي أبي من قطعة أرض صغيرة فعدت إليها وأعمل فلاحاً الآن حتى أوفر لعائلتي ما يمكن أن تعيش به". قلت له: "لا عليك إن ما تقوم به هو أشرف ما يمكن أن يقوم به الإنسان".

فوضى الصحافة

حينما كنت أذهب إلى العراق قبل احتلاله من قبل القوات الأمريكية في أبريل/ نيسان من العام 2003، أي حينما كان يحكمه صدام حسين، كنت لا أجد سوى الصحف الحزبية والرسمية التي بقيت طيلة خمسة وعشرين عاماً تضع صور الرئيس السابق في صدر صفحاتها الأولى وتتحدث عن إنجازاته وتكاد وأنت تقرؤها تشعر أنك تعيش في عصر خاص هو عصر صدام حسين. وفي كل زيارة كنت أشعر أن هذه نفس الصحف التي قرأتها في الزيارة الماضية، لكني كنت أدقق في التاريخ فأجده تاريخ اليوم الذي أنا فيه وليس تاريخ الزيارة السابقة.

أما في بغداد وبعد عام من الاحتلال فقد كنت أجلس كل صباح على كومة من الصحف العراقية، لكن ما كنت أستطيع قراءته من هذه الكومة من الصحف

كان لا يزيد عن صحيفتين إلى ثلاثة، أما النسيج الباقي من الصحف فهو يبدأ من صحف تعبِّر عن آراء أحزاب أو سياسيين سابقين أو ما يطلق عليهم العراقيون عملاء لأنظمة ودول مختلفة أو عائلات أو أفراد أو صحف فضائح تنشر قصصاً مختلقة لا أصل لها، أو قصصاً أخرى نشرت قبل سنوات في الصحف العربية فأعادوا صياغتها وإخراجها بأسلوب فضائحي ركيك ورخيص. أما باقي الصحف ـ نقلاً عن أحد أعضاء مجلس إدارة جمعية الصحفيين العراقية ـ فقد زادت في بغداد وحدها خلال عام واحد من الاحتلال عن مئتين وثلاثين صحيفة بعضها لم يصدر منه سوى عدد واحد، وبعض الجهات والأفراد يصدرون أكثر من صحيفة، الكثير منها أو أغلبها كان يوزَّع مجاناً في الشوارع وعلى المكاتب والفنادق. ومن المناظر التي كانت مألوفة في بغداد صباحاً أن تجد عراقياً يحمل تحت إبطه كمية من الصحف ويمشي يوزِّع منها على من يعرف، وكثير منها على من لا يعرف. والغريب أن بعض هذه الصحف ربما لم يكن يقرؤها سوى الذين يكتبون فيها. وأذكر أني قرأت في إحداها قصة عن طلاق إحدى الممثلات أذكر أني قرأت نفس القصة قبل عدة سنوات في الصحف المصرية حتى إن هذه الممثلة ربما تزوجت وطلقت عدة مرات بعد هذه القصة، لكنها هنا برواية عراقية جديدة مليئة بالفبركة والتدليس. إنها الفوضى العارمة والفبركة التي تطال كل شيء. هذا في بغداد، أما في المحافظات والمدن الأخرى فقد كان يصدر ويوزع بها مئات الصحف الأخرى.

وقد كشفت الفضيحة التي فجرتها صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية في ديسمبر/كانون الأول من العام 2005 جانباً من طبيعة العمل الذي تقوم به بعض تلك الصحف، وكذلك مصادر تمويل كثير منها، وكذلك كُتّابها الذين فتحت أمريكا المجال لهم. وقد جاء الكشف عن هذه الفضيحة في موسم الفضائح الذي أخذ يلاحق إدارة بوش بعد إخفاقها في تحقيق أي من أهدافها في العراق، حتى إن أياً من هذه الفضائح كان كافياً من قبل لدفع الرئيس إلى الاستقالة، لكن إدارة بوش دائماً كان لها مبرراتها لكل ما تفعله في العراق حتى لو كان انتهاك الأسس التي قامت عليها الدولة الأمريكية.

وكانت فضيحة شراء ذمم الصحفيين والصحف في العراق ونشر مقالات تروجها الاستخبارات الأمريكية بأسماء كُتّاب عراقيين في الصحف العراقية التي

تدفع أمريكا لها واحدة من تلك الفضائح التي يمكن أن تدمر سمعة أي نظام سياسي، لكن المفاجأة كانت في الفتوى التي صدرت عن كبار المسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية والتي نشرت في 30 ديسمبر/كانون الأول 2005 وهي أن "الدفع للصحفيين الذين يروِّجون للإدارة الأمريكية في مناطق مختلفة من العالم ليس مخالفاً للقانون"، بل إن كبير محققي وزارة الدفاع الأمريكية زاد على ذلك بقوله: "إن ما حدث كان متماشياً مع القوانين الأمريكية".

وكانت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية قد فجرت الفضيحة في ديسمبر/كانون الأول 2005 حينما أشارت إلى أن عدد المقالات التي كتبها الجنود الأمريكيون ونشرت في الصحف العراقية بأسماء كُتّاب عراقيين بلغت ألف مقالة، وبلغ ثمن نشر المقالة الواحدة ألفاً وخمس مئة دولار أمريكي.

وقد كشفت هذه الفضيحة أن ما حدث في العراق لم يكن سوى امتداد لما حدث في البلقان وأفغانستان ومناطق أخرى ساخنة من العالم، وأن مئات الملايين من الدولارات أنفقتها الولايات المتحدة عبر شركات متخصصة في الدعاية والفبركة الدعائية، وعبر وزارة الدفاع للمساهمة في العمليات التي كانت تقوم بها في تلك المناطق من أجل المساهمة في عملية تضليل إعلامي كبيرة تساعد على تنفيذ المخططات الأمريكية. ويتم ذلك بوسائل كثيرة منها شبكة الإنترنت ومحطات الراديو والتلفزيون والصحافة عبر شراء ذمم وأسماء صحفيين من أبناء هذه البلاد، بحيث يكون الأمريكيون بعيدون عن الأنظار لكنهم في الحقيقة يحركون كل شيء سواء بشكل مباشر أو عبر مسؤولين رسميين أو عبر شركات دعاية أمريكية يترأسها ضباط استخبارات سابقين.

ومن أشهر شركات الدعاية هذه "مجموعة ريندون" و"مجموعة لينكولن" و"المعهد الديمقراطي الوطني" و"المعهد الجمهوري الدولي"، هذا خلاف ما تقوم به وحدة العمليات السيكولوجية المتمركزة في قاعدة فورث براغ والتي يعمل بها 1200 عسكري أمريكي وتقوم على حد زعمهم بإعداد "الرسائل الصادقة لدعم أهداف الحكومة الأمريكية"، والتي هي في الحقيقة رسائل تضليل وأكاذيب لا فائدة منها كما يقول موظف سابق فى "مجموعة لينكولن"، وكان كثير من الصحف الجديدة التي ظهرت في بعض الدول العربية ومنها مصر

والأردن ولبنان ودول عربية أخرى قد أحاطت بها كثير من علامات الاستفهام على اعتبار أنها جزء من المشروع الأمريكي الإعلامي في المنطقة، فلم يعد كافياً أن يكون صحفي هنا وآخر هناك أو مقالة هنا وأخرى هناك، وإنما صحف كاملة تخدم المشروع وتفتح باب الكتابة لشخصيات معروفة يثق فيها الناس، وأخرى كما يقول وليم روبنسون البروفيسور في جامعة كاليفورنيا تكون:"مذعنة سلسة الانقياد لأبعد الحدود، وتدرك طبيعة الهدف من المشروع وتروِّج له". وقد نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" نقلاً عن مسؤول في وحدة العمليات السيكولوجية في البنتاغون قوله: "لا نريد أن يشعر أحد بمن يقف وراء ما ينشر حيث إن التعاقد يتم مع كُتّاب يعملون في تلك الصحف".

وقد كشفت هذه الفضيحة بعض أسرار هذا الكم الهائل من الصحف المنتشرة في العراق وما كتب ويكتب فيها من موضوعات مليئة بالتضليل والأكاذيب.

الأحزاب السياسية

مع الفوضى العارمة في كافة مجالات الحياة كانت هناك أيضاً فوضى في تأسيس ووجود الأحزاب السياسية في العراق، حيث بلغ عدد الأحزاب التي أعلن عن تأسيسها في بغداد خلال عام من الاحتلال أكثر من مئتي حزب سياسي؛ بل إن أحد السياسيين العراقيين أكد لي أن عددهم وصل في بداية أبريل/نيسان 2004 إلى 237 حزباً، هذا خلاف الأحزاب الصغيرة في المحافظات والمدن حيث لم يتم عمل أي إحصاء رسمي لها حتى الآن، وهى تقدر بالمئات، وقد سارعت هذه الأحزاب بعد سقوط النظام إلى السيطرة على مقرات حزب البعث ومؤسسات الدولة السابقة، وحتى دور السينما والحانات وبيوت كبار الموظفين والمجمعات السكنية الحكومية والعسكرية واتخذتها مقاراً لها. وقد شاهد الجميع على شاشات التلفزة في 29 مارس/آذار 2004 صور عراك بالأيدي بين منتسبي حزب "جماعة ثأر الله" أحد الأحزاب الشيعية الصغيرة في مدينة البصرة وبين القوات البريطانية التي طالبتهم بإخلاء مبنى عام سيطروا عليه واتخذوه مقراً لحزبهم بعد الاحتلال، وكان قبل ذلك مقراً لـ"اتحاد النساء العراقيات" في البصرة.

والغريب أن هؤلاء كانوا يطالبون بتملك هذه المباني التي هي ممتلكات الدولة في الأصل، كما أن بيوت مسؤولي النظام السابقين أيضاً تحولت إلى مقار للأحزاب أو إلى مساكن للمسؤولين الجدد الذين لم يتحرجوا بل سارعوا للاستيلاء على مساكن الذين ظلموا أنفسهم من رجال النظام السابق، وذلك بأسلوب عبثي فوضوي غريب.

وأكثر الأمور إضحاكاً في هذا المجال هو أني علمت أثناء وجودي في بغداد في مارس/آذار 2004 أن مبنى الإذاعة والتلفزيون محتل من قبل عشرات العائلات العراقية، فسألت: وكيف حال الإستديوهات؟ فقالوا: إن كل استوديو كبير سيطرت عليه عدة عائلات. لكن المضحك في الأمر أن هؤلاء يطالبون بتمليكهم المبنى على اعتبار أنه من مخلفات النظام السابق وليس من ممتلكات الدولة.

وحينما ذهبت لزيارة عضو مجلس الحكم الانتقالي صلاح الدين محمد بهاء الدين لترتيب حلقة تليفزيونية لي معه في برنامجي "بلا حدود"، وجدته يقيم في مجمع الوزراء في منطقة القادسية في قلب بغداد، ويحيط بالمبنى سور إسمنتي يصل ارتفاعه إلى حوالي أربعة أمتار أشبه ما يكون بالسور الذي أقامه شارون في الضفة الغربية، لكن سور القادسية كانت عليه حراسة أمريكية بالدبابات، وجنود عراقيون من الدفاع المدني خوفاً من عمليات التفجير التي أصبحت تهدِّد كل الأماكن التي تقيم فيها قوات احتلال أو مقرات للسلطة المؤقتة، ومثل هذه الأسوار الخرسانية انتشرت حول كل المباني والفنادق التي تستخدمها سلطات الاحتلال، فالمكان الذي كان يسكنه قادة البعث والسلطة السابقة أصبح للسلطة الجديدة الموالية للاحتلال.

فوضى الاغتيالات

"اغتيال ضابط سابق في وزارة الداخلية وإصابة ابنته"، "اغتيال قائد شرطة المحمودية"، "سيارة مفخخة تستهدف محافظ ديالى"، "مجهولون يختطفون الدكتور وليد الخال"،"مقتل طبيب في عيادته"، هذ ما كنت أنام وأستيقظ عليه في العراق أثناء تجولي في مدنها المختلفة خلال شهري مارس/آذار وأبريل/نيسان من العام 2004، حوادث قتل وخطف وسيارات مفخخة، وطلقات نارية

وانفجارات قذائف وصورايخ ولا أحد يشعر بالأمن كما قال لي أحد السياسيين العراقيين حتى بول بريمر الحاكم المدني العراقي نفسه آنذاك كما قال في مذكراته - التي نشرت طبعتها العربية دار الكتاب العربي في بيروت في العام 2006 - تعرض لعدة محاولات اغتيال قال إنها بلغت خمساً حتى ذلك الوقت لكن بنهاية فترته بلغت سبع محاولات، وحتى قائد القيادة العسكرية الأمريكية الوسطى الجنرال جون أبي زيد نجا هو الآخر من هجوم صاروخي شنّه رجال المقاومة على رتل عسكري كبير كان فيه أثناء توجهه إلى مدينة الفلوجة في 12 فبراير/شباط 2004. وأكد الجنرال مارك كيميت نائب قائد العمليات العسكرية في مؤتمر صحفي عقده في بغداد مساء نفس اليوم: "أن الجنرال أبي زيد كان يزور مجمعاً لفرقة الدفاع المدني العراقية في محلة الفلوجة عندما أطلقت ثلاث قذائف صاروخية على قافلته من فوق أسطح مبان قريبة".

فإذا كان هذا هو حال الحاكم المدني الأمريكي وحال قائد القيادة المركزية الأمريكية اللذين كانا يتحصنان وراء جدر وسط عشرات الآلاف من الجنود، فكيف هي حال المواطنين العراقيين البسطاء العاديين؟ ورغم أن مسؤولية الأمن هي مسؤولية الاحتلال لكن في ظل تصريحات لوزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد التي رددها أكثر من مرة قائلاً: إن "أمن العراقيين هو مسؤولية العراقيين أنفسهم وليس مسؤولية سلطات الاحتلال" فإن هذا أمر يخالف - دون شك - كل القوانين الدولية.

وقد أدت هذه الفوضى الأمنية إلى قيام عصابات مسلحة منظمة تقوم بخطف الميسورين من الناس وطلب فدية لقاء الإفراج عنهم، وقامت عصابات أخرى بعمليات سطو مسلح، وقامت جماعات مسلحة بتصفية شخصيات من جماعات أخرى.

وقد أبلغني الدكتور حارث الضاري الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في العراق في لقاء أجريته معه في بغداد في شهر مارس/آذار من العام 2004 أن: "عدد علماء الدين الذين تم تصفيتهم من أهل السنة خلال شهر واحد فقط زاد عن خمسين عالماً منهم شقيقه" الذي كان كما قال: "إنساناً وادعاً ومسالماً وأحد أشهر العلماء السنة في بغداد"، وأضاف بأن "هناك قوائم أصدرتها بعض

الجهات بتصفية البعثيين وهي في الأصل تستهدف تصفية الخبراء والعلماء والأكاديميين البارزين من أهل السنة وتصفية العراق من أبنائه الخبراء في كافة مجالات الحياة تحت دعوى أنهم بعثيون، وما يحدث هو خطير ويتجاوز كل الأعراف".

صناعة الكراهية لقوات الاحتلال

حينما ذهبت إلى مدينة الفلوجة يوم الخميس الأول من أبريل/نيسان 2004، أي بعد يوم واحد من عملية قتل أربعة من المرتزقة الأمريكيين في 31 مارس/آذار تابعين لشركة "بلاك ووتر" ويعملون حراساً أمنيين لصالح الجيش الأمريكي، حيث تم سحل جثث بعضهم في الشوارع من قبل عامة الناس بعد حرق جثثهم والسيارات التي كانت تقلّهم - كان السؤال الذي يشغلني هو لماذا فعل الناس هذا العمل في الفلوجة؟ لماذا لم يكتفوا بقتل الأمريكيين بل قام العامة منهم والأطفال بسحل ما تبقى من جثثهم في الشوارع وتعليق أجزاء منها على أحد الكباري؟ وقد أخبرني بعض الوجهاء والحكماء في المدينة حينما التقيت بعدد منهم في هذه الزيارة:"إننا لا نقبل ما تم من قبل العامة وليست المقاومة مسؤولة عن هذا، فقد قام رجال المقاومة بعمل كمين للمرتزقة وهذا حقهم الذي كفلته كل القوانين والشرائع الدولية بمقاومة سلطات الاحتلال ثم انسحبوا من الموقع، لكن الأمريكيين صنعوا في نفوس عموم العراقيين من خلال ممارساتهم اليومية كمّاً من الكراهية لهم لا يوصف، وهذه الكراهية هي التي ولدت رد الفعل هذا لدى عموم الناس".

وانبرى أحد شيوخ العشائر من بين الحضور الذين تجمعوا للقائي وقال لي: "نحن أهل عشائر وأهل تقاليد كنا في عهد صدام حسين رغم كل طغيانه وجبروته لا يلقى القبض على أحدنا من قبل مخابراته إلا ويأتي مع قوات المخابرات مختار المنطقة وبعض أفراد الشرطة من المدينة ويستأذنوا بداية قبل الدخول، فنقوم بترتيب البيت وإيقاظ الأطفال أو تجميعهم في غرفة واحدة ثم يقوم النساء بتغطية أنفسهن والبقاء مع الأطفال ثم يقومون بالتفتيش دون أن يمسوا طفلاً أو امرأة، أما الآن فإننا نجد الجنود الأمريكيين بأسلحتهم على

رؤوسنا ونحن في غرف نومنا بين نسائنا، ثم يأخذوننا بعد أن يروعوا أبناءنا وأطفالنا - والناس شاهدوا هذا المنظر يتكرر على شاشات التلفزة بالليل والنهار - يأخذوننا بعد ذلك فيضعون أكياساً في رؤوسنا ويهينوننا ونحن شيوخ عشائر أمام الصغير والكبير والنساء والأطفال، كما أنهم يعتقلون نساءنا في بعض الأحيان فلا نستطيع بعد ذلك أن نرفع رؤوسنا في وجه أحد. وسبق أن دخلوا بيوت المدينة بيتاً بيتاً وفتشوها وانتهكوا حرماتها ولم يجدوا دليلاً ضد أحد، كما أن كثيراً من الأسر قد تضررت واعتقل المئات من الناس وقتل كثيرون وبالتالي فلم يعد هناك بيت ليس له ثأر من نوع ما مع الأمريكيين، إنهم يصنعون الكراهية في نفوس الكبير والصغير من أهل العراق منذ عام كامل فما الذي تتوقعه من عامة الناس؟".

وحينما ذهبت إلى مدينة سامراء في الثاني من أبريل/نيسان كان نقاش الناس يدور حول ثمان مئة معتقل لدى القوات الأمريكية من أهل المدينة، وكانوا يعدون لمؤتمر في المدينة للمطالبة بالإفراج عنهم، وحينما ذهبت إلى تكريت حيث مسقط رأس صدام حسين وجدت صورة مشابهة، وحينما ذهبت إلى الرمادي وجدت ذلك، وحينما ذهبت إلى مدن أخرى منها بلد وبعقوبة والمقدادية وغيرها من مدن محافظة ديالى وجدت صوراً شبه متكررة لأساليب الأمريكيين المختلفة في صناعة الكراهية ضدهم من الجميع.

وبعد عام من صناعة الكراهية ومن سلطة احتلال حتى لو كانت تمتلك أحدث الأسلحة ووسائل التكنولوجيا فإن شعباً عصياً مثل شعب العراق يلقي على القوات الأمريكية ثمار صناعة الكراهية بوسائل مختلفة، منها ما حدث في الفلوجة حيث أكَّد لي كثيرون أن مثله تكرر في مدن أخرى، لكن الفارق بين ما حدث في الفلوجة وما حدث في غيرها أن وسائل الإعلام كانت في الفلوجة فصوَّرت ما حدث وبُثَّ في أنحاء العالم لكنها لم تتواجد في المدن الأخرى حينما وقع فيها ضد قوات الاحتلال مثلما وقع في الفلوجة وربما أكثر.

مجلس الحكم

أسس الأمريكيون مجلس الحكم الانتقالي بعد احتلالهم للعراق من خمسة

وعشرين من العراقيين يمثلون الأطياف المختلفة لمعظم العراقيين، فكان هذا أول ترسيخ للطائفية في العراق منذ مئات السنين، علاوة على ذلك فإن الكثير من أعضاء مجلس الحكم لا جذور لهم ولا شعبية، لا سيما هؤلاء الذين جاؤوا من الخارج محمولين على ظهور الدبابات والطائرات الأمريكية، لكن مجلس الحكم بعد عام من الاحتلال لم يكن في الحقيقة يمارس أي سلطة أو حكم، فالمقربون منهم من الأمريكيين هم المحظيون.

أما الآخرون ـ كما قال لي أحد أعضاء مجلس الحكم ـ فلا يكادون حتى يحظون بمقابلة المسؤولين الأمريكيين، وضرب لي مثالاً على أن أحد أعضاء مجلس الحكم وهو محسن عبد الحميد الذي كان رئيساً للحزب الإسلامي حينما أصبح رئيساً للمجلس، طلب لقاء الميجور جنرال ريكاردو سانشيز القائد العام لقوات الائتلاف في العراق آنذاك لأخذ موافقته على زيارة سجن أبو غريب، أكبر السجون التي يُحتجز فيها عراقيون للاطلاع على أوضاعهم بعد ضغوط من أسر المعتقلين لا سيما وأن عمليات الاعتقال تتم بشكل عشوائي، وكثير منهم يُعتقلون بسبب وشايات من أعداء لهم. أعطى الجنرال سانشيز موعداً لرئيس مجلس الحكم بعد أسبوعين وحينما التقاه لم يسمح له سانشيز بزيارة السجن.

وقد اعترف المفوض العام للسجون العراقية روبرت جونز أحد نواب الحاكم المدني آنذاك بول بريمر في مؤتمر صحفي عقده في منتصف مارس/آذار 2004 في بغداد أن عدد المعتقلين العراقيين في سجون سلطات التحالف هو اثنا عشر ألف معتقل. وقد روى لي أحد المعتقلين السابقين صوراً مذهلة لما يدور في سجون قوات الاحتلال والتي لا يُسمح لأحد بدخولها، حيث إن وزنه انخفض أربعين كيلو غراماً خلال سبعة أشهر من الاعتقال، حتى إن أهله لم يتعرفوا عليه بعدما خرج. ويدور الأهالي على السجون ليعرفوا مجرد معرفة أين يُحتجز أبناؤهم؟ والشاهد في الموضوع هو حجم الصلاحية التي لا يتمتع بها أحد حتى رؤساء مجلس الحكم، فالسلطة كل السلطة بعد عام من الاحتلال هي لقوات الاحتلال وليس لأحد آخر، وهذه المجالس ليست سوى مجالس شكلية ساهم المشاركون فيها في تدعيم سلطات الاحتلال وترسيخ أركانه، ويكفي أن يبقى

رئيس المجلس أسبوعين على باب الجنرال سانشيز حتى يؤذن له بالدخول ثم يرفض طلبه ليس بالإفراج عن المعتقلين ولكن حتى بزيارتهم.

وخير دليل على ذلك هو أن عمر هذا المجلس لم يدم سوى أيام بعد عام من الاحتلال، فربما لم يمض أكثر من شهر على انتهاء مهمته حتى أصبح معظم أعضائه في طي النسيان بعدما انتهت مهمتهم التي كانت أولاً وأخيراً من أجل خدمة الاحتلال. فمن بين خمسة وعشرين عينتهم سلطات الاحتلال الأمريكي كأعضاء في مجلس الحكم، قتل اثنان هما عقيلة الهاشمي وعزالدين سليم، وتم اختيار أربعة فقط في الحكومة البديلة له التي اختير إياد علاوي لرئاستها والتي لم تكن في رأي كثير من المراقبين سوى وجه آخر له، أما الباقون فإما أنهم زعماء أحزاب مثل أحمد الجلبي، وصلاح الدين بهاء الدين، ومحسن عبد الحميد وغيرهم ممن عادوا إلى أحزابهم فيما حل محلهم في الحكومة آخرون من رجالهم، أما الباقون فقد عادوا أدراجهم مرة أخرى من حيث أتوا قبل احتلال العراق حينما كانوا معارضين منفيين في عهد صدام حسين، لأنهم باختصار ليس لهم أية أرضية أو شعبية، ولم ينجحوا طوال عام من العمل مع سلطات الاحتلال في صناعتها بحيث يأمن أحدهم على نفسه لو بقي. بل ربما خسروا ما كان لهم من رصيد من قبل، إن كان لهم رصيد في الأصل.

فعلى سبيل المثال قال سمير الصميدعي أحد أعضاء هذا المجلس ووزير الداخلية السابق كذلك والذي كان يعيش في لندن قبل أن يعينه الأمريكيون في المنصبين: "لقد كانت لي حياة قبل أن آتي إلى بغداد، وأريد العودة لمواصلة تلك الحياة". هكذا باختصار دون أي رتوش، أما ما كان قد ذكره من قبل أنه جاء من أجل العراق وشعب العراق ومستقبل العراق فلم تكن كلها سوى تصريحات لضرورات المنصب والمرحلة، والأمر تم اختزاله في بدايته ونهايته كما يشير التصريح إلى مشروع شخصي.

أما محمد بحر العلوم الذي كان يشاهد دائماً وهو ينحني لبول بريمر الحاكم الأمريكي للعراق، في ذهابه وإيابه فقد ذكر أحد المساعدين المقربين منه أن "الجو حار الآن في العراق وقد حلَّ الصيف وربما يغادر لقضاء إجازة". ومن المعروف أن بحر العلوم كان يعيش في لندن مثله مثل كثيرين من أعضاء مجلس

الحكم الذين عادوا إلى لندن مرة أخرى بعد انتهاء مهمتهم، ومنهم محمود عثمان الذي هاجم الأمريكيين بشدة بعد اختيارهم الحكومة الجديدة - حكومة علاوي - دون أن يكون له منصب فيها.

أما عدنان الباجه جي الذي كان المنافس الأقوى على منصب رئيس الدولة فإنه آثر بعد اختيار الياور وضياع المنصب الذي وعد به، أن يعود إلى إحدى دول الخليج حيث كان يعيش لسنوات طويلة قبل أن يؤتى به ليكون عضواً من أعضاء مجلس الحكم.

أما البيوت التي كان يعيش فيها هؤلاء والتي تقع في حي القادسية في بغداد حيث كانت مقراً أو سكناً لوزراء صدام حسين فحينما ذهبت إليها لزيارة أحد أعضاء مجلس الحكم السابقين فيها وهو صلاح الدين بهاء الدين كما أشرت من قبل فقد وجدتها عبارة عن سجن كبير، بني حوله سور خرساني بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر، وعليه حراسة مشددة مشتركة من قوات الشرطة العراقية وقوات كردية وأمريكية حيث للأمريكيين القرار الأول والأخير دائماً، فالجندي الأمريكي هو الذي يأمر ويقف مشرفاً بينما العراقي هو الذي يقوم بعملية التفتيش التي يأمر بها الأمريكي. وقد خضعت لتفتيش دقيق من الجنود العراقيين الذين تعرفوا عليَّ واعتذروا لي عن دقة التفتيش بسبب وجود ضباط أمريكيين يراقبون الموقف، غير أني لا أحفل كثيراً بما يجري من حولي في مثل هذه المواقف وأحاول أن أكون في أبرد الحالات وأتابع ما يحدث على أني مشاهد له، وقد تعمدت أن أسأل مرافقي عن سكان المجمع فوجدت معظمهم ممن جاؤوا من الخارج من وراء البحار ليشاركوا الأمريكيين حكم العراق، تماماً كما فعل الأمريكيون في فييتنام وكما حاولوا أن يفعلوا في معظم البلاد التي احتلوها، وكثير ممن جاءت بهم أمريكا على ظهور دباباتها أو طائراتها إما عادوا بعد انتهاء مهمتهم أو في طريقهم إلى العودة من حيث أتوا حينما تنتهي مهمتهم لو كانت لهم مشاركات بأشكال أخرى من صنائع الاحتلال. وكثير من هؤلاء كانوا قد فرشوا مساكنهم في المجمع الذي أعده لهم الأمريكان بفرش مستورد - لأنها كانت قد نهبت في أعقاب سقوط نظام صدام حسين - معتقدين أنهم جاؤوا ليحكموا ولسنوات طويلة ولم يدركوا أنهم أداة لمرحلة.

أما الأعضاء الذين تم اختيارهم من داخل العراق والذين كانت مواكبهم تجوب شوارع بغداد فقد زالت عنهم كل المظاهر المزيفة وعادوا إلى بيوتهم وحياتهم العادية يخشون من الانتقام منهم حيث استُهدِف عدد منهم في محاولات اغتيال سابقة، لكن الأكثر تضرراً هم هؤلاء الذين كانوا يستفيدون من تلك المظاهر من سائقين ومرافقين حيث كانت لهم رواتب ومخصصات عالية.

ورغم انتهاء دور مجلس الحكم في بدايات العام الثاني للاحتلال لكن دور رجال أمريكا لم ينته حيث استبدل مجلس الحكم ـ كما يقول المراقبون ـ بالوزارة الجديدة التي عين إياد علاوي على رأسها، وهو الذي وصفته الصحف الأمريكية مثل "نيويورك تايمز" وغيرها نقلاً عن مسؤولين سابقين في السي آي إيه بأنه "كان جاسوساً للسي آي إيه"، وربما هذا ما دفع إمام مسجد أبي حنيفة أكبر مساجد بغداد أن يجاهر في خطبة الجمعة في 7 مايو 2004 بأن رئيس الوزراء الجديد للعراق "ليس سوى عميل". ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية عن الشيخ أحمد السامرائي إمام مسجد أبي حنيفة قوله: "يأتي مجلس الأمن ويصادق على من عرف من أفراد الحكومة بعمالته وتتلمذه على يد وزارتي الدفاع والخارجية الأمريكيتين". وقد كان مصير حكومة علاوي مثل مصير مجلس الحكم، ولن يكون مصير الجميع أفضل من مصير رجال أمريكا في فييتنام أو الصومال أو لبنان أو أمريكا الجنوبية. ومن أراد أن يعرف مصير رجال أمريكا الذين خدموا مصالحها ثم تم التخلص منهم أو تصفيتهم بعد انتهاء مهامهم فلينظر في التاريخ.

هذا كان حال العراق بعد عام من الاحتلال وقبل حصار الفلوجة ومعركتها الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004.

الفصل الثاني

المرتزقة.. وأسباب معركة الفلوجة

لم أنم جيداً رغم الإرهاق الشديد الذي كان يحيط بأركان جسدي وهذه طبيعة تلازمني - للأسف - في أسفاري التي لا تنتهي، لا سيما إذا كان لدي عمل سأقوم به في الصباح الباكر. ورغم هذا القلق والاضطراب الذي صاحب نومي استيقظت مبكراً كعادتي بعد غفوات ونوم متقطع لعبت الانفجارات الليلية التي كانت تحدث في أنحاء بغداد أثناء الليل دوراً رئيسياً فيه، وكان أول شيء فعلته في الصباح هو السؤال عما ألمَّ بالفلوجة وحقيقة ما وقع بعد منتصف الليل، فوجدت أنَّ ما كنت أخشاه قد أصبح حقيقة واقعة. لقد قامت القوات الأمريكية بالفعل بفرض حصارها على المدينة الليلة الماضية كما أخبرنا وضاح، وبالتالي علينا تحضير أنفسنا لنتحرك إلى هناك ونقوم بمحاولة الدخول إليها لتغطية الأحداث من داخلها كما اتفقنا ليلاً والبقاء هناك إلى يوم التاسع من أبريل/ نيسان للمشاركة في التغطية الخاصة بمرور عام على الاحتلال الأمريكي للعراق.

كان عليَّ إذاً أن أعد نفسي لرحلة طويلة، فأنا لا أعرف إن دخلت إلى المدينة متى وكيف سأخرج منها إن كتب الله لي الحياة، فأخذت حقيبة ملابسي، وحقيبة يدي التي تحتوي على ما أريده من الأغراض التي أكون بحاجة دائمة إليها، وتركت فقط في غرفتي في الفندق ما يمكن أن أستغني عنه، ثم نزلت إلى المكتب الذي كان يقع في الطابقين الأول والثاني من فندق بحيرة البجع، لأرى ماذا أعد الزملاء، فوجدتهم يقومون بترتيب احتياجات الرحلة، فطلبت منهم أن يراجعوا كل شيء لأنه لا مجال لدينا للنسيان أو الاستبدال، لذا يجب أن نراجع

معداتنا أكثر من مرة. وقد أدى هذا إلى تأخرنا في الانطلاق حتى التاسعة صباحاً، حينها أبلغني حامد أن كل شيء على ما يرام.

كان الفريق يتكوَّن من اثنين من المصورين مع الكاميرات وجهاز بث بالأقمار الصناعية مع مهندس، وسيارتين إحداهما سيارة البث، وأخرى سنركب فيها نحن علاوة على الزميل حامد حديد الذي كان قد عُيِّن مديراً لمكتب بغداد وكان وقتها في إطار ترتيبات تسلمه لإدارة المكتب. ولأن حامداً كان من أهل الفلوجة فكان عليه ترتيب كافة الأمور اللوجستية والإدارية للفريق. ولكن قبل أن نبدأ طريقنا إلى الفلوجة يحسن بنا الوقوف على الأسباب التي أدت إلى تفاقم الأمور في المدينة وإلى أن يصدر قرار من أعلى مستوى أمريكي بفرض حصار عليها في خطوة غير مسبوقة تجاه أي من مدن العراق الأخرى، وأن يصل الأمر إلى حد قيام فرقة أمريكية كاملة قوامها أكثر من عشرة آلاف جندي بحصار مدينة كبيرة يصل عدد سكانها إلى ثلاث مئة ألف نسمة، ومساحتها الجغرافية تزيد عن أربعين كيلو متراً مربعاً مثل مدينة الفلوجة، وأن يكون هذا الحصار شاملاً لكل الطرق ومن كل الجوانب.

مدينة الفلوجة

كانت الفلوجة منذ بداية الاحتلال في شهر أبريل/نيسان من العام 2003 مدينة عصية على القوات الأمريكية، وقد وقعت فيها معارك ومواجهات كثيرة منذ بداية الاحتلال، إلا أن أكبر عملية وقعت بها ولفتت أنظار واهتمام القوات الأمريكية كانت في 27 مايو/أيار من العام 2003 أي قبل أن ينتهي الشهر الذي أعلن فيه الرئيس الأمريكي جورج بوش بأسلوب استعراضي شهير نهاية العمليات العسكرية في العراق، في هذا اليوم 27 مايو/أيار 2003 قامت معركة استمرت عدة ساعات بين خلية من المقاومة كان يقودها الشهيد نور الدين الزوبعي وسرية من القوات الأمريكية على نهاية الجسر العلوي الذي يربط الفلوجة بالطريق المؤدي إلى مدينة الرمادي والذي يمر فوق نهر الفرات، وأدت المعركة التي استمرت عدة ساعات إلى مقتل وإصابة عدد كبير من القوات الأمريكية علاوة على تدمير طائرة هليكوبتر بمن فيها. وقد ذكرت تفاصيل الحادثة بالكامل في كتابي "قصة سقوط بغداد".

بعد هذه الحادثة مباشرة صدرت أوامر للقوات الأمريكية - كما نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" في تقرير كتبه مايكل غوردون من بغداد ونشرته بالاتفاق معها صحيفة الشرق الأوسط في 30 مايو/أيار 2003 - بأن يتم نشر قسم كبير من الفرقة الثالثة الأمريكية في مدينة الفلوجة، بعد هجوم يوم الثلاثاء 27 مايو، وقد أقرت القوات الأمريكية بمقتل جنديين وجرح تسعة آخرين في هذا الهجوم، وأشار تقرير "نيويورك تايمز" إلى أن فرقة المشاة الثالثة هي التي قادت الهجوم على بغداد وأن جنودها كانوا يتوقعون العودة إلى الولايات المتحدة بعد تمركز استمر تسعة أشهر في الكويت قبل المعركة، لكن عودتهم تأجلت بعدما كلفوا بتأمين الأوضاع في الفلوجة بعد المعركة التي قادها الزوبعي وأدت إلى هذا العدد المرتفع في القتلى والجرحى من الأمريكيين.

لم تكن المواجهة التي حصلت في 27 مايو/أيار إلا بداية لانطلاقة كبيرة للعمليات العسكرية التي قادتها المقاومة في الفلوجة ضد القوات الأمريكية، بعدها بدأت القوات التي كلفت بتأمين الوضع في الفلوجة تتعامل مع السكان بإهانة وغلظة وازدراء، وكانت تطلق النار على كل من تشك به، وتهين شيوخ العشائر وتدنِّس حرمات البيوت. وقد روى لي كثير من أهل الفلوجة كيف أن الأمريكيين استحلوا كل شيء في المدينة وأصبحت تسيطر عليهم روح الانتقام من أهل المدينة، فعند تفتيش المنازل كانوا يحطمون الأثاث ولا يعيرون حرمة لامرأة أو طفل أو شيخ أو مريض. كما كانوا يفتشون النساء، وهذه إهانة بالغة كانت تجعل كل عراقي يريد أن ينتقم لشرفه، حتى إن أحدهم قال لي أثناء إحدى زياراتي للفلوجة: "لقد أهانونا كثيراً ولو لقيت أي جندي أمريكي أستطيع قتله لقتلته، ماذا بقي لنا؟! إنهم لصوص يسرقون الأموال والمجوهرات وحتى الملابس الأنيقة والتذكاريات وكل ما يمكن أن تقع أيديهم عليه. لقد كان رجال صدام سيئين، لكننا أهل بداوة ولا يمكن أن يدخلوا للتفتيش إلا إذا تسترت النساء وسمحنا لهم، أما هؤلاء الأمريكيون فإنهم أوغاد ورعاع".

هذا الغضب الذي صنعه الأمريكيون في نفوس أهل الفلوجة وفي نفوس العراقيين بشكل عام - والذي أشرت إلى بعض تفاصيله في الفصل السابق - أدى إلى تصاعد العمليات ضد الأمريكيين بشكل واسع، وأصبحت هناك عمليات تتم

بأشكال مختلفة، منها عمليات انتقام يقوم بها أفراد أو رجال عشائر وقبائل، ومنها عمليات منظمة للمقاومة التي بدأت ترصّ صفوفها بشكل مبكر. وكانت من أكبر العمليات التي تمت ضد القوات الأمريكية في هذه المرحلة في مدينة الفلوجة الهجوم الذي وقع في العاشر من يوليو/تموز من العام 2003 وقاده أيضا نور الدين الزوبعي، وتم فيه تدمير مركز شرطة الفلوجة الذي كان مقراً للقوات الأمريكية.

وقد زرت المدينة في 21 يوليو/تموز أي بعد الهجوم بأحد عشر يوماً فقط، وشاهدت آثار الدمار والحريق باقية كما هي على مركز الشرطة. وقد أبلغني بعض المتابعين ممن التقيت بهم من أهل المدينة أن عدد القتلى الأمريكيين من وراء الهجوم يزيدون عن عشرين قتيلاً، علاوة على عدد كبير من الجرحى، لأن هذا كان مقر قيادتهم. لكن الأمريكيين لم يعترفوا على الإطلاق بهذا العدد ولم يعطوا أهمية لهذا الهجوم، لكنهم اعترفوا بهجوم آخر وقع في الفلوجة في الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني 2003 واعتبروا خسارتهم في هذا الهجوم هي أكبر خسارة للقوات الأمريكية تتكبدها في يوم واحد منذ اندلاع الحرب، حيث أعلن المتحدث باسم الجيش الأمريكي الكولونيل بيل برادلي عن مقتل خمسة عشر جندياً أمريكياً وإصابة واحد وعشرين آخرين بجروح في هجوم بصاروخ أرض - جو أسقط طائرة هليكوبتر عسكرية من طراز شينوك في الساعة التاسعة صباح الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني فوق قرية البوعيسى في ضواحي الفلوجة. وكانت الطائرة، تقل ستة وثلاثين جندياً بينهم طاقمها كانوا في طريقهم إلى مطار بغداد ومن ثم إلى ألمانيا والولايات المتحدة ليقضوا إجازة استجمام هناك لمدة أسبوعين. وقد وصف رونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي آنذاك هذا اليوم الذي وقعت فيه هذه الخسارة الفادحة بأنه: "يوم مأساوي سيّء للأمريكيين". وقال في مقابلة له مع محطة فوكس نيوز الموالية للتيار اليميني الأمريكي المحافظ الحاكم: "في الحرب تكون هناك أيام مثل هذه، ومن الضروري الاعتراف بذلك"، ورغم أنه قلّل من أهمية أن تكون هناك مقاومة منظمة ومنسقة في ذلك الوقت، إلا أنه أدرك في مقابلات أخرى له في نفس اليوم مع محطات تلفزة أمريكية مثل "إن بي سي" و"إيه بي سي" على أنه: "يتوقع حرباً طويلة وصعبة". وفعلاً كانت هذه مؤشرات على حرب طويلة وصعبة دفع ولا زال يدفع الأمريكيون ثمناً باهظاً لها.

تصاعدت أعمال المقاومة في العراق بشكل عام وفي الفلوجة بشكل خاص بعد هذه العملية. وفي الثامن من يناير/كانون الثاني 2004 تمكنت المقاومة من إسقاط مروحية أمريكية أخرى في الفلوجة أيضا قتل كل من كانوا على متنها واعترف الأمريكيون بأنهم كانوا تسعة. وفي يوم الثلاثاء 13 يناير/كانون الثاني أعلن متحدث عسكري أمريكي أن طائرة أمريكية من طراز إي إتش 60 قد أسقطت على ما يبدو "بنيران معادية" غرب العاصمة بغداد، ونقلت الوكالات عن شهود عيان أن الطائرة أسقطت قرب الفلوجة، وفي هذا اليوم هاجمت القوات الأمريكية تجمعاً يضم المئات من أهل الفلوجة الذين كانوا مجتمعين للاحتجاج على ممارسات سلطات الاحتلال وقيامها باعتقال امرأة من أهل المدينة. وأسفر الهجوم الأمريكي على المدنيين المجتمعين من أهل المدينة عن مقتل ثلاثة منهم وجرح خمسة آخرين.

هذه الأحداث وضعت الفلوجة على خارطة الإعلام الأمريكي والإعلام العالمي في وقت مبكر، ودفعت الجنود الأمريكيين إلى ارتكاب مزيد من الإهانات والتجاوزات بحق أهلها، كما دفعت أهلها إلى القيام بمزيد من العمليات ضد القوات الأمريكية. وأذكر أني ما لقيت أحداً من أهل المدينة في أكثر من زيارة قمت بها للفلوجة بعد ذلك إلّا وتعرّض للاعتقال أو الاستفزاز والإهانة على أيدي الأمريكيين، كما أن وكالات الأنباء والمراسلين الغربيين في بغداد أصبحوا يتوجهون إلى الفلوجة ليروا قصة هذه المدينة التي أصبحت مدينة المقاومة وكانوا يكتبون كثيراً من التقارير الخاصة عنها.

والفلوجة لها طبيعة خاصة بأهلها، فهي مدينة المساجد والمآذن كما يطلق عليها أهل العراق، حيث يوجد بها أكثر من مئة مسجد كلها تقريباً كان لها مآذن قبل أن يدنسها الأمريكيون ويدمروا كثيراً من مآذنها لا سيما في المعركة الثانية في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004. كما أنها كانت المدينة العراقية الوحيدة التي لم يكن بها خمارة في عهد صدام حسين، وكما كانت المقاومة بها شرسة ضد القوات الأمريكية منذ بداية الاحتلال كانت كذلك ضد البريطانيين حينما احتلوا العراق في العام 1920، حتى أني وجدت قصيدة طويلة كتبها معروف الرصافي عام 1941 يمتدح فيها مقاومة أهل الفلوجة للبريطانيين يقول في بدايتها:

أيـهـا الإنـجـلـيـز لـن نـتـنـاسـى   بـغـيـكـم فـي مـسـاكـن الـفـلـوجـة

أما آخر أبياتها فيقول بعدما سرد بغي الإنجليز ومقاومة أهل الفلوجة لهم:

فـثـنـاء لـلـرافـديـن وشـكـراً   وسـلام عـلـيـك يـا فـلـوجـة

أما الموقع الجغرافي لها فإنها تبعد عن بغداد حوالي 56 كيلو متراً باتجاه الغرب، وتقع على نهر الفرات، وهي قريبة من بحيرة الحبانية التي كانت تعتبر منتجعاً للبريطانيين، كما أنها تقع في طريق المسافرين من بغداد إلى سوريا والأردن، وتعتبر أكبر قضاء في محافظة الأنبار. ومن ناحية الأهمية الاستراتيجية فإن قاعدة الحبانية التي بناها البريطانيون أثناء احتلالهم للعراق والتي لعبت دوراً في معظم الانقلابات العسكرية التي وقعت في العراق بين عامي 1958 و1968، تقع إلى الشمال منها، وهي تعتبر من أهم القواعد العسكرية في العراق بسبب قربها من بغداد.

ولم يسلم أهل الفلوجة بسبب انتشار التديُّن بينهم من بطش صدام حسين فقد أعدم كثيراً من أبناء المدينة الإسلاميين؛ ويروي بعض أهل الفلوجة قصصاً كثيرة حول عمليات التصفية التي كان يقوم بها صدام لأبناء الفلوجة، منها أنه في العام 1992 أعدم في ليلة واحدة تسعين شاباً ينتمون إلى معظم عشائر الفلوجة، الذين من أشهرهم الجبور، والبوعيسى، وشمر، وزوبع، والدليم، والجميلات. ولعل بطش صدام حسين بالكثير من أبناء الفلوجة بسبب انتشار التديُّن بينهم ينفي تهمة البعثية التي حاول أركان الإدارة الأمريكية إلصاقها بمن قاموا بالعمليات العسكرية ضد الأمريكيين في هذه المرحلة، كما يؤكد أن أهل الفلوجة هم أهل محنة وصبر وابتلاء لكنهم في نفس الوقت أهل بأس وشدة وشهامة ورجولة وإباء.

وقد وصف الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر مدينة الفلوجة في الصفحة 395 من مذكراته التي نشرت تحت عنوان "عام قضيته في العراق" فقال: "في هذه الأثناء كانت هناك أزمة ثالثة تختمر في غرب البلد، كان الوضع الأمني في الفلوجة متفاقماً، وقد اكتسبت الفلوجة عن جدارة سمعة بأنها مدينة صلبة لا تلين، تمتد مدينة الفلوجة التي يبلغ تعداد سكانها 300 ألف نسمة، عبر منعطف في الفرات، وتشكل ملتقى لعدة طرق وقوافل تجارية تقليدية عبر الصحراء غرباً

إلى سوريا، وقد أصبحت طرقاً مفيدة للمهربين بعد حرب الخليج، عندما كان صدام يتجاوز عقوبات الأمم المتحدة، وعندما سيطر البريطانيون على بلاد ما بين النهرين من العثمانيين في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت المدينة مركزاً لثورة دموية، وفي مسعى للسيطرة على المدينة جند صدام حسين أعضاء موالين في وحدات النخبة العسكرية وأجهزة الاستخبارات من القبائل".

أسباب الكراهية الشديدة للأمريكان

في 6 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 نشرت وكالة رويترز تقريراً من داخل مدينة الفلوجة عن أسباب اندلاع المقاومة فيها ضد الأمريكيين، كان من بين ما جاء فيه: "هذه المدينة التي شهدت أغلب الهجمات العنيفة ضد القوات الأمريكية على جنودها يعود سبب كثير من العمليات إلى الثأر القبلي، حيث وقعت كثير من عمليات القتل للمدنيين الأبرياء كان أولها في أبريل/نيسان الماضي 2003 حينما قتل الأمريكيون ستة عشر مدنياً بعدما تجمهروا أمام بيت مواطن يدعى مثنى صالح أصابه الأمريكيون في قدمه فبتر جزء منها".

وأكد التقرير على ما سبق أن رواه لي أبناء الفلوجة من أن الأمريكيين "يسرقون الأموال ويحطمون الأثاث ويفتشون الرجال والنساء عند تفتيش المنازل" وهذا أسلوب مهين كان يدفع حتى الناس العاديين إلى المشاركة في المقاومة وإطلاق القذائف الصاروخية على قوات الاحتلال، حيث يثأرون لموت أقاربهم وقتلاهم، مما أدى إلى عدم توقف المقاومة في الفلوجة بكل أشكالها من الكمائن والعبوات الناسفة والهجمات على نقاط التفتيش للقوات الأمريكية.

ولم يكن الأمريكيون يستطيعون تجنب المرور بالمدينة فهي تربط بين طرق وقواعد عسكرية أمريكية وأماكن رئيسية يستخدمونها مثل قاعدة الحبانية، لذا كانوا دائماً عرضة للهجمات وبقيت الأمور تتصاعد يوماً بعد يوم حتى وقع الحادث الكبير الذي هز البيت الأبيض والإدارة الأمريكية كلها في 31 مارس/آذار 2004.

مقتل المرتزقة الأربعة

كنت في مكتب قناة الجزيرة في بغداد مستغرقاً في إعداد حلقة برنامجي "بلا حدود" التي كانت ستبث على الهواء مباشرة مساء ذلك اليوم الحادي والثلاثين من مارس/آذار من العام 2004 مع عضو مجلس الحكم صلاح الدين محمد بهاء الدين، فجأة سمعت أصواتاً عالية خارج استوديو المونتاج ونقاشاً بين الزملاء. خرجت أستطلع الأمر فوجدتهم يتحدثون عن سرعة إرسال شريط الأحداث التي وقعت في مدينة الفلوجة إلى "الجزيرة" حتى تبثه وتحقق سبقاً عن باقي المحطات التليفزيونية العالمية الأخرى حيث كان هناك مصورون لمحطات ووكالات أنباء مختلفة هناك قاموا بتصوير الحادث.

قلت لهم: "وماذا حدث في الفلوجة؟" قالوا: "يمكنك أن تشاهد الشريط أثناء بثه للدوحة". تركت ما في يدي وجلست لأشاهد الشريط، فأدركت وأنا أشاهد ما حدث أن هذه الصور سوف تهز البيت الأبيض وأركان الإدارة الأمريكية كلها.

وأترك هنا وصف ما حدث في الفلوجة لمصدر مسؤول في الشرطة العراقية وصف باختصار بداية ما حدث حيث قال: "قامت مجموعة مسلحة في الساعة العاشرة صباحاً بالتوقيت المحلي بإيقاف سيارتين لونهما أبيض كانتا تمران وسط الفلوجة وبدؤوا بإطلاق النار على الأشخاص الذين كانوا داخل السيارتين ويعتقد أنهم أجانب مما أدى إلى مقتلهم ثم قام المهاجمون بعد ذلك بإضرام النار في السيارتين ولاذوا بالفرار".

هذه باختصار رواية المصدر الرسمي في الشرطة العراقية التي تناقلتها وكالات الأنباء، أما رواية الحاكم الأمريكي للعراق في ذلك الوقت بول بريمر في الصفحة 398 من مذكراته "عام قضيته في العراق" حول هذه الحادثة يقول: اندلعت أزمة الفلوجة في صباح يوم الأربعاء 31 مارس/آذار، فقد تعرضت قافلة صغيرة من سيارات الحراس الأمنيين التابعين لشركة بلاك ووتر إلى كمين في مركز الفلوجة، أمطر المسلحون مركبة أمريكية بوابل من طلقات الكلاشينكوف فاحترقت. أخذ رجال البلدة يرقصون فرحاً وسحبوا الجثث المحروقة من بين

الحطام، وأخذوا يضربونها بالرفوش، ثم علقت جثتان متفحمتان ومقطعتا الأوصال على الحاجز المعدني للجسر الرئيسي للبلدة فوق النهر".

وإلى هذا الحد يقع مثل هذا الحادث كثيراً في أماكن متفرقة من العراق، لكن الذي لا يحدث عادة أن يتصادف وجود كثير من مصوري وكالات الأنباء والمحطات التليفزيونية لتصوير الحادث فور وقوعه بكل تفصيلاته، والذي لا يحدث عادة كذلك هو أن أهل الفلوجة الذين كان يمارس الأمريكيون عليهم كل أشكال الانتقام - التي سبق وأن أشرنا إلى بعضها - طوال عام من الاحتلال، خرج العامة منهم والمراهقون الصغار ليعبروا عما يجيش في صدورهم، فقام بعضهم بالتمثيل بالجثث المحروقة وسحلها في الشوارع ثم تعليق أجزاء منها على جسر قديم بناه البريطانيون في المدينة، وكل ذلك تم تصويره وبثه للعالم، وقال عنه بريمر: "صورت أطقم التليفزيونات هذا المشهد الشنيع، وظهرت الصور الفظيعة على التليفزيونات الفضائية العربية، وعرض شريط محرر في ذلك اليوم على التليفزيونات الأمريكية، وتحولت الصور على الفور إلى رموز للواقع الوحشي للتمرد وأبرزت أن قوات الائتلاف العسكرية لا تسيطر على الفلوجة".

وكان الزميل حسين دلي مراسل الجزيرة في الفلوجة من بين الذين قاموا بعملية التصوير فأحضر الشريط من فوره إلى مكتب الجزيرة في بغداد وتم إرساله وبثه من قناة الجزيرة، كما بثته معظم المحطات التليفزيونية العالمية، حيث قام مصورون آخرون بتصوير ما حدث. وانتشرت الصور بشكل كبير ليكون أول انطباع لدى كافة المحللين هو أن شبح الصومال قد خيَّم على ما حدث في الفلوجة مما سبَّب رعباً لدى الإدارة الأمريكية غير مسبوق، وكانت أكبر فضيحة كشفها هذا الحادث هو أن هؤلاء القتلى ليسوا جنوداً أمريكيين رسميين في الجيش وإنما هم مرتزقة يستعين بهم الجيش الأمريكي للمشاركة في كثير من عملياته العسكرية وحماية وحراسة كبار رجالاته بمن فيهم الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر.

جيش المرتزقة في العراق

حتى وقوع حادثة الفلوجة في 31 مارس/آذار 2004 لم تكن هناك معلومات

كثيرة نشرت عن المرتزقة الذين يعملون مع القوات الأمريكية في العراق. فقد كانت المعلومات متناثرة، وروى لي عراقيون أثناء عدة زيارات قمت بها إلى العراق بعد الاحتلال أن هناك مرتزقة يعملون مع القوات الأمريكية. وكنت في تنقلاتي ألاحظ سيارات دفع رباعي حديثة يركبها أناس مدنيون يضعون نظارات سوداء دائرية على وجوههم ويرتدون ملابس شبه عسكرية وكانوا يبدون دائماً أصحاب أجساد قوية، وكانت السترات الواقية للرصاص تبدوا على صدورهم، وكان الزملاء المرافقون لي غالباً ما ينطقون بصوت واحد حينما يشاهدون مثل هذه السيارات وركابها: "مرتزقة".

ثم أصبحت بعد ذلك أنتبه للأمر وصار يشغلني في انتقالاتي داخل العراق حيث كنت أتتبع مثل تلك السيارات ومن فيها، لكن ظهورهم في شوارع بغداد كان كثيفاً إلى حد كبير، وكذلك على الطرق السريعة التي كانت تربط بين المدن وغالباً ما كانوا يرافقون قوافل عسكرية أو قوافل للنقل، علاوة على أعمالهم الرئيسية في حراسة وحماية كبار المسؤولين الأمريكيين وعلى رأسهم الحاكم المدني بول بريمر. وكان هؤلاء يتمتعون بكراهية كبيرة من قبل العراقيين لأنهم كانوا مثل الوحوش لا يتحدثون مع أحد إلا بلغة الرصاص، وكان فريق من الشباب العراقيين أطلق على نفسه اسم "أنصار الحقيقة" نشر تقريراً في منتصف شهر يناير/ كانون الثاني من العام 2004 يتحدث فيه نقلاً عن رعاة وصيادين يمارسون عملهم في نهر ديالى شبه المهجور على الحدود العراقية الإيرانية أنهم استخرجوا عشرات الجثث من النهر ألقيت على الأغلب من الطائرات المروحية الأمريكية من ارتفاع منخفض حيث تتميز المنطقة بوعورتها الشديدة وانصراف الناس عنها، مما جعل الأمريكيين يتخلصون من جثث المرتزقة الذين لا ينص تعاقدهم معهم على نقل جثثهم إلى بلادهم في تلك الأماكن، وقد زرت تلك المنطقة في شهر يوليو/تموز من العام 2003 فوجدتها منطقة شديدة الوعورة. وروى لي بعض من التقيت بهم من العراقيين من سكانها قصصاً شبيهة من هذه القصص، وتعتبر هذه الأماكن المحاذية للحدود الإيرانية من المناطق التي لم يكن مسموحاً لعامة العراقيين بدخولها في زمن صدام حسين، حيث كانت قاصرة على قوات الجيش والحرس الجمهوري، وكانت مسرحاً لكثير من العمليات العسكرية أثناء الحرب العراقية الإيرانية، كما أنها كانت تحتوي على أهم مخازن

العتاد والمصانع الحربية في عهد صدام حسين. ووجدت هناك استراحة لصدام حسين كانت عند أحد السدود التي أقيمت على النهر لم يدخلها سوى مرة واحدة كما روى لي وجهاء المنطقة الذين استضافوني على الغداء في تلك الاستراحة. وأذكر كيف كانت الارتفاعات شاهقة على جانبي النهر ومخيفة، كما أن مياه النهر كانت بعد سد ديالى سريعة الجريان وتمر بأودية سحيقة غير مأهولة وقد أكد لي الدكتور إبراهيم الشمري الناطق الرسمي باسم الجيش الإسلامي في العراق أحد أبرز فصائل المقاومة في حوار أجريته معه بمناسبة الذكرى الرابعة للاحتلال الأمريكي للعراق وبث على شاشة قناة الجزيرة في 11 أبريل/نيسان 2007 أنهم اكتشفوا كثيراً من المقابر الجماعية لجنود مرتزقة كانوا يقاتلون مع القوات الأمريكية وقاموا بتصويرها وبثها على أشرطة وزعت داخل العراق وعبر موقعهم على شبكة الإنترنت، وأصبحت عملية اكتشاف قبور للمرتزقة عملية شائعة في العراق لا سيما في الأودية السحيقة مثل منطقة جرف الصخر ووادي حيران.

ومن أوائل التقارير الصحفية التي نشرت حول المرتزقة الذين يقاتلون مع القوات الأمريكية في العراق تقرير نشرته في 5 مارس/آذار 2004 صحيفة "الغارديان" البريطانية، وقد أثار هذا التقرير ضجة كبيرة حينما نشر حيث أكدت الصحيفة أن وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون بدأت بالبحث عن مرتزقة يعملون معها في العراق بعد عجزها عن تأمين جنود للانضمام للجيش الأمريكي للعمل هناك، وأن البنتاغون قد تعاقد مع شركة "بلاك ووتر" لتجنيد مرتزقة للعمل في العراق يكونون من بين أعضاء البحرية السابقين أو الكوماندوز، وكذلك البحث عن مرتزقة من خارج الولايات المتحدة لا سيما من أمريكا الجنوبية.

وأشارت الصحيفة إلى أن شركة "بلاك ووتر" قامت بالفعل بالتعاقد مع عشرات من رجال القوات الخاصة السابقين من تشيلي وكلهم كانوا من رجال الدكتاتور السابق أوغسينو بينوشيه. ورغم تدريبهم العالي السابق فقد تم إعادة تأهيلهم مرة أخرى في مركز تدريب خاص يمتد على مساحة 2400 هكتار في ولاية نورث كارولينا الأمريكية ثم نقلوا للعراق. وقد نقلت "الغارديان" هذه المعلومات من خلال حوار أجرته مع غاري جاكسون مدير شركة "بلاك ووتر - يو إس إيه"، وهي نفس الشركة التي قتل منها بعد ذلك المرتزقة الأربعة في

الفلوجة في 31 مارس/آذار، وأكد جاكسون للغارديان في هذا الحوار الذي نشر قبل حادث الفلوجة بستة وعشرين يوماً أن شركته تجوب الأرض بحثاً عن مرتزقة مدربين قائلاً: "نحن نجوب أنحاء الأرض للبحث عن كوماندوز محترفين، وقد اكتشفنا أن الكوماندوز التشيليين من أكثر رجال القوات الخاصة حرفية وتأهيلاً كما أن نظام الشركة قادر على استيعابهم بشكل سريع حيث يتوافقون تماماً مع المتطلبات التي تحددها"بلاك ووتر يو إس إيه "للعمل"، وأكد على أن تعاقده مع الحكومة الأمريكية يغطي 95% من تعاقداته، وأن أعمال شركته تضاعفت بنسبة 300%".

وقد أشارت الصحيفة إلى أن رواتب الجنود المرتزقة آنذاك نقلاً عن جاكسون كانت تتروح ما بين أربعة آلاف دولار إلى ثلاثين ألف دولار في الشهر، وذلك حسب الخبرة والمهمات التي يقوم بها المرتزق، فالذي كان يكلف بحراسة بول بريمر الحاكم الأمريكي للعراق كان يختلف فيما يتقاضاه عن الذي يحرس منشآت نفطية، أو يرافق قوافل عسكرية، كما أن راتب الأمريكي يختلف عن التشيلي وعن الفلبيني وعن عشرات الجنسيات الأخرى العديدة التي انخرطت في عمل المرتزقة بعد ذلك.

وكانت وكالة الأنباء الفرنسية قد نشرت تقريراً في بداية مارس/آذار 2004 تحدث فيه أحد المرتزقة الأمريكيين فقال: "إن العراق منجم وكل ما تحتاجه هو أن تخدم خمسة أعوام في الجيش، وبعدها تحضر للعراق لتحصل خلال فترة قصيرة على صرة كبيرة من المال"، وهو يشير بذلك إلى جنود المارينز والقوات الخاصة الأمريكية السابقين الذين عادوا للعراق للعمل كمرتزقة بمبالغ طائلة ومنهم الأربعة المرتزقة الذين قتلوا في حادث الفلوجة كما سأوضح فيما بعد.

ورغم أن المصادر الصحفية في تلك الفترة أشارت إلى أن عدد المرتزقة الذين جندوا حتى نهاية العام 2003 لم يزيدوا عن عشرة آلاف عنصر، إلا أن صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية نشرت تقريراً في 5 ديسمبر/كانون الأول 2006 قالت فيه: "طبقاً لأول إحصاء عسكري عن العدد المتزايد للمدنيين الذين يعملون في أرض المعركة في العراق فإن عدد المقاولين - الوصف الرسمي للمرتزقة - وصل إلى مئة ألف دون حساب عدد مقاولي الباطن، وهو عدد يقارب

حجم القوات العسكرية الأمريكية في العراق". وعبارة "مقاولين" هي التعبير الرسمي الأمريكي عن المرتزقة. وقد أكدت واشنطن بوست على ذلك من خلال بيان طبيعة عمل هؤلاء المقاولين وما يقومون به فقالت: "إن المقاولين يقومون بأداء وظائف متنوعة مثل توفير الأمن واستجواب السجناء وإعداد الوجبات وتصليح الأجهزة، وبناء القواعد التي يتم إقامة الجنود فيها"، وهذه كلها بالطبع مهام عسكرية لا سيما إذا كانت تتم مع جيش محتل.

أما مجلة "ميديل إيست" فقد ذكرت في عددها الصادر في شهر مايو/ أيار 2007 أن عدد المرتزقة في العراق أصبح قريباً من عدد الجيش الأمريكي الرسمي حيث أن عددهم في العراق بلغ 120 ألفاً في الوقت الذي لا يزيد فيه عدد الجيش الأمريكي عن 135 ألفاً، غير أن هناك مصادر أخرى أشارت إلى أن العدد وصل إلى مئتي ألف مرتزق بمن فيهم الذين يقومون بأعمال بسيطة مساعدة في القواعد العسكرية، وهذا ما أكده لي جون هيلاري مدير الحملات والسياسات في منظمة "وور أون وونت" البريطانية وذلك في حوار أجريته معه في لندن في 9 مايو/أيار 2007 وتم بثه على شاشة الجزيرة، غير أن هيلاري أكد على أن هؤلاء يمثلون إجمالي العاملين في كل المجالات. أما الذين يعملون في مهام قتالية من هؤلاء فربما يبلغ عددهم 48 ألفاً حسب معلومات مؤسسته.

وقد أصدرت منظمة "وور أون وونت" تقريراً نشر في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من العام 2006 عن أعمال المرتزقة في العراق جاء فيه أن عدد شركات المرتزقة العاملة في العراق بلغ 182 شركة، وأن هذه الشركات تقوم بكل شيء بما فيها الأعمال القتالية، وأن عائدات هذه الشركات من عقود العمل في العراق بلغ 1،8 مليار جنيه استرليني في العام 2004، في الوقت الذي كانت فيه في العام 2003 لا تزيد عن 320 مليون جنيه استرليني. ولنا أن نتخيل ما الذي يمكن أن يكون قد وصل إليه المبلغ في العام 2007 في ظل تقارير عديدة منها تقرير "وور أون وونت" أشارت إلى أن العائدات السنوية لهذه الشركات بلغت 100 مليار دولار، مما يعني وجود لوبي دولي جديد ربما أخطر من لوبي المخدرات والسلاح والدعارة، لكن هذا اللوبي الجديد هو الأخطر لأنه يتعامل بشكل مباشر مع قتلة محترفين لا يهمهم سوى المال لممارسة كل جرائم

الحرب، وأكد التقرير أن هناك شركات تشارك بشكل مباشر في القتال منها "بلاك ووتر" و"هارت جروب" و"كنترول ريسكز" و"تريبل كانوبي"، لكن الأخطر في هذه القضية ما أشارت له مصادر عديدة من أن المرتزقة لا يعملون تحت أي قانون وهم الذين شاركوا في الدور الرئيسي في تدمير مدينة الفلوجة في المعركة الثانية التي وقعت في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004.

ونظراً لأن جرائم المرتزقة ودورهم في العراق أكثر بشاعة مما يمكن أن يُتصور حتى إني حينما أجريت حواراً كان الأول من نوعه في الفضائيات العربية عن دورهم في العراق في حلقة الأربعاء 9 مايو/أيار 2007 من برنامجي "بلا حدود" فوجئت بالكم الهائل من ردود الأفعال التي وصلتني من المشاهدين على ما جاء في البرنامج من معلومات رغم أنها كانت مقدمة لموضوع متشعب ومعقد.

شبح الصومال

كان من الممكن أن يمر حادث مقتل المرتزقة الأمريكيين الأربعة في الفلوجة في 31 مارس/آذار 2004 مثل كثير من الحوادث التي يتعرض لها الأمريكيون كل يوم، لكن لأن الكاميرات كانت هناك، ولأن وسائل الإعلام العالمية بثت الصور، فلم تستطع وسائل الإعلام الأمريكية أن تتجاهلها، لذلك كان الخبر الرئيسي في كل النشرات المسائية في المحطات التليفزيونية الرئيسية الأمريكية حول كمين الفلوجة وعمليات سحل الجثث في الشوارع التي تعرض لها المرتزقة الأربعة.

وفي الوقت الذي تحاشت فيه محطة "إن بي سي" إظهار الجثث على الشاشة وقامت بعملية مونتاج لها، وكذلك أظهرت "سي إن إن" و"فوكس نيوز" لقطات للهجوم دون أن تظهر الجثث، فإن محطتا "إي بي سي" و"سي بي إس" بثت لقطات عرضت فيها الجثث التي أخرجت من السيارات المحترقة بينما كانت الحشود الغاضبة تنهال عليها ضربا بالرفوش، لكن لقطات السحل وتعليق الصور على الجسر والتى بثّها كثير من محطات التلفزة العالمية، قامت المحطتان

بالتشويش عليها، كذلك قامت بعض شبكات الأخبار الأمريكية التي تبث عبر الإنترنت مثل موقع "ياهو" بوضع الصور الكاملة لفترة قصيرة ثم أزالتها بعد ذلك، وقد كان لهذه الصور وقع الزلزال في البيت الأبيض، لأن كافة المعلقين ربطوا بينها وبين ما حدث في الصومال في العام 1993 حينما تم سحل جثث طيارين أمريكيين في شوارع مقديشو على يد الحشود الغاضبة مما عجل بالخروج الأمريكي من الصومال، وقد جاء الحادث في فترة متزامنة تقريباً مع فترة بقاء القوات الأمريكية في الصومال، وقد احتلت أخبار الفلوجة الصفحات الأولى من معظم الصحف العالمية وعلى رأسها الأمريكية وقارن كثير منها بين أحداث الفلوجة وأحداث الصومال. وفي عددها الصادر في الأول من أبريل/ نيسان 2004 قالت صحيفة "التايمز" البريطانية: "إن مشاهد الفلوجة تذكر بما حدث في الصومال عام ثلاثة وتسعين حينما تم جر جثة جندي أمريكي في شوراع مقديشو وسط صيحات العامة والغوغاء وأدت إلى انسحاب سريع للقوات الأمريكية وترويض السياسة الخارجية الأمريكية خلال ما تبقى من التسعينيات". وقد غطت الصحف الأمريكية انعكاس هذا المشهد على الشارع الأمريكي الذي أصيب بالصدمة، ونقلت صحيفة "نيويورك تايمز" في تقرير لها نشر في 2 أبريل/نيسان 2004 آراء كثير من الأمريكيين الذين شبهوا تلك المشاهد بمقتل الأمريكيين وسحل جثثهم في شوارع مقديشو عام 1993 وطالب كثير منهم - حسبما نشرت الصحيفة - بخروج القوات الأمريكية من العراق، ونقلت عن أحد المواطنين الأمريكيين الذين استطلعت آراءهم قوله:"دعونا نرحل ونتركهم - أي العراقيين - يدبرون أمرهم بأنفسهم".

ولذلك كانت معظم تصريحات المسؤولين الأمريكيين آنذاك قائمة على رفض التشبيه بين ما حدث في الصومال عام 1993 وما حدث في الفلوجة في 31 مارس/آذار من العام 2004، ومن بينهم آدم إيرلي مساعد المتحدث باسم الخارجية الأمريكية آنذاك الذي قال في لقاء مع الصحافيين نشرته الوكالات في 2 أبريل/نيسان: "بعد الهجمات التي وقعت في مقديشو غادرنا الصومال، لكني أؤكد لكم أن هذا لن يحدث في العراق، لأن وجه الشبه مع مقديشو غير صحيح لسبب وجيه وهو أننا في العراق نعمل بمشاركة الشعب العراقي" وكان يشير بهذا إلى عملاء الاحتلال الذين يعملون معهم، أما المتحدث باسم البيت الأبيض

سكوت ماكليلان فقد وصف الهجوم بـ"المروع"، وقال:"إنها هجمات رهيبة يقوم بها أشخاص يريدون منع التقدم في إحلال الديمقراطية في العراق".

أما الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر والذي مثَّل هذا الحادث ضربة قاصمة له، فقد وصف الهجوم في حفل تخرُّج لبعض ضباط الشرطة الذين أعدهم الاحتلال في بغداد أقيم في أول أبريل/نيسان 2004 بأنه: "عمل وحشي" وأكد أنه: "لن يمر دون عقاب.. لن يمر موتهم دون عقاب". ثم أضاف: "الجبناء الوحوش الذين قاموا بهذا التصرف يمثلون أسوأ ما في المجتمع".

ولم يقف الأمر عند حد المسؤولين الأمريكيين بل وصل للرئيس بوش نفسه الذين تعهد في تصريحات له نشرت الجمعة 2 أبريل/نيسان قائلاً: "لن ننسحب من العراق رغم دموية أحداث الفلوجة". وقد كشفت هذه التصريحات عمق المأزق الذي سببته هذه العملية للإدارة الأمريكية. وقد عبَّر مراسل صحيفة الغارديان البريطانية روري مكارثي في تقرير كتبه من الفلوجة ونشرته الصحيفة في عددها الصادر في 2 أبريل/نيسان 2004 مع صورة كبيرة كتب عليها "الفلوجة مقبرة الأمريكان" قال فيه: "يعيش الأمريكيون في حالة هلع ورعب من جراء الهجمات وإنهم حبسوا أنفسهم وراء أسوار المنطقة الخضراء المؤمنة تأميناً عالياً".

وظهر عمق المأزق الأمريكي بشكل واضح في هذا اليوم أيضاً من خلال تصريحات وزير الخارجية الأمريكي آنذاك كولن باول الذي طالب حلف الناتو للمرة الأولى منذ احتلال أمريكا للعراق بأن "يقوم بدور في العراق" وقد نقلت تصريحات باول بشكل بارز في اليوم التالي السبت 3 أبريل/نيسان صحيفة "فاينناشال تايمز" البريطانية حيث قال باول: "يجب أن يلعب الناتو دوراً في العراق بعد انتقال السلطة إلى حكومة عراقية جديدة في يوليو/تموز القادم - 2004". وعلقت الصحيفة على ذلك بأن هذه هي المرة الأولى التي تطلب فيها واشنطن رسمياً من حلف الناتو القيام بدور نشط في العراق.

وكانت شركة "بلاك ووتر سيكيورتي كونسالتينغ" الأمريكية قد أعلنت في بيان لها أن المرتزقة الأربعة يعملون لحسابها وأنهم كانوا يرافقون قافلة أمريكية كانت تقوم بنقل مواد غذائية لأحد القواعد الأمريكية في منطقة الفلوجة، وأن

الأول هو سكوت هلفنستون (38 عاماً)، وهو جندي سابق في المارينز، وتوجه إلى العراق كما قال أحد أصدقائه في رد على سؤال لصحيفة في فلوريدا "من أجل كسب المال"، أما الثاني فهو جيري زوفكو (32 عاما) تنحدر عائلته من كرواتيا ويتكلم خمس لغات بطلاقة، وكان قد التحق بالجيش الأمريكي وعمره تسعة عشر عاماً حيث خدم كجندي في الوحدات الخاصة واستقال من الجيش الأمريكي في العام 2001، ثم عاد إلى العراق ليعمل مرتزقاً، أما الثالث فهو مايكل تيغ (38 عاماً) وهو حائز على الميدالية البرونزية بسبب الخدمات الجلية التي قام بها حينما كان يخدم في الجيش الأمريكي في أفغانستان. أما الرابع فلم تكشف الشركة عن هويته في حينه، وبالتالي فإن الأربعة مقاتلون محترفون.

التهديدات الأمريكية للفلوجة

ذهبت في اليوم التالي الأول من أبريل/نيسان 2004 صباحاً إلى مدينة الفلوجة مع الزميل عبد العظيم محمد وهو من أبناء الفلوجة، حيث أني لم أتمكن من الذهاب في يوم الحادث بسبب انشغالي يوم الأربعاء في إعداد برنامجي "بلا حدود" الذي يبث مساء كل أربعاء، وكان أول مكان ذهبت إليه حينما وصلت إلى الفلوجة هو موقع الكمين الذي نصب للمرتزقة الأمريكيين الأربعة حيث كانت آثار الحريق للسيارتين لا زالت قائمة غير أن السيارتين كانتا قد سحبتا من المكان. ثم قضيت اليوم كله في الفلوجة أستمع إلى الناس وأتحدث إليهم، وحينما ذهبنا كان معنا جهاز للبث وبعض الزملاء من الفنيين والمصور ليث مشتاق الذي صحبني بعد ذلك في رحلة معركة الفلوجة الأولى كما سيأتي ذكره فيما بعد. وكانت ترتيباتنا حينما ذهبنا في ذلك اليوم هي أن نقوم بالبث المباشر إن حدثت أية تطورات سريعة أو مفاجأة من الفلوجة، وكذلك بالنسبة لي استطلاع الوضع في المدينة ضمن التحضيرات والترتيبات التي كنت أعد لها لتغطية أحداث الذكرى الأولى للاحتلال الأمريكي للعراق والتى كانت ستحل في التاسع من أبريل/ نيسان، وكنت سأقوم بالتغطية كما سبق وأن ذكرت من مدينة الفلوجة.

وفي مساء ذلك اليوم الأول من أبريل/نيسان ظهرت في نشرة الأخبار الرئيسية في قناة الجزيرة "حصاد اليوم"، وكان هذا أول ظهور لي في نشرات

الأخبار وتم بترتيب مع الزميل سعيد الشولي نائب رئيس التحرير آنذاك الذي عرض الأمر عليَّ بعدما رتبه مع مدير القناة وضاح خنفر، وطلب مني سعيد أن أعطي من الفلوجة تقريراً موجزاً عن الحادث وتبعاته وانعكاساته المستقبلية وإمكانيات تطوره بعد يوم واحد من وقوعه، حيث كانت تفاعلاته تتصاعد كل ساعة وأصوات الأمريكيين بالتهديد ترتفع من مسؤول إلى آخر ساعة بعد ساعة حتى وصلت للرئيس الأمريكي نفسه، ومنحني سعيد أربع دقائق فقط هي أطول مدة ممكنة لمداخلات الهواء من المراسلين في نشرات الأخبار. كنت حريصاً خلال الدقائق الأربع المتاحة لي أن أحيط المشاهدين بكثير من المعلومات التي جمعتها والملابسات التي أحاطت بالحادث، ومعلومات عن الفلوجة ومساحتها وسكانها، وما يمكن أن يحدث لو تعرضت لحصار أو هجوم عسكري أمريكي، وذلك بعد يوم كامل قضيته في المدينة في جمع المعلومات واستطلاع من لقيت من الناس.

وأذكر أن محاورتي على الطرف الآخر كانت الزميلة جمانة نمور وقد سألتني جمانة سؤالاً واحداً فقط عن الوضع في المدينة بعد يوم من حادث مقتل المرتزقة وسحلهم في الشوارع. وفي أربع دقائق بالضبط قدمت تحليلاً شاملاً عن الوضع من واقع ما رأيت ومن خلال ما تابعت، وكثفته بالمعلومات والسيناريوهات المحتملة، ورغم أني لم أكن متفائلاً إلا أني أشرت في نهاية التعليق إلى أن أي عملية عسكرية أمريكية ضد الفلوجة لن تكون نزهة ولن تكون سهلة على الإطلاق.

بقيت تلك الليلة في الفلوجة ونمت في بيت عبد العظيم لأن المدينة ليس بها فنادق ملائمة، كما أن والد عبد العظيم وأهله كانوا من أكرم الناس، فرحبوا بي وبالزملاء واعتبرونا ضيوفاً ومن العيب ألا نبيت عندهم لا سيما وأن البيت كان به متسع. وأهل الفلوجة أهل ضيافة وكرم، وقد جاء بعض وجهاء المدينة وبعض أقارب عبد العظيم إلى البيت حينما علموا بوجودي لا سيما بعدما ظهرت في نشرة "حصاد اليوم" وقضينا سهرة مطولة في الحديث عن جوانب كثيرة تتعلق بالمدينة والمقاومة والقوات الأمريكية ومستقبل الاحتلال امتدت حتى وقت متأخر من الليل.

وكان اليوم التالي هو يوم الجمعة الثاني من أبريل/نيسان، وكانت ترتيباتي المسبقة في هذا اليوم أن أتوجه من الفلوجة إلى مدينة سامراء للاطلاع على آخر التطورات والأوضاع هناك والتعرف على المدينة وأهلها حيث أنها كانت من المدن العصية على قوات الاحتلال، حتى إنها في شهر مايو/أيار من العام 2007 بقيت محاصرة من قبل قوات الاحتلال أكثر من أسبوعين مع حظر تام للتجول مع قتال شرس بين أبنائها المقاومين وسلطات الاحتلال، ولم تكن هذه هي المرة الأولى ولكنها كانت أقرب ما يكون للفلوجة مقاومة ورفضاً لكل ما يقوم به الاحتلال وجنوده من إهانة ومذلة لأبناء العراق. وكان هدفي كذلك في تلك الزيارة أن أقوم بجمع معلومات كافية للتغطية التي كُلِّفت بالقيام بجزء رئيسي فيها لقناة الجزيرة التي كانت مقررة في التاسع من أبريل/نيسان. بقي عبد العظيم مع ليث في الفلوجة، وتحركت مع الزميل صهيب السامرائي إلى مدينة سامراء.

في خطب الجمعة التي نقلتها قناة الجزيرة وكثير من وكالات الأنباء العالمية من مدينة الفلوجة في هذا اليوم، أدان أئمة المساجد عمليات السحل التي تمَّت في الشوارع وكذلك عمليات التمثيل بالجثث. وإذا كان هاجس الصومال قد أحاط بالبيت الأبيض جراء العملية فقد تذكر العراقيون من خلال هذا الحادث ما وقع للعائلة المالكة في العراق بعد انقلاب يوليو/تموز 1958 حيث تعرض كثيرون من أفرادها للسحل في الشوارع بعد القتل، حتى إن رئيس الوزراء نوري السعيد قد نبش قبره بعد دفنه وسحلت جثته في الشوارع. أما الوصي على العرش عبد الإله فبعد سحله مع نوري السعيد ظلت أجزاء من جثتيهما معلقة لعدة أيام أمام وزارة الدفاع العراقية آنذاك. لذلك ركز أئمة المساجد على نهي الإسلام عن التمثيل بالجثث حتى لو كانت لعدو، وقال الشيخ خالد أحمد إمام مسجد الفلوجة في خطبة الجمعة: "إن التمثيل بالجثث الذي قام به بعض الجهلة أمر مرفوض، ونحن كعلماء دين نستنكره، فهو لا يجوز وحرام مهما كانت الأسباب" وأضاف: "إن الذين قاموا بهذا العمل لا يعبِّرون إلا عن أنفسهم، وهم على خطأ جسيم، وأعتقد أن المجاهدين لم يقوموا بذلك لأنه حرام في الشريعة الإسلامية.... ونحن لا نقبل بذلك، والمجاهدون منه براء، لأن المجاهد يصدق الله ويقاتل من أجل الله والإسلام".

كما نقلت قناة الجزيرة جانباً من خطبة الشيخ مكي الكبيسي ممثل هيئة علماء المسلمين في الفلوجة وإمام مسجد عبد العزيز السامرائي الذي له قصة كبيرة مع القوات الأمريكية سأوردها فيما بعد، حيث حدد الموقف الشرعي مما حدث وردَّ على التهديدات الأمريكية، وكان مما قاله في خطبة الجمعة:"إن المقاومة عمل مشروع وفق الشرائع السماوية والأعراف الدولية... وإننا ندين عملية التمثيل بالجثث، لأنها مخالفة لتعاليم ديننا الحنيف، لكن من دفع الناس لهذا العمل هو طول الظلم وجور المحتل، الذي لم يُبْقِ حرمة لشيخ أو امرأة أو طفل، ونحن لسنا نعرف أسماء الأشخاص الذين قاموا بعملية التمثيل بالجثث، فلماذا تُحَمَّل مدينة بأسرها عاقبة من قام بهذا الفعل، وإننا نحذر القوات الأمريكية من أن الفلوجة لن تكون لقمة سائغة لهم، وإنهم إذا ما أقدموا على اجتياحها، فإن ذلك سيصعد العنف في كل شبر من العراق". ومثل تلك المعاني قالها معظم الخطباء في العشرات من مساجد المدينة.

الفلوجة تصبح عقدة لبوش وإدارته

رغم الانتقادات التي وجهها خطباء مساجد الجمعة في الفلوجة لعمليات التمثيل بالجثث إلا أني أدركت من خلال متابعتي للأحداث وتطورات الموضوع السريعة والخلفيات القديمة التي أشرت إليها بالنسبة للعمليات النوعية التي تمت في المدينة وحولها ضد القوات الأمريكية منذ بداية الاحتلال أن الأمر لن يمر مرور الكرام، وأن هذا الحادث سوف يُتَّخذ ذريعة للانتقام من المدينة وأهلها ولن يكون مجرد حادث عادي، لسبب بسيط أكدت عليه مراراً وهو أن الكاميرات كانت هناك، ربما تكون هناك حوادث أخرى قد وقعت بالفعل تعرضت لها القوات الأمريكية كانت أفظع مما حدث في الفلوجة، لكن لم تكن هناك كاميرات للتصوير والبث، لكن المشكلة لما حدث في 31 مارس/آذار 2004 أن كل المحطات التليفزيونية لا سيما التي داخل أمريكا قد بثت الصور واضطرت شركة "بلاك ووتر" أن تعترف وأن تنشر أسماء وصور المرتزقة الذي اتضح أنهم جميعاً جنود سابقون في القوات الخاصة الأمريكية أو المارينز، فافتضحت في نفس الوقت قصة المرتزقة، وكُتِبت بعد ذلك عشرات التقارير عن المرتزقة الذين يقاتلون إلى جوار القوات الأمريكية في العراق.

كما أن المناوئين لبوش وسياساته لا سيما من الديمقراطيين لم يتركوا الحادث يمر دون أن يقوموا بممارسة الضغوط السياسية عليه، وكان على رأسهم نانسي بيلوسي التي أصبحت رئيسة لمجلس النواب بعد انتخابات 2006، حيث طالبت في 2 أبريل/نيسان 2004 بإعادة النظر في الاستراتيجية الأمريكية في العراق وقالت:"إن القوات الأمريكية في العراق فشلت في الحفاظ على النظام في الفلوجة، وهذا يثير أسئلة بشأن تسليم السيادة للعراقيين في 30 يونيو/حزيران 2004" وأضافت بيلوسي: "إذا أردنا الالتزام بهذا الجدول الزمني فمن الواضح أن الرئيس يحتاج إلى خطة أفضل كي نغادر البلاد بعد نحو 90 يوماً".

أما السيناتور الديمقراطي عن ولاية نيوجيرسي فرانك لتوتنبرغ والذي كان في زيارة للعراق قبل شهر من حادث الفلوجة فقد أرسل رسالة إلى الحاكم الأمريكي في العراق بول بريمر في 2 أبريل/نيسان قال فيها: "إن الولايات المتحدة يجب أن تخرج من العراق في أقرب وقت، ولكن ليس قبل التأكد من أن البلد أصبح قادراً على أن يكون مجتمعاً يسوده القانون والأمن". أما جون كيري الذي نافس بوش بعد ذلك في الانتخابات الرئاسية فقد قال:"إن هذه الهجمات تعكس حقيقة أن هذه الإدارة تواصل المضي وحدها في العراق، وأن سياستها مازال بها خلل اليوم كما كانت يوم الاحتلال".

هذه الضغوط والتصريحات جعلت سيناريو تأجيل نقل السلطة وقرب انتهاء مهمة بريمر أصبح معقداً، كما أصبح بوش تحت قصف الديمقراطيين وانتقاداتهم وضغوطهم، وأصبحت مدينة الفلوجة بالفعل تمثل عقدة للرئيس بوش وإدارته، وتمثل كذلك رمزاً للمقاومة والصمود يجب كسرها والانتقام منها، لذلك انطلقت التهديدات الأمريكية الرسمية بالانتقام مباشرة بعد الحادث. وكان تهديد بريمر الحاكم الأمريكي في الأول من أبريل/نيسان واضحاً: "هذا الحادث لن يمر دون عقاب... لن يمر موتهم ـ المرتزقة ـ دون عقاب".

أما سكوت ماكليلان المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض فقد قام الصحفيون بقصفه بوابل من الأسئلة في مؤتمره الصحفي الذي عقده يوم الخميس الأول من أبريل/نيسان واضطر تحت وابل الأسئلة أن يجيب بغضب بعدما سأله أحدهم عن عدم الإعلان عن أي اعتقالات حتى الآن قائلاً: "لن

أخوض في مناقشة بشأن عمليات عسكرية أو التخطيط لها من على هذه المنصة.. أود أن أقول إنني واثق أن هؤلاء الأفراد سوف يمثلون أمام القضاء عن هذه الهجمات المروعة والخسيسة". وحينما سأله أحدهم: "هل شاهد الرئيس جورج بوش الصور البشعة لعملية القتل في الفلوجة ؟"قال:"نعم.. ولكن الحادثة عززت عزيمة الرئيس على إنجاز مهمة السعي لتحقيق الاستقرار والأمن في العراق". وأضاف: "إننا لن نخاف؛ سنبقى على نهجنا وسننجز المهمة".

ثم انتقلت التهديدات من بريمر والبيت الأبيض إلى القادة العسكريين حيث وقف البريغادير الجنرال مارك كيميت نائب قائد القوات الأمريكية في العراق في مؤتمره الصحفي الذي عقده في مقر القيادة العسكرية في بغداد في 2 أبريل/ نيسان متعهدا "برد ساحق" على هجمات الفلوجة، وقال: "إن الانتقام سيكون في الوقت والمكان الذي نختاره"، لكن الجنرال كيميت لم يكن بهذا الحماس للقيام بالانتقام و"الرد الساحق "بعد الهجوم مباشرة، فقد نقل عنه جون برنز مراسل صحيفة "نيويورك تايمز" فى بغداد تصريحات نشرها ضمن تقرير مطول في 2 أبريل/نيسان 2004 عن أثر عملية الفلوجة على الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في العراق قال فيه: "بعد ساعات من مقتل 4 مدنيين أمريكيين والتمثيل بجثثهم في الفلوجة أول من أمس وقف جنرال أمريكي أمام الصحفيين في بغداد بثقة محدودة، اتسمت بها كل المؤتمرات الصحفية اليومية حول الموقف العسكري الأمريكي في العراق، وقال البريغادير جنرال مارك كيميت رجل المظلات السابق والمتحدث باسم القيادة العسكرية الأمريكية: "بالرغم من تصاعد العمليات المحلية، فإن المنطقة عموماً تظل مستقرة، وليس لهذه العمليات سوى تأثير محدود للغاية على قدرة التحالف على الاستمرار في تحقيق التقدم على صعيد السلطة والاقتصاد واستئناف توفير الخدمات الأساسية".

هذا التصريح للجنرال كيميت الذي نقله مراسل نيويورك تايمز في بغداد، يعكس الحالة النفسية المتردية للجنرال بعد الحادث مباشرة وهي تعكس حالة المؤسسة العسكرية الأمريكية كلها آنذاك. ويؤكد هذا التقرير الذي يختلف عن التقرير الذي سبقه المليء بالتهديدات، والذي أطلقه الجنرال في اليوم التالي أن

الجنرال كان يكذب، فالعملية لم يكن لها تأثير محدود كما ذكر، وإنما هزت أركان الإدارة الأمريكية، وأصبح الجميع ينادي بالانتقام.

وفي هذا الإطار نقلت وكالة رويترز في 2 أبريل/نيسان عن مسؤول أمريكي رفض الإفصاح عن اسمه قائلاً: "نحتاج للحصول على نتائج، إذا سمح لهذا الحادث أن يمر دون عقاب أو بدون التحقيق فيه، وإذا تم قبوله ثمناً للتعامل في الفلوجة، فإن هذا سيكون علامة سيئة". وأضاف: "إنه بدون الانتقام سترى الكثير من هؤلاء الشبان الذين علقوا جثث القتلى وهم ينضمون إلى التمرد الحقيقي ويبدؤون في المشاركة بإطلاق الرصاص والتفجيرات". وخرجت صحيفة "الواشنطن بوست" بعنوان رئيسي يقول: "الولايات المتحدة تأخذ على نفسها عهداً بالقبض على قتلة المدنيين". هكذا وصفت المرتزقة بأنهم مدنيون!!

في ظل هذه الأجواء المشحونة بالتهديدات وضرورة الانتقام بدا أن تأثير هذا الهجوم وصل إلى مرحلة التهديد بإفشال المشروع الأمريكي كله في العراق، وبدأت المطالبة بالانسحاب بعد أقل من عام على الاحتلال، وبدأ بوش وإدارته يفقدون القدرة على التحكم بالوضع، وبدأت نذر الهزيمة تحيط بهم في الوقت الذي كان فيه الجنرالات وأركان الإدارة يتحدثون عن عملية استقرار ومشروع يقوم من خلاله الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر بتسليم السلطة فيه للعراقيين في 30 يونيو/حزيران 2004 أي بعد ثلاثة أشهر فقط من الحادث، لهذا قرر بوش الانتقام ليس من الذين قاموا بقتل المرتزقة أو حتى العامة والأطفال والمراهقين الذين مثلوا بجثثهم وإنما من المدينة كلها، وسكانها الثلاث مئة ألف مدني.

خطة "الرد الساحق"

لم يتأخر الأمريكيون بإعداد خطة "الرد الساحق" حسب وصف الجنرال مارك كيميت، وفي الثاني من أبريل/نيسان اطلع مساعد وزير الدفاع الأمريكي بول وولفويتز أحد أبرز المحافظين الجدد أصحاب مشروع احتلال العراق - والذي أطيح به بعد ذلك ونقل للبنك الدولي ثم ظهرت فضيحته المدوية حول ترقية صديقته في البنك وذلك في مناسبة الذكرى الرابعة لاحتلال العراق في 12

أبريل/نيسان 2007 ثم أجبر على إعلان الاستقالة في 18 مايو/أيار بعدما كان مجلس إدارة البنك يتجه لإقالته ـ اطلع وولفويتز والجنرال بيتر بيس مساعد رئيس هيئة أركان الجيوش الأمريكية، مع أعضاء في لجنة الدفاع في الكونغرس الأمريكي في جلسة مغلقة على احتمالات ووسائل الرد الأمريكي، وقال دانكن هانتر رئيس لجنة الدفاع في الكونغرس إلى الصحفيين: "إن التاريخ سيثبت أن الذين ارتكبوا هذه الأعمال ضد الأمريكيين قللوا من قدراتنا على تحديد هوياتهم من جهة وفي القضاء عليهم من جهة أخرى".

وقد أوضح الجنرال مارك كيميت في حوار أجراه مع محطة فوكس نيوز التليفزيونية الأمريكية جانباً من هذه الخطة في حوار أجري معه في 2 أبريل/ نيسان 2004 حيث قال:"قبل الدخول إلى المدينة سنعطي الفرصة للسكان لتسليمنا المجرمين، وإلا فإننا مستعدون للذهاب إلى هناك للبحث عنهم،... وستكون عملياتنا مزيجاً من قبضة حديدية وقفاز مخملي". ثم تابع قائلاً: "بالنسبة للذين يريدون عراقاً أفضل، نحن هنا لمساعدتهم، وبالنسبة للذين اختاروا العنف فإننا سنرد عليهم".

وفي 2 أبريل/نيسان قالت شبكة تليفزيون"إيه بي سي نيوز"الأمريكية في تقرير لها أن"المسؤولين الأمريكيين حددوا هويات عدة أشخاص شاركوا في الهجوم الذي وقع في الفلوجة"، وكشف مسؤولون عسكريون لمحطة "سي إن إن" الإخبارية الأمريكية "أن واشنطن تبحث في أن يكون الهجوم مخططاً له، خاصة وأن الملابسات التي أحاطت بالحادث مثيرة للريبة منها خلو شوارع المدينة المزدحمة في العادة، وإغلاق المحال التجارية لأبوابها قبيل الهجوم مباشرة، فضلاً عن عدم تواجد عدد من رجال الإعلام المحلي في المنطقة".

وفي 4 أبريل/نيسان نقلت صحيفة "الشرق الأوسط" عن متحدث عسكري أمريكي في بغداد مزيداً من التفاصيل قال فيها: "صحيح لدينا شرائط فيديو وسنكون مهتمين جداً بالحديث مع الأشخاص الذين يظهرون فيها، لكننا لا نعرف إلى أين توصلت أجهزة الاستخبارات في عملية التعرف على المسؤولين عنها". وأكد على أن "القوات الأمريكية سوف تدخل إلى الفلوجة لملاحقة

الأشخاص الذين كمنوا للأمريكيين الأربعة، ثم قاموا بالتمثيل بجثثهم". وقال: "سندخل الفلوجة ونقيم وجوداً فيها، وسنميز العدو عن السكان وسندمره".

هذه الصورة من كل تلك الجوانب عكست حجم التوتر الذي سببته حادثة استهداف المرتزقة في الفلوجة داخل البيت الأبيض والخارجية الأمريكية والكونغرس والقيادة العسكرية الأمريكية سواء في الولايات المتحدة أو العراق. كما تؤكد أن الجميع قد اتخذ قراره بالانتقام ليس من الذين قاموا بالهجوم على الأمريكيين أو الذين سحلوهم في الشوارع وإنما من المدينة كلها، وأن هناك خطة وضعت لدخول الفلوجة، والإقامة فيها، وأن الغطاء المعلن هو تسليم الذين مثلوا بالجثث والذين ظهروا في الأشرطة التي بثتها المحطات التليفزيونية وكلهم كانوا من الأطفال أو المراهقين، ولم يكونوا بالفعل هم الذين نفذوا الكمين، فالكمين أعلنت "كتائب الشيخ الشهيد أحمد ياسين" ـ الذي كان قد استشهد قبل أسبوع في فلسطين بتنفيذه، وهي فصيل من فصائل "المقاومة الإسلامية الوطنية ـ كتائب ثورة العشرين" ـ المسؤولية عن تنفيذه لكن الهدف الحقيقي كما قال الناطق العسكري الأمريكي هو: "سندخل المدينة ونقيم فيها، وسنميز العدو عن السكان وسندمره".

كتائب الشيخ أحمد ياسين

أثناء وجودي في الفلوجة في الأول من أبريل/نيسان من العام 2004 وزّعت "كتائب الشهيد أحمد ياسين" أحد فصائل المقاومة الإسلامية الوطنية ـ كتائب ثورة العشرين"بياناً تتبنى فيه عملية قتل المرتزقة الأمريكيين الأربعة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تعلن فيها "كتائب الشيخ أحمد ياسين" عن نفسها، وبدا أنها حديثة التكوين، فلم يكن قد مضى سوى أيام قليلة على اغتيال الشيخ أحمد ياسين مؤسس وزعيم حركة حماس في فلسطين على أيدي اليهود، والذي استشهد في 22 مارس/آذار 2004. وقالت الكتائب في بيانها الذي نشرته تحت عنوان "الفلوجة مقبرة الأمريكيين" والذي تناولته معظم وكالات الأنباء: "إنها هدية يقدمها شعب الفلوجة إلى شعب فلسطين وإلى عائلة الشيخ أحمد ياسين شيخ المجاهدين الذي تم اغتياله من قبل المجرمين الصهاينة عديمي الإنسانية

والأخلاق" وقال البيان: "بعد تتبع ورصد مجموعة لرجال المخابرات الأمريكيين والموساد الصهيوني قامت عناصرنا بتنفيذ عملية اغتيال هؤلاء في يوم الأربعاء 31 مارس/آذار 2004، وبعد أن قامت جماهير الفلوجة الغاضبة بإحراق السيارتين ومن فيهما ثم سحل الجثث والتمثيل بها بسبب الكره المتعاظم للأمريكيين رداً على الاعتداءات والمداهمات على المساجد والمنازل واعتقال وتعذيب الشيوخ والعلماء وترويع النساء والأطفال". وقالت كتائب الشيخ أحمد ياسين في ختام بيانها: "ننصح القوات الأمريكية بالانسحاب من العرا ق وننصح عوائل الجنود الأمريكيين وأصحاب الشركات بعدم القدوم إلى العراق".

الفلوجة تهيمن على الإعلام الأمريكي

وكانت معظم المحطات التليفزيونية الأمريكية قد قدمت عشرات البرامج والحوارات والنقاشات حول ما حدث في الفلوجة وتبعاته، وكان من أبرز التغطيات ما كانت تقدمه الكاتبة ومقدمة البرامج التليفزيونية المميزة إيمي غودمان في برنامجها اليومي "ديمقراسي ناو" الذي يعتبر من أشد البرامج التليفزيونية الأمريكية مع مقدمته غودمان مناهضة لبوش وسياساته وعلى رأسها الحرب في العراق، وقد كنت ضيفاً على أكثر من حلقة من حلقات البرنامج بمناسبة الذكرى الثالثة للاحتلال الأمريكي في العراق، والتي كانت في شهر أبريل/نيسان من العام 2006 حيث أجرت معي غودمان حواراً عن تغطيتي لمعركة الفلوجة الأولى في جزء من إحدى الحلقات لمدة عشرين دقيقة، وكنت وحدي في الحوار، وفي حلقة أخرى كاملة عن تغطيتي لمعركة الفلوجة شاركني فيها الزميل ليث مشتاق المصور الذي كان يرافقني. أما في إحدى الحلقات التي قدمتها غودمان ـ بعد قتل المرتزقة الأمريكيين وسحل جثثهم ـ وكانت في بداية أبريل/نيسان 2004، كان من بين المتحدثين في تلك الحلقة المهندس غزوان المختار وهو عراقي متقاعد، أوضح لغودمان ومشاهدي "ديمقراسي ناو" أبعاد حادث الفلوجة وأسباب رد الفعل عند العامة. وقد نقل ذلك الكاتب الأمريكي أبو سبينوزا ونشره في موقع "برس أكشن"، ونشرته صحيفة الخليج الإماراتية في 5 أبريل/نيسان 2004، حيث قال المختار: "جرى الحادث في الفلوجة في المكان الذي قامت فيه القوات

الأمريكية قبل يومين بقتل العديد من الناس نساء وأطفالاً في الشوارع عندما قامت على نحو غير مبرر بإطلاق النيران بشكل عشوائي. لقد كانت الفلوجة المسرح الذي استخدم فيه الجيش الأمريكي القوة الوحشية لقمع الناس، ومن ضمن ذلك استخدام طائرات إف 15 وإف 16، لمهاجمة القرى والأماكن التي يعتقد أنها تؤوي مقاومين، لقد أدت تلك الأعمال إلى وقوع عدد كبير من الضحايا، وإضافة لذلك قامت القوات الأمريكية باعتقال مئات الناس لمدة تتروح بين خمسين وستين يوماً، الأمر الذي ساهم في تأليب السكان على القوات الأمريكية وعلى المقاولين ومقاولي الأمن الأمريكيين، الذين هم في حقيقة الأمر يمثلون جيشاً خاصاً غير خاضع للولايات المتحدة، وهذا هو جزء من خصخصة الحرب. وقبل يومين أو ثلاثة، وقعت حادثة مشابهة في الموصل، قتل فيها مقاولان كانا في طريقهما إلى محطة توليد الكهرباء، المهم هو أنني علمت بهذه الحادثة من الصحافة التي تقول بأن المقاولين كانا يعملان في مجال تأمين المؤونة الغذائية، ولكي لا تختلط الأمور فإن هذه المؤونة الغذائية تخص الجيش الأمريكي، وليس لمساعدة السكان المحليين، أو شيء من هذا القبيل، وعليه فإن استياء أهالي الفلوجة له مبرر، إن ما حدث لهم شيء محزن، ولكن كما تعلم، إن الأعمال الوحشية تولد أعمالاً وحشية، والعنف يولد العنف، وإن الذي بدأ ذلك هو الذي يتحمل المسؤولية، وأعتقد أن الجيش الأمريكي استخدم قوة غير مبررة ضد أهالي الفلوجة، وقد تعامل معهم بوحشية، لدرجة اضطروا معها أن يردوا بأسلوب مماثل".

هذه المداخلة التليفزيونية في برنامج إيمي غودمان وجدت من الأهمية إدراجها هنا، تماماً كما رأى الكاتب الأمريكي سبينوزا أن يدرجها في مقاله، والكاتب أمريكي والمحطة التليفزيونية التي بثت ذلك أمريكية، لأن الشعب الأمريكي والرأي العام يجب أن يدرك أن ما حدث في الفلوجة لم يكن سوى نتاج طبيعي للوحشية التي يمارسها الجيش الأمريكي ضد أبناء الفلوجة.

وقد سبق أن قدمت شواهد كثيرة على مدى اهتمام الإعلام الأمريكي بأحداث الفلوجة وكيف احتلت العناوين الأولى سواء في نشرات الأخبار أو الصحف، وقد أحرج هذا إدارة بوش كثيراً مما دفعها إلى أن تبدأ بتطبيق خطة الهجوم والانتقام من الفلوجة.

بدايات خطة الهجوم

بعد يوم وليلة قضيتها في الفلوجة الخميس الأول إلى صباح الجمعة الثاني من أبريل/نيسان 2004 جبت خلاله أرجاء المدينة وتحدثت إلى كثير من الناس حتى أضع تصوراً لما سوف أقوم به من تغطية تليفزيونية مقررة من المدينة ضمن تغطية قناة الجزيرة يوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان. وكنت دائماً أحرص على أن أفهم كثيراً من أبعاد الموقف من خلال رؤيتي ومعايشتي للواقع وليس من خلال ما يتم تناقله.

ومن خلال حواراتي ولقاءاتي المباشرة مع أهل الفلوجة لاحظت عليهم شيئاً من القلق المشوب بالحذر، والكل كان يسألني ماذا سيحدث؟ وأنا كنت بدوري أسأل الناس ماذا يتوقعون؟ فالمدينة في النهاية ليست ثكنة عسكرية، وليس بها جيش يدافع عنها، وإنما هي مدينة عادية مثل كل المدن بها ثلاث مئة ألف مدني أغلبهم من النساء والأطفال والعجائز، وعموم الناس لهم حياتهم وتجارتهم ووظائفهم ومشاغلهم وحقولهم ومصالحهم وهموم حياتهم، والمقاومة عبارة عن مجموعات صغيرة من أهل المدينة ليس لهم قواعد ثابتة أو معلومة حتى تقوم القوات الأمريكية بالهجوم عليها أو تعقب من فيها، ومن ثم فإن العقاب الأمريكي والانتقام الجماعي من المدينة وأهلها والذي أعدت خطته بين الإدارة السياسية والعسكرية سواء في واشنطن أو بغداد سيكون جريمة إنسانية كاملة الأركان.

الطريق إلى سامراء

توجهت صباح الجمعة 2 أبريل/نيسان من مدينة الفلوجة إلى مدينة سامراء، وقد علمت أن هناك طريقاً مختصراً عبر ذراع دجلة يمكن أن أذهب من خلاله من الفلوجة إلى سامراء مباشرة دون الحاجة إلى دخول بغداد. وكان أهم ما لفت نظري طوال الطريق هو عدد الآليات الأمريكية المحطَّمة على جانبي الطريق بفعل الكمائن والتى لم يتمكن الأمريكيون من انتشالها. فالعادة لديهم أنه إذا وقع لهم كمين كانوا يغلقون الطريق، ثم ينتشلون قتلاهم وجرحاهم بالمروحيات، ثم

يحملون الآليات المحطمة على شاحنات، فلا يستطيع أحد أن يحصي وراءهم شيئاً، لكن يبدو أن حجم العمليات كان قد ارتفع بشكل كبير لم يمكّنهم من انتشال كل آلياتهم، وكانت العبوات الناسفة هي أغلب ما تعرضت له هذه الآليات.

أما مدينة سامراء فقد كانت حاضرة العباسيين وكان اسمها "سر من رأى"، واختصرها الناس إلى سامراء. وكنت أهدف من وراء رحلتي إليها أن أستكمل رحلاتي إلى معظم مناطق العراق التي تشتعل فيها المقاومة بعدما زرت الرمادي والفلوجة وتكريت، وقبل ذلك محافظة ديالى وكثير من مدنها. كما مررت بكثير من المدن التي عرفها الناس من خلال نشرات الأخبار وتقارير وكالات الأنباء، مثل التاجي والطارمية والضلوعية وبلد وغيرها من مدن وقرى صغيرة لكن أهلها قاموا بأعمال كبيرة في مواجهة سلطات الاحتلال، وكانت أسماء تلك المدن والقرى ولا زالت تتصدر الأخبار ونشرات الأخبار الرئيسية في أنحاء العالم.

وقد قمت بذلك في محاولة لتتبع الوضع على الساحة العراقية من كافة جوانبه وجمع المعلومات المباشرة من أرض الواقع كما عملت في حياتي المهنية من بدايتها لا سيما في تغطية الحروب، وزيارة سامراء كانت تمثل بعداً هاماً لي في فهم المشهد العراقي.

قصة صُهَيْب الباز

كان في صحبتي إلى سامراء الزميل صهيب الباز السامرائي الذي كان يعمل في مكتب قناة الجزيرة في بغداد، وهو من أهل سامراء. وصهيب هذا له قصة طريفة رواها لي على مدى يومين من الصحبة في الأسفار سأذكرها هنا باختصار، فقد كان صهيب مثل كثير من الشباب العراقيين الذين كان يمكن أن يطلق عليهم "باباراتزي". وهذا هو الاسم الذي يطلق على من يقومون بمثل عمله في الغرب، وهؤلاء هم المصورون الذين يطاردون المشاهير أو يسعون لالتقاط الصور النادرة التي يبيعونها للصحافة العالمية مقابل مبالغ كبيرة من المال.

أما في العراق فهؤلاء كانوا من المصورين الهواة الذين يحملون كاميرات

فيديو صغيرة، أو كاميرات تصوير عادية، وكانوا يجوبون شوارع بغداد أو المدن الأخرى يبحثون عن صور مميزة لقوات الاحتلال أو عمليات عسكرية يتصادف وجودهم أو عبورهم خلال حدوثها فيقومون بتصويرها ثم يقومون بعرضها لمن يشتري من محطات التلفزة أو وكالات الأنباء التي كانت تملأ مكاتبها العراق، وليس لديها عدد كاف من المصورين لترسلهم في كل مكان لينتظروا حادثاً لتصويره.

وقد قام صهيب بتصوير حادث أو اثنين وباعهم مثل كثيرين غيره من المصورين الشباب إلى مكتب قناة الجزيرة في بغداد، ولأنه كان نشيطاً فقد عرض عليه الزملاء في المكتب أن يعمل معهم بالقطعة، فكان صهيب يجوب الشوارع بكاميرا الفيديو الصغيرة التي معه مثل عشرات من الشباب العراقيين آنذاك، بحثاً عن أي صور يمكن أن يلتقطها ويبيعها لقناة الجزيرة، ولأن الكمائن كانت كثيرة على طريق بغداد سامراء المؤدي إلى الموصل حتى إنهم أطلقوا عليه اسم "طريق الكمائن" فقد فضَّل صهيب أن يظل يجوب هذا الطريق ذهاباً وإياباً طوال اليوم، ربما صادف كميناً أو عملية ضد القوات الأمريكية فيقوم بتصويرها. وكلما كانت الصور مميزة والتصوير جيداً كلما كان العائد المادي أفضل، فكان يصادف في بعض الأحيان كميناً أو عبوة ناسفة انفجرت في رتل عسكري أو سيارة وأحياناً كثيرة لا يصادف شيئاً، فهو مثل الصياد.

وفي يوم من الأيام صادف كميناً وقعت فيه القوات الأمريكية ووقع بينها اشتباك وبين بعض رجال المقاومة وقد وصل صهيب في نهاية المعركة بحيث كان الأمريكيون لا زالوا يلملمون قتلاهم وجرحاهم. وببراءة تامة وقف يصور صيده الثمين وهو سعيد ويحلم بالمبلغ الكبير الذي سوف يحصل عليه حينما يعود بهذه الصور المهمة إلى مكتب قناة الجزيرة في بغداد، لكن الجنود الأمريكيين بمجرد أن شاهدوه يقوم بالتصوير قبضوا عليه ووجَّهوا له تهمة التعاون مع المقاومة، وإلا لماذا تواجد في وقت العملية لتصويرها وكأنه على علم بها؟ وحينما قال لهم إنه يصور لقناة الجزيرة أصبحت قناة الجزيرة متهمة بأنها على علم بالعمليات وترسل المصورين لتصويرها حالة حدوثها. وقد ردد أكثر من مسؤول أمريكي مثل الجنرال ريكاردو سانشيز وقائده جون أبي زيد اتهامات

مباشرة لقناة الجزيرة أكثر من مرة بأن مصوريها يتواجدون حيث تكون العمليات، مما يعني علم قناة الجزيرة بها. لكنها أحياناً تكون الصدفة البحتة كما حدث مع صهيب هي السبب، أو يقوم رجال المقاومة أنفسهم بتصوير العمليات وتقديم الأشرطة مجاناً للجزيرة أو غيرها من القنوات الأخرى.

وكانت حادثة صهيب الباز تحديداً إحدى هذه الحوادث التي استخدموها في هذه الدعاية ضد قناة الجزيرة.

أُخِذَ صهيب بعد اعتقاله إلى سجن أبو غريب السيّىء الصيت، وبعد تحقيقات مطوَّلة معه لم يوجهوا له أي اتهام، لكنهم أبقوه في السجن مثل آلاف مؤلفة غيره من العراقيين الموقوفين دون اتهام. ولأنه كان جميل الصوت فقد كان كل يوم في المساء يرتل القرآن بصوت مرتفع بحيث كان يسمع من معه في الزنازين المجاورة. وفي يوم جاءه أحد كبار المحققين الأمريكيين في الصباح وقال له: "سمعتك أمس تردد بعض الترانيم والأناشيد بصوت جميل وأريد أن أسمعها منك مرة أخرى"، فقال له صهيب: "هذه ليست ترانيم أو أناشيد ولكنه القرآن الكريم". صمت المحقق طويلاً ثم قال له بتعجب: "هل هذا هو القرآن؟" قال صهيب: "نعم" فقال له المحقق: "هل يمكن أن تتلو عليَّ منه مرة أخرى" يقول صهيب: "فأخذت أتلو عليه بصوتي بعضاً من آيات القرآن"، وبعد قليل بدأ يتأثر ثم بكى رغم أنه لا يعرف اللغة العربية حيث كان يتواصل معي عن طريق مترجم، فتوقفت حينما رأيته يبكي، فأشار لي ألا أتوقف، فأكملت ثم بعد قليل توقفت" وتوقف هو عن البكاء، ثم قال لي: لماذا أنت هنا؟ فرويت له قصتي، فقال لي: سأحاول جاهداً أن أخرجك من هنا لكن هذا الأمر سيستغرق مني بعض الوقت وإلى أن يحين هذا سوف آتيك كل يوم لتقرأ لي شيئا من القرآن، وبالفعل تردَّد هذا المحقق عليَّ عدة مرات وفي كل مرة كان يتكرر المشهد ويبكي الرجل ثم يذهب، وفي يوم جاءني وقال لي: سوف تخرج لقد نجحت في تسوية ملفك. وكان هذا بعد سبعة وسبعين يوماً قضيتها في معتقل أبو غريب." وبالفعل خرجت من المعتقل.

عودة إلى سامراء

لم تكن سامراء بالنسبة لي مجرد مدينة عادية مثل كثير من مدن العراق الأخرى التي ذهبت إليها، وإنما كنت في طريقي إلى حاضرة العباسيين التي كانت تجيش منها الجيوش ويجبى إليها الخراج من أطراف دولة الخلافة الإسلامية، كنت في طريقي إلى حيث كان مجد الأمة الإسلامية وعزها، إنها عاصمة الخليفة المعتصم بالله العباسي الذي جيَّش الجيوش منها استجابة لنداء امرأة مسلمة في بلاد الروم اعتدى عليها رومي فقالت قولتها التي بلغت الآفاق "وامعتصماه"، لكني الآن كنت في طريقي إلى سامراء التي خربها الغزاة الأمريكيون واحتلوها وأذهبوا عنها هذا السرور الذي سميت به، والحضارة التي كانت تنعم بها والبهجة التي كانت تحيطها، "سر من رأى" فهي تقع على نهر دجلة وخلفها بحيرة الثرثار التي تسر النظر لا سيما إذا تأملها الإنسان من فوق المئذنة الملوية، لمسجد الخليفة المعتصم الضخم الكبير الذي لا زالت جدرانه قائمة حتى الآن لكنها مهملة مثل المدينة التي كانت مدينة العز والخلافة، وقد بني هذا المسجد بين عامي 221 و227 هجرية.

ورغم أن سكان سامراء البالغ عددهم 285 ألفاً كلهم من أهل السنة ومن قبائل العرب الأصيلة إلا أن المدينة بها مقام الإمام علي الهادي أحد أئمة الشيعة الذين يأتون لزيارته من إيران ومن معظم أنحاء العالم. وقد نسفت قبة هذا المقام في يوم 22 فبراير/شباط من العام 2006، ثم نسف ما تبقّى من المئذنتين في 13 يونيو/حزيران من العام 2007، في ظروف لا زالت غامضة لإشعال الحرب الأهلية بين السنة والشيعة في العراق، ولا زالت علامات الاستفهام تحيط بالذين قاموا بهذا العمل، لأن المقام وسدنته وكل العاملين فيه من السنة منذ مئات السنين ولم يقم أحد على الإطلاق بالقيام بأي أذى له، وذكر لي بعض العراقيين من أهل سامراء أن الزميلة أطوار بهجت التي قتلت في نفس هذا اليوم في سامراء 22 فبراير/شباط 2006، كانت قد توصلت إلى معرفة المجرمين الحقيقيين الذين ارتكبوا هذا الفعل، والذين لهم نفوذ واسع في العراق، وكانوا يخططون لاندلاع الحرب الأهلية الطائفية، ولذلك عاجلها هؤلاء المجرمون وقتلوها قبل أن تبوح بهم.

عبرنا جسر سد الثرثار المقام على البحيرة، ومنظر المياه من على الجسر

مثير للغاية؛ فمن جهة البحيرة التي تمتد على مرمى البصر ترى المياه مرتفعة للغاية، ومن جهة النهر ترى المياه منخفضة للغاية، وبعد الجسر مباشرة كانت هناك نقطة لقوات الاحتلال الأمريكية غالباً ما تُشَنّ عليها عمليات عسكرية من قبل المقاومة. وهي منطقة توتر دائم، لذا فإن القوات الأمريكية كثيراً ما تقوم بإغلاق الجسر وهو الرابط الأساسي للمدينة بالخارج.

نزلنا في ضيافة الشيخ ناهض السامرائي وهو من وجهاء سامراء وعلمائها الكرام، من هؤلاء الناس الذين إذا رأيتهم أحببتهم وإذا عرفتهم زاد حبك لهم. وكنت قد تعرفت عليه في مكتب قناة الجزيرة في بغداد حينما كان الزميل وضاح خنفر مديراً للمكتب وذلك في إحدى زياراتي السابقة للعراق في شهر يوليو/تموز من العام 2003. وكان بصحبة الشيخ ناهض آنذاك بعض وجهاء سامراء حيث دار بيني وبينهم نقاش طويل حول الأوضاع في العراق، فوجهوا لي الدعوة لزيارة "سر من رأى" والتعرف من قرب عليها وعلى أهلها وتاريخها وقصورها القديمة وعصرها الزاهر وربطه بالحاضر، ربما يدخل بعض عبق التاريخ شيئاً من السرور إلى النفس يزيل بعض هموم الواقع وآلامه، فوعدتهم بذلك لكني حققت وعدي بعد عدة أشهر في هذه الرحلة.

شعرت أن هذه المدينة التاريخية العظيمة مهملة إلى حد كبير، وعلاوة على الإهمال فهي تقع تحت الاحتلال، وقوات الاحتلال غاشمة، وأهل سامراء أهل عشائر عربية أصيلة، يفتخر كثيرون منهم بأنسابهم التي تصل في جذورها إلى الصحابة، وبعضهم إلى بني هاشم والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والكريم لا يرضى الضيم، لذلك فإن علاقتهم مع قوات الاحتلال من أول يوم لم تكن على ما يرام، وقد بدا ذلك في نسبة الشهداء والأسرى من أهل المدينة، فحينما زرت سامراء لم يكن هناك بيت من بيوتها ليس فيه معتقل أو شهيد، وكان عدد المعتقلين من أهل سامراء بعد عام من الاحتلال يزيد عن ثمان مئة وخمسين. وتضاعف العدد بعد ذلك أضعافاً كثيرة. كانت تنتفض سامراء دائماً على الاحتلال وتخضع للحصار وحظر التجول، وآخر انتفاضاتها قبل طباعة هذا الكتاب في شهر مايو/أيار من العام 2007 حيث حاصرتها قوات الاحتلال أكثر من أسبوعين وفرضت على سكانها حظر التجول في واحدة من أكبر الجرائم

التي تمارسها سلطات الاحتلال الأمريكية ضد أهل العراق الرافضين للاحتلال.

صلينا الجمعة في مسجد الشيخ ناهض السامرائي، ثم دعانا إلى الغداء مع بعض وجهاء المدينة، ودار حديث طويل بيني وبينهم أشرت إلى كثير منه في ثنايا الكتاب، ثم ذهبنا إلى مقام الإمام علي الهادي للتعرف على أحد معالم المدينة الرئيسية التي يشد الشيعة إليها الرحال من أنحاء الدنيا.

قابلنا حراس المسجد وسدنته بالترحيب الحار، ورغم أنهم كانوا جميعاً من أهل السنة ومن أهل المدينة فقد كانوا هم المتكفلين بكل ما يتعلق بالمقام ذي القبة الذهبية الذي بني في عهد الخليفة المعتصم العباسي، وبه قبر الإمام علي الهادي ونجليه الحسن العسكري وجعفر الزكي، لكن الأهم من ذلك في معتقدات الشيعة هو أن المقام كان يقع فيه السرداب الذي يقود إلى المكان الذي اختفى فيه الإمام الغائب الذي سيظهر في آخر الزمان حسب معتقداتهم المهدي المنتظر نجل الإمام الحسن العسكري.

قمنا بعد ذلك بجولة في سوق سامراء القديم حيث أحب دائماً أن أعيش في التاريخ من خلال المرور بالأسواق، وتحدثت إلى كثير من الناس، فالمدن تعرف من أسواقها وأي مدينة لا أمشي في سوقها أعتبر نفسي لم أعرفها جيداً.

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مسجد الملوية الذي بناه المعتصم في القرن الثالث الهجري، وصعدنا إلى المئذنة رغم الهواء الشديد المخيف الذي كان يهزنا كلما صعدنا، وأدركت من فوق المئذنة لم اتخذ العباسيون هذه المدينة الجميلة حاضرة لدولة الخلافة التي كانت تبسط نفوذها على كثير من بلاد الدنيا، لكنها اليوم أسيرة تحت الاحتلال الأمريكي تقاومه وتأبى أن تقبل بوجوده.

بداية الهجوم على الفلوجة

في يوم السبت 3 أبريل/نيسان بدأت القوات الأمريكية بتنفيذ بدايات خطة هجومها على الفلوجة، فأصدرت بياناً به صور بعض الذين شوهدوا على شاشات التلفزة وهم يقومون بسحل جثث بعض المرتزقة في الشوارع، وكان معظمهم من المراهقين والأطفال والعامة، وطالبوا بتسليمهم للقوات الأمريكية، وبدأت عمليات

التهديد والوعيد والتوتر تسود أنحاء العراق بشكل عام والفلوجة بشكل خاص.

وقامت القوات الأمريكية بحصار الحي العسكري في المدينة وقامت مناوشات عسكرية بينها وبين بعض رجال المقاومة انتهت بفك حصار القوات الأمريكية عن الحي بعد ليلة من حصاره، وكانت توقعات الكثيرين لا تزيد عن أن التهديد الأمريكي في مداه الواسع لن يزيد عن عملية هجوم وقصف مثل كثير من العمليات التي حدثت. ولأن الفلوجة قريبة من بغداد 55 كيلو متراً فقط، فلم يكن بها صحفيون مقيمون إلا أبناء المدينة الذين يعملون مع وكالات أنباء أو صحف أو محطات تليفزيون عربية أو عالمية، وكان من بينهم زميلنا حسين دلي الذي كان له دور بطولي رائع، ربما أفصِّل بعض جوانبه في الفصول القادمة من الكتاب.

كما أن المدينة لم يكن بها فنادق على مستوى يسمح للصحفيين بالإقامة أو البقاء، فكان الجميع من غير المقيمين يأتون إلى المدينة صباحاً ويعودون إلى بغداد مساءً بعد أن يحصلوا على صور أو لقاءات مع الناس. لذلك كانت المدينة تفرغ من الصحفيين كل ليلة إلا من أبناء الفلوجة المقيمين فيها، لكن حالة التوتر كانت سائدة، وكانت الطائرات تلقي منشورات بها تحذيرات ومطالب بتسليم مرتكبي الاعتداء على المرتزقة، وكانت هناك قوات أمريكية تحتشد من بعض الجوانب، لكن أحداً لم يكن يتخيل أن يصبح الناس في الخامس من أبريل/نيسان فيجدوا المدينة مطوَّقة من كل الجوانب، بقوات أمريكية يصل عددها إلى أحد عشر ألف جندي، لكن هذا ما حدث، لقد بدا أن أهل الفلوجة سحلوا بوش وإدارته في شوارعها وليس بعض المرتزقة الأمريكيين، لذا فإن بوش قرر الانتقام من المدينة وكل أهلها بنسائهم وأطفالهم وعجائزهم، مهما كان الثمن.

الفصل الثالث

الطريق إلى الفلوجة

كانت شوارع بغداد مزدحمة للغاية صباح ذلك اليوم الاثنين الخامس من أبريل/ نيسان 2004، فقضينا وقتاً طويلاً حتى خرجنا إلى الطريق الدولي الذي يربط بين الأردن والعراق المعروف لدى العراقيين باسم "طريق المرور السريع"، فهو أقرب الطرق التي يمكن أن ندخل منها إلى مدينة الفلوجة، وعادة ما كنت أذهب إلى المدينة منه فى زياراتي السابقة، لكن الطريق بدا طويلاً هذه المرة وكأنه لا نهاية له.

كان فريق الجزيرة يتكوَّن مني ومن الزميل حامد حديد والمصوِّران ليث مشتاق وحسان وليد، ومهندس الاتصالات سيف الدين محمد، وسائقين هما عبد العزيز إبراهيم الذي كنا نناديه طوال الوقت بأبي عمر، وسائق سيارة الستلايت وكان اسمه فرقد.

ما إن اقتربنا من مفرق الفلوجة على طريق المرور السريع حتى وجدنا عشرات الشاحنات والسيارات المدنية تصطف على جانبي الطريق، لكننا لم نتوقف وواصلنا السير حتى وصلنا قرب مفرق الفلوجة، فوجدنا السيارات متوقفة على بعد ما يزيد على ثلاث مئة متر من حواجز إسمنتية تسد الطريق، وتقف عليها قوات أمريكية.

كانت السيارة التي ترافقنا وتحمل جهاز البث مميزة بطبق الإرسال على سطحها بما يشير إلى أننا فريق تليفزيوني، فتقدمنا وأصبحت سيارتنا في مقدمة السيارات التي تصطف على جانبي الطريق ولم يكن في مواجهتنا سوى القوات الأمريكية والحواجز الاسمنتية التي أغلقت بها الطريق، لكنها كانت على بعد حوالى ثلاث مئة متر.

نزلنا من السيارتين وبدأنا نستكشف الموقف، فسألنا بداية أصحاب السيارات والشاحنات المتوقفين عن ظروف إغلاق الطريق، قال بعضهم إنه يقف منذ منتصف الليلة الماضية على أمل أن يفتح الطريق لكن القوات الأمريكية لا تسمح لأحد بالمرور سواء القادمين من بغداد في طريقهم إلى الفلوجة أو حتى إلى الأردن وسوريا، أو القادمين من الأردن وسوريا فى طريقهم إلى بغداد. طلبت من الزملاء أن يبقوا إلى جوار السيارتين على أن يأتي معي ليث بالكاميرا ونذهب إلى الجنود الأمريكيين لنتحدث ونتفاوض معهم، ونحاول أن نقنعهم أن يسمحوا لنا بالمرور.

كانت مسافة الثلاث مئة متر التي قطعتها متجهاً صوب الجنود الأمريكيين الذين كانوا يشهرون أسلحتهم تجاهنا وفي حالة تحفز واستعداد مسافة طويلة للغاية، وبدت وكأنها ثلاث مئة كيلو متر وليس ثلاث مئة متر، ولم يكن سوانا أنا وليث قد تجرأ وقرر أن يذهب للأمريكيين ليتحدث إليهم، فالكل كان يقف على مسافة بعيدة ولا يدري ما الذي يحدث وماذا يفعل، ولم يكن أحد يجرؤ على التقدم، وكنت أراعي وأنا أقترب شيئاً فشيئاً من الجنود الأمريكيين أن أسير ويداي بجواري وأن تكون مشيتي طبيعية لا تبعث على أدنى ريبة، لأنه في الوقت الذي كان بعضهم يشهر الأسلحة تجاهنا كان آخرون يدققون عبر المناظير المكبرة في كل تفاصيل أجسادنا وحركتنا وما نحمل، ولهذا طلبت من ليث أن يظهر أن في يده كاميرا تليفزيونية، وكان يمشي خلفي بعدة خطوات حيث كان ليث كما عهدته دائماً ذكياً ولماحاً إلى حد بعيد فحفظ مسافة بيني وبينه، وفتح الكاميرا للتسجيل بعدما أطفأ اللمبة الحمراء التي تشير إلى ذلك، وصور المشهد كاملاً.

حينما اقتربت من الجندي كنت أحمل في يدي هويتي الصحفية التي كنت قد استخرجتها سابقاً من المركز الصحفي الذي أقامته القوات الأمريكية فى المنطقة الخضراء، والتي كان يسمح لي بمقتضاها بالتحرك في أنحاء العراق، وكانت هذه الهوية تشير إلى أني أعمل في التغطية التليفزيونية لصالح "قناة الجزيرة الفضائية". وكانت القوات الأمريكية قد اشترطت على كل الصحفيين العاملين فى العراق في ذلك الوقت ضرورة استخراج تلك الهوية حتى يسمح لهم

بالعمل والتحرك في أنحاء العراق، فقمت باستخراجها فور وصولي إلى بغداد حتى تسهل لي تحركاتي بين نقاط التفتيش الأمريكية التي كانت تملأ الشوارع والطرق في بغداد وشتى أنحاء العراق.

اطلع الجندي الأمريكي على هويتي الصحفية - وكان واضحاً أنه قائد سرية وليس مجرد جندي، فقد كان يصدر الأوامر لكل من حوله، كما كان على اتصال عبر جهاز لاسلكي يحمله بقيادته - ثم سألني بحزم بعدما عرّفته بنفسي قائلاً: "وماذا تريد؟" قلت له ببساطة شديدة: "نحن فريق تلفزيوني تابع لقناة الجزيرة، ونريد أن تسمحوا لنا بالدخول إلى مدينة الفلوجة؟" قال: "الطريق مغلق إلى الفلوجة وغير مسموح لأحد بالدخول". قلت له: "ربما لا تسمحون للناس العاديين ولكننا صحفيون ومن حقنا أن ندخل حتى ننقل للناس ما يجري داخل المدينة؟" قال: "القرار ليس لك أو لي في هذه المسألة ولكن يجب أن أرفع الأمر إلى القائد". قلت له: "لا بأس ارفعه للقائد": قال: "انتظر هنا ولا تتقدم حتى آتيك بالرد".

شعرت كأننا أول فريق تليفزيوني يأتي ويطلب الدخول للمدينة، وإلا لو كان سبقنا أحد لأخبرنا قائد الحاجز الأمريكي أنه غير مسموح لأحد بالمرور حتى الصحفيين، لكن طلبه منا الانتظار أعطى دليلاً على أنه ربما كنا أول فريق تليفزيوني يطلب الدخول إلى المدينة التي كان واضحاً أنها حوصرت وقطعت كل الطرق المؤدية إليها من القوات الأمريكية.

وقفت إلى جوار ليث وكنا نرقب الوضع الذي بدا متوتراً إلى حد بعيد، فقد كان صوت الضباط يأتي واضحاً عبر جهاز الاتصال الذي يحمله قائد الحاجز فكان كله أوامر وصراخ بصوت مرتفع، لم أستطع تمييز كثير منها لأن قائد الحاجز لم يكن يقف إلى جوارنا بل كان يتحرك هنا وهناك طوال الوقت.

في هذه الأثناء وصلت سيارتان من سيارات الدفع الرباعي إلى حيث كنا نقف، فقلت في نفسي: "ما الذي جرأ هؤلاء على أن يأتوا بالسيارات إلى هنا؟"، ولكن سرعان ما فهمت، فقد كانوا من المرتزقة الذين يعملون مع القوات الأمريكية وهؤلاء كانت تفتح لهم كل الطرق المغلقة.

كانت كل سيارة بها أربعة منهم وكانوا حليقي الرؤوس ووجوههم قاسية الملامح، ويرتدون ملابس مدنية عليها دروع مضادة للرصاص ويحملون بنادق آلية أمريكية من طراز "إم 16"، وهذه ملامح عامة كان يتصف بها معظم المرتزقة الذين يعملون في العراق مع القوات الأمريكية. توجه أحدهم إلى قائد الحاجز الذي تحدثت معه وكان يحمل ورقة فأعطاه إياها وتحدث معه بالإنجليزية بلهجة تشير إلى أنهم أمريكيين، ثم رجع إلى السيارة وجلس في المقعد الأمامي حيث كان، بينما نزل من كل سيارة اثنان وأخذا يدوران حولها فيما بدا أنها عملية تأمين لزملائهم داخل كل سيارة، وكان كل منهما يحمل سلاحه في وضع الاستعداد لكن فوهات البنادق كانت موجهة للأرض.

أخذت أسترق النظر إليهم وإلى السيارتين، فوجدت أنهم باستثناء أحدهم الذي كان جسمه رياضياً ونحيلاً ويبدو أنه كان قائد المجموعة كان السبعة الآخرون أصحاب أجساد رياضية قوية، أما السيارات التي كان يبدو أنها حديثة وجديدة فكانت تحمل لوحات زرقاء خاصة لإمارة خليجية.

على امتداد البصر على جانبي الطريق كنت أرى شاحنات وسيارات صغيرة تسلك الطرق الترابية في محاولة للبحث عن طرق بديلة تُسلك بها الطريق إلى مدينة الفلوجة أو تلتف على طريق المرور السريع حتى تواصل الطريق إلى الأردن، فكان الغبار على امتداد البصر كثيفاً مع خطوط السير التي سلكتها السيارات في الطرق الصحراوية البعيدة. وبعد حوالى عشرين دقيقة من الانتظار جاء الرد وكان طبيعياً أن يكون بالرفض. وحينما حاولت النقاش مع قائد الحاجز الذي أشهد أنه تعامل معي بأدب واحترام، قال لي: "ليس من صلاحياتي أن أفعل شيئاً في هذه المسألة، لقد رفعت طلبك إلى القائد فرفعه إلى قائده بنفس التفصيلات التي ذكرتها أنت مع كامل بياناتك وبيانات المحطة التليفزيونية التي تمثلها وجاءني الرد بالرفض، نحن في حالة طوارىء، وحتى تعلم أن الأمر صعب جداً، فهؤلاء - وأشار إلى المرتزقة - متعاقدون مع الحكومة الأمريكية ولديهم تصريح بالمرور من أي نقطة عسكرية، ومع ذلك فقد جاء الرد بالرفض لهم مثلك".

قلت له وأنا أحاول الاستفادة من أدبه معي والتعرف على أي معلومة قد

تفيدني: "هل الطرق إلى الفلوجة كلها مغلقة أم هذا الطريق فقط؟". قال: "ما أعرفه هو ما أقوم به من إغلاق هذا الطريق، ويمكنك البحث عن طرق أخرى، لكن ما أؤكده لك أن المدينة محاصرة؟" قلت له: "طلب أخير؟ هل يمكن أن تسمح لنا أن نفتح طبق الإرسال في سيارتنا هذه التي تراها هناك وأن نرسل رسالة مصورة إلى محطتنا التليفزيونية عن الوضع هنا". قال وقد تغيرت لهجته قليلاً: "هذه منطقة عسكرية مغلقة وغير مسموح لكم بالتصوير وعليك الانسحاب أنت وفريقك التليفزيوني منها وعدم التصوير هنا؟"

شعرت أنه لا فائدة من إطالة النقاش أكثر من ذلك مع قائد الحاجز العسكري الأمريكي، كما أنه كان مشغولاً والأوامر تأتيه تباعاً من قائده، كما كان يبلغ قائده بكل ما يستجد أمامه، وكان الوضع يبدو متوتراً إلى حد بعيد، كما أن حواري معه لم يكن متواصلاً بل كان يذهب ويأتي ويتحدث مع قائده ومع زملائه وكذلك مع المرتزقة الذين بدوا غير مقتنعين بالرد الذي جاءهم بالرفض، رغم أنهم كانوا يعملون مع القوات الأمريكية كما أخبرني القائد الأمريكي على الحاجز.

وفي الوقت الذي قررنا فيه العودة بقي المرتزقة يبذلون محاولة أخرى ويجرون بعض الاتصالات من سياراتهم التي بدا أنها كانت مجهَّزة بشكل عالي المستوى بقيادتهم، قلت للزميل ليث: هيا نعود. وفي طريق العودة إلى زملائنا كنت أفكر طوال الوقت في البديل ماذا سنفعل؟

أثلج ليث صدري حينما أبلغني ونحن في طريق عودتنا إلى السيارتين والزملاء الذين كانوا في انتظارنا، أن الكاميرا كانت تصور طوال الوقت كل شيء حتى الحوار الكامل بيني وبين الضابط الأمريكي وكذلك لافتات الطريق السريع التي تشير إلى مفرق الفلوجة. وهكذا كان ليث طوال الرحلة يعرف ما يجب أن يفعله دون حاجة إلى توجيه دائم مني، فقد كان لديه إحساس عال بالصورة وبالحدث.

رجعنا حيث كان حامد وباقي الزملاء ينتظرون، وأخبرت حامداً بما حدث، وقلت له: "أنت من أهل الفلوجة يا حامد، ولابد أنك تعرف كل الطرق المؤدية إلى المدينة لا سيما الطرق الزراعية والترابية وأرجو أن تخبرنا بكل الطرق لنحاول الدخول من أي منها لأننا لن نتراجع عن دخول المدينة إلا إذا وجدنا كل الطرق

مغلقة، لذلك سوف نسلك كل الطرق إلى أن نجد باباً مفتوحاً للدخول.

وجدت حماسة من حامد ومن جميع الزملاء، وقال حامد: هناك عدة طرق أخرى غير هذا الطريق، وعدَّد لنا أكثر من خمس طرق منها الطريق القديم أبو غريب - خان ضاري، وعامرية الفلوجة، وطريق سدة الفلوجة الذي يقع على نهر الفرات، قلت له: "لا نريد استخدام طرق معروفة ولكن ابحث لنا عن أقل الطرق استخداماً، ويفضل أن يكون طريقا زراعياً غير مطروق فربما قامت القوات الأمريكية بإغلاق الطرق الرئيسية وتركت الطرق الزراعية مفتوحة فنجد من أحدها منفذاً". قال حامد: "إذن نجرب طريق النعيمية فهو من الطرق التي لا يعرفها إلا أهل الفلوجة والمناطق المجاورة لها ويدخل المدينة من جهتها الجنوبية عبر حي الشهداء". ويُعرف هذا الطريق أيضاً باسم "طريق المشروع"، وهذا المشروع هو أحد روافد المياه المتفرعة من نهر الفرات والتي تتجه من الفلوجة صوب أبو غريب.

اتفقنا وبدأنا المسير، سلكنا طريقاً ترابياً مليئاً بالحفر والصعود والهبوط، وكانت بعض السيارات تسلك نفس الطريق ولكن كانت قليلة مما يعني أن هذا الطريق لا يعرفه فعلاً إلا أهل المنطقة. بعدما سلكنا بعض الطرق الترابية التي تقودنا إلى طريق النعيمية، مشينا بمحاذاة الممر المائي الذي يطلقون عليه اسم "المشروع"، وكانت الطائرات المروحية الأمريكية تحلق حولنا بكثافة، بما يشير إلى حالة طوارىء واضطراب وقلق في المنطقة، شاركتنا بعض السيارات جانباً من الطريق ثم أصبحنا وحدنا في النهاية، وكنا نمشي بمحاذاة الممر المائي ولكن ليس في جهة الفلوجة ولكن في الجهة الأخرى، وسألت حامداً إن كان هناك جسر في النهاية سوف ينقلنا إلى الضفة الأخرى للمشروع؟ قال: "نعم هناك جسر ولكن عند مدخل النعيمية".

كنا جميعاً ندعو الله أن يفتح لنا مدخلاً إلى المدينة، وكنت قلقاً بعض الشيء من الوضع برمته، ولدي مخاوف من أن نجد الطريق في النهاية مغلقاً، لكني كنت أفكر في نفس الوقت في كيفية العبور من هذا المجرى المائي إلى الضفة الأخرى، ولكن كيف؟ كان عرض الممر المائي حوالى عشرة أمتار لكنه كان سريع الجريان، ولم أجد أي قوارب على جانبيه، يمكن أن تساعد في فكرة

العبور، وحدثت حامداً بما كنت أفكر فيه، فقال: لا نستطيع عبوره إلا سباحة. قلت له: "ألا توجد قوارب ولو صغيرة؟" قال: "لا أدري ولكن أعتقد عدم وجود قوارب هنا"، أخيراً شاهدنا الجسر، فحمدنا الله كثيراً لأنه حتى الآن لم تصادفنا أية قوات أمريكية وإن كانت الطائرت تحوم طوال الوقت في المنطقة، قال حامد: "خلف هذا الجسر تقع النعيمية ونستطيع أن نرى الفلوجة رأي العين من هناك"، بدأت أشعر ببعض الارتياح، ولكن ما إن عبرنا الجسر الصغير على الممر المائي حتى وجدنا بعض السيارات تصطف على جانبي الطريق وبها بعض المسافرين، وسرعان ما شاهدنا قوات أمريكية تغلق الطريق، ليس بحواجز إسمنتية كما كانوا يغلقون الطريق السريع، ولكن بكومة كبيرة من التراب وخلفها جنود في دبابات وعربات مدرعة.

أوقفنا سيارتينا إلى جوار الطريق وقلت للزملاء: سنذهب لنكرر المحاولة أنا وليث مرة أخرى، اتجهت إلى الجنود الذين كانوا قريبين للغاية، وما إن اقتربت حتى صرخ عليَّ أحدهم أن أتوقف مكاني ولا أتقدم، وقفت ورفعت له هويتي الصحفية وقلت له: أنا صحفي ونحن فريق تليفزيوني من "قناة الجزيرة الفضائية"، ونريد التحدث إلى قائد الحاجز؟ جاءني قائدهم وتحرك نحوي فيما كان الآخرون في وضع استعداد تام لإطلاق النار.

قال قائدهم وكان يبدو عليه التوتر الشديد: "ماذا تريد؟" قلت له: "نحن فريق من قناة الجزيرة الفضائية، وهذه هوياتنا ونريد الدخول إلى الفلوجة؟". توقعت أن يتعامل معي مثل قائد الحاجز الآخر الذي كان على الطريق السريع والذي تعامل معنا بأدب واحترام، وطلب منا أن يخبر قائده، لكن هذا القائد كان متوتراً وصارماً إلى حد بعيد، ولم يفتح أي مجال للحوار أو النقاش أو التفاهم، وقال بلهجة حازمة: "هذه منطقة عسكرية مغلقة وغير مسموح لأحد بالدخول" قلت له: "ولكننا صحفيون؟" قال بنفس اللهجة التي لا تحتمل النقاش: "قلت لك غير مسموح لأحد بالدخول وعليك الابتعاد الآن عن هذه النقطة؟".

كان من بين الناس القليلين الذين يقفون في المكان أحد الأطباء الذين يعملون في مستشفى الفلوجة، وكان قد أبلغني أنه من الصباح يحاول الدخول إلى المدينة لكن كل الطرق التي ذهب إليها وجدها مغلقة. قلت لقائد الحاجز

الأمريكي: "هل يمكن أن تسمح لهذا الطبيب أن يدخل؟" قال بحزم: "قلت لك ممنوع، وعليك أن ترحل وفريقك الآن من هنا". قلت له: سؤال أخير، هل يمكن أن تسمح لي بأن أفتح جهاز الستلايت وأن أرسل لمحطتي التليفزيونية رسالة من هذا المكان؟ استشاط الجندي غضباً هذه المرة وقال لي بلهجة حازمة وقد بدا أن صبره قد نفد: "إن لم تغادر المكان خلال خمس دقائق أنت وفريقك التليفزيوني سأفتح عليك النيران؟".

أدركت أنه لا مجال للمزيد من الكلام فاستدرت عائداً وبعد بضع خطوات من المسير جاءني اتصال هاتفي من مقر الجزيرة الرئيسي في الدوحة وكان معي منتج نشرة الأخبار للساعة الثانية عشرة ظهراً، وقال لي: نريد أن نأخذ معك مداخلة للنشرة. ثم حوَّلني على الهواء مباشرة حيث كان معي الزميل عبد الصمد ناصر مقدم نشرة الأخبار، وطلب مني عبد الصمد إعطاء المشاهدين صورة عن الوضع حول الفلوجة وفي أي المناطق نحن متواجدون الآن. أعطيته صورة مختصرة ومركَّزة عن وضع المدينة وحصار القوات الأمريكية لها، وعدم وجود أية طرق مفتوحة لإمكانية الدخول.

في هذه الأثناء أعاد الضابط الأمريكي صراخه عليَّ مرة أخرى من خلال ميكرفون كان يحمله على ظهر المدرعة، بضرورة الابتعاد وإلا أطلق علينا النار، اختصرت مداخلتي وأسرعت الخطى بالابتعاد عن المكان حتى نتوارى بعيداً عن الحاجز الأمريكي وطلبت من الزملاء أن يتصلوا بي في وقت لاحق لأننا في وضع خطر.

عدت إلى حيث كان الزملاء وطلبت منهم أن يتحركوا بالسيارات ولكن ليس بعيداً وإنما حتى نتوارى عن الجنود بشكل لا يتمكنون فيه من رؤيتنا، وكان في المنطقة أشجار كثيفة توارينا خلفها حتى نتدبر أمرنا ونعرف ما الذي ينبغي علينا فعله، وعلى بعد خمسين متراً فقط وجدنا طريقاً منحدراً يؤدي إلى مخزن لبيع أسطوانات الغاز، فنزلنا بالسيارات في المنحنى ووقفنا تحت أشجار كثيفة، وقلت لحامد: "هل نحن لا زلنا بعيدين عن الفلوجة؟" قال وهو يشير إلى منازل لا يزيد بُعدها عنا أكثر من كيلو مترين: "هذه هي الفلوجة يا أحمد". قلت له: "إذا كانت هذه هي الفلوجة أعتقد أننا نستطيع أن نذهب سيراً على الأقدام لا سيما

وأننا في الضفة الأخرى من المجرى المائي". قال: "لكن كيف نذهب والطريق مكشوف والطائرات المروحية كما تراها تحوم فى السماء، ونحن نرتدي سراويل وقمصاناً وأهل المنطقة لا يرتدون إلا الجلباب، ومعنا أجهزة ثقيلة لا نستطيع حملها". قلت له: "فلنحاول تدبر الأمر ولكن ابحث لنا في أمر الذهاب سيراً على الأقدام لا سيما إن كنت تعرف أحداً من أهل المنطقة يكون دليلاً لنا"، قال: "سأحاول تدبر الأمر".

كان حامد رجلاً بكل معنى الكلمة طوال الرحلة، لم أكن أطلب منه شيئاً أو أسأله عن شيء ويجيبني جواباً سلبياً على الإطلاق، كان دائماً إيجابياً إلى حد بعيد، وكان أخبرنا بالمكان وأهله وطرقه، وكان شجاعاً ومقداماً، وكلما واجهنا أمراً صعباً كان يكفي أن ألتفت إليه ودون أن أطلب منه في كثير من الأحيان ليقول لي مطمئناً ومجيباً: "أنا حاضر يا أبا ندى" ـ وندى هي ابنتي الكبرى ـ حيث أن ولدي محمد لم يكن ولد بعد ولكنه كان جنيناً في أيامه الأخيرة في بطن أمه ينتظر القدوم للحياة في أي لحظة وقد ولد بعد معركة الفلوجة الأولى بأيام ـ كما أن حامداً ينتمي إلى عشيرة الجميلات إحدى أكبر عشائر الفلوجة، والبعد العشائري فى هذه المناطق له اعتبارات كثيرة، وكان في أخلاقه متواضعاً ودوداً يحظى باحترام الناس وتقديرهم، كما أنه كان هادئاً ويقدر المسؤولية ويعرف كيف يتصرف في أحلك الظروف بروية ويوظف الأمور بشكل صحيح، والناس لا تعرفهم إلا في الأسفار والشدائد، وكان حامد من أفضل من صحبت في الأسفار والشدائد كما سأبين فيما بعد. وقد لعب حامد دوراً أساسياً من خلال كل هذه الخصال في نجاح مهمتنا وتذليل كل الصعاب التي واجهتنا، أما أهله "آل حديد" فكانوا من أكرم الناس وأجودهم وقد وسعونا بقلوبهم قبل أن يسعونا في بيوتهم خلال الأيام التي قضيناها تحت الحصار في الفلوجة.

قال حامد: "سأذهب إلى قريب لنا أعرفه هنا ربما يدلنا على طريق ندخل منه إلى الفلوجة يكون غير مطروق أو لم يغلقه الأمريكان بعد، وسوف أعود بعد قليل". ذهب حامد ووقفت أتأمل منازل الفلوجة التي كنت أراها واضحة عبر منطقة صحراوية جرداء تعرف بصحراء النعيمية، وظللت أفكر بأيّة وسيلة تكفل لنا الدخول إليها، ووضعت عدة سيناريوهات كانت كلها مليئة بالأمل والعزم

والتصميم على دخول المدينة، من بينها أن ندخل أنا وحامد سيراً على الأقدام ومعنا هواتفنا التي تعمل عبر الأقمار الاصطناعية فقط حتى لو اضطررنا أن ننتظر إلى الليل لنتوارى عن أعين القوات الأمريكية وندخلها تحت ستر الليل، ومن هناك ننقل ما نشاهده إلى مشاهدي الجزيرة عبر الهاتف، لكن نحن في النهاية قناة تليفزيونية ولسنا راديو، والتليفزيون صورة ومن ثم فوجود الكاميرات هام للغاية معنا، لذا فكرت أيضاً أن نأخذ المصورين معنا أو أحدهما، لكن ما هي أهمية الصورة إذا تم تصويرها ولم تبث ليشاهدها الناس، إذن لابد من جهاز البث أيضا.

وبينما كنت مستغرقاً فى التفكير والبحث عن سيناريوهات مختلفة للدخول إلى المدينة، وأنا أدعو الله أن يجد لنا منفذاً، لمحت سيارة بيضاء صغيرة قادمة من جهة الفلوجة، من خلال هذه المنطقة الصحراوية القاحلة، وكانت السيارة تتهادى وتقترب ببطء شديد شيئاً فشيئاً من المكان الذي كنا فيه.

وقفت أرقبها وقلت في نفسي: "لننتظر سائقها ونسأله من أين هو قادم ربما يكون قادماً من الفلوجة، ويدلنا على طريق ندخل منه"، لم تفارق السيارة عيني وأنا أرقبها تتهادى بين الوديان فتظهر تارة وتختفي أخرى، حتى اقتربت ووجدتها تتجه عبر طريق ترابي ضيق نحونا، فأسرعت تجاهها وحينما وصلت أشرت إلى سائقها فتوقف وكان رجلاً في عقده الرابع، وكانت السيارة من نوع تويوتا كريسيدا من النوع القديم، قلت له: من أين أنت قادم؟ لاحظ لهجتي المصرية، فتوجَّس قليلاً ثم قال وهو ينظر إليَّ شزراً: "وماذا تريد؟" قلت له: "لا شيء.. نحن من قناة الجزيرة الفضائية هل تعرف قناة الجزيرة؟" لم يجبني بالإيجاب أو النفي ولكن بنفس الوجه القلق تساءل: "قناة الجزيرة؟ وماذا تريد؟" قلت له: "نحن نريد أن ندخل إلى الفلوجة حتى ننقل ما يحدث فيها إلى الناس من خلال التليفزيون، ومن الصباح ونحن ندور على الطرق فوجدناها كلها مغلقة، لذا نبحث عن أي طريق يمكن أن يدخلنا إلى المدينة، ولو ساعدتنا نكون لك من الشاكرين"، بدأ الرجل يطمئن لي قليلاً ثم قال لي: "أنا قادم فعلاً من الفلوجة، وهذا الطريق لم يغلقه الأمريكيون لأنهم ربما لا يعرفونه، فهو طريق ترابي يسير بين الوديان القاحلة كما تراه لكنه خطر، وكان المهربون يستخدمونه من قبل،

ولولا أني كنت بحاجة إلى بعض الاسمنت لأرمم جانباً من بيتي ما خرجت، وهذه هي المرة الرابعة التي ذهبت وجئت فيها من هذا الطريق اليوم بعدما أغلق الأمريكيون كل الطرق المؤدية للمدينة، لكنني قررت أن تكون هذه هي الأخيرة لأن الطيران يحوم فى المكان، وهناك قتال متقطع هنا وهناك، ولدي أطفال صغار ولا أريد أن أجازف أكثر من ذلك". كدت أطير من الفرحة بعدما عرفت منه أن هناك طريقاً يمكننا الدخول منه إلى المدينة، فقلت له: "أرجو أن تساعدنا في الدخول من هذا الطريق، لأنك ستكون بذلك تساعد أهلك من أهل الفلوجة بأن ننقل للناس معاناتهم وهم تحت الحصار وكذلك ما يدور فى المدينة". نظر الرجل إليَّ وكأنه لا يستوعب ما أقول أو أنه يتعجب له، ففكَّرت أن أعرض عليه مبلغاً مالياً يكون مغرياً لا سيما بعدما رفض طلبي وقال: "لا لن أعود مرة أخرى فالطريق خطر للغاية".

وفي اللحظة التي هممت أن أفاتحه وأن أعرض عليه بعض المال، لمحت حامداً عائدٌ من مهمة البحث عن طريق آخر، فاتجهت نحوه مسرعاً لأسأله أولاً ماذا عنده فربما أجد عنده مدخلاً يكون أكثر أماناً من هذا الطريق، فأبلغني أن كل من سألهم أخبروه أن كل الطرق مغلقة حتى الطرق الزراعية الفرعية التي ربما لم يكن يعرفها إلا أهل الفلوجة. قلت له وأنا أشير إلى الرجل الذي كان في السيارة: "إن هذا الرجل قادم من الفلوجة ويقول إنه استخدم طريقاً للمهربين يمر عبر هذه السهول والأودية، وقد حاولت إقناعه بأن يدخلنا من نفس الطريق لكنه خائف ويقول بأن الطريق خطر، وكنت على وشك أن أعرض عليه مبلغاً من المال مقابل أن يدخلنا لكني رأيتك قادماً، فقلت لتحاول أنت معه بطريقتك، وأعتقد أنك لو عرضت عليه مبلغاً مغرياً من المال ربما يقبل". قال حامد: "دعني أراه وأتحدث معه أولاً".

عدت برفقة حامد إلى الرجل الذي لم يكن بعيداً عنا، وما إن رآه حامد حتى بدا أنه يعرفه، سلم عليه سلام من يعرفه، لكن الرجل لم يتعرف على حامد سريعاً، وبعدما عرّفه حامد بنفسه وذكره ببعض الأشياء من بينها أن حامداً قد حضر حفل زفافه قبل سنوات طويلة، تذكره الرجل ودخلا في حديث ودّي بينهما، فاستبشرت خيراً، وبدأ حوار بين حامد والرجل الذي ينتمي إلى بيت المسالمة وهم يسكنون أطراف النعيمية ويُعتبرون من أحد أفخاذ عشائر الجميلات التي

ينتمي إليها حامد، وبدأت مناقشة ولكن من نوع آخر كانت العشيرة والأقارب هي المحور الأساسي فيها، ولأني كنت قلقاً ومتعجلاً فقد ذكَّرت حامداً بصوت خفيض بأن يعرض على الرجل مبلغاً من المال ربما يشجعه ذلك على أن يغير رأيه ويصحبنا في الدخول إلى المدينة، قال حامد لي: "لا هذا عيب في عرف العشيرة دعني أقنعه بطريقتي".

تركته ووقفت أرقب الموقف ويدي على قلبي، خوفاً من أن يصرّ الرجل على موقفه ويرفض، والطريق بحاجة إلى دليل ومن ثم نجد صعوبة في الذهاب، كنت أعرف أن الرجل يخاطر بالمجيء معنا وكان هو قلق أيضاً وأخذ يحكي لنا عن الطائرات المروحية التي تحوم في سماء المنطقة وتقصف أي هدف يتحرك، لكني في النهاية كان لدي أمل في إقناعه.

تحوَّل الرجل من الرفض إلى التردد وسرعان ما وافق، وقال وهو يركب سيارتنا: "توكلوا على الله"، لا أستطيع أن أصف مقدار الفرحة التي غمرتني حينما وجدت الرجل يركب معنا في سيارة أبي عمر، قلت له: "تعال هنا إلى جوار أبي عمر أنت تعرف الطريق". قال: "لا اجلس أنت مكانك وأنا سأجلس خلف السائق وأوجهه"، قبل أن نتحرك أخبرت الزملاء بالوضع وخطورته، وقلت لحامد: لا ينبغي أن نجبر أحداً من الزملاء على أن يخوض هذه التجربة الخطرة معنا، فالله هو الحافظ، ولكن من الممكن أن تقصفنا هذه الطائرات المروحية بالصواريخ أو يرانا هؤلاء الجنود من وراء التلال فيطلقوا علينا قذائف الدبابات لأن الطريق مكشوف وخطر كما يبدو، لذا يجب أن نضع الزملاء جميعاً فى الصورة ونخيرهم بين العودة إلى بغداد أو مواصلة الطريق معنا.

أبلغت الزملاء بالوضع وخطورته لكني لم أجد تردداً من أحد، بل كانوا كلهم عازمين على مواصلة الطريق إلى الفلوجة، قلت لهم: "دعونا نرفع أكفنا إلى السماء وأن ندعو الله أن يحفظنا أو يعمي عيون الأمريكيين عنا". دعونا كلنا من صميم قلوبنا وانطلقنا.

ركب المهندس سيف مع سيارة البث وكان بها الأجهزة وطبق الستلايت على سطحها وكان يقودها فرقد، بينما ركبنا جميعاً ومعنا الدليل المسالمي في السيارة التي يقودها أبو عمر. مشينا بداية في طريق ترابي فرعي كان ينحدر إلى

الوادي ويدور من خلف الأبنية فاختفينا بذلك عن رصد الجنود الذين كانوا يغلقون الطريق الرسمي إلى الفلوجة عبر النعيمية، وكنت أخشى أن يرصدونا من بين ثنايا البيوت لكن المسالمي طمأنني بأنه تأكد في تحركاته السابقة أنهم لم يرصدوه، كنت ألهث بالدعاء طوال الوقت وعيني على السماء أرقب الطائرات المروحية التي كانت تحلق من بعيد، وعيني كذلك على الطريق الذي بدأ يسوء وتكثر فيه الحفر والارتفاعات والانخفاضات والتجمعات الترابية التي يمكن أن تنغرس فيها عجلات السيارة، وكانت عيني في نفس الوقت ترقب من المرآة الجانبية لسيارتنا سيارة الستلايت التي كانت تتحرك خلفنا ولكن ببطء، فقلت لأبي عمر: "لا تبتعد عن سيارة الستلايت كثيراً لأنهم عرضة للانغراس في التراب أو الحفر أكثر منا بسبب ثقل الأجهزة، كما أنهم مجبرون على أن يسيروا ببطء في هذا الطريق الصعب".

سألت المسالمي عن هذا الطريق فقال: "إن المهربين كانوا يستخدمونه في تهريب السجائر والسلع التي كانت تفرض عليها ضرائب كبيرة في عهد صدام حسين، لكنه أصبح مهجوراً بعد سقوط صدام، وأهل المنطقة يعرفونه وإن كانوا لا يستخدمونه لوجود طرق أخرى كثيرة بديلة وممهَّدة".

كانت كل دقيقة تمر علينا كأنها دهر، وكنا نتوقع في أي لحظة أن تقصفنا الطائرات أو الدبابات التي تطوق المدينة ولم نكن نراها، وفي مثل هذه الأوقات يشعر الإنسان أن قلبه معلَّق بين السماء والأرض، وقد شعرت بقلبي كذلك، رغم أني مررت بمواقف لا تقل صعوبة عن تلك أثناء تغطيتي للحرب فى أفغانستان والبوسنة والهرسك، ومررت من طرق كان السوفييت أثناء احتلالهم لأفغانستان يحتلون القمم التي تشرف عليها ويقصفونها بشكل دائم، وتعرضت القوافل التي كنت أصحبها لعمليات قصف ليلية كثيرة بالطائرات السوفييتية منها عملية لا أنساها وقعت في ولاية قندز في أفغانستان قتل وجرح فيها عدد ممن كانوا في القافلة، وأصيب بعض الصحفيين الذين كانوا معنا بحالة من الرعب والذعر حيث كنا فى طريقنا لمقابلة شاه نواز تاناي وزير الدفاع الأفغاني الذي قاد محاولة انقلابية فاشلة ضد الرئيس الأفغاني نجيب الله عام 1989.

وكان تاناي عقد تحالفاً سرياً مع قلب الدين حكمتيار أحد قادة المقاومة

الأفغانية آنذاك، وقد رتب حكمتيار الرحلة لعشرات من الصحفيين أذكر من بينهم ليز سوسيت مراسلة ومذيعة بي بي سي العالمية الآن، حيث قام حكمتيار بنقل تاناي من بيشاور بعدما هرب إلى ولاية قندز في خديعة منه ـ كشفت بعد ذلك ـ ليؤكد على أن تاناي داخل أفغانستان يقاتل إلى جوار حكمتيار. وكان تاناي رئيساً لجناح خلق المتشدد فى الحزب الشيوعي الأفغاني الحاكم الذي كان يتكون من جناحين هما "خلق" و"برشم"، وأثناء تغطيتي لمعركة جلال أباد أيضاً تعرضت للموت عدة مرات، وكذلك أثناء رحلة طويلة قمت بها إلى أطراف العاصمة كابل أثناء الاحتلال السوفييتي وسجلتها فى كتابي "تحت وابل النيران فى أفغانستان".

كما أني فى البوسنة والهرسك بقيت عدة ساعات داخل سيارة تمشي فى طريق جبلي مظلم بسرعة مخيفة بين نقاط عسكرية للصرب على قمم الجبال العالية التي كانت تطل على الطريق المليء بالسيارات المدمَّرة جراء القصف الذي كان يتعرض له الطريق بشكل دائم، وكانت هذه السيارة وسائقها الماهر جداً ينقلني إلى النفق السري الذي كان يؤدي إلى العاصمة البوسنية سراييفو التي كانت محاصرة آنذاك، وقد حفره سكان سراييفو من تحت المطار وأصبح الآن مزاراً للسياح بعدما كان الشريان الذي يمد المدينة بالحياة طوال سنوات حصارها، وقد سجلت وقائع ذلك فى كتابي "تحت وابل النيران فى سراييفو"، إلا أن كل مكان له مخاطره وشعوره الخاص به.

نظرت فى المرآة الجانبية للسيارة فوجدت المسافة بيننا وبين سيارة جهاز البث أصبحت كبيرة، فطلبت من أبي عمر أن يتوقف حتى تقترب منا سيارة البث، فقال الدليل المسالمي: هناك خطر كبير لو توقفنا. قلت: إذن هدىء كثيراً من سرعتك هم في خطر أكبر منا ويمكن أن تنغرس بهم السيارة في أي حفرة من تلك الحفر الترابية العميقة ولا يجدون من ينقذهم سوانا. سارَ أبو عمر بهدوء حتى اقتربت منا سيارة البث، في هذه الأثناء كنا نقترب شيئاً فشيئاً من بيوت الفلوجة، وأنا أكاد أحسب كل سنتيمتر نتجاوزه في الطريق ونقترب فيه أكثر من البيوت، وخيل إليَّ في تلك اللحظة أنه لو أطفأ أبو عمر محرك السيارة، لسمعنا دقات قلوبنا جميعاً وهي تكاد تخرج من صدورنا، ونحن نعد أنفاسنا ونتلهف للوصول إلى أطراف المدينة.

لم أكن أصدق بيني وبين نفسي أن تلك البيوت التي نقترب منها هي بيوت الفلوجة، كنت أعتقد أنها بيوت قرية أخرى مجاورة لها وبعدها سنقطع طريقاً خطراً آخر إلى الفلوجة، لذلك حينما وصلنا إلى أطراف البيوت قلت للمسالمي: كم بقي من الوقت حتى نصل إلى الفلوجة؟ قال هو وحامد في صوت واحد: "هذه هي الفلوجة، هذا حي الشهداء الذي يقع جنوب المدينة".

فجأة وقبل أن أتكلم خرجت علينا مجموعة مسلحة لا تقل عن خمسة أشخاص وهم يحملون الأسلحة الرشاشة فاعترضوا طريقنا وقطعوه وهم يشهرون أسلحتهم في وجوهنا وكأنه كمين مدبر، وطلبوا منا بلهجة حازمة أن نتوقف. أسقط في يدي وقلت في نفسي: "لقد أنجانا الله من الأمريكيين ولكننا وقعنا في كمين في يد هؤلاء" ولم أكن أدري هل هم قطاع طرق أم من المقاومة؟ وكان قطع الطرق منتشراً إلى حد بعيد فى العراق آنذاك، أوقف أبو عمر السيارة بشكل مفاجيء، وكنت أجلس فى المقعد الأمامي فكانت الأسلحة كلّها موجهة نحوي ونحوه، حينها نظر دليلنا المسالمي إليهم بغضب من الشباك الجانبي حيث كان يجلس خلف السائق وبدا أنه يعرفهم وهم يعرفونه فقد كانوا من أهل المنطقة، حيث صرخ فيهم وطلب منهم أن يبتعدوا ويبدو أنهم تعرفوا عليه، وسرعان ما انخفضت الأسلحة ووجهت فوهاتها إلى الأرض، وفتحوا لنا الطريق ولم يتركنا المسالمي حتى وصلنا إلى الطريق المعبَّد، وقال: ها أنتم قد وصلتم وهذا الطريق يصل بكم إلى قلب المدينة. نزلت من السيارة فعانقت الرجل ولم أكن أعرف كيف أشكره، فقلت له: وكيف ستعود؟ قال: سأدبر أمري.

لا زلت أذكر وجه هذا الرجل المسالمي البسيط وملامحه وشواربه وملابسه التي تدل على أنه أحد هؤلاء الكادحين فى الحياة، ولولا أن الله سخَّره لنا ما استطعنا الدخول إلى الفلوجة، ولما قمنا بهذه التغطية التي كنا مصدر الأخبار المصوَّرة الوحيد لكل وسائل الإعلام فى العالم من خلالها، حيث اكتشفنا بعد ذلك أننا الفريق التليفزيوني الوحيد الذي تمكَّن من دخول المدينة وقدم هذه التغطيات إلى العالم والتي استمرت حتى رفع الحصار عن المدينة بعدما فشل الأمريكيون في اقتحامها وبدأت هزيمتهم في العراق بعد معركة الفلوجة الأولى.

الفصل الرابع

تحت وابل النيران في الفلوجة

قلت لحامد وأنا أكاد أكون غير مصدِّق أننا نجحنا في اختراق الحصار الأمريكي لمدينة الفلوجة وأننا أصبحنا داخلها بالفعل: "أهذه هي الفلوجة حقاً يا حامد"؟ قال بثقة واطمئنان: "نعم هذه هي مدينتي الفلوجة وهذا هو حي الشهداء. ويمكننا أن نتوجه منه إلى حي نزال ثم إلى وسط المدينة". قلت وأنا أريد أن أزيد نفسي اطمئناناً: "هل هذه بيوتها وهذه شوارعها"؟ قال حامد: "نعم". قلت: "هل معنى ذلك أننا لن نواجه أية حواجز أمريكية تعيدنا مرة أخرى إلى بغداد أو تمنعنا من الدخول"؟ قال حامد: "لقد تخطينا كل الحواجز ونحن الآن أصبحنا تحت الحصار والنيران تماماً مثل أهل الفلوجة".

رفعت كفي إلى السماء وأنا أشكر الله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه أن سهَّل لنا اختراق الحصار الأمريكي ودخول المدينة، سألني حامد قائلاً: "إلى أين تريدنا أن نذهب؟ إلى بيتنا حيث سنقيم لنضع أغراضنا ونهيىء مكان إقامتنا ثم نذهب للمدينة؟ أم تحب أن نذهب مباشرة إلى المدينة"؟ قلت له: "نذهب أولاً إلى السوق وإلى قلب المدينة، حتى نرى كيف هي حال الناس، فالناس في أنحاء الدنيا يريدون أن يعرفوا ماذا يحدث داخل الفلوجة وما هي حقيقة الحصار المضروب حولها، وما هي مشاعر أهلها".

ثم التفتُّ إلى الزملاء وتحدثت إليهم قائلاً: "إن أمامنا مهمة عظيمة هي أن ننقل واقع هذه المدينة المحاصرة وحال أهلها إلى الناس. علينا أن نكون صبورين وأن نعمل بروح الفريق الواحد، وأن يبذل كل منا ما يستطيع لنقل الحقيقة وأن ننتظر الأجر أولاً وأخيراً من الله وليس من أحد، فمن الممكن أن يموت أي منا في أي لحظة، وبالتالي يجب أن تكون قلوبنا صافية تجاه بعضنا البعض وتجاه

الآخرين، وأن يكون كل منا متسامحاً مع الآخر لا سيما تحت ضغوط العمل والظروف غير الطبيعية التي يمكن أن نمر بها. لا أريد أن أخيفكم ولكن الموت أصبح الآن أقرب إلى كل واحد فينا من شراك نعله، ولا مجال هنا للتنازع على شيء إلا على أن يبذل كل منا ما يستطيع من أجل أمانة الرسالة العالقة في رقبته من أن دوره كإعلامي في مثل هذا المكان هو أن ينقل الحقيقة إلى الناس، وأن يحمي كل منا أخاه ما استطاع حتى نعود جميعاً سالمين لأهالينا وأبنائنا، وبما أني الوحيد الغريب بينكم فإذا كتب الله لي الشهادة فادفنوني هنا في مقابر هذه المدينة وبين شهدائها، ولا تنقلوا جسدي خارجها فأنا أحب أن أدفن بين قبور الشهداء".

لمحت في وجوه الجميع تقبُّلاً ورضاً وتجاوباً، وكانوا جميعاً نِعْمَ الناس مهنية وبذلاً وتفانياً وأداء وصبراً.

ذهبنا إلى قلب المدينة حيث مطاعمها الشهيرة التي عادة ما يجتمع عندها الناس لا سيما وقت الغداء، وقد وصلنا هناك في الساعة الواحدة ظهراً.

وأذكر أن من أشهر تلك المطاعم مطعم" البادية" و"زار زور الفلوجة" و"الحاج حسين الكبابجي"، وجدنا معظم المحلات مغلقة والشوارع كانت شبه خالية، لكن الناس بمجرد أن شاهدونا وتعرفوا علينا خرجوا وتجمَّعوا حولنا من كل حدب وصوب، وأخذ كل منهم يتحدَّث إلينا بما عنده، فطلبت منهم أن يعطوا الفرصة لبعضهم البعض حتى نسمع من كل منهم على حدة، لأننا موجودون هنا من أجل نقل أصواتهم إلى الدنيا، وطلبت من ليث وحسين أن يسجِّلا تصريحات لبعضهم.

أثناء ذلك جاءني اتصال عبر الهاتف من الزملاء في الدوحة يسألون أين وصلنا؟ وإذا كان هناك بارقة أمل لدخولنا إلى الفلوجة أم أننا في طريق عودتنا إلى بغداد؟ قلت لهم: "إننا الآن في قلب المدينة لقد نجحنا في اختراق الحصار الأمريكي ونحن الآن في قلب مدينة الفلوجة".

أخبرني منتج نشرة الأخبار آنذاك أن هناك نشرة أخبار على الهواء، وحوَّلني مباشرة إلى مقدم النشرة الزميل عبد الصمد ناصر، فأكدت له

وللمشاهدين أننا تمكّنا من اختراق الحصار ودخلنا إلى مدينة الفلوجة، ونحن الآن في قلبها محاصرين مع أهلها.

وقد علمت بعد ذلك أن هذا الإعلان عن قدرتنا على اختراق الحصار ودخول المدينة كان ضربة قاصمة للقوات الأمريكية التي كانت تحاصرها وتمنع الجميع من دخولها لا سيما الصحفيين، ولم يتمكن أي فريق تليفزيوني آخر من دخول المدينة طوال أيام حصارها سوانا، لكني لم أفصح لأحد في ذلك الوقت على الإطلاق عن الطريقة التي دخلنا بها، ولم أوردها بالتفصيل إلا في هذا الكتاب.

وتحدثت في تلك النشرة إلى مشاهدي الجزيرة عبر الهاتف عما رأيته للوهلة الأولى، وكان من بين ما قلته: "إن المدينة خائفة والناس خائفون وكثير من المحلات مغلقة". وكان هذا وصف مجازي عن حالة الناس، فالإعلام له لغته المختصرة المباشرة والمثيرة والمحفِّزة في نفس الوقت، تلك اللغة التي تنقل الحقيقة إلى الناس بعبارات دائماً موجزة ومصورة ومثيرة لأنها تختزل أحداثاً كبيرة في ثوان قليلة. لكني بعد انتهاء هذه النشرة كان بعض أهل الفلوجة يجوبون الأسواق غاضبين بحثاً عني، وكلما مررت بتجمُّع قال الناس لي: "لقد مرَّ بعض الناس هنا وسألوا عنك وعن فريق الجزيرة".

لم أكن قلقاً، فعادة ما يسأل الناس عنا وربما كان لديهم أخبار أو معلومات يريدون تزويدنا بها، ولم أكن أعلم على الإطلاق أنهم غاضبون منا، وأخيراً وجدني بعض هؤلاء فقالوا لي وهم غاضبون: "كيف تقول عنا أننا خائفون يا أحمد منصور؟ نحن لسنا خائفين، الأمريكيون هم الخائفون، نحن لا نقبل من أحد أن يصفنا بالخائفين، ويجب عليك أن تعتذر عن هذا الوصف الذي وصفتنا به في نشرات الأخبار القادمة".

قلت لهم: "هل تقبلون أن تسجلوا هذا الكلام أمام الكاميرا وتقولوه بألسنتكم وأنا أبثه في النشرات القادمة"؟ قالوا: نعم. وأذكر أني لم أجد شخصاً واحداً يقبل أن توصف المدينة وأهلها بالخوف، وإنما وجدت الجميع وبجرأة كبيرة وبعضهم حتى من الأطفال والعجائز يتحدّون الاحتلال الأمريكي والحصار الذي فرضه على المدينة بل ويتوعَّدون، بينما استهجن آخرون أن تقوم القوات

الأمريكية بمحاصرة ثلاث مئة ألف مدني هم سكان المدينة وأغلبهم من النساء والأطفال والعجائز بحجة تسليم بعض الفتية الذين مثلوا بجثث بعض المرتزقة الأمريكيين الأربعة في الحادي والثلاثين من مارس/آذار.

بداية الدمار في المدينة

أبلغنا السكان أن الطائرات قصفت بعض المنازل في حي الجولان الذي يقع شمال غربي المدينة، فذهبنا إلى هناك فوجدنا السكان مجتمعين حول بيت سقطت بعض القذائف على سطحه فاخترقته ودمرت أجزاء منه، بينما نالت قذائف أخرى بعض المنازل المجاورة وقال بعض الحضور: "إنها قنابل عنقودية"، لأنها تناثرت على البيوت.

وكان بعضهم يمسك بأجزاء من القذائف التي سقطت على المكان، فقمنا بتصوير كل هذا، وتحدث صاحب البيت إلينا وسجلت توقيع التقرير في مواجهة الكاميرا والذي عادة ما يكون في نهاية التقارير الإخبارية من وسط هذا البيت المدمَّر، حيث أعددت أول تقرير إخباري من المدينة حتى يبث على شاشة الجزيرة في نشرات الأخبار التالية.

وقبل أن أغادر المكان كانت مكبرات الصوت التي تطوف بها آليات أمريكية على الجانب الآخر من نهر الفرات الملاصق لحي الجولان تطلب من السكان تسليم الذين قاموا بعملية قتل وسحل الجنود في شوارع المدينة. وكان المتحدث يتكلم اللغة العربية حيث كان أحد العرب المرتزقة العاملين مع قوات الاحتلال، فلم يكن المرتزقة كلهم أجانب بل هناك مرتزقة عراقيون وعرب يعملون مع قوات الاحتلال مترجمين أو حتى حراس أمنيين، ولأن الصوت كان قريباً فقد طلبت من المصور أن يأتي معي لأقرب مكان يمكن أن نرى فيه تلك الآليات التي كانت تذيع هذه البيانات، لكن السكان حذرونا وقالوا: إنهم يطلقون النار على كل من يرونه، لكننا وجدنا الآليات تقترب حتى تمكنت أنا من رؤيتها من بين فراغات البيوت.

ذهبنا بعد ذلك إلى سوق المدينة، فالأسواق عادة ما تعطي صورة عن واقع

حال الناس بشكل قريب، كان الباعة الذين عادة ما يدخلون الخضار إلى المدينة في الليل أو الصباح الباكر لا زال لديهم بعض الخضروات والفاكهة معروضة في السوق، لكن الناس كانوا مضطربين إلى حد بعيد ولا يعرفون ما هي أبعاد ما يمكّن أن يسفر عنه حصار المدينة.

بعد ذلك ذهبنا إلى بيت "آل حديد" الذي كان مقر إقامتنا وذلك حتى نعد جهاز الستلايت للبث ونرسل ما لدينا من صور ومعلومات إلى مقر قناة الجزيرة في الدوحة. ويقع بيت عائلة زميلنا حامد حديد في شارع السد التابع لحي نزال الذي يقع وسط المدينة من ناحية الجنوب الشرقي، وشارع السد الذي يقع فيه البيت هو الذي يفصل حي نزال عن الحي الصناعي الذي يقع عند مدخل المدينة الشرقي الذي يربطها مع بغداد عبر الطريق العام الذي يقطع قلب الفلوجة ويتجه إلى مدينة الرمادي عاصمة محافظة الأنبار.

كان أهل حامد وإخوته في انتظارنا لا سيما شقيقه الأكبر سامي أبو عماد الذي كان نعم العون لنا هو وولديه عماد وزياد طوال الوقت. أفرغوا لنا غرفة الصالون الرئيسية وكانت فسيحة وكبيرة، فوضعنا فيها أغراضنا وأدخلنا سيارة البث داخل البيت حيث أعد المهندس سيف جهاز البث للعمل، وكانت أول مشاركة حية لي من الفلوجة في نشرة أخبار منتصف اليوم، وأعتقد أنها كانت تبث آنذاك في الساعة الرابعة مساء بتوقيت الدوحة، وقد اخترنا سطح المنزل ليكون مكاناً مرتفعاً أظهر من خلاله للمشاركة في نشرات الأخبار.

ولأن بيوت الفلوجة كلها متقاربة في الارتفاع حيث تنتشر البيوت أفقياً وتتكوّن من طابق أو طابقين، فلم يكن هناك مجال لظهور خلفيات واسعة للمدينة لكن مسجد الخلفاء الراشدين كان دائماً في خلفيتنا بمآذنه العالية.

قدمت في تلك النشرة صورة موجزة لكل ما رأيناه داخل المدينة دون أن أعطي أية تفصيلات عن كيفية دخولنا إليها، ثم أعددت أول تقرير إخباري مصوَّر لنشرات الأخبار، حيث تم بثه في النشرات التالية، وكان موضوعه عن محاولاتنا دخول المدينة وقد احتوى على صور من تلك التي صوَّرها ليث لي سرّاً وأنا أتفاوض مع القائد الأمريكي لحاجز إغلاق الطريق السريع المؤدي إلى الفلوجة عبر الطريق السريع، وكذلك صور للافتات المؤدية إلى المدينة على الطرق

المختلفة التي كانت كلها مغلقة، وطلبات القوات الأمريكية لأهل المدينة عبر مكبرات الصوت أن تسلم إليهم ما كانت تسميهم "الأشرار".

كما نقلنا بالصور ما ذكره أهل المدينة عن سقوط عدد من الصواريخ على أنحاء متفرقة منها لا سيما حي الجولان مما أدى إلى مقتل ثمانية من المدنيين. وظهر أحد المدنيين في التقرير وهو يتحدث عن إسقاط قنابل عنقودية على منطقة الجولان وكان آخر يمسك ببعض بقايا تلك القذائف.

كما تحدثنا عن أول بيان أصدرته القوات الأمريكية وكان يقضي بفرض حظر التجول على المدينة من السابعة مساء وحتى السادسة صباحاً. وقد ظل هذا التقرير يُبث طوال نشرات الأخبار النهارية وجزءًا من نشرات المساء. ثم طلب مني الزملاء في الدوحة أن أعد تقريراً آخر للنشرات الليلية، ولأن إعداد تقرير تليفزيوني لنشرات الأخبار مدته لا تزيد عن دقيقتين يقتضي جهد نهار كامل من المراسل فقد كان طلب إعداد تقرير آخر لنشرات الليل أمراً مجهداً، فقمت بجولة أخرى مسائية داخل المدينة للوقوف على آخر المستجدات.

ومع دخول الليل كنت أقف أمام مسجد الخلفاء الراشدين الذي يقع في الشارع العام في مواجهة شارع السد الذي يقع فيه بيت حامد لأسجل توقيع التقرير الذي بث في نشرات الأخبار تلك الليلة وتحدثت فيه عن عملية "الحل الحذر"، وهو الاسم الذي أطلقه الأمريكيون على عمليتهم التي كانوا يقومون بها في الفلوجة، حيث ألقت الطائرات بالمنشورات التي تحذر سكان المدينة من التقاعس عن تسليم المتهمين بقتل المرتزقة الأمريكيين وسحلهم في الشوارع. كما تحدثت عن قرار القوات الأمريكية بفرض حظر التجول على المدينة من السابعة مساء وحتى السادسة صباحاً، ونقلت صوراً التقطناها بعد السابعة مساء لرجل مسن معه طفله لا يجد مكاناً يعالجه فيه بعدما وجد المستوصفات الطبية الخاصة كلها مغلقة، التزاماً بقرار حظر التجول الذي فرضته القوات الأمريكية بعد السابعة، ولم تكن المستشفى الميداني التي أسَّسها أطباء مستشفى الفلوجة داخل المدينة مكان العيادة الشعبية قد افتتحت بعد.

كما تضمَّن هذا التقرير صوراً خاصة تمكَّن الزملاء من التقاطها للقوات الأمريكية وهي على جسر الفلوجة الحديدي القديم الذي كانت قد عُلِّقت عليه

بعض جثث المرتزقة في الحادي والثلاثين من مارس/آذار حيث كانت القوات الأمريكية ترابط على الجسر وتحتله. وهو الجسر الذي كان يربط بين طرفي المدينة عبر نهر الفرات، وكان يصل بين مستشفى المدينة التي كانت تقع على الضفة الأخرى من النهر وبين المدينة.

كان احتلال الجسر من قبل الأمريكيين يعني أن أهل المدينة لن يستطيعوا الذهاب إلى المستشفى العام، وأذكر أنني تمكنت من الوصول مع المصور ليث بمساعدة بعض سكان المنطقة إلى مكان لا يبتعد عن الجسر إلا عشرات الأمتار حيث تمكن ليث من تصوير الجنود بوضوح تام، وتم بث الصور كانفراد خاص للجزيرة عبر التقرير.

تحدثت أيضاً عن قرار اتخذ في المدينة بتعطيل الدراسة إلى أجل غير مسمى، وقد ظهرت في نشرة الساعة التاسعة مساء في بث مباشر مع الزميل جميل عازر الذي كان يقدم النشرة.

ولأن المعارك كانت مشتعلة بين القوات الأمريكية وأنصار مقتدى الصدر في الجنوب أيضاً، فإني أذكر أن الزميلة أطوار بهجت ـ التي استشهدت بعد ذلك في سامراء في 22 فبراير/شباط من العام 2006 بعد حادث تفجير مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري ـ كانت معي في بث مباشر أيضاً من مدينة الكوفة، وتحدثت في تقريري المباشر عن أصوات الانفجارات والاشتباكات التي لم تتوقف وكانت تسمع من أطراف المدينة المختلفة ونقلت عن شهود عيان أن الطائرات الأمريكية قد قصفت معظم الطرق المؤدية إلى المدينة حتى تمنع هروب السكان منها أو دخولهم إليها.

وفي مذكراته التي نشرها تحت عنوان "عام قضيته في العراق" وصف الحاكم الأمريكي بول بريمر أحداث ذلك اليوم بإيجاز في صفحة 400 قائلاً: "أخبرني الجنرال سانشيز أنه قبل شروق الشمس أقامت قوة من 1300 رجل من المارينز وقوات فيلق الدفاع المدني، وقوات الجيش العراقي الجديد، حواجز حول مدينة الفلوجة، وفرضت عليها حصاراً، ودخلت مركبات همفي المزوَّدة بمكبرات الصوت مدعومة بالمركبات المصفَّحة الفلوجة، وأعلنت عن حظر التجول من الغروب إلى الفجر وهددت بالقضاء على المتمردين الذين يرفضون تسليم

أسلحتهم والاستسلام، والوضع هناك معقَّد وخطير، على غرار الأزمة التي نواجهها في مدينة الصدر والجنوب".

تحدَّث بريمر عن 1300 جندي لكن أعداد الجنود الأمريكيين كانت أكبر من ذلك بكثير حيث كان الذين هاجموا المنطقة الصناعية 2000 جندي حسب تصريح قائدهم كما سيأتي فيما بعد، وبالتالي فإن تقديرات بعض الخبراء أشارت إلى أن القوات التي أحاطت بالفلوجة وحاصرتها في المعركة الأولى كانت تزيد عن أحد عشر ألف جندي أمريكي خلاف المتعاونين من العراقيين.

مصادر الأخبار

كانت كل مرافق المدينة من الكهرباء والماء والهاتف لا زالت تعمل في هذا اليوم الأول من الحصار الخامس من أبريل/نيسان، وكان استمرار عمل شبكة الهاتف له دور كبير في حصولنا على المعلومات من كافة أطراف المدينة وما حولها، فقد كان لحامد أقارب ومعارف في كل أطراف المدينة، وكان يتصل دائماً بهم عبر الهاتف لمعرفة ما يدور في تلك الأماكن، كما كان يتأكد من أية معلومات تصل إلينا عن أي حادث وقع في أي مكان عبر الاتصال بأناس يعرفهم في تلك الأماكن، ويطلب منهم التأكد من صحة المعلومة بطرق وضوابط مختلفة استندت إليها من خلال خبرتي المهنية الطويلة وضوابط العمل الإخباري في تغطية الحروب، حيث بدأت حياتي المهنية كمراسل حربي وغطيت الحرب في أفغانستان لمدة ثلاث سنوات، ومن بعدها عايشت في الكويت طوال شهرين الغزو والاحتلال العراقي للكويت الذي قام به صدام حسين في أغسطس/آب 1990.

كما قمت بعد ذلك بتغطية الحرب في البوسنة والهرسك، وعملت سبع سنوات مدير تحرير لواحدة من أوسع المجلات السياسية انتشاراً في الخليج، ومن ثم فقد تدرجت في العمل الصحفي من أول درجات سلمه وعملت في الميدان والإدارة، وأعرف كيف تكون الضوابط المهنية عامل النجاح الأساسي في أي عمل. كما أننا نعمل في قناة إخبارية لها مصداقيتها العالمية في صناعة الأخبار، لذلك وضعنا بعض القواعد الهامة للتأكد من صحة المعلومات التي نرسلها إلى مركز قناة الجزيرة في الدوحة لبثها، أقلها أن نتأكد من صحة الخبر من مصدرين

على الأقل لتلك الأخبار التي لا نراها رأي العين أو نقوم بتصويرها أو الحصول على صور لها.

كما أننا لم نكن نغطي أحداث الفلوجة فقط بل كل المناطق الخاصة بها وكل محافظة الأنبار، فقد كان مراسلنا في الرمادي حسام علي دائم الاتصال بنا، كذلك كنا على اتصال مع مراسلين آخرين في القائم وحديثة، وكان هناك متعاونون في أماكن أخرى عديدة يتصلون بنا ويبلغونا بتطورات الموقف في مناطقهم، وهذا أوقع علينا عبئاً ومسؤولية كبيرة في التأكد من دقة وصحة الأخبار التي نبثها.

لذلك فإنه وفق هذه الضوابط التي وضعناها كنا نستبعد كثيراً من الأخبار، وكنا نعتبر أن تجنُّب نشر خبر صحيح ولكن غير مؤكَّد أفضل مئات المرات من نشر خبر نكتشف بعد ذلك أنه غير صحيح. وقد وقعت لنا طرائف عديدة في هذا المجال، أذكر من بينها أن حامداً تلقى اتصالاً على الهاتف وأنا كنت أجلس إلى جواره حيث أبلغه المتصل بعدما أخذ حامد كل بياناته، بأن طائرة مروحية أمريكية أسقطت في منطقة عامرية الفلوجة، وهي إحدى القرى الملاصقة للفلوجة، فقلت له: اسأله في أي ساعة؟ وهل تشتعل فيها النيران أم لا؟ وهل شوهد جنود أمريكيون قتلى أم جرحى فيها؟ وكيف ومتى وصلت قوات أمريكية لإنقاذ أو تفقد من كان على متن الطائرة؟ وغيرها من الأسئلة الأخرى الكثيرة التي لا نهاية لها والتي أشبه ما تكون تحقيقاً أكثر منها استعلاماً.

وكان الرجل يجيب على كل الأسئلة وكنت أدوِّن ما يقوله حيث كان حامد يعيد إجابات الرجل بصوت مرتفع، وفي النهاية قلت له: اسأله ما لون الطائرة؟ ورغم ما كنا فيه من هم فقد غرقنا جميعاً في الضحك بعد هذا السؤال، كذلك من كثرة تفاصيل الأسئلة التي وجهناها للرجل حيث وضعناه تحت تحقيق كامل وسألناه أسئلة لم تخطر على باله، وطلبنا منه إعادة التأكد من بعض الإجابات التي أعطاها لنا وأهم شيء أن يتأكد من لون الطائرة، حيث تطلى الطائرات المروحية عادة إما باللون الصحراوي الأصفر أو اللون الأخضر، فإذا كانت تطير فوق مناطق خضراء أو بساتين عادة ما يستخدمون الطائرات ذات اللون الأخضر، وإذا كانت تطير فوق أماكن صحراوية استخدموا الطائرات ذات اللون الصحراوي،

وكان كثير من الذين يتصلون بنا ليبلغونا عن تدمير طائرات أو آليات نقول لهم صوِّروها وأحضروا لنا الصور.

ورغم الصعوبة البالغة في الحركة كان بعضهم يأتينا بصور عبر كاميرات شخصية، وكنت دائماً أقول للزملاء: إذا لم تكن كل معطيات الخبر صحيحة فلن يكون خطؤنا كبيراً إذا لم ننشرها، أما إذا كان الخبر غير صحيح، فسوف يكون خطؤنا كبيراً فكل العالم ينقل عنا، وبالتالي فيجب أن نكون أكثر دقة فيما نقدم. لذلك فقد تجنبنا نشر كثير من الأخبار التي اتضح أنها كانت صحيحة فيما بعد لأننا لم نتأكد منها وفق الضوابط الشديدة التي وضعناها، وهذا ما جعلنا مصدراً هاماً ليس لنقل الخبر فقط وإنما لصناعته.

وفي نشرة "حصاد اليوم" المسائية الرئيسية تم بث التقرير الثاني الذي أعددته لنشرات الليل، وكان فيه تطورات عديدة عما حدث في المدينة في النصف الثاني من اليوم، حيث قصفت الطائرات الأمريكية في الساعة الرابعة والنصف عصراً منزل أحد المواطنين في حي المعلمين بصاروخ أحدث حفرة كبيرة في مدخل البيت وهشمت أجزاء منه، وظهر صاحب المنزل في التقرير وشرح ما حدث، ثم ظهرتُ على نشرة الأخبار في بث مباشر وكان مقدم نشرة الحصاد الزميل جمال ريان وكانت معه الزميلة ليلى الشايب، وجمال ريان هو "ملك نشرات الأخبار" كما أطلق عليه زميلنا سامي حداد في المقابلة التي أجريتها في برنامجي "بلا حدود" مع بعض الزملاء بمناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق قناة الجزيرة في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني عام 2006.

كان جمال ينفعل في تقديمه للأخبار والأحداث وكأنه يعيشها، وبالتالي فإنه يجعل المشاهد يعيش فيها معه ومع المراسلين ومع الناس الذين ينقل عنهم الحدث، فكنت أشعر حينما يكون جمال على الطرف الآخر في الدوحة أنه يشاركني تغطية المعركة من الفلوجة.

وقد تصادف أنه في الوقت الذي كانت فيه نشرة الحصاد تبث في الحادية عشرة ليلاً أن كانت الفلوجة تتعرض لقصف شديد من القوات الأمريكية المحاصرة لها، وكانت الطائرات المروحية تجوب أنحاء المدينة وكذلك طائرات الاستطلاع، وقامت معركة طاحنة بالقذائف بين المقاومة والقوات الأمريكية

استمرت حوالي نصف ساعة خلال وقت الحصاد وما قبله، ولأننا كنا في الليل فلم نكن نرى سوى برق بعض القذائف من بعيد، أما الأصوات فقد كانت واضحة تماماً، وقد قمت وأنا على الهواء مباشرة بتغطية جانب من هذه الانفجارات والهجمات، وأشرت في التقرير المباشر إلى تصاعد العمليات في أطراف المدينة وأن القوات الأمريكية قصفت سيارات كانت تتحرك بعد موعد فرض حظر التجول كان بها مدنيون، كما أبلغنا سكان بعض المناطق عبر الهاتف، فقد علم كل أهل الفلوجة وما حولها بمكان إقامتنا في بيت آل حديد، فكان الهاتف لا يكف عن الرنين حتى إن بعض السكان الذين كانوا تحت الحصار كانوا يتصلون بنا حتى نساعدهم في البحث عن مخرج.

كان كثير من السكان الذين يسكنون في الأحياء التي تقع في أطراف المدينة مثل الحي العسكري قد غادروها إلى أماكن أكثر أمناً لدى أقارب لهم داخل المدينة، كما كنت أشاهد من على سطح منزل حامد دخاناً في بعض أطراف المدينة جراء قصف الطائرات الأمريكية، علمنا أنه كان يتصاعد من بيوت قصفت من حي الجولان الذي كان أكثر أحياء المدينة تعرضاً للقصف بسبب وجوده على خط تماس رئيسي مع القوات الأمريكية التي كانت على الجانب الآخر من نهر الفرات.

وكانت لدينا معلومات مؤكدة من مراسلينا بأن هناك معارك طاحنة اشتعلت في هذا اليوم الأول لحصار الفلوجة في معظم أنحاء الأنبار في مدن الرمادي وحديثة والقائم، والخالدية، وبروانة. ومن القرارات التي كانت القوات الأمريكية قد اتخذتها في ذلك اليوم هو إلغاء كافة رخص حمل السلاح لأهل الفلوجة، حيث إن القوات الأمريكية سبق وأن منحت العراقيين رخصاً لحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم بعدما انتشرت عمليات السلب والنهب وانعدام الأمن في كل أنحاء العراق بعد الاحتلال.

تعطل جهاز البث

انتهى حصاد اليوم في الساعة الثانية عشرة ليلاً، لكن المعارك في الليلة الثانية للحصار لم تتوقف طوال الليل بين المقاومة العراقية والقوات الأمريكية، وبعد

انتهاء الحصاد أنكر أن الزميل عمرو الكحكي كان منتج نشرات الأخبار الليلية بعد الحصاد وحتى الصباح، وطلب مني أن أعد تقريراً ثالثاً أرسله بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً حتى يتم بثه في نشرات الأخبار الصباحية، أضمنه آخر التطورات التي وقعت في المدينة حتى منتصف الليل حتى يكون المشاهدون على تواصل مع آخر التطورات من خلال نشرات الليل التي تشاهد في الولايات المتحدة واليابان والدول الأخرى، رغم الإرهاق الحاد الذي كنا فيه جميعاً إلا أني وعدت عَمْراً أني سأعد التقرير وأرسله قبل أن أنام.

وبالفعل جلست وأعددت التقرير الثالث لنشرات الأخبار، وهذا رقم قياسي يمكن أن يعدّه أي مراسل من ساحة حرب، فأقصى ما يمكن فعله تقريرين صباحي ومسائي، أما ثلاثة تقارير في يوم واحد فهذا أمر مرهق للغاية لكن الله وحده هو الذي كان يعيننا، وفي ساحات الحروب والظروف غير الطبيعية لا يدري الإنسان حجم الطاقة التي يهبها الله له فيقوم بأداء أعمال ما كان له أن يقوم بها في الأيام العادية على الإطلاق، وكانت نوبة عمرو هي النوبة الثالثة للعاملين في غرفة الأخبار، فهم يبدلون أعمالهم حينما تنتهي نوباتهم، لكن المراسلين لا سيما في ساحات المعارك يعملون طوال الوقت بالليل والنهار، ويلبون كل المطالب على قدر ما يستطيعون لكل نوبات العمل الثلاث.

أعددت التقرير واخترت الصور وسجلت الصوت وانتهيت منه تقريباً قرب الثانية بعد منتصف الليل، كان المهندس سيف لا زال مستيقظاً فطلبت منه أن يقوم بتشغيل جهاز البث حتى نرسل التقرير للدوحة، وطلبنا من الزملاء في قسم البث في الدوحة وكذلك عمرو الكحكي أن يستقبل التقرير، وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً، إلا أن الكارثة وقعت.

لقد تعطّل جهاز البث... نعم تعطّل جهاز البث، وبقينا أكثر من ساعة نحاول تشغيله لبث التقرير الثالث إلى الدوحة ولكن دون جدوى، باءت كل المحاولات بالفشل. إن تعطل الجهاز يعني أننا لن نستطيع أن نكمل ما نقوم به، فالصور هي الأساس ومراسل تليفزيون بدون صور لا يساوي شيئاً، قلت لسيف: "انس التقرير الآن وهيا بنا نخلد قليلاً إلى النوم حتى تستطيع التحرك مع انقضاء مهلة حظر التجول في السادسة صباحاً لنعرف ماذا حدث في المدينة أثناء الليل، أما

الجهاز فحاول إصلاحه في الصباح". وأبلغت الزملاء في الدوحة قرب الثالثة فجراً أننا لن نتمكن من إرسال التقرير لأن جهاز البث قد تعطل، والزملاء مرهقين للغاية وفي الصباح إن شاء الله سوف نعد تقارير جديدة.

حصاد الليلة الثانية

حاولت ألا أفكِّر في تعطُّل جهاز البث حتى أستطيع النوم ولو قليلاً، ولكن أنَّى لي أن يطرق النوم جفوني، فأنا بطبيعتي لا أنام بعمق وإنما نومي خفيف للغاية وأي صوت ولو خافت يوقظني، علاوة على ذلك فأنا لا أنام قبل أن ينام عقلي ويكف عن التفكير، وهذا ما أعاني منه بشكل دائم، وأنَّى لي أن أوقف تفكيري في ليلة مثل هذه! إضافة إلى كل ذلك كيف أنام وأصوات الانفجارات ودوي الاشتباكات لم تنقطع طوال الليل؟! وكان بعضها يبدو قريباً منا إلى حدٍّ بعيد، بل كان يهتز له البيت. ومع محاولات دؤوبة غفوت قليلاً ثم استيقظت على صوت أذان الفجر؛ فالفلوجة مدينة المساجد والمآذن، لذلك فإن أصوات الأذان تأتي إليك بشكل واضح ومرتفع في أي مكان تكون فيه، ورغم أني لم أغفُ سوى لحظات لكن كل حواسي كانت يقظة، وجلسنا بعد الصلاة نرتب ما الذي ينبغي علينا أن نقوم به مع بداية انقضاء ساعات حظر التجول في السادسة صباحاً.

قام حامد بإجراء بعض الاتصالات مع معارف وأقارب له في أطراف المدينة لنعرف الأماكن التي تعرضت للقصف، وكان من الطبيعي أن تكون في أطراف المدينة في الحي العسكري وحي الجولان، وبعض الأحياء الأخرى، ولأن مستشفى المدينة كانت تحت سيطرة القوات الأمريكية على الضفة الأخرى من نهر الفرات والمستشفى الميداني لم تكن قد افتتحت بعد، فلم يكن هناك سوى مستشفى خاص واحد يمكن أن يستقبل الجرحى في المدينة هو مستشفى الدكتور طالب الجنابي الذي كان يقع في الحي العسكري على المدخل الشرقي للمدينة من جهة بغداد.

وحتى نعرف عدد القتلى والجرحى والأماكن التي قصفت كان لابد أن نتوجه أولاً للمستشفى ثم بعد ذلك نقوم بزيارة بعض المدارس لنرى طبيعة الحياة الدراسية في اليوم الثاني للحصار وكيف يتعايش الناس مع ما حولهم. وكان أهم شيء لدينا في تلك اللحظة هو كيف نصلح جهاز البث.

بقي حامد في البيت يقوم ببعض الاتصالات ويجري بعض الترتيبات مع المهندس سيف الذي كان يحاول إصلاح الجهاز، ووضعنا خطة أن أتجه أنا إلى شرق المدينة حيث الحي العسكري وأحاول الوصول إلى حيث تقف القوات الأمريكية عند مدخل المدينة، وأقوم بتصوير المناطق والبيوت التي قصفت أثناء الليل، ثم أذهب إلى مستشفى الدكتور طالب الجنابي للحصول على آخر المعلومات عن عدد الإصابات من القتلى والجرحى. وجاء معي المصوران ليث وحسان والسائق أبو عمر، وكان من بين الترتيبات التي كان حامد سيقوم بها هو الاتصال بزميلنا حسين دلي مراسل الجزيرة في الفلوجة الذي كان يقيم في حي الجمهورية في وسط المدينة، وكان معه كاميرا صغيرة، ليعرف ما إن كان قد حصل على صور لأية عمليات قصف تمت في تلك المناطق، واتفقنا أن نعود إلى مقرنا مرة أخرى في بيت آل حديد قبل الثامنة صباحاً حيث طلب منا الزملاء في الدوحة أن يكون لي ظهور مباشر في نشرة أخبار "الجزيرة هذا الصباح" التي عادة ما تبث في الثامنة صباحاً، لنوافيهم بآخر تطورات ما حدث في الليلة الثانية من الحصار وما شاهدناه وقمنا بتصويره في الصباح من آثار القصف.

بعد ذلك أخبرت حامداً أني لن أستطيع أن أعدَّ التقارير الإخبارية لنشرات الأخبار وأتابع تقديم التقارير المباشرة على الهواء في نفس الوقت، علاوة على إدارة فريق العمل، ووضع خطط التغطية للنشرات الإخبارية، لذا عليه أن يستعد للقيام بإعداد التقارير الإخبارية وتقديمها كمراسل، فلا بد أن نقوم بتوسيع وتوزيع دائرة ومهام العمل، لأن العمل المطلوب منا أكبر من طاقتنا بكثير لا سيما بعدما علمنا أننا بالفعل الفريق التليفزيوني الوحيد الموجود داخل المدينة.

ورغم أن حامداً لم يكن قد أعد أي تقرير إخباري من قبل سوى مرة واحدة، إلا أني قلت له: "إن الحروب كما تصنع قادة عسكريين وزعماء سياسيين فإنها أيضاً تصنع صحفيين وعليه أن يستعد أن يكون صحفياً تصنعه حرب الفلوجة". وقد أبلغت رئيس التحرير في الدوحة أحمد الشيخ بذلك فرحب ولم يمانع. وأعد حامد بالفعل أول تقرير إخباري وقد صحبته في تصوير معظم أجزائه علاوة على استخدام بعض الصور التي التقطها سيف وليث في رحلتهما الصباحية معي، وقد نجح حامد في إعداد وتقديم التقارير بعد ذلك. وأذكر أني

جلست معه مرة واحدة ورتبت معه كيف يكتب للصورة، وراجعت معه تقريراً واحداً أو اثنين على الأكثر ثم أكمل هو باقي التقارير الإخبارية التي كانت تبث في نشرات الأخبار طوال الأيام التالية بعد ذلك بالتنسيق مع قسم المراسلين في الدوحة.

في نهاية شارع السد الذي يقع فيه بيت آل حديد يقع الطريق العام للفلوجة الذي يربط شرق المدينة القادم من بغداد بغربها المتجه إلى مدينة الرمادي، ولا يبعد هذا الطريق عن بيت آل حديد سوى مئتي متر تقريباً، ما إن قطعناها واتجهنا شرقاً وأصبح الحي الصناعي إلى يميننا وحي الضباط إلى يسارنا حتى قال ليث الذي كان يجلس إلى جوار أبي عمر في المقعد الأمامي للسيارة: "انظر يا أحمد ولكن بحذر على يمينك وتحديداً على أسطح ورش الحي الصناعي". نظرت فإذا بي أجد ما لم أكن أتوقعه.. يا إلهي... إنهم الجنود الأمريكيون هناك على الأسطح ولا نبعد عن مرمى نيرانهم سوى أمتار قليلة. وحتى لا يحدث أي ارتباك من قبل الفريق قلت لأبي عمر: "استمر في سيرك بهدوء ولا تتردد".

كان مكتوب على مقدمة سيارتنا بخط كبير وواضح باللغتين العربية والإنجليزية عبارة "صحافة" وأعتقد أنهم بالعين المجردة أو من خلال المناظير كانوا يستطيعون قراءتها جيداً وأن يحددوا تفاصيلنا وتفاصيل كل ما معنا، ولأن الكاميرات التليفزيونية شكلها مريب من بعيد وتبدو حينما يضعها المصور على كتفه ويبدأ التصوير كأنه يحمل مدفعاً مضاداً للطائرات أو قاذفاً عديم الارتداد، لذا فإن ليثاً بشجاعته وذكائه فتح الكاميرا وهي على ركبتيه وأخرج عدستها من طرف الشباك وأخذ يصور أسطح ورش الحي الصناعي التي كان الجنود الأمريكيون قد أخذوا مكامنهم عليها، وكانت هذه أول صور خاصة تبثها الجزيرة عن الجنود الأمريكيين داخل الفلوجة.

ولأن مستشفى الدكتور طالب الجنابي التي كانت وجهتنا الأولى لنعرف من خلال زيارتنا لها حجم الإصابات التي وقعت أثناء الليل، وكذلك الأحياء والبيوت التي تعرضت للقصف في الحي العسكري، فقد كان علينا إكمال الطريق إلى آخره حيث تقع المستشفى في الحي العسكري على مدخل المدينة من الجهة المعاكسة

للجهة التي كنا نمشي فيها. بعد ذلك بدت لنا بوضوح تام دبابتان أمريكيتان تسدان الطريق وكانت فوهات المدافع موجَّهة لنا تماماً، وكانت الدبابتان تقفان تماماً عند مدخل المدينة خارج نطاق المنازل والحي الصناعي الذي كانت كل محلاته مغلقة ولا يوجد بها أحد، وحينما وصلنا قرب نهاية ورش الحي الصناعي تراءت لنا قوات أمريكية إضافية تقف بكثافة على جانبي الطريق وخلف الدبابات وأصبحنا نرى الجنود الأمريكيين بشكل واضح مع سيارات ومدرَّعات كثيفة، فأصبحنا تحت مرمى نيرانهم من كل الجهات، ولذلك حاولنا أن نحافظ على هدوئنا بشكل كبير، وبقينا كذلك حتى استدرنا يساراً من المدخل الذي يعيدنا إلى مستشفى الدكتور الجنابي.

وكانت المستشفى ترى من على الطريق العام لكنها كانت على بعد حوالي مئة متر إلى الداخل من الطريق العام. وجدنا أمام المستشفى سيارة "بيك أب" تعرَّضت للقصف ولا زالت سحب الدخان تتصاعد منها، لكن الدخان كان مختلطاً برائحة كأنها كانت رائحة لحم آدمي يحترق، نظرت إلى ليث وإلى حسين حتى يتقدم أحدهما ليستطلع ما في السيارة ثم يقوم بتصويره. تخوف حسين لكن ليثاً كان مقداماً فتقدم نحو السيارة وسرعان ما عاد مسرعاً ومضطرباً يسد أنفه بيد ويضع يده الأخرى على فمه، قلت له: ماذا بها؟ قال: جثة شخص محترق في الصندوق الخلفي، أما كابينة السيارة فإنها ملطخة بالدماء. ودعاني للذهاب لأرى، لكن نفسي انقبضت وتألمت ولم أذهب، فصور ضحايا الحروب التي قمت بتغطيتها في أفغانستان والبوسنة والهرسك لا زالت عالقة في ذهني ولا أريد إضافة المزيد من الصور المؤلمة إلى ذاكرتي، فهذه سيارة مدنية وتقف أمام مستشفى، فمن المؤكد أنها جاءت بجرحى أو مرضى، لكن الأمريكيين لم يراعوا ذلك وقاموا بقصفها، لكني قلت: لنتأكد مما حدث من إدارة المستشفى.

وفي مدخل المستشفى كانت بعض بقع الدماء تغطي الأرضيات، وبعض الكتل الاسمنتية للواجهة متناثرة حيث كان واضحاً أن المبنى تعرض هو الآخر للقصف، فيما كان أحد العمال يقوم بغسل الأرضيات من آثار الدماء، وما إن أخبرت موظفة الاستقبال أننا فريق قناة الجزيرة حتى جاء الدكتور طالب الجنابي صاحب المستشفى ومديره واستقبلنا، وأخبرني أنه يقيم الآن في المستشفى مع

بعض الأطباء، وأنه قد حولها إلى مستشفى طوارىء عام لكل أهل المدينة بعدما سيطرت القوات الأمريكية على المستشفى العام للمدينة ومنعت الجرحى والأطباء من الذهاب إليها، وقال: إن القصف لم يتوقف طوال الليل حتى على مبنى المستشفى، الذي كان يبدو القصف وبعض الحطام على واجهته ومدخله، وقام الزملاء بتصويره. وقال إنه أخبر القوات الأمريكية بموقع المستشفى حتى يتجنبوا قصفه وأنهم ترددوا على المستشفى عدة مرات ويعرفون موقعه جيداً، كما أنه يرفع لافتة كبيرة وعلامة مضيئة تشير إلى أنه مستشفى، ومع ذلك فقد قامت القوات الأمريكية بقصفه في الليلة الماضية.

ثم سألته عن السيارة التي تقف أمام باب المستشفى وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها، فقال: إنها جاءت في الرابعة فجراً وكان فيها جريح حمله أبوه وأخوه حيث وضعوه في الصندوق الخلفي للسيارة بعدما قصفت القوات الأمريكية بيتهم، لكن ما إن وصلت السيارة إلى باب المستشفى حتى تم قصفها من قبل القوات الأمريكية التي يمكن رؤيتها على مسافة قريبة من المستشفى، فأصيب الأب وقد حاولنا إنقاذهما لكن إصابتهما كانت بالغة فاستشهدا، أما الجريح الذي كان في السيارة فقد استشهد هو الآخر وجثته لا زالت محترقة في صندوق السيارة الخلفي كما رأيتموها.

قمت بعد ذلك بزيارة بعض الجرحى وتصويرهم، وسجلت نداء قمنا ببثه بعد ذلك للدكتور الجنابي طالب فيه بعدم قصف المستشفى والتعرض للجرحى أو السيارات التي تحملهم، كما تحدث عن الوضع الخطير الذي بدأ يحيط بالمدينة.

بعد ذلك توجهنا للحي العسكري الذي يقع خلف المستشفى، حيث كان بعض البيوت فيه قد تعرض للقصف أثناء الليل فقمنا بتصويره. ثم توجهنا إلى مدرسة "متوسطة الوفاق" لتصوير مسار اليوم الدراسي فلم نجد في المدرسة سوى عشرين طالباً من أصل خمس مئة طالب هم عدد طلاب المدرسة. وأبلغني مدير المدرسة محمد هويدي أنه لم يستطع أن يمنح الطلبة إجازة لأن لديهم امتحانات ولأن الحي العسكري الذي يقع في طرف المدينة - وهو حي سكني وسمّي بالحي العسكري نسبة إلى أن سكانه من الذين يعملون في الجيش - كثيراً ما يتعرض للقصف ومن ثم فإن الطلاب كثيراً ما يتغيبون. كما أخبرني السكان

أن القصف طوال الليل كان عشوائياً وشديداً وأن معظم سكان الحي قد نزحوا عنه إلى أقاربهم الذين يقيمون في وسط المدينة أو بعض الأحياء الأخرى التي يتوقعون أن تكون أكثر أمناً. حاولت أن أعود إلى بيت حامد قبل الثامنة حتى نرسل الصور التي لدينا ونداء الدكتور طالب الجنابي، وأن أشارك مع الزملاء في "الجزيرة هذا الصباح" لكن الأمر كله كان متوقفاً على إصلاح جهاز البث الذي تعطل في الليل.

مخاطرة تبديل جهاز البث

حينما عدت إلى بيت آل حديد كان المهندس سيف لا يزال يحاول إصلاح جهاز البث، لذا شاركت في نشرة أخبار الثامنة صباحاً عبر الهاتف وقدمت صورة صوتية لما رأيناه في الصباح، بينما بقي المهندس سيف على اتصال مع مهندس أجهزة البث في مكتب بغداد معظم الوقت في محاولة لإصلاح الجهاز لكن المحاولات كلها باءت بالفشل.

وفي العاشرة صباحاً تقريباً قمت بالاتصال بالزميل علي سالم رئيس قسم الهندسة في قناة الجزيرة ربما نجد لديه حلاً، فوجدته في باريس، فأبلغته بالمشكلة التي نحن فيها، وطلبت منه أن يحاول وهو على الهاتف مع المهندس سيف لمراجعة كافة الأشياء التي يمكن أن تساعدنا في إصلاح الجهاز، بقي علي ما يزيد على نصف ساعة على الهاتف مع سيف، شعرت خلالها أن الأمر معقد ويتعلق بقطعة بها عطب ولا بد من تغييرها حتى يعمل الجهاز.

تشاورت في هذه الأثناء مع حامد وسألته إن كان هناك جهاز آخر في مكتب بغداد غير الجهاز الذي في الكوفة مع أطوار والجهاز الآخر الذي يستخدمونه في بغداد، فقال: حتى لو كان هناك جهاز رابع ماذا سنفعل؟ قلت له: "اتصل واسأل وإن كان هناك جهاز بديل يمكننا أن نفكر بعد ذلك ما الذي يمكن أن نقوم به".

أبلغنا الزملاء في مكتب بغداد أن لديهم جهازاً، لكنه قديم ولم يستخدموه منذ مدة، وهو أقل كفاءة من الجهاز الذي معنا لأنه يعمل عبر الأقمار الاصطناعية

من خلال شبكة الإنترنت وليس عبر الترددات المباشرة مثل الجهاز الذي معنا، وبالتالي فإن المهندس سيف الذي معنا لا يستطيع تشغيله، وإنما هناك مهندس خاص اسمه سيف أيضاً هو الذي يقوم بتشغيله، قلت لحامد: "هذا خبر سار وجيد، لكن عليك يا بطل أن تقوم بمغامرة". قال: ما هي؟ قلت له: "أنا أعتقد أن الطريق الصحراوي الذي دخلنا منه أمس ربما يكون لا زال مفتوحاً ولم تغلقه القوات الأمريكية بعد، ماذا علينا لو جربنا وحاولنا إدخال الجهاز من هناك"؟، فكَّر حامد قليلاً ثم أجرى بعض الاتصالات، وكان دائماً عند حسن الظن، فقد كان مقداماً وشجاعاً لا يخاف ولا يتردد، فقال لي: "أنا جاهز، وقد اتصلت بالزملاء في مكتب بغداد ونسقت معهم أن يأتوا بالجهاز إلى منطقة أبو غريب، سأحاول الخروج من نفس الطريق وآمل أن يكون مفتوحاً، فإذا خرجت منه التقيت معهم في نقطة قريبة وأدخلنا جهاز البث الجديد". لم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق وكان بحاجة إلى شجاعة كبيرة، فحجم المخاطرة كبير للغاية لكن جهاز البث هو روح عملنا وقلبه.

ودَّعت حامداً ودعوت له بالسلامة. واتجه حامد ليخرق الحصار الأمريكي ذهاباً وإياباً في مهمة خطرة للغاية بينما ذهبت أنا مع ليث إلى قلب المدينة، وبقيت على اتصال مع حامد عبر الهاتف، ولم أكن أصدق بداية أنه نجح في الخروج من الفلوجة من نفس الطريق، وبقيت مخاطرة العودة، أما نحن فقد كان حجم المخاطرة التي كنا نقوم بها كبيراً أيضاً. فكنا نرى الناس متجمعين في بعض المناطق وهناك ما يشبه الفوضى في بعضها الآخر. ذهبنا إلى منطقة الجولان حيث الاشتباكات لم تتوقف طوال الوقت، ووقعنا عدة مرات تحت نيران معارك طاحنة اندلعت بين المقاومة والقوات الأمريكية هناك، وبقينا محاصرين طيلة ساعتين في أحد الشوارع الجانبية لا نستطيع أن نتحرك بسبب شدة القتال بين المقاومة وقوات الاحتلال، وسمعنا صوت انفجار ضخم أبلغنا بعض السكان بعده أن مروحية أمريكية قد أسقطت في طرف حي الجولان، وحينما تحركنا لنقوم بالتصوير نصحنا السكان بالعودة حيث ينتشر القناصة الأمريكيون علاوة على القتال المتواصل هناك.

كانت الشوارع مليئة بالمتاريس والأحجار وبدأ عقال الأمن ينفلت في أنحاء

المدينة، وظهر المسلحون يجوبون بعض الشوارع في مظاهر تدل على أن المواجهة في هذا اليوم الثاني للحصار السادس من أبريل/نيسان قد تطورت. أما السوق القديم فقد كان مغلقاً وسوق الخضار لم يعد به إلا بعض الخضروات الجافة مثل البصل والثوم لكن معظم المحلات كانت مغلقة، وكان القلق والاضطراب بادياً على وجوه كثير من الناس، لكن أحد العراقيين قال لي جملة سجلتها وتم بثها في التقرير الذي أعده حامد ولم أنسها: "نحن أهل الفلوجة، إما أن نعيش بعز، وإما أن نموت شهداء".

في طريق العودة إلى بيت آل حديد كانت الحركة مضطربة في الشوارع إلى حد كبير وكانت هناك اشتباكات متقطعة، ونصحنا كثير من الناس بأن نسلك الشوارع الجانبية والخلفية لأن القوات الأمريكية تقدمت على محور الشارع العام في محاولة لاختراق المدينة والدخول إليها. ووقعت اشتباكات عنيفة مع المقاومة في الجهة الشرقية من المدينة، وكان واضحاً أن القوات الأمريكية حاولت اختراق المدينة في آن واحد من المحورين الشرقي والغربي، أي من جهة الحي الصناعي وحي الجولان في آن واحد محاولة قياس حجم المقاومة وتقدير قوة نيرانها وتحديد الجهة الأضعف.

فمن الجهة الشرقية تقدمت القوات الأمريكية بالفعل على الطريق العام ووصلت إلى مسجد الخلفاء الراشدين الذي يقع في مواجهة شارع السد، لكن بعض رجال المقاومة تصدوا لها وأطلقوا عليها بعض القذائف فارتدت إلى مواقعها خارج المدينة مرة أخرى، ومعنى وصولها إلى مسجد الخلفاء الراشدين أنها أصبحت على بعد عشرات الأمتار من بيت عائلة آل حديد حيث كنا نقيم.

تركنا السيارة التي كانت معنا للأمان بعيداً، وسلكنا الشوارع الخلفية سيراً على الأقدام حتى لا نتعرض لنيران القوات الأمريكية حيث كانت الاشتباكات لا زالت قائمة بينها وبين رجال المقاومة في المدخل الشرقي للمدينة وإن كانت متقطعة. وحينما اقتربنا من مسجد الخلفاء الراشدين كان هناك بعض رجال المقاومة قمنا بتصويرهم بعدما سمحوا لنا لكنهم رفضوا الحديث إلينا. وفجأة تكهرب الجو مرة أخرى وطلبوا منا الابتعاد بعدما أعطاهم قائدهم أمراً بالتحرك تجاه المنطقة الصناعية التي كانت القوات الأمريكية قد بدأت بالسيطرة عليها وعادت الاشتباكات مرة أخرى.

عدنا إلى بيت حامد من الشوارع الخلفية سيراً على الأقدام، وكانت المفاجأة التي في انتظارنا مذهلة، فقد كنت على اتصال مع حامد طوال الوقت وفي آخر مكالمة آكد لي أنه أحضر الجهاز وفي طريقه للعودة إلى الفلوجة، فكنت كأني في حالة حلم لا أصدق ما يحدث، لقد عاد حامد بالفعل خلال ثلاث ساعات ومعه جهاز بث آخر... يا الله... هل يمكن أن يصدق هذا؟ نجح حامد في اختراق الحصار ذهاباً وإياباً، ومن نفس المنطقة الصحراوية التي دخلنا منها، لم يكن الأمريكيون قد تعرفوا على هذا الطريق بعد كما توقعت، ولم يكونوا قد أغلقوه، قال حامد وهو يعانقني: "المهمة نجحت يا أبا ندى". قلت له وأنا غير مصدق: "هل أحضرت الجهاز؟" قال: "نعم"، قلت له: "أين هو"؟، قال: "لقد دخلنا إلى المنطقة تحت الاشتباكات العنيفة التي اندلعت بين رجال المقاومة والقوات الأمريكية لذا لم نتمكن من إحضار السيارة إلى هنا فتركناها في أحد الشوارع الخلفية، وبعدما تهدأ الاشتباكات وتنسحب القوات الأمريكية سوف نأتي بها".

رشيد والي

فجأة سمعت ضحكة رشيد والي المجلجلة المتميزة تأتي من غرفة الصالون، فتيقنت أن الجهاز قد وصل بالفعل، ورشيد والي - رحمه الله - كان من أميز العاملين في مكتب قناة الجزيرة في بغداد من السائقين، كان مرحاً وكثير الدعابة ولا يكف عن الضحك حتى في أحلك اللحظات، وكان من أشجع الزملاء ورجل المهمات الصعبة لذا كان الزملاء يطلقون عليه في المكتب لقب "المنقذ".

لم يكن رشيد مجرد سائق بل كان يساعد في كافة الأعمال التي يحتاجها فريق العمل، لذا كان الجميع يحبونه ويحبون صحبته، والغريب أنه كان يريد البقاء معنا في الفلوجة، كان يجوب أرض العراق من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها يتحرك مع الزملاء في كل الاتجاهات، وكان رجلاً شهماً وكما يقول المصريون "ابن بلد" يعتمد عليه، سافرت معه للمرة الأولى من عمان إلى بغداد في شهر يوليو /تموز من العام 2003، وكنت بعد ذلك أقول لهم حينما أذهب إلى بغداد أرسلوا لي رشيداً، ورغم أني أحب الصمت والتأمل في الأسفار الطويلة لا سيما عبر البر، إلا أن رشيداً كان من أكثر الناس أنساً في السفر.

قال رشيد بعدما أحضر الجهاز: "سأبقى معكم ويعود أي من السائقين بالجهاز المعطل إلى بغداد". قلت له: "لا أيها البطل عليك أنت أن تعود به، الأمر بحاجة إلى شجاعة وجرأة مثل التي لديك، فأنت ستخترق الحصار الأمريكي مرة أخرى". وفعلاً عاد رشيد بالجهاز المعطل إلى بغداد وذهب معه فرقد وسيف مهندس جهاز البث المعطل وبقي معنا سيف أيضاً ولكن مهندس البث الخاص بالجهاز الجديد.

لم تمض على هذه الحادثة إلا عدة أسابيع حتى بلغني خبر مؤلم، لقد استشهد رشيد والي، كان يصحب عبد العظيم وليثاً وسيفاً في كربلاء لتغطية اجتياح القوات الأمريكية لها، وكان يرافق ليثاً فوق سطح الفندق ويعمل معه كمساعد مصور، وكانوا يقومون بتصوير القوات الأمريكية من فوق سطح فندق "خدام الحسين" بعد بث حيّ قدمه عبد العظيم، وبينما كان رشيد يطل من بين فتحات السطح ويخبر ليثاً بأماكن تواجد القوات فيقوم ليث بتوجيه الكاميرا حيث توجد القوات الأمريكية، فجأة أطلق قناص أمريكي النار على رشيد فأصابه في رأسه إصابة قاتلة، فاستشهد على الفور، رحمه الله. وكان ذلك في مدينة كربلاء ليلة الجمعة الحادي والعشرين من مايو/أيار من العام 2004، أي بعد أحداث الفلوجة هذه بشهر ونصف فقط. وقد ترك رشيد ـ رحمه الله ـ خلفه ستة أطفال، وكان ثاني الشهداء الذين قدمتهم الجزيرة بعد طارق أيوب ـ رحمه الله ـ الذي استشهد أيضاً بعدما قصفت الدبابات الأمريكية مقر قناة الجزيرة في بغداد في 9 أبريل/نيسان 2003.

الذين يشاهدون الجزيرة لا يشاهدون سوانا نحن الذين نظهر على الشاشة لكن هناك كثيرون لا يرى أحد صورهم أو يعرف أشكالهم ربما يكونون أكثر تضحية منا وبعضهم يدفع حياته ثمناً للحقيقة، ومن هؤلاء الشهيد رشيد والي رحمه الله الذي دفع حياته ثمنا للحقيقة.

العودة للبث من جديد

كان الجهاز الجديد يعني أن روحنا قد عادت إلينا، قمنا بتشغيل الجهاز وأرسلنا ما كان لدينا من صور إلى الدوحة، وسرعان ما اندلعت معركة طاحنة فوق

رؤوسنا، وقد غامر ليث وقام بتصوير الطائرات المروحية التي كانت تحوم وتقصف من فوقنا تماماً، وبعضها اقترب منا لمسافة قصيرة حتى إنه خيل إليّ وكنت أقف على سطح البيت إلى جوار ليث أن الطيار قد رآنا رأي العين وأنه سوف يستدير ويعود ليطلق النار علينا، فقلت لليث: "كفى ما أخذناه من صور". ونزلنا بسرعة إلى داخل البيت ونحن نتوقع القصف، في الوقت الذي كان فيه رجال المقاومة يقومون بإطلاق النيران على الطائرات.

في هذه الأثناء قامت القوات الأمريكية مرة أخرى تحت حماية الطائرات في محاولة جديدة لاختراق المدينة، لكن معارك طاحنة نشبت بينهم وبين رجال المقاومة. وفي هذه الأثناء شاركت في نشرة أخبار الظهيرة بينما كنا نسمع صوت الآليات الأمريكية تخترق شارع السد في عمليات مطاردة لرجال المقاومة الذين أطلقوا النيران عليها، وقدمت وصفاً لما يدور وما رأيناه من الصباح وقمنا ببث الصور الحديثة التي حصلنا عليها، وبعد قتال شرس انسحبت القوات الأمريكية وتراجعت مرة أخرى إلى مواقعها على الطريق العام شرق المدينة.

وفي محاولة الاختراق الثانية للمدينة في هذا اليوم وقع حادث مؤلم على مرآى منا، فقد كان ليث مدخناً فانتهت سجائره فخرج يبحث عن مكان يشتري منه السجائر بعدما هدأت المعارك قليلاً، وكان هناك كشك لبيع السجائر أمام مسجد الخلفاء ولا يبعد عنا أكثر من مئتي متر. ذهب ليث فأحضر سجائره منه وعاد، قبل أن تندلع هذه الاشتباكات ويقوم الجنود الأمريكيون بهذا التقدم داخل المدينة حيث وصلوا إلى باب المنزل الذي كنا نقيم فيه في شارع السد، كما تخطوا مسجد الخلفاء، لكنهم انسحبوا مرة أخرى إلى أطراف المدينة بعدما تعرضوا لمقاومة عنيفة، وكانوا أثناء تقدمهم قد أطلقوا قذيفة على كشك السجائر فنسفوه هو وصاحبه الذي كان يجلس في داخله، وحينما انسحبوا خرجنا جميعاً لنقوم بتصوير ما أسفرت عنه المحاولة الفاشلة لاختراق المدينة، فوجدنا بقايا من أشلاء الرجل بينما دُمِّر الكشك. وكان ليث أكثر المتأثرين لأنه تذكر حواراً دار بينه وبين الرجل قبل لحظات من موته.

كذلك قام الأمريكيون خلال عملية التوغل هذه داخل المدينة بعمليات تفتيش لبعض البيوت في حي الضباط وحي نزال قبل انسحابهم، وأبلغني

شخص كان بيته ملاصقاً لمسجد الخلفاء الراشدين أنه فوجيء بالجنود داخل بيته وقد نزلوا عليه من السطح ولا يعرف كيف تسلقوا ودخلوا، وكان يجلس بين أولاده، فدب الرعب في نفوس الجميع، وقام الأمريكيون بتفتيش البيت بحثاً عن سلاح ومقاومين ثم خرجوا مرة أخرى، وقد سجلنا أقوال الرجل وقمنا ببثها في النشرات اللاحقة.

نزلنا إلى قلب المدينة مرة أخرى وأعدّ حامد توقيع الكاميرا لأول تقرير له من السوق القديم الذي كان مغلقاً وبعض محلاته مدمرة جراء قصفٍ قال سكان المنطقة إن الطائرات قامت به أثناء الليل. كما وجدنا بياناً ألقته القوات الأمريكية من الطائرات المروحية فيه صور بعض الأطفال الذين قاموا بسحل جثث الأمريكيين الأربعة في شوارع الفلوجة ويطلبون تسليمهم مقابل مكافأة مالية. في نفس الوقت حصلنا على نداء موجه من أهالي الفلوجة إلى الأمين العام للأمم المتحدة والهيئات الدولية يطلبون منها أن تتدخل من أجل فك الحصار المضروب على المدينة.

عدنا بعد ذلك إلى البيت حتى نبث آخر الأخبار فوجدنا خبراً مؤلماً، فقد قام جنود القناصة الذين كانوا يتقدمون مع القوات الأمريكية أثناء اقتحامهم شارع السد بقنص ابنة أحد جيران بيت آل حديد، وكانت تقف في شباك البيت تنظر إلى الجنود الأمريكيين الذين كانوا قد تقدموا ووصلوا إلى الحي الصناعي المواجه لنا، وحينما اقترب أبوها لمحاولة إنقاذها بعدما أصيبت أطلقوا عليه النار أيضاً فأصيب لكن الفتاة التي كان عمرها ثمانية عشر عاماً استشهدت بينما نقل أبوها للمستشفى.

قدمت هذه المعلومات في تقرير مباشر مع الزميلين ليلى الشايب وجميل عازر، وقد أدت هذه الأحداث إلى أن تصبح الفلوجة الخبر الأول في نشرات أخبار الجزيرة، كما كانت الصور الخاصة والكثيرة والمميزة التي التقطها الزملاء لا سيما للطائرات المروحية القريبة والتي تناقلتها وكالات الأنباء ومحطات التلفزة العالمية نقلاً عن الجزيرة توحي بأن الأمر جد خطير في الفلوجة.

وقد استضاف جميل عازر في نشرة تالية الجنرال مارك كيميت نائب قائد القوات الأمريكية في العراق وسأله قائلاً: هل فوجئتم بهذا الحجم من المقاومة في

الفلوجة؟ قال كيميت: "نحن نقترب من مرحلة تسليم السلطة إلى الشعب العراقي، وقد كنا نتوقع تصعيداً ونحن نرى ذلك الآن". ثم سأله جميل: "عدد القتلى والجرحى من المدنيين في العمليات التي تتم يدل على أن ما يحدث هو عملية انتقام وليس محافظة على الأمن"؟ فقال كيميت: "بالتأكيد لا يوجد أي انتقام من جانب قواتنا وإنما العمليات القتالية التي نقوم بها تتم في أماكن صعبة وهي في إطار الدفاع عن النفس".

هكذا قال كيميت أنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم، وأنا لا أدري أي دفاع عن النفس من قوات محتلة ومعتدية ضد ثلاث مئة ألف مدني محاصرين في الفلوجة، علاوة على المعارك الأخرى الطاحنة التي كانت تجري في أماكن أخرى من العراق.

وفي حوار أجراه الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر في هذا اليوم مع محطة تليفزيون "إن بي سي" الأمريكية قال رداً على سؤال حول الحصار الأمريكي للفلوجة: "لقد لقي الهجوم على الأمريكيين في الأسبوع الماضي استهجاناً عالمياً.. وقلت في ذلك الوقت إننا لن نتساهل مع تلك الهجمات والجيش يريهم الآن أننا جادون"وأضاف: "أصدقاؤنا في العراق يشكلون 90% من الشعب العراقي، وهم يشاطروننا رؤيتنا بشأن العراق".

أما هيئة علماء المسلمين فقد أصدرت بياناً في هذا اليوم السادس من أبريل/نيسان اعتبرت فيه أن ما يجري في العراق من عمليات عسكرية ضد المدنيين سواء في المدن السنية أو الشيعية هو "وصمة عار" على جبين قوات التحالف.. وقال البيان: "إن ما يجري الآن في بغداد في أحياء الأعظمية والكاظمية ومدينة الثورة والشعلة والنجف الأشرف والفلوجة وفي مدن عراقية أخرى من استهداف المدنيين من أبناء وطننا وحصارهم بالدبابات، وقذفهم بحمم الطائرات لهو وصمة عار على قوات التحالف".

اندلاع المقاومة في أنحاء العراق

بدأ الليل يرخي سدوله فيما كانت المعارك تشتعل في أطراف وأحياء المدينة

المختلفة، وكان القصف المدفعي المتواصل وأصوات الانفجارات تأتي من كل اتجاه، وكان واضحاً أن أحداث الفلوجة أشعلت كل مدن الأنبار، ففي هذا اليوم قمنا ببث أخبار عن هجوم قامت به المقاومة في الرمادي على القوات الأمريكية قتل خلاله أكثر من اثني عشر من الجنود الأمريكيين، وكان انفراداً حصل عليه مراسلنا في الرمادي حسام علي الذي أكد لنا أن معركة طاحنة تدور بين القوات الأمريكية ورجال المقاومة في منطقة الملعب وسط المدينة، وأن عشرات من الجنود الأمريكيين سقطوا قتلى وجرحى جراء هجوم بمدافع الهاون على تجمع لهم.

قمنا ببث الخبر في الساعة الثانية عشرة ظهر الثلاثاء، ثم أكده بيان صدر عن الجيش الأمريكي نشر في اليوم التالي الأربعاء جاء فيه: "أن اثني عشر جندياً أمريكياً قد قتلوا وأصيب أربعة وعشرون آخرون في الرمادي بعد معركة استمرت سبع ساعات".

وفي هذا اليوم كذلك اندلعت معركة طاحنة بين القوات الأمريكية ورجال المقاومة في الصقلاوية التي تبعد خمسة عشر كيلو متراً شمال غرب الفلوجة.

علاوة على ذلك كان أنصار مقتدى الصدر في مواجهة مع القوات الأمريكية في مدينة الصدر في بغداد وكذلك في النجف في الجنوب، كما أن المقاومة العراقية سعت لتخفيف الضغط عن الفلوجة فقامت بتكثيف عملياتها في بغداد والموصل وبعقوبة وديالى وسامراء وتكريت وأماكن أخرى، فاشتعلت المقاومة ضد الاحتلال في شتى أنحاء العراق، حتى إن بول بريمر الحاكم الأمريكي في العراق وصف تلك الأحداث في مذكراته التي نشرت طبعتها العربية دار الكتاب العربي في لبنان تحت عنوان "عام قضيته في العراق" في فصل كامل تحت عنوان "الاصطدام بالحائط"، كان مما قاله فيه في صفحة 404:" قدم لي رئيس المحطة تقييماً عاماً عن الوضع في العراق، ويبدو أن مدير الاستخبارات المركزية في لانغلي طلبه قبل أسبوع، كان التقييم مفرطاً في التشاؤم، فينتظرنا فشل كارثي، حيث إننا مقبلون على "انهيار مضطرد في العراق". أربع صفحات من هذا القبيل، يشتم منها بأنها دعوة تقليدية إلى "حماية ظهرك" لقد اهتزت الوكالة بالضربات المتتالية التي تعرضت لها في السنوات الأخيرة، بحيث يشدد كل ما يكتبونه على الجوانب السلبية".

الهزيمة الأولى للقوات الأمريكية في الفلوجة

تصاعدت حدة القصف في أطراف الفلوجة، وكنا نسمع أصوات القصف والانفجارات تأتينا من كافة الاتجاهات، وبعد صلاة المغرب مساء الثلاثاء السادس من أبريل/نيسان جاءنا إلى بيت حامد بعض أهل الفلوجة، وبدا أن حامداً يعرف أحداً منهم، وأخبرونا أن رجال المقاومة شنوا هجوماً شديداً على القوات الأمريكية التي تغلق طريق النعيمية، وبعد معركة طاحنة مع القوات الأمريكية نجح رجال المقاومة في تدمير الموقع وأصيب عدد كبير من الجنود الأمريكيين، وقد جاءت الطائرات المروحية فأجلت القتلى والجرحى وهرب باقي الجنود وأصبح الموقع خالياً والنيران تشتعل فيه.

كان الخبر بالنسبة لنا سبقاً إعلامياً مميزاً، ولم يأت هؤلاء لإخبارنا فقط بل طلبوا منا أن نذهب معهم حتى للتأكُّد من صدق هذه المعلومات وأن نقوم بتصوير الموقع، وأبلغونا أن الطريق آمن ولم يعد فيه أحد من القوات الأمريكية وأنهم قادمون لتوهم من هناك وأن المسافة بيننا وبين هذا الموقع بالسيارة لا تزيد عن ربع ساعة من الطريق المعبَّد، وهذا الموقع نفسه الذي حاولنا الدخول منه أول يوم وهددنا قائده بإطلاق النار علينا إن لم نبتعد؛ وهو قريب من الطريق الذي دخلنا منه والذي تمكنا صباحاً من إدخال جهاز البث منه أيضاً.

كان الأمر مخاطرة كبيرة، فبداية حاولت أن أتأكد من حامد أن هؤلاء الناس ثقات وأن الخبر الذي حملوه لنا لا يحتمل الكذب وأنهم ليس وراءهم نوايا سيئة بالنسبة لنا، فأكد حامد لي أنهم من أهل المدينة ويعرفهم معرفة جيدة، وقد تحمَّس حامد للذهاب وبقي أن يقبل أحد المصورين أن يذهب معه لا سيما وأن حجم المخاطرة عال ومن الممكن أن يعود الأمريكيون في أي لحظة ويشنوا هجوماً على المكان لاسترداده، أو تقوم الطائرات بقصفه حتى لا يتمكن رجال المقاومة من الحصول على أية أسلحة أو أوراق أو أجهزة به، وربما تكون القوات الأمريكية قد عادت بقوات أكبر لاسترداده، لكن ليثاً لم يتردد، كان كعادته مقداماً وشجاعاً.

ودَّعناهم ونحن خائفون عليهم ودعونا لهم بالسلامة، وبقيت على قلق

شديد واتصال بهم طوال الوقت، كان الأمر في غاية الصعوبة وكان أهون عليَّ أن أكون معهم من أن أجلس في حذر وترقب وقلق عليهم طوال الوقت، فحينما وصلوا إلى مركز القوات الأمريكية في النعيمية وجدوه بالفعل يحترق ولم يجدوا أي جندي أمريكي في المنطقة، وكانت هذه أول هزيمة مدوية للقوات الأمريكية التي تحاصر الفلوجة، وقام ليث بتصوير المكان حتى إنه قام بتصوير علب الطعام التي لم يكن الجنود قد تناولوها، وكان واضحاً أن الهجوم قد وقع عليهم وهم يتناولون عشاءهم.

لم نعرف عدد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا وجرحوا في هذا الهجوم الذي يبدو أنه قد خلف عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، ولم تفصح القوات الأمريكية عن أية تفاصيل عن هذا الهجوم، وكانت تكتفي دائماً في بياناتها العسكرية بالقول إن عدداً من جنودها قتلوا في الأنبار. وحينما عدت إلى بيانات الجيش الأمريكي التي نشرت في هذا اليوم وجدت تبريراً عن عدم ذكر عدد القتلى والجرحى أو نتائج العمليات التي تعرضوا لها. في أحد التقارير يقول: "إن نشر معلومات إضافية عن هذه الوقائع قد يعرض الجنود لأخطار أكبر".

عاد حامد وليث بعد حوالي ساعة وكانوا مثل العائدين إلى الحياة، عانقناهم وكأنهم فارقونا منذ عام وهنأناهم على السلامة وعلى الصور المميزة التي تناقلتها وسائل الإعلام العالمية بعد ذلك نقلاً عن الجزيرة، وكان ليث يتصبَّب عرقاً كمن كان يركض دون توقف منذ عام. أخذنا منه الشريط وقمنا ببثه للدوحة بينما جلس يدخن كعادته وكأنه غير مصدق أنه قد عاد سالماً.

أثارت الصور حينما قمنا ببثها ردود فعل واسعة، فقد كانت تأكيداً على أن وضع القوات الأمريكية يسوء حول المدينة رغم إحكامها لحصارها، وقد جن جنون الأمريكيين فأصبحوا يقصفون بشكل عشوائي في كل اتجاه، بعد بث صور هذه الهزيمة المدوية لهم، وبعد ساعة من بث هذه الصور جاءنا خبر مؤلم للغاية من زميلنا حسين دلي حيث أبلغنا أن طائرة أمريكية قامت بقصف بيت في حي الجولان في الفلوجة، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين معظمهم من النساء والأطفال وأنه الآن في موقع البيت المنكوب يقوم بعملية تصوير للضحايا الذين كانوا ينتشلون من بين الأنقاض.

مذبحة حي الجولان

في هذا اليوم قرر الدكتور رافع العيساوي مدير مستشفى الفلوجة العام التي كانت تقع تحت سيطرة القوات الأمريكية وكذلك أطباء المستشفى تحويل العيادة الشعبية التي كانت تقع في قلب المدينة في شارع العيادة الشعبية في حي الجمهورية إلى مستشفى ميداني، فقد كان عدد القتلى والجرحى في ارتفاع مستمر ولم يكن الناس يجدون مكاناً لإسعافهم إلا مستشفى الدكتور طالب الجنابي التي كانت في طرف المدينة الشرقي ولم تكن كافية، كما أنها كانت تحت مرمى نيران القوات الأمريكية طوال الوقت. كذلك قاموا بتحويل عدة عيادات أخرى كانت تتواجد في أطراف المدينة إلى مستشفيات ميدانية لكن الضغط الرئيسي كان على العيادة الشعبية بسبب موقعها في قلب المدينة.

بعد ذلك أصبحنا على اتصال دائم بالدكتور رافع العيساوي حيث كان مصدراً رئيسياً لنا يطلعنا دائماً على أعداد القتلى والجرحى الذين كانوا يصلون إلى المستشفى الميداني من أهل الفلوجة، كما كنا نرتب له مداخلات في نشرات الأخبار حتى يعطي الصورة عن الوضع الطبي وأعداد القتلى والجرحى في المدينة بشكل رسمي.

بدأ الأمريكيون يفقدون صوابهم جراء الضربات المتتالية التي يتعرضون لها من قبل رجال المقاومة في الفلوجة وما حولها، فأصبحوا يردون على هذه الهجمات بالقصف بجنون وفي كل اتجاه، فكثرت الضحايا من المدنيين، ووقعت في تلك الليلة مذبحة مؤلمة ذهب ضحيتها عائلة من ستة وعشرين فرداً لم ينج منهم سوى رجل واحد وطفل رضيع. كان الرجل الناجي يدعى خميس صالح النمراوي، وكان يسكن في منطقة قريبة من تواجد القوات الأمريكية في أطراف المدينة فلجأ ومعه أشقاؤه الأربعة وزوجاتهم وأبناؤهم إلى أحد بيوت الجولان ونزلوا ضيوفاً على عائلة أخرى أقارب لهم ظناً منهم أن المكان أكثر أمناً من بيتهم الموجود في أطراف المدينة. لكن البيت الذي لجؤوا إليه في أول يوم لإقامتهم فيه تعرض لقصف من الطائرات الأمريكية فهدم المنزل على كل من فيه، ولم ينج سوى الرجل وطفل رضيع.

وصل حسين دلي إلى البيت أثناء إخراج الجثث من تحت الأنقاض وقام

بتصوير الحادث بالكامل، وقمنا بعد التأكد من كل المعلومات ببث الخبر بداية كخبر عاجل في نشرة أخبار حصاد اليوم في الحادية عشرة ليلاً، وشاركت في بث مباشر في تلك النشرة التي كان يقدمها جمال ريان وإيمان بنورة وقدمت تفصيلاً لأحداث اليوم، وكان من أهمها أن الغذاء بدأ ينفد في مدينة الفلوجة كما أصبحت هناك أزمة بنزين، وكذلك قمنا بتوجيه نداء وصلنا من الدكتور رافع العيساوي بدعوة أهل الفلوجة للتبرع بالدم حيث إن عدد الجرحى في ازدياد، كما أن الإمكانات الطبية بها عجز كبير، وأصبح هناك مشكلة أخرى هي مشكلة دفن الموتى، وأكدت خبر مجزرة الجولان وأخبرتهم أن الصور في الطريق إلينا.

كان الانتقال من حي الجولان حيث وقعت المذبحة في شمال غرب المدينة إلى حي نزال حيث كنا نقيم في جنوب شرق المدينة أمراً في غاية الخطورة مع فرض حظر التجول والقصف العشوائي الذي كانت تقوم به القوت الأمريكية لكل ما يتحرك على الأرض في ذلك اليوم، إلا أن حسين دلي خاطر ووصل إلينا قبيل انتهاء الحصاد في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وقمنا ببث الصور إلى الدوحة وطلبنا من الزملاء تنبيه المشاهدين بأن الصور فيها مناظر مؤلمة، حيث كانت أشلاء الأطفال والنساء ممزقة ومبعثرة وملطخة بالدماء والتراب وكانت شديدة الإيلام لكل من شاهدها حيث إنها لا زالت ماثلة في مخيلتي.

الكآبة ملأت نفوسنا جميعاً وغمرنا الألم وأدركنا بأن ما هو آت أعظم مما قد مضى، وأن هذه الحادثة تظهر أن القوات الأمريكية تعاني بشدة وسوف تواصل مثل تلك الجرائم خلال الأيام القادمة.

لم أستطع النوم في هذه الليلة رغم الإرهاق الشديد وعدم تمكني من النوم في الليلة السابقة، فقد هزتني صور أشلاء الأطفال الممزقة التي قمنا ببثها، كما أن القصف أصبح شديداً للغاية ويبدو أن المعركة أخذت تتطور بشكل كبير، ولأن المقاومة تتحرك عادة في الليل فقد كان واضحاً أن هناك هجمات على القوات الأمريكية من كافة الاتجاهات، وأن نجاح المقاومة في تدمير الوجود الأمريكي في النعيمية قد أعطى المقاومة دافعاً لتصعيد الهجمات ودفع القوات الأمريكية في نفس الوقت لمحاولة الانتقام ومحاولة استرداد زمام الأمور التي سبق وأن أشار الحاكم الأمريكي بول بريمر بأنها وصلت إلى مرحلة "انهيار مضطرد..".

جلسنا في الصباح ننتظر الساعة السادسة حيث ينتهي حظر التجول حتى نبدأ تحركنا في أنحاء المدينة ونعرف ماذا تم في الليل من هجمات. وفي هذا اليوم قسمنا أنفسنا ثلاث فرق؛ الأول: حامد ومعه ليث يذهبان إلى وسط المدينة حيث العيادة الشعبية التي أصبحت مستشفى ميدانياً، وكذلك إلى حي الجولان ويقومان بتصوير كل المستجدات هناك والمنزل الذي قصف في الليل وجرت فيه المذبحة. أما الفريق الثاني: فهو حسين دلي، وكان حسين يقوم وحده بجهد فريق حيث كان يحمل كاميرا صغيرة ويتحرك في وسط المدينة كلما وقع قصف أو هجوم يقوم بتصويره ويحضر لنا الصور. أما الفريق الثالث فيتكون مني ومعي المصور حسان وأبو عمر السائق، وعلينا الذهاب إلى أخطر الأماكن في شرق المدينة حيث تتواجد القوات الأمريكية ومستشفى الدكتور طالب الجنابي والحي العسكري والمنطقة الصناعية.

ما إن استدارت السيارة بنا من شارع السد إلى الطريق العام شرقاً وأصبح الحي الصناعي إلى يميننا وحي الضباط إلى يسارنا حتى هالنا ما رأينا، فقد وجدنا في مواجهتنا دبابتين أمريكيتين تسدان الطريق ومدفعيتها موجهة نحونا تماماً، بينما كانت قوات أمريكية بأعداد كبيرة تقوم بتمشيط الحي الصناعي إلى يميننا، فيما كانت قوات أخرى كبيرة فوق أسطح الورش فيما بدا أنها تمهد لعملية اقتحام جديدة للمدينة، ارتبكنا جميعاً لبرهة لكنني قلت لأبي عمر: "لا تتردد وواصل الطريق". قال: "الدبابات تغلقه ومدفعيتها موجهة إلينا". قلت له: "لو رجعنا لقصفونا، كما أن القوات التي تملأ الحي الصناعي ترصدنا، وشارة صحافة واضحة على مقدمة السيارة، لا تخف واصل طريقك وإذا وصلنا إلى الدبابات أبلغناهم أننا صحفيون فإما أن يفسحوا لنا الطريق وإما أن يردونا".

كان القلق مستبداً بنا جميعاً، فنحن تحت القصف وفي عداد الموتى في أي لحظة، والقوات الأمريكية دائماً لديها مبرر لكل ما تقوم به، وكما قتل عشرات الصحفيين منذ بداية الحرب على يد القوات الأمريكية آخرهم كان في الفلوجة مصور تليفزيون محطة "إن بي سي" الأمريكية يوم الجمعة 26 مارس/آذار 2004 لأنه كان يقوم بتصوير اشتباكات عنيفة وقعت شرق المدينة وتكبدت القوات الأمريكية فيها خسائر كبيرة لكن لم يعلم أحدٌ عن تفصيلاتها شيئاً لأن

الكاميرا والشريط قد دمرا مع المصور وبالتالي فمن الممكن أن نقتل نحن أيضاً ونصبح مجرد أرقام في أعداد الصحفيين الذين يقتلون كل يوم في العراق، لذلك فإن أصعب اللحظات تلك التي يجد الإنسان فيها نفسه فجأة تحت وابل النيران ولا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يختار ما بين أحسن الخيارات السيئة، وهكذا اخترت أن نواصل الطريق ونذهب في مواجهة الدبابات التي كانت تغلق الطريق أفضل من أن نثير الشبهات ونعود بشكل مضطرب فيطلقون النار علينا.

لم يكن حسان في نفس جرأة ليث في التصوير فحينما طلبت منه أن يقوم بتوجيه عدسة الكاميرا للقوات الأمريكية الموجودة على أسطح ورش الحي الصناعي وتصوير الدبابتين اللتين تسدان الطريق في مواجهتنا، كان مرتبكاً وخائفاً ولم يستطع ذلك. وحتى لا أظلمه فقد كان الأمر مربكاً ومخيفاً إلى حد بعيد، وهذا أمر أستطيع أن أقدره وألتمس العذر لصاحبه في هذه اللحظات المميتة، فالحياة في ظل الموت وتحت وابل القصف والنيران أمر ليس سهلاً أن يتحمله الإنسان، كما أن تصرفات الإنسان في هذه اللحظات لا تخضع لأي معطيات طبيعية لأن العقل في كثير من الأحيان يفقد القدرة على التركيز أو التفكير الصائب، لذلك فإن كثيراً من المصورين الحربيين وحتى المراسلين يعانون من أمراض نفسية بعد نهاية الحروب جراء ما يتعرضون له وما يشاهدونه.

وفي دورة تدريبية للمراسلين الحربيين أخذتها على يد ديفيد سايمور أحد المدراء السابقين في محطة بي بي سي عرض لنا ديفيد فيلماً أنتجته بي بي سي عن مراسلين ومصورين حربيين سابقين قاموا بتغطية الحروب في أفغانستان والبوسنة والهرسك وأماكن أخرى وكيف أن حياتهم قد دمرت بسبب ما لاقوه وشاهدوه في الحروب، فبعضهم أصيب بأمراض نفسية وآخرون أصبحوا مدمنين على الشراب، لكن أيضاً هناك كثيرون احترفوا هذه الأعمال عشرات السنين ولا زالوا يقومون بأعمالهم دون خوف.

بدأنا نقترب شيئاً فشيئاً من الدبابات، وطلبت من أبي عمر أن يحافظ على سرعته فلا يسرع ولا يبطىء فنحن تحت مرمى نيران عشرات المدفعية والبنادق من كل الاتجاهات وأخطرها ـ دون شك ـ مدافع الدبابات التي في مواجهتنا والتي

يمكن أن تحولنا مع السيارة التي نركبها إلى بخار بقذيفة واحدة. كانت دقات قلوبنا تزداد كلما اقتربنا من الدبابات، والمشكلة أنه لم يكن هناك فتحة جانبية في الطريق للعودة إلا في نهايته قرب المستشفى، ولم نكن ندري هل الدبابات تقف خلفها أم أمامها، لكننا قررنا ألا نعود وأن تكون وجهتنا واضحة إلى المستشفى.

وحينما اقتربنا من الدبابات وجدناها تقف تماماً في نهاية فتحة العودة التي تؤدي إلى المستشفى. كانت مدفعيتها موجهة لنا تماماً وحينما استدرنا للعودة لم تكن المسافة الفاصلة بيننا وبين الدبابات تزيد عن عدة أمتار، لم نتوقف ولم يوقفنا الجنود الذين كانوا فوق الدبابات ولم يتحدثوا إلينا، فقط كانوا يراقبوننا وأيديهم على الزناد، توجهنا مباشرة إلى مستشفى الدكتور الجنابي التي كانت على بعد أمتار من مكان الجنود الذين ظلوا يراقبوننا إلى أن وصلنا إلى المستشفى، وحينما دخلنا إليها وجدنا الدماء تغطي جانباً من أرضيات المدخل مما أوحى لنا أن الليلة كانت ليلاء دامية.

جاء الدكتور الجنابي فرحب بنا وأبلغنا أن المستشفى تعرض أيضاً للقصف من القوات الأمريكية في الليلة الماضية، وكانت آثار القصف بادية على واجهة المبنى كما أنه استقبل كثيراً من الجرحى أثناء الليل كان من بينهم خميس النمراوي، الذي فقد عائلته المكونة من ستة وعشرين فرداً في الجولان ولم ينج سواه وطفل صغير، وأدخلنا الدكتور الجنابي إلى غرفة كان بها طفلان جريحان أحدهما الطفل الناجي من مذبحة الجولان وكان عمره لا يزيد عن عام واحد بينما كان الآخر عمره حوالي عام ونصف وكانا يبكيان والضمادات تغطي جسديهما، لم أستطع أن أتحمل بكاءهما مع الضمادات التي كانت تلف جسديهما لكننا قمنا بتصويرهما وبُثت الصور على شاشة الجزيرة في هذا اليوم.

أما خميس النمراوي، فحينما قابلته وجدته يهذي، وغير مصدق لما جرى ويقول منادياً الطفل الذي نجا والذي كان في غرفة أخرى: "أنا أعرف صوته أحضروه لي.. فقط أريد أن أشم رائحته.. أريد أن أرى هذا الصغير.. أرجوك يا دكتور.. أرجوك هذا صوت بكائه أعرفه من بين ألف طفل". كان مصاباً في رأسه ويده ورجله. قمنا بتصويره وقمنا ببث هذه الصور المؤلمة على شاشة الجزيرة، ورغم أني كنت أقدِّر الصدمة التي يعيشها لكني قلت له: أرجو أن تخبرني

باختصار بما حدث وكيف نجوت وحدك والطفل؟ قال: "انضم إلينا ثلاثة من إخوتي مع زوجاتهم وأبنائهم طلباً للأمن وفراراً من القصف الأمريكي على بيوتهم، فكنا أربعة رجال وأربع نساء والباقون من الأطفال، وكان عددنا جميعاً ستة وعشرون فرداً، جاءت الطائرة فقصفت المنطقة فقاموا جميعاً وهربوا إلى غرفة واحدة للاحتماء من القصف، وكنت أنا في طرف البيت ويبدو أنهم من الفزع لم ينتبهوا للرضيع الذي كان نائماً فتركوه أو نسوه في الغرفة التي كانوا فيها، ثم جاءت الطائرة وقصفت الغرفة التي احتموا فيها طلباً للأمان فاستشهدوا جميعاً ولم يبق سواي والطفل، أما القتلى فهم 16 طفلاً و8 رجال ونساء هذه باختصار هي القصة".

وقد تكررت قصة هذه العائلة مع أكثر من شخص، فقد وجدت بعد ذلك يوم الجمعة شخصاً نجا وحده وقتلت كل عائلته اسمه صالح العيساوي، حينما ذهبت لأتحدث معه وجدته مثل المأخوذ الذي لا يكاد يعي أو يصدق ما حدث له أو ما يدور حوله.

وقد تصدَّرت قصة هذه العائلة الخبر الرئيسي في معظم وسائل الإعلام العالمية في ذلك الوقت بعدما قمنا ببثها، أما الجنرال مارك كيميت نائب قائد القوات الأمريكية حينما واجهه الصحفيون بما قمنا ببثه من صور تلك العائلة المنكوبة لم يجد جواباً يقدمه للصحفيين إلا بقوله: "فقط قوموا بتغيير هذه القناة التي تبث الأكاذيب".

في المقبرة القديمة

بعد الانتهاء من تصوير الجرحى في مستشفى الدكتور طالب الجنابي عدنا من طريق خلفي دلنا عليه بعض السكان إلى مقر فريق الجزيرة في بيت آل حديد في حي نزال وذلك حتى نتجنب قدر المستطاع أن نكون تحت نيران القوات الأمريكية، وقمنا ببث الصور إلى مقر الجزيرة في الدوحة وشاركت مع الزميلة لينا زهر الدين في نشرة الأخبار الصباحية، كما وافيت الزملاء في غرفة الأخبار بالتفاصيل على أن يقوم أحد الزملاء في الدوحة بإعداد تقرير داخلي من خلال الصور لعدم وجود وقت لدينا، إذ كان عليَّ أن أعود إلى وسط المدينة

مرة أخرى وذلك بعدما علمت أن جنازة ابنة جارنا التي قتلها القناص الأمريكي بالأمس سوف تشيع في المقبرة القديمة للبلدة في وسط المدينة الساعة العاشرة.

أخذت المصوِّر حسان وذهبنا للمقبرة، لكني ذهلت من هول ما رأيت. لم تكن هناك جنازة واحدة، ولكن كانت هناك نعوش وجنائز كثيرة، وكان الناس في المقبرة غاضبين وثائرين، وحينما بدأنا تصوير الجموع المحتشدة في المقبرة إذا بأحد الحضور يوجه كمّاً هائلاً من السباب إلى الصحفيين ويتهمهم بأنهم عملاء للأمريكان، ورفع صوته على مسمع من الناس وهو يوجه الكلام إلينا بأننا عملاء ونقوم بتصوير الجموع حتى نعطي الصور للأمريكان.

أصابني الرجل من خلال اتهاماته هذه بألم شديد؛ فأسوأ شيء في الحياة أن تقابل بنكران جميل وأنت تقوم به، ونظرت إلى وجوه الناس الذين كانوا يملأون المقبرة علّ أحدهم ينصرني أو يدافع عني فلم أجد، كان الناس ينظرون إلي ولم يعلق أحد على ما يردده الرجل أو يطلب منه السكوت، شعرت أن الناس جميعاً مجروحين ومتألمين، لكن اتهاماً مثل هذا في لحظة مثل هذه يمكن أن يدفع أي شخص من المسلحين الذين كانوا يملأون المقبرة إلى أن يقتلنا، فالرجل لا يلقي علينا تهمة بسيطة، وإنما يتهمنا بالعمالة للأمريكيين بين أناس مجروحين بقتلاهم وجرحاهم الذين قتلهم الأمريكيون، حاولت ألا يشغلني الرجل عما جئت لأجله، لكن المكان كان ضيقاً ومزدحماً والرجل كان يلاحقنا في حركتنا والناس ينظرون إلينا وما من نصير، فأنا الغريب بينهم ولم يكن معي أي من الزملاء من أهل الفلوجة حتى يدفع عنا أو يحمينا، ورغم أن حسان المصور من أهل بغداد إلا أنه وإن كان عراقياً لكنه غريب عن المدينة مثلي.

في مثل هذه المواقف أتعامل مع من أمامي بطريقتين لا ثالث لهما: الأولى أن أتجاهل من أمامي وهذا غالباً ما أفعله فنادراً ما أرد على اتهامات فارغة توجَّه لي من أحد حتى ما يكتب عني في الصحافة وما أكثره، أما الثانية فهي أن أهاجم من أمامي هجوماً شديداً فأرد له الصاع صاعين، لكني لا أتخذ موقف الدفاع على الإطلاق ولا أسمح لأحد أن يضعني في دائرة الاتهام على عمل مهني أقوم به، فوجدت بعدما تأملت سريعاً في الأمر أن الموقف لا يحتمل سوى التجاهل،

وأخيراً جاء رجل ممن كانوا يقفون في المقبرة نحوي وقال: "لا ترد عليه يا أحمد واصبر فالناس مجروحة والرجل لا يعرفكم فأرجو أن تتحمل وأن تصبر ولا ترد عليه".

كظمت غيظي وطلبت من حسان أن نتحرك بعيداً عن هذا الرجل الذي يؤذينا بالكلام، وذهبنا قرب مدخل المقبرة فوجدنا جمعاً كبيراً من الناس عند مسجد المقبرة جاؤوا بجنائز أخرى عديدة، وما إن رآني الناس أحمل ميكروفون الجزيرة ومعي الكاميرا حتى تجمعوا حولي وأخذوا يتصايحون وهم غاضبون بشكل لم أستطع معه تمييز ماذا يريدون، لكني سمعت بعضهم يتهموننا بأننا لم نفعل شيئاً رغم أننا ننقل الصورة إلى الناس منذ بداية الحصار، وكأننا المسؤولون عن رفع الحصار وإيقاف القصف الأمريكي عنهم.

وجدت الوضع مضطرباً بشكل كبير وكان لابد أن أغير تكتيكي في التعامل وأن أستخدم وسيلة الهجوم بعدما تكاثر الناس علينا، فلا بد أن أحمي نفسي وأحمي زميلي حسان المصور معي وأن أسعى للسيطرة على الموقف بسرعة قبل أن يفلت الزمام وأجد منهم من يتهمنا أيضاً بالعمالة للأمريكيين أو يحاول إيذاءنا، فصعدت بسرعة على درجات سلم جانبية كانت مرتفعة قليلاً عن الأرض يؤدي إلى سلم مئذنة مسجد المقبرة، وصحت في الناس بصوت عال وغاضب وهم يتصايحون أن ينصتوا ويستمعوا إلي، وبقيت أطلب منهم الهدوء حتى سكتوا فقلت لهم: "أيها الناس رغم أني سمعت من بعضكم كلاماً مؤذياً إلا أني أبلغكم أني لست خائفاً من أحد ولست عاتباً على أحد فأنا أعيش معكم معاناتكم وأعرف أنكم جميعاً مجروحين، نحن هنا لننقل معاناتكم إلى العالم ونحن نعيش بينكم نواجه ما تواجهون، فمصيرنا الآن ومصيركم واحد، لكن حالة الغضب هذه لن تساعدكم ولن تساعدنا على نقل هذه المعاناة إلى العالم، فإما أن تساعدوني وتتعاونوا معي أنا وزملائي وإما أن أترككم وأذهب إلى مكان آخر من المدينة، فالسكان كلهم يعانون ونحن تحت الخطر ننتقل بين أطراف المدينة وأحيائها كلما سمعنا عن قصف أو شهداء أو جرحى، فإن لم تتعاونوا معي فسوف أذهب وقد أخليت مسؤوليتي أمام الله وأنتم الذين تعرقلون مهمتي، نحن لسنا مسؤولين عن صمت العالم على الجريمة التي ترتكب بحقكم، لكن دورنا هو أن نوصل صوتكم

إلى العالم، وإذا آذيتمونا أو لم تتعاونوا معنا لن تجدوا من ينقل معاناتكم غيرنا، فأرجو أن تتعاونوا معنا وأعدكم ببث كل ما تقولونه إلى العالم عبر شاشة الجزيرة، فأنا هنا وزملائي من أجل هذه المهمة فلا تعرقلونا ولا تتهمونا بالباطل أو تتركوا بعض الناس يتهموننا وتقفون صامتين لا تدافعون عنا".

شعرت بالارتياح بعد هذه الكلمة، وأصبح الناس طوع بناني بشكل لم أتوقعه وسمعت منهم تجاوباً وقبولاً واستحساناً، قلت لهم: "إذن سأنزل الآن بينكم ومعي الميكروفون وزميلي سيصور بالكاميرا وأرجو أن تختاروا من بينكم من يتحدث باسمكم، حتى لا تكون هناك فوضى، لكني لن أنزل حتى تهدأوا وتحدِّدوا من الذي سوف يتكلم باسمكم، وأعدكم بنقل كل ما تريدون عبر شاشة الجزيرة إلى العالم".

هدأ الناس واختاروا شخصين للحديث، الأول كان من وجهاء الفلوجة واسمه الشيخ عبد الوهاب القيسي حيث وجه نداء من أهل المدينة إلى العالم تحدث فيه عن الأوضاع المؤلمة التي وصلت إليها المدينة، وقد أبلغني المشاركون في الجنازة، أن هذه مقبرة قديمة ولم تعد تستخدم، لكنهم أعادوا فتح بعض القبور القديمة واضطروا لدفن الشهداء الجدد فيها بعدما بلغ عدد الشهداء في خلال اليومين الماضيين حوالي خمسين شهيداً بقي بعضهم يومين دون دفن بسبب عدم وجود مكان لدفنهم.

تحت الحصار والقصف ونيران القناصة

بقيت في المقبرة حوالي ساعة، ثم عدت مع حسان سيراً على الأقدام إلى بيت آل حديد في حي نزال حتى أبث الصور التي أخذناها من المقبرة والمناطق الشرقية للمدينة، والنداء الذي وجهه الشيخ عبد الوهاب القيسي، مع الصور التي جاء بها حامد من وسط المدينة والمنطقة الغربية والشمالية الغربية حيث حي الجولان المشتعل دائماً بالمواجهات والمعارك.

وصلت إلى بيت آل حديد مع وصول حامد، لكن الوضع كان قد أصبح أكثر خطورة في حي نزال، فقد كانت القوات الأمريكية تقوم بعملية اقتحام جديدة

للمدينة ووصلت إلى مسجد الخلفاء الراشدين وبدأت في التوغل باتجاه حي نزال عبر شارع السد الذي يقع فيه بيت آل حديد، لذلك سلكنا الطرق الخلفية الجانبية لبيت آل حديد لأن شارع السد في ذلك الوقت قريب إلى حد بعيد من الاشتباكات. وصلت إلى البيت في الوقت الذي كانت فيه نشرة أخبار الثانية عشرة ظهراً تقريباً على وشك البث وكان يقدمها الزميل بسام القادري، وشاركت مباشرة في النشرة في الوقت الذي تصاعدت فيه الاشتباكات خلال لحظات وأصبحت على أشدها من فوقنا ومن تحتنا ومن حولنا حتى إن القوات الأمريكية وصلت إلى المدخل الرئيسي لبيت حامد وسمعت الجنود وهم يصيحون ويطاردون بعض رجال المقاومة، كما كانت الطائرات المروحية تقوم بعمليات قصف وتمشيط للمنطقة كجزء من الهجوم البري الذي بدأت الفرقة القتالية الأولى للمارينز بقيادة العقيد جون تولانز تقوم بتنفيذه.

وعلى الهواء مرت الصواريخ من فوق رأسي أكثر من مرة أثناء البث المباشر، أحدها مر تماماً من فوق رأسي محدثاً انفجاراً هائلاً واضطررت أن أقفز من على المنصة الخشبية التي كنت أقف عليها وأنا أبحث عن ملجأ، فقد شعرت بأن الصاروخ الذي مر تماماً من فوق رأسي كأنه انتزع قلبي، فانبطحت على الأرض بسرعة وكذلك فعل كل الزملاء وقد بقيت جالساً على الأرض أكمل التقرير من شدة القصف حولنا، ولم ينقطع البث حيث كان معي زميلي بسام القادري مقدم النشرة يتابع معي.

أما ليث فقد كان بطلاً بعدما اهتزت الكاميرا من يده انتزعها من على الحامل بسرعة واستعاد السيطرة عليها بالتصوير متماسكاً قدر المستطاع، بينما كانت الطائرات المروحية تحوم فوق رؤوسنا وتقصف حولنا، وتصوب نيرانها إلى بعض المنازل بينما كان رجال المقاومة يطلقون الصواريخ والقذائف تجاه الطائرات، معركة مرعبة بكل المقاييس، وكانت على الهواء مباشرة.

كنا في الأيام السابقة نضع الكاميرا على أعلى نقطة في سطح البيت فوق غرفة السلم بارتفاع ثلاثة طوابق، فكانت مساحة التصوير المتاحة لنا أوسع كثيراً وكان يسهل علينا تصوير الطائرات، لكننا الآن أصبحنا نضع الكاميرا في الطابق الثاني ونحتمي بغرفة السطح، بسبب خطورة القصف وإمكانية رصدنا من قبل

القناصة من على غرفة السطح، لذلك لم نعد نكشف كثيراً من المناطق التي كانت مكشوفة لنا من قبل، وأصبحت حركتنا بالكاميرا من على السطح أقل مما كنا نريد، فلم نستطع تصوير كل ما كنا نشاهد، وكان همي هو كيف أحافظ على الزملاء وأن تكون مخاطرتنا محسوبة، فمهما كانت قوة الصورة ليست أهم من زميل، ويكفي أن كل المشاهدين كانوا يعايشون معظم تفاصيل المشهد على قدر ما نستطيع، لذلك حينما طلب مني بسام بناء على طلب منتج النشرة أن نوجه الكاميرات إلى الطائرات التي كانت تحوم فوقنا وتقصف قلت له بوضوح تام: "إن همي هو أن أحافظ على زملائي الذين طلبت منهم جميعاً أن ينزلوا من على السطح ولم يبق سواي والمصورين ليث وحسان"، فغالباً ما تكون الأمور في ساحات المعارك أكثر تعقيداً مئات المرات مما يتصور بعض الزملاء الذين يعملون في الاستديو ولم يسبق لهم العمل في تغطية الحروب أو ساحات التصوير المفتوحة، ويعرفون حجم مخاطر العمل التي تواجه المراسلين.

انتهى البث، وكانت معركة طاحنة ومرعبة على الهواء ليس لنا فقط وإنما لكل المشاهدين الذين تابعوها، وقد أدى مرور الصواريخ من فوق رؤوسنا إلى هلع كبير لدى المشاهدين الذين كانوا يتابعون ظهورنا وتقاريرنا مع نشرات الأخبار كل ساعة، غير أن شخصاً واحداً لم أكن أتمنى أن يكون قد شاهد هذه المعركة هي زوجتي.

زوجتي على وشك الولادة

رغم أن زوجتي كانت مثل غيرها تتابع أحداث الفلوجة من خلال نشرات الأخبار وما نقدمه على شاشة الجزيرة، إلا أني تمنيت ألا تكون قد شاهدت هذه اللقطات للمعركة التي اندلعت والصواريخ التي مرت مباشرة من فوق رأسي وأنا على الهواء، فقد كانت حاملاً في أيامها الأخيرة وتنتظر ولادة ابني محمد في أي لحظة، ومثل هذه الصور المرعبة يمكن أن يكون لها أثر خطير عليها في الأوضاع العادية فكيف يكون الأمر إذا كان الرجل الذي يتعرض لهذا هو زوجها وهي في أيام حملها الأخيرة.

وبالفعل علمت منها بعد ذلك أنها لم تشاهد هذه الصور في ذلك الوقت

فحمدت الله، لكنها بعد نشرة الأخبار هذه مباشرة انهالت عليها الاتصالات الهاتفية من كل معارفنا للاطمئنان علي، فشعرت هي بقلق كبير ولم تطمئن حتى تحدثت معها على الهاتف في المساء، فقالت لي إنها حمدت الله أنها لم تكن تجلس أمام التلفزيون في هذه اللحظات، ولم تشاهد تلك الصور في حينها. وقد شاهدتها بعد ذلك بمدة طويلة معي وأنا أعيد مشاهدة كل أحداث الفلوجة مسجلة على أشرطة أثناء إعداد هذا الكتاب، وأنكر لها أنها كانت دائماً نعم الناس في تحملي وتحمل مخاطر عملي منذ بداية زواجنا حيث كنت أقوم بتغطية الحرب الأفغانية حينما تزوجتها عام 1987، وقد دوَّنت أحداث تغطيتي لهذه الحرب ونشرتها في أربعة كتب.

ثم عايشت معي بعد ذلك وهي في مصر بقائي ما يقرب من شهرين في الكويت مع احتلال صدام حسين لها في الثاني من أغسطس/آب عام 1990 دون أي وسيلة اتصال بها حيث كنت من ركاب طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كانت آخر طائرة دخلت المجال الجوي الكويتي ليلة الثاني من أغسطس/آب وأخذ ركابها رهائن إلى العراق حتى أفرج عنهم صدام حسين بعد وساطة من الملاكم العالمي محمد علي كلاي، وكانت ابنتي ياسمين قد ولدت آنذاك ولم أرها إلا وعمرها خمسة أشهر.

ثم عايشت معي تغطيتي لحرب البوسنة والهرسك عام 1994، وبقائي تحت الحصار في سراييفو أكثر من شهر. وقد قمت بنشر أحداث تغطيتي لتلك الحرب في كتاب "تحت وابل النيران في سراييفو"، ثم عايشت حرب الفلوجة وأحداثها بعد ذلك.

ورغم المخاطر التي كانت تحيط بي طوال الوقت في كل التغطيات التي قمت بها لهذه الحروب إلا أني لم أسمع منها طوال أيام وجودي في الفلوجة حينما أتصل بها مساء كل يوم إلا الدعاء لي ولزملائي جميعاً أن يعيدنا الله جميعاً إلى أسرنا وأهلينا، كما كانت تفعل دائماً في كل تغطياتي ورحلاتي السابقة، ولم تبد لي هلعاً أو خوفاً أو قلقاً أو تطلب مني مغادرة المدينة أو الخروج منها، رغم أنها كانت في حقيقة الأمر تشعر بخوف داخلي كبير، فقد قضت حياتها معي صابرة تنتظر عودتي من كل رحلة حتى تعد لي حقيبة

الترحال من جديد، وبقيت تعايش المخاطر التي عشتها في كل الحروب التي قمت بتغطيتها منذ بداية زواجنا وحتى معركة الفلوجة، علاوة على سفري الدائم في أرجاء الدنيا حسبما تفرضه عليَّ طبيعة عملي، وقد أدركت من أول يوم لزواجنا أن شخصيتي العنيدة لا يفلح معها شيء سوى القبول بها والصبر عليها، وأن ما أقوم به ليس مجرد وظيفة وإنما يتجاوز حدود الوظيفة في كثير من الأحيان إلى واجبات الحياة، والرسالة الإنسانية، لذلك كانت تقدر كل ذلك وقبلت وصبرت، أجزل الله لها المثوبة والعطاء وأدام صبرها علي.

الاستراتيجية العسكرية للقوات الأمريكية

لاحظنا أن القوات الأمريكية بدأت بالتوغل في شارع السد حيث نقيم وأصبح الجنود يفتشون البيوت بشكل انتقائي، وتوقعنا أن يطرقوا الباب علينا في أي لحظة إلا أنهم لم يفعلوا، وقام ليث متخفياً بتصوير الآليات والجنود من بين فتحات سور السطح وكانت صوراً مميزة انفردت بها الجزيرة أيضاً، وقد ذكر الناطق باسم الجيش الأمريكي في تصريحات نقلتها الوكالات في هذا اليوم: "إن الدبابات والمدرعات الأمريكية دخلت المنطقة الصناعية جنوب الفلوجة تساندها مروحيات "كوبرا" وطائرات "آي سي 130"، وأوضح أن ألفين من مشاة البحرية يشاركون في الهجوم، وأكد أن قوات المارينز تمكنت من السيطرة على المنطقة بعد اشتباكات استمرت ست ساعات تعرضت خلالها لإطلاق نار من رشاشات وقذائف هاون من قبل مقاتلين تمركزوا على سطوح المباني".

ولنا أن نتخيل أن الذين قاموا بالهجوم من هذه الجهة فقط ألفا جندي من المارينز، فكم كان عدد الذين يحيطون بالفلوجة؟ أو الذين كانوا يهاجمون المناطق الأخرى مثل حي الجولان الذي كان القتال حوله أكثر شراسة، وفشلت القوات الأمريكية في احتلاله، وقد قدرت بعض المصادر عدد القوات الأمريكية التي حاصرت الفلوجة ولم تستطع دخولها آنذاك بحوالي أحد عشر ألف جندي أمريكي هذا خلاف الذين شاركوا من قوات الحرس الوطني، أو الجيش العراقي الجديد، وقد أدلى الكابتن ساليفان الضابط في الكتيبة الأولى التي كانت تقوم بالهجوم بتصريحات للوكالات في هذا اليوم قال فيها: "إن الهدف من العملية اعتقال

المتمردين والإرهابيين"، هذه الأعداد من الجنود تنفي ما ذكره بريمر في مذكراته بأن الجنود الذين قاموا بحصار المدينة كانوا 1300.

كنا نراقب القوات الأمريكية وهي تتحرك في شارع السد متجهة إلى حي نزال، وبعد قليل قاموا بقصف مخزن لإطارات السيارات مواجه لبيت آل حديد فاشتعلت فيه النيران وقمنا بتصويره بسهولة كبيرة من على سطح البيت، وأرسلنا الصور إلى الجزيرة حيث تم بثها واستخدامها في نشرات الأخبار، ولاحظنا أن القوات تقدمت بالآليات والمدرعات من الطريق العام ودخلت حتى وسط المدينة، لكن المقاومة كانت تلاحقها، ويبدو أنهم قرروا أن يحققوا هذه المرَّة تقدُّماً أكثر من الأيام السابقة، فتقدموا على محوري الحي الصناعي وحي نزال حيث كنا نقيم، وبالتالي أصبحنا في هذا اليوم الأربعاء 7 أبريل/نيسان لا نستطيع استخدام شارع السد الذي يوجد فيه الباب الرئيسي لبيت آل حديد.

وبينما كان حامد يتحدث بصوت عال من الهاتف يجمع معلومات عن التحركات الأمريكية في بعض الأماكن وأنا كنت أتحدث كذلك على الهاتف بصوت عال مع الزملاء في الدوحة، كنا مثل خلية النحل، فجأة نزل إلينا ليث من غرفة السطح يسيطر عليه الخوف والهلع وهو يصيح: "يا قوم.. أخفضوا أصواتكم القوات الأمريكية تحاصرنا".

سكتنا جميعا ولفنا صمت رهيب، ما هذا!! القوات الأمريكية تحاصرنا؟ بعد ذلك قلنا له: كيف؟ قال: "إنهم في المبنى المواجه لنا، يقومون بهدم الشبابيك ويضعون أكياس الرمال حيث يتمترس القناصة خلفها".

من ناحيتي كنت أتوقع أن يتقدم الجنود الأمريكيون مثل أمس الثلاثاء ثم يتراجعون مرة أخرى تحت ضربات المقاومة، لكنهم في هذه المرة تقدموا بكثافة إذ كانوا أكثر من ألفي جندي حسب تصريح الناطق العسكري الأمريكي، وقرروا أن يتخذوا مواقع متقدمة، وكان في مواجهة بيت حامد في جهة الحي الصناعي مصنع، وبجواره فندق مرتفع عادة ما يقيم فيه العمال الذين يعملون في المنطقة الصناعية من غير أهل الفلوجة، يصل ارتفاعه إلى أربعة طوابق، وكان ارتفاعه يشكل لنا مشكلة دائمة أثناء تصوير الطائرات من على السطح وهي تحوم إذ كان يحجبها حينما تكون خلفه.

ولأن بيوت الفلوجة كلها منخفضة لا تزيد عن طابقين فكان هذا المبنى المرتفع يمثل قيمة كبيرة للقناصة الأمريكيين يستطيعون من خلاله منع الحركة في حي كامل، وهذا ما حدث بالفعل، فقد اتخذوا من أسطح المبنى وغرفه مكامن للقنص، وكان عدد القناصة المتواجدين فيه كبيراً وقد استطعت عدة مرات أن أراهم، بل وتمكن ليث من تصويرهم وقمنا ببث الصور على شاشة الجزيرة، حيث كان كل قناص معه مرافق عادة ما يكون محدد الأهداف الذي يقدر له المسافة وسرعة الرياح والمعلومات الأخرى الخاصة بالأهداف المراد قنصها، وكان استخدام القناصة بهذه الكثافة بداية لتغير الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في الفلوجة حيث أصبح كل من يتحرك طفلاً أو شيخاً أو امرأة أو رجلاً هدفاً للقناصة، وأصبحوا يعتمدون على القناصة منذ ذلك اليوم بشكل كبير. وقد علمت بعد ذلك أن المقاومة قامت بنسف هذا الفندق وتسويته بالأرض بعدما أصبح القناصة الأمريكيون يقيمون فيه بشكل دائم حتى بعد انتهاء معركة الفلوجة الثانية.

أيضاً بدأ الأمريكيون في الاعتماد على الطائرات المقاتلة من طراز "إف 16" بعدما نجحت المقاومة في إسقاط عدد كبير من الطائرات المروحية، كما أعلنت المقاومة في ذلك اليوم عن تدمير 12 مدرعة وسيارتي جيب، إضافة إلى ثلاث طائرت مروحية إحداها كانت في حي الجولان.

هذا الوضع المتردي للقوات الأمريكية جعل وزارة الدفاع الأمريكية ـ كما نشرت في هذا اليوم صحيفة "يو أس إيه توداي" كبرى الصحف الأمريكية وأوسعها انتشاراً ـ تقوم بإلغاء كل العطل والإجازات لقوات الاحتلال الأمريكية في العراق بما فيها إجازات كانت مقررة لأربعة وعشرين ألف جندي. كما أكدت صحيفة "نيويورك تايمز" أن قيادة القوات الأمريكية في العراق بدأت في وضع خطط من أجل استقدام مزيد من القوات الأمريكية إلى العراق بعد الأحداث الأخيرة.

ولم تكن الهزيمة التي لاحقت الأمريكيين في ذلك الوقت في خسائرهم المباشرة فقط، بل إن القوات العراقية التي كان من المفترض أن تدعمهم تخلت عنهم وفرَّ كثير من رجالها، وقد عبر عن ذلك الحاكم الأمريكي للعراق آنذاك بول

بريمر بنفسه فقال في الصفحة 411 من مذكراته "عام قضيته في العراق": "وفيما تقدم المارينز إلى أعماق المدينة ـ الفلوجة ـ كانت الشرطة العراقية أو قوات الدفاع المدني التي تساندهم من الخلف تهجر مواقعها أو تنتقل إلى الجانب الآخر، وقد أمسك بقائد الشرطة المحلية وهو يتعامل مع المتمردين، وأثبت جنود الدفاع المدني العراقيون أنهم "عديمو الفائدة" وفقاً لضابط كبير في المارينز، وقد فر نحو نصف الكتيبة الأولى للجيش العراقي الجديد وهم في طريقهم إلى الفلوجة، وتغيب عن العمل في يوم الثلاثاء 6 أبريل/نيسان نحو ثلث قوة الدفاع المدني في بغداد المكونة من خمس كتائب، وبلغت نسبة التغيب في الكتائب المجندة من مدينة الصدر 80%، كما تغيب رجال الشرطة العراقيون في كل أنحاء الجنوب أو كانوا سلبيين".

هكذا كان الوضع متردياً للقوات الأمريكية في كل الاتجاهات حسب شهادة بريمر.

قصف مسجد عبد العزيز السامرائي

كانت أصوات التكبير تنطلق من مساجد الفلوجة طوال الوقت، وكانت دعوات الناس للصبر والجهاد لا تتوقف، وكان يمكن أن يقوم بذلك شخص واحد داخل كل مسجد إلا أن انطلاق التكبير من عشرات المآذن في وقت واحد ربما سبب إرهاباً وخوفاً وهلعاً ورعباً شديداً للقوات الأمريكية، وجعلها تتخيل أن المساجد مليئة برجال المقاومة الذين يحضون الناس على القتال.

وسعياً منها لإسكات هذه المآذن قامت بالهجوم والاعتداء على بعض المساجد مدعية أن رجال المقاومة يتحصنون بها. فبعد توغلهم داخل المدينة يوم الأربعاء 7 إبريل/نيسان صعد القناصة على مآذن مسجد الخلفاء الراشدين المرتفعة واتخذوا منها مواقع لقنص السكان في حي الضباط وحي نزال والحي العسكري، واتصل بنا أحد سكان حي الضباط وقال إن قناصاً أمريكياً فوق مئذنة مسجد الخلفاء الراشدين قنص ابنه البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً فأرداه قتيلاً.

كما بدأت تصلنا تقارير من المستشفى الميداني وملحقاتها تفيد بأن عدد الذين يصلون إلى المستشفى شهداء وجرحى جراء إصابتهم برصاص القناصة الأمريكيين في ازدياد وأن من بينهم أطفالاً ونساء وعجائز، حتى إني رأيت في المستشفى بعد ذلك شيخاً في الخامسة والسبعين من عمره مصاباً بنيران القناصة، وكذلك بعض الأطفال، وقمنا ببث صورهم جميعاً بعد ذلك. وأبلغنا مرافق لأحد الجرحى في المستشفى الميداني وسجلنا إفادته وقمنا ببثها في نشرات الأخبار، أن القناصة قتلوا طفلين من إخوته وأصابوا والده.

في نفس الوقت قامت القوات الأمريكية بالهجوم على مسجد عبد العزيز السامرائي في حي نزال حيث يوجد مقر هيئة علماء المسلمين، ولم نكن نحن بعيدين عن المسجد إلا عدة مئات من الأمتار، فقبل أن يقتحموه قاموا أولاً بقصفه بالصواريخ، وقد اعترف الليفتنانت كولونيل برينان بايرن الناطق باسم الجيش الأمريكي في بغداد بهذا وقال للصحفيين: "إن طائرة أمريكية من طراز كوبرا قامت بقصف مسجد عبد العزيز السامرائي في مدينة الفلوجة للقضاء على المتحصنين بداخله". فيما قال ناطق آخر إن طائرة من طراز "إف 16" ألقت على المسجد صاروخاً وقنبلتين وزن كل منهما 225 كيلو جراماً موجهة بالليزر. وأضاف المتحدث: إن أكثر من أربعين ممن سماهم "الأشرار" قتلوا داخل المسجد. وقال الناطق الأمريكي: "لقد بتنا نسيطر على 25% من المدينة بعد ثلاثة أيام من القتال الضاري". وأكدت القيادة العسكرية الأمريكية أنهم قرروا أن يقصفوا المسجد بعدما جرح خمسة من عناصر "المارينز" برصاص مسلحين متحصنين في داخله، وأكد على هذا الكابتن في مشاة البحرية بروس فريم في تصريحات أدلى بها من المقر العام للقيادة العسكرية الأمريكية في تامبا في ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة: "بحسب المعلومات الأولية التي تلقيناها، أصيب خمسة من المارينز بإطلاق نار مصدره المسجد مما أدى إلى قصفه بالطائرات".

أما الحاكم الأمريكي للعراق في ذلك الوقت بول بريمر فقد تحدث في مذكراته "عام قضيته في العراق" عن تلك الأحداث قائلاً: "تقدمت فرقة المارينز الأولى في الفلوجة، وواجهت مواقع دفاعية في العمق مزودة بمدافع رشاشة ومدافع هاون يحميها المسلحون والقناصة، كان العدو يقاتل من المدارس

والمستشفيات والشقق السكنية والمساجد، مثلما فعلت قوات صدام حسين. وفيما ازدادت حدة القتال، ارتفعت أعداد الإصابات، وكانت "الجزيرة" - يقصد فريقنا التليفزيوني - توثق كل إصابة، فقد أطلقت مروحية للمارينز من طراز كوبرا صاروخاً على قناص متمركز في مئذنة أحد المساجد، فقتلت أكثر من عشرة عراقيين، معظمهم من المتمردين على الأرجح، لكن الصور التليفزيونية المحررة أثارت رد فعل عاطفياً حاداً من قبل العراقيين في كل أنحاء البلد".

هذا نص ما ذكره بول بريمر في مذكراته، وفيه شهادة لنا نحن فريق قناة الجزيرة أننا كنا "نوثق كل إصابة".

أما صور قصف المئذنة التي تحدث عنها فقد كانت مثيرة حقاً وقامت الجزيرة ببثها مراراً والقوات الأمريكية تقوم باستهدافها، وأذكر أن هذه الصور تحديداً قام أحد المهندسين العراقيين وهو من سكان حي نزال بتصويرها بكاميرا فيديو صغيرة، وخاطر بنفسه وأحضر لنا الشريط في بيت آل حديد حيث كنا تحت الحصار فتوثقنا من دقة الشريط والصور ثم قمنا بإرسالها للدوحة.

لكن بريمر الذي أعطانا هنا مصداقية كاملة قال في صفحة 412 من كتابه وهو يرد على انتقادات بعض أعضاء مجلس الحكم لما تقوم به القوات الأمريكية في الفلوجة وذلك في اجتماع 7 أبريل/نيسان 2004، قال: "إننا نأسف لفقدان أي نفس بريئة، ودون أن أعطي أي مصداقية للجزيرة أشرت إلى أن الإصابات في صفوف المدنيين تحدث في أي حرب، وقد أولت قواتنا عناية استثنائية لتجنبها".

في هذا الوقت أصدر علماء وأئمة وخطباء الفلوجة بياناً وصلنا نسخة منه وقرأنا بعضه أثناء البث المباشر وكان مما جاء فيه:" قامت قوات الاحتلال بانتهاك حرمة مساجدنا، ونحن نعلن أن مساجدنا خط أحمر وهي عنوان لكرامتنا". لكن قصف مسجد عبد العزيز السامرائي لم يثر حفيظة العراقيين وحدهم ولا المسلمين بل وصل إلى حد إثارة غير المسلمين، فقد كتب وزير الخارجية البريطاني الأسبق روبن كوك الذي استقال احتجاجاً على المشاركة البريطانية في غزو واحتلال العراق مقالاً في صحيفة "الغارديان" البريطانية، نشر في 8 أبريل/نيسان 2004 طالب فيه بإقالة الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر بسبب "إشعاله حرباً واسعة في العراق واستهدافه مسجداً في الفلوجة".

لم يكن مسجد عبد العزيز بعيداً عنا لكننا أصبحنا محاصرين، وأي تحرك من قبلنا يعني أننا نصبح هدفاً لنيران القناصة الذين لم يكن يفصلهم عنا سوى شارع السد فقط، فقد كانوا في المبنى المواجه لنا تماماً، لكننا لا بد أن نتحايل وأن نتحرك، فقام حامد بالاتصال ببعض السكان المقيمين حول المسجد فأكدوا لنا عدم وجود أي مقاتلين في المسجد، لكن ربما تصاعد التكبير من المسجد جعل الأمريكيين يشعرون بالرعب مما دفعهم إلى قصف المسجد بالصواريخ والقنابل وادعاء مقتل أربعين مقاتلاً بداخله، في نفس الوقت سألت حامداً عن إمكانية إحضار الشيخ مكي الكبيسي إمام مسجد عبد العزيز ليتحدث عن تلك الحادثة التي بدأت آثارها تتصاعد حتى وصلت إلى واشنطن وهزت الدنيا، لأن هذا هو السبيل الوحيد لإثبات حجم التضليل والأكاذيب التي يبثها الأمريكيون من خلال وسائل الإعلام والمؤتمرات الصحفية التي يعقدونها في بغداد وواشنطن، فإذا ظهر إمام المسجد وتحدث على شاشة الجزيرة فيكون هذا سبقاً لنا وفي نفس الوقت رداً على الادعاءات الأمريكية الكاذبة.

أجرى حامد بعض الاتصالات حتى عرف أين يقيم الشيخ مكي الكبيسي، ورغم المخاطر الشديدة تحرك حامد حينما بدأ الليل يرخي سدوله من بين أسوار المنازل الخلفية تفادياً لنيران القناصة حتى أصبح بعيداً عن مرماهم ثم اتجه إلى بيت الشيخ مكي، وأحضره تحت عتمة الليل، وكان هذا من إنجازات حامد الكثيرة والمميزة، وأبلغت الزميل سعيد الشولي نائب رئيس التحرير في الدوحة - والذي كان متعاوناً معنا إلى حد بعيد بحرفية ومهنية عالية أثناء التغطية كلها - أننا حققنا سبقاً إعلامياً مميزاً وأحضرنا الشيخ مكي الكبيسي إمام مسجد عبد العزيز السامرائي وممثل هيئة علماء المسلمين في الفلوجة، ليتحدث بنفسه عن ادعاءات القوات الأمريكية عن مقتل أربعين مقاتلاً في المسجد وأني أفضل ظهوره في نشرة "حصاد اليوم" لأنه على أي الأحوال سوف يبيت معنا الليلة لاستحالة عودته ليلاً إلى بيته بسبب وقوعنا تحت حصار القناصة، والقوات الأمريكية، علاوة على الظلام الدامس الذي يلف المدينة ومنع حظر التجول.

وظهر الشيخ مكي في نشرة "حصاد اليوم"، وكان ظهوره هذا هزيمة إعلامية كبيرة للقوات الأمريكية التي سرعان ما تراجعت وأعلنت أن المسجد كان

خالياً، لكن الجنرال كيميت نائب قائد القوات الأمريكية في العراق أخذه الكبر وقال في تصريحات أدلى بها للجزيرة ونقلتها وكالات الأنباء في اليوم التالي 7 أبريل/ نيسان: "ضرب المساجد وارد إذا ما استخدمت لأغراض عسكرية". كان هذا التصريح مستفزاً بشكل كبير حتى إن الزميلة كاتيا ناصر أعدت تقريراً داخلياً من غرفة الأخبار ضمنته هذا التصريح وقالت بسخرية عن هذا التصريح "فتوى الجنرال كيميت بالاعتداء على المساجد". وكان هذا بداية لانتهاك مساجد الفلوجة تواصلت حتى تم تدمير معظمها وكثير من مآذنها في معركة الفلوجة الثانية في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004.

القصف بطائرات إف 16

في هذا اليوم بدأت الطائرات المروحية، تختفي من سماء المدينة وتظهر الطائرات المقاتلة من طراز إف 16. وبعدما تمكن زميلنا حسين دلي من تصويرها وهي تقصف حي الجولان وقمنا ببث الصور اعترف الناطق العسكري الأمريكي باستخدام طائرات إف 16، فمن الصعب أن تتمكن المقاومة من اصطياد تلك الطائرات التي تملك هامشاً كبيراً من المناورة، وحجماً هائلاً من النيران والتدمير من ارتفاع شاهق. وكان استخدام الطائرات المقاتلة في ضرب مناطق مدنية يعني أيضاً تحقيق حجم هائل من الدمار والخراب والضحايا في نفس الوقت.

وبالفعل لم ينته هذا اليوم إلا وقد كان هناك ما يزيد على مئة وخمسين من سكان الفلوجة قد سقطوا بين قتيل وجريح معظمهم من النساء والأطفال، علاوة على تدمير عدد كبير من المنازل في أحياء الجولان والضباط والعسكري والمعلمين ونزال والصناعي. وأذكر أن حسين دلي حينما أبلغنا هاتفياً أنه تمكن من تصوير طائرات إف 16 وهي تقصف حي الجولان بكاميرته الصغيرة، طلبت منه أن يأتي فوراً بالصور التي مثلت إدانة كبيرة للقوات الأمريكية، وأجبرتهم بعد بثها على الاعتراف بأنهم أدخلوا طائرات إف 16 ساحة المعركة بدلاً من الطائرات المروحية. لكن حسيناً تأخر وحينما اتصلنا به مرة أخرى قال لنا: إنه ليس بعيداً عنا ربما لا يبعد عنا أكثر من مئة متر لكن القناصة يقطعون الطريق ويطلقون النار على كل من يتحرك باتجاهنا، وهناك شارع يقع تحت نيران القناصة لا بد

أن يعبره حتى يصل إلينا، لذا فإنه يكمن في أحد التقاطعات وسوف ينتهز الفرصة ويهرب من نيران القناصة ليكمل طريقه إلينا أو يبقى حتى يرخي الليل سدوله ويعبر الشارع في الليل. طلبت منه أن يكون حذراً وأن يبقى كامناً إلى الليل إن كان مجيئه الآن يشكل خطراً على حياته، لكنه لم يبق إلى الليل وانتهز أول فرصة للإفلات من نيران القناصة وأفلت منهم، وحينما جاء عانقته بحرارة وقلت له جملة ذكرني بها بعد ثلاث سنوات، قال لي: "لم أنس حينما أحضرت صور طائرات إف 16 حينما عانقتني وقلت لي: أنت بطل بحق يا حسين، أنت بطل". وقد كان حسين كذلك بالفعل ومثله معظم الزملاء، وقدمت لحسين مفاجأة أخرى فقلت له: "لا بد أن تشارك أنت في البث المباشر القادم، وتروي للمشاهدين ما قامت به الطائرات المقاتلة في تدمير مساكن المدنيين وقتلهم، فأنت الذي قمت بالتصوير وعايشت المعركة".

شعر حسين بالمفاجأة والارتباك إلى حد بعيد وقال: "لم أظهر قط أمام الكاميرا على الهواء". قلت له: "ستظهر اليوم، إذا كنت لم تخف من طائرات إف 16 هل تخاف من الكاميرا"؟ جرَّأته وأصبح مستعداً، لكن للأسف كان هناك بث من واشنطن، فتأجل البث من الفلوجة في تلك النشرة، وعاد حسين إلى وسط المدينة مرة أخرى حتى يقوم بتصوير الشهداء والجرحى الذين وصلوا إلى المستشفى، وقد قام بتغطيات كثيرة بعد ذلك لا سيما في فترة الحرب الثانية على الفلوجة في نوفمبر/تشرين الثاني 2004.

وأذكر أيضاً أنه من بين تلك الصور المميزة التي قمنا ببثها في هذا اليوم صوراً التقطها حسين لبعض رجال المقاومة في حي الجولان، حيث كانوا يطلقون نيران أسلحتهم على القوات الأمريكية التي كانت ترابط في الجهة المقابلة من نهر الفرات وكذلك على الطائرات الأمريكية المهاجمة.

حلقة بلا حدود

كان هذا اليوم هو الأربعاء 7 أبريل/نيسان، والأربعاء هو موعد برنامجي الأسبوعي "بلا حدود"، وكان ترتيبي أن أقدم الحلقة من بغداد، فلم أكن أعرف أني سأذهب إلى الفلوجة وأصبح محاصراً بين أهلها، وكانت هذه الحلقة هي

الأولى من بين حلقتين أعددتهما مسجلتين على غير العادة مع بعض قادة الجيش العراقي السابق ليتحدثوا فيهما عن بعض أسرار سقوط نظام صدام حسين قبل عام.

كنت قد أنهيت مونتاج الحلقة الأولى وإخراجها لكني لم أكن قد سجلت مقدمتها، فرتبت مع الزميل عماد بهجت مخرج البرنامج في الدوحة أن تكون مقدمة البرنامج على الهواء من الفلوجة، وبعد المقدمة يقومون ببث الجانب المسجل من الحلقة والذي كنت قد أنهيت إخراجه ومونتاجه ثم أرسله الزملاء لهم من مكتب بغداد، لم أستطع أن أرتب مقدمة مكتوبة بسبب انشغالي طوال الوقت، ومن الصعب أن يرتجل الإنسان على الهواء دون إعداد، لكني وقفت أمام الكاميرا وسمعت المخرج يصدر أمره ببث موسيقى المقدمة للبرنامج ثم قال لي: "كيو يا أحمد". فارتجلت هذه العبارات ودموعي تخالطها.

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أحييكم على الهواء مباشرة من مدينة الفلوجة المحاصرة - من قبل القوات الأمريكية في العراق - وأرحب بكم في حلقة هذا الأسبوع من برنامج بلا حدود.

لم أكن أتوقع مطلقاً أن أقدم لكم هذه الحلقة من هنا من الفلوجة، ولكني جئت إليها مع فريق الجزيرة قبل أيام فأصبحنا محاصرين فيها مثل أهلها إلى أن يقضي الله لنا أمراً، ومن تصاريف الأقدار أني لا أسجل حلقات برنامجي إلا نادراً ولكن شاءت الأقدار لظروف الضيوف المشاركين في البرنامج أن أسجل هذه الحلقة وحلقة الأسبوع القادم أيضاً، أي إننا على استعداد أن نبقى تحت الحصار إلى الأسبوع القادم إن قدر الله لنا ذلك.

طفت خلال الأسابيع الثلاثة الماضية كثيراً من قرى العراق ومدنه بحثاً عن الضباط أو كبار الضباط الذين شاركوا في معركة بغداد التي أدت إلى سقوط النظام العراقي في التاسع من أبريل/نيسان الماضي عام 2003، وذلك بحثاً عن السر الذي يتساءل عنه الكثيرون كيف سقطت بغداد - بهذه السهولة؟ وما هي أسرار تلك المعركة التي لم يصمد فيها الجيش العراقي كما يقول كثيرون، ولم تصمد فيها قوات الحرس الجمهوري، لكني للأسف لم أجد موافقة من كثير من الضباط الذين التقيت بهم كي يتحدثوا، حتى إن بعضهم رفض مجرد اللقاء بي. ومع ذلك فقد التقيت بآخرين وافقوا على أن يتحدثوا، وفي هذه الحلقة أقدم لكم

اثنين من كبار الضباط الذين شاركوا في المعركة أحدهم وافق على أن يظهر باسمه وصورته وهو اللواء الركن مزهر العبيدي، والضيف الآخر أحد قادة الحرس الجمهوري وافق على أن يتكلم دون اسمه أو صورته، فإلى نص الحوار ولكن بعد هذا الفاصل".

بعدما أنهيت تلك المقدمة وجدت جميع الزملاء متأثرين حتى إني رأيت بعضهم يجفف دموعه ولقيني شقيق حامد الأكبر سامي الذي كان يجلس في غرفة الصالون وقال: لقد أبكيتنا يا أبا ندى.

بوش يتابع معركة الفلوجة بنفسه

على الصعيد السياسي هزت أحداث الفلوجة البيت الأبيض ونقلت الوكالات في هذا اليوم أن الرئيس الأمريكي جورج بوش اطلع بنفسه على الوضع المتردي للقوات الأمريكية في اتصال عبر الفيديو من الفلوجة، كما تحدث إلى حليفه توني بلير وطلبه إلى اجتماع عاجل في واشنطن حدد له السادس عشر من أبريل/ نيسان. وهذا تاريخ هام لأنه تباحث معه في هذا الاجتماع عن نيته في قصف مقر قناة الجزيرة بسبب تغطيتنا لأحداث الفلوجة كما كشفت صحيفة "الديلي ميرور" البريطانية وكما سأوضح بعد ذلك، علاوة على ذلك عقد بوش اجتماعاً لمجلس الأمن القومي الأمريكي لبحث الوضع في العراق.

وقال الحاكم العسكري الأمريكي بول بريمر في مذكراته "عام قضيته في العراق": إن الاجتماع الذي عقد عبر دائرة تليفزيونية وحضره كل من الجنرال جون أبي زيد ودونالد رامسفيلد وريتشارد مايرز وكوندوليزا رايس وديك تشيني والرئيس الأمريكي بوش "كان مخيباً للآمال" من خلال العرض الذي قدمه الجنرال جون أبي زيد عن الوضع العسكري في العراق وقال بوش في نهاية الاجتماع: "علينا أن نكون أشد من الجحيم الآن، الأمريكيون يريدون أن يعلموا بأننا نلاحق الأشرار، علينا المبادرة إلى الهجوم، ومواصلته". لذلك عقدوا اجتماعاً آخر في نفس اليوم، لترتيب إجراءات الضوء الأخضر الذي أخذوه من بوش لكي يكونوا أشد من الجحيم. وقال بريمر: "لكن هذا اليوم لم ينته بعد فقد وردت أنباء تفيد بأن المارينز يواجهون مقاومة شديدة في الفلوجة".

أما هيئة علماء المسلمين فقد أعلنت مقاطعتها للأمم المتحدة ما لم تندد بما تقوم به القوات الأمريكية في مدن العراق، وكان الأخضر الإبراهيمي مندوب الأمين العام للأمم المتحدة الذي كان موجوداً في العراق لم يندد بما تقوم به القوات الأمريكية، بل كان كما قال عنه الحاكم الأمريكي بول بريمر في الصفحة 410 من كتابه "عام قضيته في العراق": "كان الدبلوماسي الجزائري - الأخضر الإبراهيمي - أكثر قلقاً حيال إراقة الدماء المحتملة في الفلوجة، وهدد بمغادرة العراق" لكنه بعد نقاش مع بريمر اقتنع بوجهة نظر بريمر الذي قال عنه بعد ذلك: "وفي النهاية وافق الإبراهيمي على البقاء في الوقت الحاضر".

في نفس الوقت دعت هيئة علماء المسلمين إلى تظاهرة سلمية تنطلق من بغداد صباح الخميس الثامن من أبريل/نيسان وتتجه إلى الفلوجة لتقوم بفك الحصار الذي تضربه القوات الأمريكية حول مدينة الفلوجة، وقد حركت هذه الدعوة العراقيين في معظم أنحاء العراق للتوجه إلى الفلوجة ومحاولة فك الحصار عنها.

نجاة زميلنا أبي عمر من القناصة

نمنا ليلتنا الأولى تحت نيران القناصة وحصارهم لنا، كما أن الكهرباء قد انقطعت عن المدينة، وأصبحنا تحت الظلام الدامس، فكنا نتحرك ليلاً داخل البيت بالشموع وموقد يعمل بالكيروسين، وكنا نعتمد على مولد الكهرباء في تشغيل جهاز البث وشحن بطاريات كاميرات التصوير، لكننا فوجئنا بأن كمية البنزين التي لدينا لم تعد كافية لتشغيل المولد حتى الصباح مما يهدِّد بتوقف جهاز البث عن العمل ومن ثم توقفنا عن التواصل مع الدوحة ومدّهم بالصور وتطورات الأحداث، فقال لنا أبو عمر إن سيارته بها بنزين ويمكن أن يستخرجه من خزانها لأننا لم نعد نستخدمها، ورغم أنها داخل بيت آل حديد لكنها تقف في الجهة الأخرى من المدخل الرئيسي للبيت من شارع السد وهي الجهة التي لم نعد نستخدمها لأنها تقع تحت نيران القناصة، فطلبنا منه أن يتحرك بحذر ويخرج تحت جنح الظلام من الباب الذي كنا قد أغلقناه ولم نعد نستخدمه، ويحاول استخراج بعض البنزين من خزان وقود السيارة.

تحرك أبو عمر بحذر بينما كانت أصوات الجنود الأمريكيين في المبنى المقابل للبيت عالية وتترامى إلى مسامعنا طوال الوقت حتى وهم يتحدثون مع بعضهم البعض، لكننا كنا نهمس أثناء حديثنا لبعضنا البعض في البيت حتى لا يسمعونا. ما إن فتح أبو عمر الباب حتى عاد راكضاً بسرعة فائقة وهو مرعوب مغلقاً الباب بقوة ووقف خلفه، كنت وقتها أقف في الصالون أتحدث إلى أحد الزملاء، لكن عودة أبي عمر المفزعة وإغلاقه الباب بقوة جعلني والزملاء نهرع إليه قائلين: "ماذا حدث"؟ حاول أبو عمر أن يسترد روحه التي شعرت بالفعل أنها كادت تخرج منه، فقد كان يلهث وقلبه يكاد يخرج من صدره ثم قال: "ما إن فتحت الباب متوجهاً للسيارة حتى أستخرج بعض البنزين من خزانها كما طلبتم حتى وجدت شعاعاً من الليزر الأحمر على صدري موجهاً من القناص الذي يبدو أنه رصدني بسرعة، فارتميت في الأرض وأنا أتوقع الرصاصة القاتلة في أي لحظة ثم دخلت مسرعاً وأغلقت الباب خلفي".

هدأنا الرجل الذي كان يمكن أن يكون ضحية في ثانية، لكن الله حفظه، وقد علمت بعد ذلك أن بنادق القناصة الأمريكيين الحديثة التي تعمل على شعاع الليزر ترشد القناص للهدف عبر ترددات ونبضات وحرارة الجسم الحي، لذلك سرعان ما يتعرف على الهدف حتى تحت جنح الظلام الحالك. وكنت أنا قد ارتكبت خطأ قاتلاً قبل أن يحل الليل، فقد كان ليث يقوم بتصوير القناصة من عدسات الكاميرا التليفزيونية من خلف الستائر من غرفة السطح العلوية، إضافة إلى ذلك كنا نستطيع رؤية القناصة حتى من غرف الطابق الأرضي ومنها غرفة الصالون التي كنا نقيم فيها، وكنت أحمل كاميرا صغيرة للتصوير الضوئي، وكان الفلاش الخاص بها يعمل أوتوماتيكياً حسب نسبة الضوء المتاحة وغالباً لا يعمل بالنهار. ولأن ضوء النهار كان لا زال ساطعاً فقد ظننت أن الفلاش لن يعمل، فأزحت جانباً من الستارة واستخدمت زوم الكاميرا وأصبح القناصة واضحين تماماً في الصورة في بؤرة العدسة عندي، وبمجرد قيامي بالضغط على زر التصوير خرج ضوء الفلاش بشكل ملفت للغاية بعدها ملأ الرعب نفسي، وأدركت أن الجنود قد رصدوني، وبقيت أكثر من عشر دقائق أتوقع قصف المكان في أي لحظة أو إطلاق نار من قبل القناصة على مصدر الفلاش، لذلك طلبت من الزملاء أن يبتعدوا جميعاً عن تلك النافذة التي التقطت الصورة منها، وبقينا حتى حل الليل

لا نقترب منها، وقد شعرت وقتها أنني ارتكبت حماقة كبيرة بحق الجميع. لكن الله سلَّم، ولا أدري إن كان القناصة قد رصدوا الفلاش أم لا وإلا بالفعل لم نكن نجونا منهم. لقد قتلوا أمس جارتنا التي لم يتجاوز عمرها ثمانية عشر عاماً وأصابوا والدها، كما قتلوا كثيراً من الأطفال والنساء كما أكد ذلك أطباء المستشفى حيث إن معظم الإصابات أصبحت من نيران القناصة.

وفي هذا اليوم بقي طبق البث على سطح البيت كما هو، لكن الجهاز أنزلناه إلى الأسفل وكنت أظهر في البث على الهواء من خلال حديقة البيت الخلفية، وأتحدث بصوت منخفض، وأصبحنا لا نستطيع من داخل البيت أن نقوم بتصوير أي شيء إلا بعض الصور التي يسترقها ليث من شباك غرفة السطح، كما أصبحنا نعتمد على الصور التي يأتي بها حسين دلي.

وبذلك تدرج نزولنا حتى أصبحنا على الأرض. في اليوم الأول كنا نصور من أعلى غرفة السطح أي الطابق الثالث، ثم نزلنا بعد ذلك إلى السطح في الطابق الثاني، والآن بالكاد نقدم تقاريرنا من حديقة المنزل الخلفية ونحن تحت حصار القناصة ونيرانهم.

الفلوجة تشعل المقاومة وتوحِّد العراقيين

أصبحنا تحت الحصار لا نستطيع أن نتحرك من بيت آل حديد الذين كانوا جميعاً محاصرين معنا، فالقناصة يحاصروننا، لكننا لم نتحدث على الهواء بهذا حرصاً على عدم إقلاق الآخرين، حتى إننا لم نُخْبر زملاءنا في الجزيرة بخطورة ما نحن فيه، وقلنا لنتدبر أمرنا طالما أننا نستطيع أن نستخدم المدخل الخلفي للبيت وإن كان في الأمر مخاطرة الوقوع تحت نيران القناصة، لكن لم يكن أمامنا خيار.

كان يوم الخميس الثامن من أبريل/نيسان 2004 يوماً مشهوداً من أيام العراق، ففي هذا اليوم وحَّدت الفلوجة السنة والشيعة وكل أطياف المقاومة في العراق، وقد تمكن المقاتلون في الفلوجة في هذا اليوم من إسقاط سادس مروحية منذ بدء حصار المدينة، وشوهدت وهي تحترق في بستان البو عريم قرب مدرسة الأنبار في حي الجولان في الفلوجة. كما بدأ رجال المقاومة في استخدام سلاح

القنص أيضاً للجنود الأمريكيين، وأعلن متحدث باسم القوات الأمريكية أن عنصرين من المارينز قتلا في الفلوجة بنيران القناصة، ولعل هذا ما دفع القوات الأمريكية إلى بدء الاعتماد على طائرات إف 16 المقاتلة بشكل أساسي بعدما نجح مقاتلو الفلوجة بإسقاط رقم قياسي من الطائرات المروحية خلال أيام قليلة.

في نفس الوقت كان جيش المهدي يصعّد انتفاضته ضد القوات الأمريكية في كافة مدن الجنوب: كربلاء والنجف والكوفة والكوت، وكذلك في مدينة الثورة في بغداد؛ لكن الكارثة الكبرى التي واجهتها القوات الأمريكية المحاصرة للفلوجة كانت في قطع طرق الإمداد عنها، وضرب حصار حولها من كافة الاتجاهات التي تؤدي إلى المدينة. فالطريق الرئيسي لإمداد القوات الأمريكية المحاصرة للفلوجة كان طريق بغداد الفلوجة عبر أبو غريب، وقد تداعت فصائل المقاومة من كل أنحاء العراق وقامت بتنسيق حصارها للقوات الأمريكية المحاصرة للمدينة.

وعلاوة على قصف القوات الأمريكية بالهاون والصواريخ ونصب الكمائن لها طوال الليل، قامت المقاومة بقطع طرق الإمداد عنها صباح الخميس 8 أبريل/ نيسان وأحرقت أكثر من عشر شاحنات كانت تحمل مواد تموينية للقوات الأمريكية، وقام الزملاء في الجزيرة مع معظم وكالات الأنباء بتصوير الشاحنات وهي تحترق بينما كان يقوم بعض السكان بنهبها.

وقد تصاعد الهجوم على قوافل الإمدادات في اليوم التالي حتى تحول الطريق بين بغداد ومدخل الفلوجة إلى محرقة لقوافل الإمداد الأمريكية، مما أرعب السائقين الذين يعملون مع القوات الأمريكية وجعلهم يرفضون نقل المؤن واضطر الأمريكيون إلى إيصال المؤن الغذائية لقواتهم عبر الطائرات المروحية في كثير من المناطق حول الفلوجة.

أما من ناحية الشمال الشرقي للفلوجة فقد تمكنت المقاومة من تدمير 7 آليات عسكرية على طريق الكرمة ـ ذراع دجلة، وبعد ذلك أحكم رجال المقاومة سيطرتهم تماماً على الطريق، وقد مررت به صباح الحادي عشر من أبريل/ نيسان فوجدت المقاومة تسيطر عليه بالكامل وبطول يزيد عن مئة وخمسين كيلو متراً ولم يكن هناك جندي أمريكي واحد على الطريق، رغم أنه كان أحد طرق الإمداد الرئيسية للقوات الأمريكية للحماية، وكان هو الطريق الوحيد البديل

للطريق السريع الذي يربط العراق مع الأردن وسوريا والذي كانت تقطعه القوات الأمريكية بعد حصارها للفلوجة.

أما على طريق عامرية الفلوجة فقد تمكنت المقاومة من تدمير رتل عسكري أمريكي كان يضم ثلاث شاحنات تحمل مؤناً مع سيارتي جيب همر كانتا للحماية. أما في مدينة الكوت فقد فرت القوات الأوكرانية بعد عجزها عن مواجهة جيش المهدي، ورفضوا حماية المدنيين الذين كانوا يعملون معهم وكان من بينهم ثلاثة عشر بريطانياً، وقد نددت الصحف البريطانية ومنها "الغارديان" بموقف الأوكرانيين.

كما اشتعلت المواجهات ضد القوات الأمريكية في كل من تكريت وسامراء والموصل وبعقوبة وكل محافظة ديالى وكل مناطق محافظة الأنبار، وأفلت الزمام تماماً من يد الأمريكيين، وبدأت ملامح ومعالم الهزيمة تحيط بهم في كل أرجاء العراق وكان ذلك عشية الذكرى الأولى لاحتلالهم العراق.

وقد كتب كثير من المعلقين في الصحف الغربية في ذلك اليوم 8 أبريل/ نيسان 2004 لا سيما البريطانية والأمريكية تعليقات حول الورطة الأمريكية من بينها الهجوم الذي شنه المحلل البريطاني شيموس مايلن في صحيفة "الغارديان" البريطانية على كل من بوش وبلير وبريمر، وقال فيه: إنهم أشعلوا حرباً جديدة وسوف يحترقون فيها. وأشارت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية إلى أن القوات الأمريكية تواجه انتفاضة واسعة في كل أنحاء العراق وليس مع جيش المهدي فقط كما حاولت القيادات الأمريكية أن توحي في تصريحاتها خلال الأيام الماضية.

وقد تصادفت هذه الانتكاسة للقوات الأمريكية مع استقالة ريتشارد بيرل أحد قيادات المحافظين الجدد ومهندسي الحرب على العراق فيما اعتبر بداية لهزيمة هذا الفريق وهزيمة أمريكا. وقد طالب بيرل آنذاك باستقالة مدير جهاز المخابرات المركزية الأمريكية جورج تينيت الذي استقال بعد ذلك في يوليو/ تموز 2004 وسط انتقادات واسعة النطاق لأداء المخابرات شملت أيضاً الهجمات التي تعرضت لها الولايات المتحدة في 11 سبتمبر/أيلول 2001. واتهم تينيت بعد ثلاث سنوات من استقالته في حلقة من برنامج ستون دقيقة

الذي تبثه محطة "سي بي إس" الأمريكية تم بثها في 26 أبريل/نيسان 2007 - اتهم بوش وإدارته وخاصة ديك تشيني وكوندوليزا رايس بأنهم يريدون تلويث سمعته السياسية وتحميله السبب وراء خوض هذه الحرب الفاشلة في العراق.

وصرح تينيت بأن أكثر ما يثيره هو استمرار كبار المسؤولين مثل ديك تشيني نائب الرئيس الأميركي وكوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية في الإشارة إلى تعبيره "الهدف المضمون" وكأنهم يقولون "انظروا إلى هذا الغبي وما قاله لنا ونحن قررنا أن نخوض الحرب". ودعا المسؤولين في البيت الأبيض إلى تحمل المسؤولية وقال: "لينهض الجميع وليقولوا الحقيقة. ليقولوا للشعب الأميركي حقيقة ما حدث".

وأصدر تينيت مذكراته في الذكرى الرابعة للاحتلال تحت عنوان "في قلب العاصفة" الذي كان من أكثر الكتب إثارة للجدل حينما صدر في شهر مايو/أيار من العام 2007 حيث شن فيه تينيت الذي بقي رئيساً لجهاز السي آي إيه من العام 1997 وحتى استقالته أو إقالته في العام 2004، حيث شن هجوماً كاسحاً على بوش وإدارته ومخططاته لغزو واحتلال العراق.

وكان تينيت هو أول من ضحى بهم بوش بعد الهزيمة التي بدت واضحة خلال معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان 2004، في نفس الوقت اعترف وليام كريستول أحد أبرز المحافظين الجدد وصاحب الصحيفة اليمنية "ويكلي استاندر" في مقال كتبه في صحيفته بعد حصار الفلوجة في أبريل/نيسان 2004 بأنه: "حدث تحول جذري في تفكيرنا وأخطأت في بعض الأشياء"، أما روبرت كاجان فقد كتب مقالاً في مجلة "فورين أفيرز" الأمريكية الشهيرة أكد فيه أن أحداث العراق جعلتهم - كمحافظين جدد - يعيدون التفكير في أولوياتهم، وسوف أفصِّل فيما بعد معالم وتفاصيل الهزيمة التي لحقت بهؤلاء الذين روَّجوا للحرب على العراق وكانوا يعتقدون أنهم سوف يقومون بتغيير العالم من خلالها.

أما بول بريمر الحاكم الأمريكي للعراق فقد عبَّر عن عمق الهزيمة التي كان يعيشها مع قواته وإدارته في هذا اليوم حيث يقول في صفحة 417 من مذكراته: "في صباح يوم 8 أبريل/نيسان أثارت الأزمتان العسكريتان - الفلوجة وجيش المهدي - أزمة سياسية على نطاق واسع، أولاً قدم وزير الداخلية نوري بدران،

آمر جهاز الشرطة العراقية المترهل استقالته، ومع أنه علل خطوته بأنها عائدة "لأسباب شخصية" فإن من المثير للقلق تخلّيه عن الحكومة في أثناء الأزمة المتواصلة. ثانياً عمد أبو حاتم المحارب الشيعي الأسطوري من الجنوب ـ "أمير الأهوار" الذي يملك السلطة على قبائل مهمة على طول الحدود مع إيران إلى تعليق عضويته في مجلس الحكم، وكنت زرت مواطن قبيلته في الأهوار في أيلول/سبتمبر ورأيت الشعبية التي يتمتع بها هناك، اتصلت به على هاتفه الخلوي في منزله القبلي في مدينة العمارة الجنوبية وطلبت منه إعادة النظر في قراره فقال "دعني أفكر إنها فترة عصيبة"، واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي.

وخلال دقائق أعلن وزير حقوق الإنسان عبد الباسط تركي عن استقالته، وهو مسلم سني معتدل ولديه روابط عائلية وعشائرية في مقاطعة الأنبار، وبعد ذلك سمعنا أن الباجه جي العضو الكبير في مجلس الحكم، غاضب من عملية الفلوجة التي أسماها علناً "عقاباً جماعياً" وكان أيضاً على عتبة الاستقالة. وبعد أقل من ساعة جاء حاجم الحسني ممثل الحزب الإسلامي العراقي ليبلغني بأن المكتب السياسي لحزبه صوَّت على الانسحاب من مجلس الحكم احتجاجاً على الهجوم الذي يشنه المارينز على الفلوجة. وأضاف حاجم بأن غازي الياور أحد الأعضاء الستة البارزين في مجلس الحكم يعتزم ترك مجلس الحكم بعد ظهر اليوم، وأصر حاجم قائلاً: "عليكم الدعوة لوقف إطلاق نار فوري في الفلوجة". وعبر عن رغبته في قيادة وفد من مجلس الحكم إلى الفلوجة للتحدث مع قادة المدينة بشأن الأزمة".

وقد أوجز بريمر هذه الصورة التي تحمل كل معالم الهزيمة العسكرية والسياسية للقوات الأمريكية في العراق آنذاك قائلاً: "كنا أمام أكثر أزمات الاحتلال حرجاً، حيث لا يمكن أن تكون المخاطر أكبر"، ثم يتحدث عن هزيمة حقيقية للوجود الأمريكي في العراق بسبب معركة الفلوجة قائلاً في الصفحة 419: "تبين أن العمليات المتواصلة في الفلوجة ستؤدي إلى انهيار العملية السياسية بأكملها وتجبرنا على تأجيل نقل السيادة إلى العراقيين وكنت واثقاً من أن ذلك سيؤدي إلى تصاعد التمرد ومقتل مزيد من الأمريكيين، وفي نفس الوقت شعرت أن علينا مواصلة العمليات العسكرية القوية ضد مقتدى".

هكذا يعترف بريمر بالهزيمة المبكرة التي صنعتها معركة الفلوجة الأولى للأمريكيين، وأن كل هؤلاء العراقيين الذين شاركوا في العملية السياسية من البداية لعبوا الدور الأساسي في التمكين لقوات الاحتلال، ولو أنهم تخلوا عن المشاركة في مجلس الحكم من البداية لانهار الاحتلال الأمريكي للعراق، كما لعب هؤلاء دوراً كبيراً في إنقاذ القوات الأمريكية التي كانت بالفعل كما قال بريمر تنهار في الفلوجة وهي تتعرض كل يوم لمزيد من القتلى.

هذا على الصعيد السياسي والدولي؛ أما على الصعيد الداخلي فإنه بناء على دعوة هيئة علماء المسلمين خرج آلاف العراقيين من السنة والشيعة من بغداد إلى الفلوجة في مسيرة حاشدة يرددون "لا سنة ولا شيعة، والعراق ما نبيعه" "وحدة وحدة إسلامية لا سنية ولا شيعية". وقام الهلال الأحمر العراقي بإعداد قافلة ضخمة من الشاحنات المحملة بالمواد الغذائية والأدوية والمستلزمات الطبية والمواد الغذائية الطازجة والخضراوات والفواكه واتجهوا إلى الفلوجة، وقرر الجميع كسر الحصار عن المدينة والدخول إليها، وتحرك كثير من أهل العراق بقوافل أخرى من معظم مدن العراق.

وقال الشيخ أحمد عبد الغفور السامرائي إمام مسجد أم القرى في بغداد في تصريحات نشرتها وكالة الأنباء الفرنسية: "بعد مفاوضات استغرقت يوماً كاملاً حصل الهلال الأحمر على إذن من الائتلاف بإدخال هذه المؤن المحملة.... والمكوَّنة من الأدوية والمواد الغذائية، والمستلزمات الطبية، والفواكه والخضراوات والدم إلى أهالي الفلوجة". وأضاف: "نريد أن نعبر عن تضامننا مع إخواننا الذين تعرضوا للقصف بالطائرات والدبابات، الناس يقدمون التبرعات حتى إن بعض النساء أحضرن حليهن تبرعاً لأهالي الفلوجة كي يشعروهم بأننا معهم".

لم تكن قافلة الهلال الأحمر وحدها هي التي جاءت بالمؤن إلى الفلوجة، ولكن من معظم مدن العراق جاءت قوافل، بل كان كثير من الذين جاؤوا ـ كما روى لي الزميل عبد العظيم محمد الذي تمكن من دخول المدينة مساء ذلك اليوم مع قافلة الهلال الأحمر ـ كانوا أفراداً جاؤوا يحملون ما جادت به أنفسهم على إخوانهم المحاصرين، فقد كان معظم أبناء العراق حقيقة في ذلك الوقت على قلب رجل واحد، إلا أن القوات الأمريكية عرقلت دخول القافلة ومنعت الجميع من

الدخول لعدة ساعات. وقد أدى هذا إلى أن يقوم المتظاهرون برشق الجنود الأمريكيين بالحجارة، وبعد مفاوضات سمحوا لبعض الشاحنات الصغيرة ومن بينها شاحنات تابعة للهلال الأحمر أن تدخل إلى الطريق المؤدي إلى الفلوجة، لكن القوات الأمريكية التي كانت تطوق المدينة لم تسمح في البداية للقافلة كلها بالدخول، لكن تحت الضغوط والعمليات العسكرية التي حاصرت القوات الأمريكية من كل جانب سمحوا في النهاية لكثير من السيارات لا سيما سيارات الإسعاف والمساعدات الطبية أن تدخل إلى المدينة، وكان ذلك بشكل عملي هو أول كسر للحصار المضروب على المدينة.

بالنسبة إلينا كان نجاح الزميل عبد العظيم من الدخول إلى المدينة مصاحباً لقافلة الهلال الأحمر من أهم المكاسب، لأن معظم الزملاء أصبحوا مرهقين ومتعبين للغاية، كما أن حجم العمل كان أكبر بكثير من طاقتنا جميعاً، لكن المشكلة أن عبد العظيم الذي تمكن بالفعل من دخول الفلوجة بعد ظهر الخميس 8 أبريل/نيسان لم يستطع الوصول إلينا، فقد أصبحنا في هذا اليوم تحت حصار محكم من القناصة والقوات الأمريكية، ولا يستطيع أحد أن يأتي إلينا أو يخرج من بيت آل حديد إلا بعد المرور بمخاطرة كبيرة قد تودي بحياته، ومع ذلك كنا نتابع التطورات عبر الاتصالات، وكان البعض يخاطر مثل حسين دلي الذي كان دائماً يأتينا بالصور التي كانت كلها تمثل سبقاً إعلامياً للجزيرة.

داخل الفلوجة قامت القوات الأمريكية بتعزيز مواقعها في الأحياء التي استولت عليها لا سيما الحي الصناعي وحي نزال، وقاموا بإعادة احتلال مسجد عبد العزيز السامرائي مرة أخرى وانتشر القناصة على مآذن المسجد كما انتشروا على مآذن مسجد الخلفاء الراشدين في حي الضباط على الطريق العام للمدينة، وأصبح سكان المناطق الشرقية لمدينة الفلوجة الضباط والعسكري ونزال والشرطة محبوسين في بيوتهم لا يستطيعون حتى مجرد الإطلال من النوافذ بسبب انتشار القناصة الذين يقتلون أي مدني يخرج من باب بيته أو يطل من الشباك حتى لو كان طفلاً. ولا أنسى تلك العائلة التي اتصلت بنا من حي نزال وأبلغتنا أن اثنين من أبنائها قد استشهدا بفعل نيران القناصة، وطلبوا منا أن

نساعدهم في إرسال سيارة إسعاف إليهم حتى تنقل الشهداء إلى المستشفى من أجل تكفينهم ومن ثم دفنهم.

اتصلنا بالدكتور رافع العيساوي فأبلغنا أن القوات الأمريكية تقوم بقصف أية سيارة إسعاف يقومون بإرسالها إلى حي نزال وأن هناك بعض الجرحى لم يستطيعوا إسعافهم ونزفوا حتى الموت في ذلك الحي بسبب عدم قدرة سيارات الإسعاف على الوصول إليهم حيث قامت القوات الأمريكية بقصف سيارة إسعاف في حي نزال ليل الأربعاء 7 أبريل/نيسان، ونجا السائق بأعجوبة بينما أصيب المسعف، وحينما أرسلوا سيارة أخرى لقطرها قصفتها القوات الأمريكية أيضاً، لذلك كانت المشكلة الأكبر هنا هي مشكلة الموتى في المناطق المحاصرة، وأصبحت هناك مأساة جديدة اسمها مأساة الأموات في الفلوجة.

مأساة الأموات في الفلوجة

ربما يتحدث الناس دائماً عن مأساة الأحياء في الصراعات والحروب. ويعتبر كثيرون من البسطاء أن الأموات في مثل هذه الظروف قد ارتاحوا من عناء الحياة، غير أني هنا ـ وربما استغرب بعض القراء ذلك ـ سوف أتحدث عن مأساة الأموات في مدينة الفلوجة. وقد بدأت المشكلة تتفاقم مع أول يوم للحصار الأمريكي للمدينة حيث إن المقبرة الرئيسية للبلدة كانت تقع على الضفة الأخرى من نهر الفرات كما أشرت من قبل، وحينما ضربت القوات الأمريكية حصارها حول المدينة كانت المقبرة من بين الأماكن التي وقعت تحت سيطرة القوات الأمريكية.

في الأيام الأولى للحصار كان عدد الشهداء محدوداً إلى حد ما، فكانوا يقومون بدفنهم في المقابر القديمة الموجودة داخل البلدة والتي لم تعد تستعمل منذ سنوات طويلة، لكن حينما بدأت أعداد الشهداء تزداد أصبحت المشكلة معقدة، وبلغت ذروة التعقيد يوم الأربعاء السابع من أبريل/نيسان.

فالعائلة التي استشهد أربعة وعشرون من أفرادها في حي الجولان بقيت جثثهم مع جثث أخرى في مسجد أبي أيوب الأنصاري إلى اليوم التالي لعدم

وجود مكان لدفنهم، وكان أهل المدينة كلما حاولوا أن ينقلوا بعض الموتى إلى المقبرة التي تقع تحت سيطرة القوات الأمريكية أمطرهم الأمريكيون بالرصاص فيعودون بجثث الشهداء ومعهم شهداء ومصابون جدد من المشيعين. وقد استشهد كثير من أهل الفلوجة أثناء قيامهم بدفن شهدائهم حتى في المقابر البديلة بعد ذلك.

وأذكر أني حينما ذهبت صبيحة الأربعاء 7 أبريل/نيسان لحضور إحدى الجنائز والاطلاع على حال المقبرة القديمة وسط المدينة كما سبق أن أشرت، كان الناس متذمرين للغاية لأن المقبرة كانت ممتلئة، ولا توجد بها أماكن لقبور جديدة، ويصعب حفر قبور جديدة بها. كما أن عدد الشهداء كان يتزايد بشكل كبير يوماً بعد يوم، وأصبح الجميع يتساءلون في غضب حينما شاهدوني وقالوا لي .. "أين نذهب بالأموات؟ هل هذه هي الديمقراطية التي جاءت بها أمريكا إلينا، أن يسيطروا على المقبرة ويمنعونا من الوصول إليها وأن يصل الحال بنا إلى عدم القدرة على دفن شهدائنا"؟.

من جانب آخر فإن بعض الأسر في حي نزال تحديداً الذي حاصرته القوات الأمريكية عدة أيام وكانوا يطلقون النار على كل شيء يتحرك فيه حتى سيارات الإسعاف، اضطروا إلى دفن شهدائهم في حدائق المنازل. وأذكر أن عائلة الشهيدين اللذين سبق وأن أشرت إليهما في حي نزال طلبوا منا بعدما عجزوا عن نقلهم إلى المستشفى أو إلى المقبرة أن نذهب لتصوير جثث أبنائهم وبثها أثناء إقامة جنازة لهم، وتصوير مقبرة في حديقة المنزل فربما يساعد هذا في حل مأساتهم، وأن تسمح القوات الأمريكية بفتح الطريق إلى المقبرة الرئيسية للبلدة وفك الحصار عنها. لكننا في ذلك اليوم الخميس 8 أبريل/نيسان كنا تحت الحصار من قبل الجنود الأمريكيين والقناصة ولم نكن نستطيع أن نتحرك ونذهب لتسجيل وقائع تلك الجنازة المؤلمة، فالقناصة الأمريكيون كانوا يطوِّقون المنطقة ولم يتمكن فريقنا من دخول الشارع الذي يقع فيه البيت.

وعلمنا بعد ذلك أنه خوفاً من تحلُّل الجثث اضطر أهل البيت أن يدفنوا ولديهما في حديقة المنزل وكذلك فعل آخرون. ولنا أن نتخيل أن فلذة كبدنا الذي كان حياً في البيت قبل ساعات أصبح قبره في جانب منه مع باقي أفراد الأسرة

من الأحياء، كيف يكون حجم الألم لدى أهله وقبره ماثل أمامهم بالليل والنهار فلا يلتئم لهم جرح، ولا يجف لهم دمع؟ لا شك في أن دفن الموتى في المقبرة يخفِّف كثيراً من الآلام عن كون الأسرة ترى قبر ولديها في حديقة البيت بالليل والنهار.

وقد طلب منا الدكتور رافع العيساوي مدير مستشفى الفلوجة في تلك الليلة عبر الهاتف أن نناشد باسمه من خلال قناة الجزيرة كل من كان لديه ذرة من إنسانية أن يتدخل للتخفيف حتى عن آلام الموتى.

وفي محاولة للتغلب على هذه المشكلة قرر أهل الفلوجة في هذا اليوم الخميس 8 أبريل/نيسان تحويل الملعب الرياضي في المدينة إلى مقبرة للشهداء، ورغم أن هذا كان حلاً جزئياً لأن بعض المناطق ظلت تعاني من جراء القصف ولا تستطيع حمل شهدائها لدفنهم في مقبرة الشهداء الجديدة لأنها كانت بعيدة عن أحيائهم، فكان معظم الشهداء يتم تكفينهم في المراكز الطبية القريبة منهم.

وأذكر أنه مساء يوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان أبلغني الدكتور واثق العاني مدير المركز الطبي في حي المعلمين في الفلوجة، أن عبد الكريم عاشور إبراهيم استشهد فجر يوم الجمعة 9 أبريل/نيسان، وأخذه أهله وأقاربه لدفنه في مقبرة الكرامة بعد صلاة الجمعة، وأثناء مراسم الدفن والتشييع قامت القوات الأمريكية بإطلاق النار على المشيعين وهم داخل المقبرة، فاستشهد ثلاثة منهم هم حمدي كامل حسن من مواليد العام 1977، وأخيه محمد كامل حسن من مواليد العام 1985، وثالث هو عمر علي أحمد من مواليد العام 1976، وجميعهم من سكان حي المعلمين في الفلوجة، بينما أصيب آخرون.

وفي يوم الجمعة أيضاً قام قناص أمريكي بقنص بعض من كانوا يقومون بحفر قبور جديدة في مقبرة المعاضيدي الملاصقة للمسجد الذي يحمل نفس الاسم، وفي أوقات أخرى قتلوا بعض المشيعين. وفي هذا اليوم الجمعة 9 أبريل/نيسان وصل عدد شهداء الفلوجة منذ بداية الحصار إلى حوالي خمس مئة شهيد حسب الإحصاءات الرسمية من المصادر الطبية، هذا خلاف الذين بقوا تحت الأنقاض أو الذين لم تكن عائلاتهم قد أبلغت عنهم، وقد أطلقت في هذا اليوم نداءات من المساجد تدعو السكان لتوفير أكفان للموتى حيث كانت هناك مشكلة في عدم وجود أكفان كافية للموتى.

كما أنني أذكر حينما مررت بالمستشفى الميداني ليلة السبت العاشر من أبريل/نيسان قرب منتصف الليل وجدت جثثاً وصلت للتو لعائلة كاملة ممدّدة أمام المستشفى تنتمي إلى ثلاثة أجيال؛ من الجد الذي كان اسمه محمد جاسم المطلوب إلى صهره إلى حفيده الصغير، حيث قصفت الطائرات الأمريكية بيتهم في منطقة جبيل بصاروخ فدمرته على رؤوسهم وماتوا جميعاً، وكان باقي العائلة قد تمكن من الخروج صباحاً من المدينة بينما آثر هؤلاء الثلاثة البقاء. وكانت بعض الجثث ممزقة جراء القصف حتى إني لم أحتمل رؤيتها وطلبت من المصور أن يصوّرها، وقمنا ببثها صباح السبت على شاشة الجزيرة. وتحولت المراكز الصحية ليس فقط إلى مجرد مراكز لعلاج الجرحى ولكن أيضاً كان يكفن بها الموتى وتتحرك بهم سيارات عادية إلى المقبرة مع أحد أقاربهم إن وجد أو مع أحد المتطوعين.

وكانت هناك مأساة أخرى هي مأساة بعض الجثث التي لم يتم التعرف على هوية أصحابها بسبب أن العائلات كانت ممزقة؛ بعضها خرج من المدينة وبعضها بقي وبعضها آوى لدى أقارب له في حي كان يظنه آمناً، لكن الموت كان يأتي الناس من كل مكان. وأذكر أن بعض المقابر كانت تضم أطفالاً من عائلة واحدة اثنين وثلاثة أحياناً في قبر واحد، وقد شاهدت قبراً لثلاثة أطفال أشقاء كتب عليه "ثلاثة أطفال أبناء ضاحي"، ولا زالت هذه المقابر ماثلة بشواهدها في الفلوجة، لا سيما مقابر الأطفال، وهي تشير إلى الهمجية الأمريكية والجرائم التي ارتكبها بوش وجنوده بحق أطفال الفلوجة وأهلها، لذلك لم يكن الأحياء وحدهم يعانون من نيران القوات الأمريكية وحصارها لمدينة الفلوجة ولكن الأموات أيضاً كانوا يعانون بشكل كبير.

الخروج من حصار القناصة

لم يتوقف القصف طوال الليل، وكانت تلك الليلة من أشد الليالي في الاشتباكات بين المقاومة والقوات الأمريكية، فالمقاومة حققت نجاحات كبيرة لا سيما في محاصرة القوات الأمريكية المحاصرة للفلوجة ونجحت في قطع الإمدادات عنها، ولم يعد أمام القوات الأمريكية سوى الطائرات المروحية تمدها بالأغذية والاحتياجات.

في نفس الوقت كانت القوات الأمريكية لا تريد الظهور بمظهر المنهزم، لكن ما كشف عنه بريمر بعد ذلك وما سبق أن أشرت إليه يؤكد على أن القوات والإدارة الأمريكية بشكل عام كانت تعيش في حالة الهزيمة الكبرى، وكانت تتطلع إلى مجلس الحكم ورجاله حتى ينقذوها من تلك الهزيمة التي حاقت بها كما أنقذوا الاحتلال وحموه في أيامه الأولى.

ومما يؤكد أن مجلس الحكم مثّل بالمشاركين فيه حماية للأمريكيين ومشروعهم في العراق الذي كان على وشك الانهيار في ذلك الوقت ما قاله بريمر في الصفحة 419 من مذكراته حيث قال: "لا يمكننا الانتظار فمجلس الحكم آخذ في التفكك". وهذا يؤكد أن مجلس الحكم ورجاله كانوا السند الرئيسي لسيطرة الاحتلال على الأمور في العراق آنذاك.

انحصر تفكيري في تلك الليلة في ضرورة البحث عن مخرج من هذا الحصار الذي فرضته القوات الأمريكية علينا، فغداً هو الجمعة التاسع من أبريل/ نيسان ذكرى مرور عام على الاحتلال الأمريكي للعراق، وسوف تخصص قناة الجزيرة اليوم كاملاً لتغطية الأحداث على الهواء من العراق، وسيكون الزميل محمد كريشان من بغداد يساعده عبد القادر عياض، وسأكون أنا من الفلوجة، وربما يكون هناك زملاء من المراسلين من أماكن أخرى، لذا كان لا بد من البحث عن وسيلة للخروج من الحصار الذي تفرضه علينا القوات الأمريكية لا سيما القناصة، والذهاب إلى قلب المدينة غداً حتى تكون تغطيتنا من هناك، تحدثت مع حامد ليلاً في الأمر، لكن الوضع المعقد الذي كنا فيه أظهر صعوبة في الأمر، فقلت في نفسي لننتظر إلى الصباح لعل الله يجعل لنا مع انفلاق الصبح فرجاً ومخرجاً.

كانت هذه الليلة ليلاء مظلمة، تبدو وكأنها لا نهار لها ولم تتوقف فيها أصوات القصف والهجمات، ولم يُطبق لي جفن مع كل ما بذلته من جهد لإيقاف عقلي عن التفكير في المستقبل المجهول الذي ينتظرنا، أو الماضي الذي عشنا أحداثه. لكني عادة ما كنت أحصل في النهاية على غفوة توقظني بعدها أصوات القصف والانفجارات، أو المؤذن يدعو إلى الصلاة.

بعد صلاة الفجر جلست مع الزملاء وتحدثت معهم بوضوح، وقلت لهم: لا

بد أن نخرج من تحت هذا الحصار الذي فرضته القوات الأمريكية على المنطقة، فلا زال هناك طريق، وإن كان خطراً، يمكننا الخروج منه، لقد أصبنا بشبه شلل في تحركاتنا منذ وقوعنا تحت الحصار ظهر الأربعاء، ورغم نجاحنا في بث صور مميزة لا سيما لوصول أول قافلة للإمدادات من المدينة واستمرار قصف طائرات إف 16 وغيرها، كما أن استمرار عمل شبكة الهاتف في المدينة أفادنا إلا أننا في النهاية لسنا صحيفة أو وكالة أنباء أو راديو ولكننا محطة تليفزيون، والتليفزيون في النهاية صورة متحركة يشاهدها الناس، لذا لا بد أن نتواجد اليوم في قلب المدينة وننقل من هناك الصورة للعالم في الذكرى الأولى للاحتلال، حيث ستكون الجزيرة في بث مباشر طوال اليوم.

كان حامد متوافقاً معي دائماً لكنني كنت أريد من الآخرين أن يكونوا على قناعة بما نوينا العزم على القيام به، نظرت إلى وجوههم فأعلن بعضهم موافقته لكن بقي آخرون صامتين، بينما قال أحدهم: "نحن لا نضمن أن نخرج سالمين جميعاً من تحت نيران القناصة، كما أن جزءاً من الأجهزة على سطح المنزل ومن الصعب إنزالها لأن القناصة يكشفون السطح ويطلقون النار على كل من يطل برأسه ويظهر". ومن خلال النقاش كان لديَّ ولدى حامد إجابة على كل سؤال يطرح، لكنني في النهاية لا أستطيع إجبار أحد على خيار يمكن أن يكون الموت هو أحد نتائجه.

قلت لهم: "من يريد البقاء هنا فليبق، لكنني سأذهب إلى قلب المدينة ومعي حامد ومن أراد منكم". فقالوا: طالما عقدتم العزم فسوف نذهب جميعاً. حييتهم وشددت من أزرهم وقلت لهم: "إنني أقدر صعوبة الموقف لكنه أصعب على هؤلاء الناس الذين جئنا من أجل نقل معاناتهم، ولا بد أن نكون هناك معهم في قلب المدينة، كما أن الموت سيلحقنا في الوقت المحدد لنا سواء بقينا هنا أو رحلنا. لقد كان بين أبي عمر وبين الموت برهة حينما رصده القناص لكنه لم يطلق عليه الرصاص لأن أبا عمر لا زال له عُمْر في قدر الله، كما أن الوضع هنا خطر للغاية أيضاً".

أصبح الرحيل هو الخيار الوحيد للجميع في النهاية، وبدأنا نعد أنفسنا كي نغادر بيت آل حديد ونخرج من تحت حصار القناصة، أما الأجهزة التي كانت

على سطح المنزل، فقد نادى حامد ابني أخيه سامي عماد وزياد البطلين المجهولين والذين كانا من أفضل المساعدين لنا طوال أيام إقامتنا، فتسلقا من على حوائط البيت الخلفية في أوضاع خطرة للغاية وزحفا على السطح كي لا يراهما القناصة حتى وصلا للأجهزة التي كانت ثقيلة وكانت تقع خلف غرفة السلم في الطابق الثاني، وربطوها بالحبال وقمنا بمخاطرة إنزالها بالحبال من على السطح، وكان سقوط أي منها وانكساره يعني أننا سندخل دوامة كبيرة، وسوف تنقطع علاقتنا بالعالم ولن نستطيع القيام بالتغطية.

أثناء إنزال الأجهزة قام حامد بهمته الكبيرة مع شقيقه أبي عماد بتدبير سيارتين بيك أب لنقل معداتنا وأغراضنا إلى وسط المدينة، غير أن السيارات بقيت بعيدة على مسافة لا تقل عن خمس مئة متر من الجهة الخلفية للبيت في وضع أكثر أماناً وبعداً عن نيران القناصة مختفية خلف البيوت، وكان علينا أن نحمل أغراضنا ومعداتنا وبعضها كانت صناديق ثقيلة لنذهب بها حيث تقف السيارات، وكان خوفنا بالغاً علينا في ظل أننا كنا سنتسلق بعض الأسوار والجدران لكثير من البيوت الخلفية حتى نتجنب نيران القناصة، وقد ساعدت عائلة حامد كلها وبعض جيرانهم في نقل معداتنا.

وأذكر أني حملت حقيبة يدي وأشياء أخرى لا أتذكرها في يدي الأخرى وحمل أحد أبناء شقيق حامد زياد أو عماد حقيبتي الأخرى، وانطلقنا فرادى وفي مسافات متباعدة ولكن خلف بعضنا البعض وكنا نحني رؤوسنا وأجسادنا في طريق خطر متعرج نقفز من بيت إلى بيت حتى نتجنب نيران القناصة، ونجحنا والحمد لله في الخروج من الحصار دون أي خسائر، كانت مشاعر الحرية تنساب إلى نفسي شيئاً فشيئاً وأنا أبتعد عن نيران القناصة، وما إن وصلنا إلى حيث كانت تقف السيارات تنتظرنا حتى رأيت ما هالني.

يوم الجمعة الدامي

كانت هناك جموع هائلة من الناس رجال ونساء وأطفال وشيوخ تتحرك سيراً على الأقدام أو تضع أمتعتها على سيارات، وكان الجميع يحملون أعلاماً بيضاء ويسيرون نحو مخرج المدينة الجنوبي من جهة النعيمية، وكلما اقتربنا من

الطريق العام الذي يربط المدينة بالنعيمية كانت أعداد الناس تزداد، لكن ما إن وصلنا إلى طريق النعيمية حتى بدا المنظر وكأنه يوم الحشر، آلاف مؤلفة من الناس في موجة نزوح جماعي من المدينة، هرباً من الموت وجحيم الحصار بعدما انتشرت إشاعة مفادها أن القوات الأمريكية تركت طريق النعيمية مفتوحاً لمن أراد الخروج من المدينة، ثم تقوم بعد ذلك بعملية اجتياح للمدينة حيث ستدمرها على رؤوس من سيبقى فيها، فخرج عشرات الآلاف من الناس بنسائهم وأطفالهم وعجائزهم هائمين بحثاً عن مخرج وهرباً من الموت القادم الذي سيجتاح المدينة، ولم تكن هناك سيارات تكفي لنقل عشرات الآلاف من الناس في تلك الهجرة الجماعية من المدينة، فكانت الأغلبية تمشي على أرجلها ترفع أعلاماً بيضاء يحملها الكبار والصغار طلباً للأمان.

وكانت المقاومة كما أشرت آنفاً قد دمرت مساء الثلاثاء 6 أبريل/نيسان مركز النعيمية الذي أقامته القوات الأمريكية التي فرت من الموقع مع أشلاء قتلاها وجرحاها، لكنها عادت بعد ذلك وبقي المخرج تحت سيطرتها الجوية والبرية حيث كانت تقصف كل من يحاول استخدامه. لكن الإشاعة ملأت المدينة في ذلك اليوم أن القوات الأمريكية قد فتحت المخرج لمن أراد الخروج.

طلبت من ليث وسيف أن ينزلا من السيارات ويقوما بتصوير هذا المشهد الرهيب، لكن لأن المشهد لم يكن له نهاية، اقترح حامد أن نذهب إلى مقر المستشفى الميداني الذي يمثل نقطة التجمع الرئيسية التي يتحرك الناس من عندها، ولم تكن بعيدة عنا.

حينما وصلنا إلى هناك شعرت بالفعل بأهوال أقرب ما تكون إلى أهوال يوم القيامة، الفزع والخوف والهلع والفوضى والصراخ والبكاء والنحيب والناس تجري في كل اتجاه، نساء، وأطفال، وشيوخ، جرحى ومعوقين، صراخ، وبكاء، وعويل، وضياع، شعرت أني في متاهة كبيرة، أنزلنا أغراضنا من السيارات ووضعناها قرب حائط على جانب الطريق، وأخذت أصرخ على ليث وحسان: "صوِّر هذا"، ثم أجد ما هو أبشع منه، فأقول له: "لا، صوِّر هذا"، وإلى أن يأخذ وضعية التصوير بالكاميرا ويحاول تشغيلها أصرخ عليه: "لا... لا، تعال هنا هذا أبشع، صوِّر هذا"، ثم أجد ما هو مؤلم، فأنادي عليهما وفجأة لا أجد أيا منهما

فأصرخ "كاميرا... كاميرا"، وصار بعض الناس الذين كانوا يقفون حولي يصرخون مثلي "كاميرا.. كاميرا" أي كاميرا ؟ !! كنت في هذه اللحظات أريد ألف كاميرا لتصوِّر أهوال هذه المشاهد المذهلة والمؤلمة والمخيفة والمرعبة، إنها مشاهد الذين يبحثون عن فرار من الموت.

هل شاهدتم قبل ذلك أناساً يفرون من الموت؟ المشهد لا يمكن أن يوصف، إنهم جميعاً كانوا يريدون الفرار من الموت الذي أصبح يتخطف الناس في الفلوجة من كل مكان في المدينة. يخطف الرضيع من على صدر أمه برصاصة قناص، والأب من بين أبنائه بقذيفة، والطفل وسط إخوانه بشظية، والعائلة كلها أحياناً عدا رضيع أو عجوز بصاروخ، إنه الموت قادم يدوس فوق المنازل والبيوت، جاء به بوش وجنوده إلى أهل الفلوجة الذين كانوا آمنين مطمئنين يعيشون مثل كثير من الناس لكن الآن كل شيء تغير، الكل يريد الهرب من الموت.

وحالة الذي يريد الهرب من الموت تُرَى وتُحَسّ ولكن من الصعب وصفها، كيف أصفها؟ لقد كدت أشعر في تلك اللحظات أني لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي، ثم صرخت فجأة حينما رأيتها... رأيتها هائمة تبكي وتصرخ وتذهب في كل الاتجاهات، إنها طفلة كانت تائهة ضائعة بين الزحام، تصرخ بحثاً عن أمها أو أي أحد من عائلتها التي ضاعت منها وسط الزحام في حالة الهرج والمرج والفوضى والضياع والهروب من الموت الذي كان يجتاح المدينة، لكني حينما نظرت إليها وهي هائمة تصرخ وتبكي لم أر وجهها، وإنما رأيت وجه ابنتي الصغيرة رهام التي كانت في مثل سنها، فصرخت وأنا أركض تجاهها أحاول أن أساعدها في الهروب من الموت، آآآآآآه يا صغيرتي آآآآآآه وألف آآآآه.

صغيرتي رهام

كان صوتها الملائكي يأتيني دائماً عبر الهاتف وأنا في هذا الحصار يفيض رقة وعذوبة وصفاء ونقاء، فينساب في نفسي فيذهب عني الخوف و المعاناة والتعب والنصب والإرهاق والقلق والأرق، ويملأ قلبي بالأمان والسلام.

كان صوتها يفيض عليَّ بكل هذه المعاني رغم أصوات القصف والقنابل والانفجارات التي كانت تزلزل الأرض من حولي، كان صوتها يفعل فيّ ما يفعله الرهام، وهو رذاذ المطر الخفيف المنعش حينما ينزل على الناس فينعشهم وعلى الزهر فيفتحه. لكن لم تكن صغيرتي رهام تعلم طبيعة المكان الذي أنا فيه، لكنَّ هَمْسَ من حولها عني والتعامل معها من قبل بعضهم بإشفاق جعلها تشعر أن أباها في خطر وأنه يقوم بتغطية الحرب في الفلوجة. وكانت تجلس إلى جوار أمها تتابعني أحياناً عبر التليفزيون وهي تتساءل لماذا أنت هناك يا أبي؟ يقولون إنك في خطر. ما معنى الخطر؟ إني لا أعرف حجم الخطر الذي يتحدثون عنه، لكني أشعر بخوف كبير في داخلي عليك، أريدك إلى جواري، اشتقت إليك يا أبي، اشتقت إلى أن أغفو بين يديك فتحملني إلى سريري كما تفعل دائماً حينما تكون معنا، رغم أنك قليلاً ما تكون معنا، وكلما سألتك متى تكف عن تلك الأسفار وتبقى معنا مثل باقي الآباء تعدني ولكنك تخلف موعدك، وها أنذا أطرح عليك سؤالي المعتاد كلما سمعت صوتك "متى تعود يا أبي"؟ كان هذا هو سؤالها الدائم لي حينما كنت أكلمها عبر الهاتف وأداعبها فأقول لها: "صوتك يضيء قلبي يا رهام". فتضحك باستحياء بينما أصوات الانفجارات تتواصل حولي ثم تعيد سؤالها: "متى تعود يا أبي"؟ فكنت أقول لها: "قريباً يا صغيرتي إن شاء الله، سأعود حينما يشعر الأطفال هنا في الفلوجة بشيء من الأمان مثلك".

ورغم أنها لم تكن تعرف شيئاً عن الفلوجة التي كنت أتحدث عنها إلا أنها كانت تنتظر ظهوري دائماً على نشرات الأخبار وفي داخلها سؤال طرحته عليَّ حينما عدت: "لماذا كنت هناك في الحرب؟ ولماذا كنت تظهر هكذا دائماً على غير الحال التي تعودت أن أراك عليها من خلال شاشة التليفزيون، فدائماً كنت تظهر بلباس أنيق وكنت أشارك أمي أحياناً في اختيار ربطة العنق لك؟ لماذا لم تكن ترتدي تلك الملابس الأنيقة وكنت دائماً تبدو بوجه متعب وشعر غير مصفوف جيداً وفي الشوارع أحياناً أو على أسطح البيوت أو بينها أحياناً أخرى؟ أين الاستديو الأنيق الذي تظهر منه دائماً"؟

لقد كنت أرى وجه صغيرتي رهام في وجوه كل أطفال الفلوجة الخائفين المذعورين أو الجرحى والشهداء الذين كنت ألقاهم كل يوم في المدينة؛ في

الشوارع أو تحت أنقاض البيوت التي قصفتها الطائرات أو في المستشفى يصرخون من الألم، وكنت كلما رأيت طفلاً خائفاً أو مذعوراً أو مصاباً أو شهيداً كان قلبي ينتفض، فيطير عقلي، وينصدع كبدي من الألم، وأكاد أصرخ حتى أسمع الدنيا صراخ هؤلاء الصغار الذين حطمت صواريخ الطائرات والقنابل والقذائف الأمريكية حياتهم وآمالاهم ومستقبلهم وطفولتهم بل وإنسانيتهم.

لقد كان يوم الجمعة الدامي التاسع من أبريل/نيسان 2004 من أكثر الأيام دموية وألماً في حياة أطفال الفلوجة، كانت الصورة الأولى التي آلمتني هي صور الأطفال الصغار الذين خرجوا مع عائلاتهم في جموع كبيرة يرفعون الإعلام البيضاء يطلبون الأمن والأمان ليخرجوا من المدينة عبر صحراء النعيمية، ثم رأيت أشلاء بعضهم بعد ذلك وقد جاءت بها سيارات الإسعاف إلى المستشفى بعدما قصفتهم الطائرات الأمريكية وهم يحاولون عبور الطريق المكشوف سيراً على الأقدام لكن الموت الذي هربوا منه عاجلهم في طريق الهروب.

أما الصورة الأكثر ألماً والتي مزقتني فقد كانت لعائلة تتكون من جدة عجوز مسنة ومعها زوجة ابنها وأحفادها، كانت تقف على جانب الطريق في الزحام تبحث عن سيارة تنقلها وأحفادها إلى خارج المدينة، لكن كل السيارات كانت ممتلئة والزحام على أشده ولا يقوى على الحصول على مكان في سيارة من تلك السيارات المكشوفة النقل ونصف النقل إلا الأقوياء من الناس، والمرأة كانت هرمة، ناديت ليثاً أن يقوم بتصوير تلك العائلة، لكن ليثاً لم يقم بتصويرهم فحسب بل تعاطف معهم، وحينما جاءت سيارة نقل وتزاحم عليها الناس رق قلبه فقام بمساعدة هذه العجوز وأحفادها حتى تركب على ظهر سيارة النقل مع عشرات من النساء والأطفال والعجائز الذين كانوا يفرون من الموت، وانطلقت السيارة مع عشرات السيارات الأخرى في اتجاه النعيمية للخروج من دائرة الموت في الفلوجة، لكن صورة هذه المرأة التي ترك كل يوم عاشته في الحياة أثراً على وجهها لم أنسه.

انشغلت بعد ذلك في الأهوال التي كانت تحيط بي لكنني بعد ما يقرب من ساعتين رأيت سيارة "ميكروباص" سوداء لا زلت أذكر لونها جاءت مسرعة إلى المستشفى وكنت وقتها على الهواء مباشرة مع الجزيرة ولكن عبر الهاتف، لأننا

لم نكن قد تمكنا من تشغيل جهاز البث بعد، وكنت أصف للمشاهدين عبر الهاتف بعضاً مما يدور حولنا من أهوال، وحينما جاءت هذه السيارة مسرعة أدركت أن فيها بعض المصابين، فناديت ليثاً أن يأتي مسرعاً لتصوير من فيها، وقمت أنا بفتح الباب الأوسط للسيارة الميكروباص بمجرد وقوفها حتى يقوم ليث بالتصوير قبل أن يزدحم الناس وأنا أتوقع أنها كانت تحمل بعض الجرحى؛ لكني صرخت من هول ما رأيت "يا ألله.... يا ألله... رحمتك يا ألله"، لقد كانت جثة المرأة العجوز وأحفادها الصغار أشلاء متكدسة فوق بعضها داخل السيارة، إنها العجوز...إنها هي التي ساعدها ليث قبل ساعتين حتى تهرب من الموت مع أحفادها، لكن الموت كان بانتظارهم هناك عند مخرج المدينة، فقد قصفتهم الطائرات الأمريكية عند مخرج النعيمية، لكن وجه واحدة من الأطفال كان مغطى بعضه بالدماء الممزوج بالتراب جعلني أصرخ وأبكي كما أبكي الآن وأنا أسطر هذه السطور ألماً من هذه الصورة المؤلمة والمرعبة التي أجدها دائماً في مخيلتي، وأبكي كلما تذكرتها.

تجمع الناس ومن هول ما رأوا أخذوا يهتفون بعبارات سمعها الجميع عبر شاشة الجزيرة على الهواء مباشرة من خلال الهاتف الذي كان في يدي "لا إله إلا الله.... أمريكا عدو الله". وكان معي الزميل محمد كريشان على الهاتف الذي سمعته وأنا أشاهد شريط البث بعد ذلك، وهو يقول لي: "هل تسمعني يا أحمد"؟ ثم علَّق: "يبدو أن أحمد ترك الميكروفون للمتظاهرين حوله".

لقد كنت أبكي من هول ما رأيت وما كنت أريد أن يسمع أحد صوتي، لم أحتمل المشهد الذي كان مؤلماً لا سيما الأطفال وأشلاءهم الممزقة، وأتحدَّى أن يحتمل أي شخص لديه ذرَّة من الإنسانية أن يرى مثل ذاك المشهد ولا يبكي، بل رأيت بعض الرجال ممن ساعدوا في إنزال الجثث من السيارة يصرخون من الألم.

كنت أريد أن ألملم شتات نفسي سريعاً حيث كنت على الهواء، فقد كان المشهد مريعاً وبشعاً ومخيفاً ومؤلماً، لا سيما وأن أغلب الضحايا كانوا من الأطفال، علاوة على العجوز التي لا زلت أذكر شيئاً من ملامح وجهها الذي تركت الأيام التي عاشتها خطوطها وآثارها عليه، حيث إننا ساعدناها حتى تهرب من

الموت لكنها كانت في طريقها إليه هي وأحفادها دون أن تدري، وأنا أتعجب دائماً كيف أن بعض المشاهد في حياتنا رغم أن عمرها الزمني لا يكون إلا ثوان لكنها تبقى في مخيلتنا باقي العمر ولا تزول، وكلما تراءت لنا تتراءى لنا بكل الظروف والملابسات والملامح المحيطة بها.

في هذا اليوم... الجمعة الدامي 9 أبريل/نيسان 2004 حينما رأيت عند المستشفى هذه الطفلة التي كانت تبكي وهي حائرة ضائعة تبحث عن أهلها وكان الناس كلهم ضائعين في تلك اللحظات... رأيت صورة ابنتي رهام في وجهها، وأنا الغريب لا أدري ماذا أفعل لها. كانت تنادي أمها، ولا أدري أين كانت أمها في هذه المتاهة والضياع، صرخت بأعلى صوتي على ليث وحسين "كاميرا... كاميرا" حتى يسمع صوتي أحدهم فيأتي ليصورها بوجهها المذعور ولهفتها وضياعها وبكائها، ولكن أي كاميرا؟ أمسكت الطفلة بيدي وأنا أحاول أن أهدئها وأذهب بعض الخوف عنها، ثم قلت لأحد المسعفين: أرجو أن تأخذها وتساعدها للبحث عن أهلها. فأخذها واختفت عن عيني، لكني شعرت أنها أخذت جانباً من نفسي، حتى إني بقيت طوال اليوم أفكر فيها هل وجدت أهلها؟ وهل لا زالت حية أم حصدها الموت مع من حصد في ذلك اليوم.

أما المستشفى فكلما دخلت إليها أفزعتني مشاهد الأطفال الذين لم يكونوا يكفوا عن الصراخ، وقد رأيت الأطباء يجرون لبعضهم العمليات الجراحية لإنقاذ حياتهم هكذا في الطرقات، لأن المستشفى كانت عبارة عن عيادة غير مجهَّزة على الإطلاق لمثل هذه الحالات، وكانت رائحة الجروح والدماء والموت تغطي المكان كله، وفي هذه الأجواء كثيراً ما كنت أبحث عن مكان لا يراني فيه أحد، لا أفعل فيه شيئاً سوى أن أجهش بالبكاء من هول ما كنت أرى، ربما يذهب البكاء شيئاً من الصراخ والألم الذي كان يعتصرني، ثم أجفِّف دمعي الذي كان يأخذ معه بعض الضغوط والآلام التي كانت تمزق كياني وأحاول العودة لطبيعتي حتى أمارس عملي، فأنا في النهاية يجب أن أكون رابط الجأش رغم كل ما أرى، حتى أستطيع أن أواصل نقل مآسي أهل الفلوجة إلى العالم من جديد.

بقيت أعاني مع الأطفال طوال أيامي في الفلوجة من أول لحظة إلى آخر لحظة، فقبل منتصف الليل في تلك الليلة وقبل أن أذهب لأرتاح قليلاً مررت

بالمستشفى فسألتهم إن كانت هناك حالات جديدة، فقالوا هذه عائلة من ثلاثة أجيال جد وعم وطفل، فأبى اليوم أن ينتهي دون أن أعيش مع أطفال الفلوجة معاناتهم منذ أن أصبحت إلى أن أمسيت.

وفي اليوم التالي العاشر من أبريل/نيسان وفي آخر زيارة لي إلى المستشفى كان هناك العديد من الشهداء والجرحى الجدد من الأطفال، وقد رأيت وجه طفلة شهيدة كانت مغطاة وينتظرون تكفينها حتى يذهبوا بها إلى المقبرة، لذلك فإن حجم المعاناة النفسية التي كنت أعانيها من خلال معاناة أطفال الفلوجة كانت كبيرة، ويكفي أن تتخيل للحظة واحدة أن هذا الطفل الذي يعاني هو ابنك أو ابنتك حتى تدرك كم كانت المحنة أليمة.

عودة إلى يوم الجمعة الدامي

بعدما أخذ المسعف تلك الطفلة التي رأيت فيها وجه صغيرتي رهام ليساعدها في البحث عن أهلها، شعرت أني لو تركت نفسي لما أرى وأشاهد فسوف أفقد السيطرة على نفسي ثم على ما حولي، ورغم أني شاهدت مآس كثيرة في تغطيتي للحروب في أفغانستان والبوسنة والهرسك من قبل، إلا أن ما شاهدته في الفلوجة كان له طابع خاص لا سيما في يوم الجمعة الدامي، وضعت رأسي بين يدي حتى أستطيع أن أهدئ من روعي وأجمع شتات نفسي وأقود فريق العمل بشكل أفضل، لا سيما وأنه كان أمامي يوم طويل مليء بالعناء وبحاجة إلى حسن التخطيط والإدارة حتى نستطيع أن ننقل هذا الواقع المؤلم إلى الناس.

قلت لليث وحسان: أرجو أن تحاولا تصوير كل ما تستطيعان من هذه المشاهد أما أنا فسوف أذهب مع حامد للبحث عن مكان يمكن أن يقوم فيه سيف بوضع جهاز البث لأننا يجب أن نرسل هذه الصور فوراً إلى الدوحة.

فجأة تلفّتّ حولي فلم أجد حقيبة يدي ولا حقيبة ملابسي، وكان في حقيبة يدي كل ما أحتاجه، علاوة على جهاز الكومبيوتر والكاميرا الصغيرة، ولا أدري أين ذهبت في الزحام كما أن أغراضنا التي كنا وضعناها إلى جوار أحد الحوائط لا أدري أين ذهبت هي الأخرى.

قلت لحامد الذي كان يحاول مع المهندس سيف البحث عن مكان لوضع جهاز البث: لا أجد حقيبتي ولا أدري أين ذهبت، لقد كانت في يدي. لكني في تلك اللحظات التي عشنا فيها الأهوال الأولى للموقف شعرت أن تركيزي كان مشتتاً ورغم أن هذا الأمر لم يستغرق سوى لحظات جمعت بعدها شتات نفسي إلا أن هذه اللحظات نفسها هي التي ضاعت فيها الحقيبة.

وبينما كنت أتكلم مع حامد وجدت شخصاً يرتدي ملابس المسعفين يقول لي: "حينما وجدتك مشغولاً بعملك، أنا أخذت حقيبتك وحفظتها لك في هذا المبنى في مقر الحزب الإسلامي". قلت له: "أرجو أن تأتي معي لإحضارها فأنا أريد بعض الأغراض منها". كان المبنى عبارة عن سينما يفصل بينها وبين المستشفى الميداني قطعة أرض فضاء كان بها سيارة الإسعاف التي قصفتها القوات الأمريكية في حي نزال، وكان بها بعض المساعدات التي جاء بها الهلال الأحمر. لكني حينما دخلت إلى مقر الحزب الإسلامي الذي كان عبارة عن سينما في السابق هالني ما رأيت، لقد كان هناك عشرات الجرحى ممدَّدين على أسرَّة موضوعة على المسرح وفي الأرضيات، ورائحة الجروح والدماء تغالبها رائحة المواد المطهرة تزكم الأنوف، فالمكان غير صحي على الإطلاق وقد كانوا يتغلبون على ذلك بالمواد المطهرة، كما أن المستشفى الميداني قد ضاق بالجرحى ولا يعرفون أين يذهبون بهم، فكان هذا امتداداً للمستشفى الميداني.

تأكدت بعد ذلك من وجود الحقيبة ثم تركتها هناك في إحدى المكاتب فأنا لا أستطيع حملها طوال الوقت وأريد أن أتفرغ لوضع استراتيجية عمل للفريق في هذا اليوم العصيب.

بدأت بعد ذلك أدرك بعضاً مما حولي، وأرسم خريطة ذهنية للمكان، فقد كان هناك بعض الباصات وسيارات الإسعاف التي تمكنت من دخول المدينة أمس الخميس 8 أبريل/نيسان، وأبلغني الدكتور رافع العيساوي مدير المستشفى أن كثيراً من الحالات الحرجة من الجرحى لا سيما إصابات الرأس تم نقلها أمس إلى بغداد وحالات أخرى نقلت في الصباح الباكر علاوة على حالات يتم تجهيزها الآن حتى يتم نقلها.

تدارست الأمور مع الزملاء واتفقنا أن أفضل مكان نعمل من خلاله هو

تواجدنا هنا إلى جوار المستشفى الميداني، فهو يقع في قلب المدينة تقريباً، ويعتبر أهم مصدر للأخبار والمعلومات، علاوة على أننا بحاجة إلى مكان فيه كهرباء من أجل عمل جهاز البث، مع احتمالات نقص البنزين أو تعطل مولد الكهرباء.

تكلمنا مع الدكتور رافع العيساوي أن نضع جهاز البث فوق المستشفى فلم يمانع، وبدأ سيف يعد الجهاز للعمل، بينما اجتمعت بالزملاء في جانب من ساحة المكان ووضعنا استراتيجية سريعة للعمل بعدما انضم إلينا عبد العظيم وحسين دلي، يقوم خلالها عبد العظيم وحسين دلي بالتحرك حيث تتحرك سيارات الإسعاف التي تتوجه إلى أماكن القصف فيقومون بتصويرها وجمع معلومات من تلك الأماكن، وعمل تقارير إخبارية للبث على مدار اليوم عن الأحداث، فنكون بذلك على اطلاع وثيق بكل أماكن المدينة التي تتعرض للقصف، ونعد أكثر من تقرير يبث مع التغطية المباشرة.

أما حامد فيكون هو منسق فريق العمل بيننا وبين الدوحة، إلى جانب قيامه بجمع المعلومات من فريق العمل الذي يتعاون معنا في كل مناطق الأنبار كما كنا نعمل في الأيام السابقة، علاوة على الذين يتعاونون معنا من أطراف المدينة وبعض أماكن قضاء الفلوجة والذين نجحنا في ترتيب علاقات معهم خلال الأيام الماضية. ويقوم الجميع بإمدادي بكل هذه المعلومات التي أضيف إليها المعلومات التي كان عليَّ جمعها من المستشفى سواء من الأطباء أو الجرحى أو الفرق الطبية المساعدة أو فرق الإغاثة التي جاءت للمستشفى، حيث كان عليَّ أن أطوف على كل هؤلاء وأن أحصل على كل ما هو جديد، وقد فرض عليَّ هذا الأمر البقاء بين الأطباء والجرحى وجثث الشهداء التي كانت تأتي إلى المستشفى لجمع المعلومات منهم طوال الفترات التي لا أكون فيها على الهواء، ثم أقوم بتنسيق وترتيب كل هذه المعلومات للبث المباشر الذي كان من المفترض أن نشارك فيه بمجرد تركيب وتشغيل جهاز البث.

وعلاوة على ذلك رتبت مع حامد أن نقوم باستضافة بعض وجهاء المدينة والمسؤولين عن العمل الإغاثي فيها إن استطعنا.

أما ليث وحسان فيقومان بعملهما في التصوير، أما أبو عمر السائق فقلت

له أن يكون مساعداً لكل من المهندس سيف والمصورين ليث وحسان، وأبلغت الزملاء في غرفة الأخبار في الدوحة أن منسق الفريق هو حامد وعليهم أن يتصلوا به إذا احتاجوا شيئاً وليس بأي شخص آخر حتى يكون العمل منظماً ويتلقى الفريق أوامر العمل من جهة واحدة، وانطلق كل منا ليقوم بعمله انتظاراً لإعداد الجهاز للبث.

دخلت إلى المستشفى لأجمع المعلومات من الأطباء والجرحى وعائلات الشهداء، وانطلق عبد العظيم وحسين دلي لتصوير المناطق المنكوبة حينما تذهب سيارات الإسعاف إليها، وأخذ حامد يجمع معلوماته، وسيف يرتب الجهاز للبث... لكن المشكلة وقعت، فجهاز البث لم يعمل.

اتصل الزملاء من الدوحة عدة مرات حتى أشارك في التغطية المباشرة والخاصة التي أعدتها قناة الجزيرة في ذلك اليوم التاسع من أبريل/نيسان 2004 بمناسبة الذكرى الأولى لاحتلال العراق والتي بدأت في التاسعة صباحاً، لكن جهاز البث لم يكن يعمل، وكنت حريصاً ألا يعمل سيف في أي جو من التوتر، فلم يكن الجهاز يرسل أي إشارة للدوحة على الإطلاق، وبقي سيف ما يقرب من ثلاث ساعات يحاول تشغيل الجهاز دون جدوى.

في هذه الأثناء شاركت عبر الهاتف عدة مرات مع الزميل محمد كريشان الذي كان في بغداد، ومع عبد القادر عياض أيضاً الذي كان يشارك كريشان من بغداد، وأعتقد أن المشاركة الأولى كانت في نشرة التاسعة صباحاً من الدوحة، وقد أعطيت في هذه المداخلات وصفاً لأهوال الصباح في هذا اليوم ورغم محاولاتي التعبير بالوصف عما كان يحدث، إلا أن الصورة كانت أبلغ مئات المرات من أي تعبير وصفي.

في النهاية قال سيف: "الجهاز لن يعمل من هنا يا أحمد فالمكان منخفض للغاية، ويجب أن يكون الجهاز في مكان مرتفع وغير محاط بمبان مرتفعة مثل هذا المبنى الذي كان أمام المستشفى الميداني.

كانت العيادة الشعبية التي كان يقع فيها المستشفى الميداني عبارة عن مبنى من طابق واحد وفي مكان منخفض، وكانت أمامه عمارة مكوَّنة من ثلاثة

طوابق كانت أعلى المباني في المنطقة وكانت عبارة عن عيادات طبية خاصة، فقال ليث وهو يشير إليها: هذا هو أفضل مكان يعمل من فوقه جهاز البث. قلت له: جيد ولكن أين صاحبها حتى نستأذن منه، إننا في النهاية يجب أن نصعد على سطحها لنضع عليها الأجهزة. قلت لحامد: أنت من أهل المدينة وعليك أن تبحث لنا عن صاحبها وتستأذنه حتى يسمح لنا. أخذ حامد يسأل بعض الناس لكن الناس كانت ضائعة في ذلك اليوم، ولم يكن أحد يملك يقظة ذهنية حتى يرد على مثل هذا السؤال.

في النهاية قلت لهم: "ما رأيك يا حامد أن ننقل الأجهزة إلى أعلى المبنى ونقوم بتشغيلها وإذا جاء أحد واعترض أو طلب منا أن نغادر البناية نغادرها لكني أعتقد أنك بعلاقتك مع أهل المنطقة يمكن أن تحل الأمور". كان وقت صلاة الجمعة قد اقترب ورغم انتشار شائعة أن العلماء قد أفتوا بجواز عدم إقامة صلاة الجمعة في ظل هذه الأجواء، إلا أن كثيراً من المساجد نادت لصلاة الجمعة، قلت لحامد: هيا نذهب ومعنا أحد المصورين إلى أحد المساجد القريبة لنقوم بتصوير صلاة الجمعة وماذا سيقول الخطباء إلى أن يقوم سيف وباقي الشباب بمحاولة تركيب وتشغيل الجهاز على مبنى العيادات الطبية.

أدينا صلاة الجمعة في مسجد قريب، وأذكر أنه لم يكن هناك شيء ملفت في الخطبة، وأثناء خروجنا من المسجد في طريق عودتنا إلى المستشفى الميداني حيث تركنا باقي الزملاء جاءني اتصال من وضاح خنفر مدير قناة الجزيرة، وقال: "أين أنت يا أحمد"؟ قلت له: "كنا نصلي الجمعة ونحن الآن في طريق عودتنا إلى الزملاء". قال: "أسرع لقد تمكنوا من إصلاح جهاز البث وهو يعمل الآن ونحن في انتظار مشاركتك معنا على الهواء". حمدت الله، وتوجهنا إلى سطح مجمع العيادات الطبية الخاصة المواجه للعيادة الشعبية أو المستشفى الميداني، فوجدنا المهندس سيف قد تمكن من تشغيل الجهاز، وكانوا يقومون ببث الأشرطة التي قمنا بتصويرها صباحاً إلى الدوحة، والتي كانت تحوي كل ما سبق أن وصفته.

شرط خروج فريق الجزيرة لوقف إطلاق النار

لم نكن في ذلك اليوم نشاهد قناة الجزيرة أو أي تليفزيون آخر، ولم أكن أدري أن الجزيرة قد بثت خبراً عاجلاً من الصباح الباكر من مصادرها في بغداد أن الإدارة الأمريكية طالبت بخروج فريق الجزيرة من مدينة الفلوجة كشرط أساسي لقرار وقف إطلاق النار الذي أعلنه الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر من جانب واحد ابتداء من الساعة الثانية عشرة ظهر هذا اليوم. ولم يكن الإعلان الأمريكي عن وقف إطلاق النار في هذا اليوم من أجل العراقيين أو سكان الفلوجة الذين كانوا يقصفون وتهدم عليهم بيوتهم أو تقوم طائرات إف 16 والطائرات المروحية باصطياد الهاربين من الموت منهم خارج المدينة، وإنما كان من أجل إنقاذ القوات الأمريكية التي كانت تحاصر الفلوجة والتي أصبحت محاصرة بعد قطع الإمدادات عنها والسيطرة على الطرق المؤدية إليها من قبل المقاومة.

فقد تمكن الزملاء في قناة الجزيرة من تصوير عشرات الشاحنات التي كانت تحمل الإمدادات للقوات الأمريكية وهي تحترق على طول طريق أبو غريب الفلوجة، كما أن طريق ذراع دجلة البالغ طوله مئة وخمسين كيلو متراً وهو الطريق البديل للطريق الدولي السريع الذي يربط بين بغداد وعمان ودمشق أصبح تحت سيطرة المقاومة.

ونشرت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً في هذا اليوم 9 أبريل/نيسان 2004 يؤكد على أن "مئات المسلحين العراقيين بالبنادق الرشاشة والقذائف المضادة للدروع قد تمكنوا من السيطرة على الطريق الذي يصل أبو غريب مع الفلوجة غرب بغداد". وأكد التقرير على أن "الرمايات كانت كثيفة على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من الفلوجة". ونقل عن أحد المقاتلين قوله: "قولوا للعالم إنه ليس لدينا بديل سوى الموت أو النصر". ونقلت عن آخر كان يحمل رشاشاً ويحمس المقاتلين قائلاً لهم: "اعلموا أن سكان الفلوجة يشدون على أياديكم ويطلبون منكم السيطرة على الطريق ما استطعتم".

في هذا اليوم الجمعة 9 أبريل/نيسان 2004 أُعلن عن صلاة جمعة موحدة في كل المساجد بين السنة والشيعة في العراق، وربما كانت هذه هي المرة

الأولى والأخيرة التي يحدث فيها ذلك، فقد وحدت معركة الفلوجة الجميع، وكانت معظم خطب الجمعة عن الفلوجة وما يحدث فيها، وأمَّ المصلين في جامع أم القرى في بغداد الدكتور حارث الضاري رئيس هيئة علماء المسلمين الذي دعا أهل العراق إلى الاعتصام تضامناً مع الفلوجة وأهلها المحاصرين وقال: "نهيب بجميع إخواننا أن يعتصموا يومي السبت والأحد وإذا أمكن الاثنين أيضاً حتى نظهر لقوات الاحتلال رفضنا لما يحدث في الفلوجة".

وتصاعد الغضب لدى الدكتور الضاري أثناء تأديته لخطبة صلاة الجمعة حتى دعا المصلين إلى الجهاد قائلاً: "إلى الجهاد... إلى الجهاد.. إن معركة الفلوجة هي معركة التاريخ ومعركة العراق، وأحباءكم في الفلوجة، يقاتلون ويرحبون بالموت والشهادة". ثم تضرع إلى الله بالدعاء قائلا: "اللهم عليك بأمريكا وبريطانيا ومن والاهم، اللهم عليك بالكفر والكافرين والشرك والمشركين". وقد كانت معركة الفلوجة كما وصفها الدكتور الضاري بحق "معركة التاريخ، ومعركة العراق" لقد كانت بداية الهزيمة الكبرى للقوات الأمريكية في العراق.

وفد التفاوض هل أنقذ الأمريكيين أم أهل الفلوجة ؟

لم يخل مسجد من المساجد من خطبة شبيهة، لذلك كان إعلان بريمر عن وقف إطلاق النار هو محاولة لإنقاذ القوات الأمريكية وليس كما قال في بيانه الذي تناقلته وكالات الأنباء في ذلك اليوم: "تعليق العمليات العسكرية في العراق بهدف إتاحة عقد لقاء بين أعضاء من مجلس الحكم الانتقالي العراقي ومسؤولين من المدينة مع قادة قوات التحالف".

وقال بريمر: "خلال فترة التعليق هذه تحتفظ قوات التحالف بالحق في الدفاع عن نفسها وستبقى مستعدة تماماً لاستئناف العمليات الهجومية ما لم يحدث تقدم ملموس في المناقشات". وأضاف: إن "تعليق العمليات العسكرية سوف يسمح للوزارات العراقية المختصة بتقديم المساعدات والإمدادات الأخرى والسماح لسكان الفلوجة بتفقد قتلاهم وجرحاهم".

هذا الذي أدلى به بريمر إلى وكالات الأنباء لنقله في ذلك الحين وهو عبارة عن تضليل وأكاذيب لا سيما ما يتعلق "بتقديم المساعدات والإمدادات الأخرى والسماح لسكان الفلوجة بتفقد قتلاهم وجرحاهم" لأنه كان يقول هذه الأكاذيب في الوقت الذي كانت فيه الطائرات الأمريكية تدك المدنيين الذين يحاولون الفرار من المدينة ـ كما سبق وأن ذكرت ـ كما قتلت في هذا الوقت وبعد صلاة الجمعة بعض الذين كانوا يقومون بعمليات تشييع لبعض الشهداء في المقبرة.

أما الواقع الحقيقي فقد كتبه بريمر بعد ذلك في مذكراته التي نشرها تحت عنوان "عام قضيته في العراق"، في الصفحة 421 حيث قال: "قبل اجتماع مجلس الأمن القومي في وقت متأخر من هذا اليوم الجمعة، اتصلت برايس لتحضير الرئيس للأخبار السيئة، قلت: الوضع في الفلوجة ليس جيداً، ونحن نحاول الإقدام على خطوة من جانب واحد، ولكنها قد لا تنجح، السنة مضطربون جداً، وقد نواجه موجة من الاستقالات من المجلس، ووضع الشيعة سيّيء أيضاً".

إذن القضية كلها كانت الوضع السيّيء الذي يعيشه الأمريكيون وليس أهل الفلوجة، ومن ثم فإني أكاد أجزم هنا ومن خلال متابعتي للوضع ومعايشتي له في ذلك الوقت أن الوفد الذي تحرك من قبل مجلس الحكم للتفاوض مع وجهاء الفلوجة، والذي أعلن عن تشكيله في هذا اليوم حقّق مصالح قوات الاحتلال التي كانت تمر بموقف عصيب أكثر مما حقّقَ مصالح أهل الفلوجة، الذين كان معظمهم إما خرجوا من المدينة تحت القصف أو يلملمون جراحهم وآلامهم داخل المدينة. لكن العراق كله انتفض معهم ووضعت القوات الأمريكية المحاصرة للمدينة تحت القصف والحصار، ولم يكن أمام الأمريكيين كما قال بريمر سوى "الإقدام على خطوة من جانب واحد" وهي الإعلان عن وقف إطلاق النار لمحاولة امتصاص الغضب وإرسال الوفد للتفاوض من أجل كسب مزيد من الوقت، وتخفيف الضغط عن قواته.

وهنا برز ممثلو الحزب الإسلامي في العراق الذي كان يشارك في مجلس الحكم، ورغم أن ممثل الحزب كان الدكتور محسن عبد الحميد إلا أن العضو الحقيقي كان حاجم الحسني الذي يبدو أنه كانت له علاقات خاصة مع الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر، فقد كان الحسني يحمل الجنسية الأمريكية ويتحدث

الإنجليزية بطلاقة، وقد تحدث بريمر عن حاجم الحسني في كتابه عدة مرات لا سيما ما قام به الحسني في التفاوض حول الفلوجة. ومع حاجم الحسني الذي كان يحمل الجنسية الأمريكية كان هناك إياد السامرائي الذي يحمل الجنسية البريطانية وكان كلاهما نائبين لمحسن عبد الحميد وكلاهما كانا يتقنان اللغة الإنجليزية ويحملان الجنسية الأمريكية والبريطانية وجاءا من وراء البحار مثل كثيرين من الذين شاركوا في العملية السياسية في العراق.

وقد نقلت الوكالات تقارير في هذا اليوم مفادها أن كلاً "من حاجم الحسني وإياد السامرائي نائبي عضو مجلس الحكم محسن عبد الحميد عقدا مباحثات مع الحاكم الأمريكي بول بريمر من أجل الاتفاق على انسحاب القوات الأمريكية من مشارف الفلوجة وفك الحصار عنها".

وأصدر الحزب الإسلامي بياناً في هذا اليوم قال فيه: "نتيجة للجهود الحثيثة التي بذلها الحزب، وبعد الاتصالات والمفاوضات التي جرت وتجري مع الجهات الأمريكية المعنية، ولغاية صباح اليوم، تم الاتفاق على إيقاف العمليات العسكرية المتبادلة في الفلوجة وما حولها اعتباراً من الثانية عشرة ولمدة 24 ساعة".

لكن نائب قائد القوات الأمريكية في العراق الجنرال مارك كيميت خرج على وسائل الإعلام نافياً ذلك وقال: "لا يوجد اتفاق على وقف إطلاق النار... لا اتفاق بين المتمردين وقوات التحالف". وأعلن الكولونيل بريتان بيرن قائد الفرقة الأولى لقوات المارينز التي كانت تقود الحصار والهجوم على الفلوجة: "إن تعليق العمليات العسكرية انتهى، ولم يستغرق سوى "تسعين دقيقة" موضحاً أن رجاله تلقوا أوامر باستئناف العمليات الهجومية".

هذا في الوقت الذي رصدت فيه من على سطح مبنى مجمع العيادات الطبية الذي كنا نبث من فوقه على الهواء مباشرة من مدينة الفلوجة في هذا اليوم، معارك حية دارت في حي الجولان بين رجال المقاومة وطائرات مروحية أمريكية واستمرت المعارك أكثر من ساعة، وقمنا بتغطيتها على الهواء مباشرة، وحينما واجه الزميل محمد كريشان الجنرال مارك كيميت أثناء حوار أجراه معه وبث على الهواء على شاشة الجزيرة بأن هذا خرق لوقف إطلاق النار من قبل القوات الأمريكية قال كيميت: "إن القوات الأمريكية كانت في حالة دفاع عن

النفس" وهذا يعكس حجم ومقدار التخبط الكبير الذي يحيط بالقوات الأمريكية والإدارة الأمريكية بشكل عام.

ومع تأكيدي في ذلك الوقت على أن وقف إطلاق النار الذي أعلن من قبل القوات الأمريكية والذي أكد قائد الفرقة الأولى للمارينز الكولونيل بريتان بيرن أنه استمر لمدة تسعين دقيقة، وتأكيد نائب قائد القوات الأمريكية أن خرق وقف إطلاق النار هذا كان للدفاع عن النفس، قامت القوات الأمريكية بعمليات هجومية قمنا بتصويرها على الهواء وتقديمها للناس، كل ذلك لم يكن إلا لصالح القوات الأمريكية بالدرجة الأولى، لقد كان أهل الفلوجة في وضع مأساوي بكل المعايير لكن القوات الأمريكية كان وضعها أسوأ بكثير من كل النواحي.

وقد وجدت مقالاً نشره الكاتب ياسر الزعاترة في صحيفة "الحياة" نشر في 4 مايو/أيار 2004 يعكس رؤية تحليلية لما حدث في الفلوجة في ذلك اليوم لا سيما تحرك نائبي رئيس الحزب الإسلامي في التفاوض مع الأمريكيين وأهل الفلوجة حيث قال بعد تحليل مشاركة الحزب الإسلامي في العملية السياسة في العراق من البداية: "من المؤكد أن الفلوجة كانت تعيش مأزقاً صعباً، لكن الأكثر تأكيداً هو أن مأزق الاحتلال كان أكبر بكثير، فقد تحولت معركة الفلوجة إلى منعطف جديد للاحتلال الأمريكي يختلف عن السابق.... لم تكن معركة الفلوجة معركة فاشلة بالنسبة إلى العراقيين وإن بدت كذلك بالنسبة لأعضاء مجلس الحكم الذين غابوا لأيام عدة عن الشاشات باستثناء من باع نفسه تماماً للاحتلال، لا سيما عندما تزامنت مع ما يمكن وصفه بانتفاضة التيار الصدري، من هنا كانت وساطة الحزب الإسلامي بمثابة سفينة إنقاذ للأمريكان وليس للمدينة الباسلة ومجاهديها".

وهذا ما ذكرته تماماً في ذلك الوقت، وما أشار إليه بريمر في مجمل هذا الفصل من كتابه الذي وضعه تحت عنوان "الاصطدام بالحائط "، وهناك علامة استفهام كبيرة تحيط بالدور الذي لعبه كل من حاجم الحسني وإياد السامرائي في ذلك الوقت لا سيما بعدما كوفىء حاجم الحسني بعد ذلك بمنصبين: الأول هو وزير في حكومة علاوي التي شكّلتها سلطات الاحتلال بعد نهاية فترة بريمر، والثاني هو رئيس للبرلمان الذي شُكل بعد ذلك.

بريمر يطالب بخروج فريق الجزيرة من الفلوجة

كان أحد الشروط التي حملها أعضاء مجلس الحكم الذين أوكلهم بريمر بالتفاوض مع وجهاء الفلوجة هو إخراج فريق الجزيرة من المدينة، وقد سُرِّب الخبر وبثته قناة الجزيرة صباح ذلك اليوم، لكني لم أعلم به إلا حينما أبلغني به وضاح خنفر مساء ذلك اليوم كما سأذكر تفصيلاً فيما بعد. وكان هذا الشرط الذي فرضته سلطات الاحتلال على سكان المدينة هو بداية للضغوط المباشرة علينا لإخراجنا من المدينة.

وقد تعرض بريمر في مذكراته لنا عدة مرات، حيث قال في الصفحة 407: "لكن تليفزيون الجزيرة كان يعرض فيلماً لما يزعم بأنهم مدنيون غير مسلحين قتلوا في الفلوجة".

ويقول في الصفحة 411: "تقدمت فرقة المارينز الأولى في الفلوجة، وواجهت مواقع دفاعية في العمق مزودة بمدافع رشاشة ومدافع هاون ويحميها المسلحون والقناصة، كان العدو يقاتل من المدارس والمستشفيات والشقق السكنية والمساجد، مثلما فعلت قوات صدام، وفيما ازدادت حدة القتال ارتفعت الإصابات، وكانت الجزيرة توثِّق كل إصابة".

وفي الصفحة 412 قال: "ودون أن أعطي مصداقية للجزيرة أشرت إلى أن الإصابات في صفوف المدنيين تحدث في أي حرب".

ثم يتحدث بشكل مباشر في الصفحة 422 عن إيقاف عملنا وشرط قيام وفد مجلس الحكم بإخراجنا من المدينة بقوله: "تحدثت أنا وأبي زيد وسانشيز وبلاكويل، لمدة نصف ساعة أخرى، فقال جون إنه يتفهم أن الوضع السيِّئ لا يسمح بمواصلة الهجوم على الفلوجة الآن، وبحثنا، هل سيتمكن وفد مجلس الحكم من تهدئة الأمور، بالشكل الكافي لكي توقف الجزيرة نقلها للأخبار".

إذن كانت مهمة رئيسية لوفد مجلس الحكم: إيقاف الجزيرة نقلها للأخبار، ومن ثم فقد أصبح مطلب خروجنا من المدينة رسمياً صباح الجمعة التاسع من أبريل/نيسان، وبالتالي فكل ما تبع هذا القرار سواء من إطلاق النار علينا، أو نشر الإشاعات في المدينة أن كل من يؤوي فريق الجزيرة في بيته سوف يتم

قصف هذا البيت، أو دفع بعض ضعاف النفوس للضغط علينا للخروج من المدينة، لأننا أحد أسباب استمرار القتال، كل ذلك كان بتخطيط وترتيب أمريكي أكد عليه الحاكم الأمريكي بريمر في كتابه وحمله أعضاء مجلس الحكم كطلب أول من أهل المدينة حينما التقوا به في جامع الحضرة المحمدية صباح السبت العاشر من أبريل/نيسان 2004.

معركة على الهواء

صعدت إلى سطح مبنى العيادات الطبية المواجه للمستشفى الميداني والذي كان أعلى مبنى في المنطقة ويكشف معظم أرجاء المدينة، فوجدت المهندس سيف وليثاً يقومان ببث الأشرطة التي تم تصويرها صباحاً إلى الدوحة، وكانت الفرحة تعلو وجهيهما وهما يبلغاني بأن جهاز البث قد تم تشغيله، وأننا سنكون على الهواء مع الدوحة بعد انتهاء بث الصور.

اخترنا مكاناً أقف فيه للتغطية، وكان حي الجولان الذي كان يشهد اشتباكات دامية لا تتوقف مع القوات الأمريكية يقع خلفي، وأمامي طريق النعيمية الذي كان طريق الهروب من الموت صباحاً والذي خرج منه عشرات الآلاف من سكان المدينة، منهم من تمكّن من الخروج ومنهم من عاد جثة هامدة أو جريحاً بعد ذلك، وكان هناك هدوء مشوب بالحذر يسيطر على المدينة.

بدأت البث على الهواء وأخذت أقدم وصفاً تفصيلياً لهذا اليوم الدامي في الفلوجة، أثناء ذلك اندلعت معارك عنيفة بين المقاومة والقوات الأمريكية في حي الجولان الذي كان من أكثر أحياء المدينة اشتعالاً منذ بداية الحصار، وعادت الطائرات المروحية للقتال إلى جوار طائرات إف 16 التي كانت قد دخلت المعارك بشكل مباشر خلال الأيام الماضية. وشاهد العالم كله من خلال شاشة الجزيرة على الهواء خرقاً أمريكياً لوقف إطلاق النار الذي أعلنه بريمر وكيميت، ومعارك تقوم بها الطائرات المروحية، وقمنا بتصوير الطائرات وهي تصب حممها على البيوت والسكان ورجال المقاومة في آن واحد، في نفس الوقت أجريت حوارات مع كل من الدكتور رافع العيساوي مدير مستشفى الفلوجة الذي أعلن أن عدد الشهداء رسمياً قد بلغ أربع مئة وخمسين شهيداً منذ بداية الحصار للمدينة في

الخامس من أبريل/نيسان وحتى الآن التاسع من أبريل/نيسان، بينما زاد عدد الجرحى عن ألف جريح، كما أجريت حوارات مع كثير من أهل المدينة الذين تزاحموا علينا حينما علموا بمكان وجودنا وكان كل منهم يؤكد على حقهم في الدفاع عن المدينة وأنهم لن يخرجوا منها وسوف يواجهون القوات الأمريكية المعتدية.

في نفس الوقت كانت جثث الشهداء والجرحى تفد إلى المستشفى الميداني فيتم تكفين الشهداء وإرسالهم للمقبرة إما مع أحد أقاربهم أو مع متطوعين، ويتم علاج الجرحى وإرسال الحالات الخطيرة إلى بغداد، حيث كان يسمح لسيارات الإسعاف وسيارات الإغاثة بأن تدخل وتخرج من المدينة.

وعلمنا في ذلك الوقت أن المقاومة نجحت بشكل كامل في حصار القوات الأمريكية المحاصرة للفلوجة من كل الاتجاهات تقريباً، وفك الحصار عن المدينة من منطقة النعيمية، حيث لم تكن هناك أية قوات أمريكية وإنما القصف كان يطال المدنيين الذين كانوا يقومون بعبور الطريق من الطائرات الأمريكية.

كنت قلقاً من أن يعرف صاحب البيت الذي كنا نبث من فوقه بوجودنا فيأتي حرصاً على بيته ويطلب منا المغادرة، لكني فوجئت برجل جاء أثناء وجودي في البث على الهواء ومعه بعض مرافقيه كان يتحدث مع حامد، وسرعان ما دبت في المكان حركة عرفت تفاصيلها أثناء استراحة من البث، فقد علم صاحب البيت بوجودنا فعلاً، وجاء ليؤكد علينا البقاء في مكاننا بل وعرض علينا أية مساعدة إضافية نحتاجها ليقدمها لنا. كان رجلاً شهماً للغاية، عرفت من حسين دلي وأكّد لي حامد أن اسمه محمود خضير أبو جمال. ولأن وجود خط أرضي للهاتف كان مهماً للغاية حتى نتمكن من رصد ما يحدث في أطراف المدينة وما حولها، فقد قام الدكتور عبد الملك العاني صاحب صيدلية الشفاء التي كانت قريبة من مبنى المجمع الطبي بإمدادنا بخط الهاتف الخاص بالصيدلية عبر سلك طويل إلى سطح الطابق الثالث حيث كنا، وقد ساعدنا هذا كثيراً في بقاء اتصالاتنا قائمة مع كل أطراف المدينة.

ورغم أننا كنا نرصد المدينة كلها من سطح هذا المبنى إلا أن بعض أهل المدينة جاؤوا إلينا وحذرونا من البث من هذا المكان لأننا مكشوفين ويمكن قصفنا أو اصطيادنا من قبل القناصة الأمريكيين، لكن لم يكن لنا خيار آخر، إما

أن نبث من هذا المكان الذي كان يكشف المدينة، وإما أن ننزل وننعزل عن متابعة الأحداث، فاخترنا البقاء على سطح المبنى رغم المخاطر ومنها أننا كنا عرضة للقصف.

أذكر هنا أن كثيراً من المشاهدين سألوني بعد ذلك لماذا لم أكن أرتدي السترة الواقية للرصاص في معظم الأحيان التي كان يقع فيها علينا القصف، وهنا أُوضح لكل من تابعنا وسأل نفس السؤال، فنحن لم يكن معنا للأسف سوى سترتين فقط واقيتين للرصاص ولم يكن معنا أية خوذات لحماية الرأس، لأننا تحركنا من بغداد إلى الفلوجة قبل موعدنا الذي كان محدداً، ولم ندرك أننا سنعيش أحداث معركة. ولأن المصورين كانوا أكثر عرضة للخطر مني لذا أعطينا كلاً منهما درعاً واقياً من الرصاص وبقينا نحن تحت حماية أقدارنا رغم أننا كنا جميعاً كذلك.

لم تتوقف الاشتباكات رغم الإعلان الأمريكي لوقف إطلاق النار الذي لم نشعر به نحن في المدينة على الإطلاق. ثم هاجمني الجنرال مارك كيميت على شاشة الجزيرة بالاسم في حوار مع الزميل محمد كريشان وادعى أني أروِّج الأكاذيب من الفلوجة كما سأفصل فيما بعد. بعدها قامت الدبابات الأمريكية المرابطة على الضفة الأخرى من نهر الفرات بإطلاق نيران مدافعها الرشاشة الثقيلة علينا أثناء صلاة المغرب لكن والحمد لله لم يصب أحد من الزملاء بأذى، ونزلنا بعدها أسفل المبنى بعدما تعهد لنا صاحب البيت بحماية الأجهزة التي تركناها هناك لأنها كانت أثقل من أن ننقلها إلى أي مكان آخر.

تعاون أهل الفلوجة

أثناء وجودي على سطح مبنى العيادات الطبية، لم أكن مشغولاً سوى بالأحداث التي كانت تدور حولي والبث والصور وغيرها، وكان هناك كثير من الناس يأتون ويذهبون وكان حامد هو الذي يتعامل معهم. وأذكر أنه في صباح ذلك اليوم عرض علينا كثير من الناس المساعدة رغم أن كلاً منهم كان مشغولاً بنفسه أو بعائلته، ومن بين الذين عرضوا المساعدة رجل كان في العقد الرابع من عمره كنت مرتاباً منه في البداية حينما وجدته ملاصقاً لنا ويساعدنا في العمل دون أن

نطلب منه، لكن حينما سألت حامداً عنه أخبرني أنه يعرفه معرفة جيدة وهو شخص موثوق يدعى منذر محمد عبيد. كان منذر قد تطوع ليكون مساعداً وخادماً لفريق الجزيرة دون أن نطلب منه، فكان هذا التصرف منه يمثل كرماً ونبلاً وأريحية عرف بها أهل الفلوجة، فكنت كلما تلفت عن يميني أو يساري وجدت منذراً، كما أنه كان يأتينا بالأخبار، ويقدم لنا ما يستطيع من خدمات.

وأذكر له أنه حينما رأى الشمس تحرق وجهي حيث بقيت واقفاً على السطح تحت شمس الظهيرة حتى غربت، أحضر لي "طاقية" حتى أضعها على رأسي وأحتمي بها من لهيب الشمس في الأوقات التي لا أكون فيها على الهواء، وقد رفض استرجاعها حينما أعطيتها له مساء ذلك اليوم وقال: "أرجو أن تحتفظ بها حتى تتذكرني". وقد وجدتها بعد ذلك ضمن ملابس الفلوجة التي لا زالت زوجتي تحتفظ بها في مكان خاص في أحد ادراج خزانة ملابسي.

رأيت منذراً للمرة الأولى صباح يوم الجمعة أثناء الزحام الشديد والهول الذي سبق أن وصفته، ففي وسط هذه الأهوال وبينما كنت أصرخ على ليث وحسان لتصوير المشاهد المختلفة لما يحدث فوجئت برجل ينظر إليَّ بشكل غريب ثم تقدم نحوي وأمسك بتلابيبي وجذبني من ملابسي ثم أخذ يلقي علي كمًّا من الاتهامات أمام الناس أقلها أننا عملاء للأمريكان، وكان واضحاً أنه قد التبس عليه الأمر بيني وبين مراسل أحد القنوات التليفزيونية الأخرى كان قد ادعى أنه دخل الفلوجة وأنه يرسل تقاريره من هناك، فكان أهل المدينة غاضبين تماماً مما يقدمه لأنه لم يكن يعكس حقيقة ما يدور داخلها. ورغم أني عادة ما أتسامح في مثل هذه المواقف إلا أني قدرت أن هذا الموقف لا يحتمل التسامح أو الدفاع عن النفس وإنما الهجوم المباشر، لا سيما وأن الناس كانوا مسلحين ومهتاجين حولنا، والفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان، فدفعت الرجل عني بقوة، وصرخت فيه وفي الناس الذين كانوا سلبيين ويكتفون بمشاهدة ما يحدث، وطلبت منهم أن يتحركوا ليبعدوه عني، ثم وجهت كلامي للجميع قائلاً لهم كيف يسمحون له أن يتطاول علينا ونحن نقوم بنقل معاناتهم إلى العالم ونقدم الحقائق عما تقوم به القوات الأمريكية إلى الدنيا. في هذه الأثناء ظهر منذر مع آخرين،

حيث أخذوا الرجل بعيداً عني واعتذروا لي، وبقي منذر إلى جواري كأنما عيَّن نفسه حارساً شخصياً لي دون أن أطلب منه ودون أن أشعر بذلك.

وأذكر له أنه جاء لنا بغداء حينما كنا مشغولين بالبث على الهواء من على سطح المبنى بعد صلاة الجمعة، كما ظل معنا إلى نهاية اليوم يلبي مطالبنا ويطلعنا على ما يحدث في المنطقة حولنا.

وحتى أكمل المشهد للرجل الذي تطاول علي يوم الجمعة ودفعه منذر عني فقد ذهبت في اليوم التالي السبت 10 أبريل/نيسان صباحاً إلى المستشفى لأحصل على آخرِ المعلومات، فوجدت رجلاً يأتي نحوي ويقول لي: " أنتظرك هنا من السادسة صباحاً يا أحمد أما تعرفني"؟ قلت له: "لا". قال: "أنا الذي تطاولت عليك بالأمس وجذبتك من ثيابك، وقد جئت لأعتذر إليك عما بدر مني فلم أكن أعلم أنك أحمد منصور فقد التبس عليَّ الأمر ولم آكن أقصدك، ولكن كنت أقصد شخصاً آخر، والله ما نمت أمس حينما علمت أن الذي تطاولت عليه هو أحمد منصور وليس الشخص الآخر الذي كان في ذهني، فقد كنت مشوشاً وغاضباً مثل كل الناس، وحينما علمت بعد ذلك أني تطاولت عليك أنت حزنت كثيراً وخفت أن أموت دون أن أعتذر إليك عما بدر مني، وأرجو أن تسامحني". ضممت الرجل وقبلته في رأسه وقلت له: لا عليك لقد نسيت ما حدث، وأنا ألتمس الأعذار للناس لا سيما في مثل هذه الأجواء، وأرجو أن تسامحني أنت أيضاً لأني دفعتك عني وصرخت في وجهك، لأن الوضع لم يكن يحتمل مني غير ذلك في ظل وجود أناس مسلحين كثيرين كان يمكن أن يطلق أي منهم الرصاص علي وعلى زملائي بناء على اتهاماتك لنا.

ثم أعطاني الرجل ورقة وهو يقول: لقد كتبت هذه الورقة قبل أن أنام أمس حتى تصلك وبها اعتذار مكتوب مني عما قمت به، وقد جئت إلى المستشفى بعد صلاة الفجر وبقيت أنتظرك حتى تأتي وقلت إذا لم تأت أعطيها للأطباء حتى يوصلوها إليك إذا رأوك.

فتحت الورقة فوجدت بها كلمات اعتذار وأسف كتبت بلغة بسيطة تنم عن قلب طيب ونفس رفيعة، فطويتها ومسحت دموعي وأنا أضم الرجل مرة أخرى، وأطلب من الله المغفرة لي وله.

مكالمة هاتفية ترفع المعنويات

في مساء هذا اليوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان بعدما نزلنا من على سطح المبنى بعد صلاة المغرب، قمت بالاتصال بوضّاح لأبلغه بأننا تعرضنا لإطلاق النار من قبل القوات الأمريكية، فأبلغني أن الشيخ حمد بن ثامر رئيس مجلس الإدارة الذي كان دائم الاتصال بنا والاطمئنان علينا يجلس معه ويود الحديث معي. كلمني الشيخ حمد وشد على يدي وطلب مني أن أبلغ الزملاء تحياته، ولأن التعب والإرهاق كان ملمًّا بكل الزملاء فقد طلبت من الشيخ حمد أن يسلم هو عليهم جميعاً واحداً تلو الآخر وأن يشد على أيديهم فقد أبلوا بلاء حسناً وكانوا جميعاً عرضة للموت والخطر. وكنت أقدم له كل شخص وأعرّفه بدوره وعمله فيتحدث معه الشيخ فيشكره ويشد من أزره، ورغم أنه ربما لم يكن يعرف أياً منهم معرفة شخصية إلا أنه تحدث معهم جميعاً حديث العارف بهم القريب منهم. وقد لعبت هذه المكالمة الهاتفية دوراً كبيراً للغاية في شد أزر الزملاء ورفع معنوياتهم ومنحهم طاقة كبيرة رغم الإرهاق الشديد الذي كان يلم بالجميع.

وأود أن أشير هنا إلى الدور العظيم الذي لعبه الدعم المعنوي الكبير الذي قدمه رئيس مجلس الإدارة الشيخ حمد بن ثامر لنا في تغطية هذه الأحداث كلها، فقد كان دائم الاتصال بي ودائم الشد من أزرنا فيما نقوم به، وهذه من الأمور الهامة التي ساعدتنا على القيام بدورنا علاوة كذلك على ما قام به الزميل وضاح خنفر مدير قناة الجزيرة وباقي الزملاء في غرفة الأخبار، الذين كنا نسمع دائماً منهم الكلام الطيب حينما يتصلون بنا ويتحدثون إلينا، ونشعر بحرصهم علينا وتقديرهم لجهودنا وأمنياتهم الدائمة لنا أن نعود سالمين من مهمتنا.

العشاء مع شهيد

بعد انتهاء المكالمة الهاتفية المطوَّلة، مع الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني رئيس مجلس الإدارة والزميل وضاح خنفر مساء يوم الجمعة الدامي، وجدت جميع الزملاء منتشين وسعداء بهذا الاتصال والكلام الطيب الذي سمعوه، فالتقدير المعنوي هام للغاية في مثل هذه المواقف، وربما يغفل عنه كثير من الناس لكن

مفعوله ساحر على أناس مجهدين ويتعرضون للموت في كل لحظة وهو أن يجدوا أن هناك من يشعر بهم وبما يقومون به ويقدره حتى لو بكلمات بسيطة.

رغم الإرهاق الشديد الذي كان ملمّاً بالجميع، قلت لهم: ماذا سنفعل الآن ؟ قال حسين دلي: سيأتي معي حسان وليث وأبو عمر والمهندس سيف لتناول العشاء والمبيت في منزلنا. وكان هناك ثلاثة رجال يقفون معنا وجدتهم يحملون أغراضنا لم أكن أعرفهم لكني كنت قد رأيت بعضهم يساعدون الزملاء طوال الوقت، فعرّفني حامد عليهم. كان أحدهم زوج شقيقته واسمه حسين علي سمير وشقيقه نزار، وشخص ثالث يدعى عمر فاروق، وأبلغني حامد أنني سأذهب أنا وهو وعبد العظيم إلى بيت زوج شقيقته حسين علي سمير لتناول العشاء هناك، وكان بيته لا يبعد سوى بيتين أو ثلاثة من مبنى العيادات الطبية الذي كنا نبث من على سطحه طوال اليوم. ودعنا حسين دلي مع الزملاء الذين ذهبوا معه، وكان ليث وحسان وأبو عمر سوف يعودون صباحاً إلى بغداد مع إحدى القوافل بعد فتح الطريق، بينما سيأتي حسين دلي مع سيف عند الساعة السابعة عند مجمع العيادات الطبية، ويقوم عبد العظيم وحامد بدور ليث وحسان كمصورين علاوة على إعدادهم التقارير حتى يقوم الزملاء من بغداد بإرسال مصورين بدلاً من حسان وليث.

رحب بنا حسين علي سمير في بيته، وقدم لنا العشاء مع اعتذارات مصاحبة بأننا نستحق إعداداً أفضل من هذا، غير أنه تم ترتيب الأمر على عجل، وقال لنا: عشاؤكم أنتم جميعاً وفريق الجزيرة هنا غداً السبت في بيتنا إن شاء الله.

تحدثنا على العشاء عما دار في المدينة طوال اليوم وسألت حسين سمير هل سيخرج من المدينة أم سيبقى فيها؟ قال: "لن أخرج مهما فعل الأمريكيون. هذه بلدنا، وهم المعتدون علينا". وكان له طفل عمره ست سنوات اسمه عليّ جاء يسلم علينا وجلس معنا، فداعبت علياً قائلاً: "وأنت هل سترابط مع أبيك في المدينة أم ستخرج يا علي"؟، قال علي ابن الست سنوات: "بل سأبقى مع أبي لن أخرج".

بعد العشاء بقي حامد ليبيت في بيت أخته، بينما ذهبت مع عبد العظيم إلى بيت عمر فاروق الذي تناول العشاء معنا لنبيت في بيته الذي كان على الجانب الآخر من المستشفى الميداني.

أذكر أنه أثناء تناولنا للعشاء في بيت أخت حامد اتصل بي الزملاء لأشارك في نشرة أخبار العاشرة حول القصف الذي تعرضنا له مساء اليوم من القوات الأمريكية، وأذكر أن جمال ريان كان هو الذي يقدم نشرة الأخبار، وجمال كان ينسجم كثيراً معي حينما أكون معه من الفلوجة، ومن بيت عمر فاروق شاركت مرة أخرى مع جمال ريان ولكن في نشرة حصاد اليوم بينما كانت الطائرات المقاتلة تفرغ قنابلها على بعض أطراف المدينة.

كان بيت عمر فاروق بيت كبير العائلة، وبيوت العوائل في الفلوجة يمكن أن يعيش فيها الأب مع أبنائه المتزوجين كل في غرفتين أو أكثر أو شقق منفصلة داخل البيت، وكان واضحاً أن عائلة عمر من العوائل التي خرجت من الفلوجة، وبقي وحده في البيت، حيث أكرمنا بحسن ضيافته في تلك الليلة ونمنا جميعاً في غرفة نومه الكبيرة التي كانت تقع على السطح في الطابق الأول، اخترت النوم على الأرض كما أحب دائماً، وحينما مددت يدي في جيوبي لأخرج ما فيها قبل النوم، وجدت علبة صغيرة من البسكويت كان أحد الأطباء قد أعطاها لي صباحاً في المستشفى حتى أفطر عليها لكني وضعتها في جيبي ونسيتها، كما وجدت أشياء أخرى كثيرة كان لها تأثير كبير في نفسي في ذلك الوقت، منها قطعة من الشيكولاته الصغيرة أعطاها لي أحد الناس ليعبر عن حبه وتقديره.

يا إلهي!! ليس من السهل أن يجد الإنسان ألفاظاً يكسو بها بعض المعاني الجميلة التي يشعر بها في بعض لحظات الحياة ومنها مثل هذه اللحظات التي يعبر فيها الناس عن حبهم بما تجود به نفوسهم من أشياء تبدو في قيمتها صغيرة لكنها في معانيها كبيرة كبيرة.

إخراجنا من الفلوجة

حاولت النوم لكني لم أستطع كالعادة، فأصوات الاشتباكات والقصف لم تتوقف طوال الليل، وفي الصباح الباكر جاء منذر، وقابلني وأنا في طريقي من بيت عمر فاروق إلى المستشفى وكنت أسير وحدي وإذا به يقول لي: "كيف تمشي وحدك هنا يا أحمد؟ الوضع خطير للغاية وعند المستشفى هناك أشخاص مسلحون وأشكالهم مشبوهة يسألون عنك وينتظرون قدومك، وقد سألتهم ماذا تريدون فلم

يخبروني، فبقيت واقفاً معهم حتى ذهبوا وقالوا: سنعود مرة أخرى. فجئت لأحذرك". قلت له: "لا عليك يا منذر؟ يجب أن أذهب إلى مبنى العيادات الطبية لأن لدينا مشاركة على الهواء في نشرة الأخبار الصباحية، كما أنه يجب أن أذهب إلى المستشفى أولاً حتى أحصل على آخر الأخبار".

بقي منذر معي مثل ظلي، وفي المستشفى عرفت أن القصف في الليل كان على أحياء المعلمين والضباط ومعاوني الضباط والجولان، وكان هناك رجل يقف في حاجة إلى متطوعين وسيارة إسعاف من أجل نقل جثة شقيقه من تحت أنقاض بيته الذي قصفته الطائرات الأمريكية الساعة الواحدة ليلاً في حي المعلمين فانهار عليه. قمنا بتشغيل جهاز البث والمشاركة في "الجزيرة هذا الصباح" من فوق مبنى العيادات الطبية الذي قمنا بالتغطية من على سطحه يوم الجمعة، لكن الوضع كان خطراً للغاية في هذا اليوم السبت العاشر من أبريل/نيسان، والجميع حذرنا من البقاء فوق المبنى لا سيما بعدما أطلقت الدبابات الأمريكية النار علينا مساء أمس.

عرض علينا عمر فاروق أن ننقل أجهزة البث وكل شيء إلى بيته، لكن المشكلة أننا لن نظهر من فوق السطح وإنما من حديقة البيت، لأننا على السطح سنكون في خطر مثل الذي نحن فيه هنا. في هذه الأثناء جاءنا حسين سمير زوج أخت حامد وشقيقه نزار، ليطمئنوا علينا وليؤكد حسين علينا العشاء الليلة عنده في بيته، وساعدونا في نقل الأجهزة والأغراض الثقيلة إلى بيت عمر فاروق، شكرناه على اهتمامه وعلى دعوة العشاء.

بعد مشاركتي في "الجزيرة هذا الصباح" وإطلاع مشاهدي الجزيرة على آخر التطورات في المدينة وما حدث أثناء الليل، ذهبت إلى المستشفى بينما ذهب عبد العظيم إلى مسجد الحضرة المحمدية، لمتابعة وفد مجلس الحكم الذي كان يُنتظر وصوله للتفاوض مع وجهاء المدينة حول شروط وقف إطلاق النار ورفع الحصار الكامل عن المدينة.

كنت أقف خارج المستشفى أجمع المعلومات من بعض أهالي الجرحى والشهداء، بينما كان المسعفون يقومون بتجهيز جثث بعض الشهداء الجدد وتكفينها، حتى يتم دفنها.... فجأة وجدت يداً تمتد نحوي وتجذبني بلطف من بين

الناس، فالتفت فإذا به أحد الأطباء في المستشفى، استجبت له ودخلت معه المستشفى ظناً مني أنه سيطلب مني تصوير بعض حالات الجرحى أو يقدم لي معلومات جديدة، لكنه قال لي: "الوضع قلق بالنسبة لك فأرجو ألا تظهر مكشوفاً هكذا، حيث أبلغنا كثير من أهل المدينة بأنهم قلقون عليك، وأن المدينة مليئة بالجواسيس ويمكن بعد اتهامات الجنرال مارك كيميت لك أمس وبعد إطلاق النار الذي تعرض له فريق الجزيرة على سطح المبنى أمس أن يتم تصفيتك بشكل أو بآخر لا سيما وأنك تتحرك مكشوفاً ودون حراسة أو مرافقين في المنطقة".

قلت له: "ماذا أفعل؟ هذا عملي ويجب أن أقوم به، وأنا لا أستطيع البقاء في مكان مغلق، وعليَّ أن أجمع المعلومات بنفسي من الناس، علاوة على ما يقوم به الزملاء، أما قدرنا فهو بيد الله وليس بيد البشر". قال: "أنا أفهم ذلك، ولكن تعال اجلس معنا قليلاً في الداخل".

كانت الغرفة ضيقة للغاية وكان يجلس فيها الدكتور رافع العيساوي مدير المستشفى وبعض الأطباء فرحبوا بي جميعاً وأوسعوا لي مكاناً، بينما كان آخرون يقومون بتضميد الجرحى في الخارج لبعض الحالات التي وصلت صباح اليوم، سمعت تلميحات وأحياناً تصريحات مباشرة من الحضور تشبه تلك التي حدثني عنها الطبيب الذي أخذني، وطلب مني الجميع أن آخذ حذري. شكرتهم ثم خرجت واستكملت ما كنت أقوم به وعدت بعد ذلك إلى بيت عمر فاروق بعدما اتصل بي الزملاء في الدوحة وطلبوا مني المشاركة في نشرة الأخبار القادمة.

كان عبد العظيم قد عاد أيضاً قرب الثانية عشرة بعدما قام بتغطية زيارة وفد مجلس الحكم الذي كان يضم حاجم الحسني نائب عضو مجلس الحكم عن الحزب الإسلامي وممثل عن عضو مجلس الحكم غازي الياور، وممثل عن عضو مجلس الحكم الباجه جي، ومن أهل الفلوجة الدكتور أحمد حردان ممثل الحزب الإسلامي في المدينة والشيخ الجنابي الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لما عرف بمجلس شورى المجاهدين في الفلوجة، وآخرين، وكان المطلب الأول غير المعلن والذي عرفه عبد العظيم ونقله لي هو ما سبق أن بثته الجزيرة، وما أكَّد عليه بريمر في مذكراته، وهو خروج فريق الجزيرة من الفلوجة، وتحديداً أحمد منصور.

أما الشروط الأخرى المعلنة فقد ذكرها بريمر في الصفحة 420 من مذكراته وقال: "يجب أن يسلم شيوخ المدينة قتلة رجالنا ونريد أيضاً أسماء المقاتلين الأجانب هناك، وعلى المتمردين التخلي عن أسلحتهم، وإذا أطلقوا النار علينا فسوف نرد. اتصلت بحاجم حاملاً هذا الاقتراح، كانت الساعة 10 و45 دقيقة صباحاً"، كان هذا صباح الجمعة كما ذكر بريمر لكن الوفد لم يتمكن من الدخول إلى الفلوجة يوم الجمعة بسبب قطع الطريق والقصف الشديد على المدينة ودخل صباح السبت، وقد زادت وكالتي رويترز والفرنسية شروطاً أخرى من بينها: "تسليم قائمة من عناصر الشرطة العراقية التي تحولت إلى قتال القوات الأمريكية في المدينة". من خلال هذه الشروط يتضح أن أياً منها باستثناء إخراج فريق الجزيرة من المدينة أو إيقاف البث ليس في قدرة أهل الفلوجة تحقيقه أو القيام به، كما أنها كلها كانت شروط الاحتلال ومطالبه، وكان هناك إجماع على أن مهمة الوفد صعبة، وكذلك هذه الشروط صعبة التحقيق، وليس هناك مقابل لأي منها سوى وعد بوقف إطلاق النار الذي لم يتوقف رغم إعلان الجنرال مارك كيميت عنه.

ففي الوقت الذي كان فيه الزميل عبد الصمد ناصر معي على الهواء مباشرة في نشرة الثانية عشرة ظهراً كانت الطائرات من طراز سي 130 التي تملك قوة نارية هائلة، والطائرات المقاتلة من طراز إف 16 تقوم بقصف المدينة، وحينما سألني عبد الصمد عن سريان وقف إطلاق النار صمت وقلت له: "سوف تجيبك هذه الطائرات التي تقصف أنحاء المدينة الآن وأنت معي على الهواء". وحاول عبد العظيم الذي كان يقوم بالتصوير بسبب عودة ليث وحسان إلى بغداد أن يلاحق الطائرات بالكاميرا، لكن حركة الطائرات كانت أسرع منه، كما أننا كنا في حديقة المنزل وليس في مكان مرتفع، غير أن أصوات القصف كانت واضحة للغاية.

وفي هذا اليوم لم ينقطع دوي الانفجارات والقصف في أنحاء المدينة، وكانت سحب الدخان الأسود تتصاعد من أماكن مختلفة بعد كل غارة تقوم بها الطائرات الأمريكية، وقد نقلت الوكالات عن السرجنت الأمريكي شون هيلي الذي كانت تنتشر وحدته العسكرية في المنطقة الصناعية في الفلوجة في هذا اليوم قوله: "الرمايات مستمرة بالكثافة نفسها، كما كانت في الأيام السابقة، المتمردون

لا يصدقون أن هناك وقفاً لإطلاق النار والنساء والأطفال لا زالوا يفرون من المدينة".

أما المقدم بريتان بيرن الذي كانت قواته تقود حصار المدينة وقتال أهلها فقد قال: "لم أتلق أية تعليمات بوقف إطلاق النار، سأواصل القتال حتى إشعار آخر". وأضاف: "لا أعرف ما قيل في بغداد، ولم أتلق من قيادتي حتى الآن أي أمر بوقف المعارك".

في هذا اليوم تصاعدت المواجهات في أنحاء مختلفة من العراق بين رجال المقاومة والقوات الأمريكية التي حاولت السيطرة على طريق الإمدادات الذي يربط بغداد بالفلوجة عبر أبو غريب، بينما نفذ معظم أهل بغداد إضراباً تضامناً مع الفلوجة واستجابة للدعوة التي وجهها الدكتور حارث الضاري رئيس هيئة علماء المسلمين، كما تواصلت المعارك في أماكن أخرى كثيرة في الأعظمية وأبو غريب في بغداد، وفي مدن الكوت والحلة والرمادي وبعقوبة والموصل؛ وفي الجنوب كذلك في كربلاء والنجف حيث كان جيش المهدي يواصل تمرده بسبب قرار القوات الأمريكية القبض على زعيمه مقتدى الصدر.

لكن الحدث الأكبر كان في مدينة سامراء حيث تمكن رجال المقاومة من السيطرة التامة على المدينة وعلى كل مراكز الشرطة وأسلحتها وأجهزتها وسياراتها ابتداء من يوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان حيث فرت القوات الأمريكية من داخل المدينة وبقيت محاصرة لها من الخارج وعاجزة عن اقتحامها، لقد كان الوضع كما وصفه بريمر "إننا مقبلون على انهيار مضطرد في العراق".

استشهاد حسين علي سمير

أنهيت المقابلة مع عبد الصمد، وكانت المقابلة الثالثة لي في نشرات الأخبار في ذلك اليوم السبت العاشر من أبريل/نيسان من الصباح، وبين كل نشرة أخبار وأخرى كنت أقوم بجمع الجديد من الأخبار والمعلومات، بينما كان الزملاء الذين بقوا معي حامد وعبد العظيم وسيف كل يقوم بعمله، كان عبد العظيم يعد تقريراً

عن زيارة وفد مجلس الحكم، بينما كان حامد يعد تقريراً آخر عن نتائج عمليات القصف وخرق وقف إطلاق النار الذي تقوم به القوات الأمريكية، وسيف كان مسؤولاً عن تشغيل جهاز البث.

قمنا نؤدي صلاة الظهر في الساعة الواحدة والنصف تقريباً، ولأني كنت المسافر من بين الحضور فقد صليت بهم الظهر قصراً وأكملوا هم الصلاة، ثم قمت بعدها لصلاة العصر جمع تقديم، عندها جاءت الطائرات وكانت قريبة للغاية منا بحيث اخترقت جدار الصوت بشكل أفزعنا ثم أطلقت صاروخاً بدا أنه قريب تماماً منا، كان الزملاء قد أنهوا صلاة الظهر، بينما كنت لا أزال أصلي العصر، فانطلقوا بالكاميرات ركضاً إلى الخارج حيث مصدر انفجار الصاروخ الذي أطلق، بعدما أنهيت صلاتي خرجت أستطلع الأمر خارج البيت فوجدت الغبار يتصاعد من مكان قريب، قلت لأذهب إلى المستشفى حيث هناك الخبر اليقين.

في طريقي إلى المستشفى لقيني بعض الناس وقالوا: إلى أين تذهب؟ لقد قصفوا البيت الذي كان فيه فريق الجزيرة أمس، واستشهد صاحبه. دار رأسي.... أي بيت ؟ بيت حسين دلي أم بيت حسين سمير؟ لقد نمنا أمس في ثلاثة أماكن، الزملاء ناموا لدى حسين دلي، وحامد في بيت زوج شقيقته حسين سمير، وأنا وعبد العظيم في بيت عمر فاروق، كان البيت الأقرب الذي أعرفه هو بيت حسين سمير؟ قلت لأذهب أولاً إلى المستشفى لأعرف التفاصيل من هناك.

حينما وصلت إلى باب المستشفى الميداني وجدت أحد المسعفين يخرج بحمالة للجرحى غارقة بالدماء، وقبل أن أسأل أو أعرف ماذا جرى رأيت نزاراً شقيق حسين سمير الذي ساعدنا كثيراً أمس وصباح اليوم منهاراً تماماً ويجهش بالبكاء، وما إن رآني حتى هرول نحوي وارتمى على كتفي وهو يبكي ويقول: "استشهد حسين يا أحمد... استشهد حسين"؛ قصفوه بصاروخ، لكن رجلاً وراءه كان يقول لي: لا يزال على قيد الحياة وسوف يسعفونه إن شاء الله.

شعرت أن الدنيا تدور بي، يا إلهي حسين سمير زوج أخت حامد الذي تناولنا العشاء في بيته أمس، والذي كان من المفترض أن نتناول العشاء في بيته اليوم، والذي كان معنا في الصباح وساعدنا في نقل الأجهزة والأغراض إلى بيت

عمر فاروق استشهد؟، أخذت أهدئ من روع نزار شقيق حسين حتى أفهم منه ما حدث، لكنه كان منهاراً تماماً ويبكي بصوت مرتفع، ولأن الرجل ارتمى على كتفي فقد بقيت معه أواسيه، بينما كان الناس يركضون هنا وهناك، وسمعت بعض الناس يقولون بصوت مرتفع: "إنهم يلاحقون فريق الجزيرة، ويقصفون الأماكن التي يذهبون إليها، لقد كانوا في بيت حسين سمير أمس ولهذا قصفوه وقتلوه"، هذه العبارة انتشرت مثل النار في الهشيم في أنحاء المدينة.

بعد نصف ساعة قضيت معظمها في المستشفى جالساً مع نزار شقيق حسين أواسيه وأهدئ من روعه، عدت إلى بيت عمر فاروق فوجدت الأجواء متغيرة وغير طبيعية في البيت، فقد وجدت رجالاً متجهمين رأيتهم للمرة الأولى داخل البيت، وشعرت بأجواء غير مريحة، فسألت عبد العظيم: "من هؤلاء الرجال يا عبد العظيم؟:" فقال: "هم أعمام عمر فاروق جاؤوا يطلبون منه إخراجنا من البيت بعدما انتشرت شائعة في المدينة بعد استشهاد حسين سمير أن القوات الأمريكية تتقصد البيوت التي يتواجد فيها فريق الجزيرة فتقصفها، وقالوا له: إذا لم تخرجهم من البيت فسوف يأتي الأمريكيون لقصف البيت وتدميره. لكن عمر فاروق رفض في البداية، ولأنهم أعمامه فقد أصرّوا عليه فالرجل يشعر بالحرج الشديد معنا، فاضطر أن يبلغنا في النهاية بضغوط أعمامه عليه، لذا علينا أن نبحث عن بيت آخر، ولكن بعد الغداء حيث أن الجيران قد أعدوا لنا الغداء وسوف يحضرونه بعد قليل".

قلت في نفسي: "أي غداء؟ وأي طعم للغداء يمكن أن نشعر به في هذه الأجواء؟ وأين سنذهب؟ إني لا أستبعد أن نشر هذه الشائعة في المدينة وراءه الذين لهم مصلحة في إخراجنا منها، يريدون أن يخيفوا أهل الفلوجة منا، بحيث يتم تضييق الأبواب علينا ويقوم أهل الفلوجة أنفسهم بإخراجنا منها طالما أننا رفضنا الخروج بعد طلب الأمريكيين واشتراطهم ذلك، كما أن هذا البيت هو الأقرب إلى المستشفى، فأنى لنا أن نجد مكانا آخر مثله؟ وطالما انتشرت هذه الشائعة فإن أحداً لن يؤوينا وسوف نصبح منبوذين في المدينة، لقد كان منزل حسين سمير هو البديل لو أُخرجنا من منزل عمر فاروق، ولكن حسيناً استشهد". قلت لعبد العظيم بعد صمت طويل وتفكير: "هل هناك مكان آخر

يمكن أن نذهب إليه ويكون قريباً من المستشفى"؟ قال: "سنبحث، لكن ليس هناك الآن مكان".

لم يكن حامد قد علم أن زوج شقيقته قد استشهد، فقد كانت إصابته قاتلة في الرأس لكنه حينما نقل إلى المستشفى كان لا زال ينبض والأطباء يحاولون إسعافه، وكان معه اثنان آخران إصابتهما خفيفة، لكن إصابة حسين سمير كانت قاتلة، ولأن حامداً كان يعد تقريراً عن أحداث اليوم، وحتى يكون بعيداً عن أجواء التوتر في المستشفى فقد طلبت منه أن يعود هو إلى البيت لإكمال التقرير حتى يمكن بثه في نشرة "الجزيرة منتصف اليوم"، وحينما ينتهي منه يمكنه العودة ليكون إلى جوار زوج أخته.

عاد حامد وعدنا إليه بعد ذلك، لكن عبد العظيم أبلغني بعدها بدقائق أن حسيناً استشهد وطلب مني أن أُبلّغ حامداً بهذا الخبر المؤلم والمحزن، فقلت له: لن نبلغ حامداً إلا بعدما ينتهي من إعداد تقريره الذي تضمن للمصادفة صوراً لزوج أخته بعد إصابته مباشرة. كانت المعلومات التي عندي حتى هذه اللحظة والتي كان أهل المدينة يتحدثون فيها وكذلك أول خبر جاءني من الزملاء أن حسيناً قُصف بصاروخ أمام بيته، لكن الذي علمته بعد ذلك أن حسيناً قصف بصاروخ مع اثنين آخرين بعد خروجهم من مسجد الراوي حيث كانوا في طريقهم إلى البيت بعد صلاة الظهر، وأن الطائرة قصفتهم في الشارع، لكن الإشاعات التي ملأت المدينة والتي وصلتني حتى هذه اللحظة والتي سمعت بعض الزملاء يرددونها هي أن الطائرات قصفت بيت حسين وليس وهو في الطريق إلى بيته كما حدث، وهذا ما جعل أعمام عمر فاروق يطلبون منه إخراجنا من البيت، وأخذت الإشاعة تنتشر بأن الطائرات الأمريكية تلاحق فريق الجزيرة في البيوت التي يذهبون إليها أو يقيمون فيها، وهذا ما أبلغت به الشيخ حمد بن ثامر رئيس مجلس الإدارة حينما اتصلت به بعد ذلك لأبلغه بالوضع الذي أصبحنا فيه بعد هذا الحادث حيث كان على اتصال دائم واطلاع مستمر على أوضاعنا طوال الوقت.

لاحظت أن عمر فاروق الشاب الطيب المضياف الكريم الخدوم الذي لم يتركنا من يوم الجمعة كان خجولاً منا للغاية، وكان يشيح بوجهه بعيداً عني حرجاً مني، فأنا الغريب من بين الحضور، وأنا المطلوب خروجي من المدينة كلها

وليس من بيته فقط، وإلا فباقي الزملاء كلهم من أهل الفلوجة باستثناء المهندس سيف الذي كان من بغداد لكنه من أهل العراق في النهاية، والإشاعات تملأ المدينة لا سيما بعد انتقادات الجنرال كيميت لي بالاسم وقصفنا مساء أمس، بأن القوات الأمريكية تلاحق أحمد منصور وفريق الجزيرة حتى يخرجوا منها، كما أن الجزيرة بثت ذلك، ووفد مجلس الحكم طلب ذلك بشكل واضح، وطلب الخروج من المدينة كان رسمياً وأشار له بريمر في منكراته، وهذا يعني أنه كانت هناك مطاردة لنا بكل الوسائل حتى نخرج من المدينة ونكف عن تغطية أحداث المعارك والانتهاكات التي تقوم بها القوات الأمريكية لسكانها المدنيين.

جلست وحيداً أفكر في الأمر، ثم اتصلت بوضّاح حتى أبلغه بالوضع الذي نحن فيه وأطلب مشورته، إلا أنه لم يجبني، كان هاتفه مغلقاً، وعلمت أنه كان في الطائرة في طريقه إلى القاهرة، حيث كان يرتب مع الأستاذ محمد حسنين هيكل حلقاته التي تم بثها على شاشة الجزيرة بعد ذلك، فقمت بالاتصال بالشيخ حمد بن ثامر رئيس مجلس الإدارة، وأبلغته بالموقف كاملاً، فكان الرجل كما عهدته دائماً نعم الداعم لنا ولما نقوم به فقال: "الأمريكيون يضغطون بشدة حتى تخرجوا وقد أعلنوا عن ذلك، لذلك أرجو أن تحافظ على نفسك وعلى زملائك، نحن لا يهمنا إلا سلامتكم، وقد أديتم ما هو مطلوب منكم وبدأت الأمور تهدأ الآن وينفك الحصار ولو جزئياً عن المدينة، والضغوط كبيرة على خروجكم وأعتقد أن خروجكم الآن أسلم بعدما أديتم واجبكم". شكرته على حرصه علينا وقلت له: "أرجو أن تترك لي فرصة أخيرة لأجتمع بالزملاء وأعرض عليهم الأمر وأن يكون لنا حرية اتخاذ القرار من هنا وسوف أبلغك بما نتوصل إليه".

بعدها اتصل بي الزميل أحمد الشيخ رئيس تحرير غرفة الأخبار وقال لي: "إن ظهورك على شاشة الجزيرة أصبح مستفزاً للقوات الأمريكية يا أحمد بشكل كبير، وأنت المستهدف من وراء كل الضغوط التي يقومون بها، وقد تحدث الجنرال كيميت عنك تحديداً، لذا أرجو أن تتوقف قليلاً عن عمل التقارير والمشاركة في نشرات الأخبار، ونكتفي بالتقارير التي يعدها الزملاء". قلت له: "لا مانع عندي على الإطلاق، وربما نحن نفكر في هذا الأمر هنا بعدما انتشرت الشائعات في المدينة عن ملاحقة الأمريكيين لي، وسوف أرتب أن يشارك عبد

العظيم في نشرة الساعة الرابعة، وقد رتبت الأمور مع رئيس مجلس الإدارة وسوف نبلغك بما سنتوصل إليه من قرارات بعد اجتماعي مع الزملاء".

شعرت أن الأمور انقلبت رأساً على عقب في وقت قصير، وكان استشهاد حسين سمير قد أخاف الناس جميعاً منا، لذا جلست أنا وعبد العظيم وسيف وحامد - فلم يعد سوانا من فريق الجزيرة في المدينة - لنتباحث في الأمر، وقال سيف: "إن القوات الأمريكية سوف ترصدنا في أي مكان نذهب إليه من خلال إشارة الستلايت التي نرسلها من على الأجهزة إلى القمر الاصطناعي ومن المؤكد أنهم يرصدونها كإشارة معادية، وربما هذا سوف يمثل خطورة دائمة على المكان الذي نتواجد فيه أو المنطقة بشكل عام". ثم تحدث عبد العظيم وحامد عن الظروف التي أصبحنا فيها بحيث لم يعد لنا مكان نأوي إليه، وحينما تحدثت في النهاية قلت لهم الكلام الذي ربما كانوا يشعرون بالحرج من قوله لي والذي يجب أن نتكلم فيه بصراحة فقلت:" أنتم في النهاية من أهل المدينة، ويمكن أن تذهبوا إلى بيت أي من أقاربكم أو معارفكم، أما أنا فبصراحة شديدة أصبحتُ المشكلة لكم ولأهل المدينة، فكلما رآني أحد أمشي في الشارع حذرني من أن هناك من يتتبعني أو يسأل عني، والأمريكيون يتوعَّدونني ويطالبون بخروجي من المدينة، والجنرال كيميت وجَّه لي اتهامات بالاسم أمس، ووفد مجلس الحكم أبلغكم في الصباح بضرورة خروجي، وأنا جئت إلى هنا وأقمت بين الناس من أجل نقل الحقيقة وتقديمها للعالم حتى نحفظ عليهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وأعتقد أننا والحمد لله قد حققنا ما نستطيع من هذا، كما أن كل شيء في الحياة يكون ناجحاً إذا تم في توقيته، وكما وقَّت الله لنا الدخول، ونجحنا في دخول المدينة في الوقت المناسب وأدينا رسالتنا وواجبنا، ليس هناك مجال للعناد في البقاء أكثر من ذلك، بالنسبة لي، ولا أريد أن يقال إن بقائي أحد أسباب استمرار القصف على المدينة حتى أخرج، كما أن الحصار يعتبر انتهى ولو جزئياً حيث يخرج الناس الآن ويدخلون إلى المدينة وإن كان من الطرق الفرعية".

شعرت بارتياح لا سيما من حامد وعبد العظيم، فأنا في النهاية ضيف عليهم قبل أن أكون زميلاً لهم، وقد أكرموني أكرمهم الله وأكرمني أهلهم ومعارفهم، ووفَّروا كل الأسباب والوسائل التي جعلت دوري ودور جميع الزملاء

ودور قناة الجزيرة ناجحاً ومميزاً في تغطية أحداث معركة الفلوجة وحصارها، وأعطى لها السبق في تغطيتها لكل أحداث المعركة، وينبغي أيضاً ألا أسبب لهم حرجاً أكثر من ذلك، حيث إنهم يستطيعون تدبير أمر أنفسهم، لأنهم من أهل المدينة أولاً وأخيراً، حينها قال المهندس سيف: "أنا سأخرج معك إن خرجت وأبقى معك إن بقيت". قلت له: "وجهاز الستلايت من الذي سيديره؟" قال: "إذن سأذهب إلى بغداد لرؤية أهلي وزوجتي وأولادي، وطالما أن الطريق قد فتح فسوف أعود خلال يوم أو يومين". قلت له: "لا بأس". ولم يمانع حامد وعبد العظيم، وقالوا: "ربما لو توقفنا عن البث يوماً أو يومين نكون قد أعطينا الفرصة لأهل المدينة أن يعرفوا أن الأمريكيين لن يتوقفوا عن قصف المدينة حتى لو خرجنا منها"، كما أن أمر الخروج والدخول من وإلى المدينة أصبح سهلاً الآن. شارك عبد العظيم في نشرة الساعة الرابعة، وكنت أعد نفسي لحضور جنازة حسين سمير بعدما أبلغت حامداً بأنه استشهد متأثراً بجراحه، فخرج حامد إلى المستشفى ليدبر أمر الجنازة، لكن النهار بدأ ينقضي دون أن ندري أين سنبيت، قال عبد العظيم: سأذهب إلى المستشفى لأبحث إن كانت هناك سيارة إسعاف أو سيارة إغاثة عائدة إلى بغداد لكي تذهب فيها أنت وسيف اليوم، وإن لم يكن سنحاول تدبير مكان نبيت فيه الليلة إلى الغد صباحاً ربما نجد سيارات من التي تحمل الجرحى أو التي جاءت بمؤن وهي عائدة فتذهب فيها". قلت له: "لا بأس".

كان منذر موجوداً فلم يتردد في عرض بيته علينا، وقال: بيتي بعيد قليلاً عن المستشفى عند مسجد الراوي، لكنه بيتكم. وبالفعل علمت بعد ذلك أن الزملاء عبد العظيم وحامد والذين عادوا من فريق الجزيرة ذهبوا للإقامة في بيت منذر، فقد كان نعم الناس.

بدأ الحزن يملأ نفسي لشعوري بأني أُجبرت على الخروج من المدينة، كنت أريد أن أبقى مع أهلها حتى يعود المهجرون إلى بيوتهم وحتى يأمن الخائفون في بيوتهم، وجلست أنتظر ما الذي سوف يعود به عبد العظيم بعدما ذهب حامد إلى المستشفى ليرى كيف سيتم ترتيب دفن زوج شقيقته حسين سمير.

لم يمض على معرفتي بحسين سمير سوى يوم واحد فقط أو أقل لكنه كان بشوشاً وكريماً إلى حد بعيد، وحينما لقيته شعرت أني أعرفه منذ زمن بعيد، كان في الأربعين من عمره، وكان لديه شاحنة يملكها ويعمل عليها، وترك خلفه ولدين وبنتين، وقد حزنت عليه كثيراً، فالمشاعر التي تنتاب نفس الإنسان تجاه شخص تعرّف عليه قبل ساعات وتناول الطعام في بيته وأصر على أن يكون عشاء يومنا التالي عنده، وكان يأتي ليتفقدنا من آن لآخر، ثم يصبح شهيداً بعد ساعات، مشاعر غريبة للغاية، الأعمار والنهايات والخواتيم دائماً بيد الله، ولكن ما شعورك أنك تناولت عشاءك أمس مع شخص اختاره الله شهيداً بعد ساعات؟ ومتى؟ بعد أدائه صلاة الظهر وخروجه من المسجد، لذلك كنت حريصاً على حضور جنازته ومواساة أهله، لكن عبد العظيم جاء مسرعاً من المستشفى وقال لي: "هيا يا أحمد هناك شاحنة صغيرة بيك أب كانت تحمل مساعدات ستعود الآن إلى بغداد، وقد رحَّبوا بأخذك معهم، وهناك سيارة إسعاف تحمل جرحى يمكنك أيضاً أن تذهب فيها لكن لا أدري متى ستتحرك؟، لكن ربما الشاحنة تكون أفضل رغم أنها صغيرة". قلت له: "لا بأس سأذهب مع الشاحنة"، قال: سأذهب لأخبرهم حتى يأتوا إلى هنا لأخذك فمن الأفضل ألّا تذهب إلى هناك حيث يتجمهر الناس، ويفضل أن نتكتم على أمر خروجك من المدينة".

الفصل الخامس

حرب بوش ورجاله على قناة الجزيرة

بعد يوم طويل ودامٍ كانت الشمس تميل فيه نحو المغيب، وقفت أرقب الاشتباكات المتقطعة بين رجالٍ المقاومة والقوات الأمريكية المحاصرة لمدينة الفلوجة من على سطح مبنى المجمَّع الطبّي الذي اتخذناه مقراً للبث وذلك في يوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان 2004، في نفس الوقت كنت أتابع مع الزملاء آخر الأخبار والتطورات لما يحدث في أنحاء المدينة وعلى أطرافها من مصادرنا المختلفة داخل المدينة وخارجها، ونترقب أي اتصال من مقر قناة الجزيرة في الدوحة لنوافيهم بآخر ما لدينا من أنباء، في هذه الأثناء بلغنا أن انفجاراً وقع في العاصمة بغداد انشغل الزملاء هناك بتغطيته، وهذا سبب تأخر الزملاء في الدوحة في الاتصال بنا.

ورغبة مني في التعرف على الصورة قررت أن أتصل بالزميل وضاح خنفر مدير قناة الجزيرة كي أسأله عن آخر التطورات لديهم؟ وكيف سيقومون بتغطية أحداث باقي اليوم؟ وما هو المطلوب منا إخبارياً للمشاركة في البث خلال الساعات القادمة حتى نعد أنفسنا له؟ وما إذا كانوا سيعودون إلينا لأية تغطية مباشرة أم أمنح الزملاء العاملين معي في الفلوجة قسطاً من الراحة التي لم يذوقوها منذ الصباح الباكر؟، كما أن سطح المبنى الذي نقدِّم تغطيتنا منه خطر جداً ومكشوف إلى حد بعيد، ويمكن اصطيادنا بسهولة من قبل القناصة الأمريكيين أو بالقصف العادي أو حتى بالمدفعية الرشاشة ومن كافة الجوانب، فالقوات الأمريكية كانت لا تبعد عنا إلا بضع مئات من الأمتار، وكثير من الناس

كانوا يحذروننا منذ الصباح بأن مكاننا مكشوف وسهل القصف، ولكن ماذا نفعل؟ إنه أفضل مكان يمكن أن نمارس عملنا منه.

ما إن سمع وضاح صوتي على الهاتف حتى قال لي بدعابة أعهدها منه دائماً حينما تكون هناك مشكلات سياسية بعد أحد برامجي: "دمرتنا يا أحمد منصور... هل سمعت ما قاله عنك الجنرال مارك كيميت نائب قائد القوات الأمريكية في العراق؟"، قلت له متعجباً: الجنرال كيميت!! ماذا قال كيميت؟

قال: "الآن وعلى شاشة الجزيرة". قلت له: "للأسف أنت تعلم أني لا أتابع إلا ما حولي من معارك، ولا يوجد بالقرب مني جهاز تليفزيون لأتابع ما يبث".

قال: "لقد انتقدك الجنرال مارك كيميت بشدة وشن عليك هجوماً شديداً وتحدث عنك بالاسم وقال في مقابلة أجراها معه الزميل محمد كريشان: "إن مراسلكم أحمد منصور يغذي مشاهدي الجزيرة بالأكاذيب من الفلوجة".

ما إن سمعت من وضاح ما قاله عني الجنرال كيميت ورغم كل ما أنا فيه من هم وإرهاق وعناء ومعاناة ومرارة انفجرت في الضحك، وقلت له: "هل تمزح يا وضاح أم أنت جاد؟" قال: "بل أنا جاد جداً ويمكنك البحث عن أي تليفزيون قريب ومشاهدة ذلك، فنحن سوف نبث تلك التصريحات التي قالها عنك في نشرات الأخبار القادمة؟".

قلت له: "لكن ما أعرفه أنه ليس معهوداً من المسؤولين سواء كانوا عسكريين أو سياسيين أن يهاجموا صحفيين بالاسم ودائما يهاجمون قناة الجزيرة دون تحديد لأسماء مذيعين أو مراسلين؟". قال: "هذا ما حدث؟ ولدي خبر آخر لكن أرجو ألا تنزعج منه. قلت له: ما هو؟ قال: بلغنا أن القوات الأمريكية تطالب بخروجكم من الفلوجة، وتعتبر خروج فريق الجزيرة من الفلوجة هو الشرط الأول لأي عملية لوقف إطلاق نار تقوم بها، وهذا أمر لم يعلنوه صراحة لكننا علمنا به من مصادر لنا قريبة من الوفد الذي سوف يرسلونه غداً صباحاً للتفاوض مع وجهاء المدينة حول وقف إطلاق النار، وقمنا أيضاً ببث هذا الخبر منذ الصباح في نشرات الأخبار بعدما تأكدنا من صحته، ومن المقرر أن يصل

الفلوجة اليوم أو غداً وفد يمثل مجلس الحكم من بين أعضائه حاجم الحسني الذي يمثل الحزب الإسلامي والشيخ غازي الياور - الذي عينوه رئيساً للعراق بعد ذلك -، لكن لا عليك يمكنك أن تواصل عملك وفريق الجزيرة، حتى تتضح الأمور بشكل جلي"، قلت له: "إن خروجنا من المدينة والناس يموتون من حولنا ولا يوجد غيرنا لنقل هذه المآسي عبر التليفزيون إلى العالم هو أمر غير أخلاقي من قبلنا إذا قمنا نحن به، كما أن معظم السكان المحاصرين هنا من الرجال والنساء والأطفال والعجائز، يعتبروننا نافذتهم على العالم، لذا فإننا لن نغادر المدينة إلا إذا أجبرنا على ذلك". قال وضاح: "لا عليك واصل عملك أنت وزملاءك والله معكم".

أبلغت وضاحاً أيضاً أن المصوِّرَيْن ليثاً وحسيناً وصل بهما التعب مبلغه ولم تعد بهما قوة لمواصلة العمل لذا سوف يعودان إلى بغداد غداً السبت صباحاً مع بعض القوافل التي تمكنت من دخول المدينة لنقل الأغذية والمساعدات الطبية وإخلاء الجرحى، وسوف يقوم حامد وعبد العظيم بالتصوير بدلاً منهما حتى يأتينا مصوران بدلاً منهما من بغداد.

أيضاً هناك أمر آخر وهو ما اتصلت معك بشأنه: "هل ستعودون إلينا مرة أخرى لأية تغطيات مباشرة خلال الساعة القادمة على الأقل أم أعطي الزملاء هنا فرصة للاستراحة"؟ قال: "وقع قبل قليل تفجير في بغداد قرب مكتب قناة الجزيرة، والزملاء هناك مشغولون بتغطيته، ولو منحت الزملاء عندك فرصة للاستراحة يكون أفضل وربما نعود إليك بعد ساعة".

انتهت مكالمتي مع وضاح، وقلت للزملاء وأنا أرى الإجهاد يفتك بهم جميعاً وبي: يمكننا الاستراحة لمدة ساعة، ولكن كونوا حذرين ربما نعود للبث في أي لحظة؟ قال المهندس سيف: هل أعطي مولد الكهرباء راحة هو الآخر أم أتركه؟ قلت له بابتسامة مرهقة: أعطه راحة هو الآخر لقد تعب كثيراً.

كان الجنرال مارك كيميت يعقد مؤتمرات صحفية يومية في مقر قيادة القوات الأمريكية في بغداد صباحاً ومساء، يتحدث فيها للصحفيين عن التطورات العسكرية اليومية من وجهة النظر الأمريكية الرسمية، وكنت أنا من الفلوجة مع فريق قناة الجزيرة نعكس وجهة النظر والحقائق على الأرض من خلال الصور

والناس والأحداث، فكنا في مواجهة أو بالأحرى معركة إعلامية غير مباشرة طوال الوقت أنا من الفلوجة وهو من بغداد.

ورغم محاولات كيميت في مؤتمراته الصحفية صرف أنظار الصحفيين عن الفلوجة بالحديث عن أحداث أخرى في مناطق مختلفة من العراق أهمها ما كان يحدث في كربلاء والنجف من مواجهات بين أنصار مقتدى الصدر والقوات الأمريكية، إلا أن تغطيتنا لأحداث الفلوجة قفزت بها إلى الخبر الأول على شاشات التلفزة العالمية بسبب وجودنا وحدنا هناك وتغطيتنا لحرب يقوم بها أقوى جيوش العالم متسلّحاً بكل الأسلحة الفتاكة ضد مدينة رفض أهلها الإهانة والذل والضيم الذي مارسه الأمريكيون عليهم طوال عام، وإلا لو غابت الجزيرة ولم تكن موجودة في الفلوجة في أبريل/نيسان 2004 ـ كما قال كثير من المراقبين ـ لحدث للمدينة في ذلك الوقت ما حدث لها بعد ذلك في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، فقد كانت خطة "إخضاع الفلوجة" كما أشار بريمر في مذكراته جاهزة للتطبيق.

لم يكن الجنرال كيميت يستطيع الفكاك من حصار الصحفيين له بالأسئلة عما يدور في الفلوجة لا سيما وأننا كنا المصدر الرئيسي بل والوحيد للصور والأخبار التي تبث من المدينة، بينما كان هناك كالعادة صحفيون أمريكيون مصاحبون للقوات الأمريكية ينقلون الصورة من طرفها الآخر، ولم تكن لدى الجنرال كيميت سوى إجابة واحدة كلما قال له أحدهم "الجزيرة نقلت كذا وقالت كذا من الفلوجة ما ردك؟" فظل يجيب على الجميع: "الجزيرة تبث الأكاذيب ما عليكم سوى تغيير القناة لتتحاشوا الأكاذيب التي تروجها". وقامت قناة الجزيرة ببث تصريحات الجنرال كيميت هذه مرات عديدة خلال أيام عملنا في الفلوجة، بل إنها في النهاية صنعت منها دعاية إعلانية كانت تبثها على مدار الساعة.

ولا شك في أن الوضع المحرج للقوات الأمريكية التي كانت تحاصر المدينة قد بلغ مداه يوم الجمعة ـ كما أشار الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر في مذكراته التي نشرت تحت عنوان "عام قضيته في العراق" ـ بعدما أصبحت هي الأخرى محاصرة من قبل قوات المقاومة التي تداعت من شتى أنحاء العراق وقطعت كافة الإمدادات عن القوات الأمريكية بل وقطعت الطرق أيضاً، وأصبح

المأزق الأساسي الذي تواجهه القوات الأمريكية هو التغطية التي كنا نقوم بها من داخل المدينة.

وتأكيداً لما ذكره وضاح لي من أن القوات الأمريكية قد اشترطت خروجنا من المدينة لتحقيق أي وقف لإطلاق النار، ما ذكره بول بريمر في الصفحة 422 من مذكراته ـ التي سبق وأن أشرت إليها ـ حيث قال عما حدث في يوم الجمعة 9 أبريل/نيسان صباحاً: "تحدثت أنا والجنرال جون أبي زيد وسانشيز وبلاكويل لمدة نصف ساعة أخرى، فقال جون إنه يتفهم أن الوضع السياسي لا يسمح بمواصلة الهجوم على الفلوجة الآن، وبحثنا هل سيتمكن وفد مجلس الحكم من تهدئة الأمور بالشكل الكافي لكي توقف الجزيرة نقلها للأخبار".

إذن كانت مهمة أساسية لوفد مجلس الحكم كما قال بريمر أن يتم إيقاف الجزيرة عن بث الأخبار من الفلوجة، وهذا ما أبلغه الوفد للزميل عبد العظيم محمد في اليوم التالي السبت 10 أبريل/نيسان صباحاً، وهذا أيضاً ما دفع كيميت بعد عدة أيام من مهاجمتنا كقناة في المؤتمرات الصحفية إلى أن يهاجمني أنا شخصياً في حواره مع الزميل محمد كريشان على شاشة الجزيرة يوم الجمعة 9 أبريل/نيسان.

وأذكر هنا أن الزميل أحمد السامرائي وهو كان أحد مصوري قناة الجزيرة الذين يغطون المؤتمرات الصحفية للجنرال مارك كيميت في مقر قيادة القوات الأمريكية في بغداد أبلغني أن الجنرال كيميت كان غاضباً مني للغاية وتحدث معه أكثر من مرة شاكياً مني بمرارة ومن التغطية التي كنا نقوم بها من الفلوجة، لا سيما وأن كيميت كان يتعرض لحصار يومي ومواجهة من الصحفيين لسؤاله عما نقوم ببثه من أخبار الدمار والخراب والقتل واستخدام الأسلحة المحرمة وقتل النساء والأطفال وغير ذلك من الأحداث الأخرى المصورة. وكان الزملاء في نشرات الأخبار المختلفة ينقلون لي في أسئلتهم ما يقوله الجنرال كيميت عن الأوضاع في الفلوجة وأقدم لهم بالصور والدلائل الدامغة الحقائق على الأرض والمخالفة تماما لما يقوله كيميت، فكان الجنرال يبدو أمام الجميع أنه هو الذي يروِّج الأكاذيب وليس أنا.

بقيت أنا والجنرال كيميت ـ دون أن أدري ـ منذ دخولي إلى الفلوجة حتى

خروجي منها في معركة ليس بالسلاح وإنما على شاشات التلفزة، هو يدَّعي ما يريد، وأنا أخرج بالصور والحقائق الدامغة المنافية تماماً لكل تصريحاته. وكان واضحاً أن كيميت كان يشاهدني ويتابعني بدقة ويتم ترجمة ما أقدمه للمشاهدين له، وربما ليس هو فقط الذي كان يتابعني - كما ظهر فيما بعد - ولكن كان كل صانعي القرار في الولايات المتحدة يتابعون ما يبثه فريق الجزيرة من الفلوجة، بينما كنت نادراً ما أتابع مؤتمراته الصحفية لأني كنت طوال الوقت إما أدور في أنحاء المدينة لأرصد وأتحقق من معاناة أهل الفلوجة ومآسيهم، وإما أتابع مع الزملاء ما يقومون به حتى نقدم صورة دقيقة عن الأحداث ما استطعنا، ولم أكن أعلم بادعاءات كيميت إلا من خلال ما ينقله الزملاء لي.

وأذكر أنه في يوم التاسع من أبريل/نيسان أعلنت القوات الأمريكية عن وقف لإطلاق النار من جانب واحد، لكني في الوقت الذي كانوا يعلنون فيه وقف إطلاق النار من جانب واحد نقلت للمشاهدين وللعالم أجمع وعلى الهواء مباشرة أحداثاً لمعارك حية اندلعت لأكثر من ساعة بعد صلاة الجمعة بين المقاومة والقوات الأمريكية التي كانت تشن بطائراتها هجوماً شديداً على حي الجولان شمال غربي المدينة، وكنا نراه رأي العين من موقعنا على سطح المركز الطبي والذي لم يكن يبعد عن مكان القصف إلا بضع مئات من الأمتار، فكان هذا مأزقاً شديداً للجنرال كيميت وللإدارة الأمريكية بشكل عام.

وفي اليوم التالي وهو العاشر من أبريل/نيسان 2004 أكد الجنرال كيميت في مؤتمره الصحفي صباحاً على قرار وقف إطلاق النار في الوقت الذي كنت في بث مباشر مع الجزيرة، وكانت الطائرات الأمريكية تقصف حولنا وأطراف المدينة مما أوقع كيميت في حرج بالغ وكبير أمام الصحفيين من جديد، والعجيب أنهم حينما كانوا يواجهون بهذه المعلومات والصور التي كانت تؤكد كذبهم وقصفهم للمناطق السكنية رغم إعلانهم لوقف إطلاق النار كانوا يقولون بأنهم يدافعون عن أنفسهم، ويبدو أن الجنرال كيميت لم يكن وحده الغاضب من تغطيتنا ولكن الغضب كان مستبداً بالإدارة الأمريكية كلها وعلى أعلى المستويات حتى وصل الأمر بالرئيس الأمريكي نفسه جورج بوش أن يخبر رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بعد ذلك بأيام وتحديداً أثناء لقائهما في واشنطن في 16 أبريل/نيسان

2004 بأنه سيقوم بقصف مقر قناة الجزيرة في الدوحة وبعض مكاتبها في الخارج.

بوش يعلن الحرب على قناة الجزيرة

لم يكن الهجوم الذي شنه الجنرال مارك كيميت ضدي في التاسع من أبريل/ نيسان إلا مقدمة لحرب قام معظم أركان الإدارة الأمريكية بشنها على قناة الجزيرة بشكل عام، وجانب منها على أحمد منصور بشكل خاص بسبب تغطيتي التليفزيونية لمعركة الفلوجة.

المسؤولون الأمريكيون وعلى رأسهم وزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد ونائبه بول وولفويتز الذي أصبح رئيساً للبنك الدولي ثم أجبر في مايو/أيار من العام 2007 على الاستقالة بعد الفضيحة المدوية بتورطه بمحاباة عشيقته لم يتوقفوا عن شن هجمات متكررة على قناة الجزيرة منذ بداية الحرب على العراق في 19 مارس/آذار من العام 2003 وحتى معركة الفلوجة الأولى في أبريل/ نيسان من العام 2004 واتهامها مرات عديدة بأنها "تروِّج الأكاذيب" و"تسيء لجهود أمريكا في العراق" و"تتعاون مع مقاومين عراقيين" وتبث "السم والكذب" و"تؤيد صدام حسين وتعارض التحالف". واعتبرها توني بلير رئيس الوزراء البريطاني الحليف الأكبر لأمريكا في تصريحات نشرت له في 22 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2003 بأنها "أسوأ أعداء العراق الحقيقيين".

وكانت كل هذه الاتهامات تزيد من مصداقية الجزيرة ومكانتها لدى المشاهدين ليس في العالم العربي فحسب وإنما في جميع أنحاء العالم، حتى أصبح شعار قناة الجزيرة يحتل المرتبة الخامسة من حيث الشهرة كعلامة تجارية عالمياً بشكل عام والأولى بين وسائل الإعلام بشكل خاص، وكانت هذه الهجمات والانتقادات ضد قناة الجزيرة تتم بشكل دائم دون توقف، وفي بعض الأحيان كان الناطق باسم قناة الجزيرة آنذاك الزميل جهاد بلوط يرد على بعضها وفي أحيان كثيرة لا تعلق الجزيرة على شيء.

لكن الهجوم على قناة الجزيرة أثناء وبعد تغطيتنا لمعركة الفلوجة الأولى

أخذ منحى آخر، فالهجوم العام تحوَّل إلى تحديد شخص بالاسم لأول مرة هو "أحمد منصور"، ولغة الاتهام أخذت بعداً آخر في تصريح أدلى به وزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد حمل روح التهديد والعداء والكراهية للجزيرة، فقد قال غاضباً في الخامس عشر من أبريل/نيسان 2004 وعلى شاشات التليفزيون من خلال المؤتمر الصحفي الذي كان يعقده في وزارة الدفاع في واشنطن وتحديداً كان يعلق على تغطيتنا لمعركة الفلوجة: "أستطيع القول وبشكل قاطع إن ما تفعله الجزيرة عمل شرير وغير دقيق ولا يمكن تبريره". وكان هذا التصريح قبل يوم واحد من الاجتماع الذي عقد بين الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير في السادس عشر من أبريل/نيسان 2004 والذي أخبر فيه بوش بلير بأنه ينوي قصف مقر قناة الجزيرة في الدوحة وبعض مكاتبها في الخارج.

أما الرئيس جورج بوش الذي كان يتجنب ذكر اسم الجزيرة بشكل مباشر في ذلك الوقت، فقد عبر عما سببته تغطية الجزيرة لمعركة الفلوجة من حرج له ولإدارته بعد اجتماع عقده مع مساعديه للأمن القومي في تصريحات نقلتها صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية في عددها الصادر يوم الخميس التاسع والعشرين من أبريل/نيسان من العام 2004 جاء فيه: "إن صور القتال الشرس في الفلوجة ستثير تمردات في أرجاء العراق وغضباً في أرجاء العالم العربي".

أما يوم الثلاثاء 27 أبريل/نيسان 2004 فقد نقلت المصادر الإخبارية المختلفة ومنها قناة الجزيرة أن وزير الخارجية الأمريكي كولن باول قد خصص الجزء الرئيسي من اجتماعه مع وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني في لقاء تم بينهما في مقر وزارة الخارجية في واشنطن للحديث عما تبثه قناة الجزيرة من أخبار حول وضع القوات الأمريكية في العراق بشكل عام والتغطية التي قام بها فريق قناة الجزيرة لمعركة الفلوجة على وجه الخصوص.

وقد قال باول للصحفيين أمام مقر الخارجية الأمريكية في أعقاب الاجتماع: "إن الصداقة بين البلدين تسمح لنا ببحث القضايا الصعبة التي تعترض علاقتنا مثل مسألة تغطية قناة الجزيرة"، بينما رفض وزير الخارجية القطري التعليق في شكل بدا فيه الأمر وكأن الجو كان متوتراً للغاية بين الطرفين.

كما عقد لقاء آخر بين وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني مع نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني وكان محوره كما أشارت بعض المصادر هو الحديث أيضاً عن تغطية فريق قناة الجزيرة لمعركة الفلوجة التي أغضبت الأمريكيين على أعلى المستويات بشكل كبير.

في أعقاب ذلك وفي نفس اليوم قام الناطق باسم الخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر في المؤتمر الصحفي الذي عقد في مقر وزارة الخارجية الأمريكية بالحديث عن اللقاء الذي تم بين الوزيرين الأمريكي والقطري، ثم شن هجوماً على قناة الجزيرة وعلى تغطيتها لأحداث الفلوجة والتقارير التي كنت أقوم ببثها أثناء تغطية المعركة وذكرني بالاسم مرة ثانية بعدما ذكرني كيميت من قبل، وذلك بعدما أصبح اسمي يتردد على ألسنة الصحفيين الأمريكيين ووسائل الإعلام الأمريكية بشكل كبير، واتهمني باوتشر كما سبق وأن اتهمني الجنرال مارك كيميت بأني كنت أبث "الأكاذيب من الفلوجة"، وأكَّد أكثر من مرة للصحفيين الذين أحرجوه وأمطروه بالأسئلة حول التقارير التي كنت أبثها بأنها كانت مقرونة بالصور لا سيما عن مقتل المدنيين من النساء والأطفال، فكان تارة يصفها بأنها "مبالغ فيها" وتارة أخرى بأنها "كاذبة"، وطوال ثلاث عشرة دقيقة من وقت المؤتمر الصحفي الذي حضره زميلنا ثابت البرديسي مراسل قناة الجزيرة في واشنطن، كان الرد الدائم من باوتشر على الصحفيين لا يخرج عن اتهامي بالكذب أو المبالغة أو يقول: "ما أعرفه أن تقارير مراسل الجزيرة أحمد منصور تقارير كاذبة".

وقد أعد الزميل ثابت البرديسي مراسل الجزيرة في واشنطن تقريراً حول هذا الهجوم الذي شنه الناطق باسم الخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر عليَّ وتم بثه في نشرات الأخبار على شاشة الجزيرة. وفي حوار للبرديسي على الهواء مع الزميل جميل عازر حول الهجوم الذي شنه باوتشر عليَّ في مؤتمره الصحفي بث في نشرة التاسعة مساء ذلك اليوم تساءل جميل عازر مستنكراً ومستغرباً هجومهم علينا، وهو يتابع ما جاء في التقرير مع الزميل ثابت البرديسي قائلاً: "هل يريدون منا أن نغلق عدسات الكاميرات ولا نصور ما يحدث؟".

وكانت هذه هي المرة الثانية التي يذكر فيها مسؤول أمريكي رفيع المستوى اسمي تحديداً "أحمد منصور" ويتهمني بالكذب، في سابقة غير معهودة في الصراعات الدولية أن يقحم اسم أحد الصحفيين وتوجه له الاتهامات لأنه ينقل الحقيقة كشاهد عليها من خلال التقارير المصورة التي قدمتها للمشاهدين وللعالم والتي بثتها قناة الجزيرة ونقلتها عنها معظم وسائل الإعلام العالمية، ولم يستطع أن يشكك في مصداقيتها أو الصور المصاحبة لها أحد.

ومن الضغوط التي مارسها الأمريكيون أيضاً عليَّ في هذا الوقت، أنه بعد عودتي من الفلوجة بعدة أيام اتصل بي الزميل أحمد الشيخ رئيس تحرير غرفة الأخبار وقال لي: "لديَّ بعض الأوراق لك، أرجو أن تمر عليَّ للاطلاع عليها"، وحينما التقيت مع أحمد الشيخ، وجدت رسالة مطولة في عدة صفحات صادرة من قبل "مكتب الاتصالات الاستراتيجية - لقوات التحالف في بغداد - وحدة الإعلام العربي" - أي القوات الأمريكية وحلفاءها - وعلمت أن الرسالة كانت مرسلة للحكومة القطرية التي أرسلتها بدورها لقناة الجزيرة، وكانت تحوي رصداً لكل ما قدمته على شاشة الجزيرة أثناء تغطيتي للحرب في الفلوجة، واحتجاجات من قبل قوات التحالف على ما قدمته - وكذلك على ما قدمه بعض الزملاء من مقدمي نشرات الأخبار لكن التركيز كان على أحمد منصور في كل الصفحات - لا سيما في التقارير التي أشارت إلى قيام الولايات المتحدة بقتل النساء والأطفال في الفلوجة واستخدامها أسلحة محرمة دولياً مثل القنابل العنقودية. وقال أحمد الشيخ: "إنهم يطلبون رداً على هذه المعلومات". قلت له: "لقد كان كل شيء مصوراً لا سيما الإعداد الهائلة من القتلى والجرحى من النساء والأطفال، وما يتعلق بالأسلحة المحرمة دولياً نحن نقلنا تقارير وصوراً عن أهل المدينة وما حل بهم، وهناك تقارير دولية كثيرة أشارت إلى استخدامهم الأسلحة المحرمة بما فيها القنابل العنقودية وكل ما قلناه كان موثقاً، كما أننا لسنا في حالة اتهام حتى نرد عليهم".

ما تعجبت له هو كيف أنهم قلبوا جرائمهم بعدما كشفناها وقدمناها للناس موثَّقة بالصور إلى اتهامات لنا ويريدون منا أن نرد عليها، فكان الأمر يمثل قمة التدليس والصفاقة والسخافة، فبدلاً من الاعتراف بجرائمهم التي ارتكبوها بحق

أهل الفلوجة وأهل العراق بشكل عام، أو حتى يسكتوا عنها إذا بهم يتهموننا، وتهمتنا هي فضح وكشف هذه الجرائم، وكان هذا واحداً من الأساليب الرديئة التي استخدموها للضغط علينا. وفي ملحق الوثائق يمكن الاطلاع على صفحة من هذا التقرير.

لم يتوقف الهجوم الأمريكي على أحمد منصور عند حد اتهامات الجنرال كيميت والناطق الرسمي للخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر، ولكن العشرات من الصحف ووسائل الإعلام الأمريكية التي تناولت تغطية قناة الجزيرة لمعركة الفلوجة كانت تتحدث بالاسم هي الأخرى عني، حتى إن عدد المقالات والمقابلات الإذاعية والتليفزيونية التي رصدت ما قيل عني يصعب حصرها، ويكفي لأي قارىء أن يدخل على موقع غوغل للبحث على شبكة الإنترنت ويكتب بالإنجليزية "أحمد منصور أبريل/نيسان 2004" وهي فترة تغطيتي لأحداث الفلوجة سيجد أكثر من مئة وثمانين ألف عنوان ورابط لمصادر غربية تناولتني فقط خلال هذه الفترة، وقد اطلعت على بعضها فوجدت كثيراً منها كُتب بلهجة مليئة بالأكاذيب والتجني عليَّ، ويمثِّل أغلب كُتَّابها التيار اليميني الموالي للإدارة الأمريكية، كما وجدت أن بعضها كُتِب بشكل خبري بحت، وبعضها تحدث عن أن تغطيتي لمعركة الفلوجة أدت إلى إساءة العلاقات بين الحكومتين الأمريكية والقطرية، وكثير منها ربط بين تغطيتي لمعركة الفلوجة وبين الوثيقة التي سُرِّبت للصحافة البريطانية بعد ذلك وتحدثت عن مخطَّط كان لدى الرئيس الأمريكي بوش لقصف مقر قناة الجزيرة ومكاتبها تشاور فيه مع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير حينما التقيا في واشنطن في 16 أبريل/نيسان عام 2004، ومن بينها مقالات كتبها في صحف أمريكية كُتَّاب من العرب المتصهينين الكارهين لعروبتهم وأمتهم و كلها مقالات مليئة بالأكاذيب والاتهامات البعيدة تماماً عن التغطية المهنية، وبعضها مليء بالحقد والكراهية والتجريح الشخصي، وكثير من هؤلاء يدعون المعرفة لكن ما يكتبونه يؤكد على أنهم أجهل من الدواب وليسوا سوى مرتزقة وعملاء يعرضون بضاعة رخيصة مليئة بالأكاذيب لأجهزة استخبارات أكدت الأحداث أنها تتميز بالجهل والحماقة، وتبحث عن الأكاذيب حتى تلوث بها الشرفاء.

وكان اتهامي بالإرهاب والعلاقة بالإرهابيين من بين التهم الكثيرة التي وجهوها لي في تلك المقالات الحاقدة والكاذبة، وكنت على قناعة من أن الإدارة الأمريكية في ذلك الوقت كانت تبحث بدقة تامة في ملفي وسيرة حياتي وعلاقاتي الشخصية والمهنية في محاولة للبحث عن أي ثغرة يمكن أن توجه لي من خلالها أي اتهام لإدانتي بأي طريقة.

وقد اتصلت بي عشرات من وسائل الإعلام العالمية بعد خروجي من الفلوجة والعراق كل منها يريد أن يجري معي حواراً أو يأخذ مني تصريحاً أو تعليقاً أو رداً على الاتهامات التي كان رجال بوش يكيلونها لي سواء الرسميين أو الكتّاب الموالين لهم، أو رجالهم في الحكومة العراقية الذين حمل بعضهم على عاتقه مهمة تشويهي في المنتديات والمؤتمرات السياسية التي كانت تعقد في كل مكان دون أي دليل معتمدين على الافتراء والإفك والكذب الذي يتعيشون من ورائه، لكن الله كان يسخِّر لي في كل مكان من يدافع عني، فقد كانت اتهاماتهم كلها اتهامات باطلة لكنهم أدركوا أن استمرار ترديد الأكاذيب كل يوم وبكل وسيلة وفي كل مكان يمكن أن يحولها إلى حقائق، وسلاح الدعاية الذي كان معهم كان قوياً ولم يكن لهم غاية في ذلك الوقت إلا محاولة تدميري مهنياً ونفسياً وشخصياً عقاباً لي على أني قمت بتغطية معركة الفلوجة وكنت شاهداً عليها وفضحت جرائمهم وقدمت الحقيقة بالصور إلى الناس.

لكني قررت عدم الرد على أحد وعدم إهدار وقتي في حوارات ومقابلات تستنزفني وترهقني ولا أدري كيف سينشرها أو يقدمها الذين يطلبون مني إجراءها، فالإعلام الغربي له مقاصده وأهدافه التي عادة ما يحرف الحقائق من خلالها، وقلت للجميع: "أنا لست في وضع اتهام من أحد ولن أقبل من أحد أن يوجِّه لي أي اتهام، لقد كنت شاهد عيان أقوم بواجبي المهني والإنساني، وما شاهدته قدمته موثقاً بالصور والمعلومات، وأنا لم أنقل كل الحقيقة ولكن نقلت ما رأيته منها وهي جزء قليل من الحقيقة لأن ما حدث في الفلوجة هو أكبر بكثير من كل ما قدمته، وأنا ليس لديَّ مشكلة في الحقيقة التي قدمتها، ولكن المشكلة هي مشكلة من يريدون طمس هذه الحقيقة ويرددون الأكاذيب عني ويوجهون

الاتهامات لي ثم يريدون من الناس أن يصدقوهم، ومني أن أرد على اتهاماتهم الباطلة... أنا لن أرد على أحد".

وأذكر هنا الدور المساند القوي الذي قامت به الزميلة لميس أندوني، وكانت تعمل آنذاك محاضرة في جامعة كاليفورنيا بركلي الأمريكية، وقد اتصلت بي بعد خروجي من الفلوجة وأخبرتني أن كثيراً من الإعلاميين الأمريكيين المستقلين والمعارضين للحرب يرقبون الحملة الضارية التي يشنها عليَّ اللوبي اليميني المؤيد للحرب في وسائل الإعلام الأمريكية من مقالات في الصحف وبرامج إذاعية وتليفزيونية، وكثير من المنصفين منهم يقفون إلى جواري ويدافعون عني ومن أبرزهم أنتوني سولومون مدير منظمة مراقبة الدقة الصحفية في الولايات المتحدة وسامي الحسيني وهو صحفي وناشط في المؤسسة، وكثيرون آخرون غيرهم يدافعون ما استطاعوا رغم ضراوة الحملة، وطلبت مني أن أزوِّدهم ببعض المواد التي تساعدهم في محاولة رد الحملة الضارية عليَّ في وسائل الإعلام الأمريكية لا سيما وأنهم يُدعون للمشاركة في كثير من البرامج وبحاجة إلى معرفة وجهة نظري على الأقل في الاتهامات التي تكال لي كي يعرضوها.

وقالت لميس إنها تدعى كل يوم إلى أكثر من مقابلة للحديث عني وعن تغطيتي وتغطية قناة الجزيرة لمعركة الفلوجة في وسائل الإعلام الأمريكية، وعرضت عليَّ أن أشارك في بعضها، لكني أبلغتها بقراري أني لن أرد على أحد وأكتفي بمن يسخِّرهم الله للدفاع عني، وقد زوَّدتها مع سامي الحسيني بإجابات على عموم الأسئلة المثارة في وسائل الإعلام هناك.

ثم اقترحت عليَّ لميس أن أعدَّ بياناً أوزعه على منظمات حماية الصحفيين وجمعيات حقوق الإنسان الدولية في أنحاء العالم ألفت عنايتهم إلى ما تمارسه الإدارة الأمريكية والإعلاميون الأمريكيون الصهاينة واليمينيون ضدي، لأنها حملة ضارية ضد صحفي كل ما فعله هو أنه نقل الحقيقة التي كان شاهداً عليها عن قوة احتلال غاشمة كانت تقتل شعباً أعزل أو مدافعين عن مدينتهم، فإذا بهم يحولونه إلى متهم ويحاولون تجريمه وتشويه صورته، وأن أطالب هذه المنظمات من خلال البيان بالوقوف إلى جواري ضد الحملة الظالمة التي تقودها إدارة بوش ضدي مستشهداً بهجوم الجنرال كيميت والناطق باسم الخارجية ريتشارد

باوتشر والحملات الإعلامية المصاحبة، وأن أحمِّل المنظمات الصحفية وجمعيات حقوق الإنسان المسؤولية للدفاع عني والوقوف إلى جواري ضد هذه الحملة الظالمة.

وجدت ما عرضته لميس فكرة صائبة، وتحدثت فيها مع الشيخ حمد بن ثامر رئيس مجلس الإدارة والزميل وضاح خنفر المدير العام أن أقوم بها بشكل شخصي فوافقاني عليها، وبالفعل نشرت بياناً في 29 أبريل/نيسان من العام 2004 باللغتين العربية والإنجليزية ووزعته على كثير من جمعيات حماية الصحفيين وبعض منظمات حقوق الإنسان في معظم أنحاء العالم، ونشر على كثير من المواقع على شبكة الإنترنت، وقد بيَّنت فيه حجم الحملة الظالمة التي أتعرض لها من الإدارة الأمريكية والكتاب الموالين لها في التيار اليميني في الصحف ووسائل الإعلام الأمريكية، لأني لم أفعل شيئا سوى أني قلت الحقيقة التي كنت شاهداً عليها أثناء تغطيتي لمعركة الفلوجة وكنت شاهداً على الانتهاكات التي قامت بها القوات الأمريكية هناك لا سيما قتل النساء والأطفال وقدمت ذلك إلى الناس بالصور والحقائق.

لم أتوقع ردود الفعل الهائلة التي جاءتني من أنحاء العالم جراء هذا البيان. فقد تجاوب معي كثير من الجمعيات الصحفية ومؤسسات حماية الصحفيين، وقام بعضها مثل جمعية الصحافيين البريطانية بإرسال مذكرة احتجاج وطلب استفسار إلى وزارتي الدفاع والخارجية الأمريكيتين، ومثلها فعلت منظمات أمريكية وأوروبية لا سيما جمعيات حماية الصحفيين، كما قامت بعض منظمات حقوق الإنسان بحملات توقيع في شبكة الإنترنت للتضامن معي ضد الحملة الأمريكية الظالمة، لكن إدارة بوش لم تتوقف عن التحرش بي ومحاولات تلفيق الاتهامات لي، وكان أخطرها محاولة توريطي مع تنظيم القاعدة عبر الضغوط على الزميل سامي الحاج المعتقل ظلماً ودون اتهام في سجن غوانتامو منذ خمس سنوات.

محاولة توريطي مع تنظيم القاعدة

أثناء إحدى زياراته التي قام بها إلى الدوحة في إطار ترتيباته للدفاع عن الزميل



أحمد منصور يتفاوض مع أحد قادة الحواجز الأمريكية التي تحاصر الفلوجة للسماح لفريق الجزيرة بالدخول.



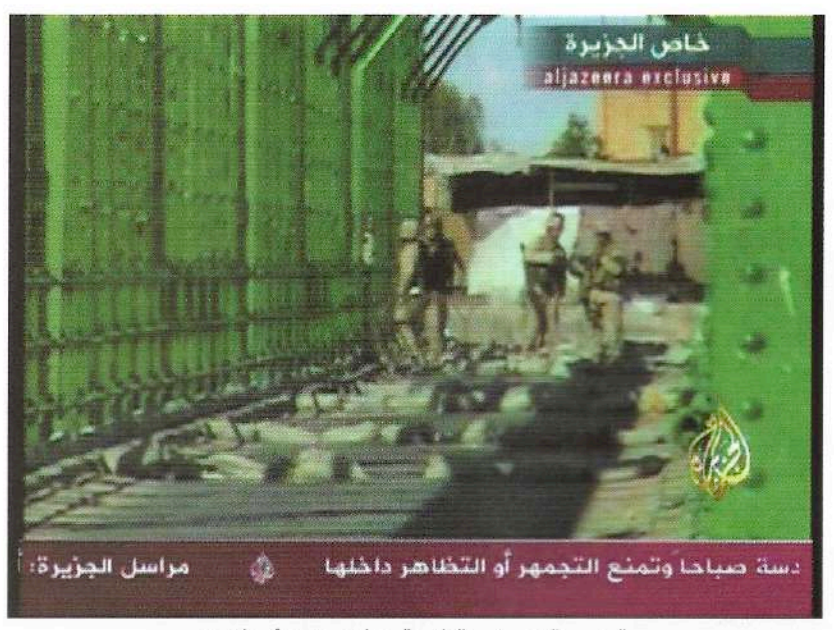
[illegible] كية تسد أحد الطرق المؤدية إلى الفلوجة.



جنود أمريكيون فوق أسطح ورش الحيّ الصناعيّ في الفلوجة.



قناصة أمريكيون في المبنى المواجه لمقر إقامة فريق قناة الجزيرة.



الجسر القديم في الفلوجة وعليه جنود أمريكيون.



تقصف حي الجولان في الفلوجة في بث مباشر.



دخان جراء القصف شرق الفلوجة.



16 أمريكية تقصف وسط الفلوجة.



مروحيات أمريكية اقتربت من أسطح المنازل في الفلوجة وهي تقصف البيوت.



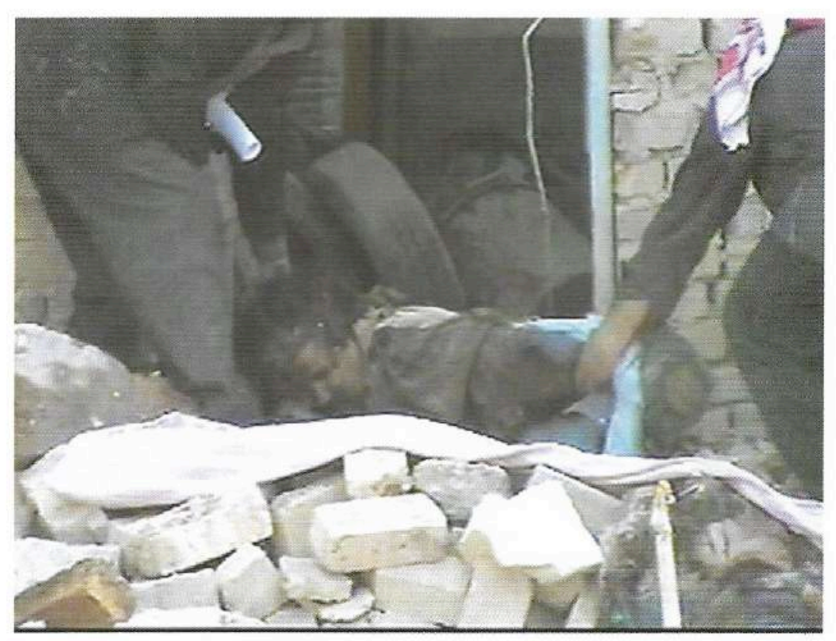
أحمد منصور يقفز تفادياً لصاروخ مرّ فوق رأسه أثناء بثّ مباشر، وخلفه مئذنة مسجد الخلفاء



منازل تحترق وسط الفلوجة.



حرائق في الحي الصناعي في الفلوجة.



الأهالي يقومون باستخراج بعض الجثث من تحت أنقاض أحد المنازل.



مواطن يمسك قطعة من صاروخ أمريكي سقطت على منزل.



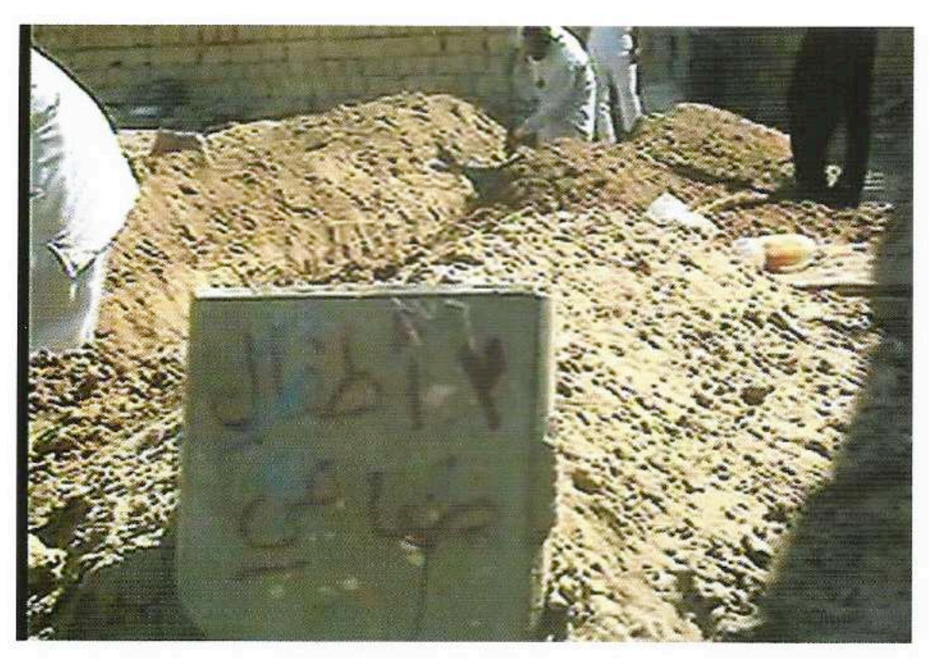
بعض جثث القتلى في مذبحة الجولان شمال غرب الفلوجة.



جثث الشهداء في كل مكان تنتظر من يدفنها.



طفل شهيد من عائلة المطلوب قتل مع جده وعمه.



قبر واحد لثلاثة أطفالٍ أشقاء من أبناء ضاحي.





أطفال جرحى من ضحايا القصف الأمريكي للفلوجة.



الرجل الناجي الوحيد من مذبحة الجولان وإلى جواره الدكتور طالب الجنابي.



الطفل الوحيد الناجي من مذبحة الجولان مع طفل آخر مصاب في مستشفى الدكتور الجنابي.



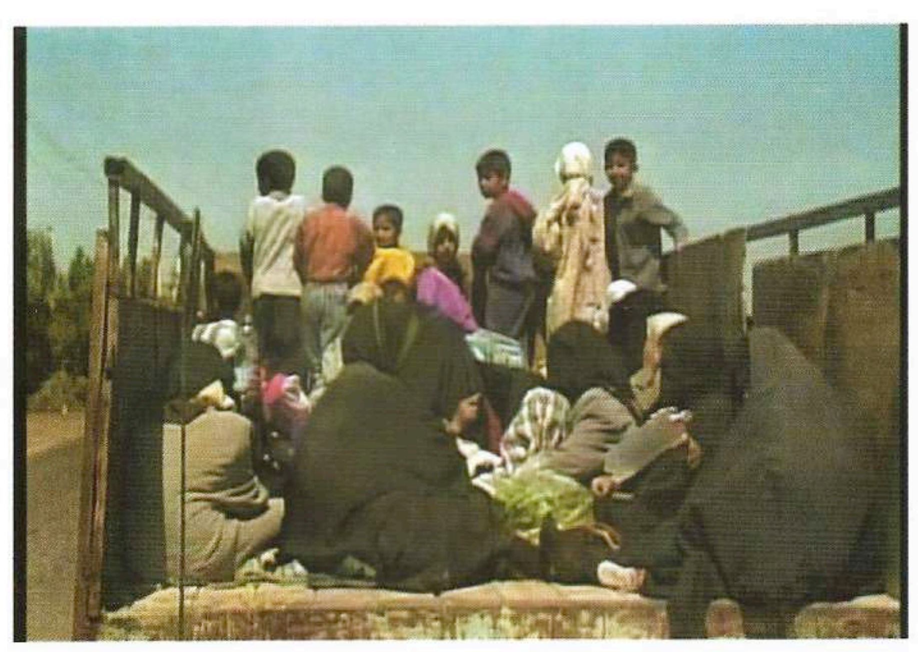
ملعب كرة القدم في المدينة تحول إلى مقبرة للشهداء.



أهالي الفلوجة يتظاهرون حول أحمد منصور في المقبرة القديمة.



بعض العائلات الهاربة من جحيم القصف الأمريكي.



ئلات مهجرة وهاربة من الموت في الفلوجة.



مدير مستشفى الفلوجة د. رافع العيساوي يتحدث للكاتب عن الخسائر الفادحة في صفوف المدنيين.



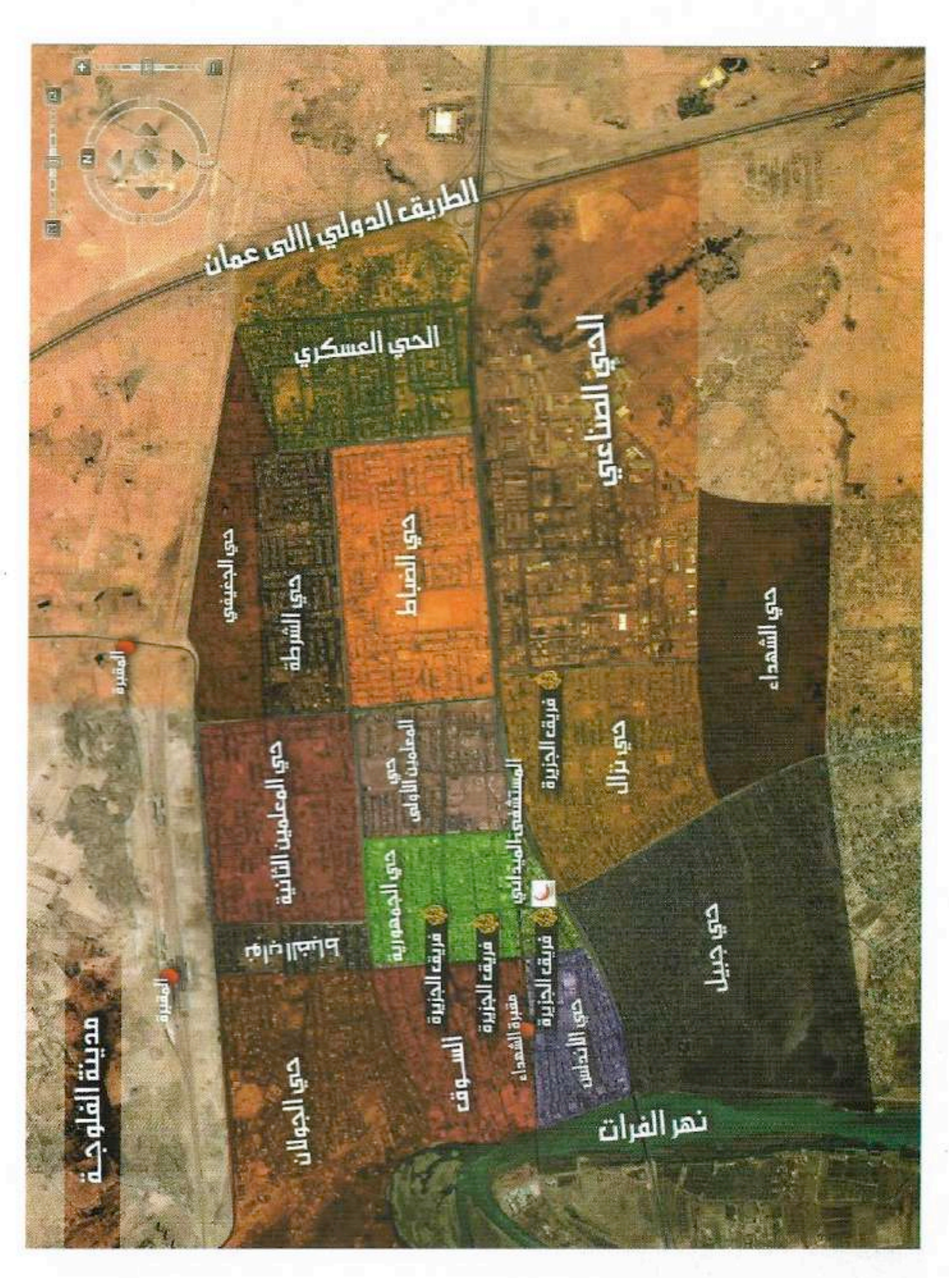
...ية بعد النزوح الجماعي من الفلوجة.



دبابة أمريكية أصابتها المقاومة وجنود مصابون.



أحمد منصور فوق سطح المجمع الطبي يشير إلى حرائق شرق الفلوجة.



أحياءها والمواقع التي كان فريق قناة الجزيرة يتواجد فيها.

سامي الحاج مصور قناة الجزيرة المعتقل في سجن غوانتامو، التقيت بالمحامي البريطاني كليف ستافورد سميث، ورتبت معه لإجراء حوار في برنامجي "بلا حدود" عن سامي الحاج، وحددنا للحلقة تاريخ الأربعاء 27 يوليو/تموز من العام 2005، وقد تم اختيار الموعد ليكون بعد زيارة سيقوم بها سميث إلى غوانتامو ويلتقي فيها مع سامي الحاج، وحينما التقيت سميث في لندن بعد عودته من غوانتامو لترتيب إجراءات الحلقة قبل موعدها بأيام قال لي: "لدي معلومات أرجو ألا تسبب إزعاجاً لك". قلت له: "ما هي؟ هل ستعتذر عن إجراء الحلقة؟" قال: "لا ولكن الأمريكيين مارسوا ضغوطاً كبيرة على سامي الحاج في غوانتانامو حتى يقول بأنك على صلة بتنظيم القاعدة، ومن ثم يقومون بتلفيق قضية ضدك لا أساس لها".

قلت له: "أنا لا أعرف سامي الحاج شخصياً ولا أذكر أني التقيت به على الإطلاق". قال: "أنا أعرف هذا، ولكنهم حسبما أخبرني سامي سألوه عنك أكثر من مئة مرة خلال التحقيقات التي أجروها معه، وحاولوا الضغط عليه حتى يقول بأنك على علاقة بتنظيم القاعدة وأنك تروج لتنظيم القاعدة من خلال قناة الجزيرة، حتى إن كثيراً من جلسات التحقيق كانت عنك فقط دون التطرق لشيء آخر، رغم أن سامي الحاج قال لهم إنه لا يعرفك ولم يرك سوى مرتين في مبنى قناة الجزيرة؛ مرة ألقى عليك السلام في الطريق، ومرة رآك في المسجد أو الكفتيريا ومع ذلك مارسوا ضغوطاً هائلة عليه حتى يقر بأية صلات لك بتنظيم القاعدة". قلت له: "أعتقد أن تغطيتي لمعركة الفلوجة وغضب الأمريكيين من هذه التغطية التي كشفت جرائم الحرب التي ارتكبوها ضد المدنيين وفشل مشروعهم في احتلال المدينة وتدميرها آنذاك لعب الدور الأساسي في هذه الضغوط التي مورست على سامي، فيما يتعلق بي فقد حاولوا تلفيق اتهامات كثيرة لي خلال الفترة الماضية، لكني لم أتخيل أن تصل بهم الحماقة والجهالة والاستخفاف إلى هذا الحد وأن يسعوا لتلفيق التهم لصحفي محترف كشف جرائمهم بهذه الطريقة المليئة بالخسة والنذالة".

وأطلعني سميث على وثيقة سرية غير مصرَّح بتداولها خارج المحكمة كما كُتب عليها، وأنه دوَّنها بشكل حصري من ملاحظات الحديث مع موكله سامي الحاج في شهر يونيو/حزيران من العام 2005 وصرح بخروجها من غوانتامو

في 18 يونيو/حزيران من العام 2005، جاء فيها عن سامي أنه خضع لضغوط كي يشهد ضدي بأني على علاقة بتنظيم القاعدة وأني أدعم التنظيم المذكور من خلال عملي في قناة الجزيرة، وهذا بالفعل يمثل قمة التدليس والهراء من قبل العسكريين الأمريكيين الذين أشار سامي من خلال ما كتبه المحامي سميث إلى أنهم يكنون لي كراهية شديدة كانوا يبدونها أثناء الحديث معه عني، لكن سامي كان رجلاً وصادقاً، فرفض كل الضغوط التي مورست عليه والإغراءات التي قدموها له حتى يعترف بالباطل عني؛ ثبّته الله في محنته.

أما باقي المعلومات فهي عبارة عن أضاليل وأكاذيب مثل الأكاذيب والأضاليل التي تمارسها وتخترعها الإدارة الأمريكية بدءاً من أكذوبة أسلحة الدمار الشامل حتى أكذوبة قتل النساء والأطفال في الفلوجة والعراق من أجل الدفاع عن النفس، وهي معلومات منشورة في مقالات وجدتها على الإنترنت يروجها بعض الصهاينة العرب الجهلاء الذين يعملون كخبراء وهم ليسوا سوى مرتزقة وعملاء.

لقد كشفت هذه المحاولة الدنيئة والضغوط الهائلة التي مارسوها على الزميل سامي الحاج المسجون ظلماً وعدواناً في غوانتامو عن حجم الكراهية التي يكنّونها لي وحجم التدليس والإفلاس الذي يعانون منه، ومحاولاتهم الجبانة التي من المؤكد أنهم بذلوا مثلها مع أطراف وجهات أخرى لمحاولة الانتقام مني وتوجيه اتهامات باطلة لي وتشويه صورتي وتدمير سمعتي المهنية والحياتية، والضغط على زميل لا يعرفني حتى يشهد ضدي من أجل أن يقوموا بتلفيق قضية لا أساس لها تتيح لهم الانتقام من تغطيتي المهنية لمعركة الفلوجة، وقد أظهر هذا الأمر إلى أي مدى يكنون الحقد والكراهية لي، ولكل من يكشف الحقائق عن ممارساتهم الغاشمة.

وقد شارك المحامي سميث في برنامج وثائقي عن سامي الحاج تم بثه على قناة الجزيرة وتحدث فيه عن محاولاتهم لتوريطي وتوجيه اتهامات باطلة لي عبر الضغوط على الزميل سامي الحاج الذي رفض كل إغراءاتهم، ومن بينها أن يفرجوا عنه مقابل أن يعمل جاسوساً لحسابهم على زملائه في الجزيرة، لكنه رفض بإباء وصبر ولا يزال صابراً على أذاهم، لكن بوش ورجاله الذين فشلوا في إيقاف الجزيرة أو صحفييها عن فضح جرائم جنوده في العراق كان قد وصل به

الهوس في مرحلة ما إلى حد التخطيط لقصف مقر قناة الجزيرة وبعض مكاتبها في الخارج.

بوش يقرر قصف قناة الجزيرة

في عددها الصادر في 22 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2005 فجرت صحيفة "ديلي ميرور" البريطانية قنبلة من العيار الثقيل على صدر صفحتها الأولى، نُشرت عنها آلاف المقالات والتحليلات في الصحافة العالمية بعد ذلك، فقد نشرت "الديلي ميرور" على صدر صفحتها الأولى عنواناً رئيسياً مع صورة الرئيس الأمريكي جورج بوش يقول: "بوش يخطط لقصف حليفه العربي"، وفي الداخل تقريراً خاصاً عما قالت إنها "مقتطفات" من نص وثيقة بريطانية سرية تؤكد أن الرئيس الأمريكي جورج بوش أطلع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في اجتماعهما الذي عقد في البيت الأبيض في 16 أبريل/نيسان من العام 2004 على خطة أعدها بوش لضرب مقر قناة الجزيرة الفضائية في قطر وبعض مكاتبها في الخارج بالصورايخ أو المتفجرات.

وجاء في المذكرة أن بلير حذر بوش من الإقدام على مثل هذه الخطوة لأنها لو حدثت ستثير الرأي العام العالمي، ورغم نفي المسؤولين البريطانيين والأمريكيين للخبر بشكل سريع، إلا أن رئيس التحرير المشارك في صحيفة ديلي ميرور البريطانية أكد للجزيرة في ندوة عقدت في لندن بعد الإعلان عن الوثيقة أن "محاضر موثَّقة لدى صحيفته تثبت أن الرئيس الأمريكي جورج بوش أبلغ رئيس الوزراء البريطاني توني بلير عزمه على قصف قناة الجزيرة".

كما نشرت كل من الصحف البريطانية "ديلي ميرور" و"الغارديان" و"التايمز" في اليوم التالي 23 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 أن النائب العام البريطاني بيرت غولد سميث أصدر تحذيراً للصحف البريطانية بأنها ستكون تحت الملاحقة القضائية بموجب الفقرة الخامسة من قانون السرية إذا قامت بنشر المزيد من التفاصيل عن تلك الوثيقة، وقد اعتبرت صحيفة "الغارديان" بأن هذا لجم لحرية الصحافة، فيما أشارت "التايمز" إلى تعرضها للتهديد، وأعلنت الصحيفة التي فجَّرت الفضيحة "ديلي ميرور" عن موافقتها الالتزام برغبة

الحكومة، إلا أن ذلك فجر الفضيحة بشكل أكبر في معظم الصحافة العالمية، وكان هذا أول تأكيد على صحة الوثيقة.

وما زاد في التأكيد على صحتها هو أن الحكومة البريطانية قامت بتوجيه الاتهام بتسريب الوثيقة السرية إلى كل من ديفيد كيو خبير الشفرات المكلف بشؤون المكتب الإعلامي في رئاسة الوزراء وليو أوكنور الباحث في البرلمان البريطاني، وبعد محاكمة مطولة صدر الحكم عليهما في 10 مايو/أيار من العام 2007 بإدانتهما بتسريب الوثيقة حيث حكم على كيو بالسجن ستة أشهر وعلى زميله أوكنور بالسجن ثلاثة أشهر.

وقال القاضي ريتشارد إيكنز مخاطباً كيو: "دون استشارة أحد، قررت من تلقاء نفسك أن من مصلحة المملكة المتحدة أن تظهر هذه الوثيقة للعلن" واصفاً سلوك كيو بأنه "طائش وغير مسؤول" وكان من شأنه تعريض حياة مواطنين بريطانيين للخطر.

وقال كيو في معرض دفاعه عن نفسه إنه كان يريد من وراء تسريب ونشر نسخة المحضر الذي يصور "جنون الرئيس الأمريكي" أن يثير نقاشاً في مجلس العموم البريطاني وكان يسعى لأن تصل الوثيقة كذلك إلى جون كيري مرشح الانتخابات الرئاسية الأمريكية في العام 2004.

وأوصل كيو الوثيقة إلى أوكونور الذي أوصلها - حسب الادعاء - إلى دفتر أوراق عضو البرلمان أنتوني كلارك الذي عارض قرار الحرب على العراق، والذي أبلغ السلطات بالأمر بعدما اطلع على الوثيقة ثم تم تسريبها بعد ذلك إلى صحيفة ديلي ميرور فقامت بتفجير الفضيحة.

هكذا كما قال كيو، وصل الأمر بالرئيس الأمريكي إلى حد "الجنون". ودون أن أخوض في آلاف المقالات المفصلة التي نشرت عن الموضوع في الصحافة ووسائل الإعلام العالمية، فقد أعاد كثير من المحللين الذين كتبوا عن الموضوع أو تناولوه السبب الذي حدا ببوش إلى التفكير في ذلك إلى التغطية التي قام بها فريق قناة الجزيرة لمعركة الفلوجة في أبريل/نيسان من العام 2004، وكان على رأس هؤلاء وزير الدفاع البريطاني السابق بيتر كيلفويل في

تحليل نشرته صحيفة "صنداي تليغراف البريطانية" وأشارت إليه صحيفة "القدس العربي" في 28 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 حيث قال: "إن السبب الذي حدا ببوش إلى التفكير في قصف قناة الجزيرة هو التغطية التي قام بها فريقها لمعركة الفلوجة"، وأشار إلى وجود مؤامرة كبيرة كانت تحاك ضد الفلوجة ربما أبطلتها قناة الجزيرة بتغطيتها للمعركة مما جعل بوش يخطط لقصف وتدمير قناة الجزيرة، وقال كليفويل "قلقي من أن المؤامرة الوحيدة التي تحيط بهذا هي المؤامرة لتدمير الفلوجة".

وقد كان الرجل بعيد النظر في تحليله إلى حد بعيد؛ فقد دمر بوش الفلوجة بعد ذلك بعدما أبعد كل وسائل الإعلام عن ساحة المعركة في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من العام 2004 عدا الصحفيين المرافقين للجيش الأمريكي.

هكذا وصل الأمر ببوش وإدارته، فقد تجاوزوا الهجوم اللفظي والاتهامات الإعلامية لقناة الجزيرة وبعض العاملين فيها وقرر بوش قصف وتدمير قناة الجزيرة على رؤوس من فيها من صحفيين وعاملين كانوا لا يقومون بشيء سوى العمل على إظهار الحقيقة التي يكرهها بوش ورجاله.

وقد عبَّر وضاح خنفر مدير القناة في زيارة قام بها لبريطانيا من أجل الحصول على تفسيرات من الحكومة البريطانية عن الوثيقة التي نشرتها "الديلي ميرور"، ونشر خنفر مقالاً في صحيفة الغارديان البريطانية تحت عنوان "لماذا تريدون قصفنا يا سيد بوش ويا سيد بلير؟" أعرب فيه عن الأسف الشديد لما فكر الرئيس بوش في الإقدام عليه. وقال خنفر بعدما استعرض ما تعرضت له الجزيرة ومراسلوها في أفغانستان والعراق من تعديات حتى قامت حكومة إياد علاوي بإغلاق مكاتبها في بغداد في شهر أغسطس/آب من العام 2004: "ليست القضية قضية الجزيرة وحدها، بل قضية الحقيقة التي تحمّلنا في سبيلها تسع سنوات من الضغوط والمضايقات، وتحمل صحافيون كثيرون غيرنا في كل أنحاء العالم كل أشكال الترويع، الحقيقة التي يقبع من أجلها تيسير علوني في السجن في إسبانيا، ويعتقل سامي الحاج في غوانتامو، واستشهد من أجلها طارق أيوب في العراق، الحقيقة التي لا يعدلها شيء".

لقد أصاب وضاح كبد الحقيقة، حقاً إنها الحقيقة التي لا يعدلها شيء والتى

سنظل ندفع الثمن الكبير والباهظ في سبيل وصولها إلى الناس، تلك الحقيقة التي أزعجت بوش ورجاله جميعاً منا.

أكذوبة الحياد الإعلامي

وأذكر أنه بعد تغطيتي لأحداث معركة الفلوجة وما أثارته من زوابع وعواصف وغضب لدى بوش وأركان إدارته حتى وصل به الحال إلى التفكير في قصف قناة الجزيرة وبعض مكاتبها أن وقعت نقاشات عديدة بين الزملاء داخل قناة الجزيرة وخارجها حول ما يسمى بالحياد في التغطية الإخبارية.

ومصطلح "الحياد" في تصوري هو أكذوبة وليس له وجود لدى الغربيين الذين يستخدمونه فقط لكي يخيفونا ويهزمونا نفسياً وفكرياً في كل شيء عبر الترويج لمصطلحات هم أبعد الناس عن استخدامها أو الالتزام بها، وعادة ما تكون مصطلحات كبيرة في ألفاظها لكنها خالية من أي مضمون أو معان فعلية، ومنها "الحياد الإعلامي". وقد شغلني هذا الأمر وناقشته مع كثير من الإعلاميين الغربيين الذين التقيت بهم فلم أجد لدى أي منهم قناعة على الإطلاق بما يسمى بالحياد.

وفي ندوة داخلية عقدت في قناة الجزيرة، وحضرها كثير من المراسلين ومدراء المكاتب الخارجية وحضرت جانباً منها وجدت بعض الزملاء يناقشون هذا الأمر في إحدى الجلسات، وانتقد بعض منهم - وهذا حقهم - تغطيتي لمعركة الفلوجة ووجهوا لي التهم التي وجهها لي الأمريكيون والتى تتلخص بأني لم أكن محايداً في تغطيتي للمعركة، وكانوا يعتقدون أن هذا اتهام لي، ومع ترحيبي الواسع بالنقد الذي يوجهه لي كل الزملاء وغيرهم فقد وقفت للرد عليهم، ففاجأتهم جميعاً وأذهلتهم حينما قلت لهم بشكل واضح: "أنا لست محايداً... ولن أكون.. أنا لست محايداً.. ولكني منحاز.. أنا منحاز دائماً للحقيقة وإلى صاحب الحق وإلى الضعيف، وإلى المعتدى عليه، وإلى القيم الإنسانية التي تقوم على العدل والمساواة.

أنا منحاز دائماً ضد الحروب وعمليات القتل للمدنيين والنساء

والأطفال وجرائم الحرب التي يرتكبها المعتدون ضد الإنسان في أي مكان في العالم.

أنا منحاز دائماً إلى ديني وعروبتي وثقافتي وهويتي.. لن أتخلى عنها في أي موقف مهما كانت الاتهامات التي توجه لي، وحينما يتخلى الصحفي الأمريكي أو البريطاني أو الألماني أو الياباني أو الروسي عن الانحياز إلى دينه وثقافته وهويته وقوميته وأمته فليأتوا وليتحدثوا معنا عن الحياد.

هل كان الألف ومئتي صحفي الذين دخلوا العراق على ظهور الدبابات الأمريكية أثناء غزو العراق واحتلاله في مارس/آذار وأبريل/نيسان 2003 محايدين؟ وهل المراسلون الأمريكيون الذين يبثون تقاريرهم وهم يتحركون مع القوات الأمريكية التي تمارس جرائم الحرب في العراق محايدون؟

إنهم ليسوا محايدين في أدائهم ولكنهم جميعاً منحازون ويعملون من أجل أمتهم وثقافتهم وهويتهم ودينهم ومؤسساتهم وهم يفخرون بذلك، فلماذا لا نكون أكثر فخراً منهم بما نقوم به؟

إن المنهزمين من الإعلاميين العرب الذين ضاعت هويتهم ـ لأن كثيراً منهم أصبح ولاؤه للدولة الغربية أو الشرقية التي يقيم فيها أو التي منحته جنسيتها أو للمؤسسة الغربية التي يعمل بها أو لمن يدفع له مقابل شراء ولائه ـ لا قيمة لهم، بعدما تخلوا عن كل شيء ثم يأتون إلينا ويتحدثون عن الحياد.

إنني أقول بكل ثقة ويقين: لا يوجد في الإعلام شيء اسمه "حياد" وإنما توجد "حقيقة"، يجب أن نسعى جميعاً لإظهارها، و"حق" يجب أن ننحاز جميعاً إليه، و"موضوعية" يجب أن نتحلى جميعاً بها، وهذه هي مهمة الإعلامي الأساسية في الحياة، أما الحياد فهو أكذوبة وأؤكد مرة أخرى لكم أني لن أكون محايداً على الإطلاق ولكني سأبقى منحازاً لما أعتقد أنه الحق والصواب".

ما إن أنهيت كلمتي حتى ضجت القاعة بالتصفيق الحاد من الجميع عدا بعض الذين كانوا يتشدقون بالحياد ويرددون مقولات الأمريكيين، ثم جاء كثير من الزملاء وحيوني بعد انتهاء الجلسة وقالوا: "كلنا نريد أن نقول مثل هذا الكلام وقد عبرت بكلماتك عن كثيرين". وقد دفعني هذا الموقف إلى أن أطرح

سؤالاً سيظل يتردد وهو: لماذا لا يملك الناس الجرأة والشجاعة دائماً لكي يجهروا بما يؤمنون به؟

وحينما قلت هذا الكلام بثقة لم أكن بدعاً فيه، وقد شغلني بعد ذلك أن أطرح هذا السؤال على بعض المفكرين والمبدعين والإعلاميين البارزين فوجدت ما قلته كان متطابقاً إلى حد بعيد مع ما سمعته. وعلى سبيل المثال لا الحصر أنقل هنا عبارة سمعتها من المؤرخ العربي البارز الدكتور عبد الوهاب المسيري حينما أثرت مرة معه هذا الموضوع حول مصطلح "الحياد" في العمل الإعلامي والإبداعي وغير ذلك من المصطلحات التي يسعى البعض لترويجها في إطار تمييع قضايا واضحة، فقال المسيري: "إنني لم أبدع في أعمالي إلا حينما تخليت عما يسمى بالموضوعية والحياد"، ونفس السؤال طرحته على ديفيد سايمون أحد كبار المدراء السابقين في هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي أثناء دورة تدريبية درسني إياها عن "دور المراسل التلفزيوني في ساحات الحروب" شاهدنا خلالها تغطيات أشهر مراسلي الحروب الذين يعملون لصالح محطات التلفزة الغربية وأساليبهم المتنوعة في التغطية، فقال عن مصطلح "الحياد": "إن مثل هذه المصطلحات من الصعب الالتزام بها في هذا العالم المضطرب، فما معنى الحياد أو عدم الانحياز حينما ترى طرفاً ضعيفاً يُقتل وطرفاً متغطرساً يمارس القتل؟ وما معنى أن تكون غير منحاز وأنت ترى ظلماً يقع وانتهاكات تحدث ومظالم تمارس؟ ما معنى أن تكون محايداً في تغطيتك لمثل هذه الأحداث؟! إنك هنا يجب أن تكون منحازاً ليس إلى مجرد نقل الواقع ولكن يجب أن ينقل الصحفي الحقيقة، والحقيقة أوسع في وصفها من مجرد وصف الواقع، إن الحقيقة تعني أن تظهر الجوانب المختلفة للجريمة التي ارتكبت، أو المظلمة التي وقعت، ولهذا فإنه ليس من السهل أن يفعل كثير من الإعلاميين هذا، ولكن هذا ما يجب فعله أن يكونوا منحازين للحقيقة".

أما الصحفي الأمريكي سيمور هيرش فقد تعرض لحملة ضارية من قبل بوش وإدارته بعدما كشف عدداً من الفضائح والتجاوزات لتلك الإدارة من بينها فضيحة سجن أبو غريب، حتى إن جورج بوش وصف هيرش بأنه "كاذب"، أما دونالد رامسفيلد فقد قال عن هيرش: "إنه مثل حركة طالبان"، أما ريتشارد بيرل

فقد وصف هيرش بأنه "إرهابي"؛ لكن هيرش الذي يعمل لمجلة نيويوركر واجه كل هذه الاتهامات قائلاً: "إنني لست محايداً في مهنتي ولكني منحاز.. منحاز ضد الحروب عديمة الفائدة".

لكن يبدو أن قرار بوش بقصف قناة الجزيرة ومكاتبها سبقه قرار بقصفنا نحن فريق الجزيرة مساء الجمعة التاسع من أبريل/نيسان 2004 أثناء تغطيتنا لمعركة الفلوجة.

تعرض فريق الجزيرة للقصف

أذكر أن الزميل عبد العظيم محمد كان يقف إلى جواري حينما كان وضاح يكلمني مساء الجمعة التاسع من أبريل/نيسان 2004 بخصوص اتهامات الجنرال كيميت لي بأنني أروِّج الأكاذيب أو "أغذي مشاهدي الجزيرة بالأكاذيب" من الفلوجة، وسألني عبد العظيم بعدما أنهيت المكالمة: "هل هناك شيء بخصوص الجنرال مارك كيميت؟" قلت له: "إن وضاحاً يقول بأن الجنرال كيميت شن عليَّ هجوماً شخصياً في حوار له مع قناة الجزيرة، وقد وضعوا نص تصريحاته على شريط الأخبار، وسوف يعيدون بث تصريحاته في النشرات اللاحقة، وطلب مني أن أشاهدها إن استطعت". قال عبد العظيم: "يمكننا أن نشاهدها فهناك تليفزيون في مبنى المستشفى المواجه لنا وهناك آخر في مقر الحزب الإسلامي في هذا المبنى الملاصق له". قلت له: "لا أريد أن أترك الزملاء، كما أن وضاحاً أخبرني بما قاله كيميت ولست مهتماً كثيراً به". فقال عبد العظيم: "لكن الشمس اقتربت من المغيب وأعتقد أنك تريد الذهاب للوضوء من أجل صلاة المغرب، وربما يزيل الوضوء عنك شيئاً من التعب والإرهاق لذا يمكننا الاستفادة من الوقت والذهاب إلى مقر الحزب الإسلامي فنتوضأ ونشاهد الأخبار إن أردت".

وجدت أن الفكرة صائبة لا سيما وأني لم أغادر مكاني منذ صعودي إلى سطح المبنى بعد صلاة الجمعة، فنزلت مع عبد العظيم وعبرنا الشارع حيث يوجد مقر الحزب الإسلامي الذي كان مقراً لسينما الفلوجة قبل سقوط نظام صدام حسين.

قلت لعبد العظيم ونحن في الطريق: "هناك أمر آخر هام أبلغني به وضاح، وهو أن مجلس الحكم شكل وفداً بترتيب مع الأمريكيين من أجل التفاوض مع وجهاء المدينة على وقف إطلاق النار ولكن بشروط، وأن أول شرط غير معلن لمهمة الوفد هو إخراجنا من الفلوجة وإيقاف تغطية الجزيرة، فأرجو أن تسعى من خلال معرفتك بالوفد الذي سيتفاوض من قبل وجهاء المدينة أن تعرف متى سيأتي وفد مجلس الحكم وعلى أي شيء سوف يتفاوضون، وأن تقوم أيضاً بعمل تغطيته للأخبار عن الموضوع".

ما إن أنهيت وضوئي حتى انفجرت اشتباكات شديدة خارج المبنى، وكان الرصاص ينهمر من كل جانب، وكان أمراً غريباً أن تصل الاشتباكات المباشرة إلى حيث كنا، فقد ظلت الاشتباكات طوال اليوم على مرأى منا لكنها كانت بعيدة عدة مئات من الأمتار. طلب منا الموجودون في مقر الحزب الإسلامي ألا نخرج إلى الشارع، حيث كان وميض الرصاص يرى بسهولة من أماكن وقوفنا داخل المبنى مما يعني أن المنطقة تتعرض لإطلاق نار من أماكن قريبة، قلت لعبد العظيم: "لا بد أن نعود حتى نصلي المغرب مع الزملاء". لكن الاشتباكات زادت وبدت هناك أصوات رشاشات ثقيلة تطلق من الجهة الأخرى لنهر الفرات، وكان واضحاً أنها أصوات الرشاشات الثقيلة للدبابات الأمريكية التي كانت ترابط على الضفة الأخرى للنهر ولا تبعد عن المكان الذي كنا فيه أكثر من بضع مئات من الأمتار.

في نفس الوقت كان هناك رد على إطلاق النار من قبل رجال المقاومة ولكن من أماكن قريبة، لذا طلب منا أحد الموجودين في المبنى أن نبقى لنصلي المغرب معهم حتى يهدأ القتال ثم نعود لزملائنا. صلينا المغرب والعشاء بالفعل جمع تقديم، وبعدما هدأ إطلاق النار قليلاً توجهنا للباب الخلفي والمواجه تقريباً للمجمع الطبي الذي نتخذ من سطحه مقراً لنا، وكان أحد الأطباء الذي كان سيعود هو الآخر للمستشفى الميداني المجاور يقف معنا، وأوصانا أن نكون حذرين في عبور الشارع حيث لا زالت هناك اشتباكات متقطعة.

لم ينه الطبيب تحذيره حتى اندلع إطلاق النار بغزارة من جديد لكنه هذه المرة كان صوت رشاشات ثقيلة وبدا لنا أنها كانت رشاشات الدبابات الأمريكية

التي تقف على الضفة الأخرى لنهر الفرات، وتمكنت أن أرى بسهولة حينما رفعت رأسي للسماء لهبها الأحمر ـ الذي يميزها عن الرصاص العادي ـ، ولكن إلى أين كانت موجَّهة؟!! يا إلهي... إنها كانت موجهة إلى سطح المركز الطبي الذي نتخذه مقراً لنا وحيث كنت أقف طوال اليوم، وحيث تركت الزملاء قبل قليل؟

انطلقت بسرعة فائقة فعبرت الشارع ومعي عبد العظيم والطبيب يصرخ بنا أن نحذر من إطلاق الرصاص المنهمر ولكننا لم نحفل بشيء، وحينما دخلنا إلى المبنى اتجهنا مسرعين إلى السلم، ولا أعرف كم عدد درجات السلم التي كنت أتخطاها في القفزة الواحدة، وبدا طابق السطح بعيداً رغم أنه كان الرابع، لكن قبل أن أصل للسطح وجدت الزملاء جميعاً متراكمين على درجات السلم بين الطابق الثالث وطابق السطح، قلت لهم بصوت فَزِع: "هل أنتم جميعاً بخير؟" قالوا: "الحمد لله، لقد نجونا من موت محقق فقد مرت الرصاصات من فوق رؤوسنا، وكنا وقتها قد فرغنا من صلاة المغرب وبعضنا كان يصلي السنة بين راكع وساجد ولم يكن أحد منا واقفاً في اللحظة التي أطلق علينا فيها الرصاص، ولو كان أحدنا واقفاً أو رافعاً رأسه لأصابته الرصاصات التي كانت تنهمر مثل المطر".

ربطت بشكل مباشر بين طلب إخراجنا من المدينة كشرط لوقف إطلاق النار وهجوم الجنرال كيميت عليَّ واتهامه لي بالكذب، وإطلاق النار الذي تعرضنا له من الدبابات الأمريكية التي من المؤكد أنها كانت تدرك أننا نقف من الصباح على سطح هذا المبنى الذي كان الأعلى في المنطقة وكنا نبث من فوقه طوال النهار، وكان تحديد إحداثياته أمراً بغاية البساطة، وبدا أن كل هذه التصرفات عبارة عن حملة مكثفة بكل الوسائل لإخراجنا من المدينة، فهل كنا حقاً مستهدفين؟!! وهل كان هذا نوعاً من الترهيب؟!! الإجابة من المؤكد لدى من أصدر الأمر للدبابات أن تطلق نيران رشاشاتها علينا في هذا الوقت.

وقد أشرت إلى ما حدث في نشرات الأخبار اللاحقة وأعلن في خبر عاجل على شاشة الجزيرة أن فريق الجزيرة تعرض لإطلاق نار كثيف من قبل الدبابات الأمريكية، لكني طمأنت أهالي كل الزملاء أننا جميعاً بخير، وبقي هذا خبراً رئيسياً في نشرات الأخبار اللاحقة إلى اليوم التالي، بعدها أدركنا ـ دون أن نعلم

ما دار بين بريمر وأبي زيد وسانشيز وبلاكويل ثم بوش وبلير - من أن تغطيتنا لمعركة الفلوجة لا سيما في هذا اليوم كانت مزعجة للقوات الأمريكية إلى حد بعيد، ولكن هذا عملنا ويجب أن نقوم به طالما أننا كنا في المدينة شهوداً على جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأمريكية بحق المدنيين العزَّل من أهلها، لا بد أن ننقل للناس الحقيقة أو جانباً منها على الأقل، لأن الحقيقة كانت أكبر بكثير مما كنا نراه وما كنا نصل إليه أو تصل إليه كاميراتنا، لقد كنا نتحرك في بقعة محدودة بينما كانت المدينة كلها هدفاً للطائرات والدبابات والمدفعية الأمريكية.

أدركت حينها أن هجوم الجنرال كيميت عليَّ لم يكن شيئاً تلقائياً، بل كان حلقة في سلسلة من الهجمات والضغوط التي انتهت بخروجي مساء العاشر من أبريل/نيسان من المدينة ثم من العراق، ثم إغلاق مكتب قناة الجزيرة في بغداد وخروج جميع الزملاء من كل العراق بعد ذلك في شهر أغسطس/آب عام 2004، وإلى أن يفكر الرئيس بوش بعد ذلك بأيام ليس بقصف فريق الجزيرة في الفلوجة وإنما بقصف مقر قناة الجزيرة في الدوحة وبعض مكاتبها في الخارج وذلك في الاجتماع الذي عقد بينه وبين رئيس الوزراء البريطاني توني بلير أثناء زيارة بلير لواشنطن في 16 أبريل/نيسان 2004 والذي سبق وأن أشرت إليه.

أدى هجوم كيميت عليَّ في ذلك اليوم إلى أن يتصل كثير من المشاهدين والأصدقاء والزملاء من المحبين بإدارة الجزيرة ليطلبوا منهم إخراجنا من الفلوجة حفاظاً على أرواحنا بعدما أصبحنا هدفاً للقوات الأمريكية، وكانت أغلبية الآراء تحمل قدراً كبيراً من الحب والإخلاص والمودة وترى أن الحفاظ على حياتنا أهم من خبر تنفرد به الجزيرة أو طاقمها. لكني كنت أرى أن القضية ليست قضية انفراد أو نجومية للجزيرة ولنا، ولكنها كانت رسالة إنسانية، فالحقيقة التي تنقلها الكاميرا ثبت أنها تحفظ قدراً كبيراً من حياة الناس، وتشكل إدانة كاملة للمجرمين الذين يرتكبون الجرائم، وما دام قدر الإنسان محتوماً وعمره مقدوراً فمن أين يفر المرء من قضاء الله؟ فملايين الناس يموتون كل يوم في الحوادث ومن الأمراض وحتى دون شيء وهم يجلسون آمنين وسط أهاليهم ومحبيهم، فهل هناك أشرف وأفضل من أن يموت الإنسان في ساحة مثل هذه! لقد اكتشفت بعد خروجي من العراق أني كنت رفيق المشاهدين في بيوتهم

وأصبحت جزءاً من حياتهم، وأن الله قد ملأ قلوب كثير من الناس بالحب لي رغم أنهم لا يعرفونني ولا أعرفهم بل كان منهم كثيرون ممن ينتقدونني أو لا يتفقون معي، وكان كثيرون منهم يفتحون التليفزيون وقت كل نشرة أخبار حتى يطمئنوا عليَّ وعلى الزملاء، أما أصدقائي وأحبائي ومعارفي فقد كنت همهم بالليل والنهار، وأخبرني أحد المشاهدين أنه كان يتصل من أي مكان هو فيه خارج المنزل بزوجته ليطلب منها أن تفتح الجزيرة كل ساعة وقت نشرة الأخبار لتطمئنه أني لا زلت وفريق الجزيرة بخير.

من يستطيع أن يشتري هذا الحب ولو كان يملك كل مال الدنيا؟ لكن الله سخرنا أيضاً أنا والزملاء في ذلك الوقت حتى نكون سبباً في حفظ حياة ودماء كثير من الناس، وأن نفشل تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الفلوجة حسب وصف وزير الدفاع البريطاني السابق بيتر كليفويل، وأن نفضح الهمجية الأمريكية التي لم تراعِ حرمة طفل أو شيخ أو امرأة، تلك الهمجية التي لم تكن تحمل لأهل الفلوجة سوى روح الانتقام.

إغلاق مكتب قناة الجزيرة في العراق

في أعقاب تسلل بول بريمر وخروجه بعد انتهاء مهمته بطريقة انهزامية من العراق في 28 يونيو/حزيران من العام 2004، أوكلت قوات الاحتلال حكومة إياد علاوي بأن تكون وجهاً مدنياً لسلطات الاحتلال في العراق، ووظفت في الحكومة كثيراً ممن تعاونوا معها على ترسيخ احتلالها من العراقيين على رأسهم إياد علاوي، وكان من الطبيعي أن تكلف حكومة علاوي بكثير من المهام التي كانت تخجل سلطات الاحتلال من القيام بها، وكان على رأس هذه المهام إغلاق مكتب قناة الجزيرة في بغداد، لأن سلطات الاحتلال لو قامت هي بهذا بشكل مباشر لكان أثار ردود فعل عالمية كون الأمريكيين الذين يتشدقون بالديمقراطية وحرية الإعلام والتعبير هم الذين يمنعون الجزيرة من العمل والتغطية.

لذا بدأت حكومة علاوي بالتضييق على عمل قناة الجزيرة في العراق منذ أن تسلمت السلطة بعد رحيل بريمر في 28 يونيو/حزيران من العام 2004، وكان واضحاً أن إغلاق مكتب الجزيرة هو أول المهام التي كلفت بها؛ لذا كان قرار

علاوي بإغلاق مكتب الجزيرة هو أول القرارات التي اتخذها، وكان ذلك بعد خمسة أسابيع فقط من توليه السلطة من قبل سلطات الاحتلال، حيث أصدر قراره في 7 أغسطس/آب 2004 بإغلاق مكتب قناة الجزيرة لمدة شهر ثم مدد مدة الإغلاق ثم أغلقه بشكل دائم.

وقد عقد إياد علاوي مؤتمراً صحفياً في 7 أغسطس/آب أعلن فيه أن لجنة تولت مراقبة "الجزيرة" خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة - أي منذ توليه السلطة - فأكدت أنها "تحرِّض على العنف والكراهية" وأن هذا القرار - على حد زعمه - اتخذ "لحماية الشعب العراقي".

وبعد اتخاذ القرار بإغلاق مكتب قناة الجزيرة في بغداد أثنى وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد على ما قام به علاوي خلال كلمة ألقاها مساء نفس اليوم في ولاية شيكاغو الأمريكية، وقد أعطى ثناء رامسفيلد مؤشراً إلى أن علاوي كلف بالقيام بإغلاق مكتب قناة الجزيرة ضمن حزمة قرارات كبيرة كلفه الأمريكيون بها نفذ كثيراً منها خلال توليه السلطة، وكان إغلاق مكتب قناة الجزيرة على رأسها.

وكان وزير الخارجية في حكومة علاوي هوشيار زيباري قد مهد لإغلاق المكتب من خلال اتهامات وجهها للجزيرة في شهر يوليو/تموز مدعياً أن نهجها يمثل "انحرافاً في معالجة الأحداث في العراق" مهدداً بإغلاق المكتب، وأصدرت الجزيرة بياناً في 25 يوليو/تموز 2004 اعتبرت فيه تصريحات زيباري تمثل تهديداً وتحريضاً ضد قناة الجزيرة ومراسليها، وسرعان ما أصدر علاوي قراره قبل أن يذهب إلى واشنطن حيث احتفى به بوش، لأنه خلصه من قناة الجزيرة التي كان يخطط بوش قبل أسابيع كي يدمرها على رؤوس من فيها، ولكن بقي أمام علاوي مهمة أكبر هي المساعدة في تدمير المدينة التي هزمت بوش وجنوده؛ مدينة الفلوجة.

معركة مع كيميت "بلا حدود"

خرجت بعد ذلك أو أُخرجت من الفلوجة ومن العراق وبدأ التضييق يزداد على

مكتب قناة الجزيرة في بغداد والزملاء العاملين فيه حتى قامت حكومة إياد علاوي التي عينتها سلطات الاحتلال بإغلاق مكتب الجزيرة في بغداد في شهر أغسطس/آب من العام 2004، أي بعد أربعة أشهر من تغطيتنا لمعركة الفلوجة الأولى، وظل الجنرال مارك كيميت يروِّج الأكاذيب في مؤتمراته الصحفية هو وأركان الإدارة الأمريكية على أعلى وأقل مستوياتها.

ومرت الأيام حتى جاء شهر أبريل/نيسان من العام 2006 بعد عامين بالتمام على معركة الفلوجة الأولى، فوجئت باتصال هاتفي من الزميل سعيد الشولي، الذي كان نائباً لرئيس التحرير أثناء تغطيتي لمعركة الفلوجة وكان على تناغم كبير معي في تغطية الأخبار آنذاك إلى حد بعيد، وقال لي سعيد الذي أصبح بعد ذلك مديراً للبرامج: "هل تذكر الجنرال مارك كيميت يا أحمد؟" قلت له: "نعم أذكره هذا الذي اتهمني بترويج الأكاذيب من الفلوجة؟" قال وهو يضحك: "نعم"، قلت له: "ما شأنه؟". قال: "سيأتي في أول الأسبوع القادم إلى الدوحة، وعرض مستشاره الإعلامي إجراء حوار تليفزيوني له في أحد برامج الجزيرة فكنت أول من خطر ببالي وقلت لهم: إذا كنتم تريدون حواراً مع الجزيرة فأفضل برنامج لكم هو "بلا حدود" مع أحمد منصور، وأعرف أنك العدو اللدود له فما رأيك؟". قلت له: "كيف كان ردهم عليك حينما أخبرتهم؟" قال: "قالوا إذا كان المحاور هو أحمد منصور فأعطنا فرصة ندرس الأمر ثم نرد عليك". قلت له: "لا أعتقد أنه سيقبل كما أني بحاجة إلى أن أفكر أيضاً في الأمر".

فكَّرت في الأمر قليلاً ثم قررت رفض إجراء الحوار، فقد كنت أخشى من شخصنة المسائل في الحوار لا سيما وأنه كان بيننا ما كان، ثم قررت استشارة الشيخ حمد بن ثامر رئيس مجلس إدارة الجزيرة وكذلك الزميل وضاح خنفر مدير قناة الجزيرة في الأمر. وبالفعل اتصلت بالشيخ حمد وأبلغته، فإذا به يرحب جداً بالحوار، وقال لي: "رفضك ليس في محله، ويمكنك أن تجري حوارك بمهنية عالية، كما تعودنا منك، ولا تدفع الأمور إلى الشخصنة على الإطلاق، وتتجنب الدخول معه في مواجهة حول ما كان بينكما في الفلوجة قبل عامين، كما أن حوارك معه سيكون مثيراً للغاية لأن الجميع تابع ما دار بينكما أثناء معركة

الفلوجة، لكن المهم أن يقبل هو بإجراء الحوار معك، وأنا أرى أنه إذا قبل فلا تتردد أنت".

تكلمت مع وضاح أيضاً وشرحت له الأمر فكان رأيه مثل رأي الشيخ حمد وحفزني على إجراء الحوار، فاعتبرت الأمر تحدياً كبيراً لي، ويجب أن أعد نفسي لتلك المواجهة المباشرة التي جاءت في ذكرى مرور ثلاث سنوات على غزو أمريكا واحتلالها للعراق.

شعرت بعد المكالمتين أني بالفعل كنت كمن يعد نفسه لمعركة، ولكن السلاح فيها هو المعلومة وقوة الحجة والأعصاب والقدرة على المراوغة والتكتيك، فالشخصية التي أمامي ليست متمرسة على العمل العسكري فحسب، ولكن الذين يتعاملون مع الصحافة في الغرب من سياسيين وعسكريين غالباً ما يحصلون على دورات تدريبية عالية في كيفية التعامل مع الصحفيين، كما أن هذا الرجل ظل على مدى ثلاثة أعوام يواجه عشرات الصحفيين مجتمعين في المؤتمرات الصحفية أو منفردين في الحوارات، ويعرف كيف يراوغ ويناور في إجاباته معهم، وكان عليَّ أن أدرس جانباً من حياته وشخصيته حتى أعرف كيف أتعامل معه وجهاً لوجه، وأذكر أني حينما التقيت به سألته بعض الأسئلة الخاصة عن حياته حتى عن وظيفة والده فأجابني وهو متعجب من أسئلتي.

أدركت أن تأخر الجنرال كيميت في الرد يعني أنهم يدرسون أمر إجراء الحوار معي على مستويات عليا، فلدي معهم سجل حافل وإن لم يكن أسودَ في مفهومهم ونظرتهم لمن لا يعملون معهم أو يروجون لأفكارهم ومشاريعهم، فهو غير ودي على أقل تقدير، فهم يُحَمِّلوني - كما نقل لي البعض - جانباً من مسؤولية فشلهم في معركة الفلوجة الأولى من خلال فضحي للجرائم التي قاموا بارتكابها لا سيما قتل النساء والأطفال، وإمكانية فشل العملية السياسية في العراق ككل في ذلك الوقت - كما نقلت لي مصادر عديدة التقت بمسؤولين كبار لديهم أو لدى الذين يعملون معهم - بل إن الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر صرح بذلك مباشرة في مذكراته وقال: إن العملية السياسية في العراق كادت تفشل كلها بسبب أحداث الفلوجة، وكان توقعي لقبول كيميت إجراء الحوار معي

ضعيفاً للغاية، ولكن المفاجأة كانت في وصول الرد بالموافقة، لقد قبل كيميت التحدي ووافق على إجراء المقابلة.

وبقيت هناك مشكلة أخرى ولكن فنية، هي أن برنامجي يبث على الهواء وكل أربعاء لكن الجنرال سيصل إلى الدوحة لمدة يوم واحد فقط، وسيكون يوم الأحد، فلا مجال سوى لتسجيل الحلقة، وبثها يوم الأربعاء، قالوا: ما رأيك؟ ورغم أني لا أقبل بالتسجيل إلا للضرورات القصوى وأن تكون ظروف الضيف لا تسمح بغير ذلك، وأن التسجيل معه سيكون إضافة لبرنامجي وللمشاهدين لذلك قلت لهم: لا بأس، وقبلت بالتسجيل.

وأبلغت وضاحاً بظروف الجنرال وأنه لا مجال أمامي سوى التسجيل معه، فلم يمانع، وجاء الجنرال مارك كيميت إلى مقر الجزيرة في الدوحة يرافقه ثلاثة هم: السيد بوب بروشا، والكابتن أريك كلارك، وبيج فوسان، وكان الجنرال يرتدي زيه العسكري الرسمي، وكان ذلك يوم الأحد الثاني من أبريل/نيسان من العام 2006، حيّاني وقال لي مجاملاً وهو يحاول كسر الحاجز النفسي بيننا: "تبدو أكثر أناقة عما كنت أراك على التليفزيون أيام الفلوجة"، قلت له: "شكراً يا جنرال"، ثم سألته عما إذا كان يريد الاستراحة قليلاً أم نبدأ حوارنا، فقال: "أنا جاهز مباشرة للحوار ولكن دعني أقرأ هذه أولاً".

التفت لما يريد الجنرال قراءته فوجدت بعض نصوص ميثاق الشرف الإعلامي الذي أعدته قناة الجزيرة كان معلقاً على الحائط، ومكتوباً باللغة الإنجليزية، بدأ الجنرال يقرأ بصوت عالٍ بعض الفقرات ويهز رأسه بأسلوب ينم عن التهكّم، فلم أعلّق وتركته يكمل قراءته حتى جاء الزميل موفق فائق توفيق الذي عادة ما يقوم بالترجمة وقدم نفسه لكيميت، فعرفه كيميت من صوته وقال له:" دائماً أنت الذي تقوم بالترجمة لي في لقاءاتي مع الجزيرة أعرف صوتك".

ذهبنا بعد ذلك إلى الاستديو، وكان فريق العمل في انتظارنا، ودار نقاش بسيط بيني وبين الجنرال كيميت، ثم قال لي في حضور كل الزملاء وسمعه كل من كان في الاستديو لأن ذلك كان قبل التسجيل مباشرة وقد أعاد موفق ترجمته لي وللزملاء بإعجاب حيث قال كيميت لي: "أود أن أقول لك شيئاً قبل أن نبدأ الحوار، أنا أختلف معك دائماً، وكنت أختلف مع كل ما تقدمه من تغطيات أثناء

معركة الفلوجة لكن أرجو أن تسمح لي بأن أعبر لك عن عميق احترامي وتقديري لك ولشجاعتك لا سيما أثناء وجودك في الفلوجة".

لم أنتظر من الجنرال كيميت أي شيء من هذا القبيل ولم أتوقعه ولا أعتقد أنه كان مضطراً لقوله، لكن الفضل دائماً ما شهدت به الأعداء، لقد كان الجنود الأمريكيون يقاتلون على الأرض ضد رجال المقاومة العراقية وكنت والجنرال كيميت نقاتل ولكن من على شاشات التلفزة دون سلاح، لم أكن أضعه وقتها أمامي على الإطلاق، كنت فقط أسعى لتقديم الحقيقة إلى الناس، بينما كان هو يدافع عن جرائم حرب ترتكبها قواته في الفلوجة بحكم وظيفته ويقول إنها كانت دفاعاً عن النفس، وها هو يجمعني الله به في لقاء لم أتوقعه بعد عامين ليقول لي وأمام جميع الزملاء ما جعلني أدرك أني كنت على صواب فيما أقدم، ولم أكن أروِّج الأكاذيب كما اتهمني على شاشة الجزيرة، وأني أجبرته وأجبرت كثيرين من المختلفين معي على احترامي واحترام ما كنت أقوم به، والاحترام دائماً لا يُشترى بأي مبلغ من المال ولا يطلب من أحد ولكنه يفرض، وأعلى درجات الاحترام أن تجبر من يختلف معك بل ويكرهك على أن يحترمك ويقدر شجاعتك، لأنك كنت تقوم بشيء أساسي هو اعتناق الحقيقة وتقديمها للناس.

قلت له: "شكراً يا جنرال لكن ذلك لن يغير شيئاً من المعركة التي سأقوم بها الآن معك، كنت وقتها تقوم بعملك وأنا كذلك كنت أقوم بعملي". ورغم أن ملامحه كانت جامدة للغاية إلا أنه ابتسم ابتسامة باهتة وخفيفة، وقال لي: "اسأل ما شئت ليس لديَّ مانع من الإجابة على أي سؤال".

ولأني أعتبر هذه المعركة مع الجنرال كيميت هي وثيقة وليست مجرد حوار فإني أكمل المشهد بعرضها هنا كاملة دون تدخل مني سوى في الصياغة اللغوية فقط لبعض الألفاظ وليس العبارات، حيث كانت ـ والحمد لله ـ كما توقع الشيخ حمد بن ثامر ووضاح خنفر وسعيد الشولي بل والمشاهدون الذين تابعوها ووافوني بمئات الرسائل والتعليقات عليها من أقوى الحلقات التي قدمتها في برنامج "بلا حدود"، وسوف أقدم نصها كما بثت في يوم 5 أبريل/نيسان 2006، وفي نهايتها سوف أورد بعض الملابسات التي وقعت أثناء الاستراحة وبعد الحلقة.

فإلى نص المواجهة مع الجنرال مارك كيميت الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب قائد المنطقة العسكرية الأمريكية الوسطى للشؤون الاستراتيجية والتخطيط، وفي المقدمة تعريف مختصر بشخصيته وحياته المهنية:

المقدمة:

أحمد منصور: ثلاث سنوات مضت على الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله زاد خلالها وضع العراق والمنطقة ضبابية وتأزماً واضطراباً، وفي حلقة اليوم نحاول التعرف على الاستراتيجية الأمريكية ورؤية الولايات المتحدة من الناحية العسكرية لمستقبل الوضع في العراق والمنطقة مع الرجل المسؤول عن الاستراتيجية والتخطيط للمنطقة الجنرال مارك كيميت نائب قائد المنطقة العسكرية الأمريكية الوسطى للشؤون الاستراتيجية والتخطيط، وهي الجهة المسؤولة عن سير العمليات العسكرية في كلٍ من العراق وأفغانستان وآسيا الوسطى والشرق الأوسط والقرن الإفريقي، وتضم تحت قيادتها مئتي ألف جندي أمريكي وتنتشر في سبع وعشرين دولة. وُلد الجنرال مارك كيميت في منطقة فورت سيل في ولاية أوكلاهما في الولايات المتحدة، وتخرج في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في العام 1976 وحصل على الماجستير من كلية الحرب الوطنية، خدم سابقاً في المقر الرئيسي لقيادة القوات الأوروبية العليا التابعة لحلف الناتو في بلجيكا، كما تولى منصب نائب قائد العمليات العسكرية في العراق وناطقاً رسمياً باسمها منذ سقوط نظام صدام حسين إلى أن تولى مهام منصبه الجديد.

أحمد منصور: جنرال مرحباً بك.

مارك كيميت: شكراً جزيلاً لكم.

أحمد منصور: نلتقي بعد عامين ولكن ليس في ساحة المعركة هذه المرة وإنما في مواجهة في الاستديو.

مارك كيميت: في وضع أهدأ كثيراً أيضاً.

الاستراتيجية الأمريكية

أحمد منصور: بعد ثلاث سنوات على غزوكم للعراق واحتلاله ما هي استراتيجيتكم في الفترة القادمة؟

مارك كيميت: أعتقد أن استراتيجيتنا تبقى من الناحية العسكرية هي الاستمرار في بناء قدرات القوات الأمنية العراقية لكي يتولوا زمام السيطرة لمهام الدفاع الداخلي والخارجي لذلك البلد، سفارتنا تعمل باستمرار لمساعدة الحكومة في العملية السياسية والوكالات الأخرى تستمر في بناء الاقتصاد داخل العراق.

أحمد منصور: لكن التقارير تشير إلى أنكم حتى الآن من بين 96 كتيبة أو فرقة عسكرية عراقية أعلنتم عن تأسيسها لا يوجد من بينها فرقة واحدة مؤهلة بعد ثلاث سنوات لتولي المسؤولية؟

مارك كيميت: هذا ليس صحيحاً، إن نظامنا في وضع مثل هذه المؤشرات لقياس مدى الاستعداد يشير إلى أن هناك أكثر من ثمانين وحدة تعمل ببعض المساعدة بإمكانها أخذ زمام القتال ضد المتمردين بنفسها، والغالبية العظمى تقودها قوات عراقية تدافع ضد الإرهابيين والمتمردين.

أحمد منصور: في النهاية ما الذي يمكن أن تقود إليه تلك الاستراتيجية؟

مارك كيميت: إنها يمكن أن تؤدي إلى عراق مستقر، وإلى حكومة تتحدث باسم الشعب وليس الإرهابيين، الشرطة والجيش يدافعان عن الشعب وليس الإرهابيين ولا المتمردين ولا الميليشيات غير المشروعة.

انتشار الفوضى

أحمد منصور: لكن الواقع غير ذلك حيث تنتشر الفوضى في العراق، جاك سترو وزير الخارجية البريطاني اعترف بأن الفوضى تعم العراق، والرئيس بوش نفسه في خطابه بمناسبة مرور ثلاث سنوات على احتلال العراق تحدث عن فوضى في العراق، كذلك السفير الأميركي تحدث عن أن العراق ينزف، التقارير كلها تشير إلى أنكم حولتم العراق إلى أكبر ساحة للفوضى والقتل والدمار في العالم؟

مارك كيميت: لا.. هذا ليس صحيحاً، من الواضح أنه ما تزال هناك أمور يجب أن تتم وهناك شوط يجب أن يُقطع قبل أن نعتبر العراق مكاناً مستقراً، أعتقد أن المهم أن نتحدث عن التقدم الذي تم إحرازه، القتال تقوم به قوات العراق..

أحمد منصور [مقاطعاً]: أي تقدم سوى القتل والخراب والدمار وأن المدنيين العراقيين الآن لا يجرؤ أحدهم على الخروج من بيته، عن أي تقدم تتحدث؟

مارك كيميت [متابعاً]: أولاً إن ما تراه الكاميرا هو جزء صغير للغاية من التقدم الذي يُحرَز في العراق، نعم نقر بأن التلفزيون يريد رؤية القتل والدمار ولكن في أربعة عشر من ثماني عشر محافظة هناك حالات فوضى أقل، ثانياً الشعب في العراق لأول مرة في تاريخهم قام بالتصويت في ثلاث انتخابات اختاروا قادتهم هناك، أحد عشر مليون ناخب قاوموا الإرهابيين، الإرهابيون قالوا إذا صوَّتم ستموتون وأحد عشر مليون عراقي قالوا سوف نقوم بذلك لنختار قيادتنا، إذن الغالبية العظمى من الناس في العراق يأملون في مستقبل أفضل يعلمون أنهم في مرحلة انتقالية لكنهم يتطلعون قُدماً ليوم يقفون فيه كجارٍ مسالم، كممثل للديمقراطية في هذه المنطقة..

أكبر عملية تدليس

أحمد منصور: لن أرد عليك من كلامي وإنما أرد عليك من كلام مايكل أولهانان زميل الدراسات الخارجية في معهد بروكنز في واشنطن، يقول في مقال نُشر في 25 مارس/آذار 2006: "من غير المعقول أننا نكسب الحرب في العراق، فهذا لا يتوافق مع الأرقام السيئة التي تأتي من العراق، ويتناقض مع تطورات الأحداث، نحن الآن متورطون فيما يمكن أن نسميه وضعاً شديد الصعوبة"، أما روبرت فيسك مراسل صحيفة الـ(Independent) البريطانية الذي ربما تكرهونه ـ بسبب تقاريره والذي وُصف بأنه أفضل مراسل صحفي في العصر الحديث، يقول في مقال نشر في 26 فبراير/شباط 2006 عما تقومون به في العراق: "إن الجميع في الشرق الأوسط يعيد كتابة التاريخ الآن، لكن لم يسبق أن شهدنا الإدارة الأميريكية تفسر عن عمد وتدليس وقسوة المأساة على أنها نجاح، والهزيمة على أنها نصر، والموت على أنه حياة، وذلك بمساعدة صحافة

أميركية متواطئة"، أما تشعرون - يا جنرال - حسب كلام فيسك وحسب كلام أولهانان أنكم تقومون بأكبر عملية تدليس في التاريخ؟

مارك كيميت: أولاً أنا أحترم آراء مايكل أولهانان، وأعتقد أنه مراقب هادئ للأحداث، فنحن لا نقول أبداً بأن الوضع في العراق حالياً هو ما نريده أن يكون، الشعب في العراق لا يحب الأوضاع كما هي عليه الآن لكنه من الواضح أن هناك وضع انتقالي. واضح أن هناك إرهابيين مثل أبي مصعب الزرقاوي المرتبط ارتباطاً مباشراً بالقاعدة يعمل في العراق وما زال هناك عمل يجب أن يتم وهناك كثير من العمل يجب أن يتم، الكثيرون من العراقيين يغامرون بحياتهم من أجل الاستقلال والحرية لينعموا بالكرامة وبحقوق الإنسان، إذاً لن أوحي بكلامي أبداً بأن الوضع انتهى أو أننا كسبنا، لكن ما زال هناك تقدم يتم إحرازه داخل العراق حتى أكثر المراقبين الذين لا يقرون بذلك يجب أن يعترفوا به..

أحمد منصور (مقاطعاً): جنرال.. اسمح لي، آخر الاستطلاعات تقول إن 72% من الجنود الأمريكيين الموجودين في العراق يريدون الخروج منها، أكثر من ثلث الجنود الأمريكيين يتعرضون لاضطرابات وأمراض نفسية لا سيما الذين عادوا من العراق ويعالَجون منها، نسبة الطلاق مرتفعة بين أسر الجنود الأمريكيين، كيف تقودون نصراً بجنود منهزمين نفسياً؟

مارك كيميت: أولاً أعتقد أن جنودنا لا يعانون من مشكلات نفسية كما تقول، لا أدري من أين جئتم بهذه الأرقام لكنها..

أحمد منصور: هذا تقرير منشور..

مارك كيميت: الغالبية العظمى من الجنود يريدون العودة لكنهم يريدون العودة بعد إتمام المهمة، أنا عندما كنت هناك كنت أريد العودة لكن ليس قبل إتمام المهمة لهذا السبب هم باقون هناك، لهذا السبب يستمرون هناك فخورون بعملهم وبإنجازاتهم..

الإصابات الحقيقية في صفوف الجنود

أحمد منصور: التقارير التي تُنشر في الصحافة الأمريكية الـ(News Week)،

(Washington Post)، (New York Times)) وتتحدث عن أوضاع الجنود تتحدث عن أوضاع أخرى غير التي تقولها، ولكن أيضاً من بين هذه التقارير أن الجيش الأمريكي نفسه أعلن في 24 يناير/كانون الثاني 2006 أن الهجمات التي تعرض لها في العام 2005 أو التي حدثت في العراق بشكل عام بلغت 34 ألف هجوم على مدار العام ومع ذلك أنتم لا تعلنون عن أي إصابات سوى جندي أو اثنين أو ثلاثة كل يوم وكأنكم متعاقدون مع الذين يقاتلونكم أن لا يصيبوا أكثر من هذا، لماذا تحجبون الأرقام الحقيقية للقتلى والتي لا تتناسب مع الهجمات الضخمة التي تتم على قواتكم؟

مارك كيميت: أولاً أنا أعتقد أنه أمر ينافي المنطق، أن يقال إننا لسنا نزيهين تماماً حول عدد الخسائر التي تلحق بقوات التحالف وهذه يُعلَن عنها بوضوح ويتم التحقق منها ونحن مستعدون لأية مساءلة، لكن مرة أخرى نعود إلى النقطة التي تحدثت عنها في البداية، هل هذا مهم في أذهان الجنود الأمريكيين أن ينجحوا؟ والإجابة قطعاً نعم، فهم لا يمكن أن يكونوا هناك من دون أن يفهموا سبب وجودهم، هناك أناس تُقطَع رؤوسهم على أيدي الإرهابيين، هناك أطفال أبرياء يقتلهم المتمردون والإرهابيون، الاستقرار الذي جاءت به قوات التحالف كلما تستمر في دعمها للقوات العراقية بأن تتولى الأمر بنفسها هو ربما الإمكانية الأكبر لتحقيق النجاح لاحقاً داخل هذه المهمة، ونحن نبقى على ثقة كاملة بأننا عندما ننظر إلى الأمور بعد خمس سنوات من الآن ونرى أن ما حققته قوات التحالف في القوات العراقية كان هو الأمر الصواب، التاريخ سيكون حَكَماً علينا وأنا مقتنع تماماً بأن التاريخ سوف يحكم على مهمتنا المشتركة بين العراقيين وقوات التحالف على أنها الأمر الصواب داخل ذلك البلد.

أحمد منصور: التاريخ لم يحكم لكم في أي مكان دخلتموه بالصواب، لم يحكم لكم في لبنان، لم يحكم لكم في الصومال، لم يحكم لكم في فييتنام، لم يحكم لكم في أي مكان آخر دخلتموه وأيضا لن يحكم لكم في العراق، ليس حسب كلامي وإنما حسب ضابط أمريكي قضى اثني عشر عاماً في المارينز وشارك في العراق هو جيم ميسي الذي أصدر كتابا في باريس في شهر نوفمبر/تشرين الثاني 2005 تحت عنوان (اقتل.. اقتل.. اقتل) وكان مما قاله فيه: "لقد اكتشفت أنا وكثير ممن

معي أننا أرسلنا لقتل المدنيين وليس لقتل الإرهابيين. ووثَّق في كتابه اعترافات كثيرة جداً يمكن أن تدينكم جميعاً أنتم العسكريون الأمريكيون في العراق؟

مارك كيميت: أنا يمكن أن أعثر على أي عدد من الكتب التي تُكتب حول الأوضاع في العراق ولنكن واضحين تماماً حول الوضع الآن إضافة إلى تزايد العنف الطائفي بنسب معينة لكن في لب الموضوع هناك تهديد من القاعدة ومَن يرتبط بها ليس في العراق فحسب بل في عموم المنطقة مما يعني أنه مهم أن نتصدى لهذا الخطر الإرهابي وأن نحاربه ليس فقط في العراق بل في المنطقة عموماً لكي يستطيع أطفالنا وأحفادنا أن يعيشوا بلا خوف في المستقبل.

تجميل وجه الخنزير

أحمد منصور: هكذا تقولون.. لكني سأترك جيم ميسي وأذهب إلى زميلتك فيكتوريا كلارك مساعدة وزير الدفاع للشؤون العامة التي كانت تقف في واشنطن حينما كنت أنت تقف في بغداد لتدافع عما يقوم به الجيش الأمريكي والجنود العراقيون، فيكتوريا كلارك استقالت من منصبها وكتبت كتاباً صدر قبل أيام اسمه (أحمر على شفاه خنزير) قالت في كتابها ما خلاصته: إن كل ما كانت تقوم به كانت عملية تجميل لوجه الخنزير الذي لا يُجمَّل، وأنها لم تكن مقنعة إلى الناس فيما قدمته، هل سنقرأ لك أنت أيضاً كتاباً ربما بعد مدة طويلة من تقاعدك لتتحدث فيه عن أن هذه الفترة التي تدافع فيها باستماتة عما يقوم به الأمريكيون في العراق لم تكن سوى أحمر على شفاه خنزير؟

مارك كيميت: أنا بالتأكيد لا أعتقد أنني سأكتب كتاباً، لديَّ بيانات صحفية كثيرة ومؤتمرات صحفية يمكن أن ترجعوا إليها، لذلك لا أجد أي مكان لكتابة أي كتاب في المستقبل، لكن مرة أخرى من المهم أن نفهم وأن ندافع عما يقوم به جنود التحالف على الأرض، فهم ليسوا إلا ذروة سياستنا الخارجية، وأيضا كانوا مسؤولين عن تخليص بلد من ديكتاتور قاسٍ كان يشكِّل تهديداً للمنطقة، وضمنوا أن الشعب في العراق يستطيع التصويب وأن يحزموا أمرهم بخياراتهم الشخصية بدلاً من أن يخضعوا لأهواء ديكتاتور استخدم أسلحة دمار شامل ضد شعبه، وعليهم ألا يخافوا بعد الآن ممَن يطرق الباب ومَن يكون من المخابرات وغيرهم

ليأخذهم من بيوتهم دون رجعة، نعم أنا سأدافع عن جنودنا الأمريكيين وقوات التحالف لأن ما يقومون به عمل مشرِّف، وهم يخدمون بشرف، وما حققوه حتى الآن كان أمراً رائعاً فما زال الكثير من العمل، وأنا أبقى مقتنعاً بأن هؤلاء الجنود سيكونون هناك حتى إتمام المهمة.

الدفاع عن جرائم الحرب

أحمد منصور: جنرال اسمح لي، هل ستظل تدافع حتى عن جرائم الحرب التي ارتكبها جنودكم في العراق حسبما جاء في تقرير فيلم أنتجه تلفزيون راي الإيطالي عن معركة الفلوجة الثانية؟ حيث استخدمتم فيها الفوسفور الأبيض، وحوَّلتم المدينة حسب اعتراف جنديين أمريكيين شاركا في المعركة إلى أرض محروقة في 15 مارس/آذار 2006، قبل أيام نُشرت في كل وسائل الإعلام العالمية صور عائلة من أحد عشر طفلاً وامرأة وشيخاً قُتلت على يد جنودكم هي عائلة المواطن فائز هُرات قُتلوا بالكامل بعد مداهمة منزلهم وجمعهم إلى جوار بعضهم البعض وقتلهم ونقلت وكالات الأنباء وصفاً لكيفية تصفية النساء والأطفال، العائلة تتكون من رب العائلة، وثلاثة من أطفاله، وشقيقته، وثلاثة من أطفالها ووالده وامرأة من أقاربهم، القتلى من الأطفال تراوحت أعمارهم بين شهرين وبين ست سنوات، هل أيضاً ستدافع أيضاً عن هذه الجريمة؟

مارك كيميت: إن الغالبية العظمى من جنود التحالف يتصرفون بشرف وبشكل مسؤول في مواجهة أوضاع صعبة خاصة في أجواء يحاول فيها المتمردون والإرهابيون جرهم إلى أوضاع من الممكن أن يحدث فيها خسائر في المدنيين، وهناك عدد قليل جداً من الوقائع التي تصرّف فيها الجنود خارج نطاق المسؤولية، لن أدافع عن ذلك، لهذا يتم التحقيق معهم وإحالتهم إلى المحاكم وفي حال إدانتهم يعاقَبون.

فضيحة سجن أبو غريب

أحمد منصور: الذي كشف فضيحة سجن أبو غريب سيمور هيرش الكاتب

الأمريكي المعروف، لكنك تقول الآن إن تصريحاتك تملأ الصحف؛ من بين تصريحاتك أنك دافعت عما ارتكب في سجن أبو غريب وقلت إن هدفه هو تشويه سمعة الجيش الأمريكي؟

مارك كيميت: أولاً لديك عدة بيانات ليست صحيحة، أولها أن المؤسسة العسكرية هي التي كشفت ما حدث في أبو غريب قبل شهرين من حديث سيمور هيرش عنها، ثانياً لا مسؤول عسكري أبداً دافع عن الأعمال غير المشروعة والتعذيب التي قام بها الجنود، هؤلاء الجنود الذين تصرفوا خارج نطاق الأوامر تم التحقيق معهم ومَن تم التثبت من إدانتهم قد عوقب، نعم لا يمكن أن ندافع عن جنود يتصرفون خارج نطاق الأوامر والسلوكيات المطلوبة لهذا تمت محاكمتهم وعقابهم.

الحرب على الصحفيين

أحمد منصور: جنرال.. تعرف أن ما يُكشف لا يساوي سوى 1 أو 2% من حقيقة ما يمكن أن يتم وأن الكاميرات لا تصل إلى أماكن كثيرة وأنتم ترفضون نقل الحقيقة إلى الناس عبر حجب وصول الكاميرات والمصورين وأجهزة التلفاز المستقلة إلى الأماكن التي قمتم بتدميرها مثل القائم والفلوجة ومعركة سامراء الأخيرة، حجب الحقيقة هذه هل يمكن أن يدوم إلى الأبد؟ إلى اليوم لا يُسمح لغير سكان الفلوجة بدخولها رغم مرور أكثر من عام ونصف على معركتها الأخيرة، إلى متى ستظلون تحجبون الحقيقة عن الناس وعن العالم؟

مارك كيميت: مرة أخرى لا أدري من أين تأتي هذه البيانات لأن هناك كاميرات في أرض المعركة وداخل العراق أكثر مما كان في تاريخ الحروب وأي كلام يوحي بأن 1 أو 2% من الحقيقة هو الذي يظهر لا يتساوق مع ما نراه نحن أثناء خدمتنا، لا يمكن أن تُبقي على الأكاذيب وهي مخفية، الحقيقة هي التي ستظهر في النهاية وهذا هو المبدأ الذي نعمل عليه، ربما هناك محاولة لطمس الحقيقة لكنها تظهر دائماً في النهاية، وهذا يأتي من فهم الجنود بأن الحقيقة هي أمضى سلاح في جعبتهم، وأيضاً نحن كنا نسمح للناس بالوصول.. الصحفيين المسؤولين ليصلوا إلى أرض المعركة.

القتلى العراقيون

أحمد منصور: الرئيس بوش اعترف بأن عدد القتلى المدنيين العراقيين وصل إلى ثلاثين ألفاً، وهؤلاء يزيدون بثمانية أضعاف عن عدد الذين قُتلوا في أيرلندا الشمالية طوال ثلاثين عاماً كما يقول السير مينسيس كامبل مسؤول العلاقات الدولية في الحزب الليبرالي في بريطانيا، هل هؤلاء المدنيون الذين قُتلوا والذين اعترف الرئيس بوش على الأقل بقتلهم رغم أن هناك تقارير أخرى - في ذلك الوقت - تقول إنهم يزيدون على مئة ألف، أما تتحملون أنتم كقوات احتلال موجودة في العراق المسؤولية عن قتلهم؟

مارك كيميت: دعونا نتحدث عن ذلك لأن ما قاله الرئيس هو أنه في النزاع برمته كان يمكن أن يكون 25 ألف مدني قد قُتلوا لكن الغالبية العظمى منهم من هؤلاء المواطنين ربما قُتل على أيدي المتمردين والإرهابيين وليس على أيدي القوات العسكرية في عمليات قتالية، فنحن نؤدي عملنا بهدف تقليل الخسائر في صفوف المدنيين. ونحن نفهم أن إحدى مسؤولياتنا الكبرى هو الإبقاء على السكان إلى جانبنا، لهذا نبذل الكثير من الجهد لكي لا نفعل ما يفعله الصدّاميون والإرهابيون والمتمردون أن يبقوا داخل مناطق سكانية ويستخدمونهم كدروع بشرية وأنا أدافع عن سجلنا، الضحايا المدنيون على الأكثر أدق الأرقام هي أقل على الإطلاق مما يقارَنوا بأي معركة ونحن نبذل قصارى جهدنا لحماية المدنيين في حين أن الإرهابيين والمتمردين يحاولون قتل الناس، على العكس مما نفعل.

الأخطاء وجرائم الحرب

أحمد منصور: ألم ترتكبوا أخطاءً في العراق؟

مارك كيميت: أعتقد أنه في أي وقت تشن فيه الحرب تكون هناك أخطاء ولدينا نظام داخل مؤسستنا العسكرية كلما نراجع أياً من عملياتنا نحاول أن نتعلم منها لنحسن أداءنا، والقول بأننا لم نرتكب أخطاءً ليس له علاقة بما يحدث في الحروب الحديثة.. الحروب الحديثة على مدى آلاف السنين كانت كذلك.

أحمد منصور: في 18 مارس/آذار الماضي نشرت صحيفة الـ(Independent)

البريطانية أن السياسي البريطاني المخضرم توني بن أرسل خطاباً موقعاً من قِبل ألف شخص من الشخصيات البريطانية العامة والسياسية يسرد فيه 28 خرقاً للاتفاقات الدولية الخاصة بجرائم الحرب ارتكبتها قواتكم في العراق والقوات البريطانية، أما تخشون من محاكمتكم بتهم جرائم حرب يوماً ما على هذه الخروقات التي ارتُكبت؟

مارك كيميت (غاضباً): ربما يكون الأمر أننا قد نُساءَل عن ذلك لكن الحقائق على الأرض سوف تتجلى وأجد أنه من الملفت أن طريقة إدارتك للأسئلة يوحي بأن قوات التحالف فقط هي التي تقتل المدنيين لكننا نحاول تجنب الضحايا من المدنيين، لماذا لا تتحدث عن الزرقاوي؟ لماذا لا تتحدث عن الصداميين وعن المتمردين الذين يتعمدون إيقاع الأذى في صفوف المدنيين لأغراضهم الإرهابية؟ هل ستكون بنفس الحذر وتطلب منهم الحقيقة كما تفعل ذلك مع قوات التحالف؟ ماذا عن الآلاف من الضحايا الذين أوقعهم الإرهابيون، قطع رؤوس المدنيين الأبرياء ألا يعني ذلك مسؤولية لديك لتتحدث عن هؤلاء أيضاً؟

رد على غضب كيميت

أحمد منصور: جنرال أنا أتحدث مع ضيوفي كلهم بطريقة واحدة ولو أن الذي يجلس أمامي واحد من هؤلاء لوجهت إليه الأسئلة بنفس الطريقة وهذا أسلوب برنامجي والكل يعرفه أنا أتحدث معك الآن كمسؤول عن المنطقة؛ مسؤول عن الخطط الاستراتيجية فيها، بقيت في العراق عدة سنوات بعد احتلالها وكنت ولا زلت الرجل الذي يظهر في وسائل الإعلام ليدافع عما يقوم به الأمريكيون، أتحدث معك عن مسؤولياتك، عن مسؤوليات قواتكم، عما تقومون فيه في العراق، العراق الآن تحت مسؤولياتكم أنتم، ليس تحت مسؤولية الذين يقاتلون في الطرف الآخر، أنتم القوة الرئيسية العظمى في العالم التي جاءت لتخليص العراقيين مما يعيشون فيه ولكنكم غمستم العراقيين والمنطقة كلها فيما هي فيه الآن فبالتالي المسؤولية مسؤوليتكم أنتم، حينما أجلس مع الآخرين سأتحدث معهم بنفس الطريقة أرجو أن لا تكون قلقاً، ولكن أجب على أسئلتي فيما يتعلق بجنودكم لو عدت إليها الآن وإنكاركم للأعداد الحقيقية فيها هناك في نهاية العام 2004 نشرت

صحيفة الـ(Times) البريطانية تقريراً قالت فيه إن العدد الحقيقي لقتلاكم في العراق هو خمسة عشر ألف قتيل وخمسة وعشرين ألف جريح، لكنكم إلى اليوم تتحدثون عن عدد قليل للغاية لا يزيد عن ألفين وثلاث مئة من القتلى وحوالي سبعة عشر ألف جريح، هل معنى ذلك أن هناك قتلى تعلنون عنهم وقتلى لا تعلنون عنهم؟

القتلى الأمريكيون ومستودع الجثث

مارك كيميت: إنه من الواضح أن هذه الأرقام غير صحيحة، إن قوات التحالف حريصة جداً حول كل واحد من ضحاياها ويتم التعامل معها، فنحن مسؤولون أمام عائلاتهم لإعلانها وأي إيحاء من قِبل أي صحيفة بأننا نزيِّف أرقام ضحايانا هو مجرد كذب.

أحمد منصور: قلتَ جملة مهمة جداً وهي العائلات، وهذا جعل كثيراً من التقارير تقول إنكم لا تعلنون إلا عن أسماء القتلى الذين لهم عائلات وأن جيشكم في العراق يتكون من مشاة البحرية والقوات البرية، ومتطوعين يحملون الكارت أو البطاقة الخضراء الأمريكية ولم يحصلوا على الجنسية بعد، كذلك من متعهدين أمنيين ويصل عدد هؤلاء الذين لا يحملون الجنسية الأمريكية أو المتعهدين الأمنيين أو المتطوعين إلى حوالي ستين ألفاً، وهؤلاء لا تلتزمون في عقودكم معهم عن الإعلان عن أنهم من أعداد القتلى أو دفن جثثهم أو نقلها إلى أي مكان آخر؟

مارك كيميت: لا أعتقد.. إن هذا منافٍ للمنطق، إن أي إيحاء بأننا نحاول إخفاء عدد ضحايانا من أي طرف كان هو محض كذب.

أحمد منصور: في أكتوبر/تشرين الأول من العام 2003 افتتحتم أكبر مستودع للجثث في العالم في قاعدة سلاح الجو في ولاية دلاوير، وتشير تقارير كثيرة إلى أن هذا المستودع فيه مئات الجثث لجنود أمريكيين لم يتم دفنهم بعد وأن هذا المستودع صُمم للحفاظ على الجثث لمدد طويلة، كم عدد الجثث التي لم يتم دفنها بعد والموجودة في هذا المستودع؟

مارك كيميت: لا أعلم وأنا لا أصدق أن هناك أي جثث في دلاوير لم يتم أخذها في الحساب والإعلان عنها، إنه واجب مقدس لجيشنا بأن يعيد جثث جنوده إلى عائلاتهم لكي تعلم عائلاتهم بمصيرهم ويدفنونهم، هذا واجب مقدس ومرة أخرى أنا أجد أي إيحاء بأننا لا نتعامل بنزاهة بأن يكون مهيناً تقريباً لنا.

العجز عن مواجهة المقاومة

أحمد منصور: في 2 ديسمبر/كانون الأول 2005 نشرت صحيفة (New York Times) تقريراً قالت فيه باستحالة قدرة القوات الأمريكية أو العراقية التي تعمل معها على تصفية المقاومة في العراق لأنها تتوزع على أكثر من مئة تشكيل منفصل عن بعضه البعض، ماذا قررتم بشأن المقاومة في العراق؟

مارك كيميت: إنه من المهم لنا أن المقاومة أو التمرد أو الإرهابيين يتم السيطرة عليهم من قِبل السلطات العراقية الشرعية، فهم وباء على ذلك البلد ويمنعونه من التقدم إلى الأمام ولا توجد هناك مقاومة شرعية موجودة داخل العراق، هناك حكومة دستورية صوَّت عليها 11 مليون شخص، وهم بصدد تشكيل حكومة وهم يمثلون الـ 25 أو 26 مليون عراقي، وليس مجموعات التمرد ولا الإرهابيين ولا الصداميين السابقين الذين يريدون إعادة حكم البعث داخل العراق، هذه مجموعات خارجة عن نطاق القانون وغير مشروعة يجب أن تُكبح من قِبل السلطات الشرعية للبلد.

أحمد منصور: لكن (New York Times) أيضاً وصحف أخرى منها صحف عربية كثيرة في خلال الفترة الماضية نشرت تقارير عن مفاوضات تمت بالفعل بينكم وبين بعض فصائل المقاومة، زلماي خليل زاد سفيركم في العراق في حوار إلى صحيفة " الحياة " نُشر قبل عشرة أيام قال إن المقاومة تنقسم إلى أقسام منها الذين يقاتلون واعتبرهم نوعاً من المقاومة، ماذا عن مفاوضتكم مع المقاومة العراقية؟

مارك كيميت: أولاً نحن لا نتفاوض مع الإرهابيين، نحن لا نتفاوض مع المتمردين ولكن هناك مجموعات كبيرة من العراقيين الذين لا يشعرون أنهم يمكن أن يكونوا جزءاً من مستقبل العراق نحن نتواصل معهم، ليس الذين تلطخت أياديهم بالدماء

ومسؤولين عن قتل أطفال وقطع الرؤوس، ولكن أولئك الذين لا يؤمنون.. لا يرون أن لهم مستقبلاً في البلاد فمن الأهمية بمكان أن نفهم إذا لم تكن يدك ملطخة بالدماء فلك مستقبل في البلد، الحكومة العراقية وقوات التحالف تحاول الوصول إلى هؤلاء لتجعلهم جزءاً من العملية السياسية والإجماع الوطني من أجل مستقبل للعراق.

الإرهاب والمقاومة

أحمد منصور: جنرال اسمح لي، ماذا تقصد بالتلطخ بالدماء في وقت الكل في العراق يداه ملطخة بالدماء ابتداءً منكم أنتم الأمريكيون حسب تقارير كثيرة، يعني كثير من ضباطكم أو من الآخرين، أنتم قمتم باحتلال بلادهم ومن حقهم أن يدافعوا عنها، في كل الشرائع المقاومة حق مشروع وهؤلاء يعتبرون أنفسهم مقاومة، لمَ تقول عنهم إرهابيين؟ هم لم يأتوا إلى بلادكم، أنتم الذين جئتم إلى بلادهم؟

مارك كيميت: دعونا نتحدث عن مبدأ المقاومة المشروعة، هناك حكومة تم انتخابها أكثر من 85% من الناس الذين يمكن أن يصوِّتوا تحدوا الإرهابيين وصوَّتوا، هناك مجموعات داخل هذا البلد يقولون إن التصويت هرطقة وزندقة وكفر ويريدون إعادة الماضي يريدون العودة إما إلى أيام صدام أو إلى ما وراء ذلك ليرسوا في البلد نظاماً على غرار نظام طالبان، هذه ليست مقاومة مشروعة هذه ببساطة تمرد وإرهاب، هناك حكومة شرعية الآن موجودة داخل العراق، كيف يمكن أن تكون هناك مقاومة مشروعة ضد حكومة شرعية؟ الأمم المتحدة أعلنت الحكومة العراقية حكومة حرة متعددة ذات سيادة وفدرالية متوحدة، هذه هي الشرعية داخل البلد وليس الذين يريدون قطع الرؤوس والذين يريدون قتل الأطفال والنساء، هذه ليست مقاومة مشروعة.

سيناريو فييتنام والانسحاب

أحمد منصور: جنرال نفس هذا الكلام قلتموه كأمريكيين حين كنتم تحتلون

فييتنام وجاءت أيضاً حكومة فييتنامية منتَخبة تحت احتلالكم، لكنكم في النهاية فاوضتم المقاتلين بين عامي 73 و 75، ثم خرجت تلك الحكومة التي كانت منتَخبة وكانوا يتعلقون في الطائرات المروحية التي أقلعت من مبنى السفارة الأمريكية وهي تحمل العملاء، وهنا أجد بعض المحللين البريطانيين والأمريكيين يتحدثون عن هذا، عن إمكانية انسحاب القوات الأمريكية من العراق إذا تم انتخاب الديمقراطيين في الكونغرس وأصبحوا أغلبية في نوفمبر/تشرين الثاني 2006 من الممكن أن يحجبوا الدعم المالي وستضطرون للخروج مع مَن جئتم بهم من خلف البحار ليحكموا العراق بنفس الطريقة التي خرجتم بها من فييتنام، ما قولك؟

مارك كيميت: لا أعتقد أن الأمر سيكون كذلك، نحن سنترك العراق يوماً ما، ولكننا سنترك العراق عندما تكون قوات الأمن العراقية قادرة على التصدي لخطر الإرهاب، لخطر التمرد، وحكومة العراق تكون مشكَّلة بشكل كامل وفاعلة ولن تكون هناك حاجة لوجود قوات التحالف، هذه كانت استراتيجيتنا دائماً، يومها سنسلم المسؤولية والأمن والاقتصاد لحكومة العراق، هذا وعد قطعناه عندما دخلنا البلد وهو وعد سنلتزم به عندما نسلم الأمر لهم.

إيحاءات الهزيمة المبكرة

أحمد منصور: جيفري كامب مدير البرامج الاستراتيجية الإقليمية في مركز نيكسون في الولايات المتحدة نشر مقالاً في 13 مارس/آذار 2006 قال فيه " إن الظروف التي دفعت الإدارة الأمريكية لسحب قواتها بشكل مفاجئ من لبنان بعد مقتل 240 جندياً أمريكياً من المارينز في العام 1982 تتشابه مع الظروف الاستراتيجية الحالية في العراق" وأنه لا يستبعد قراراً فجائياً بسحب القوات الأمريكية من العراق، أمس الأول من أبريل/نيسان 2006، كوندوليزا رايس وزيرة خارجيتكم قالت إن القوات ستنسحب من العراق، في تصريحات لك أنت، وتصريحات للجنرال أبي زيد، وتصريحات لرامسفيلد قال ستبقي القوات إلى 2009، الرئيس الأمريكي بوش قال: الرئيس الذي بعدي أو الذين سيأتون بعدي هم الذين سيتخذون هذا القرار، هذا التضارب والضبابية في قراركم بخصوص القوات أما يعكس نوعاً من أنواع الهزيمة المبكرة لقواتكم في العراق؟

مارك كيميت: لا أعتقد أنه يعكس أي شيء عدا عن حقيقة أننا لا نريد أن نُدفع من قِبل جداول زمنية، لأن أسوأ شيء يمكن أن نفعله أن نضع جدولاً زمنياً لوقت تسليم الأمور للقوات العراقية فعلينا أن نضمن أولاً أن القوات العراقية قادرة تماماً على تولي زمام الأمور بنفسها، لهذا السبب سنسلم لهم المسؤولية تدريجياً وكلما أصبحت الحاجة لوجود أقل كلما سنتعامل مع الأوضاع على ذلك، وضع جدول زمني يضع ضغطاً غير ضروري علينا، الرئيس كان واضحاً، خذوا الوقت الذي تريدون لتضمنوا أنه عندما تتولى القوات العراقية الأمر تكون في أفضل وضع لأداء عملها، وهذا الشعور المريح لدى العسكريين أن نُعطيهم الوقت لإتمام مهمتهم.

أحمد منصور: كم عدد قواتكم الآن في العراق؟

مارك كيميت: أعتقد لدينا حوالي مئة وثلاثين ألفاً من القوات الأمريكية وعشرين ألفاً من قوات التحالف، وهذا أقل بكثير عما كانت عليه قبل عام.

أحمد منصور: في ديسمبر/كانون الأول الماضي 2005 كان عدد قواتكم مئة وستين ألفاً، أما يعني سحب ثلاثين ألفاً خلال هذه الفترة الوجيزة أن هذا بداية لانسحاب حقيقي من العراق؟

مارك كيميت: لا ليس بداية انسحاب حقيقي، ما حدث هو أن الجنرال كيسي نظر بتمعن لما يحتاجه وهو يقوم بذلك كل شهرين، ويقول إنه بسبب التقدم الذي حققته القوات العراقية لم يعد يحتاج إلى هذا العدد من قوات التحالف، إذاً سيقول إن الستة أشهر القادمة يحتاج فيها إلى مئة وثلاثين ألفاً مثلاً والمهم أن نفهم أن الجنرال كيسي لديه السلطة أن يستقدم المزيد من القوات إذا ما تطلب الأمر ذلك وهذا ما فعله قبل أسبوعين، الجنرال كيسي هو أفضل مَن يحكم على هذه الأمور حول ما يحتاج من قوات على الأرض وهو يستمر باتخاذ قراراته كل شهرين أو ثلاثة.

أحمد منصور: وليام كانط عضو مجلس الأمن القومي الأمريكي الأسبق كتب مقالاً نشر في 2 يناير/كانون الثاني 2006 قال فيه إنكم في نهاية العام لن تزيد قواتكم عن مئة ألف، لكن سيمور هيرش يقول إنها لن تزيد عن ثمانين ألفاً،

وتصريحات رايس الأخيرة بإمكانية سحب أعداد كبيرة من القوات ربما تذهب في هذا الاتجاه؟

مارك كيميت: إن ما توحي به هذه التصريحات هو أن هناك أشخاصاً مختلفون، لديهم آراء مختلفة حول عدد القوات، لكن الظروف على الأرض هي التي ستُملي في نهاية العام كيف يكون مصير العنف الطائفي؟ كيف يتضاءل؟ حالة التمرد كيف تتضاءل؟ إلى أي مدى تسيطر الحكومة على الأوضاع؟ ما هو حجم وقوة القوات العراقية؟ كل هذه الظروف الجنرال كيسي يفحصها عندما يريد أن يقرر عدد القوات التي يحتاجها، لدينا مئتين وعشرين ألفاً من القوات العراقية فيمكن أن نتوقع أنه كلما زادت قدرات هذه القوات وزاد نضجها ستكون هناك حاجة أقل للقوات الأمريكية وقوات التحالف.

المغامرة الأخيرة

أحمد منصور: ليزلي جِلبّ الرئيس الفخري لمجلس العلاقات الخارجية الأمريكية، وآن مارسكوتر عميد كلية وود ولسون للشؤون الدولية العامة كتبا مقالاً في (Los Anglos Times) نُشر في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 قالا فيه: "إن حرب أمريكا على العراق ستكون المغامرة الأخيرة في سلسلة المغامرات التي خاضها القادة الأمريكيون بعد الحرب العالمية الثانية"؛ كمسؤول عن التخطيط والاستراتيجية في المنطقة الثانية هل تعتقد أن هذه مغامرتكم الأخيرة؟

مارك كيميت: أعتقد أننا سنفعل ما تطلبه منا أمتنا أن نفعل، لا أعتقد أننا سنلتزم بأحداث التاريخ أو تحددنا الأوضاع الراهنة، نحن بالتأكيد نمتلك قدرات كبيرة لنعمل في أي مكان في العالم، إذا كان رئيسنا أو شعبنا يريد منا الذهاب إلى مكان ما سنذهب.

الموقف من الملفين الإيراني والسوري

أحمد منصور: كمسؤول عن التخطيط الاستراتيجي الأمريكي في المنطقة، ما هي خطتكم الاستراتيجية تجاه إيران؟

مارك كيميت: إن خطتنا الحالية هي أن ندع مجالاً للدبلوماسية ورأينا تقدماً كبيراً، تم التحقيق من قِبل وكالة الطاقة الذرية الدولية، رأينا الملف يُحال إلى مجلس الأمن الدولي ورأينا أن عدداً من الأعضاء الدائمين وغير الدائمين لمجلس الأمن الدولي قلقون حول البرنامج النووي الإيراني، إذاً نحن نبقى مقتنعين بأن الدبلوماسية هي الحل الأمثل لهذه القضية.

أحمد منصور: هل معنى ذلك أنكم صرفتم النظر عن المواجهة العسكرية التي ظلت نُذُرها قائمة طوال الفترة الماضية؟

مارك كيميت: لا أرى العمل العسكري ضرورياً إذا أدى الدبلوماسيون المهمة، لكننا على أية حال نمتلك القدرة ليس فقط في الولايات المتحدة بل بلدان أخرى لنفعل ما يمليه الواجب.

أحمد منصور: هل تعتقد أن لديكم القدرة فعلاً للدخول في ورطة عسكرية أخرى أكثر من التي أنتم متورطون فيها الآن في العراق ومع دولة قوية عسكرياً مثل إيران؟

مارك كيميت: أنا أعتقد أننا نمتلك القدرة لنفعل أياً ما تطلبه منا أمتنا.

أحمد منصور: هل هذا غرور قوة الإمبراطورية؟ أم أن فعلاً قواتكم تملك القدرة للقيام بهذا وهي متورطة ورطة كبيرة في العراق؟

مارك كيميت: لا.. لا أعتبر أن هذا طموح إمبريالي أو إمبراطوري بل الأمر عكس ذلك، الدبلوماسية من وجهة نظرنا هي السبيل الأمثل للتوصل إلى حل هذه القضية بشكل يرضي الجميع، نحن نرى العمل العسكري كملاذ أخير وإجراء نهائي ووسيلة نهائية، فلا أحد يريد الحروب ولم يُرد أحد أن يُعرِّض أبناءه وبناته للتهلكة أو يدفع الثمن الذي يأتي مع الحرب وهو إراقة الدماء، لكن أحياناً عليك أن تفعل ذلك عندما تخفق كل الخيارات الأخرى ويتم استنفادها، وأيضاً الآن ليس الوضع كذلك، الخيارات موجودة والسبيل الدبلوماسي أتوقع أنه سوف يتخذ الانعطاف الصحيح وأبقى أنا مقتنعاً بأننا سوف نستمر في دفع إيران لكي تمتثل لسياسة أقل ميلاً لامتلاك سلاح نووي.

بداية الهزيمة

أحمد منصور: هل قبولكم بالتفاوض مع إيران جزئياً بشأن العراق هو هزيمة أو بداية هزيمة لكم أمام إصرار إيران على الدخول في مواجهة معكم وإمكانية أن تسبب مشاكل لكم لم تكونوا تتوقعونها؟

مارك كيميت: لا.. لا في الحقيقة أنا أعلم أن السفير خليل زاد سوف يتحدث من العراق مع إيران وهذا ضروري، لأن إحدى الرسائل الأساسية ستكون أن عراقاً ليس مستقراً ليس في صالح أحد، وفي الحقيقة الأسلحة التي تجد طريقها من إيران إلى العراق وزعزعة الاستقرار الذي يأتي من إيران إلى العراق لا يخدم مصلحة أحد، نحن نتطلع قُدماً لمناقشات السفير خليل زاد مع إيران حول ما يخص استقرار العراق، ونتطلع قُدماً لإيران أن تفهم أن بإمكانها أن تساعد في عملية عامل مساعد في بسط الاستقرار في العراق.

أحمد منصور: جنرال.. هل لا زلتم مصرين على تغيير نظام الحكم في سوريا؟

مارك كيميت: لا أعتقد أن لدينا أية بواعث قلق مع النظام بل مع سلوكيات وتصرفات النظام، فواضح أنه في داخل سوريا تبقى سوريا ملاذاً للمقاتلين الأجانب، نقطة انتقال للإرهابيين، منطقة تتصرف فيها المنظمات الإرهابية بحرية، وأيضاً هذا بلد كان يجب أن يكون عاملاً مساعداً لاستقلال العراق، للأسف الوضع في سوريا الآن هو بشكل يجعلهم لا يساعدون في هذا المجال وهم أيضاً عليهم أن يفهموا أن عراقاً غير مستقر ليس ببساطة خطر على العراق بل على المنطقة برمتها، وفي النهاية يجب أن يكونوا جزءاً من تعزيز الاستقرار وليس زعزعة الاستقرار.

استراتيجية المستقبل

أحمد منصور: في ظل هذا الوضع المليء بالضبابية وبالتوتر وبالقتل والدماء في العراق، ما هي باختصار استراتيجيتكم في الفترة القادمة؟

مارك كيميت: مرة أخرى استراتيجيتنا تقوم على أساس بسط الاستقرار وأن

نسمح داخل العراق للحكومة أن تتشكل، ونساعد في تشكيل القوات العراقية، وما هو أهم من ذلك التصدي للخطر الحقيقي للمنطقة، وبصراحة ليس فقط لهذه المنطقة، بأن نهاجم ونُلحق الهزيمة بالقاعدة وبالمنظمات المرتبطة بها، فمن الواضح لدينا أن القاعدة تشكل خطراً لهذه المنطقة ولمصالح هذه المنطقة، وهذا التحرك ليس فقط ضد القاعدة بل وضد المجموعات السلفية والجماعات الإسلامية وغيرها التي تريد أن تأخذ هذه المنطقة إلى زمن الخلافة في القرن الرابع عشر، وسوف يفعلون ذلك بأي طريقة يرونها حتى إذا كان ذلك يعني امتلاك أسلحة دمار شامل وأسلحة نووية واستخدامها، وحتى لو بقي العراق وأفغانستان أولوية أولى لدينا لإلحاق الهزيمة بالقاعدة وبالمنظمات المرتبطة بها في داخل هذين البلدين لكن هذه هي الحرب التي نشنها ونأمل كسبها.

أحمد منصور: الجنرال مارك كيميت نائب مدير المنطقة العسكرية الأمريكية الوسطى، شكراً جزيلاً لك.

مارك كيميت: شكراً جزيلاً.

انتهت المعركة الإعلامية مع الجنرال كيميت وقد حرصت على نشرها كما هي لأني أعتبرها وثيقة هامة تكشف عن فكر الرجل المسؤول عن التخطيط الاستراتيجي للقوات الأمريكية في المنطقة، وأود أن أشير هنا إلى عدة ملاحظات هامة، رغم قسوة أسئلتي كان الجنرال يبدو جامد الوجه والملامح طوال الوقت وحرص على أن يكتم انفعالاته، لكن انفعاله ظهر أكثر من مرة، فقد غضب حينما سألته عن إمكانية اتهامه مع آخرين بارتكاب جرائم حرب. كانت مواجهة قاسية بالفعل لكن الجنرال كان متمرساً كما توقعت، وفي الاستراحة التي كانت وسط البرنامج قال لي: هل تفعل مع ضيوفك مثلما تفعل معي؟ وهل تطرح أسئلتك دائماً بهذه القسوة والصراحة؟ قلت له: نعم هذا أسلوبي. وقد سألني في الحوار هذا السؤال حينما اتهمت القوات الأمريكية بالقتل وقال: لماذا لا تحمل القاعدة والآخرين المسؤولية؟ وكان هذا ذروة غضبه لكني قمت بالرد عليه بقوة، وأرجو أن ينتبه القارىء إلى آخر إجابة على آخر سؤال سألته لكيميت فهي تعكس فكراً ورؤية لا تختلف كثيراً عما تحدث عنه بوش أكثر من مرة من أنها حرب صليبية

ولكن بلغة أخرى، لا أريد أن أعلق كثيراً لكني أعتبر أن هذه المعركة كما أطلقت عليها لم تكن إلا إتماماً لمعركتي الإعلامية مع كيميت والتي بدأت على شاشات التلفزة أثناء معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004.

الفصل السادس

هزيمة الولايات المتحدة في معركة الفلوجة

لم أصادف جندياً أمريكياً واحداً في طريق خروجي من مدينة الفلوجة مساء السبت العاشر من أبريل/نيسان 2004 حتى وصولي إلى داخل العاصمة العراقية بغداد بعد ما يقرب من أسبوع من الحصار عشته مع أهلها. فقد كان عشرات من أفراد المقاومة العراقية ينتشرون في الأحياء الخارجية للفلوجة وعلى أطراف المدينة وعلى كافة الطرق المؤدية إلى العاصمة بغداد في مسافة تزيد عن ثمانين كيلو متراً حيث سلكنا طرقاً فرعية أثناء خروجنا منها، ثم مررت ببعض الطرق الرئيسية، حتى أنى حينما وصلت إلى أطراف بغداد مع دخول الليل كان هناك أناس مسلحون من المقاومة هم الذين ينظمون حركة السير في الشوارع.

أما طريق المطار الذي قامت القوات الأمريكية بارتكاب جريمة كبرى في حقه وحق العراق من خلال إزالتها لأشجار النخيل والأشجار الأخرى من على جانبيه وجزيرته الوسطى خلال الأشهر الأولى التي تلت احتلالها للعراق، فإن عدد الآليات العسكرية الأمريكية التي شاهدتها مدمرة عليه من ناقلات جند ودبابات وسيارات وشاحنات كان من الصعب عليَّ القيام بإحصائها، وكذلك طريق ذراع دجلة الذي أصبح الطريق الرابط بين بغداد وعمان بعدما أغلقت القوات الأمريكية الطريق الدولي الرئيسي منذ بداية العمليات ضد الفلوجة مساء الرابع من أبريل/نيسان 2004. فطريق ذراع دجلة الذي يزيد طوله عن مئة وخمسين كيلو متراً لم يكن للقوات الأمريكية عليه أي وجود في ذلك الوقت وأصبحت

المقاومة تسيطر عليه بالكامل بعدما كان أحد طرق القوافل والإمداد الرئيسية للقوات الأمريكية.

أما داخل مدينة بغداد فإن أحياء كاملة مثل الأعظمية لم تعد القوات الأمريكية تستطيع دخولها إلا بقوات كثيفة لكنها لا تنجو من هجمات المقاومة التي أصبحت تسيطر بشكل بارز وعلنيّ على معظم أنحاء الحي حيث أطلق عليه السكان مسمى "الأعظمية المحرَّرة"، وكذلك حي أبو غريب حيث أصبحت المقاومة هي التي تنظم السير والحركة فيه، وفي كثير من الأحيان تسيطر على الطريق الرئيسي الدولي حتى إن القوافل الأمريكية لم تكن تأمن أن تمر من الطريق بسهولة، وأصبحت قوافلها العسكرية هدفاً سهلاً للمقاومة على هذا الطريق. كذلك كان من الطبيعي أن ترى الدخان يتصاعد على مدار اليوم من آليات وشاحنات أمريكية أو شاحنات تعمل مع القوات الأمريكية وتستخدم هذا الطريق.

ويستطيع كل من كان يعيش في بغداد في ذلك الوقت أن يحصي يومياً في إطار الحي الذي يقيم فيه - على اعتبار الامتداد الواسع للمدينة - بين خمسة إلى عشرة انفجارات في اليوم الواحد، معظمها أو كلها هجمات تستهدف القوات الأمريكية.

أما المنطقة الخضراء وهي مقر القصور الرئاسية التي بناها صدام حسين وسط بغداد في مساحة تزيد على عشرة كيلو مترات مربعة والتي اتخذتها القوات الأمريكية مقراً لقيادتها بعد احتلالها للعراق ثم قامت بعد ذلك ببناء أكبر سفارة أمريكية لها في العالم في أجزاء منها فإن استهدافها على مدار الساعة أصبح أثناء وبعد معركة الفلوجة الأولى شيئاً عادياً، كما أن سحب الدخان أصبحت تتصاعد منها بعد كل هجوم بشكل شبه يومي. وأشارت تقارير كثيرة نشرت في تلك الأيام إلى أن المسؤولين الأمريكيين فيها أصبحوا يقيمون بشكل دائم في الغرف الآمنة التي بناها صدام تحت الأرض في هذه القصور، وقد أشار بول بريمر الحاكم الأمريكي للعراق إلى ذلك أكثر من مرة في مذكراته.

إن ما حدث بعد معركة الفلوجة الأولى كان هزيمة وانهياراً عسكرياً شبه كامل للقوات الأمريكية ووجودها في العراق، وكان لا بد من الهدنة التي أعلنوا عنها ليس من أجل السماح للمدنيين بالخروج من المدينة أو منحهم فرصة لدفن

الشهداء ومداواة الجرحى كما ذكر بريمر، ولكن من أجل محاولة إعادة السيطرة على الوضع العسكري الأمريكي المنهار مرة أخرى، فقد كان المشروع الأمريكي كله في العراق كما قال بريمر في مذكراته على وشك الانهيار.

حصار القوات الأمريكية

عندما قامت القوات الأمريكية بفرض حصارها على مدينة الفلوجة مساء الرابع من أبريل/نيسان 2004 قامت قوات المقاومة العراقية الموجودة في القرى والمدن المجاورة بتطويق القوات الأمريكية المحاصرة للمدينة من الخلف وانهالت عليها بالصواريخ ومدفعية الهاون من اليوم الأول، وقطعت معظم طرق الإمداد لفرقة المارينز الأولى المكلفة بحصار المدينة، ودمرت كثيراً من سيارات قوافل الإمداد والتموين المتجهة إلى مواقع القوات الأمريكية التي تحاصر الفلوجة، واستولت على محتويات بعضها. وقام كثير من فرق التصوير التلفزيونية بنقل هذه الصور للعالم في حينها.

كما سلكت المقاومة سلوكاً جديداً تمثل في اختطاف بعض سائقي الشاحنات التي توفر الإمدادات للقوات الأمريكية وعرضوهم أمام شاشات التلفزة ليكونوا عبرة وتحذيراً لغيرهم فتمكنوا بذلك من بث الرعب في نفوس السائقين الذين يقومون بنقل الإمدادات لتلك القوات، وهؤلاء يعملون مع شركات نقل تعمل في الدول المجاورة للعراق.

كما أن المقاومة نجحت في تحييد الطائرات المروحية الأمريكية المقاتلة والتي كانت تقوم بدور هام في المعارك منذ سقوط نظام صدام حسين في 9 أبريل/نيسان 2003، حيث نجحت المقاومة بإسقاط عشرة منها خلال أسبوع واحد في محيط مدينة الفلوجة وحدها، مما دفع بالقوات الأميركية إلى استخدام طائرات إف 16 وسي 130، في عمليات قصف انتقامية للمدينة ومحيطها، مستخدمة أسلحة محرمة دولياً مثل القنابل العنقودية ـ كما قال كثير من شهود العيان ومصادر طبية ـ وقد أدى ذلك إلى مقتل وإصابة ما يزيد على ألف وسبع مئة من السكان المدنيين في الفلوجة أكثر من نصفهم من النساء والأطفال.

وقد دفع هذا السلوك الأمريكي الغاشم المقاومة في كافة المدن العراقية إلى أن تهب لنصرة الفلوجة من ناحية ومن ناحية أخرى إضعافا للقوات الأمريكية التي فقدت الهيبة العسكرية والسيطرة والقدرة على اقتحام المدينة عدة مرات، وبدت منهارة من خلال تصريحات كثير من المسؤولين العسكريين والسياسيين، حيث ظهر الرئيس الأمريكي جورج بوش في الحادي عشر من أبريل/نيسان 2004 أمام بعض عائلات ضحايا العمليات العسكرية في العراق في قاعدة "فورت هود" في تكساس وقال لهم بأسى: "لقد واجهت قواتنا أسبوعاً قاسياً... وأنا أصلي كل يوم من أجل أن تتراجع الخسائر".

أما وزير الخارجية كولن باول فقد اعترف أمام لجنة نوعية بمجلس الشيوخ الأمريكي في التاسع من أبريل/نيسان 2004 بأنه يشعر بالقلق وأن القوات الأمريكية تواجه مقاومة عنيفة في الفلوجة ومدناً أخرى، وأن: "المواجهات المسلحة مع الشيعة والسنة في العراق أقوى مما كان متوقعاً". واعترف بأن: "القوات الأمريكية تمر بوقت صعب".

وكان البنتاغون قد اعترف بمقتل اثنى عشر جندياً عراقياً في الرمادي عاصمة محافظة الأنبار والتي تقع على بعد أربعين كيلو متراً من الفلوجة مساء الثلاثاء السادس من أبريل/نيسان 2004 بعد معارك وصفها بـ"الشرسة" وقعت بعد هجوم على قاعدتهم في قلب المدينة، وكنا في قناة الجزيرة سباقين ومنفردين بإعلان الخبر قبل يوم كامل من تأكيد البنتاغون عليه، لكن محطة "سكاي نيوز" الإخبارية التلفزيونية أكدت من مصادرها في البنتاغون أن العدد الحقيقي للجنود الذين قتلوا في الرمادي وحدها يوم الثلاثاء السادس من أبريل/نيسان 2004 هم مئة وثلاثون جندياً أمريكياً بعد هجوم مفاجيء بالهاون على قاعدتهم التي كان يتواجد فيها أكثر من ألف جندي أمريكي كانوا محتشدين حينما وقع القصف.

وكنت وقتها في الفلوجة أتابع تفاصيل المعركة على الهاتف منذ اندلاعها مع مراسل الجزيرة في الرمادي الزميل حسام علي الذي بقي عدة ساعات محاصراً مع المصور في أحد أسواق المدينة بين القوات الأمريكية والمقاومين الذي أوقعوا إصابات كبيرة في القوات الأمريكية، وكان يبلغنا بتفاصيل ما يحدث

لحظة بلحظة قبل اعتراف القوات الأمريكية في النهاية بشراسة المعركة، حيث تم الهجوم على مركز القوات الأمريكية في القصر الشمالي في المدينة.

وبثت "قناة الجزيرة" الأخبار في حينها أولاً بأول وحققنا سبقاً إخبارياً بها، أكده البنتاغون بعد ذلك، وكان الرد الأمريكي العنيف على سكان المدينة يعكس حجم الخسارة التي مني بها الأمريكيون هناك. وما حدث في الرمادي حدث في معظم مدن ما يطلق عليه المثلث السنّي، مما جعل الجنرال ريكاردو سانشيز قائد القوات الأمريكية في العراق آنذاك يعترف في الثامن من أبريل/نيسان 2004 بأن: "قوات التحالف فقدت السيطرة على مدينتي النجف والكوت" في الجنوب، لكن الحقيقة أنه كان يحاول أن يخفي بهذا فقدان السيطرة على الفلوجة، بل والعجز عن اقتحامها والسيطرة عليها، وكذلك مدن أخرى كثيرة في المثلث السنّي مثل مدينة سامراء التي وقعت يوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان بأيدي المقاومة بالكامل واضطرت القوات الأمريكية إلى أن تخرج منها وتحاصرها من الخارج، حيث أدى صمود الفلوجة إلى سقوط هيبة الجندي الأمريكي حتى لدى الأطفال العراقيين الذين شاهدت بعضهم في شوارع الفلوجة وهم يحملون أسلحة خفيفة أطول من أجسادهم يدافعون بها عن المدينة ويتحدُّون القوات الأمريكية المدجَّجة بالسلاح، ولعل هذا يفسر السر وراء طلب القوات الأمريكية الهدنة ووقف إطلاق النار في الفلوجة يوم الجمعة التاسع من أبريل/نيسان رغم كل ما تمتلكه من سلاح وقوة عسكرية.

ورطة الجيش العراقي الجديد

كذلك انعكست هزيمة الأمريكيين على القوات العراقية التي قاموا بتأسيسها لتكون عوناً لهم ضد الشعب العراقي، مثل الجيش الجديد والقوى المساعدة له التي أطلق عليها اسم "الدفاع المدني"، ومثل الشرطة العراقية المناط بها ضبط الأمن الداخلي للمدن، حيث أُسِّسَ من الجيش العراقي أربع كتائب حتى ذلك الوقت.

وكان من المقرَّر أن يتم تدريب عشرات الآلاف من الشرطة، مع خمسة عشر ألفاً من الدفاع المدني، لكنَّ الجميع وقفوا موقف المتفرج بعدما أصبحوا

هدفاً للمقاومة حيث بلغ عدد منتسبي الشرطة العراقية الذين قتلوا خلال عام واحد أكثر من سبع مئة، أي أكثر من العدد الرسمي المعلن حتى ذلك الوقت من القتلى الأمريكيين.

كما أن "المقاومة الإسلامية الوطنية ـ كتائب ثورة العشرين" وزَّعت بياناً في بغداد في العاشر من أبريل/نيسان 2004 يطلب من منتسبي الشرطة العراقية ترك أماكنهم خلال أسبوع وإلا أصبحوا هدفاً للمقاومة شأنهم شأن القوات الأمريكية، فيما أخذت فصائل مقاومة أخرى قرارات سابقة باستهداف الشرطة على أنهم أعوان للمحتل مثل "أنصار الإسلام" و"أنصار السنة".

ثم جاءت النكبة الكبرى للقوات الأمريكية والتى تمثلت في رفض كتيبتين عراقيتين من كتائب الجيش الجديد الأربع المشاركة في دعم القوات الأمريكية في حربها ضد أهل الفلوجة، فإحدى الكتيبتين وهي الكتيبة الثانية المؤلفة من ست مئة وعشرين فرداً رفضت التوجه للفلوجة.

ونقلت صحيفة "واشنطن بوست" في الحادي عشر من أبريل/نيسان 2004 عن الميجور جنرال باول إيتون الذي يشرف على تطوير قوات الأمن العراقية قوله: "إن الكتيبة رفضت التوجه للفلوجة من أجل دعم مشاة البحرية الذين يخوضون قتالاً شرساً للسيطرة على المدينة"، وقال الجنود العراقيون التابعون للكتيبة للجنرال باول إيتون إنهم لم يتعاقدوا مع الأمريكيين من أجل قتال إخوانهم العراقيين.

وقالت "واشنطن بوست": إن الجنرال لم يعتبر ما حدث تمرداً عسكرياً وإنما وصفه بأنه "إخفاق قيادي". وقد أشارت مصادر صحفية إلى أن القوات الأمريكية حاصرت الكتيبة عدة أيام بعد رفضها للأوامر العسكرية.

هذا بالنسبة للكتيبة الثانية، أما الكتيبة الأولى فقد قبل أفرادها الأمر بتململ، لكن القادة الأمريكيين فوجئوا بأن الجنود والسائقين العراقيين بعدما أخذوا مواقعهم على ظهور السيارات والشاحنات العسكرية فرَّ السائقون هاربين في البداية، ثم فرَّ كثير من الجنود وراءهم وسط دهشة عارمة من القادة الأمريكيين المشرفين على الجيش العراقي الجديد.

أما الشرطة العراقية فقد اتهمتها سلطات الاحتلال في تقرير بثته وكالة الأنباء الفرنسية في الثاني عشر من أبريل/نيسان 2004 بأنها "تضامنت مع المقاتلين وأمدتهم بالسلاح"، وقُبض بالفعل على عشرات من رجال الشرطة بتهمة التعاون مع المقاومة، وأظهر التقرير أن "بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين في المئة من قوات الشرطة والدفاع المدني قد تمردت وانضمت للمقاومة"، كما أن مليشيات مقتدى الصدر تمكّنت بسهولة بالغة من السيطرة على مراكز الشرطة في مدينة الصدر والنجف والكوفة، كما أكّدت قوات الاحتلال أنها رأت كثيراً من عناصر الشرطة يصوِّبون بنادقهم باتجاه قوات الاحتلال. وقد شاهدتُ أنا بعينيّ وكلُّ من تابع أحداث معركة الفلوجة الأولى أن المقاومة استولت على معظم سيارات الشرطة والدفاع المدني في أماكن كثيرة من العراق سواء في المدن خارج بغداد أو حتى في بعض أحياء العاصمة بغداد نفسها.

وكان الأمر واضحاً تماماً في الفلوجة وأبو غريب وسامراء ومدينة الصدر والنجف والكوفة والكوت، وبهذا كما يقول المراقبون تكون الولايات المتحدة قد أخفقت بعد عام كامل من الاحتلال في تشكيل قوة شرطة قوامها خمسة وثمانون ألف شرطي وقوات للدفاع المدني تابعة للجيش قوامها خمسة عشر ألف جندي وأن كثيراً من هؤلاء في النهاية لم يصوِّبوا أسلحتهم ضد إخوانهم العراقيين وأن من يصوِّب سلاحه باتجاه العراقيين فإنه سوف يلحق بالسبع مئة الذين قتلوا من الشرطة في العام الأول من الاحتلال.

قائد القوات الأمريكية يطلب إمدادات

أما الجنرال جون أبي زيد قائد القوات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط ـ آنذاك والذي سبق أن حاولت المقاومة العراقية اغتياله في مدينة الفلوجة في 12 فبراير/شباط 2004 مما جعل بينه وبين الفلوجة ثأراً خاصاً ـ فقد عبَّر عن عمق الأزمة التي تعيشها القوات الأمريكية في العراق حينما طالب البنتاغون في الثاني عشر من أبريل/نيسان 2004، أي بعد أسبوع واحد من حصار الفلوجة وبداية معركتها الأولى بأنه بحاجة إلى فرقتين عسكريتين أمريكيتين إضافيتين قوامهما عشرة آلاف جندي من أجل تعزيز الوضع المتدهور للقوات الأمريكية. بعدها أعلن

وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد ـ الذي أصبح قليل الظهور إعلامياً في ذلك الوقت بسبب المأزق الذي تعيشه قواته ـ في الرابع عشر من أبريل/نيسان تمديد خدمة عشرين ألف جندي أمريكي من العسكريين الأمريكيين العاملين في العراق بناء على طلب الجنرال جون أبي زيد.

كما أن الرئيس جورج بوش قد سبق ذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده في وقت متأخر من ليلة الأربعاء الرابع عشر من أبريل/نيسان 2004 وبدا فيه محبطاً ولم يقل جديداً كما أشار معظم المراقبين حيث قال رداً على طلب أبي زيد: "إذا كان هذا ما يريده فسوف يحصل عليه". وبدا بوش متأزّماً وهو يقول: "لقد أصدرت أوامري للقادة العسكريين بعمل ما أمكن لاستخدام القوة الحاسمة إذا تطلب الأمر للحفاظ على النظام ولحماية قواتنا".

وقال: "إن عواقب الفشل في العراق سيكون من الصعب تخيلها" مشيراً إلى أنه في حال حدوث ذلك فإن "جميع أعداء أمريكا في العالم سيفرحون، معلنين ضعفنا وتراجعنا، وسيستخدمون هذا الانتصار لتجنيد جيل جديد من القتلة في المنطقة".

ورفض بوش في خطابه هذا المقارنة بين الوضع في فييتنام والعراق، ويشير المراقبون إلى أن هذا كان يعكس حجم المأزق والأزمة التي وصلت إليها القوات الأمريكية في العراق حيث كانت تعيش حالة الهزيمة. فالقوات أصبحت محاصرة في معظم المناطق، وقد كانت دائماً حريصة على التكتم على العدد الحقيقي للخسائر، فكانت خطتها طوال عام من الاحتلال تقوم على أنها عندما تتعرض لكمين سرعان ما تغلق الطريق من جانبيه وتقوم بنقل القتلى والجرحى والآليات المحترقة بواسطة الطائرات المروحية، ثم تفتح الطريق فلا يستطيع أحد أن يتعرف على حقيقة ما حدث، ومن بين عشرات الحوادث التي كانت تستهدفها يخرج بيان رسمي أمريكي يتحدث عن قتيل أو قتيلين وعدد من الجرحى، أو لا يذكر شيئاً على الإطلاق. وقد شاهدت على طريق ذراع دجلة في 11 أبريل/نيسان 2004 عشرات من الآليات المدمرة لم يأت على ذكرها أحد في المؤتمرات الصحفية للناطقين العسكريين باسم سلطات الاحتلال.

وأحد الأدلة من المصادر الغربية على التدليس في عدد القتلى من الجنود

الأمريكيين ما ذكره البنتاغون أن اثني عشر جندياً قتلوا في السادس من أبريل/ نيسان 2004 في الرمادي. لكن محطة "سكاي نيوز" الإخبارية أكدت من خلال مراسلها في البنتاغون في ذلك اليوم أنهم مئة وثلاثون، ثم اختفى الخبر بعد ذلك بفعل الضغوط التي تمارسها الإدارة الأمريكية على وسائل الإعلام، ولعل هذا الرقم يشير إلى تأكيدات كثير من المراقبين إلى إضافة صفر دائماً إلى جوار ما يعلنه المسؤولون الأمريكيون عن ضحاياهم.

لكن لم يعد بوسع القوات الأمريكية من كثرة الكمائن أن تغلق الطرق وتفعل ما كانت تفعله من قبل، فقد أصبحت الآليات الأمريكية ملقاة على جوانب الطرق لتكشف عن عمق المأساة وحجم الهزيمة التي وصلت إليها القوات الأمريكية في العراق تحديداً منذ بداية حصار الفلوجة ومعركتها الأولى مساء 4 أبريل/نيسان من العام 2004، بل منذ قتل ضباط الأمن الأمريكيين الأربعة وسحلهم في شوارع الفلوجة في الحادي والثلاثين من مارس/آذار 2004، تلك الحادثة التي أعلنت "كتائب الشهيد أحمد ياسين" التابعة لـ "لمقاومة الإسلامية الوطنية ـ كتائب ثورة العشرين" مسؤوليتها عن عملية قتلهم.

أما عملية سحلهم فقد تكفل بها الأطفال والعامة في الفلوجة، تماماً مثلما فعل أطفال الصومال وعامتهم عام 1993 حينما سحلوا الطيارين الأمريكيين بعد إسقاط طائراتهم المروحية، مما أدى إلى ثورة عارمة في الولايات المتحدة أدت إلى خروج القوات الأمريكية تجر أذيال الخيبة من الصومال بعد ذلك.

أثر معركة الفلوجة على الإعلام الأمريكي والعالمي

وقد أدت عملية قتل ضباط الأمن الأمريكيين الأربعة في شوارع الفلوجة في نهاية مارس/آذار 2004 إلى نقلة نوعية في تاريخ الاحتلال الأمريكي للعراق، وكذلك في التغطيات الإعلامية الأمريكية والغربية لما تقوم به المقاومة في العراق، وفي نقل وسائل الإعلام الأمريكية لأخبار القتلى والجرحى من الجيش الأمريكي، حيث كان هناك شبه تعتيم على أخبار الخسائر الأمريكية طوال عام من الاحتلال، لكنه أصبح عادياً بعد ذلك أن ترى صور الجنود الأمريكيين في بعض وسائل الإعلام الأمريكية وعلى صدر صفحات صحف الصباح وهم إما في أكياس البلاستيك

السوداء التي توضع فيها الجثث، أو جرحى يتلقون العلاج على أيدي زملائهم - إلى أن تم التأكيد على تجريم نشر الصور من البنتاغون بعد ذلك.

كما أن صور الأمريكيين الأربعة الذين سُحلوا في الفلوجة والذين كانوا يعملون ضباط أمن لكبار الشخصيات في شركة "بلاك ووتر" التي كانت توفر الحماية للحاكم المدني الأمريكي في العراق بول بريمر وكبار الشخصيات الأمريكية الأخرى في العراق، قد ظهرت في معظم الصحف الأمريكية، وعلقت صحف غربية كثيرة على تلك الصور وربطتها بما حدث للجنود الأمريكيين في الصومال عام 1993 حيث قالت صحيفة "التايمز" البريطانية يوم الخميس الأول من أبريل/نيسان 2004: "إن مشاهد الفلوجة تذكر بما حدث في الصومال عام ثلاثة وتسعين عندما تم جر جندي أمريكي في شوارع مقديشو وسط صيحات العامة والغوغاء وأدت إلى انسحاب سريع للقوات الأمريكية من الصومال وترويض السياسة الخارجية الأمريكية خلال ما تبقى من التسعينيات".

وسوف يؤكد التاريخ وأؤكد هنا أيضاً أن ما حدث في الفلوجة في 31 مارس/آذار 2004 كان بداية الهزيمة للولايات المتحدة وإنهاء الاحتلال الأمريكي للعراق، تماماً كما حدث في الصومال، وإن كان اتخاذ القرار بالنسبة للانسحاب أو الهروب من العراق سوف يأخذ بعض الوقت، لأنه كما قال بوش "سيستخدمون هذا النصر لتكوين جيل جديد من القتلة في المنطقة"، علاوة على أن هذا مشروع المحافظين الجدد الذي خططوا له منذ سنوات طويلة، وقد دفع هذا الأمر الرئيس بوش إلى نفي تلك المقارنة مع الصومال وكذلك مسؤولون أمريكيون كثيرون بعدما خيَّم شبح الصومال على الإدارة الأمريكية وأعاد إلى بوش الابن ورطة بوش الأب الذي كان دخول القوات الأمريكية للصومال من أواخر القرارات التي اتخذها قبل خروجه من البيت الأبيض في نهاية العام 1992.

وقد نشرت مجلة "نيوزويك" الأمريكية في عددها الصادر في 13 أبريل/ نيسان 2004 صوراً واضحة للأطفال والعامة وهم يجرون جثث الأمريكيين الأربعة في شوارع الفلوجة ويعلقونها على الجسور تماماً كما فعلت في العام 1993 حينما وضعت صورة الطيارين الأمريكيين وهم يسحلون في شوارع مقديشو على غلافها، ومثل هذه الأحداث التي ربما يقوم بها العامة أو غير

المسؤولين أو حتى الأطفال كثيراً ما غيَّرت مسار حروب أو غيَّرت خططاً استراتيجية لقوى عظمى، حيث سادت بعدها روح الانتقام لدى الأمريكيين.

اختطاف الرهائن

كذلك جاءت عملية اختطاف عشرات الرهائن من الغربيين الذين تقف دولهم مع الولايات المتحدة، بل وحتى اختطاف جندي أمريكي وضابط أمن أمريكي قبله يُرَجَّح أنه الناجي الوحيد من الفريق الأمني الذي قتل في الفلوجة ليزيد المشهد العراقي تعقيداً أمام القوات الأمريكية.

كذلك كانت عملية استهداف ثمانية من رجال المخابرات الإسبان وقتلهم قبل ثلاثة أشهر من معركة الفلوجة الأولى لها دور أساسي في سقوط رئيس الوزراء الإسباني أثنار وحزبه في الانتخابات التشريعية بعد ذلك، لذا كان أول قرار اتخذه رئيس الوزراء الإسباني الجديد سباتيروا في الثامن عشر من أبريل/ نيسان 2004 هو إعادة القوات الإسبانية البالغ قوامها ثلاثة آلاف جندي إلى إسبانيا مما يعني حدوث شرخ كبير في التحالف الأوروبي مع الولايات المتحدة وخسارة واحد من أكبر الحلفاء الأوروبيين تبعه آخرون بعد ذلك.

كما أن خطف الإيطاليين وقتل أحدهم وضع برلسكوني ثالث الحلفاء الأوروبيين دعماً لبوش على محك داخلي لا يقل سوءاً عن أثنار. وقد سقط برلسكوني بالفعل في الانتخابات النيابية التي جرت بعد ذلك في إيطاليا في شهر أبريل/نيسان من العام 2006. وكان أول قرار يعلنه خلفه رومانو برودي بعد إعلان فوزه هو سحب القوات الإيطالية من العراق.

كذلك تابع الجميع أزمة الرهائن اليابانيين التي وضعت المستقبل السياسي لرئيس الوزراء الياباني في دائرة الخطر، كما قرر الروس أن يسحبوا من شاء من الروس العاملين في العراق بعد اختطاف ثمانية منهم ثم الإفراج عنهم في بغداد في الثالث عشر من أبريل/نيسان 2004 على اعتبار أن روسيا لم تشارك في التحالف العسكري مع الولايات المتحدة.

وقد دخلت خريطة شركات الأمن والمقاولات والإعمار والنقل وكافة وسائل

المشاركة لقوات الاحتلال في ضبابية أوقعت الإدارة الأمريكية في أزمة شديدة ازدادت تعقيداً مع ظهور الجندي الأمريكي كيث ماثيو ماوبين على شاشة قناة الجزيرة ثم على شاشات كل المحطات التلفزيونية الأمريكية والعالمية أسيراً لدى مجموعة من الملثمين التابعين للمقاومة في السابع عشر من أبريل/نيسان 2004 واعتراف القيادة الأمريكية الوسطى باختطافه، حيث إن كل بيت أمريكي في ذلك الحين قد دخل على الخط بمشاهدته لصورة الجندي الأمريكي بين خاطفيه العراقيين مما سبَّب قهراً كبيراً للجندي الذي كان شائعاً أنه لا يقهر، وعلم بشيء من الحقيقة التي حرصت إدارة بوش طوال عام كامل على إخفائها تحت ذرائع عديدة، مما أثر على مستقبل بوش السياسي ووضع إدارته على المحك، كما أنه أدخل القوات الأمريكية في دوامة أخرى من التفاوض على الإفراج عن أسرى عراقيين اعترف الأمريكيون بأن عددهم في ذلك الوقت يزيد عن اثني عشر ألفاً في سجون قوات الاحتلال.

شبح فييتنام

هذه الصورة لقوات الاحتلال الأمريكية في العراق مثلت بداية لهزيمة عسكرية شاملة بدأت تخيم على القوات الأمريكية وجعلت شبح فييتنام يخيم على البيت الأبيض، وعلى الساسة ووسائل الإعلام في الولايات المتحدة بعد معركة الفلوجة الأولى. فرغم أن حجم الخسائر في العراق لم يصل في ذلك الوقت إلى معدلات ذروة الحرب الفييتنامية، لكن لم يكن إصرار الرئيس الأمريكي جورج بوش وحليفه الرئيسي رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في المؤتمر الصحفي الذي عقداه في البيت الأبيض بعد لقائهما في السادس عشر من أبريل/نيسان 2004 على تسليم السلطة للعراقيين في الثلاثين من يونيو/حزيران 2004 دون معرفة لمن ستسلم من العراقيين وما هي هذه السلطة - إلا تأكيداً على حجم المأزق والورطة التي وقعا فيها، وبأن الهزيمة قد بدأت.

كما كانت دعوتهما للأمم المتحدة للعودة للقيام بدور بعد رفضهما المطلق قبل ذلك مؤشراً هاماً على حجم الهزيمة التي لحقت بالولايات المتحدة، وقبل ذلك كان قرار بوش في الخامس عشر من أبريل/نيسان بإرسال نائب وزير الخارجية

ريتشارد أرميتاج للمنطقة حتى يطلب من دول الخليج تهدئة من أسماهم "أصدقاءنا" السنَّة في العراق، علاوة على طلب الولايات المتحدة من إيران أن تتدخل لتهدئة الوضع لدى الشيعة، وتأكيد المراقبين الذين استمعوا لخطاب بوش ومؤتمره الصحفي ليلة الرابع عشر من أبريل/نيسان 2004 وعلى رأسهم مؤرخ شؤون الرئاسة روبرت داليك أن بوش: "عندما يقف ويقول نفس الأشياء التي قالها من قبل بدون أدلة إنما يضعف موقفه".

كما أكدت مجلة نيوزويك الأمريكية في عددها الصادر في 20 أبريل/ نيسان 2004 على أن هناك قاسماً مشتركاً بين التورط الأمريكي في فييتنام والعراق ورفض الرئيس بوش لذلك، حيث أكد استطلاع نشرته في نفس العدد أن "أغلب الأمريكيين يشعرون بالقلق من تحول العراق إلى فييتنام أخرى حيث لا يمكن للولايات المتحدة أن تحقق أهدافها بالرغم من السنوات الطويلة من التورط العسكري".

وقد نقل سيدني بلومنثال المستشار الإعلامي السابق في البيت الأبيض في كتابه "كيف يحكم بوش" عن الجنرال وليام أوروم الرئيس السابق لوكالة الأمن القومي الأمريكي قوله عن التشبيه الذي بدأ يظهر في تلك المرحلة ويصفها بفييتنام: "نحن أمام مشكلة أخطر بكثير من فييتنام، ففي فييتنام لم تكن المخاطر استراتيجية كما هو عليه الحال في العراق، مع أننا في كلتا الحالتين اندفعنا دون تفكير إلى حرب لا تخدم الأهداف الأمريكية بصورة بنَّاءة، أما وجه الخطورة فيما يتعلق بالعراق فهو أننا متورِّطون في منطقة أكثر خطورة وفي وضع متفجر إلى حد كبير كما أننا فقدنا الكثير من تعاطف الحلفاء معنا".

أعضاء الكونغرس يطالبون بالانسحاب

وقد دفع هذا الأمر الكثيرين من أعضاء الكونغرس والسياسيين إلى المطالبة بسرعة بمغادرة القوات الأمريكية للعراق في ذلك الوقت المبكر أبريل/نيسان 2004، وذلك حتى لا يتكرر سيناريو فييتنام، ومنهم السيناتور روبرت بيرد الذي دعا في ذلك الوقت إلى "خريطة طريق" لإخراج القوات الأمريكية من العراق.

أما السيناتور إدوارد كيندي فقد أعلن: "إن العراق هي فييتنام جورج بوش،.. لقد تحول العراق إلى مستنقع".

ومع خوف بوش من أن يكون مصيره في الانتخابات الرئاسية للفترة الثانية مثل مصير الرئيس الأمريكي جونسون الذي أسقطته حرب فييتنام فقد قال بصوت خافت ممزوج بالألم وهو يتحدث للصحفيين ليلة الرابع عشر من أبريل/نيسان 2004: "قد يقرر الناخبون التغيير في الانتخابات القادمة لكن هذه هي الديمقراطية". لكنه حاول الهروب من شبح فييتنام والرئيس جونسون قائلاً: "لكنى لا أعتقد أنهم سيفعلون ذلك.. لا أنوي أن أخسر وظيفتي بل أنوي أن أقول للشعب الأمريكي إن لديَّ خطة للنصر في الحرب على الإرهاب وأعتقد أنهم سيقفون إلى جواري، فهم يدركون المخاطر".

لكن بوش لم يوضح في خطابه ولا حتى بعده ما هي خطته هذه حيث أدى المشهد العراقي إلى فقدان الإدارة الأمريكية القدرة على التخطيط لأي شيء على الصعيد العسكري أو السياسي في العراق.

وقد أكد كثير من المعلِّقين في الصحف البريطانية الذين رصدوا لقاء بوش وبلير في واشنطن في السادس عشر من أبريل/نيسان 2004 على أن "بوش وبلير أشعلا حرباً سوف يحترقان فيها".

ولأن فييتنام والمقارنة بها أصبحت هي الغالبة حتى في جلسات الكونغرس التي يُستجوب فيها المسؤولون الأمريكيون فقد أصبحت الردود الغاضبة من مسؤولي الإدارة الأمريكية على المقارنة مع فييتنام هي السائدة.

وسوف أختم هنا بكلمات من وزير الخارجية الأمريكي آنذاك كولن باول الذي كان قد خدم مرتين في فييتنام باعتباره ضابطاً سابقاً ورئيساً سابقاً لهيئة الأركان المشتركة للجيش الأمريكي، فحينما سئل أمام لجنة نوعية في الكونغرس في التاسع من أبريل/نيسان 2004 عما إذا كانت العراق مستنقعاً للقوات الأمريكية أو أنها فييتنام أخرى فردَّ غاضباً ـ وقد أصبح غضوباً في ردوده أمام هذه اللجان ـ: "إن العراق ليس مستنقعاً سيلتهم الولايات المتحدة.. ولا أعتقد أن هناك أي فائدة من المقارنة مع فييتنام.. فييتنام جزء آخر من العالم وحقبة أخرى

من التاريخ.. إن العراق ليس مستنقعاً سيلتهمنا"، لكن ما أنكره باول أقرَّ به بعد أربع سنوات من احتلال العراق وتحديداً في نهاية فبراير/شباط من العام 2007 فقد أعدَّ فريق تفكير أمريكي دراسة تحت عنوان "القادة الأمريكيون يعترفون: نحن نواجه انهياراً على الطريقة الفييتنامية" وقد نشرها سيمون تيسدال في صحيفة الغارديان البريطانية في الأول من مارس/آذار 2007، وخلص هذا الفريق الذي أعد هذه الدراسة لقائد قوات التحالف الذي عينه بوش مع بداية العام الرابع للاحتلال قائداً لقواته في العراق دافيد بيتريوس إلى أن: "الوقت ليس في صالح القوات الأمريكية، وأن واشنطن أمامها ستة أشهر للفوز في حرب العراق وإلا فإن انهياراً مشابهاً لذلك الذي وقع لها في فييتنام سيكون هو مصيرها الحتمي".

وتوقع الفريق الذي أعد الدراسة مع هيمنة الديمقراطيين على الكونغرس بأن تفقد إدارة بوش الدعم السياسي مما يدفعها إلى انسحاب متعجل. وقد ضم الفريق الذي أعد الدراسة عدداً من العسكريين الأمريكيين الذين سبق أن أدوا الخدمة ميدانياً والذين لهم خبرة أكاديمية في مجال التصدّي للحركات المسلحة. ومما يزيد الطين بلة حسب معدّي التقرير هو إعلان بريطانيا وكثير من الحلفاء مواعيد لبدء انسحاب قواتهم من العراق. كذلك تضييق الكونغرس الديمقراطي على بوش وإصراره على ضرورة وضع جدول زمني لخروج القوات الأمريكية من العراق مقروناً بالتمويل.

وإذا قارنا هذا الواقع مع ما ذكره باول من قبل نجد أن الواقع قد فرض صورة أخرى في العراق كان العالم يراها عبر شاشات التلفزة وتراها الإدارة الأمريكية كلها لكنهم بدلاً من الإقرار بحقيقية الصورة تفرغوا على أعلى المستويات لشن حرب على المحطات التلفزيونية وعلى الكاميرات وعلى الصحفيين الذين كانوا ينقلون حقيقة هذه الصورة، لكن الهزيمة المبكرة للقوات الأمريكية والتي بدأت بعد معركة الفلوجة الأولى لم تتوقف عن ذلك وكان لها مظاهر أخرى كثيرة.

مظاهر الهزيمة المبكرة للأمريكان

لقد مثلت معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004 أبرز معالم

الهزيمة المبكرة للأمريكيين في العراق، فأقوى جيش في العالم رغم كل ما قام به من حصار وتجويع وقصف عشوائي قتل فيه المئات من النساء والأطفال والعجائز فشل في اقتحام المدينة أو دخولها.

ومن ثم فقد مثلت هذه المعركة مفصلاً هاماً في تاريخ الاحتلال الأمريكي للعراق، وألغت كافة المخططات الأمبراطورية الأمريكية للهيمنة على المنطقة والانفراد بالتحكم في القرار الدولي، كما أنها أعادت المخططات الاستراتيجية للإدارة الأمريكية إلى نقطة الصفر، كذلك منحت المقاومة العراقية دافعاً كبيراً، وأرغمت المسؤولين في الإدارة الأمريكية على مواجهة الواقع والإقرار بأن العراق لن تكون ساحة تنزُّه للقوات الأمريكية.

كما أنها أثارت انتباه العالم إلى أن أمريكا تواجه مقاومة شرسة في العراق وبالتالي دفعت المسؤولين الأمريكيين إلى التحدث علناً عن الصعوبات التي بدؤوا يواجهونها هناك.

وكانت البداية بعد عام واحد فقط من سيطرة الأمريكيين على العراق وأخذت تتصاعد بعد عام من إعلان بوش في الأول من مايو/أيار من العام 2003 وبشكل مسرحي عن وقف العمليات العسكرية في العراق معتبراً ذلك نصراً وتمكيناً لقواته وبداية لإعلان مسيرة تتويج الأمبراطورية الأمريكية للهيمنة على مقدرات العالم والتحكم في أهم مصادر الطاقة العالمية.

وقد ظهرت معالم الهزيمة بشكل جلي بعد معركة الفلوجة الأولى وفشل أمريكا في دخول المدينة ثم تفكيرها بالانتقام من المدينة الذي جاء بعد ذلك في المعركة الثانية التي وقعت في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، ولا زالت المدينة محاصرة بعدها رغم مرور أكثر من أربع سنوات على الاحتلال وما يقرب من ثلاثة أعوام على المعركة، وقد أخذت معالم الهزيمة المبكرة تظهر على الولايات المتحدة من خلال دلائل ومظاهر كثيرة من أهمها:

سي آي إيه تعترف بالهزيمة

في 17 سبتمبر/أيلول من العام 2004 نشرت صحيفة "نيويورك تايمز"

الأمريكية تقريراً ذكر فيه مسؤولون أمريكيون أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية سي آي إيه قد أعدَّت تقريراً سرياً رفعته للرئيس الأمريكي جورج بوش، يحمل صورة قاتمة لمستقبل الأوضاع في العراق، ويحمل ثلاثة سيناريوهات أسوأها نشوب حرب أهلية وأفضلها حدوث استقرار سياسي وأمني "غير ثابت".

وقالت الصحيفة: إن التقرير المكوَّن من خمسين صفحة، والذي أُعِدَّ تحت إشراف جورج تينيت - مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية السابق - يحمل "كمّاً هائلاً من التشاؤم".

ويُعتبر ذلك التقرير في رأي كثير من المراقبين، بمثابة اعتراف مبكر بالهزيمة، وهو أهم تقرير رفع إلى بوش بعد تقرير المجلس القومي للاستخبارات الذي قدم إليه في أكتوبر/تشرين الأول من العام 2003.

وقد واكب هذا التقرير انتقادات هائلة وُجِّهت إلى إدارة بوش من قبل نواب في مجلس الشيوخ من الجمهوريين آنذاك الذين ينتمي إليهم بوش وإدارته، بعدما طالب بوش بتحويل مبلغ ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار من ميزانية المساعدات المخصصة لإعادة إعمار العراق البالغة 18،4 مليار دولار من أجل الأمن. وقد أكد على ذلك الناطق باسم البيت الأبيض سكوت ماكليلان في تصريح نشرته وكالة رويترز في 25 سبتمبر/أيلول 2004 حيث أكد على أن إدارة بوش حولت هذا المبلغ وهو من المبالغ التي كانت مخصصة من أجل مشاريع المياه والصرف الصحي والبنية الأساسية من أجل الأمن.

وقد قدم جورج تينيت في كتابه الذي صدر في شهر أبريل/نيسان من العام 2007 تحت عنوان "في قلب العاصفة" كثيراً من التفصيلات في هذا الجانب. وقد اعتبر كثير من النواب ومنهم السناتور ريتشارد لوغار رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ بأن ما يحدث هو دليل متاعب تتعرض لها القوات الأمريكية، وأن هناك فشلاً تاماً في الاستفادة من أحد أهم الوسائل للتأثير على مجرى الأحداث في العراق.

وكان قد سبق هذين التقريرين تقرير قدمه مجلس الاستخبارات في يناير/

كانون الثاني من العام 2003، أي قبل الحرب بثلاثة أشهر- أشارت له نيويورك تايمز أيضاً ـ حذر فيه من الصعوبات التي يمكن أن تواجهها القوات الأمريكية في العراق، وقال التقرير "إن بناء الديمقراطية في العراق سيستغرق فترة زمنية طويلة وسيمر بصعوبات واضطراب ربما يتضمن نزاعاً داخلياً"، لكن بوش لم ينصت لأحد وقرر قيادة الولايات المتحدة للهزيمة.

فشل العملاء

أيضاً من مظاهر الهزيمة المبكرة مساعي الرئيس الأمريكي بوش لتحسين صورته عبر الاستعانة بعملاء أمريكا من العراقيين الذين جاؤوا على ظهور الدبابات الأمريكية من المنافي لحكم شعب العراق برعاية أمريكية، وهذا الوصف ليس مني فقط وإنما من كثيرين على رأسهم أحد أبرز أركان الكونغرس الأمريكي النائب جون ميرتا الذي قاتل في فيتنام وطالب آنذاك بانسحاب فوري من العراق. ووصف هؤلاء الذين يخدمون سياسة أمريكا في العراق من العراقيين بأنهم "عملاء محليون لهذا الاحتلال يدافعون عنه" ومنهم إياد علاوي الذي عيَّنه الأمركيون رئيساً مؤقتاً لوزراء العراق في أعقاب خروج بريمر خفية منها في 28 يونيو/حزيران 2004 وحتى ديسمبر/كانون الأول من العام 2005، حيث استقبله بوش في 21 سبتمبر/أيلول من العام 2004 وسعى للاستعانة به من أجل تحسين صورته أمام الأمريكيين والتأكيد لهم بأن ما تقوم به أمريكا في العراق هو الصواب.

كما فتح الكونغرس أبوابه لعلاوي حيث خاطب المشرِّعين الذين منحوا بوش تفويضاً بحربه على العراق، ووصف بوش زيارة علاوي بعد لقائه به في 21 سبتمبر/أيلول بأنها "زيارة مهمة لأن رئيس الوزراء سيتمكن من أن يشرح بوضوح للشعب الأمريكي أنه لم يتم إحراز تقدم فحسب بل إننا سننجح".

ولم يكن تصريح بوش إلا عين الفشل وإظهاراً للضعف والهزيمة السياسية التي يعيشها داخل الولايات المتحدة، كما كان يعيش الهزيمة العسكرية على أرض العراق، وإلا فما هي قيمة إياد علاوي حتى يُستقبل بكل هذه الحفاوة بعد ذلك في الكونغرس ويحظى بكل هذا المديح من بوش ورجاله في زيارته التي قام بها

إلى الولايات المتحدة في شهر سبتمبر/أيلول من العام 2004؟ والتي سيجد القارىء تفصيلات عنها في مكان آخر من هذا الكتاب!

لعنة الفلوجة تحل على جورج بوش

عاش جورج بوش مرحلة مليئة بالانتكاسات بعد معركة الفلوجة الأولى على كافة الأصعدة، لكن المسافة الزمنية التي فصلت بين المناظرتين اللتين عقدتا بين المرشحين للرئاسة الأمريكية الرئيس الأمريكي جورج وبوش ومنافسه جون كيري في بداية أكتوبر/تشرين الأول من العام 2004 كانت بحق الأكثر امتلاء بالانتكاسات للرئيس بوش، فخلال أسبوع واحد اعترف حليفه الأكبر رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بأن التقارير الاستخباراتية التي سبقت شن الحرب على العراق لم تكن صحيحة. ورغم أنه لم يعتذر عن شن الحرب إلا أن الناطقة باسمه تصدرت الخبر الأول في نشرات الأخبار في وسائل الإعلام البريطانية صباح الجمعة 8 أكتوبر/تشرين الأول 2004 وهي تعتذر عما لم يعتذر عنه بلير.

أما داخل الولايات المتحدة فقد تتابعت الانتكاسات على رأس الرئيس الأمريكي من رجاله وليس من رجال الحزب الديمقراطي فقط، فحاكم العراق السابق بول بريمر والذي توارى عن الأنظار منذ أن خرج منها سراً منسحباً كالمنهزم في 28 يونيو/حزيران 2004، ظهر فجأة في الخامس من أكتوبر/تشرين الأول من العام 2004 ليتحدث عن أخطاء إدارة بوش في العراق، ويعترف بأن إدارة بوش ارتكبت خطأين فادحين هما: الأول عدم إرسال قوات كافية للعراق، والثاني: عدم احتوائها عمليات النهب المنظم التي جرت لمؤسسات الدولة بعد انهيار نظام صدام حسين في أبريل/نيسان 2003.

ورغم أن بريمر سعى بعد يوم واحد من تصريحاته التي استغلها الديمقراطيون للهجوم على بوش لشرح ما أدلى به وكتب مقالاً مطولاً في صحيفة "نيويورك تايمز" نشرته في الثامن من أكتوبر/تشرين الأول 2004 يحاول التملُّص مما أدلى به إلا أن الرجل الذي كان أول قراراته حل الجيش العراقي وتسريح من فيه وحل مؤسسات الدولة لم يستطع أن يغير شيئاً مما أدلى به، لأنه كان يتحدث عن واقع ليس بحاجة إلى تبريرات.

أما وزير الدفاع الأمريكي آنذاك دونالد رامسفيلد والذي كان يروِّج منذ بداية الحملة على العراق بالعلاقة القوية بين صدام حسين وأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة فقد أفاق فجأة وأعلن بأسلوب مشوَّش أثناء جلسة استجواب له في 4 أكتوبر/تشرين الأول 2004 أمام مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك أنه "لا يعلم بوجود أدلة دامغة قوية تربط بين نظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين وتنظيم القاعدة". وحينما طُلب منه أن يجيب بدقة عن العلاقة بين صدام حسين وتنظيم القاعدة وأسامة بن لادن قال رامسفيلد: "رأيت الإجابة على هذا السؤال تتبدل في معلومات المخابرات على مدى عام بطريقة مذهلة للغاية، وثانياً هناك خلافات في مجتمع المخابرات نفسه حول طبيعة هذه العلاقة، ولحد علمي لم أر أيّ دليل دامغ وقوي يربط بين الاثنين". وقال رامسفيلد الذي يوصف بأنه الرجل المشوش بأسلوب أكثر تشويشاً: "قرأت لتوي تقريراً مخابراتياً حديثاً عن شخص على صلة بالقاعدة يخرج ويدخل إلى العراق، كان التقرير مجهداً للغاية.. لماذا يحتمل أن يكون له علاقة؟ ولماذا يحتمل ألا يكون له علاقة؟ قد يكون شيئاً لا يشكل صلة دامغة".

والأمر الخطير في كلام رامسفيلد علاوة على تراجعه وإدانته للنظام الذي يمثل جزءاً منه هو التقارير المشوشة والمشوهة وغير الصحيحة للمخابرات الأمريكية والتي بكل عظمتها تبحث حتى في دخول شخص وخروجه من العراق لترفع عنه تقريراً لوزير الدفاع من الواضح أنه لم يفهم منه شيئاً.

في اليوم التالي لتصريحات رامسفيلد جاء تقرير للمخابرات المركزية الأمريكية سي آي إيه ليشكل انتكاسة جديدة للرئيس بوش ويؤكد على ما ذهب إليه رامسفيلد من عدم وجود علاقة بين تنظيم القاعدة ونظام الرئيس العراقي صدام حسين.

ثم جاءت الانتكاسة الكبرى من خلال تقرير رئيس فريق مسح العراق الذي قام مع ألف وأربع مئة خبير أسلحة أمريكي وبريطاني بمسح شامل للمواقع العراقية بعد استيلاء القوات الأمريكية على العراق بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل التي كانت أحد أهم أسباب شن الحرب على العراق، حيث قال تشارلز دولفر الذي يعتبر تقريره القول الفصل فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل العراقية، في

الجلسة التي عقدت أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأمريكي يوم الأربعاء السادس من أكتوبر/تشرين الأول 2004 أن العراق لم يكن يمتلك أياً من أسلحة الدمار الشامل أو أي برامج لتطويرها قبل الاجتياح الأمريكي للعراق في أبريل/نيسان 2003، وأن: "العراقيين تخلصوا من كل أسلحتهم تقريباً منذ نهاية العام 1991".

العجيب في الأمر أن كل هذه التقارير والاعترافات التي تصب جميعها في غير مصلحة الرئيس الأمريكي بوش لم تؤثر كثيراً على شعبيته من خلال استطلاعات الرأي التي قارنت بينه وبين المرشح الرئاسي الديمقراطي جون كيري آنذاك، فالرجل الذي لا يكاد يحظى بتأييد كبير خارج الولايات المتحدة بقيت استطلاعات الرأي في الولايات المتحدة تضعه في مكانة متقدمة كان يصعب معها التكهن بأن منافسه كيري يمكن - رغم كل هذه الانتكاسات التي ليست في صالح بوش - أن يفوز في الانتخابات الرئاسية التي تمت في نوفمبر/تشرين الثاني 2004، لأن بوش ظل يعتمد على تخويف الشعب الأمريكي من وهم الإرهاب، كما أنها في النهاية لعبة السياسة والانتخابات التي جاءت ببوش في المرة الأولى عبر حكم محكمة، وفي المرة الثانية جاءت به - رغم كل هذه الانتكاسات التي واجهها - خيارات الشعب الأمريكي التي لم تعد تؤثر على الأمريكيين وحدهم وإنما تنعكس على العالم أجمع في هذا العصر.. عصر الهيمنة الأمريكية.

أكاذيب بوش وورطته مع الكونغرس

أيضاً من مظاهر الهزيمة المبكرة للقوات الأمريكية في العراق بعد معركة الفلوجة الأولى، الأكاذيب الهائلة التي كان يدلي بها الرئيس الأمريكي بوش؛ تلك الأكاذيب التي كانت تظهر حجم الهزيمة النفسية التي يعيشها، ورغبته في تحويل هذه الهزيمة إلى انتصار مثل تأكيده في لقائه مع رئيس الوزراء العراقي المعيَّن من قبل سلطات الاحتلال في العراق إياد علاوي في نيويورك في 21 سبتمبر/أيلول من العام 2004: إن قوات الأمن العراقية ستكون قد تلقت تدريباً كاملاً بحلول نهاية العام 2004.

وقال وعلاوي يقف إلى جواره في المؤتمر الصحفي: "إن نحو مئة ألف عنصر من الشرطة تلقوا تدريبهم كاملاً، وأن ضباط الشرطة وقوات الأمن الآخرين أصبحوا في الخدمة الفعلية وأن هذا العدد سوف يرتفع بنهاية العام - 2004 - إلى 125 ألفاً"، لكن وثائق وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون التي حصلت عليها وكالة رويترز ونشرتها في 25 سبتمبر/أيلول 2004 أي بعد خطاب بوش مباشرة أكدت على أن الرئيس الأمريكي كان يكذب، وأن قوات الشرطة كلها لا يزيد عددها عن 90 ألفاً، وأن عدد الذين تم تدريبهم منهم لا يزيد عن ثمانية آلاف ومئة وتسعة وستين عنصراً فقط. وهذه كذبة واحدة من مئات الأكاذيب التي تحدَّث بها بوش حول العراق، فالحرب كلها كانت أكذوبة بداية من الحديث عن أسلحة الدمار الشامل وحتى إقامة الديمقراطية في العراق.

كذلك من مظاهر الهزيمة المبكرة لأمريكا في العراق بعد معركة الفلوجة الأولى التلاوم بين الإدارة والكونغرس حيث أقبل بعضهم على بعض يتلاومون بعد اتضاح حجم الخسائر التي منيت بها أمريكا في العراق خلال الشهور الأولى للحرب. وقد كشف ذلك تقرير صادر عن الكونغرس الأمريكي تحدثت عنه صحيفة نيويورك تايمز في 17 ديسمبر/كانون الأول 2005، اتهم فيه أعضاء ديمقراطيون بوش وإدارته بأنهم كانوا أكثر اطلاعاً من الكونغرس على المعلومات الاستخباراتية الحساسة التي سبقت القرار بشن الحرب، إلا أن البيت الأبيض نفي هذه الادعاءات التي جاءت في تقرير يتكون من أربعة عشرة صفحة، أعدته إدارة الأبحاث في الكونغرس بناء على طلب نائبة مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي دايان فينشتاين، حيث بلغ عدد الجلسات التي عقدها الكونغرس في العام 2004 للاستماع إلى حقيقة التقارير التي ورطت أمريكا في الحرب ألف جلسة استماع، ناقش خلالها أربعة آلاف وثيقة قدمت من وكالة الاستخبارات المركزية، وبقي بعدها الديمقراطيون والجمهوريون يتلاومون، لكن هذا لن يغير شيئاً من واقع الهزيمة.

جنرالات متقاعدون يقرون بالهزيمة بعد معركة الفلوجة

وكان سيدني بلومنثال الكاتب الصحفي الأمريكي والمستشار الإعلامي السابق

في البيت الأبيض قد كشف في كتابه "كيف يحكم بوش؟" ـ الذي قدمت صحيفة الوطن القطرية عرضاً له خلال شهر أبريل/نيسان من العام 2007 ـ أن كثيراً من القادة العسكريين الأمريكيين رأوا شبح الهزيمة المبكر للقوات الأمريكية في العراق، وتحديداً بعد فشل القوات الأمريكية في معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004، ونقل عن الجنرال المتقاعد وليام أدوم الرئيس السابق لوكالة الأمن القومي الأمريكي قوله: "لم يعثر بوش على أسلحة الدمار الشامل، أما على جبهة المواجهة فالوضع أسوأ حيث نتعرض للخسارة الأكبر، أما فيما يتعلق بالديمقراطية، فإن الحديث عن هذا الأمر أصبح مثيراً للسخرية".

أما الجنرال المتقاعد جوزيف هوور القائد السابق لقوات المارينز ورئيس القيادة المركزية فقد قال في ذلك الحين ـ أي بعد معركة الفلوجة الأولى ـ: "القول بأن الأمور ستسير طبقاً لما يقوله هؤلاء الأشخاص ـ أي المحافظون الجدد ـ هو أمر مثير للسخرية، ليس هناك من خيارات جديدة، نحن ندير حملة كما لو كانت في ولاية أيوا، حيث لا علاقة لما نفعله بالحقائق على الأرض، إن جميع أولوياتنا في هذا الجزء من العالم خاطئة".

أما أستاذ الاستراتيجية في كلية الحرب العسكرية الأمريكية البروفيسور جيفري ريكورد فقد أعطى صورة قاتمة عن مستقبل الحرب الأمريكية في العراق بعد معركة الفلوجة الأولى وقال "لا أرى أي شعاع ضوء في نهاية النفق.. لقد أصبحت أسوأ الاحتمالات حقيقة واقعة".

أما أندرو شيريل الأستاذ في معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لكلية الحرب العليا في الولايات المتحدة والذي وُصف بأنه أحد أشهر الخبراء في الشؤون العراقية فقد اعتبر أن عدم نجاح القوات الأمريكية في حصار واقتحام الفلوجة في أبريل/نيسان من العام 2004 بأنه جعل القضاء على المقاومة في العراق شيئاً مستحيلاً، وأضاف: "لا أعتقد بإمكانية القضاء على المقاومة، لقد تركزت المقاومة بداية في المثلث السنّي لكننا الآن أصبحنا نرى مجموعات مقاومة أكثر نضجاً، كما أنها أخذت تتوسع وأصبحت قادرة على الشحن من تلقاء نفسها".

وعلّق على الفشل الأمريكي في حصار الفلوجة واقتحامها في أبريل/نيسان من العام 2004 قائلاً: "إذا كنت مسلماً وأبناء دينك تحت حصار القوة غير

المسلمة فإنه يصبح من واجبك الديني مقاومة الاحتلال. وهناك نجد أن معظم العراقيين ينظرون إلينا كقوة احتلال لا محررين". ثم يتحدث عن البعد الديني في المعركة قائلاً: "هناك حديث عن مشاركة الملائكة في القتال إلى جانب المجاهدين، وعن أجساد القتلى التي تشع نوراً وتفوح برائحة المسك الأمر الذي يضفي على مقاتلة الأمريكيين بعداً دينياً".

الفلوجة تملأ روح المسؤولين الأمريكيين بالهزيمة

ورغم أن الأمريكيين قاموا بالانتقام من الفلوجة في المعركة الثانية في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 وارتكبوا فيها من الفظائع والجرائم ما لم يكشف إلا عن الجزء اليسير منه حتى الآن، إلا أن لغة المنهزمين لازمتهم بعد ذلك في الكثير من التصريحات رغم حجم الأكاذيب الهائل الذي يغلفون به أداءهم.

ففي 27 من أبريل/نيسان 2005 تنازل وزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد عن العنجهية التي كان يتحدث بها دائماً، ووقف في مؤتمر صحفي عقده في مقر وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاغون" ليعترف أمام الصحفيين بالمأزق الذي تعانيه قواته في العراق قائلاً: "إن الولايات المتحدة وقوات التحالف لن يكونوا من وجهة نظري الشخصية العنصر الذي سينتصر على التمرد في العراق". وأضاف: "إن العراقيين أنفسهم هم الذين سينتصرون على المتمردين... وإن العراقيين لن يتوصلوا للتغلب على المتمردين بالوسائل العسكرية فقط، وإنما بإحراز تقدم على الصعيد السياسي".

بعد تصريحات رامسفيلد المحبطة أمريكياً تحركت مسؤولة الدبلوماسية الأمريكية وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس لتقوم بدورها بعدما أعلن وزير الدفاع عن الفشل العسكري في الخروج من المأزق، وقامت رايس بالفعل بزيارة أحيطت بسرية تامة للعراق، لكي تسعى لإحراز تقدم على الصعيد السياسي الذي أشار إليه وزير الدفاع، وأعلنت رايس في 15 مايو/أيار 2005 أنها تريد أن: "تناقش مع المسؤولين العراقيين سبل تحريك العملية السياسية لكبح أعمال العنف التي لا يمكن أن نهزمها عسكرياً فقط، وفي حقيقة الأمر ليس بالضرورة عسكرياً وإنما ببديل سياسي قوي".

وبين تصريحات رامسفيلد في 27 أبريل/نيسان وتصريحات رايس في 15 مايو/أيار 2005 نشرت عشرات التقارير والتصريحات لمسؤولين أمريكيين عسكريين وسياسيين تدور في نفس الإطار الذي يقوم على الاعتراف الصريح وليس المبطَّن كما كان من قبل بحجم الورطة بل والهزيمة المبكرة التي تعرض لها الأمريكيون في العراق، وكان أقواها ذلك التقرير السري الذي رفعه رئيس الأركان ريتشارد مايرز للكونغرس الأمريكي في 3 مايو/أيار 2005 ونشرت صحيفة "نيويورك تايمز" مقتطفات منه، وكان مما قاله فيه: "إن تركيز الجيش الأمريكي على العراق وأفغانستان أدى إلى الحد من قدرته على التعامل مع نزاعات مسلحة أخرى". وقد كشف هذا التقرير زيف التهديدات التي تطلقها الولايات المتحدة ضد إيران وسوريا ودول أخرى، إذ اعترف مايرز في تقريره وفي مؤتمرات صحفية أخرى عقدها في مقر وزارة الدفاع في نفس الفترة بقوة المقاومة واستنزافها لطاقة الجيش الأمريكي في العراق وأفغانستان، وأنه سيكون من الصعب على القوات المسلحة الأمريكية "تحقيق انتصار سريع في نزاعات أخرى مثلما كان متوقعاً"، بل إن مايرز نصح الكونغرس في تقريره الذي كان عنوانه "تقييم رئيس الأركان للمخاطر" بعدم الدخول في أية عمليات قتالية كبيرة، لأن ذلك قد ينتج عنه "حملة عسكرية طويلة الأمد يتطلب تحقيق أهدافها سقوط خسائر كبيرة ودمار كبير".

وأشار التقرير إلى أن القوات المسلحة الأمريكية تقوم بمهامها تحت ظروف على درجة عالية من الخطورة، وأن الجيش الأمريكي الذي يستند إلى نظام التطوع فشل في توفير العدد المطلوب من المجندين في أبريل/نيسان من العام 2005، ومن المتوقع أن يفشل كذلك في شهر مايو/أيار 2005، وقد فشل.

أما الجنرال مارك كيميت نائب قائد القيادة المركزية الأمريكية للتخطيط والذي كان يصول ويجول أمام كاميرات التلفزيون طوال ما يقرب من عامين كمتحدث باسم القوات الأمريكية في العراق، وكان يتحدث دائماً عن الإنجازات الهائلة للجيش الأمريكي، فقد أدلى بتصريحات إلى شبكة سي إن إن الإخبارية الأمريكية في 16 مايو/أيار 2005 رداً على سؤال حول الإشاعات التي انتشرت آنذاك عن اعتقال أبي مصعب الزرقاوي أو اغتياله قال فيه: "إن اعتقال أبي

مصعب الزرقاوي لن ينهي التمرد في العراق، وإن إنهاء التمرد يحتاج إلى عشر سنوات على الأقل". وقد قتل أبو مصعب الزرقاوي بعد ذلك في 7 يونيو/حزيران 2006، ولم يتوقف القتال بعد مقتله ولم تتوقف المقاومة ولم تتوقف خطوات الهزيمة التي يعيشها الأمريكيون في العراق.

ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية في 25 أبريل/نيسان 2005 عن مسؤول كبير في وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن رفض الكشف عن هويته قوله: "إن الموجة الأخيرة من أعمال العنف في العراق تؤكد أن المقاومين هم أفضل تنظيماً وأن تكتيكاتهم قد تحسنت، وقبل الانتخابات العامة التي أجريت في العراق في 30 يناير/كانون الثاني 2005 كان متوسط الاعتداءات 90 اعتداء في اليوم، ثم تدنى عددها إلى 40 في اليوم قبل أن يرتفع إلى حوالي خمسين يومياً منذ أسبوعين".

لكن مسؤولاً آخر اعترف في تقرير آخر بأن الهجمات وصلت إلى 140 هجوماً في اليوم، ومسؤولاً ثالثاً أضاف قائلاً: "إن الملاحظ علاوة على ارتفاع عدد الهجمات هو التنسيق الأفضل وتحسن مستوى التكتيكات".

بوش يقر بالهزيمة

ولم يكن الاعتراف بالهزيمة المبكرة في النصف الأول من العام 2005 قاصراً على هذه الشخصيات فقط بل وصل إلى رأس الدولة الرئيس الأمريكي جورج بوش نفسه، ففي خطابه الأسبوعي الذي ألقاه في الثامن عشر من يونيو/حزيران 2005 أقرّ الرئيس الأمريكي جورج بوش بشكل غير مسبوق بالوضع المأساوي الذي تعيشه القوات الأمريكية في العراق، وقال: "إن الحرب في العراق عسيرة". واعترف بوش بصعوبة المهمة التي تقوم بها قواته في العراق بقوله: "إن المهمة ليست سهلة ولن تنجز بين عشية وضحاها"، وقد مثل هذا الاعتراف ذروة المأساة للحالة البائسة التي وصل إليها بوش والتى بدأت أثناء معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004.

ومن يتأمل في عمق هذه التصريحات يجدها إقراراً صريحاً بالهزيمة وإن كان بعبارات مبطنة، وقد جاء ذلك بعد انتقادات كثيرة وجهها بعض أعضاء

الكونغرس الذين بدؤوا يفيقون على الحقائق التي طالما تجاهلوها، وكان من أبرزهم السيناتور إدوارد كيندي الذي وصف الوضع في العراق بـ "المستنقع الصعب". وقد جاءت هذه الانتقادات بعدما زاد عدد القتلى من الجنود الأمريكيين المعلن عنهم رسمياً في العراق في ذلك الوقت عن 1750 جندياً، أما عدد الجرحى والمعوقين فقد زاد عن اثني عشر ألفاً.

ويبدو أن تصريحات بوش قد أوقعت الإدارة كلها في حرج بالغ، فقد سارع نائب الرئيس ديك تشيني في حوار أجرته معه محطة "سي إن إن" الإخبارية الأمريكية في 23 يونيو /حزيران 2005 إلى النفي غير المباشر لتصريحات بوش، وأكد على أن ما وصفه بالتمرد ضد الوجود الأمريكي في العراق يعيش "آخر رجفات الاحتضار".

لكن في الوقت الذي كان فيه تشيني يتغنى على شاشة "سي إن إن" بأكاذيب الإنجازات الهائلة التي حققها الأمريكيون في العراق، وينعي ما وصفهم بالمتمردين، كان الجنرال جون أبي زيد القائد الأعلى للقيادة الأمريكية الوسطى التي يمتد قطاع عملياتها في 27 دولة من أفغانستان إلى آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط إلى القرن الأفريقي يدلي بشهادته أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأمريكي، وأمام الاستجواب الصعب من النواب أقر أبي زيد بأن الشهور الستة الأخيرة أي النصف الأول من العام 2005 كانت عصيبة على القوات الأمريكية.

وفي الوقت الذي كان يقول فيه تشيني: "إن المتمردين يعيشون آخر رجفات الاحتضار"، كان أبي زيد الذي من المفترض أنه يعيش في الميدان يقول: "إن قوة المسلحين لم تتقلص خلال الأشهر الستة الأخيرة" - من يناير/كانون الثاني إلى يونيو /حزيران 2005 - وحتى يقلل أبي زيد من وضع المقاومة الداخلية رمى بالمسؤولية على العوامل الخارجية كما يفعل الأمريكيون دائماً وقال: "أعتقد أن عدداً أكبر من المقاتلين الأجانب يتسربون إلى العراق الآن مما كان عليه الوضع قبل ستة أشهر"، واتهم سوريا - بطبيعة الحال - حيث يبحث الأمريكيون دائماً عن كبش فداء يحملونه مسؤولية إخفاقاتهم.

وقد انتبه السيناتور الديمقراطي كارل ليفين إلى ما قاله تشيني وإلى ما

قاله أبي زيد فطلب الكلمة وقال: "إن تقييم الجنرال أبي زيد للموقف يتناقض مع ما سبق أن صرح به نائب الرئيس ديك تشيني بأن العصيان في العراق يلفظ أنفاسه الأخيرة".

لكن الأعجب أن وزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد المعروف بأنه يكذب أكثر مما يتنفس، تحدث في نفس الجلسة التي تحدث فيها أبي زيد وقال كلاماً متناقضاً أيضاً، وتحدث عن وضع مغاير ومتناقض مع تصريحات سابقة له شخصياً وعما تحدث به أبي زيد وكذلك الرئيس الأمريكي نفسه من قبل، ورفض تأكيدات السيناتور الأمريكي إدوارد كيندي الذي وصف الوضع في العراق بأنه "مستنقع صعب"؛ قال رامسفيلد: "إن المتمردين عانوا من خسائر كبيرة في الأرواح وحرموا من ملاذاتهم الآمنة، كما انحسر الدعم الشعبي عنهم". وأكد على أن "أي شخص يقول بأننا خسرنا الحرب أو أننا نخسر هذه الحرب هو مخطىء لأن هذا غير صحيح"، ورداً على طلب بعض الأعضاء تحديد موعد للانسحاب من العراق قال رامسفيلد: "إن تحديد موعد للانسحاب من شأنه أن يقدم طوق نجاة للإرهابيين".

هذا المشهد المليء بالتناقض والتخبط بين تصريحات الرئيس الأمريكي وأركان قيادته كشف في وقت مبكر - بدأ بعد معركة الفلوجة الأولى - حجم الورطة والهزيمة العسكرية والنفسية التي كان يعيشها بوش مع إدارته في هذه المرحلة، ولعل تراجع شعبيته بسبب التورط العسكري الأمريكي في العراق، وارتفاع أصوات المطالبين بتحديد موعد للخروج منها يكشف حجم الكارثة التي ألمت به، فحجم الإخفاقات أصبح كبيراً وأكاذيب رامسفيلد لم تستطع أن تغطي على حقيقة ما كان يحدث، مما دفع بوش في النهاية إلى أن يضحي به رغم إعلانه مراراً أن رامسفيلد "باق في منصبه طالما بقيت في البيت الأبيض"، وأجبر رامسفيلد على الإعلان عن استقالته في 8 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2006.

هذه الهزيمة الساحقة التي بدأ يعيشها بوش بعد معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004 هي التي جعلته يأخذ القرار بتدمير الفلوجة ومحاولة إبادتها في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004.

الفصل السابع

حرق وتدمير الفلوجة
معركة الفلوجة الثانية

دخلت الهدنة التي أُعلنت بين القوات الأمريكية والمقاتلين المدافعين عن مدينة الفلوجة بعد وساطة أعضاء مجلس الحكم حيِّز التنفيذ صباح الحادي عشر من أبريل/نيسان من العام 2004، وبدأ كثير من أهل المدينة يلملمون جراحهم، كما بدأت بعض العائلات التي خرجت من المدينة في العودة إليها. إلا أن الهدنة بقيت هشة، وقد اعتبر المقاتلون أنهم انتصروا، كما نشرت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً في 11 أبريل/نيسان 2004 قالت فيه: إن معركة الفلوجة أفقدت الأمريكيين منزلة المقاتلين الذين لا يُقهرون، حيث عجز أقوى جيش في العالم عن تحقيق انتصار على مقاتلين يقاومون بأسلحة خفيفة مثل مقاتلي الفلوجة.

وقالت الوكالة في تقريرها: "راجت دعابة في بغداد تقول: إنه" إن أردت أن تخيف جندياً أمريكياً يكفي أن تصيح لدى مروره "الفلوجة". فقد تراجع الجنود الأمريكيون في غضون عام من منزلة المقاتلين الذين لا يقهرون إلى مرتبة الجنود المعرَّضين مثل سواهم للخطر بعد أن رآهم العراقيون يسقطون تحت نيران رشاشات وقاذفات صواريخ قديمة".

ونشرت مجلة "الوسط" تقريراً في عددها الصادر في 12 أبريل/نيسان قال كاتبه سعد محيو: "إن معركة إسقاط الرئيس الأمريكي في الانتخابات الرئاسية بدأت من الفلوجة".

وما يُظهر أن الأمريكيين هم الذين كانوا يسعون لوقف إطلاق النار لإنقاذ أنفسهم من هزيمة كبيرة لحقت بهم ما أعلنه الحاكم الأمريكي المدني للعراق بول

بريمر في تصريحات أدلى بها في 11 أبريل/نيسان إلى شبكة "إي بي سي" الأمريكية ونقلتها وكالة رويترز: "لم نضع أي شروط الآن، إننا نسعى إلى وقف إطلاق النار فحسب، وطلبنا من المقاتلين التوقف عن إطلاق النار على مشاة البحرية، لم يفعلوا ذلك أمس، وكان لدينا عدد من الهجمات. ومن ثم اقترحنا موعداً مختلفاً لهدنة اليوم، ما نسعى إليه ببساطة هو دفع القوات إلى وقف إطلاق النار ودفع المقاتلين إلى الكف عن إطلاق النار على مشاة البحرية، ومن ثم يذهب وفد من مجلس الحكم (إلى المدينة)، وسنحاول اكتشاف طريقة يمكننا العمل من خلالها".

تصريحات تملؤها روح الهزيمة، فالذي يبحث عن وقف إطلاق النار ويلحّ عليه بهذه الطريقة هو الطرف المنهزم دائماً. لكن الطرف الذي يلح على وقف إطلاق النار هنا هو الطرف الأمريكي، والوسيط الذي يسعى لإنقاذ الأمريكيين هم للأسف وفد مجلس الحكم، وتصريحات بريمر تؤكد أن الأمريكيين كانوا يألمون أكثر مما كان يألم أهل الفلوجة.

وقد عبَّر الرئيس الأمريكي نفسه عن عمق هذا الألم في خطابه الأسبوعي الإذاعي في 11 أبريل/نيسان 2004 فقال: "هذا الأسبوع في العراق واجهت قوات التحالف تحدّياً ونقلت القتال إلى ساحة العدو"، وأضاف: "وإن إرادتنا الدفاعية سوف تستمر خلال الأسابيع المقبلة". والملاحظ بوضوح أنه يتحدث هنا عن الإرداة الدفاعية وليس الهجومية.

وقد نشرت صحيفة "نيويورك تايمز الأمريكية" تقريراً في 12 أبريل/نيسان قالت فيه: "إن القادة العسكريين الأمريكيين يستعدون لحملة طويلة لإخضاع الانتفاضتين المتزامنتين في الفلوجة ومدن الجنوب، وأن تكتيك السيطرة على الفلوجة يقتضي احتلال كل المدن المحيطة ببغداد قطاعاً قطاعاً واستعادتها من عدو متحصن"، لكن هذه الخطة لم تطبَّق بعد ذلك على الإطلاق، لأن الأمور أكثر تعقيداً مما كان يعتقده القادة العسكريون الأمريكيون، فقد أسقطت معركة الفلوجة الأولى هيبة الجندي الأمريكي.

وكتب توماس فريدمان أشهر كتّاب الأعمدة في صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية إلى جورج بوش ثلاث رسائل، يقول له في الأولى: إن أول رسالة له من

الفلوجة ونتائجها تقتضي أن يعود إلى أبيه جورج بوش الأب يطلب منه الحكمة وتدبر عواقب ما يقوم به في العراق.

ومع هشاشة الهدنة في الفلوجة أُجبرت قوات المارينز على أن تنفِّذ انسحاباً جزئياً منها يوم الاثنين 12 أبريل/نيسان 2004، بينما أعلن جون أبي زيد قائد القيادة الأمريكية الوسطى أنه طلب من وزير الدفاع الأمريكي إرسال لواءين إضافيين إلى العراق لزيادة القدرة القتالية لقواته.

وفي حوار له مع محطة "فوكس نيوز" الإخبارية الأمريكية أكد الحاكم المدني بول بريمر على أن القوات الأمريكية تواجه أزمة في العراق، وقال: "كنا نعرف أننا سنواجه أياماً صعبة خلال هذا الاحتلال، وواجهنا بالتأكيد أسبوعاً صعباً، لكن عندما نتمكن من تجاوز كل ذلك سيكون العراق أقوى، لذلك علينا العمل للخروج من هذه الأزمة".

وكلمة أزمة مخفِّفة كثيراً للحقيقة التي تعني الهزيمة، والتي كانت الإدارة الأمريكية كلها بكل طاقاتها السياسية والعسكرية تحاول الخروج منها بعدما أصبح انتصار الفلوجة على الأمريكيين مدوياً في أرجاء الدنيا، لا سيما بعدما تمكن عشرات المراسلين والصحفيين الغربيين من الدخول إلى المدينة والحديث عن صمودها والوضع الإنساني بها، وعلى رأسهم الصحفيون الأمريكيون الذين كتبوا مئات التقارير والمقالات في الصحف الأمريكية عن الفلوجة.

وكان من أبرز ما كتب في عدد 13 أبريل/نيسان من مجلة "نيوزويك" الأمريكية بعنوان كبير عن "تلطخ الشرف الأمريكي في الفلوجة". وكتب روبرت فيسك في صحيفة "الأندبندنت" البريطانية أن "الفلوجة سترسم المستقبل العراقي".

وبينما كانت القوات الأمريكية تمدد الهدنة يوماً بعد يوم، انتشرت في أسواق بغداد أشرطة مدمجة لأغان وأناشيد تكيل المديح لأبناء الفلوجة المنتصرة، وذكرت وكالة الأنباء الفرنسية في تقرير بثته في 14 أبريل/نيسان أن هذه الأشرطة كانت الأكثر مبيعاً في سوق الكاسيت في كل العراق. وكتب سلامة نعمات في صحيفة "الحياة" من واشنطن: إن "الفلوجة" أحبطت مشروع "الشرق الأوسط الكبير".

وكانت القوات الأمريكية تخرق الهدنة التي كانت تمددها يوماً بعد يوم، ففي 16 أبريل/نيسان قصفت الطائرات الأمريكية الفلوجة وأوقعت 15 قتيلاً وعشرين جريحاً من سكان المدينة، وبرر بول بريمر الهجوم بأنه جاء رداً على الهجمات التي لا زال المقاتلون يقومون بها ضد قوات المارينز.

وقد أُجبرت القوات الأمريكية التي كان وضعها متردياً أن تتخلى عن الوسطاء في المفاوضات مع وجهاء الفلوجة، وقامت للمرة الأولى بعقد مفاوضات مباشرة بين وفد من وجهاء المدينة يضم أحد عشر شخصاً ووفداً أمريكياً برئاسة الميجور جنرال جوزيف ويبر في السادس عشر من أبريل/نيسان، في الوقت الذي كان بوش وبلير يجتمعان في واشنطن اجتماعاً طارئاً لبحث الوضع في الفلوجة بشكل خاص والعراق بشكل عام.

وكان الميجور جنرال ويبر متوتراً حينما قال للصحفيين بعد الاجتماع الذي عقد في قاعدة للمارينز قرب المدينة: "يجب أن تكون المفاوضات سريعة، فالوقت محدود، لا يمكننا أن نجلس هنا ونترك الوضع على حاله.. إن هدف المفاوضات هو الحد من سفك الدماء والعنف". والمؤكد أنه كان يبحث عن الحد من سفك دماء الأمريكيين وليس العراقيين التي سفك الأمريكيون من دمائهم ولا زالوا يسفكون منها الكثير، فقد بثت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً في 17 أبريل/نيسان عن الجنود الأمريكيين في الفلوجة، قالت فيه: "إنهم خائفون ومتعطشون للانتقام والرغبة في الثأر من أجل رفاقهم الذين قتلوا في المعارك الدامية التي وقعت في الأسبوع الماضي في المدينة".

اتفاق وقف إطلاق النار

بعد مفاوضات مطولة بدأت في الثالث عشر من أبريل/نيسان 2004 وامتدت إلى التاسع عشر منه أعلنت قوات التحالف أنها توصلت إلى اتفاق لإنهاء المواجهات في الفلوجة. وقال المتحدث باسم قوات التحالف دان سينور: إن الاتفاق يتضمن العفو عن الأشخاص الذين يسلمون أسلحة ثقيلة، وإفساح المجال للوصول إلى المستشفيات ـ وكان يقصد مستشفى المدينة الذي كانت تسيطر عليه القوات الأمريكية والذي يقع في الضفة الأخرى من نهر الفرات ـ والتمكُّن من دفن القتلى

في المقبرة الرئيسية للمدينة التي كانت القوات الأمريكية تستولي عليها أيضاً منذ بداية المعركة.

كما تضمن اتفاق وقف إطلاق النار أن تقوم محكمة عراقية بمحاكمة الأشخاص الذين قاموا بقتل المرتزقة الأربعة والتمثيل بجثثهم، وكذلك تسيير دوريات مشتركة بين الأمريكيين والشرطة العراقية في المدينة.

ونقلت الوكالات عن فؤاد الراوي عضو المكتب السياسي للحزب الإسلامي العراقي مزيداً من التوضيح حول الاتفاق، فقال: "إن وفداً يضم عضو مجلس الحكم غازي عجيل الياور وممثلي الحزب الإسلامي حاجم الحسني ومحمد فاضل السامرائي وصلوا إلى الفلوجة في 19 أبريل/نيسان واستكملوا المفاوضات بين أعيان المدينة ومسؤولي قوات التحالف من أجل مواصلة المشاورات حول وقف دائم لإطلاق النار، وأنه قد تم الاتفاق بين الطرفين على فتح الجسر القديم الذي يربط المدينة بمستشفاها العام الكبير أمام الناس، وانسحاب المارينز إلى مسافة مئتين وخمسين متراً عن الجسر، واستبدالهم بجنود آخرين، وانسحاب القناصة. كما شمل الاتفاق تشكيل لجان لإدارة الأزمة وعودة عناصر الشرطة والدفاع المدني إلى عملهم في المدينة".

وفي تقرير أعدّه الزميل حامد حديد مدير مكتب الجزيرة في بغداد ونشر على موقع "الجزيرة نت" نقل عن الدكتور أحمد حردان المحمدي رئيس وفد التفاوض عن أهالي الفلوجة أن "الوفد خاض مفاوضات شاقة مع وفد القوات الأمريكية الذي تكوَّن من مسؤولين سياسيين بقيادة ريتشارد جونز نائب الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر، بينما كان القائد العسكري الأمريكي لقوات المارينز مسؤولاً عن الجانب العسكري في التفاوض".

وأكد حردان لمراسل الجزيرة أنه "كان أحياناً يتم الاتفاق مع جونز على بعض المسائل المتعلقة بالمسائل الإنسانية، ثم يفاجأ وفد الفلوجة برفض القائد العسكري الأمريكي هذه التفاهمات بحجة أنها تشكل خطراً على أمن قواته، وهذا ما أخَّر الوصول إلى اتفاق".

بريمر يوضح لرايس مخطط العودة للفلوجة

لعل قيام المفاوضات على هذا المستوى العالي من الممثلين الأمريكيين يكشف عن عمق المأزق الذي عبَّر عنه بريمر في مذكراته قائلاً في الصفحة 428: "اتصل أبي زيد قال: أعتقد أن لدينا مجالاً للتنفس في الفلوجة، لقد تحدثت إلى كونواي وهو راض عن الوضع".

إذن كان الأمريكيون مختنقين يبحثون عن متنفس، لكن الاتفاق الذي وقع ليكون هدنة لهم وبحثاً عن متنفس كان يخفي وراءه رغبة جامحة للانتقام من المدينة حيث يقول بريمر: "في 21 أبريل/نيسان، قبل انعقاد مجلس الأمن القومي المقرر في وقت لاحق من اليوم اتصلت كوندي رايس تسأل عن رأيي بشأن الفلوجة: "ماذا إذا أمر الرئيس بشن هجوم شامل؟". قلت: إنني أشعر بالتضارب، علينا العودة إلى هناك عاجلاً أم آجلاً، وإلقاء القبض على أولئك الأشخاص، لكن بصراحة على الرئيس أن يفترض بأنه إذا أمر بالهجوم الآن فسيؤدي ذلك إلى انهيار العملية السياسية بأكملها". وأبلغتها أن هذا هو رأينا جميعاً في سلطة الائتلاف المؤقتة بما فينا بلاكويل، على الرغم من حاجتنا إلى إدراك أننا نرجيء الإجراء هناك ليس إلا، لكن من الأفضل كثيراً أن يحدث ذلك الإجراء بعد إنشاء الحكومة العراقية على أمل أن تكون قوات الأمن العراقية أفضل تدريباً للمساعدة في العملية، وقلت "ليس هناك خيارات جيدة".

هكذا وبوضوح تام وضع بريمر النقاط على الحروف، فالقوات الأمريكية في وضع لا تحسد عليه ولا يمكن أن تقوم بأي هجوم على الفلوجة في هذه المرحلة لأن هذا سينهي كل المشروع الأمريكي في العراق، وهي باختصار في وضع انهزام. وأن التخطيط للعودة يجب أن يبدأ بعد تأسيس حكومة عراقية تكون أولى مهامها العودة لتدمير الفلوجة، وهذا ما كُلِّف به إياد علاوي بعدما عيِّن رئيساً للوزراء من قبل سلطات الاحتلال فيما بعد.

لم توقف الهدنة القتال بشكل كامل، لكنها كما قال جون أبي زيد أعطت الأمريكيين فرصة للتنفس. ولأن الفلوجة أصبحت تمثل الرعب الأكبر للأمريكيين فقد هدَّد إمام مسجد أم القرى في بغداد الشيخ أحمد عبد الغفور السامرائي في

خطبة الجمعة التي ألقاها في 23 أبريل/نيسان الأمريكيين قائلاً: "لدي رسالة عاجلة.. لقد تجاوزتم الخطوط الحمراء، فإياكم أن تعيدوا الكرة من جديد"، وأضاف: "إن إراقة الدم العراقي غير مسموح بها، وإذا ضربتم من جديد فالعراق كله سيصبح فلوجة من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه".

ومع انتشار تقارير تفيد بأن القوات الأمريكية كانت تعد للهجوم، على المدينة من جديد قال السامرائي: "إياكم ثم إياكم أن ترتكبوا مجزرة جديدة أخرى في الفلوجة، واعلموا أن أي عمل جديد لن يكون مقبولاً في هذه المدينة ولا في غيرها".

لكن الكولونيل جون كولمان رئيس أركان قوة المهام في فرقة مشاة البحرية الأولى المارينز التي كانت مكلفة بالهجوم على الفلوجة قال في تصريحات نشرتها الوكالات في 23 أبريل/نيسان 2004: "إن أعداداً أكثر من المارينز يستعدون مجدداً لمهاجمة الفلوجة"، وهذا يعكس الرغبة العسكرية الأمريكية بالانتقام بعد تكبد الهزيمة. وقد أشار كولمان في تصريحاته بشكل واضح وقوي إلى أن الفلوجة هي التي ستحدِّد مستقبل العراق فقال: "ما ستؤول إليه الفلوجة، سيؤول إليه وسط العراق، وما سيؤول إليه وسط العراق ستؤول إليه البلاد.. إن الفلوجة هي مركز الجاذبية".

وفي الوقت الذي انتقد فيه المقاومون في الفلوجة عبر بيان وزَّعوه في المدينة الحزب الإسلامي وهيئة علماء المسلمين بسبب الهدنة التي وُقِّعت وأنها أتاحت الفرصة - كما جاء في البيان - للعدو أن "يستعيد نشاطه ويبني المتاريس ويسترجع أنفاسه"، دعا بعض أئمة صلاة الجمعة في الفلوجة إلى "الانتقام من المارينز لأنهم قتلوا كل ما يتحرك في المدينة حتى الحيوانات.. إن هؤلاء الناس هم أعداء الإنسانية".

هذه الأجواء ما كان لها أن تؤدي إلى الهدوء، وكانت الاشتباكات شبه يومية في المدينة. وفي 25 أبريل/نيسان نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية أن بوش وكبار مساعديه سوف يقررون الاثنين 26 أبريل/نيسان شن هجوم على المدينة، لكن يبدو أن ما ذكره بريمر في مذكراته كان هو الصواب بالنسبة لهم، فالقوات الأمريكية ليس لديها قدرة على شن الهجوم، كما أن شن الهجوم كان يعني انهيار المشروع الأمريكي في العراق.

ولم يجد الأمريكيون بدّاً من تمديد وقف إطلاق النار في 25 أبريل/نيسان إلى أجل غير مسمًى، بينما لجأ بوش إلى اعتماد استراتيجية "الضربات الجراحية" للمدينة بدلاً من الهجوم الشامل الذي كانت خسارته مؤكدة حسب رأي العسكريين الأمريكيين. فقد نشرت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً في 28 أبريل/نيسان 2004 قالت فيه: "إن عدداً من القادة الأمريكيين يرون أن هجوماً واسع النطاق على الفلوجة لن يكون كافياً للتغلب على المقاتلين"، لذلك لم يعد على القوات الأمريكية سوى تأجيل الهجوم والانسحاب من الفلوجة والتركيز على الضربات الجوية والقصف المدفعي.

الانسحاب من الفلوجة

فى التاسع والعشرين من أبريل/نيسان عام 2004 أعلن الناطق باسم مشاة البحرية الأمريكية اللفتنانت كولونيل برناني بايرن أن قوات المارينز التي تحاصر مدينة الفلوجة ستبدأ بالانسحاب من المدينة صباح الجمعة 30 أبريل/نيسان إلى خارج المدينة، وستحل بدلاً منها قوات عراقية بقيادة ضابط كبير من عهد الرئيس السابق صدام حسين.

وأضاف بايرن: إن هذا تم بموجب اتفاق تم التوصل إليه يوم الأربعاء 28 أبريل/نيسان بين ممثلين عن مدينة الفلوجة بينهم أربعة من كبار ضباط الجيش العراقي السابق، وأشار إلى أن الاتفاق نص على قيام قوة جديدة من الجيش العراقي الجديد تقدر بحوالى ألف ومئة عنصر بقيادة قائد فرقة سابق ستتولى الأمن في الفلوجة.

مثَّلَ هذا الاتفاق مع بداية الانسحاب ذروة الهزيمة الأمريكية في الفلوجة، لا سيما وأن اللواء جاسم محمد صالح الذي كُلِّف بقيادة ما أطلق عليه "لواء الفلوجة" كان أحد قادة الحرس الجمهوري في عهد الرئيس المخلوع صدام حسين، كما أن القوة التي شُكِّلت كانت كلها من رجال الجيش السابق الذي حلّه الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر. وأترك لبريمر وصف ما حدث قائلاً في الصفحة 431 من مذكراته: "في صباح يوم 30 أبريل/نيسان أسرع دان سينور بالدخول إلى مكتبي، قال وهو يشغل التليفزيون على قناة سي إن إن إنترناشيونال، "يجدر بك أن تلقي نظرة يا سيادة السفير".

ظهر لواء عراقي يرتدي البزة العسكرية الخضراء الداكنة وقبَّعة الحرس الجمهوري التابع لصدام محاطاً بحشد من الشبان الذين يغنّون فرحين في الساحة التي تلفحها الشمس.

قال دان: "الفلوجة اليوم.. يدعى الرجل اللواء جاسم محمد صالح، وهو الذي اختاره المارينز لقيادة ما أسموه "لواء الفلوجة".

سألت: "ماذا يجري؟"

رنَّ جرس الهاتف المؤمن على الفور تقريباً، كان الجنرال أبي زيد متصلاً من مقر القيادة في الدوحة: "هل شاهدت الأخبار يا جيري؟ لا يمكنني أن أقول إذا كنا نربح أم نخسر؟" وضحك. لم أكن سعيداً وأبلغته بذلك".

انتهى كلام بريمر، لكنه كان يعكس المشهد من الداخل، فالعسكريون اتخذوا القرار دون الرجوع إليه، كما أن العسكريين الذين اتخذوا هذا القرار "هل كانوا يربحون أم يخسرون؟"، كل المعطيات كانت في إجابة بريمر، "لم أكن سعيداً، وأبلغته بذلك".

لقد كان هذا هو الفصل الأخير لتأكيد خسارة الأمريكيين وهزيمتهم في معركة الفلوجة، لكنهم كانوا يعدون للانتقام الأسود من المدينة وأهلها.

وفي حوار أجراه مع قناة الجزيرة في 29 أبريل/نيسان 2004 حول ثمن الانسحاب الأمريكي، قال الدكتور أحمد حردان رئيس الوفد المفاوض عن أهل الفلوجة عن الاتفاق: "إن ثمن الانسحاب الأمريكي هو أن المدينة حوصرت واعتديَ عليها، وسُفِكت دماء أبنائها وسقط الشهداء في شوارعها". وفي سؤال عن الضمانات قال حردان: "إن الضمانة الأكيدة بالنسبة لنا أن يحل أبناؤنا من رجال الشرطة والدفاع المدني وضباط القيادات التي اختيرت من أهالي الفلوجة محل القوات الأمريكية في حفظ الأمن".

وبهذا الاتفاق توَّجت الفلوجة انتصارها العسكري، لكن بوش وجنوده كانوا يعدّون لتدميرها.

تدمير الفلوجة... مهمة حكومة علاوي

أثار اختيار اللواء جاسم محمد صالح لقيادة لواء الفلوجة ردود فعل واسعة، فتم استبداله بعد يومين باللواء محمد لطيف لتهدئة أعضاء مجلس الحكم الثائرين من الشيعة حسب وصف بريمر في مذكراته، ووضع الجنرالان كونواي وسانشيز خطة لاختبار لواء الفلوجة الذي تم حله بعد ذلك في شهر أغسطس/آب 2004 لعدم تحقيقه الأهداف التي وضعها الأمريكيون حيث اتهموه بالتعاون مع المقاومة بعد رفض قيادته عدة مرات شنَّ هجمات على أبناء المدينة وعدم التزامه بالأوامر الأمريكية.

بينما لم يعد أمام بريمر سوى شهرين فقط هما مايو/أيار ويونيو/حزيران لتسليم السلطة، كان عليه أن يقدم لقادته في واشنطن مخرجاً لأزمة الفلوجة التي أحرجت بوش وكبَّدته هزيمة عسكرية وسياسية مخزية في العراق، لكن سياسة بريمر كانت قائمة على ترحيل أزمة الفلوجة لمن سيأتي بعده كما قال في الصفحة 435 من مذكراته: "كانت توجد تحديات صعبة، فالمشكلات الأمنية مع مقتدى الصدر والفلوجة كانت لا تزال بدون حل، ولذلك عمدنا ببساطة إلى تأجيل المواجهات المحتومة من أجل الحفاظ على العملية السياسية الهشة".

وحينما وصل وزير الدفاع الأمريكي آنذاك دونالد رامسفيلد إلى بغداد في منتصف مايو/أيار كانت الفلوجة على رأس جدول أعماله، إنها علامة سوداء وجرح ينزف في وجه بوش وإدارته، يقول بريمر في صفحة 442: "سألني رامسفيلد: ما هو رأيك بشأن الوضع في الفلوجة؟"، قلت: سيدي الوزير، أنا لست متفائلاً بعكس بعض العسكريين". وشرحت له بأن "التعامل مع اللواء محمد لطيف، القائد الجديد لكتيبة الفلوجة، كان صعباً في الأسبوعين الماضيين، وهو يرفض بشكل متكرر إقحام لوائه في القتال، المدينة كلها مشكلة عويصة أخرى يتعين تأجيلها إلى أن تقوم حكومة عراقية ذات سيادة وتكون جاهزة لمعالجتها".

بوضوح تام الفلوجة مشكلة عويصة للأمريكيين ومهمة القيام بحلها يجب أن تكون على عاتق الحكومة القادمة.

ولبيان أثر معركة الفلوجة على وضع القوات الأمريكية في العراق قال

بريمر في الصفحة 447: "كنت قلقاً بشأن الوضع الأمني، فقد تبين من أزمة أبريل/نيسان أنه سيمر وقت طويل على العراق قبل أن تصبح القوات العراقية قادرة على الإمساك بالأمن في البلاد، فهل بوسعنا الحصول على مزيد من جنود الائتلاف لملء هذه الفجوة؟".

ومع انشغال بريمر بترتيب إجراءات رحيله عن العراق وتشكيل سلطة عراقية شكلية لتسليمها السلطة، كانت الفلوجة هي الجرح الغائر الذي لا يلتئم لدى الأمريكيين، يقول بريمر في الصفحة 477 من مذكراته عن الوضع في الفلوجة قبل أيام من رحيله: "لكن الوضع في الفلوجة كان مثيراً للقلق فقد أشارت التقارير إلى أن لواء الفلوجة لا يزال يخيب آمال المارينز بإعادة النظام إلى المدينة. قلت لديك جونز: إننا نتعرض لأذى شديد هناك".

نعم إنها الحقيقة! الأمريكيون يتعرضون لأذى شديد هناك في الفلوجة، لكن بريمر كان مشغولاً بترتيبات رحيله التي أعدها على عجل وبشكل سرّي، لم يكن في النهاية من خلال ما رواه في مذكراته سوى عملية هروب مخزٍ وترك الملفات الكثيرة وعلى رأسها ملف الفلوجة، لكي يقوم من نصَّبهم الاحتلال وعلى رأسهم إياد علاوي بتنفيذه، وبدأت مهمة علاوي بالإعداد لتدمير الفلوجة، وكان أول قرارته هو إغلاق مكتب قناة الجزيرة لضمان عدم وجود أي بث إعلامي يمكن أن يفشل المعركة القادمة، وقرر إياد علاوي إغلاق مكتب قناة الجزيرة في 7 أغسطس/آب 2004، توجه بعدها إلى واشنطن ليتم تنصيبه في الكونغرس.

سر حفاوة الكونغرس بإياد علاوي

لم يستطع الاستقبال الهوليودي لرئيس الوزراء العراقي إياد علاوي في الكونغرس الأمريكي يوم الخميس 23 سبتمبر/أيلول 2004 أن يغطي على ما يحدث في العراق من فوضى عارمة في كافة المجالات، فخلف صور المصفقين من أعضاء الكونغرس كانت شاشات التلفزة العالمية تنقل صور الجنود الأمريكيين وهم يحملون جرحاهم وقتلاهم من إحدى الهجمات التي كانت تزيد عن أربعين هجوماً في اليوم الواحد ضدهم في العراق، بينما كانت محطات تلفزيونية أخرى تبثّ صور نساء وأطفال عراقيين ذهبوا ضحية قصف أمريكي

على مدن الفلوجة وسامراء وبعقوبة وحديثة والرمادي ومدن ومناطق أخرى من العراق.

كما كانت هناك صور للرهينة البريطاني وهو يستنجد برئيس الوزراء البريطاني توني بلير أن ينقذ حياته بعدما قتل الخاطفون الرهينتين الأمريكيتين، فيما كانت أخبار متفرقة أخرى عن مآسي تعم جوانب العراق المختلفة تتوارد في شكل يؤكد العجز الكبير لحكومة علاوي التي نصبها الاحتلال مع أكثر من مئة وخمسين ألف جندي أمريكي يحتلون العراق وعدم قدرتهم على إعادة الأمن والاستقرار إلى سكانه.

وقد جاء استقبال علاوي في الكونغرس الذي سعت الولايات المتحدة وإدارة بوش إلى أن تصنع منه حدثاً كبيراً ونصراً لبوش وتنصيباً أمريكياً رسمياً لعلاوي بعد تنصيبه مبدئياً على يد بريمر في بغداد، وذلك من خلال التغطية الإعلامية الكبيرة والتصفيق المتكرر من أعضاء الكونغرس وسط موقف دولي معاد لبوش وإدارته وما قام به في العراق، وذلك على أكثر من صعيد.

فالأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان أفاق من غيبوبته وأعلن أن الحرب الأمريكية على العراق "غير شرعية"، كما انتقد في افتتاح الدورة السنوية للأمم المتحدة وبحضور الرئيس بوش في 21 سبتمبر/أيلول 2004 أسلوب الولايات المتحدة في مقاومة الإرهاب. أما وزير الخارجية الفرنسي ميشيل بارنييه فقد أكد في الأمم المتحدة في نفس اليوم أن فرنسا "لن ترسل قوات إلى العراق لا اليوم ولا غداً"، وقال: "إن فرنسا لم تقر الشروط التي اندلعت على أساسها الحرب".

ورغم الغضب الذي أبداه بوش وحلفاؤه من تصريحات الأمين العام للأمم المتحدة، وعدم رضا واشنطن عن مواقف باريس من البداية، إلا أن ذلك لم يغير شيئاً من حقيقة الواقع الذي يعيشه العراق، فالمئات من العراقيين أصبحوا يتعرضون للقتل بشكل غير مسبوق منذ احتلال أمريكا، حتى وصل عدد العراقيين الذين قتلوا منذ احتلال العراق ـ أو تحريرها حسب وصف علاوي في الكونغرس ـ إلى أكثر من عشرين ألف عراقي، زادوا بعد ذلك حتى وصل عددهم مع الذكرى الرابعة للاحتلال الأمريكي للعراق في أبريل/نيسان من العام 2007 إلى ست مئة وخمسين ألف قتيل حسب تقديرات مجلة "لانسيت" البريطانية

الطبية العريقة، فيما تذهب تقديرات أخرى إلى ما هو أبعد من ذلك، هذا خلاف أعداد هائلة من المفقودين.

أما القوات الأمريكية فإنها كانت مع زيارة علاوي لواشنطن والحفاوة به تواجه مأزقاً كبيراً تمثل في إعلان البنتاغون يوم الجمعة 23 سبتمبر/أيلول 2004 أن قتلاه وصلوا إلى ألف وأربعين قتيلاً، وقد تصاعد عددهم بعد ذلك ليصل إلى أكثر من ثلاثة آلاف ومئتين وستين قتيلاً بحلول الذكرى الرابعة للاحتلال الأمريكي للعراق في 9 أبريل/نيسان من العام 2007، وكان تسريب التقرير السري الذي أعدته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية السي آي إيه حول مستقبل العراق لتقديمه للرئيس الأمريكي بوش ونُشِرت مقتطفات منه في صحيفة "نيويورك تايمز" في 17 سبتمبر/أيلول 2004، قد فجَّر جدلاً واسعاً داخل الإدارة الأمريكية، لا سيما وأنه تنبأ ـ في ذلك الوقت ـ بمستقبل متشائم ومظلم للعراق قد يصل إلى حد اندلاع حرب أهلية فيه.

ورغم أن مستشارة الأمن القومي الأمريكية آنذاك ووزيرة الخارجية بعد ذلك كوندوليزا رايس سعت في تصريحات أدلت بها في 21 سبتمبر/أيلول 2004 إلى استبعاد ما جاء في التقرير حول إمكانية اندلاع الحرب الأهلية بين العراقيين، إلا أن كثيراً من المراقبين في ذلك الوقت كانوا يرون أن ذلك السيناريو ربما تسعى الولايات المتحدة إلى تحقيقه إذا فشلت مهمتها في العراق، وقد اندلعت الحرب الأهلية بالفعل وشغلت العراقيين إلى حد ما عن توجيه كل طاقتهم نحو مقاومة الاحتلال.

ورغم تأكيد الحكومة الأمريكية مراراً من قبل أن لديها الميزانية التي تغطي نفقات الحرب في العراق، إلا أن إعلانها في 21 سبتمبر/أيلول 2004 اللجوء إلى صندوق الطوارىء لتمويل الحرب وذلك بعد أيام قليلة من إعلان البيت الأبيض تحويل ثلاثة مليارات دولار ونصف من الأموال المخصصة لمشاريع الإعمار في العراق لاستخدامها في تعزيز الأمن، كل هذا أضعف موقف بوش الداخلي، وجعل المرشح الديمقراطي للرئاسة في ذلك الوقت جون كيري يعلن في مواجهته لبوش في تصريحات أدلى بها في جامعة نيويورك في 21 سبتمبر/أيلول 2004 بأن حرب أمريكا ضد العراق "كارثة تاريخية مخجلة"، كما وصف منافسه بوش بالافتقار للذكاء والأمانة، واتهمه بالفشل وسوء تقدير الأمور.

لذلك حينما سعيت لفهم سر الترحيب الكبير برئيس الوزراء المعين من سلطات الاحتلال إياد علاوي في الكونغرس وصناعة زعيم منه أمام شاشات التلفزة ووسائل الإعلام العالمية، وجدت دلالتين قادتا إلى سر هذا الترحيب.

الدلالة الأولى تمثلت في تصريح مساعد وزير الخارجية الأمريكي ريتشارد أرميتاج في مؤتمر صحفي عقده في وارسو في 17 سبتمبر/أيلول 2004 قال فيه: "إن المسلحين في العراق يسعون إلى التأثير في الانتخابات" الأمريكية "لغير مصلحة الرئيس جورج بوش، وأوضح أنهم يريدون رفع الثمن الذي يدفعه، وهذه محاولة ثأرية ليؤثروا في الاقتراع وسيفشلون".

أما الدلالة الثانية فقد تمثلت في تأكيد الرئيس الأمريكي بوش لرئيس الوزراء علاوي أثناء لقائه به على هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك حيث قال له في تصريحات نقلتها وكالة أسوشيتدبرس في 21 سبتمبر/أيلول 2004: "إنني لن أسمح للإرهابيين "والبلطجية" بتقرير مصيري ومصيرك".

الأمر الأهم من كل ذلك أن الفلوجة التي هزمت بوش، كان هذا يخطط مع قادته العسكريين وبمعاونة علاوي على الانتقام منها ليس بالهجوم عليها واعتقال الذين سحلوا المرتزقة كما كان يطالب الأمريكيون، ولكن بإبادتها وتدميرها على رؤوس من فيها هذه المرة، وقد تم هذا بالفعل في المعركة التي وقعت في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004.

ولأن علاوي كان مشروع بوش في العراق ومساعداً له في تدمير الفلوجة بعد ذلك، فقد سعى بوش بكل ما لديه من قوة لتسويق علاوي وتنصيبه في الكونغرس أعلى مؤسسة تشريعية في الولايات المتحدة حتى يعيش علاوي وَهْمَ أنه أصبح زعيماً سياسياً للعراق، لكن في النهاية هل تمكن أعضاء الكونغرس من خلال التصفيق المتكرر من التغطية على الكارثة التاريخية المخجلة - حسب وصف كيري - التي كان يواجهها الأمريكيون في العراق؟ غير أن الفلوجة التي كانت على جدول بوش وعلاوي سبقتها مقدمات للانتقام قامت بها القوات الأمريكية قبل أن يقوم علاوي بزيارته إلى الولايات المتحدة مباشرة.

مقدمات الانتقام من الفلوجة

على صدر الصفحات الأولى لمعظم الصحف العربية الصادرة في العاشر من سبتمبر/أيلول 2004 - ولا أدري هل فعلت الصحف الغربية ذلك أم لا - تصدرت صورة وزعتها وكالة الأنباء الفرنسية لرضيع قتلته القوات الأمريكية في إحدى هجماتها على مدينة الفلوجة ضمن سياسة "الضربات الجراحية" للمدينة التي كانت تنتهجها القوات الأمريكية بعد هزيمتها في معركة الفلوجة في أبريل/نيسان من العام 2004. وقد حمل بعض السكان جثة الطفل على أيديهم ورفعوه عالياً لتأكيد أكاذيب القوات الأمريكية ومزاعمها حول استهدافها أنصار أبي مصعب الزرقاوي في المدينة، إلا إذا كانت تعتبر كل سكان المدينة من أنصار الزرقاوي بمن فيهم حتى الأطفال الرضع الذين أصبحوا هم الآخرون ضمن الأهداف الأمريكية في المدينة، بل وفي المدن العراقية الأخرى.

ولا أقول هذا الكلام من قبيل المبالغة بل من خلال الحقيقة، فقد نشرت صحيفة "واشنطن بوست" تقريراً في السادس عشر من سبتمبر/أيلول 2004 قالت فيه: إن الجنود الأمريكيين الذين يحاصرون ويهاجمون مدينة تلعفر طلبوا من مخبر عراقي كان يصحبهم أن يدلهم على بيوت المشتبه بهم، فقال لهم الجاسوس: "كل القرية.. كلهم إرهابيون اعتقلوا كل رجال القرية". هكذا يتعامل الأمريكيون مع أهدافهم التي لا تفرق بين طفل وشيخ وامرأة ومقاتل في العراق، وهذه هي نوعية الجواسيس والمرتزقة العراقيين الذين يعملون معهم.

ورغم أن وسائل الإعلام العالمية كانت تبث بعد كل قصف يستهدف مدينة الفلوجة صور نساء وأطفال وعجائز بين قتلى وجرحى إلا أن القوات الأمريكية تصر في صلف واستهزاء وسخرية من العالم أجمع بأن الضحايا هم من أنصار الزرقاوي، لكن اللفتنانت جنرال جيمس كونوي المسؤول عن غرب العراق في سلاح المارينز الأمريكي والتي كانت مدينة الفلوجة تدخل ضمن مهامه مع محافظة الأنبار كلها قال للصحفيين وهو يوشك على مغادرة منصبه في تصريحات نشرت في الرابع عشر من سبتمبر/أيلول 2004 أنه كان: "ضد ضرب مدينة الفلوجة من البداية لكنه كان ينفذ الأوامر التي صدرت من البيت الأبيض، وبدت أنها بغرض الانتقام".

هكذا اعترف كونوي أن أوامر ضرب الفلوجة كانت تأتي من البيت الأبيض مباشرة، مما يعني أن معركة الفلوجة كانت معركة بوش من البداية. لكن المراقبين يشيرون إلى أن فشل القوات الأمريكية في اقتحام المدينة بعد حصارها ثلاثة أسابيع في شهر أبريل/نيسان 2004، واضطرارها لرفع الحصار بعد تكبدها خسائر فادحة وعدم قدرتها على اقتحام المدينة واشتعال المقاومة الضارية في كافة أنحاء العراق آنذاك جعلها تتبع سياسة الضربات الانتقامية ليس من أنصار الزرقاوي - الذي لا يعرف أحد أين كان يختفي آنذاك كما تدعي - ولكن بفرض أن كل أهل الفلوجة إرهابيون، وهذا ما جعل العداء للأمريكيين مضاعفاً في المدينة لأن كل من فقد طفلاً أو أخاً أو ابناً يرغب في الانتقام. وقد عبر الجنرال كونوي عن ذلك بوضوح تام في لقائه مع الصحفيين حيث قال: "أظن أننا حينما صدر لنا أمر بمهاجمة الفلوجة رفعنا درجة العداء لنا من أهل المدينة".

ومع انتهاء القوات الأمريكية من السيطرة على المدن المقدسة لدى الشيعة النجف وكربلاء والكوفة، وانتهاكها للمقدسات بشكل لم يُبقِ شيئاً مقدساً في العراق بعد ذلك، فإن الرغبة في الانتقام من كل الذين واجهوا القوات الأمريكية أو سبّبوا لها أزمات أو خسائر أو تحد أو إحراج أصبحت مدرجة كأهداف أساسية للقوات الأمريكية. ولعل هذا ما جعل الشيخ عبد السلام الكبيسي العضو البارز في "هيئة علماء المسلمين" يدلي بتصريحات لصحيفة الحياة في السادس عشر من سبتمبر/أيلول 2004 قال فيها: "إن القوات الأمريكية تستعد لاجتياح مدينة الفلوجة". ولعل حل لواء الفلوجة في أغسطس/آب 2004 والذي كان قد أُسس بعد فشل القوات الأمريكية في اجتياجها في أبريل/نيسان 2004 بغرض حفظ الأمن في المدينة، واتهام القائمين عليه بأنهم يدعمون المقاومة، وشن هجوم جوي أمريكي عليه قبل أيام من حله مقدمة لما يمكن أن تقوم به القوات الأمريكية تجاه المدينة وسكانها الذين كانوا يعانون من القصف اليومي ويقدمون العشرات من الضحايا بشكل مستمر طوال الفترة التي أعقبت هزيمة القوات الأمريكية في معركة شهر أبريل/نيسان.

ورغم أن كثيراً من العسكريين الأمريكيين كانوا يدركون أن محاولة احتلال

الفلوجة في معركة ثانية لن تكون سهلة، وإن نجحوا في احتلالها فإن البقاء فيها سيكون مثل البقاء في الجحيم، إلا الجنرال كونوي الذي كان ضد اقتحام المدينة قال للصحفيين: "نحن في الأخير نؤدي التحية ونقوم بالهجوم".

تهديد علاوي للفلوجة

كانت المهمة الأولى لعلاوي بعد عودته من حفل تتويجه في الكونغرس الأمريكي هي الإعداد لمعركة الفلوجة. وبدلاً من أن يلطخ العار أمريكا وحدها، ليكن السيناريو أن الحكومة التي نصبها الاحتلال هي التي ستقوم بالمهمة وأن يشارك إلى جوار القوات الأمريكية قوات عراقية تابعة للحكومة التي نصبها الاحتلال. ومع الضربات الجوية والقصف المدفعي الذي لم يتوقف ضد المدينة منذ معركتها الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004 والذي زادت وتيرته بدءاً من يوليو/تموز دخلت الفلوجة مرحلة جديدة من المواجهات مع القوات الأمريكية بعد التهديد الذي أطلقه يوم الأربعاء 13 أكتوبر/تشرين الأول 2004 رئيس الوزراء المعيَّن من قبل سلطات الاحتلال الأمريكية في العراق إياد علاوي إلى سكان الفلوجة بأنهم سوف يواجهون عملية عسكرية كبيرة إذا لم يقوموا بتسليم أبي مصعب الزرقاوي ورجاله.

ومن المؤكد أن علاوي كان يعلم أن هذا الطلب مستحيل لأسباب كثيرة، من أهمها أن القوات الأمريكية بكل ما تملك من إمكانات عسكرية وأقمار صناعية قد عجزت عن القبض في ذلك الوقت على الزرقاوي أو تحديد مكانه، كما أن سكان الفلوجة قد أكدوا مراراً أنهم هم الذين يدافعون عن المدينة وهم الذين يرفضون دخول القوات الأمريكية إليها وليس الزرقاوي. وقد أكد مجلس شورى المجاهدين الذي كان يخوض التفاوض عن سكان المدينة مع حكومة علاوي أنهم يرفضون دخول القوات الأمريكية إلى المدينة وأن أبناءها هم الذين يدافعون عنها.

ولعل نجاح القوات الأمريكية في تحقيق نصر ولو إعلامي في مدينة سامراء وقبلها في النجف وكربلاء ثم في مدينة الصدر في ذلك الوقت جعل الفلوجة هي المدينة العصية التي يريدون تصفية حساباتهم معها ومع أهلها بل حتى مع نسائها وأطفالها.

الأمريكيون من ناحيتهم كانوا وسيظلون يعيشون عقدة الفلوجة على أعلى مستوياتهم وعلى رأسهم الرئيس بوش نفسه. كما أن كل أمريكي أصبح يعرف اسم الفلوجة جيداً ربما مثل بغداد أو أكثر، بسبب كثرة ترديد المسؤولين الأمريكيين وعلى رأسهم الرئيس بوش لاسمها بشكل مستمر بعدما عجزت القوات الأمريكية عن دخولها في أبريل/نيسان. لكن القوات الأمريكية بدأت تنتهج تكتيكاً عسكرياً مدمراً للانتقام من أهل المدينة تحت حجة الزرقاوي ورجاله، حيث كانت الطائرات الأمريكية تقوم بقصف عشوائي ومستمر في الليل والنهار لأحياء المدينة المختلفة.

وفي الوقت الذي كان فيه الناطق العسكري الأمريكي يُخرج أو يصدر بياناً يؤكد فيه أنه تم قصف مخبأ للزرقاوي ورجاله في الفلوجة كانت كاميرات التليفزيون وتقارير الصحفيين المقيمين في المدينة والتقارير الطبية تحمل صور قتلى وجرحى أغلبهم من النساء والأطفال وأحياناً بينهم رُضّع من أبناء المدينة، أما البيوت المعنية فإنها لم تكن سوى بيوت لعائلات بسيطة.

وقد قامت الاستراتيجية الأمريكية بقصف الفلوجة عشوائياً، دون استهداف حي بعينه، بل كانت الطائرات تستهدف وعلى مدار الساعة طوال الأشهر التي سبقت تهديد علاوي، بيوتاً في مناطق مختلفة من المدينة، حتى يتم إشعار السكان بأنه لن يكون هناك حي أو بيت آمن في المدينة، ولن يترك لأهلها أن ينعموا بالأمن أو الاستقرار في أي منطقة من مناطق الرقعة الواسعة للمدينة والتي تقترب من أربعين كيلو متراً مربعاً، ولم يسلم مطعم الحاج حسين أشهر مطاعم الكباب في الفلوجة من قصف الطائرات الأمريكية له يوم الثلاثاء 12 أكتوبر/تشرين الأول 2004، فدُمِّر على رؤوس من كانوا يتناولون طعامهم فيه، وإذا بالقوات الأمريكية تقول عن المطعم الذي يعتبر من أشهر مطاعم الكباب في المدينة أنه تحول إلى وكر للمتطرفين، وهكذا يكون الانتقام وإشعار الناس بعدم الأمان حتى وهم يتناولون طعامهم وشرابهم.

وقد أدت هذه العمليات المنظمة والمكثفة والتي بدأت في شهر يوليو/تموز 2004 واستمرت حتى بداية الهجوم على المدينة في شهر نوفمبر/تشرين الثاني إلى عدم استقرار الحياة في المدينة وإلى مقتل وجرح المئات من أبنائها مما جعلها مكاناً غير آمن لأحد، وأدى إلى قيام مئات الأسر بترك المدينة والهجرة

منها بشكل مؤقت إلى المدن والقرى المجاورة؛ فالعلاقة العشائرية للسكان تجعل التكافل صفة أساسية من صفات المجتمع العراقي، لكن المشكلة أن الإنسان إذا خرج من بيته وهو على بعد مرمى منه تظل حياته غير مستقرة، وهذا ما جعل معظم السكان يشعرون بعدم الاستقرار سواء كانوا داخل المدينة أو خارجها.

وهناك قصص عديدة لأسر خرجت من المدينة تبحث عن الأمان فإذا بها تقع ضحية قصف طائرة أو دبابة أمريكية، مثل تلك العائلة التي قصفتها قافلة أمريكية وهي في طريقها إلى خارج المدينة يوم الثلاثاء 12 أكتوبر/تشرين الأول 2004، وشاهد الجميع على شاشات التلفزة سيارتهم المدمرة والتي قتل جميع من فيها بمن فيهم النساء والأطفال. وهناك أسر أخرى انتقلت داخل المدينة من حي إلى آخر وإذا بالبيت الذي لجأت إليه تبحث عن الأمان فيه يتعرض للقصف ويلقى معظم أفرادها مصرعهم.

وكان من أبشع الجرائم التي ارتكبتها القوات الأمريكية في ذلك الوقت بدعوى البحث عن أبي مصعب الزرقاوي ما تناقلته وكالات الأنباء في 8 أكتوبر 2004 نقلاً عن أطباء عراقيين بأن غارة جوية وقعت على مدينة الفلوجة وأدت إلى سقوط 11 قتيلا و17 جريحاً. وفي الوقت الذي أكدت فيه القوات الأمريكية أن الضربة التي وصفتها بأنها دقيقة، استهدفت مخبأ لأتباع الناشط الأردني أبي مصعب الزرقاوي، فإن المواطنين والأطباء قالوا: إن الغارة الأمريكية استهدفت منزلاً مدنياً بعد وقت قصير من إقامة حفل للزفاف أمام المنزل، وأضافوا بأن العريس كان من بين القتلى بينما كانت عروسه من بين المصابين إضافة إلى تسعة نساء وستة أطفال.

ونقلت وكالة "رويترز" عن الأطباء في مستشفى الفلوجة أن أباً وأبناءه السبعة وبعض ضيوف الحفل كانوا من بين القتلى علاوة على العريس، ومع كل هذه التأكيدات يصر الأمريكيون أن القتلى كانوا من أنصار أبي مصعب الزرقاوي، ودائماً ما كان يُتخذ هذا الاتهام ذريعة للقيام بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية يُقتل فيها النساء والأطفال بهذه الطريقة الوحشية ضد أهل الفلوجة وأهل العراق بشكل عام.

وقد تصاعدت العمليات العسكرية ضد الفلوجة بعد التهديد الذي أطلقه

علاوي ضد أهل المدينة في منتصف أكتوبر/تشرين الأول، وحذر الدكتور حارث الضاري رئيس هيئة علماء المسلمين في العراق في تصريح نشر في العشرين من أكتوبر/تشرين الأول من العواقب الوخيمة في حال شنت القوات الأمريكية هجوماً كبيراً وشاملاً على الفلوجة.

لكن القصف الجوي والمدفعي اليومي على المدينة دفع آلاف الأسر إلى مغادرة المدينة، غير أن عائلة منكوبة قررت العودة بعد أسبوع قضته خارج الفلوجة إلى بيتها حيث عاجلتهم الطائرات الأمريكية فجر العشرين من أكتوبر/ تشرين الأول 2004 فقصفت البيت بصاروخين وقتلت العائلة كلها المكونة من الأب والأم وأربعة أبناء. وذكر جار للعائلة أنهم كانوا قد عادوا إلى المنزل أثناء الليل بعدما فروا من المدينة مع آلاف العائلات التي كانت قد فرت من القصف الأمريكي في الأسبوع الماضي.

وفيما أكد مراسل وكالة "رويترز" ياسر فيصل في تقرير بثته الوكالة أنه شاهد ست جثث للعائلة المنكوبة تم انتشالها من تحت أنقاض المنزل في وقت مبكر من الصباح، أكّدت القوات الأمريكية أن غارتها كانت موجهة بدقة لمنزل يأوي فيه أنصار أبي مصعب الزرقاوي، وقد أكد عدد من الأسر المجاورة على أن القتلى ينتمون لعائلة واحدة تتكون من الأب وزوجته وأربعة أطفال.

وهكذا أخذ الأمريكيون يتخذون الزرقاوي ذريعة لتدمير الفلوجة بشكل شبه يومي على رؤوس من فيها، رغم تأكيد سكان الفلوجة أنهم لا يعرفون شيئاً عن الزرقاوي حتى إن كثيرين منهم شكّكوا في وجوده في المدينة، وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الجنابي رئيس مجلس شورى المجاهدين في الفلوجة، لكن صحيفة "الأندبندنت" البريطانية كشفت في عددها الصادر في 31 أكتوبر/تشرين الأول 2004 سر الهجمات الجوية والقذائف المدفعية اليومية على المدينة وقالت: إن القصف المدفعي حالياً على المدينة يؤذن ببدء الهجوم الذي تحدث عنه الجيش الأمريكي طويلاً.

وأضافت بأن الهجوم على الفلوجة أصبحت له أهمية استراتيجية تفوق أهميته العسكرية، لا سيما وأن الجيش الأمريكي يقول بأن أبا مصعب الزرقاوي قد غادر المدينة على الأرجح الآن، وهو ما يعني أن كل المبررات التي كان يسوقها الجيش الأمريكي في قصفه اليومي والمكثف على المدينة طوال شهر

أكتوبر/تشرين الأول 2004 وما سبقه في شهر أبريل/نيسان 2004 قد انتفت ولم يعد لها مبرر، فالزرقاوي الذي اتخذه علاوي والجيش الأمريكي سبباً في الهجمات اليومية ليس له وجود في المدينة، وبالتالي فإن الهجوم الأمريكي على المدينة له مبررات أخرى من أهمها أن بوش الذي هُزِم في معركة الفلوجة الأولى كان على وشك دخول الانتخابات الرئاسية التي كانت ستجري في شهر نوفمبر/تشرين الثاني، ولا بد أن يسعى لتحقيق نصر وانتقام في نفس الوقت من المدينة التي هزمته وهزمت قواته، وأن يظهر أمام الشعب الأمريكي بأنه قائد عسكري مظفَّر، ومن ثم يحشد الآلة الإعلامية الأمريكية كلها للترويج للنصر المزعوم على الفلوجة.

وقد أكد الجندي الأمريكي جيف إنجلهارت الذي شارك في فيلم وثائقي بثته قناة راي الإيطالية في 8 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 حول استخدام القوات الأمريكية الفوسفور الأبيض لحرق المدينة وسكانها أنه كانت لديهم تعليمات بأن يبدأ الهجوم على الفلوجة بعد إعلان نتائج الانتخابات الرئاسية التي جرت في الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني عام 2004.

ثانياً: إن القوات الأمريكية التي هُزمت في معركة الفلوجة الأولى كانت تشعر بالعار والرغبة بالانتقام من المدينة منذ ذلك الوقت، وقد أشار إلى ذلك بريمر في مذكراته عدة مرات.

ثالثاً: دفع شركات المرتزقة التي كان أفرادها هدفاً للانتقام من المقاومة لا سيما شركة "بلاك ووتر" التي كان مقتل أربعة من رجالها سبباً رئيسياً في معركة الفلوجة الأولى أن تشارك في عملية الانتقام من المدينة وأهلها، وقد شاركت "بلاك ووتر" في كثير من جرائم الحرب التي ارتكبت بعد ذلك في المدينة كما أشار إلى ذلك الكاتب الأمريكي جيرمي سكاهيل في كتابه "بلاك ووتر" حيث كتب عن الفلوجة فصلين، أحدهما عن "إخضاع الفلوجة".

رابعاً: إن الحكومة العميلة التي أسسها الاحتلال برئاسة علاوي يجب أن تظهر أنيابها للشعب العراقي وأن تشارك في تحقيق نصر هي الأخرى يثبت جدارتها وقدرتها على إجراء انتخابات برلمانية داخل العراق حدد الاحتلال لها شهر يناير/كانون الثاني من العام 2005. والأهم من كل ذلك هو إخضاع وتدمير وحرق الفلوجة، المدينة التي أصبحت رمزاً للمقاومة والانتصار.

لقد دخلت الفلوجة السجل العسكري الأمريكي على أنها رمز للمقاومة في العراق، وأنها المدينة التي هزمت الجيش الأمريكي أقوى جيوش العالم، وأنها المدينة التي حطمت المشروع الأمريكي في العراق والمنطقة، كما أنها المدينة التي دقت المسمار الكبير في نعش الأمبراطورية الأمريكية، وهي المدينة التي أذلت بوش ورجاله وبالتالي لا بد من الانتقام من الفلوجة، وما كان يحدث في ذلك الوقت لم يكن سوى مقدمة للانتقام من أهلها وكسر شوكة المقاومة فيها.

أما المبررات لكل الجرائم الأمريكية التي ترتكب فكانت دائماً جاهزة، تساعدها آلة إعلامية عالمية هائلة، وحكومة عميلة هدفها استرضاء المحتل بأي ثمن.

ومع بداية نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 بدأ العد التنازلي لواحدة من أكبر جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأمريكية في العراق وهي تدمير وإخضاع مدينة الفلوجة.

في بداية نوفمبر/تشرين الثاني نشرت وكالة الأنباء الفرنسية ووكالة قدس برس تقريران من الفلوجة أشارا إلى تهديدات إياد العلاوي التي لم تتوقف للمدينة وأهلها، وأمل الوفد المفاوض عن المدينة بألا تؤدي هذه التهديدات إلى الهجوم الشامل عليها الذي كانت تعد له القوات الأمريكية عبر توجيه تحذيرات لأهلها ومطالبتهم بالخروج منها وتسليم المقاتلين.

وأورد تقرير "قدس برس" نقلًا عن الدوائر الطبية في المدينة أن عدد الشهداء الذين قدمتهم الفلوجة منذ الاحتلال الأمريكي للعراق في أبريل/نيسان من العام 2003 وحتى الأول من نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، أي قبل معركة الفلوجة الثانية، بلغ 2825 قتيلاً كلهم من المدنيين من النساء والأطفال وكبار السن، بالإضافة إلى 11 صحفياً من أبناء المدينة، وهذا العدد لا يشمل المقاتلين الذين سقطوا دفاعاً عن المدينة. كما أكدت إحصائية أخرى لمديرية الدفاع المدني في الفلوجة، أن 346 صاروخاً سقطت على المدينة خلال أسبوع واحد فقط، وأن 3211 بيتاً قد هدمت، بالإضافة إلى 18 مسجداً، و1600 ورشة عمل ومحل تجاري وصناعي، و19 مدرسة، ومعهداً واحداً، و8 محطات بنزين، بالإضافة إلى حرق 20 دونماً من الأراضي الزراعية نتيجة عمليات القصف الأمريكي.

كان هذا وضع الفلوجة في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني 2004؛ أي قبل عملية الإبادة والحرق بالفوسفور الأبيض التي تعرضت لها على أيدي القوات الأمريكية والتي بدأت في الثامن من نوفمبر/تشرين الثاني 2004 ولا زالت قائمة حتى الآن.

بوش وبلير يشرفان على معركة إبادة الفلوجة

في الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 طالب رئيس الوزراء البريطاني توني بلير أبناء الفلوجة بإلقاء سلاحهم والانصياع للحكومة العراقية المؤقتة، وكان بلير يرد في مجلس العموم البريطاني على نداء وجهته النائبة في حزب العمال البريطاني أليس ماهون ـ التي استضفتها بعد ذلك في برنامجي "بلا حدود" في حلقة بثت بتاريخ 7 ديسمبر/كانون الأول 2005 ـ حيث طالبت ماهون بلير بعدم إشراك الجنود البريطانيين في تنفيذ "عقوبات جماعية تؤدي إلى قتل مدنيين أبرياء بشكل عشوائي في الفلوجة".

وفي السابع من نوفمبر/تشرين الثاني قالت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية: إن العسكريين الأمريكيين في الميدان والمسؤولين في واشنطن يضعون النقاط الأخيرة على خطة اكتساح المدينة، وتم تقديم تفاصيل عن خطة الهجوم للرئيس بوش في منتجع كامب ديفيد، حيث ناقش الخطة مع مستشارين في مجلس الأمن القومي.

وكان إشراف كل من بوش وبلير على المعركة دليلاً على أن العد التنازلي قد بدأ، في نفس الوقت قام أهل الفلوجة بواحدة من أكبر عمليات الهروب الجماعي من المدينة إلى خارجها بحثاً عن ملاذ آمن، حيث لجؤوا إلى المساجد والمدارس وملاعب كرة القدم والمنازل الخالية أو لدى معارف أو أقارب لهم خارج المدينة، وفي السابع من نوفمبر/تشرين الثاني أصبحت معظم الطرق المؤدية من وإلى الفلوجة مغلقة من قبل القوات الأمريكية، التي حذرت سكان المدينة عبر مكبرات الصوت والمنشورات من أنها سوف تعتقل أي شخص يقل عمره عن خمسة وأربعين عاماً.

وأغلقت القوات الأمريكية جميع الطرق الواقعة شرق الفلوجة وشمالها، كما أغلقت الطريق السريع شرق المدينة، وطريق السجر الذي يقع في شمالها الشرقي، وكذلك طريق الصقلاوية الذي يقع في شمالها الغربي، وأصبحت الفلوجة بالكامل تحت الحصار الأمريكي.

وأعلن الكولونيل مايكل شوب أحد قادة كتائب المارينز المكلفين بالهجوم على الفلوجة عن الاستعداد التام لدى القوات الأمريكية للهجوم على المدينة، وقال: "نحن مستعدون تقريباً، إننا نقوم بالاستعدادات الأخيرة وسيكون ذلك قريباً" وأضاف: "العملية ستنتهي عندما يتم سحق الإرهابيين وتعود الفلوجة للحكومة العراقية الشرعية".

قوات الطرفين

وقد أشارت تقارير عديدة إلى أن عدد القوات الأمريكية التي شاركت في المعركة بلغت عشرين ألف جندي ثلثها من المارينز بينما ثلثاها من قوات الجيش الأمريكي. هذا خلاف المرتزقة الذين لعبوا دوراً كبيراً في الجرائم المرعبة التي ارتكبت في المدينة بعد ذلك، وخلاف القوات العراقية التابعة للحكومة التي نصَّبها الاحتلال والتي قدرت بحوالي عشرة آلاف جندي معظمهم من الأكراد والشيعة حسب كثير من المصادر الغربية، وقد استخدم الأمريكيون في المعركة أحدث الأسلحة والآليات العسكرية البرية والجوية والأسلحة المحرمة دولياً.

على الجانب الآخر كان عدد المقاتلين المدافعين عن المدينة حسب أعلى التقديرات حوالي ألفي مقاتل هم الذين قرروا البقاء، معظمهم من أبناء المدينة، بينما خرج ما يقرب من أربعة آلاف قبل إحكام الحصار. وكان المقاتلون الذين قرروا البقاء يعتمدون بالدرجة الأولى على الأسلحة الخفيفة والسيارات المفخخة، والعبوات الناسفة، والكمائن والقناصة. معركة غير متكافئة بكل المعايير، لكن الأمريكيين قرروا إخضاع وتدمير المدينة التي حققت الانتصار الكبير على بوش ورجاله، وقرر المقاتلون من أبناء المدينة ألا يسلموها لقمة سائغة للقوات الأمريكية، وأن يمنعوا الأمريكيين من تحقيق أي نصر على الفلوجة حتى لو حرقوا المدينة وحولوها إلى أطلال؛ وهذا ما قاموا به فعلاً.

وقد وجه الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك كوفي أنان رسائل إلى كل من الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير والعراقي المعين من قبل سلطات الاحتلال إياد علاوي حذرهم فيها من اقتحام مدينة الفلوجة، إلا أن بوش وبلير عقدا العزم على الانتقام من الفلوجة وذبحها وحرقها.

تنظيف الفلوجة من الصحفيين ووسائل الإعلام

ولأن قناة الجزيرة وفريقها الذي قام بتغطية المعركة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004 كان شاهداً على ما يحدث، وكان يقوم بنقل الحقائق عن الجرائم التي كانت ترتكبها القوات الأمريكية في المدينة، وقد لعب هذا دوراً رئيسياً - حسب رأي كثير من الخبراء والمراقبين - في إفشال مخطط المعركة الأولى في إخضاع وتدمير المدينة، لذا كان أول القرارات الكبرى لرئيس الوزراء المعين من قبل سلطات الاحتلال إياد علاوي هو إغلاق مكتب قناة الجزيرة في العاصمة بغداد، وتم ذلك في 7 أغسطس/آب من العام 2004، وبالتالي أصبحت الساحة خالية أمام القوات الأمريكية من "قناة الجزيرة" التي كانت مصدر القلق الأول لسلطات الاحتلال منذ أول يوم قامت فيه بمعركتها لاحتلال العراق.

ولتفويت الفرصة على أي محطات تليفزيونية أخرى لنقل الجرائم التي ترتكب داخل المدينة، كان أول ما سعت له القوات الأمريكية - مع استعداد كثير من محطات التلفزة العالمية للظفر هذه المرة بتغطية المعركة - هو إخراج كافة وسائل الإعلام من الفلوجة، لا سيما تلك التي لديها أجهزة بث مباشر عبر الأقمار الاصطناعية، ولم يبق داخل المدينة من الصحفيين إلا المراسلين من أبناء المدينة الذين رفضوا الخروج منها، ومنهم زميلنا حسين دلي الذي سبق وأن تحدثت عن دوره البارز في معركة الفلوجة الأولى، وكذلك الدكتور فاضل البدراني مراسل وكالة رويترز وراديو بي بي سي، ومراسلين آخرين كانوا هم المصدر الذي كشف كثيراً من الجرائم التي ارتكبت بعد ذلك.

وحرص الأمريكيون ألا يتم بث أي صورة من داخل المدينة دون رقابتهم من الصحفيين المرافقين لهم، وكانت معظم الصور التي توزع بعد ذلك على وسائل الإعلام هي الصور التي يقوم بتصويرها مصوِّرون يعملون في الجيش أو

مصورون يعملون مع وكالات أو محطات تليفزيونية لكن تحت رقابة أمريكية، وكان الهدف الرئيسي للقوات الأمريكية من وراء ذلك هو قتل الحقيقة، وعدم السماح بوجود أي شهود عليها.

وأترك وصف ترحيل وسائل الإعلام من المدينة لزميلنا حسين دلي حيث يقول: " منذ اللحظات الأولى سعى الإعلاميون إلى تصوير ما أمكن من المآسي والأحداث ونقلها إلى العالم، لكن التعتيم الإعلامي بلغ مرحلة لم يشهدها العراق من قبل، وكان أول ذلك بأن طلبت وكالة الأسوشيتدبرس من مراسليها مغادرة المدينة، ثم طلبت وكالة إيها (الإخلاص) التركية من مراسلها ومهندس البث بأن يخرجا ومعهما جهاز البث التليفزيوني المعروف بالـ(أس أن جي) الذي كان يمثل لنا عصب الحياة الإعلامية في المدينة والذي كنا نبث من خلاله ما نصوِّره من أفلام للقنوات التليفزيونية المختلفة طيلة الأشهر الأربعة الأخيرة قبل المعركة، وبفقده أصبحنا مثل التائه وسط الصحراء، والمشكلة أن ذلك لم يحدث إلا في اليوم الأول من القصف بما لا يتيح لنا تدارك الموقف بعد الحصار".

اجتياح الفلوجة

صباح السابع من نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 الموافق للخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم لدى المسلمين للعام 1425 هـ أعلن إياد علاوي رئيس الوزراء العراقي المؤقَّت المعيَّن من قبل سلطات الاحتلال حالة الطوارىء في جميع أنحاء العراق، عدا المناطق الكردية الشمالية، لمدة ستين يوماً، وإغلاق مطار بغداد والحدود مع كل من سوريا والأردن، معلناً بدء اجتياح الفلوجة واستباحتها، وقد أشار كثير من المراقبين بمن فيهم غربيون إلى أن إعلان علاوي لحالة الطوارىء كان مقدمة للتغطية على جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأمريكية والقوات العراقية وقوات المرتزقة المصاحبة لها في الفلوجة.

في نفس الوقت كان ما يزيد على ألفين من قوات المارينز قد تجمعوا قرب أحد مداخل الفلوجة للاستماع إلى آخر حديث من قادتهم بمن فيهم الجنرال جون ساتلر، أعلى قائد للمارينز في العراق، حيث قال لهم الجنرال ساتلر: إن "هذه المدينة يسيطر عليها السفاحون وقطاع الطرق والقتلة الذين يهددون الناس".

وأضاف ساتلر في تقرير نشرته "واشنطن بوست" في خطاب وجهه للجنود العراقيين الذين شاركوا الأمريكيين في معركة الفلوجة: "إخوتكم المقاتلون من فيلق المارينز الأمريكي فخورون بالوقوف إلى جانبكم.. أنتم مستقبل بلدكم ونحن سنكون فخورين في أن نكون جزءاً منكم.. نحن سنضع كل قوانا الروحية في المعركة لإعادة الفلوجة إلى أهالي الفلوجة".

وقد أصدرت هيئة علماء المسلمين فتوى حول مشاركة الجنود العراقيين في المعركة نشرتها وكالة الأنباء الفرنسية في 8 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 حرمت فيها مشاركة قوات عراقية في معركة الفلوجة، وقالت: "إن مشاركة القوات العراقية في معركة الفلوجة تحت راية قوات غازية موصوفة بالكفر يعتبر من الكبائر المستوجبة لسخط الله والمفضية إلى إنزال وعيده في المشتركين وهدر حرمتهم".

وقد نقلت الوكالات أنباءً عن فرار مئات الجنود العراقيين واستقالة آخرين خوفاً من رجال المقاومة من ناحية، ومن ناحية أخرى خوفاً من عامة الشعب العراقي الذي ينظر إليهم كخونة، لكن حازم الشعلان وزير الدفاع العراقي في الحكومة التي شكلها الاحتلال كان يدور على الجنود العراقيين المشاركين في معركة الفلوجة ويحفزهم ضد أهلها واعداً إياهم برتب أعلى لمشاركتهم في المعركة وترقيات إضافية "إذا قاموا بتحرير الفلوجة".

وقد انتقدت صحيفة "فايننشال تايمز" البريطانية مشاركة الجنود العراقيين في المعركة وقالت في عددها الصادر في 8 نوفمبر/تشرين الثاني: "إن مشاركة قوات عراقية تنتمي في الغالب إلى الشيعة والأكراد سوف يزرع بذور الفتنة داخل المجتمع العراقي وسيؤثر على العلاقات بين أبناء الشعب الواحد".

"الشبح الغاضب"

في نفس الوقت وفي قطاع عسكري آخر خارج الفلوجة كان الليفتنانت كولونيل جيمس رايني من الكتيبة الثانية التابعة لفرقة الفرسان الأولى يخاطب جنوده المشاركين في المعركة قائلاً: "أنتم ارتحتم وأصبحتم مستعدين ونحن مستعدون

أيضاً... هذه ستكون أكبر معركة يمكن لأي منا أن يقوم بها في المستقبل القريب"؛ هكذا كان ينظر الأمريكيون إلى معركة الفلوجة على أنها أكبر معركة خاضوها منذ بداية الاحتلال للعراق.

وفي الساعة التاسعة مساء نفس اليوم قامت القوات الأمريكية - حسب تقرير ريتشارد أوبل وروبرت وورث مراسلي صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية واللذين كانا مصاحبين للقوات الأمريكية - بهجوم كاسح على المدينة في عملية أطلق عليها "الشبح الغاضب". وبعد ساعتين تمكنوا من الاستيلاء على مستشفى المدينة التي تقع في الجانب الغربي لنهر الفرات، وينقل الزميل حسين دلي الذي كان متواجداً في المدينة عن الدكتور صالح العيساوي الذي كان مديراً لمستشفى الفلوجة بالإنابة بسبب سفر الدكتور رافع حياد العيساوي للعمرة، ما قامت به القوات الأمريكية والعراقية المصاحبة لها فقال: "دخلت قوة من المارينز ومعهم قوة من الحرس الوطني العراقي وبدؤوا بالاعتداء بالضرب والرفس لكل ما يرونه من بشر أو حتى جماد حتى إنهم كسروا أسرَّة المستشفى، وأخرجوا العديد من المرضى، ومنهم بعض المرضى الذين كانوا قد أجريت لهم عمليات جراحية منذ بضع ساعات فقط، أخرجوهم جميعاً إلى العراء، ثم أخذوا يضربون الأطباء والطاقم الطبي والمرضى".

وقد تم اعتقال الكادر الطبي بالكامل بعد ذلك، غير أن القوات الأمريكية قامت بإطلاق سراحهم بعد فترة، وكان هدف القوات الأمريكية من السيطرة على المستشفى واضحاً وهو حرمان أهل المدينة من العلاج، وفي نفس الوقت طمس معالم جرائمهم لأن المستشفيات دائماً هي المصدر الأساسي لتقدير عدد الضحايا من القتلى والجرحى.

وكان هذا الدور واضحاً في المعركة الأولى، كما كانت هذه المقدمة للتعامل مع المرضى والأطباء مؤشراً على شكل وأسلوب وطبيعة الجرائم التي ارتكبوها بحق أهل المدينة بعد ذلك. ويكفي أن القوات الأمريكية في أول يوم للهجوم الشامل على المدينة أعلنت أن "الذكور بين خمسة عشر وخمسين عاماً ستطلق النار عليهم فوراً مع السماح للنساء والأطفال فقط بالخروج من المدينة حتى إشعار آخر".

وقد أقر الميجور تود ديغروسييه أحد ضباط مشاة البحرية الأمريكية المارينز المشاركين في المعارك أن: "الطائرات كانت توجه ضربات داخل المدينة إلى مواقع غير محددة للعدو"، ونقلت صحيفة "الشرق الأوسط" في عددها الصادر في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 عن الدكتور أحمد غانم مدير العيادة المركزية داخل مدينة الفلوجة، أن القوات الأمريكية وعناصر الحرس الوطني سيطروا على المستشفى الرئيسي للمدينة واحتجزوا كادرها الطبي والموظفين، وأنه يعمل وحده في عيادة مركزية متواضعة، ولا يستطيع تقديم الخدمات الطبية للحالات الصحية المتفاقمة داخل المدينة".

بوش ورامسفيلد وباول يديرون المعركة

في عددها الصادر في 7 نوفمبر/تشرين الثاني قالت صحيفة "نيويورك تايمز" إن الرئيس جورج بوش اجتمع مع مستشاريه للأمن القومي وناقش معهم في "كامب ديفيد" تفاصيل خطة الهجوم على الفلوجة. وفي عددها الصادر في 9 نوفمبر/تشرين الثاني قالت "نيويورك تايمز" أيضاً: إن وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد والجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة كانا يراقبان الاستعدادات ويتلقيان آخر التقارير عن العمليات القتالية، وأعلن رامسفيلد - رغم كل الاستعدادات الهائلة للمعركة - أن "معركة الفلوجة ستكون صعبة وستستغرق بعض الوقت"، ونقلت صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" الأمريكية في 9 نوفمبر/تشرين الثاني تصريحات أدلى بها وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد في البنتاغون بعد اندلاع معركة الفلوجة قال فيها: "إن نجاحنا في الفلوجة سيسدد ضربة قاصمة للإرهابيين في كل البلاد، كما أنه سيبعد العراق عن مستقبل مليء بالعنف إلى مستقبل من الحرية والفرص السعيدة لكل شعب العراق".

وقد علقت الصحيفة على الهجوم الأمريكي على الفلوجة بأنه ليس خالياً من المغامرة، لا سيما بعدما تحولت الفلوجة إلى "رمز لعجز الولايات المتحدة في العراق".

أما كولن باول وزير الخارجية الأمريكي آنذاك فقد سعى قبل استقالته في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 لعمل التغطية السياسية للمعركة، فاتصل فور

اندلاعها بكل من وزراء خارجية معظم الدول العربية والأوروبية ليشرح لهم أسباب الهجوم على المدينة.

وبالتالي فقد كان بوش وكبار رجال إدارته جميعاً يديرون المعركة التي كانت أكبر معركة خاضتها القوات الأمريكية طوال فترة احتلالها للعراق.

أهوال الجحيم

قامت القوات الأمريكية بقطع الكهرباء والماء والهواتف عن المدينة فأغرقتها في ظلام دامس وقطعت أوصالها، ثم بدأت تصب الحمم على الفلوجة من الجو والأرض مستبيحة كل شيء في المدينة، لكنها واجهت مقاومة شرسة من المدافعين عنها، فبعد يومين من القتال أعلن ضابط رفيع المستوى في القوات الأمريكية أنهم باتوا يسيطرون على ثلث المدينة وأن الجنود على مسافة كيلو متر من وسط المدينة.

وتأكيداً على أن معركة الفلوجة هي المعركة الكبرى قال الجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة في مؤتمر صحفي عقده في البنتاغون في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2004:" لن تكون هذه المرة الأخيرة التي تُستخدم فيها القوة في العراق لتخليصه من عناصر النظام السابق والمقاتلين الأجانب الذين لا يرغبون في أن يكون العراق ناجحاً، لذلك ستكون هناك فرص أخرى ربما ليست بنفس الحجم مثل ما يجري في الفلوجة". وكانت تقارير أشارت إلى أن هناك أربع عشرة مدينة في المثلث السني كانت القوات الأمريكية عاجزة عن السيطرة عليها كانت تعد للهجوم عليها وإخضاعها بعد الفلوجة.

الحكومة العراقية المعينة من قبل سلطات الاحتلال أعلنت تعيين اللواء عبد القادر موحان قائد القوات العراقية المشاركة في الهجوم على المدينة حاكماً عسكرياً على الفلوجة، وبينما أعلن الحزب الإسلامي انسحابه من الحكومة، فإن وزيره الوحيد في الحكومة بطل إنقاذ الأمريكيين في معركة الفلوجة الأولى حاجم الحسني أعلن خروجه من الحزب وبقاءه في الحكومة، حيث إنه كان الممثل الوحيد للحزب الإسلامي في الحكومة وكان يشغل منصب وزير الصناعة، وكان

مراقبون أشاروا إلى أن مكافأته بالوزارة ثم برئاسة البرلمان بعد ذلك جاءت رداً على الجهود التي بذلها الحسني في إنقاذ القوات الأمريكية من الهلاك المحقق في معركة الفلوجة الأولى، كما نجح في جر الحزب الإسلامي إلى معركة سياسية خاسرة وداعمة للاحتلال، وحينما استفاق الحزب متأخراً أعلن حاجم الحسني أنه "قد يترك منصب الحزب لكنه لن يستقيل من منصبه في الحكومة، لأنه يعتقد أن مصير العراق أهم من مصير حزب سياسي، وأنه سينسحب من الحزب الإسلامي العراقي".

القوات الأمريكية في هجومها على الفلوجة لم تضع أمامها حرمة لشيء، فأول الاعتداءات كان على مستشفى الفلوجة وأطبائها وموظفيها ومرضاها، وفي 9 نوفمبر/تشرين الثاني قاموا بقصف أحد المستوصفات التي تعمل بالمدينة ليلاً ودمروه على رؤوس من فيه، وقد شنت القوات الأمريكية هجماتها من شرق المدينة وغربها فاقتحمت حي الجولان والحي العسكري غير أنها واجهت مقاومة شرسة.

ونقلت وكالة رويترز عن قائد سرية دبابات أمريكية بأن القوات الأمريكية تواجه مقاومة شديدة على بعد كيلو متر من قلب المدينة، وذكر مراسل قناة العربية الفضائية أن ثلاث دبابات أمريكية أصيبت واحترقت بالكامل خلال الاشتباكات في حي الجولان، كما شاهد سكان الحي ست ناقلات جنود مدرعة من طراز هامفي محترقة في الطريق الرئيسي المؤدي للحي. وذكرت وكالة رويترز عن مراسلها فاضل البدراني أنه شاهد طائرة مروحية تسقط بعد إصابتها بصاروخ.

في 9 نوفمبر/تشرين الثاني نشرت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً عما يدور في المدينة فقالت: "إن أكثر من 500 قذيفة من عيار 155 ملم سقطت على المدينة مساء الاثنين 8 نوفمبر/تشرين الثاني" وذلك نقلاً عن الرقيب في المارينز مايكل هامبي، وأضاف هامبي: "إن كل قذيفة تنطلق باتجاه مواقع المسلحين عبر استخدام جهاز توجيه في حين تدفق طائرات استطلاع في إصابة الهدف، وفي المكان صرخ جنود أمريكيون قائلين "أشلاء بشرية في كل مكان".

وأشارت الوكالة إلى أن عدد السكان الذين بقوا في المدينة حوالى مئة ألف مدني من النساء والأطفال والعجائز وعموم الناس من أصل ثلاث مئة ألف هم

سكان المدينة، وقال الضابط في قوات المارينز تود ديغروسيبيه أن: "الطيران الأمريكي شن بين 20 و30 غارة على حي الجولان وحده ـ شمال غرب المدينة ـ وثلاثة أضعاف ذلك من القصف المدفعي".

وأكد مراسل لوكالة الأنباء الفرنسية يرافق القوات الأمريكية أن 10% من منازل حي الجولان تم تدميرها في اليوم الأول من المعارك، وأن أربع قنابل من زنة 900 كلغ ألقيت على الحي يوم الثلاثاء التاسع من نوفمبر/تشرين الثاني الذي يوافق ليلة السابع والعشرين من رمضان المقدسة لدى المسلمين.

ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية عن مراسل آخر لها داخل المدينة أنه تلقى اتصالاً من عبد الحميد فرحان إمام مسجد عبد العزيز وسط الفلوجة أكد فيه أنه "محاصر مع مدنيين آخرين بين مسجد أبي عبيدة ومسجد الفرقان". وأضاف بأنه "لا يمكننا رفع رؤوسنا بسبب كثافة النيران".

أما مدير العيادة الطبية التي حولت إلى مستشفى ميداني داخل المدينة الدكتور هاشم العيساوي فقد قال: "إن الوضع الصحي داخل المدينة أصبح في غاية الصعوبة، حيث يوجد عشرات الجرحى مضطرون لإجراء عمليات جراحية وبتر للأطراف لكن ليس لدينا جراحون، وليس لدينا أدوية، وليس لدينا كهرباء ولا ماء ولا وقود، والعيادة غارقة معظم الوقت في الظلام، ونحن نوجه نداء إلى المنظمات الدولية للتدخل وإلا ستحل كارثة".

هكذا كانت تصب القوات الأمريكية حممها على حي واحد من أحياء الفلوجة، ومثل ذلك كان على باقي الأحياء، لذلك وصف الزميل حسين دلي الذي كان داخل المدينة هذا القصف الرهيب قائلاً: "عمدت القوات الأمريكية والسلطات العراقية إلى قطع التيار الكهربائي ووسائل الاتصال السلكية واللاسلكية عن المدينة، وبدأت الطائرات الأمريكية والمدفعية تلقي بحممها ونارها على المدينة بلا استثناء لأي حي أو مكان، بل إنني أقول جازماً إننا لم نشهد قصفاً مثل هذا حتى في الأفلام الأمريكية أو في البرامج والأفلام الوثائقية، وصدقوني إن الكلام يعجز عن تصوير الوصف الحقيقي لما حدث".

وقد أسقطت القوات الأمريكية من أول يوم حرمة المساجد وكانت معظم

مساجد الفلوجة هدفاً للقصف والتدمير والتخريب بحجة وجود مقاتلين فيها. وكانت الصورة الأكثر جدلاً التي تم تسريبها لوسائل الإعلام العالمية صورة جنود أمريكيين يقتلون جرحى مدنيين داخل أحد المساجد والتي نشرت في 16 نوفمبر/تشرين الثاني، كما أعلن الناطق باسم الجيش الأمريكي في 10 نوفمبر/ تشرين الثاني أن "طائرات حربية قصفت مسجد الخلفاء الراشدين في الفلوجة بعدما تعرضت قواته لنيران مسلحين من داخل المسجد"، وأضاف بأنه "حينما تستخدم المساجد في أغراض عسكرية فإنها تفقد وضعها الذي يكفل لها الحماية". وقد كان هذا ذريعة لكي تقوم القوات الأمريكية بهدم وتدمير العشرات من مساجد الفلوجة التي توصف بأنها مدينة المساجد.

لكن رغم هذه الحمم كان رجال المقاومة يقاتلون ببسالة شهد لها الجنود الأمريكيون. فقد نقلت شبكة سي إن إن التليفزيونية الأمريكية في 9 نوفمبر/ تشرين الثاني نقلاً عن مصادر في وزارة الدفاع الأمريكية أن ستة جنود أمريكيين لقوا حتفهم في المعارك الدائرة في الفلوجة.

وذكرت "رويترز" عن جندي أمريكي أصيب في الفلوجة أنه شاهد اثنين من زملائه قتلا منذ بدء عملية الاستيلاء على المدينة بينما جرح خمسون جندياً آخرون. وقال قائد سرية دبابات أمريكية: إن المقاتلين يقاومون بضراوة في حي الجولان بشمال المدينة. وقال الكابتن روبرت بوديش لوكالة "رويترز": "إنهم يقاتلون بقوة ورأيت كثيرين منهم في الشارع الذي كنت فيه".

في العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" تقريراً عن معركة الفلوجة كتبه من بغداد إدوارد وونغ وأريك شميث نقلا فيه عن قائد القوات متعددة الجنسيات في العراق الجنرال توماس ميتز قوله: "أعتقد شخصياً أنه من المحتمل أن يكون بعض كبار الزعماء قد فروا".

ثم نقل التقرير عن أحد القادة المتوسطين المدافعين عن المدينة تأكيده أن نصف المقاتلين قد خرجوا من المدينة قبل المعركة. كما أكدت المصادر الأمريكية أن الزرقاوي قد خرج من المدينة قبل نشوب القتال. وهذا كله يؤكد أن القضية لم تكن الزرقاوي وإنما كانت تركيع المدينة والانتقام من أهلها.

وقد ناقش التقرير ما كان مثاراً بين أهل المدينة قبل المعركة، من نقاش يدور حول شيء هام هو: هل من الحكمة بقاء المقاتلين في المدينة ليدخلوا معركة غير متكافئة ويعطوا المجال للأمريكيين كي يقوموا بتدمير المدينة على رؤوس من فيها، أم أن الحكمة تقتضي الخروج من المدينة وتركها خالية، حتى تدخلها القوات الأمريكية دون قتال، ومن ثم تعود المقاومة مرة أخرى إليها، وبذلك يتم الحفاظ على المدينة وأهلها من الدمار والقتل بدلاً من الدخول في معركة غير متكافئة وترك الفرصة للأمريكيين لتدمير المدينة.

بعض من التقيت بهم من أهل الفلوجة وسألتهم عن هذا الأمر ذكروا بأن نقاشاً طويلاً قد حدث بالفعل داخل المدينة حول هذا الموضوع، لكن المشكلة هي أن المقاتلين ينتمون إلى مشارب متعددة ومن ثم فلا يستطيع أحد أن يفرض رأياً واحداً على الجميع. كما أن القوات الأمريكية كانت تضمر روح الانتقام من الفلوجة وكانت ستدمر المدينة دون حاجة لذرائع، فقد كانت الذريعة المعلنة هي الزرقاوي، وهم أدركوا أنه ليس في المدينة، ومع ذلك هاجموها، من ثم فإن عقدهم العزم على تدمير المدينة ما كان ليوقفه شيء، لا سيما وأن الوفد المفاوض كان قد وصل معهم إلى نتائج جيدة قبل قرارهم بالهجوم على المدينة.

لكن تدمير المدينة كان قراراً اتخذه بوش سواء بقي فيها المقاتلون أم خرجوا، لذلك خرج معظم رجال المقاومة من المدينة ولم يبق فيها سوى عدد يتراوح بين ألف وألفين أغلبهم من أبناء المدينة، وقد أشارت "نيويورك تايمز" إلى أن من بقوا كانوا تقريباً نصف المقاومين، وأغلبهم من العراقيين أو من أهل المدينة.

وكان موقف هؤلاء كما قال الشيخ عبد الله الجنابي رئيس مجلس شورى المجاهدين في الفلوجة في حوار أجراه مع الزميل عبد العظيم محمد في برنامج "المشهد العراقي" تم بثه على شاشة قناة الجزيرة في الأول من مايو/أيار من العام 2007 قال فيه: إنهم بقوا في المدينة رغم عدم تكافؤ المعركة التزاماً بعدم الفرار من المعركة حسب تعاليم الإسلام، وقال الجنابي: "الحقيقة هو أن بقاء المجاهدين في الفلوجة كان باختيارهم حتى إننا تركنا الأمر لمن يختار البقاء ولمن يختار الخروج كل حسبما يريد، لكن المجاهدين وخاصة من أهل الفلوجة

من شباب العراق قالوا: نفضل أن نبقى في مدينتنا وتتهدم بيوتنا على رؤوسنا ونحن نحمل سلاحنا بيدنا على أن نظهر الذل أو نظهر الهزيمة للعدو فيشمت بنا، أما المقاتلون العرب - من غير العراقيين - فكانت نسبة كبيرة منهم قد خرجوا وبقيت النسبة الأقل، والنسبة التي خرجت أو بقيت إنما هي من اجتهادات لديهم ونظرة خاصة بهم، ولكل وجهة نظره".

وقد نفى الشيخ الجنابي في حواره هذا أيّ وجود للزرقاوي في الفلوجة، وقال: إن أهل الفلوجة هم الذين كانوا يدافعون عنها، وهم الذين كانوا يتفاوضون مع القوات الأمريكية بين المعركتين، وهم الذين سمحوا للقوات الأمريكية أن تقوم بتسيير دورية داخل المدينة بموافقة مجلس شورى المجاهدين؛ وهذا ما ألحق العار بالأمريكيين وجعلهم يسعون للانتقام من المدينة مستخدمين كل الأسلحة المحرمة والمدمرة.

يوم الأربعاء العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني الموافق الثامن والعشرين من رمضان أعلنت القوات الأمريكية أنها تتوقع السيطرة على الفلوجة خلال ثمانية وأربعين ساعة، وسوف يستغرق تطهيرها عشرة أيام. كان هذا في الوقت الذي لم تتراجع كثافة القصف الجوي والمدفعي على المدينة.

وكما أشار الشيخ الجنابي فقد كان أهل المدينة هم الذين يدافعون عنها، لذا كان القتال من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل.

وأعلن ضابط عسكري أمريكي رفيع المستوى للوكالات بأن القوات الأمريكية باتت تسيطر على 70% من الفلوجة، وفي ظل التعتيم الإعلامي وعدم وجود شهود مستقلين على ما يحدث داخل المدينة لم تكن هناك مصادر مستقلة لنقل ما يحدث داخل المدينة سوى لبعض الصحفيين والمراسلين من أبناء المدينة الذين يعملون مع بعض الوكالات الإخبارية وليس التليفزيونية، وقد قرروا البقاء داخل المدينة لكن لم يكن لديهم الكهرباء أو وسائل الاتصال التي يمكن أن يقوموا من خلالها بنقل الحقيقة كاملة، كما أنهم كانوا مثل غيرهم من أهل المدينة هدفاً للقوات الأمريكية ومن ثم كانت تحركاتهم داخل المدينة خطرة للغاية.

لكن القوات الأمريكية لليوم الثالث على التوالي كانت تواجه مقاومة شرسة

عبَّر عنها مراسل لوكالة "رويترز" كان يرافق القوات الأمريكية، وقال: "إن المقاتلين لا يظهرون أي علامة على الاستسلام، كما أن المقاتلين المتحصنين بمحاذاة الطريق الرئيسي الذي يقطع الفلوجة يطلقون نيران البنادق الآلية والقذائف الصاروخية بعد أن تعرضوا للقصف الأمريكي".

أما مراسل وكالة الأنباء الفرنسية المرافق للقوات الأمريكية فقد أفاد بأن: "القصف الجوي والمدفعي الكثيف على المدينة لم يتوقف، وأن منزلاً من بين كل عشرة منازل في بعض المناطق قد تم تدميره".

ونقل المراسلون أن القوات الأمريكية تستخدم سياسة الأرض المحروقة في الفلوجة، وأن جثث المدنيين تملأ شوارع المدينة علاوة على عشرات الجثث الموجودة تحت ركام المنازل التي هدمت وليس هناك مجال لأي عمليات إغاثة أو إنقاذ، وقد حذرت منظمة الصليب الأحمر الدولي والهلال الأحمر العراقي من كارثة إنسانية تهدد الفلوجة بسبب وجود عدد غير معروف من القتلى والجرحى داخل المدينة دون رعاية، وقال المتحدث باسم الصليب الأحمر أحمد الراوي: "إن هناك آلافاً من المسنين والنساء والأطفال يحتاجون إلى المساعدات التي تشمل الماء والطعام والرعاية الطبية والإيواء".

"الجحيم" شهادة فاضل البدراني

وكنت قد طلبت من الزميل الدكتور فاضل البدراني مراسل وكالة رويترز وراديو بي بي سي، وكان يشارك عبر الهاتف في نشرات الجزيرة الإخبارية لتقديم صورة عن الوضع المأساوي داخل المدينة حيث إنه من أبنائها الذين رفضوا الخروج منها وعايش أحداث المعركة - طلبت منه أن يوافيني ببعض الأحداث التي صادفته، فأرسل لي تقريراً من أهم ما جاء فيه على لسان فاضل البدراني:

"من أهوال الجحيم التي عشناها في معركة الفلوجة الثانية أن الكهرباء انقطعت منذ بداية المعركة فأدى هذا إلى تعفن الأطعمة التي كان يحتفظ بها الناس في الثلاجات، ولم تكن هناك محلات أو أسواق، وهذا بدوره أدى مع مرور الأيام إلى حدوث مجاعة لدى العائلات التي بقيت في المدينة، لكن الغذاء الوحيد

الذي قاوم كل الظروف كان التمر، وكان هو الغذاء الوحيد الذي عاش عليه أهل المدينة فترة طويلة فحفظ حياة كثير من الناس.

لكن مشكلة الناس كانت في كيفية الحصول على ماء صالح للشرب، لأن القوات الأمريكية دمرت خزانات المياه الموجودة على أسطح المنازل، كما قطعت المياه عن البيوت وتم تدمير منظومة المياه، ورغم القصف الذي كان أشبه ما يكون بالجحيم إلا أن بعض الناس كانوا يحفرون في حدائق المنازل في محاولة للحصول على الماء من الحفر على أعماق بعيدة، وأعتقد أن المعركة لو كانت في فصل الصيف لكان الموت عطشاً هو مصير من لم يمت بالأسلحة والقصف الأمريكي من أهل المدينة.

وكان الليل يعطي فرصة للناس حتى يتحركوا في حدود مناطق معينة، ورغم المجازفة بالحركة ليلاً إلا أن هناك من كان يجازف لإنقاذ حياة الناس وكنت من بينهم، فكان هناك من يقوم بتوزيع التمر على العائلات، وآخرون يسعون للحصول على أية كميات من الحليب الصناعي من أجل الأطفال الرضع، لأن مشكلة الأطفال الرضع كانت في منتهى القسوة، كيف توفر لهم حليباً في هذه الظروف العصيبة؟ لكن مشكلة الكبار في السن من أصحاب الأمراض المزمنة مثل القلب والسكري وضغط الدم والقولون وغيرها كانت صعبة للغاية، فهؤلاء كانوا لعدم وجود الأدوية يموتون كل يوم مئة مرة بينما أبناؤهم يقفون عاجزين لا يستطيعون فعل شيء لهم.

ومن أبرز الحالات التي صادفتها أنني دخلت في يوم من الأيام منزلاً فيه عائلة بين أفرادها امرأة عجوز كانت مصابة بمرض ضغط الدم والسكري، فخاطبتني متوسلة لي وهي تمد يدها لي أثناء الكلام أن أناشد عبر ما أكتبه وما أشارك فيه من وسائل إعلامية الأخيار من الناس حتى يرسلوا لها دواء ضغط الدم والسكري بعدما نفد من عندها ولا يوجد سبيل للحصول عليه، لأنها كما قالت تتمنى الموت من الأوجاع والألم، وأنها طلبت من عائلتها أن يتركوها تخرج إلى الشارع حتى يأتيها صاروخ أو عيار ناري من قبل الأمريكيين فتموت أهون عليها مما تكابد من تباريح آلام المرض ولكنهم يرفضون ويقولون: حرام عليك أن تفعلي هذا، كما أنني أخاف من عقاب الله إن فعلت".

ويضيف البدراني: "ولأني كنت أغطي أحداث الفلوجة لعدد من الفضائيات وأبرزها قناة الجزيرة فقد ناشدت بلغة إعلامية الجهات الإنسانية والدولية لإنقاذ حياة العجوز، وأمثالها كثيرون كانوا تحت الحصار في الفلوجة، وبقيت على مدى ثلاثة أيام أكرر نداءاتي في نشرات الأخبار التي كنت أشارك فيها لأن العجوز حينما علمت أني أراسل محطات التلفزيون كانت ترسل كل يوم من أبنائها من يلح عليَّ بتحقيق مطلبها وتوفير الدواء لها، وهذا كان أمراً تعجيزياً بالنسبة لي، وفي اليوم الرابع اتصل بي ممثل الهلال الأحمر العراقي عبر الهاتف وقال لي: "نحن نحاول الدخول للمدينة لتلبية احتياجات الناس الطبية بالدرجة الأولى ولكن القوات الأمريكية تمنعنا"، وقد سعيت بعد هذه المكالمة أن أذهب إلى العجوز لأطمئنها بأن الدواء في الطريق، وذهبت فعلاً إلى منزلها في الليل رغم المخاطر في يوم 17 نوفمبر/تشرين الثاني، وحينما وصلت وجدت الحزن يكسو المكان ويملأ البيت، فقد فارقت العجوز الحياة قبل ساعتين.

وشاركت في نفس الليلة في نشرة "حصاد اليوم" في قناة الجزيرة، ورويت القصة ورددت بيت الشعر العربي المشهور:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

أيضا من القصص المأساوية المؤلمة الأخرى التي عايشتها ورواها لي أحد الزملاء فور وقوعها، أنه دخل منزلاً في منطقة الحصوة وسط المدينة لشخص يدعى حسين أحمد، فوجد جثتين وشخصاً ثالثاً جريحاً، فقام مع آخرين بنقله بعيداً عن عيون جنود الاحتلال الذين كانوا قد بدؤوا يتوغلون في المدينة ويقومون بعملية مسح للبيوت بيتاً بيتاً؛ فلما استفسروا منه عما حدث، قال: إن الجنود اقتحموا المنزل وتحدثوا معنا قليلاً بالإنجليزية وعند خروجهم من البيت قالوا لنا "باي" ثم ألقى أحدهم علينا قنبلة يدوية فانفجرت فينا، فأصيب الاثنين إصابة بالغة وكانا يتألمان بشدة من الجروح البالغة وأحدهما كان مسناً، وكانت إصابتي أخف منهما، وبينما كنت أحاول أن أمزق بعض ملابسي حتى ألفها على جراحهما سمعت بعد حوالي ربع ساعة أصوات الجنود عائدين مرة أخرى، فكتمت أنفاسي ومثلت أني ميت بينما دفعوا الباب بأرجلهم فيما كان أخواي يتألمان، قلبني أحد الجنود برجله فلم يجد مني حراكاً، ثم تحدثوا مع بعضهم

البعض بعدها أخرج أحدهم مسدسه وأطلق على رأس كل واحد من الجريحين اللذين كانا يتألمان رصاصة فقتلهما."

الفلوجة في لقاء بوش وبلير مرة أخرى

كما كانت الفلوجة في معركتها الأولى مدعاة إلى لقاء طارىء بين بوش وبلير بعد هزيمة القوات الأمريكية في 16 أبريل/نيسان 2004 ناقشا فيه قصف مقر قناة الجزيرة ومكاتبها، كانت معركة الفلوجة الثانية مدعاة للقاء آخر عقد في واشنطن في 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004، وقالت وكالة الأنباء الفرنسية في تقرير لها بثته في 10 نوفمبر/تشرين الثاني أن رئيس الوزراء البريطاني توني بلير باعتباره أقرب الحلفاء إلى جورج بوش سيكون أول مسؤول أجنبي يستقبله بوش بعد إعادة انتخابه في الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني رئيساً للولايات المتحدة لولاية ثانية.

وقالت الوكالة: إن بلير الذي سيصل إلى واشنطن مساء الخميس 11 نوفمبر/تشرين الثاني سوف يجتمع مع بوش صباح الجمعة 12 نوفمبر/تشرين الثاني، وسوف يكون الوضع في الفلوجة على رأس المباحثات بينهما، وكان الرئيس الأمريكي بوش قد أعلن يوم الأربعاء 10 نوفمبر/تشرين الثاني أن: "العمليات تجري في الفلوجة على ما يرام"، وقال بوش للصحفيين في ختام لقاء عقده في البيت الأبيض مع الأمين العام لحلف شمال الأطلسي ياب دو هوشيفر": "التقيت المسؤول عن العمليات الميدانية أمس الجنرال كايسي وقال: إن الأمور تجري على ما يرام في الفلوجة، وأنهم يبذلون جهوداً جيدة لبسط الأمن في البلاد ".

أما توني بلير فقد تحدث في نفس اليوم أمام مجلس العموم البريطاني وجدد دعمه للقوات الأمريكية والعراقية التي تشن الهجوم على الفلوجة، وقال بلير: "قبل كل شيء علينا أن نحيي القوات الأمريكية والعراقية لما تقوم به في الفلوجة". هذه التحية أرسلها بلير في الوقت الذي كانت القوات الأمريكية والعراقية تُتهم بأنها تقوم بارتكاب جرائم حرب في الفلوجة وتحرقها على رؤوس أهلها بالفوسفور الأبيض.

وهذا ما دفع وزير الخارجية البريطاني السابق روبن كوك والذي كان معارضاً للحرب واستقال من منصبه حينما نشبت الحرب في شهر مارس/آذار من العام 2003 احتجاجاً عليها، قال: "إن الجيش الأمريكي سيتمكن بالتأكيد من السيطرة على الفلوجة بفضل تفوقه العسكري" لكنه أضاف: "إن العملية العسكرية في العراق بما انطوت عليه من وحشية هي التي أَجَّجت المقاومة وهذه العملية ستزيد من زخم المقاومة وتقلل من الدعم لوجودنا في العراق اعتماداً على القصف". وأوضح قائلاً: "ما قمنا به في الفلوجة كما في كل العراق مراراً هو اعتبار "المجتمع ككل مشكلة"، والنتيجة هي أن المجتمع كله وقف ضدنا". واستشهد كوك برد الفعل الغاضب للرئيس المعين من قبل سلطات الاحتلال غازي الياور، وكذلك بانسحاب الحزب الإسلامي من الحكومة، واعتراض كثير من الهيئات في العراق على ما يحدث في الفلوجة.

لكن أكثر التصريحات إثارة للسخرية وسط هذا الخراب والدمار ما أعلنه الناطق باسم الخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر في الحادي عشر من نوفمبر/تشرين الثاني 2004 من أن واشنطن سوف تخصص 90 مليون دولار من أجل إعادة إعمار الفلوجة إذا نجحت القوات الأمريكية في هزيمة المقاومين والسيطرة على المدينة، أي بعد تدمير المدينة على رؤوس أهلها، ومثلما أثارني هذا التصريح أثار كذلك كثيراً من الخبراء والمختصين ومنهم ستيفن رونيس أستاذ العلوم السياسية في جامعة سان فرانسيسكو وهو أحد المعارضين للحرب حيث وصف وعود إعادة إعمار الفلوجة بأنها وعود "خرقاء" لاستمالة سكان المدينة الذين يبدون معارضة قوية للولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب وقال: "إنهم يحاولون أن يقولوا.. إننا ندمر مدينتكم الآن لكننا سنعيد بناءها؛ لا أعتقد أن ذلك سينطلي على سكان الفلوجة".

والدليل على هذه الأكذوبة أن الفلوجة لا زالت بعد ثلاث سنوات من المعركة محاصرة ويُمنع الدخول إليها أو الخروج منها إلا بتصريح خاص من القوات الأمريكية، ولا زالت أطلالاً كما هي.

قائد المارينز يكشف عن خطة بوش لتدمير الفلوجة

في عددها الصادر في 16 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 نقلت صحيفة

الخليج الإماراتية نقلاً عن الميجور جنرال ريتشارد ناتونسكي، قائد المارينز أن الجيش الأمريكي استوعب درس أبريل/نيسان الماضي - 2004 - في الفلوجة وضاعف عدد القوات التي هاجمت المدينة 6 مرات عما كانت عليه، كما شن غارات جوية توازي 20 ضعفاً للغارات التي شنها في المعركة الأولى، وأضاف قائد المارينز ناتونسكي بأن الخطة التي وضعها - لإخضاع الفلوجة - حصلت على ضوء أخضر من الرئيس الأمريكي جورج بوش ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وقال: "تعلمنا الدرس.. لا يمكن إنجاز العمل بالمفرق.. وإذا بدأنا لن نتوقف". وأردف قائلاً: "حصلنا على الضوء الأخضر هذه المرة أن نقوم بالعمل حتى النهاية بأكبر قدر ممكن من النيران وفي أسرع وقت ممكن بعيداً عن أنظار العالم"، وقال: "أنجزنا العمل في ستة أيام ولم تبق إلا جماعات متفرقة من المقاتلين تتروح أعدادهم بين 5 و30 شخصا"، وأشار إلى أن: "هؤلاء المقاتلين يحاولون باستماتة الالتفاف وراء القوات الأمريكية"، وتكهن بالحاجة إلى "أيام قليلة" لإكمال إخضاع الفلوجة.

إذن وباعتراف قائد المارينز كل جرائم الحرب التي ارتكبت في المدينة تمت تحت مسؤولية بوش ورامسفيلد، بما في ذلك الجريمة الكبرى التي تم الكشف عنها بعد عام من إخضاع المدينة وهي جريمة حرق الفلوجة بالفوسفور الأبيض.

اتهام علاوي بتأجيج الحرب الطائفية

لم يسلم رئيس الوزراء العراقي المعين من قبل سلطات الاحتلال إياد علاوي من تحميله جانباً كبيراً من مسؤولية جرائم الحرب التي ترتكبها القوات الأمريكية والعراقية المصاحبة لها في الفلوجة، ففي عددها الصادر في 11 نوفمبر/تشرين الثاني نقلت صحيفة "الحياة" عن الشيخ مهدي الصميدعي زعيم الحركة السلفية في العراق تصريحات أدلى بها لـ"الحياة" قال فيها: "إنني على يقين بأن إياد علاوي أعلن الحرب على السنة"، ولفت إلى أن: "صمت المرجع الأعلى في النجف آية الله علي السيستاني حيال أحداث مدينة الفلوجة يعكس تأييده لهذه الحرب"، ودعا الصميدعي مراجع الحوزة الشيعة والعلماء إلى إصدار فتوى

بعدم جواز مشاركة جنود شيعة في القتال ضد أهالي الفلوجة، وكشف عن اتصالات بين الهيئات السنية والمراجع الشيعية لاتخاذ مواقف أكثر تقارباً من الأزمات، واتهم الصميدعي علاوي بأنه لم يكن يريد المفاوضات من الأساس وأن علاوي مثل "صدام حسين يستخدم الأساليب نفسها للبطش بالعراقيين".

وفي نفس اليوم الذي انتقد فيه الصميدعي علاوي والسيستاني قامت قوة من الحرس الوطني التابع لعلاوي مدعومة من قوات أمريكية بتطويق مسجد ابن تيمية في بغداد واعتقال الشيخ مهدي الصميدعي، إمام وخطيب المسجد وأكثر من عشرين من أنصاره وحراسه بعد حصار استمر عدة ساعات للمسجد، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يعتقل فيها الصميدعي حيث سبق للقوات الأمريكية أن اعتقلته عدة أشهر من قبل.

وقد أكد الجيش الأمريكي في بيان أصدره يوم الجمعة 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 أنه قام باعتقال الصميدعي، وأوضح اللفتنانت كولونيل جيمس هاتن المتحدث باسم فرقة الخيالة الأولى أن عناصر من الحرس الوطني العراقي تدعمهم قوة أمريكية أوقفت ثلاثة رجال دين و23 مشتبها فيهم خلال عملية استهدفت جامعاً غرب بغداد حيث عثرت على مخبأ للأسلحة. هكذا تصبح الأسلحة التي يستخدمها حراس المسجد شيئاً محظوراً حينما يريد الأمريكيون وحينما يتحدث إمامه بشيء لا يريدونه.

ولم يكن الصميدعي وحده الذي تم اعتقاله، بل إن القوات الأمريكية اعتقلت الكثير من أئمة المساجد الذين انتقدوا القوات الأمريكية في خطب الجمعة التي ألقيت في مساجد بغداد والعراق يوم الجمعة 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004.

يوم الجمعة الدامي 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004

كما كان يوم الجمعة 9 أبريل/نيسان 2004 هو يوم الجمعة الدامي في معركة الفلوجة الأولى كان يوم الجمعة 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 الموافق 29 رمضان 1425 هو يوم الجمعة الدامي في معركة الفلوجة الثانية، فرغم إعلان القوات الأمريكية في هذا اليوم أنها أحكمت سيطرتها على معظم أنحاء المدينة

وأن المقاتلين أصبحوا محاصرين في الجزء الجنوبي منها، إلا أن الواقع كان غير ذلك، فقد قال أفراد من أطقم دبابات أمريكية أنهم: "مع تقدمهم جنوباً كان مقاومون ملثمون يرتدون ملابس سوداء يخرجون من مخابئهم ويطلقون قاذفات صاروخية على الدبابات الأمريكية.. إنهم ما زالوا يستخدمون تكتيك الكر والفر، كلما أبطأنا أو توقفنا يخرجون على الفور ويفتحون النار علينا".

وفي حوار له مع محطة "بي بي سي" البريطانية قال الجنرال ريتشارد مايرز قائد القوات الأمريكية المشتركة أن المقاومة تتبع سياسة القتال ثم الاختفاء، وأضاف بأنه لا يوجد شخص يعتقد أن الفلوجة نهاية التمرد في العراق.

وقد نشرت صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" الأمريكية تقريراً في ذلك اليوم قالت فيه إن القتال في الفلوجة يأخذ شكلاً فوضوياً ومن شارع إلى شارع، وذكرت بأن رجال المقاومة مستمرون في مهاجمة القوات الأمريكية. وأكد هاربون من المدينة أن رائحة الجثث ملأت المدينة، وأنه لا يوجد ماء أو تيار كهربائي منذ خمسة أيام، وأن الطعام الموجود لدى السكان الذين رفضوا الخروج من المدينة أخذ في النفاد، وأن بعض السكان يشربون المياه القذرة، والأطفال يموتون، والناس يأكلون الدقيق. وأشار الهلال الأحمر العراقي إلى أن هناك كارثة كبيرة في الفلوجة.

كانت قوانين الاشتباك القاسية التي وضعتها القوات الأمريكية في الفلوجة حسب تقرير بثته يونايتدبرس إنترناشيونال في 11 نوفمبر/تشرين الثاني هي أن: "كل من يظهر في شوارع المدينة حاملاً سلاحاً يعتبر هدفاً مشروعاً، وكل من يقود سيارة في المدينة هدفاً مشروعاً". وعلى هذا الأساس كانت القوات الأمريكية تتعامل مع مئة ألف مدني بقوا داخل المدينة ورفضوا الخروج منها، ومن الطبيعي أنها لم تكن تتوقف لتتبين هل الذي يتحرك في الشارع يحمل سلاحاً أم لا، فكانت - حسبما ذكر كثير من السكان - تطلق النار على كل من يطل برأسه خارج بيته، بل إنها حينما بدأت حملة التمشيط على بيوت المدينة بعد ذلك قتلت العشرات من المدنيين الذين كانوا في بيوتهم أو حتى يمشون في الشوارع يبحثون عن ماء للشرب أو طعام لأطفالهم، وقتلت القوات الأمريكية كثيراً من الجرحى الذين كانت تصادفهم بمن فيهم الجرحى الذين احتموا في المساجد.

وأشارت التقارير التي خرجت من الفلوجة في هذا اليوم إلى أن عشرات المنازل في المدينة قد هدمت.

وقد عبر الدكتور سامي الجميلي عن الأهوال داخل المدينة في تقرير نشرته الوكالات واستشهد به الكاتب البريطاني باتريك سيل في مقال نشره في صحيفة "الحياة" في 12 نوفمبر/تشرين الثاني، قال فيه: "لا يوجد جراح واحد في الفلوجة، كانت لدينا سيارة إسعاف واحدة أصابها رصاص الجنود الأمريكيين وجرح فيها طبيب، هناك العديد من المدنيين الجرحى في بيوتهم ولا نستطيع نقلهم، فتاة في الثالثة عشرة من العمر ماتت هذه اللحظة بين يدي".

وعن الأضرار التي لحقت بالمدينة حتى ذلك اليوم الجمعة 12 نوفمبر/تشرين الثاني قالت مصادر محلية في المدينة: إن العدوان الأمريكي سوَّى مئات المنازل بالأرض، ولحقت أضرار بـ 87 مسجداً دمر 33 منها دماراً كاملاً، كما تم تدمير 4 مستشفيات وجسراً.

أما القتلى والجرحى فقد كان من الصعب إجراء حصر لهم في ذلك الوقت بسبب وجود عشرات الجثث تحت أنقاض المنازل.

ولبيان حجم النيران التي كانت تستخدمها القوات الأمريكية فقد نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية تقريراً في 11 نوفمبر/تشرين الثاني كتبه دكستر فييلكنز، وهو أحد الصحفيين الذين كانوا مرافقين للقوات الأمريكية، قال فيه: "قامت قوات المارينز الأمريكية بتنفيذ غارتين جويتين على مبنيين قديمين من ثلاث طوابق يواجهان الطريق السريع رقم 10 أول من أمس ـ 9 نوفمبر/تشرين الثاني ـ وقد قصفت الطائرات المبنيين بقنابل زنة 500 رطل في كل مرة، كما أطلقت القوات حوالي 35 طلقة مدفعية من عيار 155 ملم، وحوالي عشر دانات من دبابات إبرامز، وربما 30 ألفا من زخات الرصاص، فتحول المبنى إلى حطام ودخان، ومع ذلك فإن القناص استمر في إطلاق الرصاص".

لنا أن نتخيل أن كل هذه الكمية من النيران تم إطلاقها على مبنى واحد من أجل قناص واحد من رجال المقاومة، وقد كان القناصة في المدينة مصدر رعب للأمريكيين طوال المعركة وبعدها، لكن لنا أن نتخيل كمية النيران التي كانت

تستخدم ضد مقاتل واحد أو ضد مبنى فيه رجال مقاومة، وهذا بشهادة صحفي أمريكي مرافق للقوات الأمريكية، ومن ثم نستطيع القياس على حجم النيران والحمم التي صبها الأمريكيون على المدينة.

لكن على الجانب الآخر كيف كان وضع المقاومين؟

بثت وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً من مراسلها داخل المدينة عن أوضاع المقاتلين نشر في 11 نوفمبر/تشرين الثاني الموافق 28 رمضان، قال فيه: "على الرغم من الإنهاك الذي نال منهم بفعل القتال المستمر وبسبب الصيام لم تلن عزيمة المقاتلين في الفلوجة الذين أكدوا استعدادهم لمواصلة القتال حتى الرمق الأخير فيما يمطرهم الجيش الأمريكي بطوفان من النيران".

وقال مراسل وكالة الأنباء الفرنسية: في الوقت الذي أعلن فيه الجيش الأمريكي أنه بات يسيطر على معظم أنحاء المدينة وعلى الجزء الشمالي من الشارع الرئيسي الذي يقسم المدينة إلى شطرين ويخترقها من الشرق إلى الغرب، فإنه التقى مع العديد من المقاتلين في الشطر الجنوبي وهم يتحركون بسرعة ويعملون على عدم انكشاف مواقعهم أمام القوات المتقدمة. وأكد له أحد هؤلاء أن المقاتلين يتفوقون دائماً في حرب الشوارع، كما أكد له المقاتل أنه لم يفطر يوماً واحداً من شهر رمضان على الرغم من الظروف الصعبة، مشيراً إلى أنه مع رفاقه يتناولون عند المغرب ما يتيسر لهم من طعام يجدونه في البيوت الخالية.

وقد شهد للمقاتلين الجندي الأمريكي الجريح ترافيس شيفر الذي كان يتلقى العلاج في ألمانيا، وقال في تقرير نشرته صحيفة الخليج الإماراتية في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 نقلاً عن الوكالات حيث كان يتحدث مع ثلاثة من رفاقه الجنود الجرحى في مؤتمر صحفي أشادوا فيه جميعاً برجال المقاومة: "إنهم رشيقون في تحركاتهم، حسنوا التدريب، ويجيدون قطع الطريق على القوات الأمريكية، وتسديد فوهات أسلحتهم تجاهنا". وأضاف: "هؤلاء مقاتلون مستعدون للقتال حتى الموت".

لقد سجل المقاتلون المدافعون عن الفلوجة ـ والذين أكدت كل التقارير بعد

ذلك بما فيها تقارير أمريكية أنهم كانوا بضع مئات - بطولات خارقة أمام قوة غاشمة لأقوى جيوش العالم، استخدم كل أنواع الأسلحة بما فيها المحرمة دولياً لإخضاع المدينة، وكان وجود مقاتل واحد في مبنى كافياً لاستخدام كميات من الذخيرة والعتاد ضده وضد المبنى الذي يتحصن فيه تكفي لتدمير مدينة كاملة وقتل كتيبة من المقاتلين وليس مقاتلاً واحداً. وقد ظل القناصة في الفلوجة يلعبون دوراً مدمراً للقوات الأمريكية حتى بعد انتهاء المعركة، وظلوا يصنعون الملاحم والانتصارات للمدينة الصابرة، ومنها قصة هذا القناص.

قناص الفلوجة

بقيت عدة أشهر وأنا أتابع قناص الفلوجة، وعملياته التي استطاع من خلالها أن يكبِّد القوات الأمريكية الكثير من القتلى، حتى إنه استطاع خلال أسبوع واحد من شهر يناير/كانون الثاني من العام 2005 من قتل خمسة عشر جندياً أمريكياً، مما جعل القوات الأمريكية تعلن عن جائزة مقدارها مئة ألف دولار لكل من يدلي بمعلومات تقود إلى اعتقاله.

وقد قامت القوات الأمريكية خلال النصف الثاني من العام 2005 بعمليات تفتيش ومسح لمعظم أحياء مدينة الفلوجة بحثاً عن القناص لكنها لم تعثر له على أي أثر. والعجيب أن القناص الذي أجبر القوات الأمريكية المحتلة لمدينة الفلوجة منذ حربها المدمرة عليها في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 على أن تبقى حبيسة في مركباتها ومهاجعها، حيث إنه كان يضرب أهدافه من الجنود الأمريكيين في كافة أنحاء المدينة وكأنه جيش كامل وليس قناصاً واحداً، فهو يضرب في حي الجمهورية، ثم ينتقل فيضرب في حي نزال، ثم في حي المعلمين ثم في الحي العسكري، وهكذا حتى بات الأمريكيون لا يعرفون أين ومتى ستكون الضربة القادمة للقناص. وقد أشارت تقارير صحفية مختلفة إلى أن القناص أصبح يشكل مفخرة وأملاً لأهل المدينة التي لا تسمح القوات الأمريكية لأحد من غير أهلها بدخولها منذ أن قامت بتدميرها في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 بعد فشل حملتها العسكرية الأولى عليها في أبريل/نيسان من نفس العام، وقد أبرز فيلم بثته قناة راي الإيطالية في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2005

بعد عام من تدمير المدينة حجم الدمار الهائل الذي حل بها، لكن من وسط هذا الدمار يكون الأمل لدى الناس حيث حوَّل قناص الفلوجة حياة الأمريكيين إلى جحيم حتى إنهم توقفوا في بعض أحياء المدينة عن القيام بدوريات راجلة بعدما أصبحوا هدفاً سهلاً للقناص.

وقد وجدت أنه خلال عامي 1942 و1943 أي في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وقعت قصة في مدينة ستالينغراد السوفييتية تكاد تكون مشابهة لحالة قناص الفلوجة، حيث تحوَّلت معركة ستالينغراد التي استمرت مئة وثمانين يوماً إلى معركة شخصية بين هتلر وستالين، تماماً كما تحوَّلت الفلوجة إلى معركة شخصية بين بوش وأهلها، وبينما كان السوفييت منهزمين والمدينة شبه ساقطة في أيدي الألمان برز قناص سوفييتي تمكّن من تحويل هزيمة السوفييت إلى أمل ثم إلى نصر، فالجيوش الكبيرة المجهزة بالأسلحة الفتاكة والجنود المدربين على المواجهات الكبيرة عادة ما ينهزمون أمام حرب من هذا النوع.

فجأة ظهر قناص روسي كان جدّه قد دربه في الجبال على صيد الدببة وأوصاه الوصية التي ينهجها كل قناص وهي "أنا حجر، أنا أتنفس ببطء، أنا أصوِّب نحو العينين، أنا أطلق الرصاص". بهذه الخطوات حول الجندي الروسي فاسيلي زائييف حياة الجيش الألماني المحتل لمدينة ستالينغراد إلى كابوس مرعب، وبعدما كان السوفييت يعيشون أجواء الهزيمة إذا بهم يعيشون أجواء الأمل من خلال جندي واحد كان عمله اليومي هو قنص كبار الضباط الألمان.

وكانت صحيفة الجيش الأحمر تكتب كل يوم عن بطولات فاسيلي زائييف وتنشر صوره مع تقارير عن عدد من قتلهم من الضباط الألمان، مما حوّله إلى بطل أسطوري لدى السوفييت آنذاك، وأصبح فاسيلي هو أمل المدينة المحتلة كلها، بل أمل الجيش الأحمر، وأصبح هو الرعب المخيف للجيش الألماني.

وهنا تبرز قوة الضعف وقدرتها على صناعة الأمل بل وصناعة النصر، وأرسل القائد الألماني في روسيا إلى قادته في برلين يطلب النجدة، فأرسلوا له أفضل قناص في الجيش الألماني الرائد توينج مدرب فرقة القناصة الخاصة في الجيش الألماني، حتى إن القائد الألماني في روسيا فوجىء بأن هتلر قد أرسل له

أفضل قناص لديه، وبدأت المعركة النفسية والعسكرية بين القناصين، معركة "أنا حجر، أنا أتنفس ببطء، أنا أصوِّب نحو العينين، أنا أطلق الرصاص".

لم يكن لدى الرائد توينج مهمة سوى قنص فاسيلي زائييف، وبدأ فاسيلي يدرك أن المعركة أكبر منه وأن القيادة الروسية تحمِّله فوق طاقته، لكن روسيا كلها كانت متعلقة بزائييف، وكان سقوطه يعني سقوط المدينة، بينما قال القائد الألماني: "إن مقتل الرائد توينج تعني هزيمة الألمان".

وقامت معركة نفسية طويلة بين الرجلين، كان الجيش الألماني يخسر فيها كل يوم مزيداً من الضباط في الوقت الذي كان فيه الرائد توينج يقنص الرجل الخطأ في كل مرة، ولم تكن المسافة الفاصلة بين الألمان والروس تزيد عن مئة وخمسين متراً داخل المدينة المهدمة، وكان لا بد من رصاصة تنهي مهمة الرائد الألماني توينج أو تنهي حياته، وفي النهاية جاءته الرصاصة التي أنهت حياته على يد القناص الروسي زائييف بعدما اعتقد توينج خطأ أنه تمكن من النيل من فاسيلي لكنه مثل كل مرة كان قد نال من الرجل الخطأ، ثم أعلن بعد ذلك عن هزيمة الألمان في 3 فبراير/شباط 1943.

ويستطيع من يشاهد فيلم "الأعداء على البوابات" الذي أنتجته هوليود في العام 2005 عن قناص ستالينغراد، أن يدرك حجم الأجواء التي يعمل فيها قناص الفلوجة وأثره على الجنود الأمريكيين والآمال التي يعلقها عليه أهل الفلوجة.

لقد كرَّم الروس قناص ستالينغراد ومنحه ستالين وسام بطل الاتحاد السوفيتي، وبندقيته معروضة الآن في متحف ستالينغراد، أما قناص الفلوجة فإن العراقيين كانوا يبيعون أشرطة عملياته مصورة على سي دي في العراق، لقد أعاد لهم الأمل الذي عادة ما يسبق لحظات النصر، لكن أهل الفلوجة وربما العراق مع كثيرين حول العالم لا زالوا يتابعون فصول قصته التي لم تنته بعد.

وعلى خطى قناص الفلوجة كان هناك قناصون في مدن أخرى كثيرة من العراق، منها قناص بغداد الذي أصدر له الجيش الإسلامي شريطاً مصوراً يظهر

فيه قنص أكثر من عشرين جنديا أمريكياً، كما أصدر له الجيش الإسلامي أنشودة خاصة، عرضت جانباً منها ومن شريط القنص في حلقة الأربعاء 11 أبريل/ نيسان 2007 من برنامجي التليفزيوني "بلا حدود"، وذلك حينما أجريت حواراً مع الدكتور إبراهيم الشمري الناطق الرسمي باسم الجيش الإسلامي في العراق، وحينما رجعت إلى تصريحات المسؤولين العسكريين الأمريكيين حول القتلى من جنودهم لم أجد أي اعتراف بقتل جنود بالقنص، لكنهم تحدثوا عن مقتل بعض الجنود بأسلحة صغيرة على حد تعبير الليفتنانت كولونيل كريستوفر غارنر الناطق الرسمي باسم الجيش الأمريكي.

وقد نشرت وكالة رويترز تقريراً لها في 29 أكتوبر/تشرين الأول من العام 2006 حول قناص بغداد، جاء فيه أن الجيش الإسلامي اعتمد في تدريب القناصة لديه على كتاب ألفه الميجور جنرال الأمريكي المتقاعد جون بلاستر عام 1993 عنوانه "القناص الأفضل"، وقد اعترف الناطق الرسمي الأمريكي بأنهم اطلعوا على شريط قناص بغداد، دون أن يعلق.

وقد بقي القناصة في معركة الفلوجة الثانية في نوفمبر/تشرين الثاني 2004 وبعدها مصدر الرعب للقوات الأمريكية حتى بعد إعلانها عن انتهاء المعركة واحتلال المدينة، ولا زالوا مصدر الرعب الأساسي لها. إنهم يمثلون قوة الضعف التي تهز أركان أقوى جيوش العالم، وتصنع من الضعف أكبر الانتصارات للمقاومة وأكبر الهزائم للقوات الأمريكية.

يوم العيد.. الفلوجة مقبرة جماعية

كان يوم السبت الأول من شهر شوال 1425 الموافق الثالث عشر من شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 أول أيام عيد الفطر المبارك، لكنه كان أول يوم يتكشف فيه أيضاً حجم الجريمة البشعة التي ارتكبت بحق مدينة الفلوجة وأهلها، حيث أعلنت القوات الأمريكية انتهاء اجتياحها، وبدأت عشرات الصور والتقارير تخرج من المدينة التي كانت شوارعها عبارة عن مقبرة مفتوحة، عشرات الجثث لنساء وأطفال وكبار في السن ومن كل الأعمار ملقاة في الشوارع، ورائحة الموت في كل مكان. بينما اعترفت القوات الأمريكية بحجم

المقاومة الشرسة في الفلوجة، لكنها توقعت أن ينجح الجيش في القضاء النهائي عليها خلال اثنتين وسبعين ساعة.

وبدأت القوات الأمريكية تقوم بعمليات تفتيش من بيت إلى بيت، ومع المصورين المرافقين لها بدأت كثير من الفظائع تُنقل إلى العالم، وكما ظهر علاوي ليعلن عن بدء المعركة ظهر أحد وزرائه ليعلن انتهاءها وهو قاسم داود وزير الدولة لشؤون الأمن القومي، في محاولة من الأمريكيين لإضفاء شيء من الشرعية على حكومة هم الذين صنعوها وهم الذين كانوا يسيرونها، وبدا ذلك واضحاً في تصريحات وزير الصحة المعين من قبل سلطات الاحتلال علاء الدين العلوان الذي خرج ليدلي بتصريحات لوسائل الإعلام يستبعد فيها وجود أزمة إنسانية في الفلوجة، مشيراً إلى محدودية الجرحى بين المدنيين الذي أُصيبوا في الأشتباكات؛ وكأن ما حدث كان جولة سياحية ولم يكن حرب إبادة. وقال العلوان: "وزارة الصحة تنسق مع القوات العراقية والقوة المتعددة الجنسيات في سبيل إخلاء الضحايا من المدنيين" الذي قال إن "أعدادهم بسيطة ولا تزيد عن عشرين". وهذا التصريح إن لم يكن تواطؤاً فهو تدليس غير أخلاقي، لأن كل المؤسسات العالمية كانت تتحدث عن كارثة في المدينة كشفت عنها الأيام تباعاً.

قتلى أمريكا وجرحاها في الفلوجة

مساء أول أيام العيد أعلن المتحدث باسم مجلس شورى المجاهدين في الفلوجة في اتصال هاتفي مع قناة الجزيرة أن "القوات الأمريكية في مأزق"، ونفى نجاحها كما زعمت في السيطرة على المدينة، وقال: "إن الإعلان عن انتهاء الهجوم العسكري على المدينة هو دليل مأزق تعيشه القوات الأمريكية في الفلوجة، وأن عدد القتلى الأمريكيين في المدينة حسب إحصاءاتنا يزيد عن مئة وخمسين وأكثر من 270 جريحاً"، هذا في وقت أعلن فيه الأمريكيون أن قتلاهم ثمانية وثلاثون فقط، وقال: "يدَّعي الأمريكيون أنهم أنهوا العمليات في الفلوجة، وهذا كذب، نحن نقول لهم بصراحة لو أنكم أنهيتم العمليات اسمحوا لجميع القنوات الفضائية العربية أن تدخل المدينة لتنقل إلى العالم ما يجري في شوارع الفلوجة". وأكد أن كل ما يجري هو: "تعتيم إعلامي، وهم يرتكبون في الفلوجة

مذابح ومجازر ودماراً، وقد قصفوا محطة الاتصالات في الفلوجة وهي المحطة الوحيدة التي يمكن أن نتصل من خلالها بالعالم الخارجي؛ إنهم مجرمون".

وفي تصريحات مليئة بالحقد والكراهية للفلوجة وأهلها قال الكولونيل مايكل شوب في تصريحات نقلتها الوكالات في 14 نوفمبر/تشرين الثاني: "إن أعمال تمشيط المدينة منزلاً بعد منزل سيستغرق أربعة أيام"، وقال: "لن ندع حجراً على حجر في المدينة دون أن نقلبه".

وبينما أعلن الجنرال ريتشارد ناتونسكي قائد قوات المارينز في الفلوجة أنهم قتلوا 1200 من رجال المقاومة، أكد الناطق باسم مجلس شورى المجاهدين لقناة الجزيرة أن الشهداء من رجال المقاومة لا يزيدون عن مئة، بينما الباقون هم من المدنيين من أهل المدينة.

أما الجرحى الأمريكيون فقد أعلنت المتحدثة الطبية باسم أكبر مستشفى عسكري أمريكي خارج الولايات المتحدة في لاندشتول في ألمانيا أن المستشفى استقبل حتى يوم الأحد 14 نوفمبر/تشرين الثاني، أي خلال أقل من أسبوع من اندلاع المعارك، 412 جندياً أمريكياً ممن أصيبوا في معارك الفلوجة. وأضافت المتحدثة ماري شو أن نحو نصف الجنود المصابين في الفلوجة من أفراد الجيش، بينما 38% من مشاة البحرية. وقالت: إن هناك جرحى آخرين إصاباتهم خطرة يعالجون في الميدان لم ينقلوا إلى ألمانيا.

وللتأكيد على أن القوات الأمريكية تعطي أرقاماً مضللة لقتلاها وجرحاها أنه في الوقت الذي أعلنت فيه المتحدثة باسم المستشفى العسكري الأمريكي في لاندشتول في ألمانيا في 14 نوفمبر/تشرين الثاني عن استقبال المستشفى 412 جندياً أمريكياً جرحوا في معارك الفلوجة، أعلن مصدر عسكري أمريكي بعد ذلك بيوم كامل أي يوم الاثنين 15 نوفمبر/تشرين الثاني في تقرير نشرته وكالة الأنباء الفرنسية أن عدد القتلى الأمريكيين في معارك الفلوجة وصل إلى 38 قتيلاً، بينما عدد الجرحى 275 فقط... فأين الحقيقة؟

وهذا دليل على أن أعداد الجرحى كانت أكبر بكثير من ذلك، وأن الجيش الأمريكي كما كان يتكتم على الأعداد الحقيقية للجرحى، فإنه يتكتم كذلك على

الإعداد الحقيقية للقتلى، أما التشكيك في أعداد القتلى فقد جاء على لسان بيان أصدره مجلس شورى المجاهدين في الفلوجة في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2004، قال فيه: "إن مبنى قائمقامية الفلوجة الذي أعلن الجيش الأمريكي أنه سيطر عليه يوم الأحد 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2004، وأن ثلاثة من عناصره فقط قد قتلوا إثر انفجار وقع فيه، كان قد فجر بأكثر من 500 كيلو جرام من مادة تي إن تي شديدة الإنفجار تم زرعها في أركان المبنى الذي يقع في حي المعلمين في الفلوجة، بالإضافة إلى عبوات مدافع نمساوية، وذلك قبل أن يقوم المسلحون بإخلائه في عملية متعمدة لاستدراج الجنود الأمريكيين إليه، وأكد البيان أن 60 جندياً دخلوا المبنى عقب إخلائه بالإضافة إلى عدد آخر كان يحيط به لحماية الضباط والجنود الذين كانوا بداخله من نيران المقاومة، وأن عملية تفخيخه تمت من قبل وحدة خاصة من المقاومة كانت على اطلاع بطبيعة بنائه".

وأضاف البيان: إن "الانفجار أدى إلى مقتل كل من كان في المبنى من الجنود والضباط الأمريكيين إضافة إلى عدد آخر ممن كانوا خارجه، علاوة على إصابة أربعين عسكرياً أمريكياً آخرين"، وأوضح البيان أن: "الرافعات الأمريكية لا زالت تعمل بعد يوم كامل من التفجير على استخراج الجثث". وتحدى البيان قيادة قوات الاحتلال أن تعلن عن اسم القائد العسكري الأمريكي رفيع الرتبة الذي أصيب أثناء تلك العملية والذي نقل على الفور إلى ألمانيا للعلاج.

وكان الجيش الأمريكي قد أعلن في بيان عن هذا الحادث أن انفجاراً وقع في مبنى مفخَّخ في الفلوجة فأدى إلى مقتل ثلاثة من جنوده وجرح ثلاثة عشر آخرين، دون أن يقدم تفاصيل إضافية عن الحادث.

وقد سألت الزميل فاضل البدراني الذي كان مقيماً في الفلوجة أثناء المعركة إن كانت هناك أية تقديرات من قبل أية جهات رسمية في الفلوجة حول عدد القتلى من الجنود الأمريكيين، فقال: "هناك تقرير من جماعة الإغاثة في الفلوجة جاء فيه أن عدد الخسائر البشرية في القوات الأمريكية يفوق أعداد الضحايا من أبناء المدينة، حيث إن الأمريكيين تضرروا أيضاً من استخدام الأسلحة الكيماوية علاوة على المقاومة الشرسة التي أوقعت الكثير من القتلى في

صفوفهم، والدليل على ذلك هو أن شهر نوفمبر/تشرين الثاني 2004 هو الأعلى في عدد القتلى والجرحى في صفوف الأمريكيين المعلن عنهم رسمياً.

ويقول التقرير: إن أعداداً كبيرة من جثث الجنود الأمريكيين رزمت في أكياس معدة وشحنت بالطائرات، لكن الغريب في الأمر أن جميع الجثث كانت مقطعة الرؤوس، ومرزومة بشكل جماعي. ويشير التقرير إلى أن طريقة قطع الرؤوس اتخذتها القوات الأمريكية بنفسها دون معرفة أي تفسير لها حتى الآن.

ويضيف البدراني: "وفي أدق تقرير صدر لمركز حقوق الإنسان في الفلوجة، قال: إن جثث الجنود الأمريكيين تركت في شوارع حي الجولان غرب المدينة لعدة أيام، وكذلك في حي الشهداء في جنوبها الشرقي، وذلك بسبب توغل القوات الأمريكية داخل المدينة ثم انسحابها أمام حدة المقاومة وصمودها، مما جعلها عاجزة عن جمع أشلاء قتلاها بسبب المقاومة الشديدة".

ويقول البدراني: إن من بين ما صادفه في هذه المعركة أنه "أحصى أكثر من خمس عشرة جثة لجنود من المارينز متروكة في الشارع في حي الوحدة لعدة أيام بعدما طمرتها مياه الأمطار ومياه نهر الفرات، عندما عمد الجيش الأمريكي إلى فتح ثغرة من نهر الفرات الذي يحد المدينة من ناحية الغرب بهدف طمر شوارع المدينة بالمياه ضمن خطة قاموا بها لإجهاد رجال المقاومة ومحاولة زعزعة معنوياتهم". وأكد نقلاً عن شهود عيان أنهم: "شاهدوا أكثر من عشرين جثة لجنود أمريكيين في حي الشهداء في جنوب شرق المدينة، وأن هؤلاء الجنود قتلوا جراء استنشاقهم المواد الكيماوية حيث إنها استخدمت لأول مرة في هذا الحي"، ونقل له شهود عيان كذلك أنهم "أحصوا أكثر من خمس عشرة جثة لجنود أمريكيين كانت مطمورة في الماء لعدة أيام في حي الجولان شمال غرب المدينة الذي كان من أشد الأحياء مقاومة وتحدياً للأمريكيين، حتى إن الأمريكيين ضربوه بالأسلحة الكيماوية والفوسفور الأبيض".

وينقل البدراني عن تقارير صدرت عن منظمات حقوقية في الفلوجة أن جنوداً أمريكيين كثيرين ماتوا بفعل استخدام القوات الأمريكية للأسلحة الكيماوية والفوسفور الأبيض، كما سقط الكثير من أهل المدينة من المدنيين وكذلك من المقاتلين المدافعين عنها.

وهذا يطرح مزيداً من الشكوك حول الأعداد الحقيقية للقتلى الأمريكيين سواء في معركة الفلوجة هذه أو في معارك العراق بشكل عام.

جريمة حرق الفلوجة بالفوسفور الأبيض

كان كثير من أهل الفلوجة الذين نجوا من الموت قد تحدثوا عن استخدام القوات الأمريكية الغاز السام وأسلحة كيماوية ومحرمة دولياً في عملية اجتياح الفلوجة وإخضاعها في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، لكن القوات الأمريكية نفت ذلك بشدة في حينه واعتبرته "خرافات"، غير أن صحفيين من قناة تليفزيون "راي" الإيطالية بثوا فيلماً وثائقياً في الثامن من نوفمبر/تشرين الثاني 2005 في مناسبة الذكرى الأولى لعملية اجتياح الفلوجة التي أبقتها القوات الأمريكية تحت الحصار بعد تدميرها، اعتُبر هذا الفيلم وثيقة إدانة وتجريم للولايات المتحدة، وقدم أدلة دامغة على أن القوات الأمريكية استطاعت حسم المعركة عبر استخدام أسلحة محرمة دولياً منها الفوسفور الأبيض الذي حرقت به أحياء كاملة من المدينة.

شاهدت الفيلم أكثر من مرة، وأجريت في 7 ديسمبر/كانون الأول 2005 حلقة تناولت جانباً منه مع النائبة العمالية البريطانية أليس ماهون في برنامجي "بلا حدود" التي كانت أحد المتحدثين الذين شاركوا في الفيلم، حيث تفجرت أزمة داخل حزب العمال بعد عرض الفيلم أعلنت ماهون على إثرها استقالتها من البرلمان احتجاجاً على دور بلير وبريطانيا في الحرب، وكانت ماهون أحد الشخصيات التي شاركت في التعليق في الفيلم وأدانت بشدة القوات الأمريكية والبريطانية.

من أهم ما كشفه فيلم "الفلوجة: المذبحة المنسية" الذي عُرضت أجزاء منه في كثير من محطات العالم التليفزيونية أنه كشف بشكل موثق عن جانب من جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأمريكية في الفلوجة، ومما جاء في الفيلم ما ذكره الجندي الأمريكي جيف إنجلهارت الذي كان أحد الجنود الأمريكيين الذين شاركوا في معركة الفلوجة الثانية حيث قال: "كنت في مهمة في الفلوجة، وكنت على بعد مئة وخمسين متراً من موقع الهجوم، وتلقينا أمراً

مباشراً باستهداف أي شخص يسير أو يتحرك". وأضاف: "عندما وصلنا إلى العراق كانت أعمار المقاتلين تترواح بين 18 و65 عاماً، ولكن عندما وصلنا إلى الفلوجة تغير الهدف، فبعض مقاتلي المدينة كانوا في العاشرة من العمر". وحينما سأله معد البرنامج: ما الذي ستترويه لابنك عن معركة الفلوجة؟ قال إنجلهارت: "لقد كانت مذبحة، فقد قصفنا كل ما كان يمكن أن يقصف، لم تكن معركة، وإنما كانت مذبحة جماعية".

هذه المذبحة الجماعية لم يشاهدها أحد، لقد سعت القوات الأمريكية بكل قدراتها وطاقتها لمنع نشر أي صورة تعكس حجم هذه المذبحة التي اعترف أحد جنودها بارتكابها في الفلوجة، حتى صورة الجندي الأمريكي التي بثتها شبكة "إن بي سي" الإخبارية الأمريكية له في منتصف نوفمبر/تشرين الثاني وهو يقتل جريحاً داخل أحد مساجد الفلوجة ـ أخبرني الزميل فاضل البدراني أنه كان مسجد معاوية بن أبي سفيان ـ حاول الأمريكيون التغطية عليها عبر الإعلان عن التحقيق مع الجندي الذي قام بها، ثم تمت تبرئته أمام محكمة عسكرية أمريكية بعد ذلك.

وحينما سئل الجندي جيف إنجلهارت عما إذا كان قد استخدم أسلحة كيماوية في هجمات الفلوجة التي وقعت في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 قال: "بالطبع الفوسفور الأبيض بالتأكيد، وربما النابلم واسمه MK77، وقد تأكدت من ذلك حينما سمعت من الإذاعة ـ الخاصة بالجيش ـ أن نأخذ الحيطة لأن الفوسفور الأبيض استخدم، وهو ما يطلق عليه بالاصطلاح العسكري "ويلي بت" هذا ما أكدته الإذاعة" وأضاف: "عندما ينفجر الفوسفور الأبيض ينتشر وإذا ما أصاب إنساناً يذيبه حتى العظم لكنه لا يمس الألبسة، لأنه لا تأثير له إلا على الخلية التي تحتوي على ماء، فهو يحرق الأوكسجين ويؤدي تنشقه إلى الموت". وقال: "لقد رأيت الأجساد المحترقة، والفرق بين الفوسفور الأبيض وغيره واضح، فهو يشوه الجلد ويذيب اللحم، وخلال القصف أيضاً قتل أطفال ونساء وحيوانات حيث تسبَّب القصف الفوسفوري في غيمة يبلغ قطرها مئة وخمسين متراً تقتل كل من تصادف".

وقد عرض الفيلم صوراً لأناس قتلوا من آثار الفوسفور الأبيض أثناء

النوم، وآخرون كانوا يعدون الطعام، وآخرون فيما كانوا يصلون، وكما ذكر إنجلهارت: كانت ملابسهم كما هي لكنهم تحولوا بفعل الفوسفور الأبيض إلى هياكل عظمية، وربما فسر هذا وضع كثير من الجثث للجنود العراقيين التي اكتُشفت بعد معركة المطار التي سقط نظام صدام حسين بعدها في 9 أبريل/ نيسان 2003.

وذكر محمد طارق الدراجي أحد أبناء الفلوجة الذين شاركوا في التعليق في الفيلم وهو مجاز في العلوم الطبيعية وممثل لمركز دراسات حقوق الإنسان في الفلوجة أن "القوات الأمريكية قامت بحرق جثث العراقيين الذين قتلوا بالفوسفور لإخفاء خبر استخدامهم للأسلحة الكيماوية ضد سكان المدينة".

وركز الفيلم على أن الولايات المتحدة حرصت أن تتم جريمة الفلوجة كلها بعيداً عن الشهود، فالصحفية الإيطالية جوليانا سيجريتا التي كانت قد اختطفت في العراق، كان السبب الرئيسي وراء اختطافها كما روت في الفيلم أنها كانت قد جمعت معلومات مثيرة حول ما قامت به القوات الأمريكية في الفلوجة، وقالت سيجريتا: "أنها لم تجمع معلومات مثيرة حول الأسلحة التي استخدمتها القوات الأمريكية في الفلوجة فقط، وإنما جمعت من السكان معلومات حول استخدام أسلحة خاصة في معركة المطار في أبريل/نيسان من العام 2003"، وروت عن سكان الفلوجة من النساء اللائي حاولن العودة للمدينة أنهن "عثرن على مساحيق بيضاء منتشرة في البيوت وأن الأمريكيين نصحوهم بتنظيف هذه المنازل بسوائل تنظيف، لأن تلك المساحيق كانت خطيرة للغاية، وأن عملية اختطافها لعبت دوراً في عدم استكمالها لكشف الحقائق حول ما يقوم به الأمريكيون".

وأكد المعلِّق في الفيلم أن القوات الأمريكية حرصت على ألا يكون هناك شهود لما قامت به، وبالتالي لم يسمحوا فقط إلا للصحفيين الذين يرافقونهم بالذهاب للفلوجة، كما أن الصحفي الذي كان يعمل في شبكة إن بي سي وبث صورة الجندي الذي يجهز على الجريح في المسجد في 14 نوفمبر/تشرين الثاني تم طرده بعد ذلك.

وهناك صحفي آخر مستقل يدعى ماركماننج تمكن من الدخول إلى

الفلوجة في شهر يناير/كانون الثاني من العام 2005، وقام بتصوير فيلم مليء بالحقائق المرعبة عن جرائم الحرب التي قامت بها القوات الأمريكية في الفلوجة رغم مرور أكثر من شهرين على النهاية المعلنة للحرب، إلا أنه تم السطو على غرفته في الفندق الذي كان يقيم فيه بعد وصوله للولايات المتحدة وسُرق الشريط الذي يحوي الفيلم.

ويقولماننج في فيلم "الفلوجة: المذبحة المنسية": الفلوجة هي قلب المثلث السنّي، وهي أكثر المناطق مناوءة للاحتلال الأمريكي، وصلة الوصل بين بغداد والأردن، وهي مدينة المساجد والعلم. وقد وصف تقرير صدر في يناير/كانون الثاني من العام 2005 عن مكتب الأمم المتحدة في العراق وبقي سرياً لمدة طويلة، تدمير الفلوجة بأنه "صدمة".

وقد بلغ عدد المنازل التي استُهدفت في المدينة سبعة وثلاثين ألف منزل، وكان الأمريكيون يشيرون بعلامة X على المنازل التي تم تطهيرها، وحتى اليوم لم تصدر أرقام حول عدد القتلى، وقال قائد المارينز في أول نوفمبر/تشرين الثاني: "أنا لم أحط علماً بسقوط أي مدني" إلا أن هذه المشاهد للذين سقطوا غداة الهجوم تكذبه، فقد سقط مئات من الضحايا المدنيين.

وقد سألت الزميل فاضل البدراني أحد الصحفيين من أبناء الفلوجة الذين عاشوا أهوال المعركة عن المناطق التي تمّ ضربها بالفوسفور الأبيض وكيف عرفوا ذلك، فقال: "إن الهجوم بالأسلحة الكيماوية وقع بالفعل في منطقتي الجولان والحي العسكري، وأن الخبر انتشر عبر مكبرات الصوت من المساجد التي كانت تكبر طوال الوقت وقد أعلنت أن الجيش الأمريكي استخدم الأسلحة الكيماوية، وطلبوا من الناس من خلال النداءات أن يضعوا قطعة من القماش مبللة بالماء على الفم والأنف والتنفس من خلالها وتغطية العيون كذلك، وقد فعلت ذلك بنفسي أيضاً".

هذه الجريمة البشعة والفضيحة المدوية للقوات الأمريكية فجرت مئات التقارير والبرامج التليفزيونية، والنقاشات حول الأسلحة المحرمة التي استخدمتها القوات الأمريكية في الفلوجة بشكل خاص وفي العراق بشكل عام. وفور بث الفيلم نفى الجيش الأمريكي تلك الاتهامات، ثم عاد واعترف الناطق باسم وزارة

الدفاع اللفتنانت كولونيل باري فينابل رداً على سؤال من هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 بأن الجيش الأمريكي استخدم الفوسفور الأبيض في الفلوجة، وقال: "لقد استخدمناه كسلاح خارق ضد مقاتلين أعداء" وبرر ذلك بأن "الفوسفور الأبيض سلاح تقليدي وليس سلاحاً كيميائياً وهو غير محظور" وقد فجر هذا الاعتراف انتقادات واسعة ضد القوات الأمريكية لا سيما من خبراء الأسلحة. وقد تحدثت إلى خبير الأسلحة البريطاني داي وليامز وشارك معي في برنامج "بلا حدود" وأكد على أن الفوسفور الأبيض من الأسلحة المحرمة.

ونشرت صحيفة "الحياة" في عددها الصادر في 23 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 تقريراً أشارت فيه إلى أن موقع "غلوبال سيكيورتي" الذي يديره البنتاغون أوضح أن "الفوسفور الأبيض مادة حارقة، وقد فرض حظر على استخدامه في البروتوكول الثالث الملحق بالمعاهدة الدولية حول حظر بعض الأسلحة التقليدية في العام 1983".

الكشف عن استخدام أمريكا الفوسفور الأبيض في حرق الفلوجة وأهلها، ثم اعتراف أمريكا بعد إنكارها استخدامه يؤكد أن هناك أسلحة أخرى خفية كثيرة قد تم استخدامها في الفلوجة أو العراق ربما تكشف الأيام القادمة عنها، وما يؤكد على ذلك أن هناك أسلحة محرمة استخدمتها الولايات المتحدة في حرب فييتنام ولم تكشف النقاب عنها بعد رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً على نهاية الحرب هناك، فما بالنا بما استخدم في الفلوجة التي لا زالت محاصرة حتى لا يتم الكشف عن حجم الجرائم التي ارتكبت ضد أهلها، وهي كلها حسب المراقبين والخبراء تدخل في إطار جرائم الحرب.

استمرت معركة الفلوجة الثانية فعلياً من الثامن وحتى العشرين من نوفمبر/تشرين الثاني 2004، وشارك فيها أكثر من عشرين ألف جندي أمريكي منهم خمسة عشر ألفاً من القوات البرية، والباقي من قوات المارينز، إضافة إلى قوات من المرتزقة لم يحدد عددها، وقوات عراقية قيل إنها عشرة آلاف عنصر، وقد سبق أن أشرت إلى عدد الجرحى الأمريكيين الذين وصلوا إلى ألمانيا للعلاج والتوقعات بعدد القتلى الأمريكيين، لكن في المقابل كيف كانت الخسائر في صفوف المدنيين من أهل الفلوجة؟

ضحايا الفلوجة على أيدي القوات الأمريكية

حاولت الحصول على تقارير عن الإصابات في صفوف أهل الفلوجة، لكن الأمريكيين ارتكبوا جريمة إضافية مع جرائم الحرب الكثيرة التي ارتكبوها في المدينة وهي أنهم أخفوا معالم جريمتهم ليس عبر عدم السماح لأي من الصحفيين برصد ما تم داخل المدينة فقط، ولكن بحرق ودفن كثير من الجثث دون هوية وفي مقابر جماعية، فدفنوا كثيراً من آثار الجريمة البشعة التي ارتكبوها.

لكن الزميل فاضل البدراني الذي كان أحد الصحفيين الذين بقوا في المدينة ولا زال مقيماً فيها حاول جمع الإحصاءات من مصادر عديدة، وقد أرسلها لي مشكوراً بعدما طلبت منه أن يبذل جهداً في تدقيقها، كما أنه قام بنشرها كذلك في صحيفة "العرب اليوم" الأردنية في عددها الذي صدر في 16 أبريل/نيسان 2007 حيث قال البدراني بعد تقرير مطول:

"وبرغم الإحصائيات الواردة في التقارير الطبية والمنظمات الإنسانية فإن مجموعة من أبناء الفلوجة تطلق على نفسها منظمة الإغاثة بالفلوجة مختصة بإحصاء ضحايا المدينة تشير إلى أن شهداء المعركة الأولى في أبريل/نيسان 2004 بلغ 518 شهيداً و1200 جريح، وبعد ذلك سقط 514 شهيداً في فترة القصف ما بين المعركتين الأولى في شهر أبريل/نيسان 2004 والثانية في نوفمبر/تشرين الثاني من عام 2004، تلك الفترة التي تركز فيها النشاط العسكري الامريكي على القصف الجوي ضد منازل المدنيين، بينما سقط 939 شهيداً خلال المعركة الثانية دفنوا في مقبرة واحدة أطلق عليها "مقبرة شهداء الفلوجة" بوسط المدينة، و84 شهيداً دفنتهم الإغاثة الإنسانية في الصقلاوية شمال الفلوجة بعد أن حفظت جثثهم في برادات البطاطا شرق المدينة، و35 شهيداً دفنوا في مقبرة المعاضيدي القديمة في المدينة و460 شهيداً دفنتهم قوات الاحتلال في مقبرة الفاروق شمال المدينة أيضاً، وهو رقم مشكوك فيه، فالمعلومات تشير إلى أن الرقم أكبر من الرقم المصرَّح به.

وحسب قوائم زودت من قبل قوات الاحتلال لمستشفى الفلوجة العام

احتوت على أطفال ونساء ولم يتم التعرف سوى على 91 جثة من الشهداء و730 شهيداً تم إصدار شهادات الوفاة لهم من مستشفى الفلوجة العام. ولم تشمل الإحصائية ثلاث مقابر أخرى، لعدم توفر سجلات فيها، ويعتقد بأنها تحوي على أكثر من 1200 قبر لشهداء، حيث إنّ بعضهم دفن بالجرافات في أخاديد عميقة حفرت بالآليات، ووضعوا فيها بشكل جماعي. لكن الطبيب أحمد غانم في مستشفى الفلوجة العام يرى أن الإحصائيات الموجودة لعدد الضحايا المدنيين ليست دقيقة على الرغم من أنها مقاربة لها".

وبهذا تكون الفلوجة من أكثر مدن العراق إن لم تكن أكبر مدينة عراقية قدمت شهداء استشهدوا في مواجهات مع القوات الأمريكية، كما أنها كانت أكبر مدينة ارتكبت فيها القوات الأمريكية جرائم حرب.

الفصل الثامن

جرائم الحرب في الفلوجة

محاولة اختزال الجرائم التي ارتكبتها القوات الأمريكية في معركة الفلوجة الثانية التي وقعت في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 فيما قامت به القوات الأمريكية طوال أسبوعين من القتال الدموي الشرس ضد المدنيين المقيمين في المدينة والمقاومين المدافعين عنها، في صورة الجندي الأمريكي الذي أطلق النار على المدني الجريح في أحد مساجد الفلوجة في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 فأرداه قتيلاً ـ هذه المحاولة هي عملية تدليس كبيرة وطمس لمعالم وحقيقة جرائم الحرب التي ارتكبت ولا زالت ترتكب من قبل القوات الأمريكية تجاه المدنيين من سكان مدينة الفلوجة، تماماً كما تم اختزال عمليات التعذيب البشعة في سجن أبو غريب في تهم محدودة إلى بعض الجنود الذين قيل إنهم حوكموا بعيداً عن أعين الجميع.

فالمصور الأمريكي كيفين سايتس مصور شبكة "إن بي سي" الأمريكية والذي التقط صور إطلاق الجندي الأمريكي النار على العراقي المصاب الأعزل يوم الأحد 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 قال في تصريحات أشار إليها موقع هيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي" على شبكة الإنترنت: "إن أحد الجنديين صوب سلاحه إلى رأس أحد الجرحى وهو رجل عجوز وأطلق النار".

وقال سايتس في تصريحات أدلى بها ونشرتها وكالات الأنباء في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 أن: "الجنود الأمريكيين قتلوا ثلاثة من الجرحى العزل الآخرين في المسجد نفسه". وأضاف سايتس: "إن الجرحى تُركوا في المسجد بعد معارك خاضتها القوات الأمريكية يومي الجمعة والسبت ـ 12 و13

نوفمبر/تشرين الثاني 2004". وأكد سايتس في تصريحات أخرى نشرت على موقع محطة "إن بي سي" الأمريكية على شبكة الإنترنت: "أن المقاومين لم يستخدموا المسجد لمهاجمة القوات الأمريكية وأن الجرحى كانوا قد تركوا في المسجد لينقلهم جنود آخرون إلى المؤخرة للعلاج، غير أن مجموعة ثانية من مشاة البحرية دخلت المسجد يوم السبت بعد تقارير عن إعادة احتلاله ووقع ما وقع".

وفي الرابع والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 نقلت "بي بي سي أون لاين" عن المصور الأمريكي كيفين سايتس إضافات جديدة حول شهادته على عملية القتل التي قام بها الجنود الأمريكيون للجرحى العراقيين العزَّل في أحد مساجد الفلوجة، حيث قال في رسالة مفتوحة عبر موقعه على شبكة الإنترنت: "إن الرجل القتيل كان من بين خمسة مقاتلين جُرحوا وجُرِّدوا من أسلحتهم في اليوم السابق ولم يقم بأي حركة قبل أن يُطلق عليه الرصاص.. عدا عن التنفس... لم يقم الرجل بأي حركة على الإطلاق".

وكانت قناة الجزيرة الفضائية قد بثت في 17 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 تقريراً لنفس المصور مصاحباً لهذه التصريحات ظهر فيه جرحى آخرون داخل المسجد مع بعض الجرحى الذين ظهروا في الشريط الأول - في صور جديدة - وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة أمام الكاميرات، منهم جريح كان ينام إلى جوار عمود تكلم مع الجنود الأمريكيين بلغة عربية واضحة في الشريط المصور وهو يقول لهم أنه أصيب أمس وأنهم قد جاؤوا في اليوم السابق للمسجد وتركوه، وأظهر لهم جراحه وهو أعزل، فيما ظهر آخر كان يستند للحائط وكانت جراحه بليغة، بينما كان شيخ كبير يستند للحائط نزفت عيناه دماً أمام الكاميرا وفارق الحياة.

وبدا من مسار الأحداث أن الجنود قد دخلوا إلى نفس المسجد أكثر من مرة، وشاهدوا الجرحى من قبل، مما يؤكد رواية المصور الأمريكي سايتس عن أنهم كانوا قد تركوا لينقلهم جنود آخرون للعلاج، ولكن هؤلاء الجنود عاجلوهم بإطلاق النار عليهم أمام الكاميرات؛ فما بالنا بحالات العلاج المشابهة بالقتل التي تتم بعيداً عن عدسات الكاميرات.

وكان جندي أمريكي قد برَّر ببرود تام ما حدث على أنه يندرج في إطار ما يسمى "بالموت الرحيم"، حيث أكد الجنود الأمريكيون في تقارير نشرت في 17 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 أن ما قام به زميلهم "لا يعد فضيحة" لأنه حسب وصفهم "مقاتل واقع تحت ضغط إطلاق النار الكثيف من المسلحين في المدينة".

وقال السرجنت نيكولاس غراهام "24 عاماً" من بنسلفانيا: "كنت سأطلق النار على المتمرد أيضاً.. طلقتان في الرأس". وقال عن الجندي الذي أطلق النار: "يجب عدم التحقيق معه وهو لم يرتكب خطأ".

وإذا كان ما ظهر في صور أمكن تسريبها قد أقام الدنيا ولم يقعدها، ووصف من قبل منظمة العفو الدولية وهيومان رايتس ووتش واللجنة الدولية للصليب الأحمر والمفوضية العليا في الأمم المتحدة المكلفة بحقوق الإنسان أن ما حدث هو "جريمة حرب"، فما هو حجم جرائم الحرب الأخرى التي قامت بها القوات الأمريكية والتي لم تظهر في الصور أو التي صُوِّرت ومنعت القوات الأمريكية نشرها أو التي لم تصور أصلاً وهي الأغلبية، أو التي صُوِّرت ونشرت صورها بعد ذلك مثل مجازر مدن حديثة، والأسحاقي، وعشرات المجازر الأخرى، وهذا ما تساءل عنه بعض العراقيين في تحقيق نشرته صحيفة "لوس أنجلوس تايمز الأمريكية" نقلته عنها صحيفة "الشرق الأوسط" في 18 نوفمبر/تشرين الثاني 2004.

وقد سعى وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد لمحاولة إغلاق ملف تلك الصور في تعليق أدلى به للصحفيين في 17 نوفمبر/تشرين الثاني 2004، أظهر فيه تقليلاً من شأنها قائلاً: "لقد رأيت الصور، وأبلغت بأن جنرالاً أمريكياً يتولى معالجة المسألة، كما سيتم معالجة أية مناقشة حول ما يمكن أن يكون قد حدث أو لم يحدث ولم نعلم به من قبل القوات العسكرية والقيادة في العراق". كما أن يوجين فيدل رئيس المعهد القومي للعدالة العسكرية في واشنطن والشريك في مؤسسة قانونية متخصصة في الدفاع عن العسكريين قلل آنذاك في تصريحات أدلى بها لصحيفة "لوس أنجلوس تايمز" من شأن الصور قائلاً: "إن الأشرطة والصور يمكن أن تكون مضللة، يمكنها أن تصور الأحداث في ضوء خداع".

لكن الكولونيل مايكل شوب كشف حجم الحقد والرغبة في الانتقام من أهل الفلوجة لدى جنود قوات المارينز الذين فشلوا في اقتحام المدينة في شهر أبريل/نيسان من العام 2004 حينما قال في تصريحات له نشرت في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2004: " لن ندع حجراً واحداً في المدينة دون أن نقلبه". ولعل تصريح عدد من الجنود الذين التقاهم الصحفيون وقالوا إنهم كانوا سيفعلون مثلما فعل زميلهم، بل ربما يكونون قد فعلوا، ولعل حجم الدمار الشامل الذي تنقله الكاميرات التي تصاحب القوات الأمريكية كشف دقة مقولة الكولونيل الأمريكي من أنهم لم يتركوا حجراً واحداً في المدينة دون أن يقلبوه.

ومع غياب الجانب الأكبر من الحقيقة بعدم وجود وسائل إعلام مستقلة تنقل حقيقة ما حدث ويحدث في الفلوجة، حيث لم تسمح القوات الأمريكية لأي وسائل إعلام مستقلة بدخول المدينة رغم مرور أكثر من عامين ونصف ـ حينما كتبت هذا الفصل من الكتاب ـ على نهاية المعركة، حيث لا زالت مدينة الفلوجة محاصرة ولا يسمح لغير أهلها بدخولها، بل إنهم كما قال لي بعض أهل الفلوجة الذين التقيت بهم في أسفاري المختلفة ـ وكثير منهم يسافرون ويعودون للعراق وآخرون ينتشرون الآن مهاجرين في أصقاع الدنيا ـ أنهم لا يسمح لهم بالدخول إلى المدينة أو الخروج منها منذ حصارها بعد تدميرها في نوفمبر/تشرين الثاني 2004 إلا بعد تفتيش دقيق وبعد التحقق من شخصياتهم من خلال البصمة الإلكترونية للعين والأصبع، حتى يضمن الأمريكيون عدم دخول أي شخص من غير أهل الفلوجة إلى المدينة ليكشف عن حجم الدمار الهائل الذي حل بها، حيث يسعى الأمريكيون إلى طمس كل المعالم التي يمكن أن تشير إلى نوعية وحجم جرائم الحرب التي ارتكبوها في المدينة أثناء المعركة الثانية، لأن القضية ليست قضية الجندي الذي أطلق النار على جريح أعزل في مسجد، ولكنها قضية مدينة كاملة وثلث سكانها ـ حسب تصريحات المسؤولين في حكومة علاوي المؤقتة آنذاك ـ الذين يزيدون عن مئة ألف كانوا داخلها؛ كما أشارت إلى ذلك أيضاً تقارير كثيرة أخرى، ومع مرور مدة طويلة من زمن الحصار والتعتيم تتغير المعالم وتدفن الجرائم وتضيع الحقائق ويصبح من العسير نقل وتصوير حقيقة وحجم الجرائم التي وقعت بالمدينة.

الجرائم ضد الأطباء والجرحى

وكان طبيب في مستشفى الفلوجة وصف المدينة في تصريحات نقلتها الوكالات في 17 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 بأنها عبارة عن "أشلاء متناثرة في الشوراع وبيوت مهدمة".

أما مراسل وكالة الأنباء الفرنسية فارس الدليمي الذي لم يستجب لطلب القوات الأمريكية بالخروج من المدينة وبقي فيها منذ بداية القتال في 8 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 وحتى تمكنه من الخروج حياً في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 كتب تقريراً تحت عنوان "يوميات صحفي تحت النار في الفلوجة" نشرته وكالته في 17 نوفمبر/تشرين الثاني، كان مما قال فيه عن يوم الثلاثاء 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2004: "في حي المعلمين لم يترك القصف أي منزل، الحفر التي سببتها القنابل تغطي كل الأرصفة".

وعن يوم الأربعاء 10 نوفمبر/تشرين الثاني يقول: "تابعت مسيرتي باتجاه الجنوب حيث وصلت إلى المستوصف العام الذي كان قد قصف قبل ساعات"؛ وهو يظهر هنا استهداف القوات الأمريكية للمراكز الطبية الذي بدأ من أول يوم بسيطرتهم على مستشفى المدينة التي تقع على الجانب الآخر لنهر الفرات تماماً كما فعلوا في المعركة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004. لكنهم في المعركة الثانية لم يتركوا حتى المستوصفات تسعف الجرحى كما حدث في المعركة الأولى، بل قصفوا المستوصفات ودمروها مما جعل الجرحى ينزفون حتى الموت.

وقد قاموا بقصف مستوصف طبي آخر في اليوم التالي لبداية المعركة الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني ودمروه على رأس الأطباء والجرحى فيه، فقتل كثيرون ونجحت قناة الجزيرة بترتيب الاتصال مع طبيب ادعى أن اسمه علي عباس في 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 قال بصوت مليء بالشجن والألم والتأثر إنه الناجي الوحيد من مذبحة المستوصف الطبي التي وقعت يوم الاثنين الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني 2004 وأضاف بألم: "إننا كأطباء لا نستطيع أن نفعل شيئا لإنقاذ الجرحى وأن جثث القتلى ما زالت مكومة في الشوارع".

وقد نشرت وكالة "قدس برس للأنباء" التي تبث من العاصمة البريطانية لندن تقريراً في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 عن مراسلها الذي بقي في الفلوجة، تحدث فيه عن مدى تردي الأوضاع الصحية في المدينة، ونقل عن الدكتور محمد الجميلي أحد أطباء مستشفى الفلوجة العام قوله في تصريح خاص للوكالة: "إن القوات الأمريكية ومليشيات الحرس الوطني العراقي قاموا باقتحام مستشفى الفلوجة العام غرب نهر الفرات، واحتجزوا كافة الأطباء الجراحين، وليس هناك أي طبيب جراح داخل مدينة الفلوجة يمكن أن يقوم بعمليات طارئة لإسعاف الجرحى الذين يسقطون في العمليات العسكرية والقصف الأمريكي" مشدداً على وجود العديد من الإصابات دون أن يكون هناك طبيب مختص لإسعافها.

وأكد الجميلي على أن: "القوات الأمريكية والعراقية عندما اقتحمت المستشفى قامت بحمل المرضى الراقدين فيه في سيارات عسكرية لنقل البضائع، وقاموا بتدمير كل شيء في المستشفى، كما اعتقلوا الأطباء الموجودين في المستشفى، وأن أحد الأطباء تعرض لإطلاق نار دون أي ذنب"، وأشارا إلى أن: "قوات الاحتلال اعتقلت عشرين جريحاً من الذين كانوا راقدين في المستشفى لتلقي العلاج، بالإضافة إلى قيام مليشيا الحرس الوطني بسرقة أموال تعود للمستشفى وبعض الموجودات".

وأضاف الجميلي في تصريحاته لـ "قدس برس": إن الأدوية في الفلوجة صارت شبه معدومة، وأن على الحكومة ـ حكومة علاوي ـ التي تدعي الإنسانية وأنها حكومة تمثل الشعب العراقي أن ترسل الإمدادات الطبية للمدينة، مشدّداً على ضروة قيام كافة منظمات الإغاثة بإرسال المساعدات الطبية، وإرسال الجراحين المتخصصين، مشيراً إلى غياب الماء والكهرباء، وهي الضرورات التي قامت القوات الأمريكية بقطعها قبل أن تبدأ هجومها على المدينة.

ووصف الجميلي الحالة التي وصلت إليها الأوضاع في الفلوجة بأنها صارت صعبة ولا تحتمل، وأن الأطباء في المدينة أصبحوا يلجؤون إلى أقمشة الوسائد من أجل أن يلفوا بها جروح المصابين.

وكان الكاتب البريطاني ستيف نيكولاس أكد في مقال نشرته "الوطن"

القطرية في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 أن "هدف القوات الأمريكية من وراء احتلال مستشفى الفلوجة في بداية المعركة هو إخفاء الخسائر المدنية الهائلة المتوقعة من وراء الهجوم الأمريكي".

وأنا أذكر أثناء تغطيتي لحرب الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان من العام 2004، أن الأطباء والمستوصفات كانت مصدرنا الرئيسي للتعرف على أعداد الضحايا وأعمارهم حيث كان أغلبهم من الأطفال والشيوخ والنساء آنذاك. وقد لعب هذا دوراً كبيراً في فضح القوات الأمريكية، لهذا قامت القوات الأمريكية بقصف المستوصفات وبقتل الأطباء والطاقم الطبي والانتقام منهم لأنهم لعبوا دوراً أساسياً في كشف وفضح جرائم القوات الأمريكية في الفلوجة.

والسؤال هنا: هل ما ذكره هؤلاء عما قامت به القوات الأمريكية تجاه المؤسسات الطبية والجرحى والأطباء يندرج تحت نطاق جرائم الحرب أم لا؟

قتل المدنيين بدم بارد

وإذا عدنا إلى تقرير مراسل وكالة الأنباء الفرنسية فارس الدليمي نجده يؤكد على أن "رائحة الموت في كل مكان.. أرى كلاباً وقططاً تنهش جثثاً في الشوارع". وعن يوم الخميس 11 نوفمبر/تشرين الثاني كان مما قاله الدليمي بعد عدة محاولات للهروب من جحيم المدينة: "عدت إلى حي الأندلس وأمضيت الليلة في بيت تشغله عائلات كثيرة وكنت أسمع بكاء ونواح النساء طوال الليل".

وعن يوم الجمعة 12 نوفمبر/تشرين الثاني قال مراسل وكالة الأنباء الفرنسية: "انتقلت من منزل إلى منزل، وفي أحدها عثرت على جثث أربعة رجال قتلوا برصاص في الرأس فهربت، وبينما كنت أجري سمعت صراخاً في منزل فدخلت ووجدت امرأة مع طفلة في الثانية عشرة من العمر وصبياً في العاشرة مجروحاً في ساقه وثلاثة رجال قتلى على الأرض.. أكدت المرأة أن الأمريكيين دخلوا وقاموا بقتلهم".

من خلال هذه الأجزاء من هذه الرواية التي نشرت مطولة في تقرير بثته وكالة الأنباء الفرنسية.. نتساءل.. ما هو حجم ومساحة ما يندرج تحت نطاق

جرائم الحرب في هذه الرواية؟ لا سيما ما يتعلق بقتل المدنيين وتدمير المراكز الطبية ومنع إسعاف الجرحى وتركهم حتى يموتوا نزفاً وترك جثث الموتى في الشوراع لتنهشها القطط والكلاب.

وفي 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 نشرت وكالة "أسوشيتدبرس" الأمريكية تقريراً عن مراسلها في الفلوجة المصور بلال حسين الذي بقي أيضاً داخل المدينة في محاولة لنقل الجانب الآخر من الحقيقة التي سعى الأمريكيون لطمسها، وكان مما قاله مراسل أسوشيتدبرس: "الدمار في كل مكان... رأيت قتلى ممددين في الشوارع وجرحى ينزفون وما من مغيث، أما المدنيون الذين كانوا يرغبون في مغادرة المدينة فقد ردتهم القوات الأمريكية على أعقابهم.. بدأ الجنود الأمريكيون يفتحون النار على المنازل عشوائياً، فقررت أن من الخطر بمكان أن أبقى في المنزل".

وقد دُمِّر منزل المراسل بالفعل بعد هروبه منه حيث وصف منطقة الجولان التي يقع بها منزله بأنها تحولت إلى "منطقة لأنقاض المباني والموت".

أما المشهد الأكثر تأثيراً في رواية بلال حسين مراسل وكالة "أسوشيتدبرس" فقد وصفه قائلاً: "رأيت بأم عيني مصرع عائلة كاملة من خمسة أفراد برصاص المروحيات الأمريكية عندما كان أفراد الأسرة يحاولون عبور نهر الفرات". وذكر أنه دفن أحد أفراد هذه الأسرة عند ضفة النهر.

والسؤال هنا: أليس ما رواه مراسل وكالة الأنباء الأمريكية "أسوشيتدبرس" يدخل في إطار جرائم الحرب؟

دفن معالم الجريمة

أما ما يتعلق بحي الجولان الذي قال عنه المراسل أن بيته كان يقع فيه وأنه تحول إلى "منقطة لأنقاض المباني والموت"، فقد أكد الكولونيل ليوناردو ترانشيسكي الذي يقود الفرق المدنية التابعة للكتيبة القتالية الأولى أو المسؤول - حقيقة - تحديداً عن طمس معالم الجرائم المرتكبة من قبل القوات الأمريكية في

الفلوجة لا سيما مواراة القتلى تحت التراب في مقابر جماعية قبل السماح لوكالات الأنباء بتصويرهم أو للسكان المنكوبين للعودة ومشاهدة ما آل إليه أمر أهاليهم ومدينتهم، فقد قال في تصريحات نقلتها وكالة الأنباء الفرنسية في 17 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 أنه: "يتوقع أن يبلغ عدد الجثث في حي الجولان وحده الذي يقع شمال غربي المدينة - والذي شهد مقاومة شرسة للقوات الأمريكية - حوالي 600 جثة"، وهذا يعكس حجم الدمار الهائل الذي لحق بالحي الذي ربما بقي طوال أيام المعركة وحتى بعد تدميره على رؤوس من فيه يقاوم قوات الاحتلال.

وحتى يعكس الكولونيل ترانشيسكي حجم روح الانتقام في داخل نفسه وداخل الجنود الأمريكيين المشاركين في المعركة والجرح القديم في نفوسهم من أن الفلوجة هي المدينة التي هزمتهم وهذا ما جعلهم يقتلون المدنيين من الأطفال والنساء والعجائز دون أن يرف لهم جفن أو ينتابهم أي شعور بالندم أو الخجل مما يقومون به، فقد أفصح عن المبدأ الذي ينطلق منه الأمريكيون في عملياتهم مذكِّراً بأحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001، وكأن ما يجري هو جزء من الانتقام لها، قال: "ربما يستغرق رفع الجثث وقتاً.. كم من الوقت استغرق تنظيف مركز التجارة العالمي؟! قد يتمكن رجال المارينز من القيام بذلك بشكل أسرع، ولكن على العراقيين القيام بذلك".

وقد نقلت صحيفة "الصنداي تليغراف" البريطانية في تقرير لها نشرته في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 نقلاً عن الأسر العراقية التي تمكنت من الفرار من المدينة أن "أكواماً من الجثث تتكدس في البيوت والشوارع".

وفي 21 نوفمبر/تشرين الثاني نقلت وكالات الأنباء المصورة ونُشِر التقرير في كافة المحطات التليفزيونية العالمية عن عمليات دفن في قبر جماعي لجثث عشرات ممن قتلوا على يد القوات الأمريكية في الفلوجة في قرية الصقلاوية الملاصقة للفلوجة. وقال أحد المتطوعين بدفن قتلى الفلوجة: "إن قبراً جماعياً قد وُضعت فيه جثث كثير من النساء والأطفال والعجائز لم يتم التعرف عليها لأنها محترقة بالنابلم ومشوهة تماماً من النيران".

أكذوبة المقاتلين الأجانب

والسؤال هنا: أليس دفن الجثث الذي هو دفن للجريمة دون توثيق دقيق ومحايد من جهات دولية لتحديد هوية المدنيين من نساء وأطفال وشيوخ؟ في ظل تأكيد الكولونيل مايكل رينجر أحد قادة قوات مشاة البحرية الأمريكية "المارينز" في تصريحات نشرتها الوكالات في 16 نوفمبر/تشرين الثاني أن "الأجانب من بين 1052 مسلحاً قد اعتقلوا في الفلوجة في الأسبوع الأول من الهجوم البري على المدينة - أي من 8 إلى 15 نوفمبر/تشرين الثاني - لا يزيدون عن 24 أجنبياً"، مما يعكس كذلك نسبة القتلى العراقيين إلى غيرهم، وأن من قتلوا في الفلوجة كانوا كلهم أو أغلبهم من المدنيين العزل، وأنهم ربما يكونون جميعاً من أهلها أو عراقيين من مناطق مجاورة لها.

أما الجنرال جورج كايسي أعلى القادة العسكريين الأمريكيين رتبة في العراق في ذلك الوقت فقد أكد على أن المعتقلين الذين يزيدون عن ألف وأعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والخمسين فلا يزيد عدد الأجانب فيهم عن خمسة عشر، كما جاء تأكيد الكولونيل رينجر على أن كثيراً ممن اعتقلوا تصادف وجودهم في المكان والوقت غير المناسبين، وأنهم سوف يفرج عنهم، وهذا يعني أن كثيراً من المدنيين العراقيين من أهل الفلوجة الذين لم يخرجوا منها بينهم ربما أطفال في الخامسة عشرة من بين المعتقلين.

هذا التصريح لقائد قوات مشاة البحرية وللجنرال كايسي عن الأسرى ينفي أكذوبة الإرهاب والإرهابيين، وينفي كذلك أكذوبة الزرقاوي ورجاله الذين برر الأمريكيون هجومهم على المدينة بأنهم يقيمون فيها، وأن المقاتلين الذين بقوا في المدينة كانوا أهلها، وكانوا يدافعون عن بلدهم وأعراضهم.

إن هذا الأمر يدعو عاجلاً أم آجلاً إلى ضرورة إنشاء لجنة تقصي حقائق دولية لحصر القتلى الذين يبدو أن أغلبهم مدنيون ليضع ما حدث تحت نطاق جرائم الحرب.

الجرائم ضد الأطفال

أما الأطفال فإن حجم الصور التي نُقلت عبر الوكالات عن الأطفال الذين قتلوا تحت ركام المنازل أو جرحوا أو الذين بُترت أطرافهم في المعارك كفيل بأن يحدد حجم جرائم الحرب التي ارتكبت بحق الأطفال في الفلوجة.

وقد نشرت وكالة رويترز تقريراً في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 حول وضع الأطفال في الفلوجة قالت فيه: "يقول رئيس الوزراء العراقي إياد علاوي أنه ليس هناك مدني واحد قتل خلال الهجوم الذي يهدف إلى استعادة السيطرة على مدينة الفلوجة من المقاتلين الذين يتزعمهم الأردني أبو مصعب الزرقاوي، ولكن الجثث المحترقة في شوراع المدينة والأطفال في مستشفى النعمان في بغداد يتحدثون عن قصة أخرى"، ثم تورد الوكالة عدداً من قصص الأطفال المبتورة أطرافهم أو الجرحى الذين تلازمهم أمهاتهم أو الذين فقدوا عائلاتهم وأصبحوا جرحى في رعاية آخرين، وتقول عن الطفل علاء برهم الذي لا يزيد عمره عن 12 عاماً: "إنه لا زال يعاني من صدمة شديدة ولا يتحدث تقريباً منذ قصف صاروخ بيت خاله الذي لجؤوا إليه خوفاً من قصف منزلهم في الفلوجة، فقتل خاله على الفور وأصيب هو وشقيقه وابن خاله الذي يتم أيضاً علاجه وعمره لا يزيد عن عامين. وقالت والدة علاء وهي تمسك بذراع ابن أخيها الذي لا يزيد عمره عن عامين وتلفه ضمادة "هل هذا الطفل هو أحد أتباع الزرقاوي؟".

تهجير وتشريد أهل الفلوجة

أما عن طرد أهل الفلوجة وإجلائهم عن بيوتهم، فقد شاهد العالم الجنود الأمريكيين بكاميراتهم التي نقلت الصور عبر شاشات التلفزة ومنها قناة الجزيرة لامرأة عراقية وخلفها أمها العجوز داخل بيتهم والقوات الأمريكية تقتحمه في أول أيام عيد الفطر الذي صادف يوم 13 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 والمرأة ترجو الجنود الأمريكيين عبر المترجم العراقي الذي يصحبهم بعدما طلبوا منها إخلاء المنزل أن يتركوها يوماً واحداً فقط... وكررت قولها عليهم قائلة "أرجوكم يوماً واحداً فقط". ولا ندري هل تركوها أم هدموا المنزل على رأسها بعد ذلك...

والسؤال هنا: أما يدخل تهجير المدنيين من قراهم قسراً أثناء الحروب تحت نطاق جرائم الحرب؟

أي حق يعطي قوات احتلال أن تخرج المدنيين الآمنين من بيوتهم وأن تهجّر أهل مدينة بالكامل منها كما فعل الأمريكيون حيث جمعوا في 12 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 من تبقى من أهل الفلوجة من السكان المدنيين من الأطفال والنساء والعجائز في مسجد الفردوس ومسجد الفرقان ثم أخرجوهم من المدينة بصورة همجية، بينما اعتقلوا الرجال كما أفاد مراسل وكالة الأنباء الفرنسية.

ونقلت وكالة رويترز عن لاجئة أخرجت من بيتها من حي الجولان تدعى سارية عبد الكريم عبيس والتي أصبحت تعيش مع أهلها في خيمة أقيمت في أرض المعارض في مدينة بغداد بعدما هجرت قسراً من بيتها قولها: "لقد تشردنا بلا رحمة ولجأنا إلى المسجد وأرسلونا هم إلى هذا المخيم".

وقد أكد تقرير للأمم المتحدة نشرته وكالة رويترز للأنباء في 2 ديسمبر/ كانون الأول 2004 أن نحو 210 آلاف و600 شخص أي ما يزيد عن 35 ألف أسرة من أهالي الفلوجة فروا من المدينة ـ التي يقدر عدد سكانها بحوالي 300 ألف ـ إلى قرى وبلدات مجاورة خلال فترة الإعداد للهجوم الأمريكي الذي بدأ في الثامن من نوفمبر/تشرين الثاني 2004 على المدينة، وما زال كثير من هؤلاء خارج المدينة ولا يتوقع عودتهم قريباً، وأن كثيراً منهم بحاجة ماسة إلى المساعدة مع اشتداد الشتاء في العراق وانخفاض درجات الحرارة إلى حد التجمد. وقالت وثيقة وزعتها الأمم المتحدة بعنوان" مجموعة عمل طوارئ ـ أزمة الفلوجة: "إن العودة إلى الفلوجة ربما تستغرق شهوراً وليس أياماً كما أوحت لنا في السابق القوة المتعددة الجنسيات".

حرق المدينة وتدمير المساجد

أما صور الدمار الهائل الذي حل بالفلوجة والتي يتضح مما أتيح من صور فإنه قد حولها إلى مدينة أشباح، وقد اطلعت في نهاية نوفمبر/تشرين الثاني من العام

2004 على صور عبر الأقمار الاصطناعية لوكالات صور تقدم خدمات خاصة بدت فيها الفلوجة وكأن إعصاراً فيه نار قد أصابها فأصبحت قاعاً صفصفاً، رأيت أحياءها بصور جوية وأنا أعرفها بتفاصيلها من خلال تغطيتي للحملة العسكرية الأولى عليها في أبريل/نيسان 2004 م، فلم أجد إلا رماد الحرائق والخراب والدمار، ولا يكاد يوجد فيها بيت قائم على أصوله أو صالح للإقامة بعدما أباد الأمريكيون بشكل عشوائي معظم الأحياء من الجو والبر دون مراعاة لحرمة مسجد أو بيت.

وقد نشرت وكالة "قدس برس" تقريراً قالت فيه: إن عدد المساجد التي دمرت في الفلوجة التي توصف بأنها مدينة المساجد وصل في الأسبوع الأول من المعارك ـ أي في الفترة من 8 إلى 15 نوفمبر/تشرين الثاني ـ إلى أكثر من ثلاثين مسجداً. ودون أدنى خجل أكد الأمريكيون أن المسلحين كانوا يستخدمون المساجد كمواقع قتالية دون أن يقدموا أي دليل على ذلك حتى يقدموا تبريراً لعملية هدم المساجد التي تمت على نطاق واسع في المدينة.

أما عدد المنازل التي تضررت كما ذكر الصحفي الأمريكي ماركماننج 37 ألف منزل. فأي حق يعطي قوات احتلال أن تبيد مدينة بأكملها تقترب مساحتها من أربعين كيلو متراً مربعاً فلا تترك فيها حجراً على جحر كما قال الكولونيل الأمريكي مايكل شوب: "لن ندع فيها حجراً على حجر".

والسؤال هنا: أما تندرج عملية التدمير والإبادة هذه في نطاق جرائم الحرب؟

تجويع أهل الفلوجة ومنع المساعدات عنهم

أليس منع قافلة الهلال الأحمر العراقي التي تحمل المساعدات والمؤن الطبية من دخول المدينة وتعمّد تجويع مئات العائلات من المدنيين الذين بقوا داخلها واضطرارهم لأكل الأغذية الفاسدة التي ربما أدت إلى موت بعضهم حسب تصريحات مسؤولين في منظمات إنسانية وصحفيين عاشوا الحصار والمعركة.

والسؤال هنا: أما يدخل ذلك في إطار جرائم الحرب؟

استخدام الأسلحة المحرمة دولياً

الاتهام الخطير الذي وجهته هيئة علماء المسلمين للقوات الأمريكية في بيان صدر في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 بأنها استخدمت أسلحة كيماوية في هجومها على الفلوجة - والذي أكدته محطة تليفزيون راي الإيطالية في فيلم بثته في نوفمبر/تشرين الثاني 2005 والذي سبق أن أشرنا إليه من أن القوات الأمريكية استخدمت الفوسفور الأبيض في حرق المدينة وأهلها واعتراف القوات الأمريكية بذلك - أما يعتبر انتهاكاً لكل قوانين الحروب؟ لا سيما وأن وكالة "قدس برس" للأنباء نقلت تقريراً نشرته في 10 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 عن مصدر طبي في مدينة الفلوجة أنه "يؤكد بالدليل القاطع أن القوات الأمريكية استعملت في معركتها ضد حي الجولان أمس أسلحة محرمة"، وأكد المصدر لوكالة "قدس برس" أنه "تم العثورعلى جثث لمقاتلين عراقيين وقد تفحمت بالكامل، فيما عثر على جثث أخرى دون أن يكون بها أي أثر لجروح أو إصابة مما يرجح أنها قتلت بواسطة غازات سامة".

وقد كشف الفيلم الذي أعدته محطة التليفزيون الإيطالية "راي" والذي بثته في 8 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2005 بمناسبة مرور عام على معركة الفلوجة الثانية صدق هذه الأقوال، بل أبرزت ما هو أكثر من هذه الفظائع، واعترف الأمريكيون باستخدام قنابل الفوسفور الأبيض، وهذا أحد الأسلحة التي كُشفت ولا زال كثير من الأسلحة التي استُخدمت غامضاً.

وكانت "قدس برس" قد نشرت تقريرين قبل هذا التقرير في الثامن والتاسع من نوفمبر/تشرين الثاني 2004؛ الأول نقلت فيه عن مقاومين في المدينة أن القوات الأمريكية استخدمت قنابل النابلم المحرمة دولياً في قصف الأحياء التي تتركز فيها المقاومة. والثاني نقلت فيه عن مصادر المقاومة أن القوات الأمريكية استخدمت على نطاق واسع الأسلحة الكيماوية والغازات السامة ضد المدافعين عن مدينة الفلوجة، وأن عشرات الجثث شوهدت في الأحياء الشمالية للمدينة.

ونقلت عن طبيب عراقي طلب عدم الكشف عن اسمه قوله: "إن القوات الأمريكية ألقت غازات كيماوية وغاز الأعصاب على المقاومين، مما أدى إلى إصابة العديد منهم بحالة من الهيستريا حيث جعلت بعضهم يتمرغون على الأرض وهم في وضع مزر جداً".

ونقلت عن بعض المقاومين الذين شاركوا في معارك حي الجولان قولهم: "إن القوات الأمريكية ألقت العديد من الغازات السامة، قسم منها يجعل الجلد يحترق دون أن تنفع الأساليب البدائية للمقاتلين في وقف تأثير تلك الغازات".

وكانت الكاميرات التلفزيونية قد نقلت في الليلة الأولى للهجوم الأمريكي على الفلوجة في 8 نوفمبر/تشرين الثاني 2004 صور قنابل مضيئة في سماء المدينة اعترفت القوات الأمريكية فيما بعد أنها قنابل فسفورية، وأطلقت عليها اسم "الأولاد الطوال". وفي مقابلة مع قناة الجزيرة مساء التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني 2004 أكد الخبير العسكري الأمريكي هارلمان أولمان أن القنابل الفسفورية من الأسلحة المحرمة دولياً.

لقد هزمت الفلوجة جورج بوش وجنوده ومشروعه الأمبراطوري في العراق والعالم في شهر أبريل/نيسان من العام 2004، لذلك قرر الانتقام في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 من الفلوجة وكل أهلها ومساجدها حتى من الحجر والشجر، لكن ذلك لم يغير من حقيقة هزيمة أمريكا في العراق شيئاً بل رسّخها وجعلها حقيقة واضحة للعيان أمام الجميع، فسوف يذهب بوش مهزوماً وسوف يعيد أهل الفلوجة بناء كل ما هدمه بوش من جديد وستبقى على مدار التاريخ المدينة التي هزمت بوش وجنوده.

الإدانة القانونية للجرائم الأمريكية

رغم أني لم أقف عند كل أنواع الجرائم التي ارتكبتها أو ترتكبها القوات الأمريكية في العراق وإنما فقط عند بعضها، إلا أن السياسي البريطاني المخضرم توني بن أحد زعماء حزب العمال والمعارض للحرب على العراق ولسياسة بوش وبلير وسبق لي أن استضفته في برنامجي "بلا حدود" في 26 سبتمبر/أيلول من

العام 2001، كما زرته في بيته في لندن ودار بيني وبينه حوار طويل حول التجاوزات التي تقوم بها الإدارة الأمريكية في العراق والمنطقة. هذا الرجل أرسل خطاباً موقعاً من ألف شخص من الشخصيات العامة في بريطانيا رصد فيه 28 خرقاً للاتفاقات الدولية الخاصة بجرائم الحرب ارتكبتها القوات الأمريكية والبريطانية في العراق منها ما قاموا به في الفلوجة.

وقالت صحيفة الأندبندت البريطانية التي أوردت الخبر في عددها الصادر في 18 مارس/آذار 2006 أن الخطاب الذي أعده بن قد أرسل إلى البرلمان البريطاني والأمم المتحدة، وأن المنظمة الدولية ردت على بن بأنها تأخذ المخالفات التي سردها في التقرير والتي وصفت بأنها جرائم حرب باهتمام بالغ.

والسؤال الكبير هنا: من الذي سيحاسب بوش وإدارته وجنوده عن جرائم الحرب التي ارتكبوها في الفلوجة؟

الفصل التاسع

الهزيمة الاستراتيجية والسياسية لبوش وجنوده

بعد معركة الفلوجة الأولى في أبريل/نيسان 2004 أخذت وسائل الإعلام الغربية البريطانية والأمريكية منها على وجه الخصوص تكشف يوماً بعد يوم مزيداً من المعلومات المسرّبة حول حجم التخبط الهائل في الاستراتيجية الأمريكية تجاه العراق.

ولعل التقرير الذي نشرته صحيفة الغارديان البريطانية على مدى يومي 13 و14 مارس/آذار 2006 نقلاً عن كتاب أعده كل من مايكل جوردون والجنرال برنار ترينور تحت عنوان "كوبرا 2 خفايا قصة غزو العراق واحتلاله" والذي نشرت طبعته العربية بعد ذلك الدار العربية للعلوم في بيروت في العام 2007، يعطي كثيراً من التفصيلات عن حجم الفوضى الهائلة لدى صانع القرار الأمريكي منذ اليوم الأول لقرار الحرب.

فقد أشار الكاتبان من خلال معلومات ومذكرات ومراسلات سرية تمكّنا من الحصول عليها عن حجم التضارب والخلافات الكبيرة بين الجنرالات الأمريكيين حول الاستراتيجية العسكرية التي كان يجب عليهم أن يعتمدوا عليها غداة اجتياح بغداد، مما جعل وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد ـ الذي كان يبدو دائماً مشوشاً وزائغ العينين في مؤتمراته وأحاديثه ـ يقول في مجالسه الخاصة إنه "فقد الصبر مع جنرالاته" الذين كان واقعهم حسب ما أورد الكاتبان "دائم التشنج والاختلاف في كثير من الأحيان".

وقد نشر الكاتبان كثيراً من الرسائل التي أرسلها المبعوث الخاص لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير إلى بغداد بعد غزو العراق واحتلاله مباشرة في أبريل/نيسان من العام 2003 وهو الدبلوماسي البريطاني جون سويرز - الذي شغل بعد ذلك منصب مدير الشؤون السياسية في وزارة الخارجية البريطانية - حيث حذّر في رسائله التي أرسلها خلال شهري مايو/أيار ويونيو/حزيران من نفس العام 2003 من الفوضى العارمة التي تجتاح العراق، وافتقاد القادة الأمريكيين أي رؤية استراتيجية للتعامل مع واقع العراق. وقال سويرز في أول رسالة أرسلها إلى توني بلير بعد أربعة أيام من وصوله إلى بغداد في شهر مايو/أيار من العام 2003 أنه "لا وجود لقيادة ولا لاستراتيجية، ولا لتنسيق ولا لبنية أساسية، ولا إمكانيات للتواصل مع العراقيين العاديين".

كما وصف الجنرال المتقاعد جاي غارنر أول حاكم أمريكي للعراق بعد احتلاله أن: "غارنر وفريقه من الجنرالات المتقاعدين الذين تجاوزوا الستين نياتهم حسنة، لكن الأحداث تتجاوزهم".

وهنا أذكر أنه من خلال تجربتي الشخصية أثناء تغطيتي الأحداث في العراق بشكل عام والفلوجة بشكل خاص بين عامي 2003 و2004 أن معظم المستشارين الذين جلبهم الجنرال جارنر ومن بعده بول بريمر كانوا من الجنرالات المتقاعدين أو الدبلوماسيين الأمريكيين الذين عملوا في العراق أو المنطقة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، أي أن بينهم وبين الواقع الحالي للعراق والمنطقة فجوة زمنية ومكانية هائلة وأن والزمن قد تجاوزهم بمراحل كبيرة. كما أنهم لم يكونوا سوى مجموعة من الأصدقاء والمنتفعين بشكل أساسي، وحتى الصغار منهم كانوا لا يدركون شيئاً عن واقع المنطقة، ولم تكن هناك أية معايير تقوم على الخبرة أو التخطيط الاستراتيجي في الاختيار. ولعل هذا ما جعل مشروع غارنر يفشل في أسابيعه الأولى.

لكن خليفته بريمر لم يكن أحسن حالاً منه، ومن يطلع على كتابه الذي صدرت طبعته العربية عن "دار الكتاب العربي في بيروت" في نفس وقت صدور طبعته الإنجليزية في العام 2006 يستطيع أن يدرك حجم التخبط الهائل وعدم الرؤية التي سيطرت على العام الذي قضاه بريمر في العراق، والذي كان عام

الكوارث حيث استدعي عدة مرات أمام جلسات استماع في الكونغرس ولا زال يستدعى لاستجوابه حول الفساد الهائل والدمار الشامل الذي قام به في كل مناحي الحياة في العراق خلال العام الذي كان حاكماً بأمره فيه.

جهل بريمر بالعراق وأهله

وحتى نكون قريبين من الأسلوب الكارثي الذي كان يدير به بول بريمر العراق، فقد طلبت من أحد مساعديه المقربين عبر اتصال قمت به من مكتب الجزيرة في بغداد إجراء مقابلة مع بريمر أثناء وجودي في العراق في شهر مارس/آذار من العام 2004، ودارت مفاوضات استمرت عدة أيام بيني وبين أحد مدراء مكتبه من الأمريكيين من أصل عربي - وقد علمت أنه عمل بعد ذلك قنصلاً في إحدى السفارات الأمريكية في دولة عربية - عندها بدأت أجمع معلومات عن بريمر وأعد للمقابلة التي كانت محتملة لا سيما وأنه أبلغني بموافقة بريمر على أن يكون الحوار نصف ساعة فقط. لكني قلت له: إن برنامجي مدته ساعة ولا أقبل بأقل من ذلك. وأثناء قيامي بجمع المعلومات عن بريمر روى لي أحد الزملاء الصحفيين العرب المقيمين في بغداد آنذاك أنه ذهب في شهر سبتمبر/أيلول من العام 2003 لإجراء حوار مع بول بريمر وكان مخصصاً لهذا الحوار نصف ساعة، لكنه فوجيء ببول بريمر يسأله عن رؤيته لواقع القوات الأمريكية في العراق وكيفية التعامل مع العراقيين وغير ذلك من الأمور الأخرى التي كانت تنم عن سطحية كبيرة لدى الحاكم الأمريكي للعراق عن العراق وتاريخه وسكانه وأهله.

يقول الزميل: "فأخذت أشرح له حجم الأخطاء الهائلة التي يرتكبها الأمريكيون في العراق سواء في عدم فهمهم لطبيعة الشعب العراقي أو في تخبطهم الاستراتيجي وعدم وجود رؤية واضحة لديهم في سياستهم أو قراراتهم، وأنه كان يجب عليهم أن يدرسوا الشخصية والنفسية العراقية بعمق، حتى يعرفوا كيف يتعاملون معها بدلاً من هذا التخبط والعنجهية وقيام تيارات قوية للمقاومة في معظم أنحاء العراق رافضة لهم ولوجودهم".

ويضيف الزميل: "بقيت أتحدث ما يقرب من ساعة ونصف وبريمر ينصت،

وتحوَّل اللقاء إلى أن بريمر كان يسأل وأنا أجيب، وعجبت من أن أسئلته كانت أسئلة الجاهل الذي لا يعرف، وكنت أعتقد أن الرجل الذي يمثل أمريكا بأجهزة مخابراتها ومراكز دراساتها وهيمنتها على العالم من المؤكد أنه أكثر الناس خبرة بالبلد الذي جاء لحكمه لكني وجدت رجلاً سطحياً إلى حد بعيد. وفي النهاية فوجئت ببول بريمر يقول لي وهو جاد: "هل تقبل أن تعمل مستشاراً عندي"؟ فصدمني العرض واعتذرت على الفور".

هذه العقلية المتخبطة التي جاءت من وراء البحار وهي لا تعلم شيئاً عن واقع العراق ولا طبيعة أهله، هي التي جعلت الجنرال البريطاني ألبرت وايتلي أعلى ضابط بريطاني عمل مع الأمريكيين يرسل مذكرة عاجلة لقادته في بريطانيا بعد عدة أسابيع من مشاركته في الحرب على العراق واحتلالها ليقول لهم حسب ما ذكره جوردون وترينور في كتابهما " كوبرا 2 ": "قد نكون انزلقنا إلى المشاركة في أمر سنندم عليه".

لكن رئيس الوزراء البريطاني توني بلير لم يعلن ندمه حتى الآن، ولم ينصت إلى شيء مما قاله جنرالاته ومساعدوه، لأنه - كما ذكر في أكثر من خطاب برر فيه ما يفعله - كان مع الرئيس بوش ينفذان أمراً ربانياً، وقد تحدث بوش عن حقيقة الوضع في العراق في حفل خاص نشرت صحيفة "الشرق الأوسط" جانباً منه في 15 مارس/آذار 2006 قال فيه إنه: "يتوقع المزيد من صور الفوضى والاضطرابات والمذابح في العراق خلال الشهور المقبلة". هذه بعض جوانب الاستراتيجية الأمريكية في العراق... استراتيجية الفوضى.

خطط "الافتراضات الوهمية"

في 15 فبراير/شباط من العام 2007، أظهرت وثائق سرية كُشف عنها النقاب لأول مرة، وأشارت إليها شبكة بي بي سي البريطانية ونشرتها في موقعها على شبكة الإنترنت أن الخطة التي رسمتها الولايات المتحدة لغزو العراق افترضت أنه لن يكون في العراق أكثر من خمسة آلاف جندي، وذلك بحلول شهر ديسمبر/كانون الأول 2006.

وأظهرت الوثائق التي يعود تاريخها - حسب بي بي سي - إلى شهر أغسطس/آب من العام 2002 أي قبل شن الحرب على العراق بثمانية أشهر، أن الولايات المتحدة "توقعت أن تجعل من العراق حليفاً يتمتع بالاستقرار والديمقراطية قبل نهاية العام 2006".

وأشار توماس بلانتون المدير التنفيذي لأرشيف الأمن القومي وهو مركز بحثي مستقل يتبع جامعة جورج واشنطن الأمريكية، وهو الذي حصل على هذه الوثائق بموجب قانون "حرية تداول المعلومات" إلى أن الخطط الأمريكية لاحتلال العراق بنيت على "افتراضات وهمية"، رغم أن هذه الخطط أعدت من قبل كبار القادة العسكريين الأمريكيين آنذاك ومن بينهم الجنرال تومي فرانكس، - المتقاعد في الوقت الحالي والذي نشر مذكراته تحت عنوان "جندي أمريكي" - وأشارت الخطة إلى أن العراق سوف يدخل في مرحلة عدم استقرار لن تزيد عن شهرين أو ثلاثة أشهر بعد انتهاء عمليات القتال الرئيسية، تتبعها مرحلة تطبيع تستمر بين عام ونصف العام إلى عامين، كما توقعت الخطة أن يتم إعادة نشر القوات الأمريكية خارج العراق بنهاية "مرحلة انتقالية" مدتها خمسة وأربعون شهراً من تاريخ الغزو.

وأضاف بلانتون في مقال نشره على الإنترنت ونقلته بي بي سي أن: "الخطة بنيت على افتراضات غير واقعية بالمرة بشأن عراق ما بعد صدام حسين.. لقد توقعوا أن تقام حكومة انتقالية وأن يظل العراقيون في ثكناتهم ويصبحوا شركاء يمكن الاعتماد عليهم وأن ينتهي الاقتتال بمرور عدة شهور". ثم يؤكد بلانتون في نهاية تعليقه على الخطة قائلاً: "كان كل ذلك وهماً".

ورغم أن كثيراً من المحللين والكتاب والمراسلين ومراكز الدراسات والأبحاث والتقارير السرية قد سبقوا ما حصل عليه بلانتون وأعلنه عن وهم التخطيط الأمريكي وفوضى الاستراتيجية، فقد أكد كثيرون منذ بداية الاحتلال في تقارير متناثرة على أن العراق في طريقه إلى الفوضى الشاملة، ولم يكن أمام الرئيس الأمريكي بوش بدّ من الاعتراف بذلك.

بوش يعترف بالفوضى والهزيمة

كان المميز في الفترة التي سبقت نشر الوثائق التي أعلن عنها أرشيف الأمن القومي في منتصف فبراير/شباط من العام 2007، هو ما حدث في الذكرى الثالثة للغزو والاحتلال الأمريكي للعراق، وتحديداً في أبريل/نيسان من العام 2006، حيث جاء الاعتراف بهذا الواقع على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش نفسه، وكذلك على لسان كبار المحافظين الجدد الذين صنعوا هذه الحرب، وسعروها وأوصلوا العراق والمنطقة إلى أسوأ الأوضاع، ولم يكن اعتراف الرئيس الأمريكي بوش بالفوضى العارمة التي ستجتاح العراق خلال الأشهر القادمة في مرة واحدة أو احتفال خاص أشرنا إليه من قبل فقط، بل إنه ذكر ذلك مراراً ولكن بأشكال وعبارات مختلفة، منها ما ذكره في 21 سبتمبر/أيلول 2004 بعد الإعلان عن قيام الإدارة الأمريكية بسحب أموال من صندوق الطوارىء من أجل تمويل الحرب حيث اعترف بوش بأن: "مهمة الولايات المتحدة في العراق صعبة في ظل محاولة بعض الأطراف داخل العراق وقف المسيرة الديمقراطية وإجبار القوات الأمريكية على الانسحاب".

ولعل رسالته الإذاعية الأسبوعية التي بثت في 11 مارس/آذار 2006 والتي اعترف فيها بأن: "الوضع في العراق لايزال متوتراً" وأن الإدارة: "ستأخذ عمليات الاختطاف الجديدة والإعدام مأخذ الجد" وتأكيده على: أن "أمن بلادنا مرتبط مباشرة بحرية الشعب العراقي، وهذا يقتضي مزيداً من الأيام الصعبة من القتال والتضحيات الجديدة، غير أني واثق من أن استراتيجيتنا ستحقق النصر في النهاية"، ولم تمض أيام على الخطاب حتى أعلن البيت الأبيض في 16 مارس/آذار 2006 عن "الخطة الاستراتيجية الجديدة للأمن القومي"، وهي لم تختلف كثيراً عن الاستراتيجية التي قادت إلى الكوارث والفوضى التي غرق فيها العراق منذ أول يوم للاحتلال، ولم تكن في مجملها سوى تأكيد على خطة الضربات الاستباقية، والحرب الوقائية.

التدليس في تقرير بيكر هاملتون

وقد واكب هذا الاعتراف من الرئيس الأمريكي بوش بتفشي الفوضى في العراق إعلان المعهد الأمريكي للسلام في 15 مارس/آذار 2006 عن تشكيل لجنة حكماء مستقلة تكلف بدراسة السياسة الأمريكية وتقييم الوضع في العراق.

وشُكِّلت هذه اللجنة بتكليف من الكونغرس وضمت عشر شخصيات نافذة، وكانت مناصفة بين الجمهوريين والديمقراطيين، ورأسها كل من وزير الخارجية الأمريكي السابق جيمس بيكر والنائب السابق لي هاملتون الذي سبق وأن رأس لجنة التحقيق المستقلة في أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وقد شارك عدد من مراكز الأبحاث والدراسات في عمل هذه اللجنة التي قامت بتقييم الوضع الحقيقي للسياسة الأمريكية في العراق، منها: مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، ومركز الدراسات التابع للبيت الأبيض، وجامعة رايس في تكساس، ومعهد جيمس بيكر للإدارة.

وقبل أن ينقضي العام 2006 أصدرت لجنة بيكر هاملتون تقريرها في السادس من ديسمبر/كانون الأول عام 2006، ولكن كيف كانت خلاصة هذا التقرير؟

"الوضع في العراق خطير وفي تدهور.. وإذا استمر هذا الوضع فستكون العواقب قاسية. فالانزلاق نحو الفوضى سيمثل شرارة انهيار الحكومة ويأذن بكارثة إنسانية. ويتعيَّن تدخل الدول المجاورة.... الصراعات بين السنة والشيعة قد تتسع دائرتها.... القاعدة قد تنتصر دعائياً وتوسع من قاعدة عملياتها..... الوضع الدولي للولايات المتحدة يمكن أن يشهد انحساراً".

هذه بعض الفقرات التي وردت في تقرير مجموعة "دراسات العراق" أو تقرير "بيكر ـ هاملتون" كما أطلق عليه. وقد أثار هذا التقرير ردود فعل واسعة النطاق حول مستقبل الوجود الأمريكي في العراق، ورغم الحرج البالغ والإدانة القاسية التي حملها التقرير للرئيس الأمريكي جورج بوش وحكومته، إلا أنه أغفل الحديث عن الأعمال الوحشية والانتهاكات بل وجرائم الحرب التي ارتكبتها وترتكبها القوات الأمريكية في العراق، ولم يكن ـ كما قال كثير من المراقبين ـ

سوى بمثابة هدنة داخلية تتيح للرئيس بوش أخذ أنفاسه لترتيب الانتخابات الرئاسية القادمة في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2008، والبحث عن مخرج مشرف من العراق يجنب إدارته الإعلان بشكل رسمي عن الهزيمة.

فالتقرير الذي يحذر من "الانزلاق نحو الفوضى" يؤكد أن واضعيه إما يدارون أو يدلسون أو لا يدركون - وهذا أمر مستبعد - الحجم البالغ القائم فعلًا للفوضى في العراق، حيث يُقتل شهرياً ما يزيد على أربعة آلاف عراقي بطرق وحشية، سواء على أيدي الأمريكيين أو على أيدي المليشيات التي شاركت في صناعتها الولايات المتحدة ثم تركتها من البداية تعمل ما تشاء. كما يتحدث التقرير عن احتمالات كارثة إنسانية، والتساؤل البسيط هنا هو: هل هناك كارثة أكبر من التي يعيشها العراقيون الآن في كافة مناحي الحياة؟ وهل هناك كارثة أكبر من أن يفقد الإنسان الأمن ويعيش في ظلال هذه الوحشية التي صنعها الاحتلال أو تسبب فيها؟ كما أنه يشير إلى تدخل الدول المجاورة، وأي تدخل مرتقب وهناك دول متدخلة بقدّها وقديدها، بل وغارقة تماماً في مستنقع العراق؟

ورغم أن بعض الذين تناولوا التقرير هللوا له و أشادو به إلا أن كثيراً من المراقبين الذين يجيدون قراءة ما بين السطور، اعتبروا أن الذين أعدوا الدراسة من الجمهوريين وعلى رأسهم وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر أو الديمقراطيين وعلى رأسهم النائب السابق لي هاملتون أكدوا من خلال ذلك التقرير أنهم لم يفهموا الأوضاع بدقة في العراق، أو تجاهلوا ذكرها إن كانوا قد علموها. ومن ثم فهم بشكل أو بآخر شركاء في عملية التدليس والتضليل التي تتم من قبل كثير من المسؤولين الأمريكيين منذ ما قبل احتلال العراق وحتى الآن، وأن حرصهم الكامل هو عدم تعرية بوش وإدارته رغم أن كثيرين قرروا عدم الاستمرار في مسلسل الخيانة للشعب الأمريكي على الأقل.

كما أكد هؤلاء الذين انتقدوا التقرير وكثير منهم من الكتاب والمحللين الغربيين أن معدي التقرير لم يعملوا إطلاقاً في تقريرهم للبحث عن مصالح العراقيين أو أوضاعهم، وإنما الهدف الأساسي لهم كان هو السعي لإنقاذ الولايات المتحدة من تلك الورطة الكبيرة التي تكلف الخزينة الأمريكية تكاليف

باهظة تفوق كل ما كان متوقعاً دون إحراز أي نتائج، بل إن الأمر وصل إلى حد الاعتراف بعدم تحقيق أي نصر، مما يعني أن أمريكا تعيش الآن بالفعل حالة الهزيمة.

فتكاليف الحرب كما أشارت صحيفة الغارديان البريطانية في عددها الصادر في 7 ديسمبر/كانون الأول 2006 بلغت حتى هذا الوقت بالنسبة للولايات المتحدة 400 مليار دولار، أما التكلفة الشهرية فهي 8 مليارات دولار، أما حجم المبالغ المخصصة لإعادة إعمار العراق والتي اجتُزئت من عوائد النفط العراقي فقد بلغت 34 مليار دولار لم يتم توجيه معظمها للإعمار، وإنما للترتيبات الأمنية التي هي منهارة بالفعل.

أما التكاليف النهائية المتوقعة للحرب حسب رأي كثير من الخبراء الأمريكيين فهي تصل إلى ألفي مليار دولار، وهي شاملة لكل التكاليف المستقبلية النهائية للحرب التي تشمل المعدات العسكرية ورعاية الجرحى والنفقات الطبية الطويلة المدى لهم، لا سيما وأن بعض الجرحى يعيشون في المستشفيات العسكرية بسبب جراحهم البليغة، والمحاربين القدماء الذين يعودون للولايات المتحدة وهم يحملون كثيراً من الأمراض النفسية والاجتماعية وعائلات القتلى الذين يدفنون دون أي مراسيم عسكرية وكأنهم مجرمين كما يقول أهاليهم وليسوا أبطالاً كما يصفهم بوش دائماً في خطاباته.

وفي اليوم التالي لنشر التقرير، 7 ديسمبر/كانون الأول 2006، سارع رئيس الوزراء البريطاني آنذاك توني بلير الحليف الأول لجورج بوش بالسفر إلى واشنطن ليدعم بوش الذي بدا محبطاً ومحطماً بعد صدور التقرير، وليتحدثا من جديد في مؤتمر صحفي عقداه سوياً عن خطة جديدة للسلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، هذا في الوقت الذي يُحاصر فيه الشعب الفلسطيني منذ شهر مارس/آذار 2006 لإسقاط حكومة حماس التي تم انتخابها بالديمقراطية التي ادعى بوش أنه جاء ليبشر بها وينشرها في الشرق الأوسط.

ولم يكن طرحهم سوى محاولة جديدة للهروب إلى الأمام من نذر الهزيمة التي تلاحقهم في العراق وأفغانستان، ولانهيار مشروعهم لتغيير وجه المنطقة وثقافتها بل وحتى دينها، فالحرب الصليبية التي أعلنها بوش عشية حربه على

العراق لم تكن زلّة لسان على الإطلاق كما أكد على ذلك كثير من المراقبين، لكنه الآن يريد جني ثمارها هو وحليفه بلير.

إن من يقرأ تقرير مجموعة "دراسات العراق" ويتفحص توصياته لا يجده برمته سوى تنفيس للوضع الداخلي في الولايات المتحدة أكثر منه مشروعاً لإخراج أمريكا من ورطتها أو لحل الوضع المتأزم جداً في العراق.

لكن أهم ما في هذا التقرير أنه حمل نعياً واضحاً لمشروع بوش والمحافظين الجدد لنشر أفكارهم ومبادئهم في العالم، وحمل حالة من الهزيمة الاستراتيجية والسياسية تعيشها الولايات المتحدة ستكون دون شك مسماراً في نعش الأمبراطورية.

وقد جاء تشكيل هذه اللجنة في مارس/آذار عام 2006 بعد ضغوط هائلة من الرأي العام الأمريكي ومن قيادات بارزة داخل الإدارة والكونغرس الذين قسا بعضهم في أسئلته التي وُجِّهت لوزير الدفاع الأمريكي آنذاك دونالد رامسفيلد الذي كان مشوشاً كالعادة في ردوده على أسئلة المشرعين، وبدا ذلك في مشهد نادر الحدوث جمعه إلى جوار وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس أمام لجنة استماع في مجلس الشيوخ الأمريكي، في 8 مارس/آذار 2006، دارت أسئلتها حول ما آل إليه الوضع في العراق، حيث قال رامسفيلد بوضوح: "إن الوضع يمكن أن يقود إلى حرب أهلية".

وهذا كما يقول المراقبون نتاج طبيعي للسياسة الأمريكية في العراق التي قامت على المحاصصة الطائفية من البداية، كما أن إشعال الحرب الأهلية هو أفضل مخرج لعدم إعلان الهزيمة العسكرية والسياسية بشكل رسمي، لكن رامسفيلد لم يعتبر في ثنايا كلامه أن هذه مشكلة، ولكن المشكلة من وجهة نظره كانت وضع القوات الأمريكية التي قال: إنها لن تتدخل في حال نشوب هذه الحرب وإنما ستترك الأمر للقوات العراقية.

وكان رامسفيلد يشير من خلال ذلك إلى سيناريو مرعب يمكن أن ينجر إليه العراق، بل إن الأمريكيين جروا العراق إليه من أول يوم لاحتلاله، وهو التقسيم الطائفي الذي قاد بالفعل إلى حرب طائفية.

وقد جاءت شهادة رامسفيلد في نفس اليوم الذي نشر فيه استطلاع أمريكي للرأي نشرته صحيفة "الغارديان" البريطانية جاء فيه أن 80% من الشعب الأمريكي يعتقدون أن الحرب الأهلية في العراق ممكنة الحدوث.

ورغم محاولات السفير الأمريكي في العراق آنذاك زلماي خليل زاد إنقاذ ما يمكن إنقاذه من السياسات الأمريكية المتخبطة، واعترافه ضمناً في حوار أجرته معه صحيفة "الحياة" ونشرته في 12 مارس/آذار 2006 أن من سبقوه في إدارة شؤون العراق ارتكبوا أخطاء فادحة يسعى هو لتصويبها، دون أن يشير بأصابع الاتهام لأحد، فقد انتقد سياسة المحاصصة الطائفية التي ابتكرها الحاكم السابق بول بريمر والانحياز الأمريكي الواضح لشيعة العراق، وقال إنه يسعى لتصويب ذلك عبر إقامة حكومة غير طائفية، كما انتقد عملية اجتثاث البعث، واعترف جزئياً بالمقاومة العراقية، وبالمفاوضات السرية التي تتم معها، وقال عن الحوار مع المقاومة: "إننا نتحاور مع الأشخاص المسلحين الذين يريدون مصلحة العراق والخير له، ولأنهم يطرحون عدداً من الملاحظات حول الحكومة وحول وجودنا، ونقول لهؤلاء إننا لا نريد حرباً دائمة". كما عبر عن عمق المأزق الأمريكية في العراق حينما أكد على ما كان قد ذكره من قبل حول أن دخول الأمريكيين للعراق قد فتح باباً للكوارث فقال: "إن عملية تغيير نظام في بلد مثل العراق عملية معقدة وليست بالسهلة، وأود أن يفهم الشعب الأمريكي أن ما نحاول القيام به في العراق صعب جداً".

هذا الاعتراف واكبه اعترافات أخرى أكثر جرأة وقوة بالورطة بل والهزيمة الأمريكية في العراق من سدنة المحافظين الجدد الذين دعا كثير منهم إلى شن الحرب على العراق...

المحافظون الجدد يعترفون بالهزيمة

في عددها الصادر في 7 فبراير/شباط 2006 نشرت مجلة "نيوزويك" الأمريكية تقريراً مطولاً تحت عنوان "تمرد في القصر" أشارت فيه بالأسماء والوظائف إلى بعض أبرز قيادات المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الذين تمردوا على سياسة جورج بوش ـ رغم أنهم شاركوا في صناعتها ـ وذلك بعدما رأوا أن

منحه صلاحيات مطلقة أدى إلى قيادة الولايات المتحدة والعالم إلى هذا الواقع المدمر الذي يعيشه الجميع. حتى إن كثيرين منهم استقالوا وتركوا وظائفهم الحكومية وعادوا مرة أخرى إلى وظائفهم الأكاديمية بعدما فشلوا في كبح جماح موظفي مكتب نائب الرئيس ديك تشيني الذين يلعبون الدور الأساسي في تعديل القوانين وإطلاق يد البيت الأبيض ومنحه صلاحيات مطلقة داخل الولايات المتحدة وخارجها فيما يسمى بالحرب على الإرهاب، شملت قوانين أباحت التعذيب والتنصت والاعتقال دون توجيه تهمة.

وقد كشفت تقارير كثيرة نُشرت خلال السنوات القليلة الماضية فضائح لا نهاية لها عما يرتكب ضد الإنسانية من خلال القوانين الأمريكية الجديدة التي تجاهلت كل مبادىء الحق والعدل التي زعم الأمريكيون أنهم أقاموا عليها مجتمعهم، حيث قام الكاتب الأمريكي جيمس بوفارد بجمعها في كتاب أثار ضجة كبرى في الولايات المتحدة حينما صدر تحت عنوان "خيانة بوش".

وقد التقيت بوفارد وأجريت معه حلقة في برنامجي "بلا حدود" في 17 مايو/أيار من العام 2006، وقد تحدث معي في أكثر من جلسة مطولة عقدتها معه حينما التقيت به في لندن عن حجم التعتيم الذي حاولوا فرضه على كتابه الذي طبع عدة مرات وتُرجم إلى كثير من اللغات منها اللغة العربية التي نشرت طبعتها الدار العربية للعلوم في بيروت.

وقد كشف بوفارد عملية التزييف والتضليل الهائل التي يقوم بها بوش وإدارته للرأي العام الأمريكي، وحجم التجاوزات الهائلة التي يقومون بها حتى للقوانين الأمريكية، وكان من أبرز هؤلاء المتمردين على إطلاق يد الرئيس المدعي العام جيمس كومي الذي استقال من منصب نائب وزير العدل في صيف العام 2005، لكن سبقه مساعد لوزير العدل آخر يدعى جاك جولد سميث كان رئيساً لمكتب الاستشارات القانونية في وزارة العدل حتى ترك منصبه في صيف العام 2004، بعدما قضى الفترة من أكتوبر/تشرين الأول 2003 إلى يونيو/حزيران 2004 في محاولة للجم الإدارة الأمريكية عن منح الرئيس صلاحيات بلا حدود تتجاوز القانون والدستور، لكنه في النهاية آثر الاستقالة والعودة إلى التدريس في الجامعة بعدما فشل في كبح جماحهم.

ولأن وزارة العدل كانت هي المحضن لكثير من المحافظين الجدد حيث كان يقام صباح كل يوم قداس يحضره معظم هؤلاء في مكتب وزير العدل الأمريكي السابق جون أشكروفت الذي كان من أشد المحافظين الجدد دعماً لسياسة بوش وحربه على العراق وعلى ما يسمى بالإرهاب، وفي عهده صيغت معظم القوانين سيئة الذكر التي انتهكت الحقوق وتجاوزت الحدود. كما أن خليفته غونزاليس لم يكن أحسن حالاً منه، فقام بفصل سبعة من كبار المدعين العامين في الوزارة بسبب معارضتهم لبوش وإدارته مما أوقع غونزاليس في إشكالية كبيرة سيطرت على إدارة بوش في الذكرى الرابعة لغزو واحتلال العراق في أبريل/نيسان من العام 2007 حيث قدم الكونغرس عدة استجوابات لغونزاليس حول التجاوزات التي قام بها، ورغم أنه أصبح بعد هذه الاستجوابات تحت التهديد بالاستقالة إلا أن بوش عبر عن دعمه الكامل له بعدما أصبح رجاله يتساقطون من حوله الواحد تلو الآخر.

لكن يبدو أن حجم التجاوزات التي يقوم بها بوش وإدارته فاق الخيال مما جعل مؤيديه أو رجال القصر كما وصفتهم مجلة "نيوزويك" يتمردون، وجعل شعبيته تنخفض في استطلاعات الرأي المتتابعة إلى حد كبير.

قادة المحافظين الجدد يعترفون بالهزيمة

في عددها الصادر في 9 مارس/آذار 2006 خصصت صحيفة "الأندبندنت" البريطانية صفحتيها الأوليين ووضعت لهما عنواناً رئيسياً هو "هلاّ أنصت سيادة الرئيس؟" والرئيس طبعاً هو الرئيس جورج بوش "رئيس الحرب" كما أطلق على نفسه حسبما نشرت مجلة "نيوزويك"، وقد أوردت "الأندبندنت" أقوالاً وتصريحات لخمسة من كبار المحافظين الجدد الذين شجعوا بوش في حربه على العراق، وكيف أنهم بعد ثلاث سنوات قد انقلبوا على بوش وإدارته وعلى الحرب وما خلفته من خراب ودمار.

أبدأ بتصريحات لويليام بكلي الذي يوصف بأنه أسطورة المحافظين الجدد حيث يحظى باحترام ونفوذ كبير في وسطهم، يقول بكلي: "لا يساور المرء أدنى شك في إخفاق الغرض من الحرب في العراق، لقد ثبت عدم قدرة جيش من 130

ألف جندي أمريكي في احتواء الأعمال العدائية في العراق، يتعين انتهاج خطط بديلة، وجوهر القول هنا هو الإقرار بالهزيمة".

هنا أقف عند جوهر القول عنده المتعلق بالإقرار بالهزيمة، حيث كان يرى كثير من المحللين الأمريكيين والبريطانيين المعارضين للحرب في ذلك الوقت بل وقبله بكثير، وتحديداً بعد عام من احتلال العراق، كما أسلفنا في مواطن كثيرة من هذا الكتاب، أن أمريكا هُزِمت بالفعل في العراق، لكنها ظلت وستظل تؤجل إعلان الهزيمة حتى تخرجها بشكل آخر تماماً مثلما حدث في كوريا وفييتنام والصومال ولبنان وأماكن أخرى كثيرة هزمت فيها أمريكا لكنها كانت تتجمل في إعلان شكل الهزيمة والسعي لتحقيق نصر سياسي ولو شكلي تغطي به على الهزيمة. لكن الإقرار هنا جاء ممن يطلقون عليه أسطورة المحافظين الجدد، الذين سعَّروا أوار هذه الحرب، وهذا أمر هام وجاد وخطير.

وقد عدت إلى مقاله الذي نشره في "ناشيونال ريفيو أون لاين" والذي استند إليه روبرت باري - الصحفي الأمريكي البارز الذي كشف فضيحة إيران كونترا - والذي نشرته "الخليج" الإماراتية في 4 مارس/آذار 2006، فوجدت ويليام بكلي أسطورة المحافظين الجدد هذا كما يطلقون عليه لا يقر بالهزيمة فقط بل قال: "إنه يتعين على بوش ومستشاريه، وضع خطط مختلفة ولكن النقطة الجوهرية هنا هي ضرورة الاعتراف بالهزيمة".

وذهب بكلي أبعد من ذلك حينما قال: "لا يساور أحد الشك في أن هدف الولايات المتحدة في العراق قد فشل، وأن التحدي الذي يواجه بوش وكبار مستشاريه الآن هو كيفية التعامل مع حقيقة هذا الفشل"...

لقد وصف كثير من المراقبين عبارات بكلي بأنها أكبر انشقاق في منظومة المحافظين الجدد، ولكن ما الذي قاله فرانسيس فوكوياما الذي يوصف بأنه معبود المحافظين الجدد؟

يلقِّب البعض الكاتب الأمريكي فرانسيس فوكوياما بأنه معبود المحافظين الجدد، وكان فوكوياما - صاحب نظرية نهاية التاريخ - من أبرز المؤيدين للحرب على العراق والإطاحة بنظام صدام حسين، لكن فوكوياما انقلب بعد ثلاث سنوات

على ما كان ينادي به، ونشر في شهر فبراير/شباط 2006 كتاباً تحت عنوان "المحافظون الجدد.. أمريكا على مفترق طرق"، ومع النقد الحاد الذي وجهه للمحافظين الجدد في الكتاب قال: "إن لحظة المحافظين الجدد قد مرت وانتهت وإن هناك حاجة إلى إضفاء بُعْدٍ مفهوميّ لسياسة أمريكا الخارجية، لذا يجب أن ننزع السلاح عن الحرب التي أطلق عليها الحرب على الإرهاب، وأن نركز على أدوات السياسة والتخطيط".

وأبرز وأقوى ما جاء في ما كتبه معبود المحافظين الجدد أنه نعى المحافظين الجدد، أي أنه نعى بوش ورجاله الذي كان هو من أبرزهم.

وكانت صحيفة "الأندبندنت" البريطانية قد نقلت عنه في عدد 9 مارس/آذار 2006 قوله: "لقد خلقت الإدارة الأمريكية بغزوها للعراق وضعاً قالت وتنبأت أنه سيحدث، وحل العراق الآن محل أفغانستان كمصدر جذب وأرض تدريب وقاعدة عمليات للجهاديين ضد وفرة من الأهداف الأمريكية المعرضة لإطلاق النار عليها".

أما روبرت باري فقد نقل في مقاله الذي نشرته "الخليج" من مقالة كتبها فوكوياما في مجلة "نيويورك تايمز مغازين" قوله: "إن ما يسمى بمبدأ بوش الذي وضع إطار عمل الفترة الأولى من رئاسة بوش انهار تماماً، ويعتمد نجاح الخطوات الاستباقية على القدرة على التكهن بالمستقبل بدقة وعلى أجهزة استخبارات جيدة، وأما أحادية أمريكا فقد عزلتها أكثر من أي وقت مضى".

ولم يتوقف فوكوياما عن نشر المقالات التي تدعو للانسحاب من العراق. ففي 7 مايو/أيار 2007 نشر مقالاً في صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" الأمريكية تحت عنوان "تساؤلات ما قبل الانسحاب"، وبعدما تحدث عن الواقع الذي وصل إليه العراق طرح بعض التساؤلات على النحو التالي: "وهذا الموقف صعب غير أنه ضروري. والأسئلة التي نحتاج إلى تناولها في هذا السياق هي: كيف نعيد تصميم قواتنا بحيث تصبح قادرة على تقديم الاستشارة والتدريب والدعم بدلاً من الاشتراك المباشر في القتال؟ كيف يمكننا الانسحاب دون وجود جيش عراقي لديه القدرة والجدية على تغطية انسحابنا؟ كيف سنفكك القواعد الضخمة التي أقمناها في العراق مثل قاعدة "كامب ليبرتي" وقاعدة "كامب فيكتوري"،

ونحمي العدد المتناقص دوماً من القوات الأمريكية الموجود في البلاد؟ هل نمتلك الثقة الكافية في القوات المسلحة والشرطة العراقية التي تجعلنا نقوم بتسليمهم معداتنا؟ كيف يمكننا حماية حياة الذين تعاونوا معنا؟ إن منظر حلفائنا من المواطنين الفييتناميين وهم يتعلقون بالأجزاء البارزة من بدن آخر طائرة هليكوبتر أمريكية تغادر فييتنام من أمام مبنى سفارتنا في العاصمة "سايغون" هو منظر يجب أن نستدعيه إلى ذاكرتنا في هذا الشأن".

وهنا نجد أن من يطلقون عليه معبود المحافظين الجدد لا ينعى المحافظين الجدد وإدارة بوش فقط وإنما ينعى أمريكا ونظامها مع العزلة التي بدأت تعيشها والتي يدركها هو ومن يعيشون الواقع الأمريكي من قرب مثل ريتشارد بيرل أحد صقور المحافظين الجدد المتطرفين الذين خططوا للحرب على العراق وحرضوا عليها. فقد نقلت عنه صحيفة "الأندبندنت" قوله: "لقد ناقشت إدارة بوش الحملة العسكرية وتبعاتها السياسية، وقد أصابت فيما يتعلق بالحرب وأخطأت في تبعاتها، كان يتوجب علينا تفهم أننا بحاجة إلى شركاء عراقيين".

أما أندرو سوليفان أحد كتاب ونقاد المحافظين الجدد البارزين، فقد قال: "لقد تعلم العالم درساً قاسياً، وقد كان أشد قسوة على عشرات الآلاف من القتلى العراقيين الأبرياء.. مما كان على قلة من المثقفين استجابت للإذلال. الاستجابة الصحيحة ليست مزيداً من اللف والدوران بل إحساساً بالعار والحزن"، وهنا دعوة من أحد أبرز المحافظين الجدد للإحساس بالعار والحزن.

إن هذه التصريحات والكتابات التي نشرت في ذكرى مرور ثلاث سنوات على غزو أمريكا للعراق واحتلالها في أبريل/نيسان من العام 2006، وبهذه الصراحة والوضوح من كبار مفكري المحافظين الجدد الذين وصفهم الكاتب الأمريكي بيرند هام في كتاب كامل باسم "العصبة المدمرة"، تعطي مؤشرات هامة على أن هذه العصبة المدمرة بدأت تدمر من داخلها، وعلى بداية انهيار وتفكك جبهة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة بعدما ظهروا بداية في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان، ثم تمكنوا من حكم الولايات المتحدة وقيادة العالم إلى استراتيجية الفوضى في عهد بوش الابن.

لكن العجيب في الأمر أن الذين اعتنقوا المسيحية الصهيونية وهم

المحافظون الجدد، والذين دعوا إلى الحرب على محور الشر وإلى: "الحرب الصليبية الحديثة" كما جاء في أحد خطابات بوش في العام 2001، هم أنفسهم الذين ينعون المحافظين الجدد الآن وينعون نظام بوش بل وينعون الولايات المتحدة في كلام واضح لا يحتمل أي لبس، بعدما رأوا أن أفكارهم قادت العالم إلى الفوضى وأخذت النظام الأمريكي إلى الانهيار، وقد عبَّر أحد المصريين البسطاء لي عما قام به هؤلاء قائلاً: "لقد حضَّروا العفريت ولكنهم لم يستطيعوا صرفه".

وإضافة إلى مساحة التخبط والفوضى الاستراتيجية لبوش وإدارته، فقد نشرت صحيفة "لوموند" الفرنسية في 30 يناير/كانون الثاني 2007 حواراً مع أكثر المحافظين الجدد المحيطين ببوش إثارة للجدل بل وأكثرهم صفاقة وحدة على حد وصف الصحف والإعلام الغربي له، وهو جون بولتون، السفير الأمريكي السابق لدى الأمم المتحدة والذي فرضه بوش في منصبه رغم اعتراض الكونغرس لكنه رضخ وأقاله حينما أصبحت الأغلبية للديمقراطيين في الكونغرس بعد انتخابات نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2006، حيث كشف بولتون عن جانب كبير من التخبط الاستراتيجي لدى إدارة بوش قائلاً: "إن الولايات المتحدة ليس لها مصلحة استراتيجية في إبقاء العراق موحداً". وحينما سئل بولتون عمن يقود العراق الآن قال: "إن واشنطن ليس لها مصلحة في أي نمط معين، فسواء كان العراق دولة واحدة أو ثلاث دول يقودها شيعة أو ائتلاف فهذه مسألة لا تمثل لنا أية أهمية استراتيجية". هكذا بوضوح تام؛ الأمر لا يمثل أية أهمية لدى أحد أصدقاء بوش ومعاونيه الأقربين.

بوش يصر على أخطائه

لكن المفاجأة هي أن الرئيس بوش الذي كان يطبق أفكار هؤلاء حينما وجدهم يتراجعون وجبهتهم تتفتت بدلاً من أن يعيد النظر في استراتيجيته إذا به يسلك الطريق الآخر، وهو طريق الإصرار على الأخطاء والاستبداد والاستمرار في مبدأ الضربات الاستباقية، حيث أعاد التأكيد عليها مرة أخرى في استراتيجية الأمن القومي الأمريكي التي أصدرها البيت الأبيض في 16 مارس/آذار 2006،

وليستمر في قيادة العالم إلى مزيد من الفوضى التي أقام عليها مبدأه واستراتيجيته التي يقول فيها: "إذا انتظرنا التهديدات لتتحقق، سيطول انتظارنا".

كان هذا حينما أعلن مبدأ بوش قبل سنوات، لكنه في هذا التقرير الذي يعكس استراتيجية بوش للأمن القومي والذي يتكون من 49 صفحة عاد وأكد على ما قاد به أمريكا والعالم إلى الفوضى فقال: "من الضروري وضع اعتبار لاستعمال القوة قبل أن نهاجم، وذلك حسب مبادىء الدفاع عن النفس التي أعلناها". وفي موضع آخر يقول: "لن نقدر على أن ننتظر ونشاهد المخاطر تزداد، ونحن نعرف النتائج المدمرة لأي هجوم علينا بأسلحة الدمار الشامل".

لذلك كان رأي كثير من الكتاب الأمريكيين ومنهم فؤاد زكريا رئيس تحرير مجلة "نيوزويك" في مقال رئيسي كتبه في عدد 12 يونيو/حزيران 2007 هو عدم التفكير ببوش أو ما يقوم به وإنما يجب أن ينصب التفكير على ما بعد بوش، وكيف يعيد الأمريكيون مكانة بلادهم في العالم.

وقد عبر رئيس مجلس النواب الأمريكي السابق الجمهوري نيوت غنغريتش عن يأسه من بوش، وأنه غير مؤهل لقيادة الولايات المتحدة، وقال غنغريتش لمجلة "نيويوركر" ونشرته "نيوزويك" في نفس العدد الذي كتب فيه فؤاد زكريا مقاله بعدما وصف بوش بأنه غير كفوء وميؤوس منه: "يتم توظيف الرؤساء شرط أن يكونوا مؤهلين لإدارة البلاد بشكل جيد، لدرجة أنه لا يتوجب على المرء أن يفكر فيما يفعلون". ونقل عن مساعد غنغريتش الإعلامي ريك تايلر أن كثيراً من الجمهوريين اتصلوا لشكر غنغريتش، وأضاف "كان الرأي السائد أنه آن الأوان لكي يتكلم أحدهم بصراحة"، والعجيب أن كل المرشحين للرئاسة للعام 2008 من الجمهوريين يتجنبون الحديث عن بوش أو الدفاع عنه.

لكن بوش مع كل ذلك يؤكد دائماً أنه ماض في استراتيجية الفوضى، ولكن ما هو رأي شركائه البريطانيين؟

موقف البريطانيين من استراتيجية بوش

الصحافة البريطانية تختلف كثيراً عن الصحافة الأمريكية في تناولها لأحداث المنطقة العربية لا سيما مناطق الحرب والصراع في العراق وفلسطين، وإذا كان اليمينيون أو المحافظون الجدد في بريطانيا هم الذين يقودون البلاد بزعامة توني بلير متضامنين مع نفس السياسة والثقافة والاستراتيجية التي ينهجها جورج بوش مع تأييد إعلامي يميني لهم، إلا أن هناك صحافة حرة وصحفيون أحرار في بريطانيا أشهد من خلال متابعتي لما يكتبون أن بعضهم يناصر الحقيقة ويعمل من أجلها في كثير من الأحيان. وعلى رأس هؤلاء الصحفي البريطاني المرموق روبرت فيسك الذي يمكن ألا تتفق معه في كل ما يكتب، لكنه وُصف من قبل مؤسسات صحفية عالمية بأنه أفضل مراسل حربي وصحفي معاصر، حيث قام بتغطية الحروب في لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان، وكتب مئات التقارير والمقالات بحيادية ومهنية عالية.

وقد كتب مقالاً نشرته الأندبندنت البريطانية في 26 فبراير/شباط 2006 عن الاستراتيجية الأمريكية في العراق قائلاً: "إن الجميع في الشرق الأوسط يعيدون كتابة التاريخ، لكن لم يسبق أن شهدنا إدارة أمريكية تفسر عن عمد وتدليس وقسوة، المأساة على أنها نجاح، والهزيمة على أنها نصر، والموت على أنه حياة، وذلك بمساعدة صحافة أمريكية متواطئة".

ووصف فيسك وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس بأنها: "أعمى خفافيش جورج بوش"، أما وزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد فقد وصفه بأنه: "الرجل الكريه الذي ساعد على تدشين فوضى "الصدمة والرعب" التي علق بها حتى الآن أكثر من مئة ألف أمريكي على قفار العراق".

وقد كان السياسيون البريطانيون سبّاقون في إدانة سياسة رئيس الوزراء توني بلير وتواطئه الكامل في تنفيذ استراتيجية الفوضى والهزيمة مع الرئيس الأمريكي جورج بوش لا سيما من داخل حزبه حزب العمال، وكانت الوزيرة كلير شورت والوزير روبن كوك من أوائل الذين قدموا استقالاتهم احتجاجاً على سياسة بريطانيا في العراق، كما أن عشرات من أعضاء البرلمان البريطاني كان

على رأسهم جورج غالوي الذي ترك حزب العمال وأسس حزب الاحترام والذي التقيت به أكثر من مرة في برنامجي التلفزيوني "بلا حدود" من أكثر الذين أدانوا سياسة بريطانيا واستراتيجية بلير، كذلك عمدة لندن كين ليفنغستون الذي يخرج على رأس كل المظاهرات المناوئة لحرب أمريكا وبريطانيا على العراق، والذي يعتبر من أبرز السياسيين احتراماً في بريطانيا، وكذلك الزعيم العمالي التاريخي توني بن الذي التقيته كذلك في برنامجي التليفزيوني "بلا حدود" والذي يتواجد على رأس كل مظاهرة مناوئة للاحتلال البريطاني للعراق، كما أنه رفع إلى الأمم المتحدة تقريراً عن جرائم أمريكا وبريطانيا في العراق.

لكن الجديد في الأمر هو أن بعض المحافظين الجدد البريطانيين المشاركين في الحكم الآن لم يخرجوا كثيراً عما قاله المعارضون ولكن بعبارات أخرى، حتى إن أحدهم وهو وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية كيم هولز قال بعد زيارة قام بها للعراق في 11 مارس/آذار 2006 من أجل البحث في موضوعات تتعلق بصناعة النفط في حديث إلى محطة بي بي سي: "إن العراق يعيش حالة من الفوضى، لكنها نوع من الفوضى غير القادرة على شن هجوم على إيران، فوضى غير قادرة على غزو الكويت، فوضى لا تستطيع تطوير أسلحة دمار شامل.. نعم إنها فوضى لكنها تبدو من النوع الذي يعيش معظمنا فيه".

هكذا نظر الوزير البريطاني إلى تلك الفوضى التي صنعتها بلاده مع الولايات المتحدة وأقر بها، لكنه في النهاية تجنب أن يقول إنها فوضى العجز عن تهديد إسرائيل التي صنعتها بريطانيا في بلادنا وترعاها الآن وتحميها مع أمريكا ولكن ليحيل التهديد إلى دول العراق المجاورة الأخرى.

ولم يكن وزير الخارجية البريطاني جاك سترو في حديث أدلى به إلى صحيفة "التايمز" البريطانية في 17 مارس/آذار 2006 بعيداً عن الاعتراف بوقوع بعض الأخطاء عقب انتهاء عمليات القتال الرئيسية في العراق - على حد وصفه - حيث قال: "لقد كان الوضع في العراق بعد الحرب أكثر تعقيداً مما خططنا له، وقد شعرت بالقلق حينها من نطاق الحملة التي شنت لاجتثاث حزب البعث في العراق، وهو القرار الذي اتخذه بول بريمر الذي أرسله الرئيس بوش

لإدارة العراق بعد انتهاء الحرب، وأن هذا القرار كان خطأً كبيراً إضافة إلى قرار حل الجيش العراقي، نظراً لأن تلك القرارات حرمت العراق من المديرين ذوي الخبرة وعزلت المعتدلين من السنة، وضمنت حصول الشيعة والأكراد على المناصب في الحكومة والجيش".

ولم يكن هذا هو الاعتراف الأول لجاك سترو حول الفوضى التي غرق فيها العراق بعد الاحتلال الأمريكي بمساعدة بريطانيا ودول أخرى لها، فقد نشرت صحيفة "ديلي تليغراف" البريطانية تقريراً في 18 سبتمبر/أيلول من العام 2004 ذكرت فيه أنها حصلت على وثائق من بينها أن جاك سترو بعث برسالة إلى رئيس الوزراء البريطاني توني بلير مكتوب عليها من الخارج "سري وشخصي" قبل شهور من اندلاع الحرب حذر فيها من احتمال اندلاع الفوضى في العراق خلال فترة ما بعد صدام حسين، وأن الأمر يبدو وكأنه ثقب أكبر من المتوقع، كما نشرت الصحيفة وثائق أخرى لكبار المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية يحذرون رئيس الوزراء من مغبة القيام باحتلال العراق، لأن العراق قد يغرق في حالة من الفوضى بعد الحرب، لكن سترو الذي لعبت بلاده دوراً في صناعة الفوضى في العراق، عاد وأكد ما ذهب إليه رئيسه بلير من أن الزمن لو عاد للوراء لما ترددوا في غزو العراق مجدداً، لكن سياسة بريطانيا في العراق أجبرت بلير في النهاية على التنحي.

نهاية توني بلير

رغم العرض المسرحي الهائل الذي قام به توني بلير أمام قيادات حزب العمال يوم الخميس العاشر من مايو/أيار 2007 لإعلان الموعد النهائي لتنحيه الذي حدد له السابع والعشرين من يونيو/حزيران 2007، إلا أن شبح هزيمته السياسية في العراق غطى على كل إنجازاته السياسية خلال عشر سنوات من البقاء في السلطة.

وكان اللافت للنظر أن حزب العمال سرعان ما حذف شعار بلير الذي جاء به إلى السلطة قبل عشر سنوات من على موقع الحزب وهو "العمال الجديد" وعاد ليكون اسم الحزب كما كان "العمال" إشارة إلى نهاية عهد بلير، وهذا ما

جعل صحيفة "الديلي تليغراف" البريطانية تضع عنوانها الرئيسي على صفحتها الأولى يوم الجمعة 11 مايو/أيار "نهاية العمال الجديد"، إشارة إلى أن حقبة توني بلير كانت حقبته هو ولم تكن حقبة تغيير كاملة في الحزب الذي خسر الكثير من زعاماته التي اختلفت مع بلير وأسلوب سياسته وإدارته للبلاد ولسياستها الخارجية. فرغم الحديث عن نجاحاته الداخلية في كثير من الصحف إلا أن الجميع اتفق على أن بلير هُزم في العراق، وأن ورطته في حرب العراق ستظل تلطخ تاريخه السياسي.

وقد حاول بلير أن يستبق هذه الاتهامات في الاعتراف بأنه عمل الأفضل فقال في خطابه: "بكل صدق قمت بما اعتقدت أنه الصواب، ربما كنت مخطئاً، لكم أن تحكموا، لكن صدقوا شيئاً واحداً، على الأقل قمت بما اعتقدت أنه الأفضل لبلدنا".

لكن أحداً لم يتفق مع بلير على أنه قام بالأفضل لبلاده، بل إن كثيرين رأوا أنه قام بالأفضل لسياسة بوش وأمريكا، التي أيدها تأييداً شبه مطلق لا سيما فيما يتعلق بالعراق. وقد أشار كثير من المصادر إلى أن ذلك يعود إلى المعتقدات الدينية الواحدة التي كانت تحركه هو ورفيقه جورج بوش، حيث كان كل منهما بل ربما صرح أكثر من مرة أنه يتلقى وحياً من الله، وأن ما قاما به في العراق لم يكن سوى استجابة لأوامر إلهية، هذا هو السر الحقيقي وراء التحالف الذي كان بين الرجلين.

إنها عقلية الاستبداد والطيش السياسي لديهما معاً؛ فالعقلية الاستعمارية الغربية تجاه بلادنا واحدة لم تتغير منذ الحروب الصليبية وحتى حرب بوش الصليبية الحديثة، استراتيجية قائمة على الفوضى وبث الأكاذيب وتحويل الهزائم إلى انتصارات، والموت إلى حياة، تماماً كما وصفها روبرت فيسك، ولكن التاريخ الذي تعاد صياغته الآن سيسجل كل هذه الأقوال التي أقرَّ بها سدنة الغرب هؤلاء وغيرها، ليضع الغرب لا سيما أمريكا وبريطانيا في دائرة الاتهام والمسؤولية التاريخية عما حل ببلادنا من فوضى وخراب.

لقد هُزم بلير سياسياً وأُجبر على أن يغادر منصبه بسبب ما قام في العراق، وهُزم بوش سياسياً وسيجر حزبه على مغادرة البيت الأبيض في

نوفمبر 2008 كما غادر منصة الكونغرس في انتخابات نوفمبر 2006، غير أن هزيمة بوش في انتخابات الكونغرس في نوفمبر/تشرين الثاني 2006 مثلت ذروة الهزيمة السياسية بسبب سياساته الفاشلة في العراق.

الهزيمة السياسية لبوش

كانت الهزيمة المدوية للحزب الجمهوري في الانتخابات التشريعية الأمريكية التي جرت في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2006 والتي أدت نتائجها إلى فوز الديمقراطيين بالأغلبية، هزيمة لجورج بوش وحربه الخاسرة بالعراق ـ كما أشار إلى ذلك معظم المراقبين والمحللين الذين رصدوا تلك النتائج، حيث أشار كثيرون إلى أن التصويت كان على الحرب في العراق بالدرجة الأولى حيث بدأت شعبية بوش تنهار في الشارع الأمريكي مع توالي أخبار الهزيمة في العراق، ومع كثير من الاستطلاعات التي كانت تبين انهيار شعبية بوش وانهزامه سياسياً يوماً بعد يوم.

فقد أظهر استطلاع للرأي بثته مساء الخميس 24 مايو/أيار 2007 شبكة "سي بي إس" التليفزيونية الأمريكية، وصحيفة "نيويورك تايمز" أن أغلبية الأمريكيين أعربوا عن تشاؤمهم حول نهاية الحرب في العراق، واعتبروا أن غزو العراق واحتلاله من قبل القوات الأمريكية في العام 2003 كان خطأ كبيراً، واعتبر 76% من الأمريكيين أن الحرب في العراق تجري بشكل سيّىء، كما أن 47% اعتبروها تجري بشكل سيىء جداً بالنسبة للولايات المتحدة، واعتبر 72% من الأمريكيين أن الولايات المتحدة تسلك بشكل عام طريقاً سيئاً في العراق، وأعرب ستة أمريكيين من عشرة عن رغبتهم في وضع جدول زمني لسحب القوات من العراق.

هذا التصويت ضد بوش وسياسته وحربه في العراق يعكس مقدار الهزيمة التي يشعر بها الشعب الأمريكي، لكن بوش كان قد طلب في خطاب حالة الاتحاد السابع والذي ألقاه مساء الثلاثاء 23 يناير/كانون الثاني 2007 من الأمريكيين أن يصبروا. وقال بوش الذي بدا منكسراً في خطابه للشعب الأمريكي بصفة عامة والكونغرس الذي يهيمن عليه الديمقراطيون طالباً منهم الصبر بخصوص العراق وواعداً إياهم بالنصر مع تبني استراتيجيته التي كان قد أعلن عنها والداعية إلى

إرسال مزيد من الجنود إلى العراق، وقال بوش للأمريكيين: إن انسحاباً مبكراً للأمريكيين من العراق سيشكل "بالنسبة لأمريكا سيناريو كابوس، وبالنسبة للعدو الهدف الذي يسعى إليه" وأضاف: "إن بلدنا يتبع استراتيجية جديدة في العراق، وأطلب منهم منحها فرصة للعمل".

كانت خطابات الاتحاد لبوش في السنوات الماضية، خطابات "القائد القوي والحاسم". أما في العام 2007 فقد كان خطاب المنهزم الذي لا يريد أن يعيش الأمريكيون كابوس الانسحاب والهزيمة من العراق خلال فترة رئاسته وإنما كما قال من قبل، ليقوم الرئيس الذي سيخفله بهذه المهمة.

لكن الديمقراطيين لم يدعوا بوش يفرض استراتيجيته التي هي من البداية استراتيجية الهزيمة، ورفضوا الموافقة على مشروعات تمويل الحرب في العراق إلا بارتباطها بجدول زمني يحدد انسحاب القوات الأمريكية من العراق، واضطر بوش لاستخدام حق النقض الفيتو على قرار الديمقراطيين الذين وافقوا له بشروط في 24 مايو/أيار 2007 على التمويل بمئة مليون دولار مقابل أن يقدم تقريراً في شهر سبتمبر/أيلول 2007 حول نتائج استراتيجيته التي أعلن أن أمله الأخير في تحقيقها هو الجنرال ديفيد بتريوس.

أمل أمريكا الأخير في العراق

الانفجار الذي وقع يوم الخميس 12 أبريل/نيسان 2007 في مقر البرلمان العراقي داخل المنطقة الخضراء أقوى المناطق المحصنة في العاصمة العراقية بغداد وأودى بحياة أحد النواب وستة آخرين وجرح العشرات، هذا الانفجار تحديداً أدمى قلب الرئيس الأمريكي جورج بوش، لأنه ضرب قلب القيادة الأمريكية في العراق، وزاد بوش ألماً بعدما أعلن تنظيم القاعدة في اليوم التالي عبر موقعه على شبكة الإنترنت بأنه هو الذي نفذ الهجوم.

فالإجراءات الأمنية المشددة والكثيرة والمتعددة حول المنطقة الخضراء التي يقع فيها مقر السفارة الأمريكية والحكومة العراقية وكافة قيادات الاحتلال والمتعاونين معه إجراءات معقدة للغاية، وتقع تحت إدارة القوات الأمريكية برجالها

المدربين تدريباً عالياً وبأجهزتها التي يمكن أن تكشف ذرات الغبار العالقة بقدم النملة التي تعبر من الجهاز ـ على حد زعمهم المثير للسخرية ـ ورغم أن المنطقة الخضراء تتعرض بشكل دائم إلى هجمات بالصواريخ وقذائف الهاون لا سيما لتلك المؤتمرات الصحفية التي يعقدها نوري المالكي رئيس الوزراء والتي اضطر في أحدها والذي كان مع الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون في 22 مارس/آذار 2007 أن ينهي المؤتمر بعد بدايته مباشرة ويهرول في مشهد مضحك مع بان كي مون الذي بدا عليه الذعر والخوف للبحث عن ملجأ خارج القاعة.

لكن أن يتم اقتحام كل الحواجز والأسوار وأن يتم التفجير في الداخل ويتم العثور على سترتين مفخختين أخريين لم تنفجرا ـ كما أشارت بعض المصادر الصحفية ـ فهذا ما أذهل جورج بوش وأدمى قلبه وجعله يندد من فوره بالهجوم قائلاً: "إن ما حدث يذكرنا بوجود عدو يرغب في تفجير رمز الديمقراطية وقتل أناس أبرياء" وأضاف بأن: "الولايات المتحدة سوف تساعد العراق في الدفاع عن نفسه في مواجهة المتطرفين".

وتكشف هذه التصريحات حجم الإحباط الهائل والهزيمة النفسية التي يعيشها جورج بوش لا سيما بعدما أعلن عن خطته الأمنية الأخيرة في العراق والتي يراهن على أنها هي المخرج، لكنه منذ أن أعلنها وهو يظهر كل يوم فشلاً ذريعاً في تطبيقها، فعدد الطائرات الأمريكية التي سقطت بعد إعلان الخطة في بداية العام 2007 زاد عن عشر طائرات خلال شهرين.

كما أن عدد العمليات التي تستهدف القوات الأمريكية تصاعد بشكل كبير. أما عدد الجنود الأمريكيين الذي أُعلن رسمياً عن مقتلهم منذ بداية الاحتلال وحتى يوم التفجير داخل المنطقة الخضراء في 12 أبريل/نيسان 2007 فقد بلغ 3282 جندياً بينهم 34 قتلوا خلال الأيام العشرة الأولى من شهر أبريل/نيسان، أما في شهر مايو/أيار من العام 2007 فقد تخطى عدد الجنود الأمريكيين القتلى المعلن عنهم رسمياً أكثر من مئة جندي ووصل في نهاية الشهر إلى 117 جندياً ليكون بذلك الشهر الأكثر دموية للقوات الأمريكية منذ معركة الفلوجة الثانية في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، وقد نشرت صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية تقريراً في 11 أبريل/نيسان 2007 نقلته صحيفة "القدس العربي"

قالت فيه: "إن البيت الأبيض قد فشل حتى الآن في تعيين جنرال بارز لإدارة حربي العراق وأفغانستان، بسلطة يصدر فيها أوامر لوزارتي الدفاع والخارجية الأمريكية"، فمعظم الجنرالات الذين عرض عليهم البيت الأبيض المهمة اعتذروا.

وأشارت الصحيفة إلى أن السبب الرئيسي وراء رفض الجنرالات للمنصب والمهمة هو أنهم لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، فالتخبط والضبابية تحيط ببوش وإدارته وسياسته في العراق وأفغانستان.

ونقلت الصحيفة عن الجنرال المتقاعد جون هادلي الذي كان أحد كبار قادة حلف الناتو قوله: "إن ديك تشيني نائب الرئيس وجماعته لا زالوا مؤثرين أكثر من البراغماتيين الذي يبحثون عن مخرج من العراق". وقال الجنرال مبرراً رفض المنصب الذي عُرض عليه: "لقد قررت رفض العرض بدلاً من الذهاب إلى العراق والإصابة بقرحة في المعدة"، ومن خلال تعليقات كثيرة من هادلي نشرتها الصحيفة يبدو أن جورج بوش يبحث عمن يخرجه من الهزيمة القائمة في العراق وأفغانستان حتى يجنبه حرج إعلان الهزيمة الرسمية، لكنه يبحث عن شخص يمكن أن يدير هذه المهمة ويستطيع التعامل مع الأركان القوية التي تدير الحرب في وزارتي الدفاع والخارجية والبيت الأبيض، والرفض الذي أعلنه الجنرال هادلي للمنصب شاركه فيه أيضاً كل من جنرال الجو المتقاعد جوزيف رالستون، وجنرال الجيش المتقاعد أيضاً جاك كين.

لكن بوش وجد في النهاية قيصراً للحرب يساعده في البحث عن مخرج لتلك الهزيمة السياسية والعسكرية التي يعيش كابوسها في العراق وأفغانستان، ففي 17 مايو/أيار 2007 أعلن بوش عن اختيار اللفتنانت جنرال دوغلاس لوت ليقود الحرب في كل من أفغانستان والعراق.

لكن الهزيمة السياسية التي واجهها بوش على أيدي الديمقراطيين، وهزيمته أمام شعبه من خلال استطلاعات الرأي جعلته قبل ذلك يسعى للبحث عمن يمكن أن ينقذه من الهزيمة الكبرى التي يعيشها مع قواته في العراق، لذلك قبل أن يعين الجنرال لوت قام بتعيين قائد جديد للقوات الأمريكية في العراق هو الجنرال ديفيد بتريوس، الذي يعتبره كثير من المحللين العسكريين هو الأمل الأخير لبوش ليس في تحقيق انتصار على المقاومة العراقية لأن هذا أصبح أملاً

بعيد المنال، وإنما في محاولة إدارة الأزمة وترتيب خروج تكتيكي للقوات الأمريكية يخرجها من إطار إعلان الهزيمة رسمياً.

وقد كلَّف بوش بتريوس بمهمته في الوقت الذي أعلن فيه عن خطته الجديدة في العراق التي بدأ تنفيذها في فبراير/شباط من العام 2007 وقضت بإرسال 21500 جندي إضافي إلى أكثر المناطق اشتعالاً بالمعارك هناك وتحديداً للعاصمة بغداد، لكن إعلان بوش عن خطته الجديدة واكبه ارتفاع وتيرة عمليات المقاومة وكثرة التفجيرات داخل بغداد، وزيادة عدد القتلى من الجنود الأمريكيين حتى إن وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس يقول: إن أصعب ما يواجهه في عمله كل يوم هو الجلوس ليلاً للتوقيع على خطابات العزاء التي يرسلها يومياً إلى عائلات الضحايا من الجنود الأمريكيين.

أما الجنرال بتريوس ـ الذي وجده بوش أفضل ما في كنانته التي فرغت من عشرات الجنرالات الآخرين الذين فشلوا في إيقاف المقاومة أو تحقيق الأمن في العراق طوال سنوات احتلاله فهزموا وأصبحوا متقاعدين أو نقلوا إلى أماكن أخرى مثل جون أبي زيد، وكايسي، وسانشيز وبلاكويل وكثيرين غيرهم ـ فإنه يحاول أن يحقق في العراق ما عجز أسلافه عن القيام به، وأعد خطة خاصة جديدة للسيطرة على المقاومة في العراق. فمن هو الجنرال بتريوس وما هي خطته للسيطرة على بغداد؟

الجنرال ديفيد بتريوس

ديفيد بتريوس آخر القادة العسكريين لبوش في العراق يوصف بأنه أكثر الجنرالات ذكاء في الجيش الأمريكي، كما أنه أحد الذين شاركوا في صياغة عقيدة الجيش الأمريكي في مكافحة عمليات التمرد، ولد في نيويورك عام 1952 لعائلة أمريكية من أصول هولندية، وتخرج من مدرسة "ويست بوينت" إحدى أعرق المدارس العسكرية في الولايات المتحدة عام 1974. التحق بسلاح المشاة وواصل دراساته العليا وحصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة برنستون، وعمل أستاذاً مساعداً في الأكاديمية العسكرية الأمريكية، وزميلاً في جامعة جورج واشنطن، خدم في عدد من الوحدات العسكرية الأمريكية داخل

الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأوسط، وكان آخر منصب تولاه قبل أن يشارك مع القوات الأمريكية في غزو العراق واحتلاله في شهر مارس/آذار من العام 2003، أنه كان نائب رئيس الأركان ونائب قائد قوات حلف الناتو في البوسنة والهرسك.

عرف بطموحه اللامحدود وانتهازيته الواسعة النطاق كما يصفه بعض زملائه، وأصيب عدة مرات خلال تدريبات عسكرية، منها مرتين كانت إصابته فيهما خطيرة، إحداهما كانت في العام 1991 حيث أصيب بطلق ناري في صدره أثناء تدريبات عسكرية في ولاية كنتاكي الأمريكية، ونقل إلى المستشفى وخضع لعملية استغرقت خمس ساعات أجراها له الطبيب بيل فيرست الذي أصبح بعد ذلك عضواً في الكونغرس ثم زعيماً للأغلبية الجمهورية، ويقال بأن العلاقة التي نشأت بين الرجلين بعد ذلك ساعدت بتريوس الذكي والطموح.

وكانت صحيفة "الغارديان" البريطانية قد نشرت مقالاً عن بتريوس في 6 مارس/آذار 2007 كان عنوانه "محارب وحكيم ـ آخر أمل لأمريكا في العراق" أشارت فيه إلى أن كلاً من بتريوس وفيرست التقيا بعد ذلك في أوروبا في العام 2004 حيث كان فيرست يقوم بزيارة للقوات الأمريكية هناك وكان بتريوس يقوم بتدريب القوات العراقية.

وقال فيرست للحضور وهو يثني على بتريوس: "هذا الرجل له قلب طيب، أعرف ذلك لأني أمسكت قلبه بيدي"، في إشارة إلى العملية التي أجراها له لإخراج الرصاصة من صدره.

وحينما قامت القوات الأمريكية بغزو العراق واحتلاله في مارس/آذار من العام 2003 كان بتريوس قائد الفرقة 101 المحمولة جواً التي قامت باحتلال الموصل، حيث اضطرت الولايات المتحدة لاحتلال شمال العراق عبر الفرق المحمولة جواً بعدما رفضت تركيا منح القوات الأمريكية تسهيلات لوجستية أو استخدام أراضيها في غزوها واحتلالها للعراق. وقد نجح بتريوس إلى حد ما ـ كما أشارت بي بي سي في مقال نشرته على موقعها في 8 مارس/آذار 2007 ـ من أن يجعل الموصل في البداية من أكثر مدن العراق هدوءاً تحت الاحتلال عبر محاولات كسب ود الناس وعدم استخدام العنف المفرط تجاه المدنيين.

وفي شهر يونيو/حزيران من العام 2004 أصبح رئيساً لقيادة الأمن الدولي الانتقالي، وكلف بمهمة بناء جيش عراقي جديد وقوات للأمن والشرطة تتولى المسؤولية شيئاً فشيئاً من قوات الاحتلال، غير أن النتيجة كانت ما يراه ويشاهده الناس، ولا توجد سوى ثلاث كتائب فقط تحت قيادة الحكومة التي يرعاها الاحتلال.

وفي شهر سبتمبر/أيلول من العام 2005 تولى إدارة مركز القيادة المشتركة للجيش الأمريكي المسؤولة عن إدارة المعركة وعن عمليات التنسيق والتدريب، وكان بتريوس ـ الذي حصل على موافقة الكونغرس على تعيينه قائداً للقوات الأمريكية في العراق خلفاً للجنرال وليام كايسي في 26 يناير/كانون الثاني 2007 ـ قد جاء تعيينه مع إعلان الرئيس الأمريكي بوش عن خطته العسكرية الجديدة في العراق في شهر فبراير/شباط من العام 2007.

وقد أعلن بتريوس في أول مؤتمر صحفي عقده في بغداد بعد توليه منصبه في 8 مارس/آذار 2007 أنه: "لا يوجد حل عسكري للتمرد في العراق.. العمل العسكري ضروري لكنه ليس كافياً لتحسين الأمن"، وأضاف: "إن الحملة الأمنية في بغداد قد شهدت أياماً عصيبة". وأشار إلى أن: "الحملة الأمنية في بغداد سوف تستغرق شهوراً، كما أن الهجمات الكبيرة لن تتوقف، ولكن هناك بالفعل دلائل مشجعة على إحراز تقدم".

وكان بتريوس يتحدث وهو ينتظر وصول الجنود الأمريكيين الذين سوف يدعمونه في خطته والذين سوف يزيدون عدد القوات الأمريكية في العراق بعد وصولهم إلى 170 ألفاً، وأشار بتريوس إلى أن وصول القوات الأمريكية في بداية شهر يونيو/حزيران 2006 سوف: "يساعد القوات الأمريكية على تشديد قبضتها الأمنية على العراق"، لكن هذه القبضة الأمنية لا يمكن أن تنجح دون الدعم المادي الذي يعرقله الديمقراطيون في الكونغرس لبوش ورجاله والذي وافقوا على بعضه في النهاية ولكن بشروط.

هذا هو ديفيد بتريوس أمل أمريكا الأخير في العراق، فما هي خطته للسيطرة على الأوضاع الأمنية هناك؟

خطة الجنرال بتريوس

كان أول من كشف عن خطة القائد العسكري الأمريكي الجديد - وربما يكون الأخير - في العراق الجنرال ديفيد بتريوس، الكاتب البريطاني روبرت فيسك مراسل صحيفة "الأندبندنت" البريطانية في مقال نشره في 11 أبريل/نيسان 2007 قال فيه: إن خطة بتريوس خطة الاستعمار القديمة "فرق تسد"، وهي عبارة عن إعادة إنتاج لخطة أمريكية فاشلة جربت قبل ذلك في فييتنام أثناء احتلالها، وتقوم على عزل أحياء كاملة من بغداد وإغلاقها من خلال نقاط التفتيش وعدم السماح إلا لحاملي بطاقات الهوية الذين يعيشون في المنطقة بدخولها، تماماً كما يحدث في مدينة الفلوجة منذ تدميرها في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004، ومن المعروف أن بطاقات الهوية التي يستخدمها أهل الفلوجة ليست بطاقات عادية وإنما تعتمد على بصمة الإبهام وبؤبؤ العين حتى يكون من المستحيل تزويرها.

وأشار فيسكَ إلى أن أصل الخطة يعود إلى حرب فييتنام، وسوف تكون أوسع وأكبر خطة يقوم بها الجيش الأمريكي لمكافحة المقاومة في العراق منذ احتلاله في مارس/آذار من العام 2003. وسوف تؤدي هذه الخطة إلى تحويل بغداد إلى كانتونات مغلقة وتجمعات سكانية معزولة عن بعضها البعض يعيش سكانها خلف الأسوار والأبواب.

ولأن بغداد تتكون من 89 حياً، فإن الأحياء التي ستخضع للخطة هي الأحياء التي تنتشر فيها المقاومة ويعيش فيها أهل السنة، وقد تم حصرها مبدئياً في 30 حياً من أحياء بغداد.

وأشار فيسك إلى أن هذه الخطة قد سبق تنفيذها في بعض المناطق وفشلت بشكل ذريع، لكن القوات الأمريكية المنكوبة في العراق تبحث عن أي حل يخرجها من المأزق الذي هي فيه، وكان بناء سور الأعظمية أكبر أحياء المقاومة السنية داخل العاصمة بغداد والذي شاهده العالم أجمع عبر شاشات التلفزة يوم الاثنين 23 أبريل/نيسان 2007 هو بداية لعمليات العزل والكانتونات التي وضعها بتريوس في خطته والتي يراهن الجميع على فشلها.

هذه الخطة الاستعمارية القديمة "فرق تسد" التي هي خطة بتريوس الجديدة، ورغم أنها فشلت مع كل قوى الاستعمار التي مارستها في فييتنام والجزائر وفلسطين، فإن بتريوس الانتهازي والطموح يريد أن يحقق أي شكل من أشكال النجاح من خلالها في العراق، لكن أمامه عقبات كثيرة من أهمها التمويل الذي شدد عليه في مؤتمره الصحفي وتصريحاته، فوزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس ووزيرة الخارجية كوندوليزا رايس طلبا من الكونغرس 235 مليار دولار من أجل تمويل العمليات في العراق وأفغانستان، إضافة إلى 350 مليار أخرى سبق صرفها، علاوة على النفقات الدفاعية السنوية المنتظمة والتي تبلغ قيمتها 500 مليار دولار، لكن الكونغرس رهن أي تمويل للحرب بتحديد جدول زمني للانسحاب حيث حدد مجلس النواب الأول من سبتمبر/أيلول 2008 كموعد نهائي لسحب القوات، فيما حدد مجلس الشيوخ الحادي والثلاثين من مارس/آذار 2008، وتم التأكيد على ذلك من خلال القانون الذي أقره المجلسان يومي الأربعاء والخميس الخامس والعشرين والسادس والعشرين من أبريل/نيسان 2007، لكن بوش استخدم كما ذكرنا من قبل حق النقض الفيتو ضد مشروع القانون.

ولأن خطة بتريوس بحاجة إلى تمويل عاجل فقد طلب بوش من زعماء الديمقراطيين الاجتماع بهم لصرف 100 مليار دولار بشكل عاجل، لكن اجتماعه بهم في البيت الأبيض حقق فشلاً ذريعاً، وشن عليه هاري ريد زعيم الأغلبية الديمقراطية في الكونغرس هجوماً قاسياً وقال: "إن على بوش أن يستمع إلى قلق الشعب الأمريكي من أن سياساته في العراق قد فشلت، وأننا بحاجة إلى تغيير المسار". وأضاف في بيان نشرته رويترز في 12 أبريل/نيسان: "أعتقد أن الرئيس أصبح معزولاً بخصوص قضية العراق مثلما كان ريتشارد نيكسون محاصراً في البيت الأبيض".

هذه اللهجة الحادة من زعيم الأغلبية الديمقراطية هاري ريد تؤكد على حالة الهزيمة السياسية والعسكرية الكبرى التي يعيشها جورج بوش، وهذا القصف السياسي من الديمقراطيين يعني أنه يحاول المد في أنفاسه الأخيرة من خلال خطة بتريوس التي لن تكون سهلة التطبيق رغم التنبؤات المستقبلية

بفشلها قبل أن تبدأ، مما يعني أن أمل بوش وأمل أمريكا الأخير في العراق سوف يتبدد تماماً كما تبددت آمال كثيرة له من قبل.

فقد كان الجنرال المتقاعد جاي غارنر أول حاكم أمريكي للعراق هو أمل بوش الأول، لكنه لم يبق في منصبه إلا أسابيع قليلة حقق خلالها فشلاً ذريعاً، كما أشار بول بريمر الحاكم الأمريكي للعراق أن الرئيس أخبره حينما أرسله بأنه كان الأمل بالنسبة له، لكن خاب الأمل بعد عام واحد وخابت بعده آمال كثيرة، كما أن هذه الخطة ليست الخطة الأولى فقبلها وضعت عشرات الخطط العسكرية وفشلت كلها كذلك، كما وضع عدد من الاستراتيجيات التي كان بوش يخرج بنفسه لإعلانها وكأنه يقدم حلولاً سحرية للعالم، لكنه كما وصفه هاري ريد زعيم الأغلبية الديمقراطية ليس سوى رجل معزول يعيش أوهاماً لا علاقة لها بالواقع، ويخاطب شعباً جاهلاً لم يكلف نفسه حتى الآن معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى قيام هذه الحرب بل إن أغلب سكانه كما أشارت مجلة "ناشيونال جيوغرافيك" لا يعرفون أين موقع العراق.

وقد سعى نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني في كلمة ألقاها في حفل تخريج دفعة جديدة من ضباط كلية ويست بوينت العسكرية في نيويورك يوم السبت الخامس والعشرين من مايو/أيار 2007 إلى التأكيد على وعود بوش وخططه الاستراتيجية في العراق فقال: "إن جيش الولايات المتحدة سيحصل على كل التجهيزات والتموين والخبرة والتدريب والدعم الأساسية لتحقيق النصر"، مضيفاً: "أقدم لكم هذه الضمانة باسم الرئيس، إنكم تقاتلون من أجله وهو سيقاتل من أجلكم".

وأوضح تشيني أن سبعين في المئة من خريجي الكلية في العام 2007 سوف يرسلون للقيام بأعباء قتالية، وقال: "نحن هناك في العراق لأننا وعدنا بعدما أسقطنا صدام حسين ألا نسمح لأي مستبد آخر بأن يحل محله".

لكن بوش وتشيني وكل من جاء قبل الجنرال بتريوس منذ غزو العراق واحتلاله وضعوا خططاً عسكرية للسيطرة على العراق والمقاومة، وكانوا طموحين وانتهازيين مثله، لكنها فشلت وفشلوا وذهبت وذهبوا يلاحقهم عار ارتكاب جرائم الحرب ضد الشعب العراقي، ولن يكون مصير بتريوس بعيداً عن مصير أبي زيد

أو سانشيز أو بلاكويل. الكل في مزبلة التاريخ وجرائمه بسبب ما ارتكبوه في العراق، أما سور الأعظمية فسيرحل الاحتلال يجر ذيول الخيبة ويتركه خلفه دليلاً على هزيمته... تلك الهزيمة العسكرية التي تفوق بكثير الهزيمة السياسية التي يعيشها بوش.

الهزيمة العسكرية لأمريكا في العراق

"أمتنا ترتدي ثوب الحداد على رجالنا ونسائنا في الجيش الأمريكي الذين خسرناهم، وسنكرمهم بمواصلة المهمة التي ضحوا بحياتهم من أجلها للانتصار على الإرهابيين، والعمل على تقديم قضية الحرية وبناء أسس السلام لجيل من الأمريكيين الشبان".

بهذه الكلمات التي رافقتها الدموع نعى الرئيس الأمريكي جورج بوش ضحاياه من القتلى الأمريكيين في العراق وأفغانستان، في حفل كبير أقيم في 30 مايو/أيار 2006 بمناسبة "اليوم الوطني لضحايا الحرب ضد الإرهاب" حيث بلغ عدد القتلى الأمريكيين في العراق المعلن عنهم رسمياً في ذلك اليوم ألفين وخمس مئة قتيل، بينما بلغ عددهم في أفغانستان ثلاث مئة، لكن العدد ظل يتضاعف ويزداد كل يوم. ويبدو أنه لن يتوقف لمدة طويلة، حتى إن صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" الأمريكية قالت في تقرير لها نشرته في عددها الصادر في 6 مايو/أيار 2007 حول آخر ضحايا أمريكا في العراق وحدها قائلة: "بعد حرب استمرت أربع سنوات وإنفاق أكثر من 350 مليار دولار عليها، ومقتل 3363 جندياً أمريكياً وجرح 24 ألفاً و310 آخرين بات مؤكداً أنه لا يمكن بلوغ تسوية سياسية للقضية العراقية في ظل احتلال أجنبي لا نهاية له".

وكان الجيش الأمريكي قد ذكر في تقريره السنوي الذي صدر في 23 يناير/كانون الثاني من العام 2006 ـ ونشرته وكالة رويترز ـ عن العمليات العسكرية التي وقعت في العراق خلال العام 2005، أن المسلحين في العراق قد شنوا أكثر من 34 ألف هجوم على القوات الأمريكية والأجنبية والعراقية والمدنيين العراقيين خلال العام 2005، أي بزيادة قدرها 30% عن عدد الهجمات العسكرية التي وقعت خلال العام 2004.

وبشكل دقيق ذكر الجيش الأمريكي أن المسلحين العراقيين شنوا 34131 هجوماً خلال العام 2005 مقارنة بحوالي 26496 هجوماً خلال العام 2004، ويشمل هذا الإحصاء كل الهجمات بغض النظر عن تأثيرها على القوات الأمريكية والعراقية والمدنيين العراقيين. إلا أن الكاتب الصحفي الأمريكي بوب وودورد كشف في كتابه "حالة إنكار... بوش في حالة حرب" إلى أن عدد الهجمات التي وقعت على القوات الأمريكية في شهر أغسطس/آب من العام 2004 وحده بلغت ثلاثة آلاف هجوم.

وبالرغم من أن الميجور تيم كيفي أحد الناطقين باسم الجيش الأمريكي وهو تابع لسلاح البحرية الأمريكية "المارينز" قلل من تأثير هذه الهجمات رغم عددها الهائل وقال: "نحقق نجاحاً والعراقيون يحققون نجاحاً أيضاً"، لكن الخبير في شؤون الدفاع دانييل غور من معهد لكسينغتون انتقد تصريحات الميجور كيفي واعتبر أنه: "من الصعب أن نأخذ هذا الزعم على محمل الجد ونقول إننا نحقق نجاحاً في وقت تزداد فيه الهجمات بنسبة 30%" وأضاف: "إذا وضعنا في الاعتبار أن إجمالي عدد الهجمات يتزايد، وأن أعداد القتلى والجرحى العراقيين يتصاعد، فمن الصعب القول إننا لمحنا الضوء في نهاية النفق".

وقد ذهب تقرير الجيش الأمريكي بعد ذلك إلى بعض التفصيلات فيما يتعلق بنوعية الهجمات التي تقوم بها المقاومة في العراق وقال: "إن عدد الهجمات بعبوات بدائية الصنع أو قنابل زرعت في الطرق ارتفع إلى 10593 هجوماً في العام 2005 مقارنة في الوقت الذي لم تزد فيه هذه الهجمات في العام 2004 عن 5607 هجمات"، كما أشار الجيش الأمريكي في هذا التقرير إلى أن "عدد الهجمات التي استخدمت فيها الأحزمة الناسفة قد ارتفع من 7 هجمات في العام 2004 ليصل إلى 67 هجوماً في العام 2005، كما أن عدد الهجمات التي استخدمت فيها السيارات المفخخة قد ارتفع من 133 هجوماً في العام 2004 ليصل في العام 2005 إلى 411 هجوماً".

أما بالنسبة للقتلى فقد أفادت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أن 2237 عسكرياً أمريكياً قد قتلوا في الحرب منذ بدايتها في مارس/آذار من العام 2003 وحتى نهاية العام *2005*، من بينهم *1751* سقطوا في القتال، فيما قتل الآخرون

في ظروف غير قتالية مثل حوادث السير والمرض والانتحار، وتابعت الوزارة في تقريرها أن عدد الجرحى الذي أصيبوا حتى نهاية العام 2005 بلغ 16472 جريحاً أصيبوا خلال عمليات قتالية، علماً بأن هذه الأعداد في زيادة يومية.

ولنا أن نقارن بين هذا التقرير الذي تحدث عن القتلى حتى نهاية العام 2005 وتقرير آخر نُشر في 12 أبريل/نيسان من العام 2006 أشار فيه الجيش الأمريكي إلى أحدث إحصائياته عن قتلاه في العراق منذ غزوه في مارس/آذار من العام 2003 وحتى أبريل/نيسان من العام 2006، أي بعد ثلاث سنوات من الاحتلال، وجاء فيه أن عدد قتلى الولايات المتحدة في العراق بلغ 2363 جندياً.

أما بريطانيا فقد بلغ عدد جنودها القتلى حتى ذلك التاريخ 103 جنود، أما قتلى الدول الأخرى الشركاء فيما يسمى بالتحالف فقد بلغ 105 جنود، وهذا يعني أن معدلات القتلى الأمريكيين في العراق تتزايد بشكل يومي وأن المحصلة النهائية ستكون دون شك كبيرة إذا سارت الأمور على نفس الوتيرة التي تسير بها منذ بداية الحرب في مارس/آذار من العام 2003.

التشكيك في عدد القتلى

أما في العام 2004 فقد كان عدد قتلى الجيش الأمريكي الذين تم الإعلان عنهم والاعتراف بمقتلهم قد بلغ 848 قتيلاً، في الوقت الذي بلغ فيه العدد 846 قتيلاً في العام 2005، وهذا يلقي علامات استفهام كثيرة حول محدودية الأعداد وتقاربها، مقارنة بتصاعد الهجمات بنسبة 30%، وهذا هو ما أثار شكوك وتشكيك كثير من المراقبين حتى الأمريكيين ومنهم دانييل غور الذي وصف تقرير الجيش الأمريكي بأنه "مزاعم".

ولا يقف الأمر عند حد تشكيك دانييل غور في عدد قتلى الجيش الأمريكي في العراق بل إن كثيراً من المراقبين يشيرون إلى أن إعلان البنتاغون عن أعداد القتلى لا يعني عدد القتلى الحقيقيين بقدر ما يعني عدد القتلى الذين تم إبلاغ عائلاتهم فعلياً بمقتلهم ممن لهم عائلات. أما الذين لا أهل لهم أو المرتزقة الذين لم يحصلوا على الجنسية الأمريكية لكنهم يقاتلون بأمل الحصول عليها

ومعظمهم من أمريكا الجنوبية، أو من يُطلق عليهم المتعاقدون الأمنيون، وهم المرتزقة التابعين لشركات الأمن التي تقوم على حماية كبار المسؤولين الأمريكيين في العراق، وتقوم بحروب فعلية في كثير من الأماكن كما أشرنا من قبل، فلا يعلم أحد الكثير عن أعداد قتلاهم أو عن مصير جثثهم وسط روايات عديدة عن مدافن سرية تقام لهم في العراق، أو قصص بحاجة إلى تأكيد عن وسائل أخرى يتم التخلص من خلالها من جثثهم مثل إلقائهم من الطائرات المروحية في أودية سحيقة غير مأهولة لا يصل إليها الناس. أو حرقها في محارق خاصة تحولهم إلى رماد خلال دقائق مثلما يحدث في المحارق التي انتشرت في أمريكا والدول الغربية على اعتبار أنها أرخص الطرق في التخلص من الجثث.

ولا يعرف أحد تفصيلات عن طبيعة العقود السرية المبرمة بين هذه الشركات والمرتزقة لا سيما البنود التي تتعلق بالتعامل مع جثة المرتزق بعد مقتله.

وفي حوار أجريته في لندن في 9 مايو/أيار 2007 مع جون هيلاري مدير الحملات والسياسات في منظمة "وور أون وونت" البريطانية وهي من أكبر المنظمات التي تحارب شركات المرتزقة، وتم بثه على الهواء في برنامجي التليفزيوني الأسبوعي "بلا حدود"، قال هيلاري: "إن العقود المبرمة بين هذه الشركات وبين المرتزقة لا زالت عقوداً سرية لا يعلم أحد شيئاً عن تفصيلاتها، وهذه الشركات لا تعلن عن قتلاها ولا تعطي تفصيلات عنهم".

ولنا أن نتخيل عدد القتلى من هؤلاء المرتزقة في ظل تقارير تشير إلى أن عددهم قد فاق عدد الجيش الأمريكي في العراق، حيث يقدر الجنود الأمريكيون بأنهم 135 ألفاً، في وقت يقدر فيه عدد المرتزقة بأن عددهم بين 120 إلى 160 ألف مرتزق.

وفي حوار آخر أجريته بمناسبة مرور أربع سنوات على الاحتلال الأمريكي للعراق مع الدكتور إبراهيم الشمري الناطق الرسمي باسم الجيش الإسلامي في العراق أحد أكبر فصائل المقاومة وتم بثه يوم الأربعاء الحادي عشر من أبريل/ نيسان من العام 2007 في برنامجي التليفزيوني "بلا حدود"، شكك الشمري في

الأرقام التي تعلنها وزارة الدفاع الأمريكية وقال: "إن الجيش الإسلامي رصد مدافن جماعية كثيرة تم تصويرها لجنود أمريكيين من المتعاقدين أو حملة الكارت الأخضر الذين لم يحصلوا على الجنسية الأمريكية أو المرتزقة حيث لا تنص العقود التي تبرمها الإدارة الأمريكية مع هؤلاء على تحمُّل مسؤولية نقل جثثهم إذا قتلوا إلى أي مكان، وأن كثيراً من الجثث تلقى في أودية سحيقة أو مقابر جماعية". وقال: "إن تقديرات الجيش الإسلامي العلمية للقتلى بناء على عدد الآليات التي يتم تدميرها وليس الهجمات الصاروخية أو المدفعية، هذه التقديرات تصل بالقتلى إلى خمسة وعشرين ألف قتيل".

وفيما تشكك كثير من المصادر في عدد القتلى المعلن عنه رسمياً، ومنها مصادر أمريكية إخبارية عديدة فإن مايكل أوهانلون الباحث في مؤسسة "بروكينجز للأبحاث" في الولايات المتحدة أبلغ مراسل وكالة رويترز في تقرير نشر في 12 يناير/كانون الثاني 2004 بأن: "عدد القتلى الأمريكيين شبه ثابت ويترواح بين 30 إلى 40 جندياً كل شهر". وأضاف قائلاً: "ولا أتوقع أن يتغير هذا الرقم سريعاً".

ومن يراقب الوضع في العراق يجد أن ما صرح به أوهانلون كان صحيحاً في فترة ما إلى حد ما، فالأرقام شبه ثابتة منذ بداية الحرب، بل إن المحصلة النهائية لقتلى العام 2004 لم تختلف كثيراً عن المحصلة النهائية للعام 2005، والفارق لم يكن سوى جنديين فقط.

ولم يقف الأمر عند حد تشكيك أوهانلون بل إن كثيراً من وسائل الإعلام الغربية المرموقة لم تتوقف عن عملية التشكيك في أعداد القتلى، منها ما نشرته صحيفة "الأوبزرفر" البريطانية في الشهور الأولى للحرب، وتحديداً في 14 سبتمبر/أيلول 2003 حيث شككت في أعداد القتلى والجرحى التي تعلنها الإدارة الأمريكية، وقالت: إن لديها تقارير تشير إلى أن عدد الجرحى من الجنود الأمريكيين حتى ذلك التاريخ بلغ ستة آلاف جريح، جراح 1500 منهم خطيرة، في وقت كانت الإدارة الأمريكية تقول: إن عدد الجرحى حتى يناير/كانون الثاني 2004 لا يزيد عن 2800 جريح.

كما أنه في الوقت الذي أعلنت فيه الإدارة الأمريكية أن قتلاها لا يزيدون

حتى نهاية العام 2004 عن حوالي 1400 جندي نشرت صحيفة "التايمز" البريطانية تقريراً عن تقديرات عدد القتلى حتى نهاية العام 2004 قالت فيه: "إن عدد القتلى في صفوف القوات الأمريكية حتى نهاية العام 2004 بلغ خمسة عشر ألف قتيل وخمسة وعشرين ألف جريح"؛ هذا مع نهاية العام 2004، فما بالنا بالعدد الحقيقي الآن وفق هذه التقارير؟ وكنت قد واجهت الجنرال مارك كيميت نائب رئيس المنطقة العسكرية الوسطى، ونائب قائد القوات الأمريكية السابق في العراق والناطق الرسمي السابق باسمها بهذه المعلومات في مقابلة أجريتها معه في برنامجي التليفزيوني "بلا حدود" وبُثت بمناسبة الذكرى السنوية الثالثة للاحتلال الأمريكي للعراق في 5 أبريل/نيسان 2006، ويستطيع القارىء أن يجد نصها في فصل سابق في ثنايا هذا الكتاب فقال: "إنه من الواضح أن هذه الأرقام غير صحيحة، إن قوات التحالف حريصة جداً حول كل واحد من ضحاياها، فنحن مسؤولون أمام عائلاتهم لإعلانها، وأي إيحاء من قِبل أي صحيفة بأننا نزيِّف أرقام ضحايانا هو مجرد كذب".

ومع إصرار المسؤولين الرسميين الأمريكيين على أرقامهم وتشكيك المراقبين ووسائل الإعلام الغربية لا سيما البريطانية في أعداد القتلى، فإن بعض المراقبين يشيرون إلى أن صحيفة "التايمز" في ذلك الوقت ربما تكون قد أدرجت كافة القتلى بمن فيهم المرتزقة والحاصلين على الكارت الأخضر والمتعاقدين مع القوات الأمريكية، حيث يؤكد معظم المراقبين كما أشرت من قبل أنهم لا يُدرجون ضمن أعداد القتلى الذين تعلن عنهم الولايات المتحدة بشكل رسمي.

وتبقي الأرقام الكبرى للقتلى علامات فارقة دائماً في الحروب مثل القتيل رقم ألف والقتيل رقم ألفين والقتيل رقم 2500 الذي نعاه بوش وبكاه، والقتيل رقم 3000، فماذا كانت مفارقات القتيل رقم 2000؟

القتيل رقم 2000

"كل مرة تخرج فيها فإنك تخرج وأنت تعلم أنك قد لا تعود". هذا ما وصف به السرجنت في القوات الأمريكية جوزيف بارنيز حالته وحالة زملائه من الجنود

الأمريكيين المحتلين للعراق حينما يخرجون في دوريات أمنية. وذلك في تقرير نشرته وكالة رويترز في الرابع والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول 2005، وهو نفس اليوم الذي أعلنت فيه وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاغون" بأن عدد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في العراق منذ اجتياحه في مارس/آذار من العام 2003 قد بلغ ألفي قتيل، وكانت وكالة رويترز قد نشرت تقريراً في 23 أكتوبر/تشرين الأول 2005 تحدث فيه هيرام توريس وهو جندي من بورتوريكو عمره 21 عاماً وصف بأنه من المرتزقة الذين يقاتلون في صفوف القوات الأمريكية في العراق، عن عمليات الاصطياد للجنود الأمريكيين التي يقوم بها صانعو القنابل الهواة من العراقيين، وهذه القنابل حصدت أكثر من نصف عدد الجنود الأمريكيين القتلى في العراق ونجحت المقاومة العراقية في تطويرها إلى درجة أذهلت الأمريكيين وجعلت جهودهم العسكرية والمالية موجهة بالدرجة الأولى من أجل إبطال مفعول تلك القنابل.

وفي مناسبة القتيل الأمريكي رقم ألفين أشارت صحيفة "التايمز" البريطانية في تقرير لها نشر في الخامس والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول 2005 إلى أن خسائر القوات الأمريكية في العراق تسير على نهج خسائر القوات الأمريكية في فييتنام، على الرغم من أن محصلة الخسائر ما زالت بعيدة عن الرقم الذي بلغته في فييتنام والذي وصل إلى 55 ألف جندي أمريكي، وأكدت الصحيفة أن عدد القتلى الأمريكيين المعلن عنهم بالمعدل اليومي لا يقلون عن جندي يومياً، أما عدد الجرحى فقد زادوا عن خمسة عشر ألف جريح، نسبة عالية منهم أصبحوا من ذوي العاهات المستديمة. لكن وكالة الأنباء الفرنسية زادت العدد في تقرير لها نشرته في 27 أكتوبر/تشرين الأول 2005 وقالت: إن عدد الجرحى يزيد عن 16 ألف جريح، إصابة 7800 منهم "بالغة"، وهناك تكتم شديد عن الحديث عنهم أو إليهم تفرضه الإدارة الأمريكية على وسائل الإعلام لإخفاء كثير من الحقائق.

وفي تقرير وكالة رويترز الذي بثته في 24 أكتوبر/تشرين الأول روى كثير من الجنود الأمريكيين حالة الرعب والفزع اليومي التي يعيشون فيها، وكيف مرت القذائف والصواريخ من فوق رؤوسهم، وانفجرت القنابل تحت أقدامهم، مما

جعلهم يعيشون حالة دائمة من ترقب الموت الذي يحوم حولهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وقد أدى ارتفاع عدد القتلى الأمريكيين وحالة الخوف والرعب التي يعيشها الجنود في العراق والتي تحولت إلى حالة من ترقب الموت إلى تقلص عدد المؤيدين للحرب، وهذا ما أكدته وكالة الأنباء الفرنسية في تقرير لها نشر في 26 أكتوبر/تشرين الأول 2005 ذكرت فيه أنه: "من الصعب أكثر فأكثر العثور على أمريكي يساند الحرب في العراق الآن بعدما بلغ عدد القتلى في صفوف القوات الأمريكية ألفي قتيل منذ اجتياح العراق في مارس/آذار من العام 2003".

كما أن صحيفة "وول ستريت جورنال" الأمريكية كانت قد نشرت استطلاعاً للرأي أجراه معهد هاريس في 25 أكتوبر/تشرين الأول 2005، جاء فيه أن أكثر من نصف الأمريكيين 53% يعتقدون أن الحرب على العراق كانت "خطأ". بينما يرى 34% من الأشخاص الذين شاركوا في الاستطلاع أن الحرب كانت "مبررة".

وكان نفس المعهد قد أجرى استطلاعاً سابقاً للرأي في شهر سبتمبر/أيلول من العام 2005 رأى فيه 49% من الأمريكيين أن النزاع العراقي كان خطأ، بينما كانت نسبتهم في سبتمبر/أيلول من العام 2004 حسب استطلاع قام به نفس المعهد 43% مما يعني أن نسبة المعارضين الأمريكيين للاحتلال الأمريكي للعراق في تزايد مستمر.

وقد أوجز المواطن الأمريكي آل إدواردز من شيكاغو في تصريح أدلى به لوكالة الأنباء الفرنسية رأي الأمريكيين المعارضين لما تقوم به القوات الأمريكية في العراق قائلاً: "من العار أن يموت جنودنا في سبيل أمر لا يؤمن به الكثيرون، ولا يصدقه الكثير من الناس في هذا البلد".

ورغم الحظر الذي تفرضه القوات الأمريكية على نشر صور الجنود الأمريكيين فقد قامت صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية في 26 أكتوبر/تشرين الأول 2005 وبمناسبة الإعلان عن مقتل الجندي رقم 2000 بنشر صور 995 جندياً من الألفين الذين أُعلن عن مقتلهم في العراق، بعدما كانت قد قامت في

سبتمبر/أيلول من العام 2004 بنشر صور الألف جندي الذين كانوا قد قتلوا حتى ذلك التاريخ.

أما صحيفتا "واشنطن بوست" و"يو إس إيه توداي" فقد زينتا الصفحات الأولى بخريطة للولايات المتحدة توضح فيها المدن والولايات التي ينتمي لها هؤلاء القتلى فكانت تغطي معظم المدن والولايات الكبرى للولايات المتحدة.

وأشارت "واشنطن بوست" إلى أن 1183 من الجنود الألفين الذين قتلوا حتى ذلك التاريخ يبلغون من العمر 21 إلى 30 عاماً، بينما 358 قتيلاً دون الحادية والعشرين، وهو السن الذي يمنع فيه شراء الكحول أو الدخان في معظم الولايات المتحدة.

داستن دونيكا.. القتيل رقم 3000

من خطة بوش إلى عقيدة بوش إلى استراتيجية بوش كانت الولايات المتحدة في العراق تخطو من فشل إلى فشل ومن هزيمة إلى أخرى، الفشل والهزيمة التي كان المراقبون يرصدونها ويشيرون إليها منذ البداية. لكن الأمر وصل إلى التدرج في الاعتراف بالفشل والهزيمة وعدم تحقيق النصر على كل مستويات القيادة الأمريكية حتى وصل إلى حد الاعتراف الصريح من الرئيس الأمريكي نفسه أكثر من مرة، ربما كان أوضحها وهو يعلن استراتيجيته الجديدة في العراق في العاشر من يناير/كانون الثاني 2007 بعدما فشلت كل الخطط والاستراتيجيات السابقة.

وقد جاءت هذه الخطة بعدما تخطى عدد الجنود القتلى الأمريكيين المعلن عنهم رسمياً في العراق حاجز الثلاثة آلاف قتيل، هذا ـ طبعاً ـ بخلاف الجنود المرتزقة أو الذين يعملون مع الشركات الأمنية أو غير المسجلين رسمياً في الجيش الأمريكي ـ كما أشرنا من قبل.

ومن المؤكد أن الجندي الأمريكي داستن دونيكا لم يكن يعلم حينما أُرسل إلى العراق أنه سوف يحمل رقماً مميزاً في الهزيمة العسكرية الأمريكية في العراق، وهو لقب القتيل رقم 3000، وقد قتل دونيكا في مواجهة مسلحة

بالأسلحة الرشاشة بين القوات الأمريكية ومقاومين عراقيين في "الأنبار" كما جاء في البيان العسكري الأمريكي، وكما يحلو للقوات الأمريكية دائماً أن تحدد نطاق مواجهاتها وأماكن قتلاها مع المقاومة وتكاد تحصرها كلها في "الأنبار"، وكأنها لا تتعرض لمواجهات مسلحة في محافظات أخرى مثل ديالى أو الموصل أو صلاح الدين أو غيرها من محافظات ومدن وقرى العراق المختلفة، فالحديث دائماً عن الأنبار وهي محافظة واحدة من محافظات العراق يخرج القوات الأمريكية من نطاق إشعار العالم أنها تتعرض للمقاومة والهزيمة العسكرية في شتى أنحاء العراق، وإنما توحي بأن المقاومة محصورة في محافظة واحدة هي "الأنبار"، ولو أن المقاومة محصورة في الأنبار فقط، هل تعجز أمريكا بكل ما لديها من سطوة عسكرية عن السيطرة على الأنبار؟

داستن دونيكا قتل يوم الخميس الثامن والعشرين من ديسمبر/كانون الأول عام 2006، وقد علم والده بمقتله من خلال شبكة الإنترنت، ومن خلال عشرات الاتصالات التي جاءته من الصحفيين الذين سألوه عن مشاعره من خلال أن ابنه يحتل رقماً مميزاً بين قتلى أمريكا في العراق وهو الرقم 3000.

والد دونيكا الأب المفجوع في ولده الذي كان قد انتهى للتو من دراسته الثانوية وبداية دراسته في الجامعة، عبر عن ألمه الشديد للخبر، ولم يتوقف الصحفيون عند حد الاتصال بوالد دونيكا لإخباره، وإنما فتحوا موقع دونيكا على الإنترنت ليعرفوا ما الذي كان يدور بعقل دونيكا - الذي التحق بالجيش بعدما أنهى دراسته الثانوية حتى يحصل على منحة جامعية - وهو يواجه الموت في العراق، وكان من بين هؤلاء الصحفيين جيمس بون مراسل صحيفة "التايمز" البريطانية في نيويورك الذي كتب تقريراً عن دونيكا نشرته صحيفته في الثاني من يناير/كانون الثاني 2007 جاء فيه: إن دونيكا الذي كان يواجه الأهوال في العراق كان "يود العودة إلى مقاعد الدراسة الجامعية، وأن أحد أكبر مخاوفه تتمثل في مد خدمته العسكرية"، لكن الموت على أيدي رجال المقاومة في العراق عاجل دونيكا الذي لم يعد إلى دراسته ولم يبدأ حياته بعد مثل كثيرين غيره من الجنود الأمريكيين في العراق الذين تترواح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، ممن يسألون أنفسهم السؤال الذي سأله دونيكا

لنفسه: "ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ فأجاب: لو كنت أعرف لما كنت هنا ـ في العراق".

وبذلك لم ينقضِ عام 2006 إلا وقد سجَّل الأمريكيون هذ الرقم: القتيل رقم 3000، في شهر اعتبر هو الأسوأ بالنسبة لهم والأكثر في عدد القتلى خلال العام 2006.

فقد بلغ عدد القتلى الأمريكيين في شهر ديسمبر/كانون الأول من العام 2006 مئة وأحد عشر قتيلاً، بينما كان عددهم في أكتوبر/تشرين الأول مئة وخمسة من القتلى، وفي سبتمبر/أيلول ثلاثة وسبعين قتيلاً، وفي نوفمبر/تشرين الثاني تسعة وستين، وفي أغسطس/آب أربعة وستين، وفي يناير/كانون الثاني اثنين وستين، وفي فبراير/شباط خمسة وخمسين، وفي مايو/أيار أربعة خمسين، وفي أبريل/نيسان أربعة وأربعين، أما مارس/آذار فقد كان أقل الشهور حيث قتل حسب المصادر الرسمية الأمريكية واحد وثلاثون جندياً فقط، ولعل تصاعد الأعداد بشكل اضطرادي يمثل حجم وفداحة المأزق الذي تعيشه القوات الأمريكية في العراق، وأن الرئيس بوش حينما ظهر في السابع من يناير/كانون الثاني 2007 ليعلن استراتيجيته الجديدة المثيرة للجدل والتي لا تحظى بالدعم الداخلي أو الخارجي إنما كان يتوج مرحلة جديدة من مراحل الفشل.

ومن المؤكد أن زيادة عدد القوات الأمريكية في العراق حسب استراتيجيته الجديدة يعني زيادة عدد القتلى، وأن الألف الرابعة التي بدأ تعدادها بعد مقتل الجندي داستن دونيكا، سوف يزيد وتيرتها إرسال مزيد من الجنود الأمريكيين للعراق، فمن يا ترى الجندي الأمريكي الذي سيحظى بلقب القتيل رقم 4000؟

أكثر الشهور دموية للأمريكيين في العراق

أما أكثر الشهور دموية على القوات الأمريكية خلال سنوات الاحتلال الثلاث الأولى والتي سبقت العام 2006 والتي فصّلناها مع القتيل رقم 3000 فقد أشارت لها مصادر عديدة منها ما أشارت إليه صحيفة "الواشنطن بوست" الأمريكية في تقرير لها نشر في بداية ديسمبر/كانون الأول 2003 ذكرت فيه أن شهر

نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2003 كان الشهر الأكثر دموية للقوات الأمريكية في العراق في ذلك العام، حيث بلغ عدد القتلى من الجنود الأمريكيين الذين أعلن عنهم في هذا الشهر 79 قتيلاً، متجاوزاً بذلك عدد القتلى الذين قتلوا خلال شهري الحرب المباشرة مارس/آذار وأبريل/نيسان من العام 2003 حيث بلغ عدد القتلى الأمريكيين في مارس/آذار 2003 حسب إحصاءات البنتاغون المعلنة 65 قتيلاً فيما بلغوا 73 خلال شهر أبريل/نيسان، لكن صحيفة "الأندبندنت" البريطانية قالت في تقرير لها نشرته في 18 يناير/كانون الثاني 2004 أن عدد القتلى في نوفمبر/تشرين الثاني 2003 كان 81 قتيلاً وليس 79 كما ذكرت "الواشنطن بوست" الأمريكية وذلك نقلاً عن مصادر الجيش الأمريكي، بينما أشارت تقارير أخرى منها تقرير لرويترز في أول أبريل/نيسان من العام 2004 أن عدد قتلى شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2003 بلغ 82 جندياً أمريكياً، وأكدت أنه لا يتم إدراج القتلى من المقاولين الأمنيين أي المرتزقة في تلك الأعداد.

كما أن هناك تقارير أخرى تشير إلى أن هذه الأعداد أيضاً لا تشمل الحاصلين على "الكارت الأخضر" أي الإقامة الدائمة في الولايات المتحدة أو الذين يقاتلون كجنود مرتزقة لا يحملون الجنسية الأمريكية أو الكارت الأخضر ومعظمهم من أمريكا الجنوبية، وقد شاهدت أثناء تغطيتي الصحفية للاحتلال الأمريكي للعراق في أكثر من رحلة قمت بها إلى هناك بعد مارس/آذار 2003 كثيراً من هؤلاء الجنود ومعظمهم من أمريكا الجنوبية وتحديداً من المكسيك وبورتوريكو وهم لا يتحدثون الإنجليزية وإنما الإسبانية ويطلق عليهم العراقيون "المكسيكان" نسبة للمكسيك، أو الإسبان نسبة للغة التي يتحدثون بها، لكنهم أيضاً ربما ينتمون لدول أخرى في أمريكا الجنوبية، وهؤلاء عادة ما يدخلون في تعداد الجيش الأمريكي ويرتدون ملابسه، بخلاف المرتزقة الذين يعملون مع الشركات الأمنية فلهم ملابسهم الخاصة.

ورغم ذلك فإننا إذا عدنا إلى الأرقام والتقارير الرسمية الأمريكية فإننا نجد أن وكالة رويترز للأنباء نشرت تقريراً مفصلاً في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 أكدت فيه أن عدد القتلى الأمريكيين الذين قتلوا حتى ذلك التاريخ وكان عددهم 397 جندياً يفوق عدد القتلى الأمريكيين الذين قتلوا خلال السنوات الأولى

من حرب فييتنام التي بدأت رسمياً في 11 ديسمبر/كانون الأول عام 61 حيث بلغ عدد القتلى حتى نهاية العام 1964 من الجنود الأمريكيين 392 جندياً.

ويعود السبب الرئيسي وراء ارتفاع عدد القتلى الأمريكيين في شهر نوفمبر/تشرين الثاني 2003 إلى نجاح المقاومة في إسقاط أربع مروحيات أمريكية، قتل فيها 39 جندياً، غير أن الشهور الأسوأ للقوات الأمريكية في العراق جاءت بعد ذلك، وإذا كان شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2003 الأسوأ في ذلك العام فقد كان شهر نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2004 وهو الشهر الذي وقعت فيه معركة الفلوجة الثانية هو الأكثر سوءاً على مدى سنوات الاحتلال الأربع حيث قتل فيه حسب الأرقام الرسمية وفقاً لتقرير بثته وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني 2004 حوالي 137 جندياً أمريكياً، يليه شهر أبريل/نيسان من العام نفسه 2004 حيث بلغ عدد القتلى الأمريكيين المعلن عنهم 135 قتيلاً، وهذين الشهرين وقعت فيهما معركتي الفلوجة الأولى والثانية.

أما في مايو/أيار 2007 فقد وصل عددهم إلى 122 جندياً، وفي شهر يناير/كانون الثاني من العام 2005 بلغ عدد القتلى من الجنود المعلن عنهم رسمياً 106 جنود، وفي أبريل/نيسان 2007 بلغ عددهم 104 جنود، بينما بلغ عددهم في أكتوبر/تشرين الأول من العام 2005 حوالي 93 جندياً.

وفي 16 أغسطس/آب من العام 2005 نشرت صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية تقريراً قالت فيه: إن الأسبوع الممتد من 3 إلى 10 أغسطس/آب 2005 كان رابع أكثر الأسابيع دموية للجيش الأمريكي في العراق حتى ذلك التاريخ، حيث قتل فيه 44 جندياً من المارينز.

وكانت وكالة "أسوشيتدبرس" قد نشرت تقريراً في 2 مايو/أيار 2004 حول تغير إحصاءات أعداد القتلى والجرحى الأمريكيين في العراق كلما انفجرت قنبلة أو أطلقت رصاصة هناك، وقالت: إن أعمار القتلى من الجنود الأمريكيين في العراق حتى ذلك التاريخ كان الأصغر عمره 18 بينما الأكبر بلغ عمره 55 عاماً.

أكثر الحوادث دموية

أما أكثر الحوادث الدموية التي تعرضت لها القوات الأمريكية في العراق فقد أشارت إليها وكالة رويترز في تقرير نشرته في 26 أكتوبر/تشرين الأول 2005 تضمن أكثر الحوادث الدموية التي تعرضت لها القوات الأمريكية في العراق، وذلك بمناسبة إعلان وزارة الدفاع الأمريكية أن عدد القتلى الأمريكيين في العراق قد بلغ ألفي قتيل، من بين هذه الحوادث، إسقاط طائرة مروحية من طراز شنيوك قرب الفلوجة في 2 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 وقد قتل فيها 16 جندياً أمريكياً، وأصيب 21 آخرون كانوا على متنها، وفي 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 اصطدمت طائرتان مروحيتان من طراز بلاك هوك وهما تتعرضان لنيران المقاومة في الموصل وقتل في هذا الحادث 17 جندياً، وفي 8 يناير/كانون الثاني 2004 أسقطت طائرة من طراز بلاك هوك قرب الفلوجة، وقتل الجنود التسعة الذين كانوا على متنها، وفي 21 ديسمبر/كانون الأول 2004 تمكن مقاوم يرتدي زياً عسكرياً عراقياً من تفجير نفسه داخل خيمة في مطعم في قاعدة عسكرية في الموصل فقتل 18 جندياً أمريكياً، وفي 26 يناير/كانون الثاني 2005 أسقطت طائرة مروحية للنقل تابعة لمشاة البحرية كانت تنقل قوات فوق الصحراء الغربية للعراق، وقد قتل 31 جندياً أمريكياً كانوا على متنها، وفي 3 أغسطس/آب 2005 قتل 14 من مشاة البحرية الأمريكية في انفجار على جانب الطريق أصاب عربة هجومية برمائية كانوا يستقلونها قرب مدينة حديثة شمال بغداد.

هذه بعض أشد الحوادث دموية التي تعرض لها الأمريكيون خلال ثلاث سنوات من احتلالهم للعراق. غير أن الأرقام الكبرى تظل تلعب دوراً مهماً في أعداد القتلى، مثل القتيل رقم 1000 الذي أعلن عنه في بداية سبتمبر/أيلول من العام 2004، والقتيل رقم 2000 الذي أعلن عنه في الرابع والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام 2005، والقتيل رقم 2500 الذي أعلن عنه البنتاغون رسمياً في 14 يونيو/حزيران 2006، غير أن بوش نعاه وبكاه مع الآخرين قبل ذلك أثناء اليوم الوطني لضحايا الحرب في 30 مايو/أيار 2006.

ورغم بكاء بوش على القتيل رقم 2500 ونعي البنتاغون كل يوم لقتلاه إلا أن تقارير كثيرة تتساءل حول مصير هؤلاء القتلى وأسلوب التعامل مع جثثهم

من قبل القوات الأمريكية بعد قتلهم حيث يتم دفنهم بشكل شبه سري ودون مراسيم وبعيداً عن أعين الصحافة والإعلام، في وقت يعتبره الكثير من الأمريكيين إهانة لهؤلاء الذين ضحوا من أجل الوطن. وقد سعى كثير من الصحفيين الأمريكيين والغربيين لرصد رحلة جثث القتلى الأمريكيين العائدين في صناديق الموت من العراق واختراق حاجز السرية الذي تفرضه القوات الأمريكية على جثث القتلى ورحلتها من العراق المحتل إلى مقبرة القتيل في الولايات المتحدة.

مستودع الجثث في دوفر

من أبرز التقارير التي سعت لرصد رحلة جثث القتلى الأمريكيين تقرير قدمه مراسل وكالة رويترز في وقت مبكر وبعد عدة أشهر من الاحتلال الأمريكي للعراق، وكان ذلك في شهر أغسطس/آب من العام 2003، حيث قام بزيارة إلى قاعدة سلاح الجو في دوفر بولاية "دويلاوير" التي تبعد حوالي 1,6 كيلو متر عن خليج دويلاوير، والتي عن طريقها تعود نعوش جميع الجنود الأمريكيين الذين يقتلون في العراق حيث يوجد فيها أكبر مستودع للجثث في العالم ـ حسب وصفه ـ وهو المستودع الوحيد بهذا الحجم في الولايات المتحدة، ومنذ بداية الحرب في العراق والعاملون في هذه المهمة البغيضة ـ حسب وصف رويترز في تقرير نشر في 8 أغسطس/آب 2003 ـ يعملون دون توقف حوالي 12 ساعة يومياً ودون عطلات رسمية.

ونقل التقرير عن كارين غايلز رئيسة مستودع الجثث في دوفر قولها، أنها وزملاءها يتجنبون مشاهدة النشرات الإخبارية لئلا يتعلقون بصور الجنود الذين قتلوا وأحضرت جثثهم إلى المستودع.

وتهبط في القاعدة طائرات الشحن الجوي من طراز سي 5 وسي 17 وأحياناً سي 747 المحملة بنعوش القتلى الأمريكيين العائدين من العراق وأفغانستان على مدار الساعة، وجاء في تقرير آخر نشرته رويترز في 12 يناير/كانون الثاني 2004 عما يحدث لجثث الجنود التي تصل إلى مستودع الجثث في دوفر جاء فيه: "لا يزال قتلى الحرب الأمريكيون يعودون إلى الوطن بشكل منتظم

وسط أجواء من الكآبة، حيث تهبط جثث القتلى الملفوفة في أكياس داخل صناديق نقل معدنية تغلفها الثلوج على متن طائرات عسكرية رمادية اللون أو طائرات بيضاء مدنية من طراز بوينج 747، ويكون في استقبال الجثث على المدرج حرس الشرف ورجل دين وموكب صغير من سيارات زرقاء اللون، ويصلي رجل الدين على القتلى، بينما يلف جنود حرس الشرف علماً حول كل نعش ويرافقونه إلى السيارات التي تنقل النعوش لمسافة تزيد قليلاً عن ثلاثة كيلومترات إلى مستودع جثث ميناء قاعدة دوفر الجوية التي تبلغ مساحتها 6500 كيلو متراً مربعاً، وهناك في مستودع الجثث الوحيد للجيش الأمريكي بالبلاد يتم التعرف على هوية أشلاء وجثث الضحايا، وتخضع لعمليات الطب الشرعي وتكفَّن وتوضع في نعوش وتشحن إلى ذويهم في رفقة عسكريين".

هذا وصف مختصر لكيفية التعامل مع جثث الجنود الأمريكيين القتلى الذين يعلن عنهم بشكل رسمي حال وصولهم إلى مستودع الجثث في دوفر، أما المرتزقة وحملة الكارت الأخضر والمتعاقدون الأمنيون الذين ربما يصل عدد قتلاهم إلى أضعاف العدد الرسمي المعلن عنه من قبل وزارة الدفاع، فلا يعلم أحد - كما أشرت من قبل - بشكل موثق ودقيق حتى الآن كيف يتم التصرف في جثثهم.

أما مستودع الجثث في دوفر فقد بدأ خدماته عام 1955، لكن المنشأة الحالية التي تعتبر أكبر مستودع للجثث في العالم ويمكن أن تستوعب آلاف الجثث ولمدد طويلة فقد بنيت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول من العام 2001، وتكلف بناؤها ثلاثين مليون دولار، وافتتحت في أكتوبر/تشرين الأول من العام 2003، وكأن الذين اتخذوا القرار بإنشائها كانوا يعلمون أن الولايات المتحدة سوف تغرق في مستنقع من الحروب يستدعي بناء هذا المستودع الضخم الذي لم يخل من جثث الجنود الأمريكيين منذ إنشائه.

ويبدو أنه لن يخلو لسنوات طويلة قادمة.

ولمخاوف البنتاغون من تأثير صور النعوش على الرأي العام الأمريكي فقد أصدر البنتاغون قراراً في مارس/آذار من العام 2003 يمنع بموجبه تصوير النعوش العائدة للجنود. وبرر المسؤولون في وزارة الدفاع ذلك بأنه قرار قديم فرض عام 1991.

وفي الوقت الذي تفخر فيه الأمم دائماً بالقتلى الذين قتلوا في سبيل وطنهم فإن القتلى الأمريكيين في العراق يعاملون معاملة أخرى ويتم دفنهم بعد تجهيز جثثهم في مستودع الجثث في مراسم شبه سرية.

المراسم السرية للجنازات والغضب الشعبي من الإدارة

أثارت هذه التقارير - حينما نشرت - ردود فعل واسعة جعلت صحفاً عالمية أخرى مرموقة على رأسها صحف أمريكية تخوض في مسألة القتلى والجرحى الأمريكيين، منها ما نشرته "أنترناشيونال هيرالد تريبيون" الأمريكية في 22 نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2003 ليس حول التعتيم على أعداد القتلى والجرحى فقط ولكن حول مراسم عمليات دفن الجنود القتلى في الحرب والتي تتم وسط إجراءات شبه سرية. وانتقدت الصحيفة غياب الرئيس بوش عن حضور هذه الجنازات أو عدم تقديم العزاء لأسر الضحايا، حيث نشرت صحف أخرى تقارير كثيرة بعد ذلك تفيد بأن الشخص الوحيد الحريص على تقديم العزاء لأسر الضحايا هو النائب الديمقراطي المعارض للحرب بشدة "جاك ميرتا" الذي هز الكونغرس في خطابه الذي ألقاه في 17 نوفمبر/تشرين الثاني 2005 مطالباً بخروج القوات الأمريكية من العراق خلال ستة أشهر، وذلك بعدما كان من أقوى المؤيدين قبل ذلك لشن الحرب على العراق.

كما أن ميرتا هدد في 30 أبريل/نيسان 2007 باتخاذ إجراءات تصل إلى إقالة الرئيس بوش بسبب حرب العراق.

وكانت وكالة الأنباء الفرنسية قد بثت في 19 ديسمبر/كانون الأول 2004 تقريراً جاء فيه أن عائلات القتلى من الجنود أعربت عن غضبها العارم من وزير الدفاع الأمريكي آنذاك دونالد رامسفيلد، بعدما اكتشفوا أن رامسفيلد لا يوقع على الرسائل التي يرسلها البنتاغون إلى أسر القتلى للعزاء، وذلك طبقاً لما نشرته صحيفة "واشنطن بوست"، وإنما كان توقيعه مطبوعاً، وقد اعترف رامسفيلد بأنه لم يكن يوقع على الرسائل فعلاً لكنه تعهد في محاولة لامتصاص غضب أهالي القتلى أن يوقع على الرسائل مستقبلاً.

وقد اعتبر كثير من العائلات أن ما قام به رامسفيلد إهانة لهم ولقتلاهم، وقال شقيق أحد الجنود القتلى وقد كان مجنداً في العراق يدعى إيفان: "إنها بالنسبة لي إهانة ليس فقط باعتباري شخصاً فقد عزيزاً عليه ولكن أيضاً كشخص خدم في العراق".

وقد ذهبت الانتقادات التي وجهت للرئيس والمسؤولين الأمريكيين الذين لا يقدمون العزاء لأسر القتلى إلى أن هذا يعني - حسب وصف صحيفة "إنترناشيونال هيرالد تريبيون" الأمريكية: "حرمان الجنود القتلى وأسرهم من حق اعتراف الجمهور بتضحيتهم". كما انتقدت الصحيفة: "البيت الأبيض الذي يتحدث عن الحفاظ على كرامة وخصوصية قتلى الحرب، وإذا كان الحفاظ على خصوصية الأمريكيين الذين يعانون له مثل هذه الأولوية، فلماذا عمد البيت الأبيض إلى دعوة الكاميرات لتصوير الرئيس وهو يعانق ضحايا كل إعصار أو حريق أو زلزال".

وقد جمع الكاتب الأمريكي "كريستوفر شيير" مؤلف كتاب "أكبر خمس أكاذيب قالها لنا بوش عن العراق" في مقال نشرته صحيفة "الخليج" الإماراتية في 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 نقلاً عن موقع "ألترنت" - جمع كثيراً من ردود الأفعال من عائلات الجنود والمحاربين القدماء وكتاب أمريكيين عن تجاهل الرئيس الأمريكي حضور جنازات الجنود، بل وحتى عدم تقديم التعازي لعائلاتهم مما جعلهم يتهمون الرئيس بأنه "يفتقر إلى الذوق"، وكذلك الضغوط التي تمارس على عائلات الجنود حتى لا يدلوا بأي أحاديث عن أوضاع أبنائهم.

ونقل عن بول فوجل والد أحد الجنود الموجودين في العراق قوله: "إن معظم عائلات العسكريين تشعر بأنها معزولة للغاية وخائفة من التحدث علانية". ويضيف: "إنه أمر محبط للغاية لعائلة أحد العسكريين عندما تدرك أنها تدفع ثمن حرب لا يوجد إجماع وطني بشأنها". وقال: "إنها على ما يبدو حرب لا يمكن كسبها ولا يوجد احتمال لانتهائها، وهي أسوأ كلمات يمكن أن تسمعها عائلة أحد العسكريين".

وينهي فوجل تعليقه الهام قائلاً: "إن الشعور الذي يسيطر علينا هو أن بوش بحاجة إلى أن يتصرف بنبل وندم ويقول: "لقد ارتكبنا خطأ ونحن بحاجة

للمساعدة"، وربما يكون حضوره مراسم تشييع أحد القتلى من الجنود الأمريكيين الذين حاربوا في العراق نقطة بداية".

لكن بوش لم يحضر حتى الآن أي مراسم تشييع لأي جندي، أما وزير دفاعه روبرت غيتس الذي عينه خلفاً لدونالد رامسفيلد فقد أعلن أن أسوأ اللحظات لديه تلك التي يجلس فيها مساء كل يوم للتوقيع على برقيات العزاء لأسر القتلى الأمريكيين في العراق، وأكد غيتس في تصريحات نشرتها وكالة الصحافة الفرنسية في 25 مايو/أيار 2007 على أنه يأمل أن يتوقف عن كتابة رسائل التعزية اليومية لأسر الجنود، وقال بأسى: "تعرفون أنني أبذل ما بوسعي للتوقف عن كتابة رسائل التعزية هذه، إنه أمر رهيب والناس يعانون منه... لكننا لن نستطيع قلب الأمور بين عشية وضحاها".

وهكذا يعترف غيتس أمام الصحفيين أن جيشه لن يستطيع قلب الوضع في العراق بين عشية وضحاها.

وفي تصريحات لراديو "سوا" الذي أسسته الإدارة الأمريكية للترويج لمشاريعها في المنطقة اعترف غيتس بأن من سماهم "أعداء العراق" يتصرفون بذكاء وبوتيرة أسرع ويملكون تكنولوجيا معقدة.

أما الرئيس الأمريكي جورج بوش فكان أكثر يأساً وكآبة من وزيره غيتس، فقد قال في مؤتمر صحفي عقده في 25 مايو/أيار 2007: "إن الصيف القادم سيمثل اختباراً حاسماً لاستراتيجيتنا حيث من المرتقب أن يصل إلى بغداد آخر فوج من فرق الدعم العسكرية في منتصف شهر يونيو/حزيران القادم". إن هذا الكلام يدل على أن بوش يتوقع أن يكون صيف 2007 صيفاً دموياً في العراق.

ولعل غلاف مجلة "نيوزويك" الأمريكية المؤرخة في 10 فبراير/شباط 2004 والذي حوى صور ديفيد كاي مفتش الأسلحة والرئيس الأمريكي جورج بوش ونائبه ديك تشيني ووزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد ووزير الخارجية آنذاك كولن باول ورئيس السي آي إيه جورج تينيت ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير قد أُعدّ خصيصاً للاستجابة

إلى طلب بول فوجل حينما وضع عنواناً كبيراً على الغلاف بين قوسين يقول: "لقد كنا جميعاً مخطئين".

وقد أكدت صحيفة "إنترناشيونال هيرالد تريبيون" في تقريرها الذي نشرته في 22 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 " أن الإدارة الأمريكية لا شك تشعر بأن عرض النعوش على التلفزيون أو حضور الرئيس لجنازات الجنود القتلى سوف يقوض دعم الجمهور الأمريكي للحرب، وهذا يعتبر نوعاً من الاعتراف بمدى ضعف هذا الدعم".

وكانت وكالة الأنباء الألمانية "دبا" قد نشرت تقريراً من واشنطن في أعقاب سقوط المروحية الأمريكية في الفلوجة في 7 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 وصفت فيه جنازة إحدى القتيلات من المجندات في هذه الطائرة التي كان ركابها في طريقهم للعودة في إجازة للولايات المتحدة ولكن الذي عاد هو جثثهم، قالت فيه: "في حلة سوداء جلس وليام سوار توورثي (8 سنوات) على كرسيه في صمت عميق، بينما كانت تجري مراسم دفن أمه هذا الأسبوع في مدفن إيرلنغتون خارج واشنطن، وراح ضابط في الجيش يواسي الطفل بالتربيت على خديه، وكانت شارون سوار توورثي (43 عاما) والدة وليام قد قتلت عندما أسقط مقاتلون عراقيون مروحية أمريكية في 7 نوفمبر/تشرين الثاني قرب الفلوجة، وكانت جنازتها تحمل الرقم 38، ولم توجه الدعوة لحضور جنازتها إلى العامة أو الصحافة، ومُنع الصحافيون من حضور الجنازات بعدما أعلنت وزارة الدفاع عن قواعد جديدة لتقليص التغطية الإعلامية، كما لم يعد يسمح بتصوير التوابيت العائدة إلى الوطن في قاعدة دوفر الجوية في ديلاوير."

وفي 31 أغسطس/آب من العام 2004 نشرت وكالة رويترز تقريراً عن حالة الصدمة التي يعيشها الأمريكيون لا سيما أسر الجنود الذين يقاتلون في العراق، وذكرت منهم حالة توم تيتوس حاكم ولاية إيداهو الأمريكية، ومما جاء في التقرير: "مر توم تيتوس حاكم ولاية إيداهو بصدمة حين مات أعز صديق له بين ذراعيه في حرب فييتنام عام 1971، ويوم الاثنين الماضي مر بتجربة أسوأ حينما دفن ابنه براندون ـ 20 عاما ـ الذي قتل يوم 17 أغسطس/آب في العراق،

تكرر مثل هذا المشهد ألف مرة حتى الآن منذ أن غزت الولايات المتحدة العراق في مارس/آذار 2003".

ورغم أن الأمريكيين نادراً ما يسمعون عن قتلاهم بسبب التكتم الشديد الذي تفرضه الإدارة الأمريكية، إلا أن مقتل الجندي براندون اكتسب أهمية خاصة كون والده حاكم إحدى الولايات الأمريكية.

غير أن انتقاد الأمريكيين لغياب الرئيس بوش عن حضور أي من جنازات الجنود القتلى لم يتوقف، حيث اكتفى في 11 نوفمبر/تشرين الثاني 2003 وهو يصادف يوم المحاربين القدماء بالقول: "شيعنا رجالاً ونساء قضوا بعيداً عن الوطن، وهذا مصدر ألم عظيم لأسرهم ونصلي من أجل سكينتهم، إننا نذكر ولا ننسى ونكرم كل ضحية". وهو ينتهز الفرصة من آن لآخر ليقول للأمريكيين مثل هذا الكلام، ويصل به التأثر إلى حد إظهار البكاء أحياناً كما فعل وهو ينعى القتيل رقم 2500 في 30 مايو/أيار من العام 2006.

لكن هذه التصريحات البكائية ومنع البنتاغون نشر صور الجثث والتوابيت لم ترض تشارلز شيهان ميلز رئيس جمعية المحاربين القدامى الذي يقف ضد الحرب في العراق حيث قال: "إن البنتاغون يريد إخفاء الخسائر البشرية الحقيقية للحرب لأن رد فعل الرأي العام على صور التوابيت والجنازات يمكن أن يؤدي إلى تغيير الموقف من الحرب، والحكومة تريد أن تسيطر على التغطية الإعلامية".

وقد انتقد ميلز الرئيس بوش الذي لم يحضر جنازة واحدة حتى الآن فيما حضر الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر في قاعدة دوفر الجوية مراسم تشييع جثامين ثمانية جنود أمريكيين قتلوا في المحاولة الفاشلة التي جرت في العام 1980 لإنقاذ رهائن السفارة الأمريكية في إيران. كما كان الرئيس ريغان حاضراً لدى وصول التوابيت التي تحمل جثامين 241 من جنود مشاة البحرية الذين لقوا حتفهم في هجوم وقع على ثكنتهم في بيروت.

وقد انتقد الكاتب الأمريكي أندرو روزنتال في عموده في صحيفة "نيويورك تايمز" غياب الرئيس بوش عن جنازات الجنود وعزائهم قائلاً: "إن الجيش يؤدي الواجب الذي لا مفر من أدائه، ولكن هؤلاء الذين واجهوا الموت

بشجاعة يستحقون الاحتفاء بهم وتكريمهم، وهذا جزء محوري من ثقافة المحارب، وهو غائب في الغالب عن الطريقة التي يدير بها الرئيس بوش الحرب على العراق".

لكن مراقبين آخرين يقولون: إن عدم مشاركة بوش في أي من الجنازات حتى الآن وعدم تقديمه التعازي لأسر القتلى الأمريكيين نابع من عقدة ذنب، ومن شعوره بأن هذه النعوش لا تعني سوى هزيمته العسكرية وهزيمة جيشه ومخططاته في العراق، وأن هؤلاء ليسوا سوى ضحايا لقراره وقرار إدارته الخاطيء باحتلال العراق والاستمرار في الحرب، بل إن بعض عائلات القتلى وصلت كما سيأتي لاحقاً إلى حد اتهام الرئيس بوش بالمسؤولية الكاملة عن قتل أبنائهم.

نشر صور الهزيمة

وكانت وكالة الأنباء الفرنسية نشرت تقريراً في 23 أبريل/نيسان 2004 عن الضجة الكبرى التي أثيرت في الولايات المتحدة بعدما نشرت على مواقع على شبكة الإنترنت أكثر من 350 صورة للنعوش التي التقطت في قاعدة دوفر الجوية التي يقع فيها مستودع الجثث، حيث أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية " البنتاغون " عن غضبها الشديد لنشر الصور، وقد أثار هذا جدلاً واسعاً في الولايات المتحدة حول ما إذا كانت السياسة الأمريكية أهم من حرية نشر المعلومات التي يضمنها الدستور أم أن العكس هو الصحيح.

وقد برر المتحدث باسم وزارة الدفاع هذا بقوله: " إن سياسة الوزارة بهذا الخصوص تقوم على منع التغطية الإعلامية لنقل القتلى تنفذ منذ عام 1991، والهدف الرئيسي من هذه السياسة هو حماية رغبات وخصوصية عائلات الضحايا أثناء فترة حدادهم على خسارتهم الفادحة".

لكن ردود فعل عائلات الضحايا أكدت كلها عكس ما ذكره الناطق باسم وزارة الدفاع، وأكدت تقارير كثيرة أن الهدف كان خوف الرئيس بوش من تأثير تلك الصور على حملته الانتخابية الثانية وليس على أسر الضحايا.

وكانت هذه الصور التي حاول البيت الأبيض منع نشرها ـ كما جاء في تقرير نشرته صحيفة "الوطن" القطرية نقلاً عن صحيفة "التايمز" البريطانية في 10 مايو/أيار 2005 ـ قد تم الحصول عليها من جانب روس كيل من توكسون وهو يدير شبكة إنترنت معروفة باسم "كوة الذاكرة". وكان كيل قد تقدم بطلب من أجل حرية نشر المعلومات، ورغم أن سلاح الجو الأمريكي قد رفض طلبه، إلا أنهم اضطروا إلى تغيير رأيهم والسماح بنشر هذه الصور بعدما قدم كيك طلباً للاستئناف ضد قرارهم ونجح في الحصول على حكم لصالح نشر الصور. وكتب كيك على موقعه على شبكة الإنترنت مع الصور المنشورة قائلاً: "هذه الصور التي أرادت وزارة الدفاع الأمريكية منع نشرها، وحرمان الشعب من الاطلاع عليها".

ومن المؤكد أن إصرار الإدارة الأمريكية على منع نشر صور النعوش العائدة إلى أمريكا يعود إلى محاولتها منع معرفة الشعب الأمريكا بالهزيمة العسكرية التي تمثلها هذه النعوش وانعكاساتها على التأكيد على فشل أمريكا في العراق. أما الذي التقط هذه الصور التي سلطت الضوء بقوة على قتلى أمريكا في العراق، فهو نامي سيليسيو الذي عمل كمقاول للشحن الجوي لشركة ماي تاغ للطيران في لوس أنجلوس، وكان قد التقطها أثناء شحن الجثث من الكويت إلى مستودع الجثث في دوفر، وقد تم تسريحه من عمله بسبب قيامه بنشر تلك الصور بعد احتجاجات من البنتاغون.

وقد أجرت محطة "إي بي سي" التليفزيونية الأمريكية حواراً مع سيلسيو قال فيه: "أعتقد أن الإدارة الأمريكية إذا كانت معنية بالتعاطف مع أولئك القتلى، فإن عليها أن ترى في نشر هذه الصور شيئاً إيجابياً، لأن أفراد عائلاتهم يريدون أن يشاهدوا مدى الاهتمام بأحبائهم وكيفية استقبالهم لدى عودتهم للوطن".

ولأنه من المحظور على الصحفيين تصوير جنازات الجنود، لكنها تكون مناسبة لأسرهم حتى يعبروا عما بأنفسهم، وقد كانت جنازة الجندي داريل دنت مناسبة مؤلمة لوالده فيرنون دنت الذي قال في تقرير نشرته صحيفة "التايمز" البريطانية في منتصف سبتمبر/أيلول 2003: "إن الرئيس بوش هو المسؤول عن مقتل ابني وإن قراره دخول الحرب كان خطأ ولم يكن من الحكمة أن يرسل

شباباً إلى هناك ليلقوا حتفهم بلا سبب على الإطلاق، لا سيما وأنهم لم يعثروا هناك على أسلحة للدمار الشامل".

وكانت والدة الملازم دفورتي 24 عاماً - وهو ينتمي إلى الفرقة 101 المحمولة جواً والذي قتل في مايو/أيار من العام 2004 قد قالت في تصريح لها ضمن تقرير "التايمز" أنها مُنعت من رؤية عودة جثة ابنها سيص دفورني الذي تم نقله بالطائرة إلى قاعدة دوفر الجوية، وأضافت: "لقد قتلوا ولدي ولم يسمحوا لي بمشاهدة نعشه".

غير أن هذه الأم لم تكن وحدها التي اتهمت إدارة بوش بقتل ولدها، ولكن سيندي شيهان والدة الجندي كاسي شيهان الذي قتل في العراق في 4 أبريل/ نيسان من العام 2004 وكان ذلك بعد خمسة أيام فقط من ذهابه للعراق ولم يكن قد بلغ السادسة والعشرين، قررت ألا تقف عند حد اتهام بوش وإنما قررت أن تقض مضجع الرئيس الأمريكي وأركان إدارته.

سيندي شيهان.. المرأة التي أقضت مضجع بوش

"لقد أصبحت شيهان هي الشبح الذي يطارد الرئيس بوش خلال الإجازة التي يقضيها في تكساس"، هكذا وصف روبرت كورنيل في صحيفة "الأندبندنت" البريطانية في 13 أغسطس/آب 2005 سيندي شيهان والدة الجندي الأمريكي الذي قتل في العراق كاسي شيهان والتي تحولت من امرأة عادية إلى أبرز ناشطة أمريكية تنادي بإنهاء الحرب وخروج القوات الأمريكية من العراق.

كانت سيندي شيهان التي ولدت في كاليفونيا عام 1957 امرأة أمريكية عادية، ربة بيت لا تعمل، وذلك إلى الرابع من أبريل/نيسان من العام 2004، حيث وقع كمين في مدينة الصدر في بغداد صباح هذا اليوم قتل فيه ثمانية جنود أمريكيين، وشاهدت سيندي في التليفزيون مثل كثيرين حول العالم صورة سيارة الهمفي الأمريكية التي وقعت في الكمين وهي تحترق، وبقلب الأم شعرت بالقلق على كاسي.

وفي مساء نفس اليوم خرجت من بيتها، وعندما عادت في التاسعة مساء

وجدت ثلاثة من العسكريين الأمريكيين في انتظارها في غرفة الضيوف، فأدركت أن ابنها كاسي الذي غادر إلى العراق قبل خمسة أيام فقط قد قتل في ذلك الكمين مع سبعة جنود أمريكيين آخرين في يوم أطلق عليه الأمريكيون "الأحد الأسود"، ليس من حيث عدد القتلى فقط ولكن لأن صور الكمين الذي وقع في إحدى ضواحي بغداد نُشرت في وسائل الإعلام العالمية على نطاق واسع.

وبعد عشرة أيام وصلت جثة كاسي، وبعد أكثر من شهرين كان الرئيس بوش يقوم بزيارة للقاعدة الأمريكية في فورت لويس بولاية واشنطن، وقامت سيندي مع عشرات من أمهات الجنود القتلى بلقاء بوش الذي خيب ظنها وعاملها وهي الأم المكلومة ـ كما روت بعد ذلك ـ بقلة احترام، وناداها باسم "أيتها السيدة"، وكان لا يعرف اسم ابنها، فخرجت سيندي غاضبة ومنزعجة من ذلك اللقاء وبدأت حملتها على بوش، تلك الحملة التي حولتها إلى أشهر أم أمريكية، حيث قالت في أول هجوم لها عليه: "لقد غَيَّر سبب غزو العراق، كان يقول إن السبب هو أسلحة الدمار الشامل، وأصبح يقول الآن أن السبب هو تأسيس الديمقراطية.. إن بوش أبعد ما يكون عن الإنسانية.. لقد كان لسانه يتحدث لكن عينيه كانتا زائغتين".

ثم قررت سيندي ألا تكون امرأة عادية رغم أنها في مقابلة نشرتها معها صحيفة "الشرق الأوسط" في 7 أكتوبر/تشرين الأول 2005 قالت: "أنا أم عادية، فقد فقدت ابني في الحرب بدون سبب، وفي دولة لم تعادنا".

وفي بداية العام 2005 أسست سيندي مع بعض الأمهات اللائي فقدن أبناءهن في العراق جمعية أطلقن عليها اسم "عائلات من أجل السلام"، ثم اختارت سيندي الوقت المناسب لتحركها، وهو شهر أغسطس/آب من العام 2005 حيث إن معظم المسؤولين الأمريكيين يكونون في إجازاتهم، وحيث تكون الأخبار شحيحة لدى وسائل الإعلام، ويبحث المراسلون ومنتجو الأخبار عن أي قصة مثيرة يصنعون منها أخبارهم، وسافرت سيندي من مسقط رأسها في كاليفورنيا إلى كروفورد في ولاية تكساس في السادس من أغسطس/آب من العام 2005 حيث كان الرئيس بوش يقضي إجازته في مزرعته هناك، وأقامت معسكراً أمام مزرعة بوش فعكرت عليه صفو إجازته، وأعلنت من هناك بداية

حملتها واحتجاجها على الحرب الخاسرة في العراق، ومطالبتها لبوش بسحب القوات الأمريكية من هناك.

كما طالبت سيندي بلقاء الرئيس بوش، وقالت للصحفيين الذين بدؤوا بالتوافد من كافة أنحاء الولايات المتحدة بل ومن خارجها لمتابعة حملتها المثيرة: "أريد من بوش أن يوقف استخدام تضحية ابني لتبرير عمليات القتل".

ومع محاولاتها المستميتة للقاء بوش إلا أنه رفض لقاءها، وحاول استيعاب ثورتها وغضبها حتى يهنأ بإجازته فأرسل إليها ستيف هادلي مستشار البيت الأبيض في محاولة لإقناعها بوقف حملتها والانصراف حتى يتمكن الرئيس من الاستمتاع بعطلته، لكن سيندي التي فقدت ولدها قررت ألا يهنأ بوش بإجازته ورفضت محاولات هادلي، وانتقدت تجاهل بوش للقائها قائلة: "لا أفهم لماذا لا يستطيع تخصيص عشر دقائق للحديث مع إنسانة تسبب في تدمير حياتها".

وسرعان ما انضم العشرات من المؤيدين والمتعاطفين إلى سيندي في احتجاجها الصامت حيث أطلقوا على تجمعهم "معسكر كاسي" نسبة إلى ابن شيهان الذي قتل في العراق، حتى إن صاحب أرض مجاورة لمزرعة بوش عرض عليها الانتقال ومؤيديها لاستخدام مزرعته التي ربما تكون أكثر أمناً.

وقد قامت شيهان بعد ذلك بمساعدة المناهضين للحرب بشراء هكتارين من صاحب المزرعة المجاورة لبوش وأقاموا عليها خيمة دائمة أطلقوا عليها "معسكر كاسي" أصبحت نصباً للمعارضين للحرب تؤرق مضجع بوش كلما ذهب للمزرعة. وقد تحولت إجازة بوش إلى كابوس بسبب هذا المعسكر الذي كان الحدث الرئيسي في كافة نشرات الأخبار الرئيسية في كافة وسائل الإعلام الأمريكية بل والعالمية، وأصبح بوش محاصراً في مزرعته بعشرات المحتجين الذين انضموا إلى سيندي، ومئات الصحفيين الذين وفدوا لتغطية الحدث، وكان من بينهم جستين ويب مراسل محطة بي بي سي العالمية الذي كتب تقريراً نشر على موقع "بي بي سي" في 28 أغسطس/آب 2005 قال فيه: "لقد حركت سيندي شيهان الجميع، ففي طول البلاد وعرضها بدأت أعمدة الصحف تعكس رأياً يقول إنه ربما كان من الضروري تغيير المهمة في العراق من "جلب الديمقراطية" إلى "جلب الاستقرار".

وقد دفعت التغطية الواسعة لحركة سيندي شيهان قناة "فوكس نيوز" الموالية للإدارة الأمريكية أن تشن في نهاية أغسطس/آب من العام 2005 هجوماً على سيندي وحركتها، حيث هاجمها كبير محرري فوكس للشؤون السياسية فريد بارينز وقال "إنها من صنيعة الإعلام الأمريكي الكاره لسياسة بوش" وأضاف: "إن سيندي لا تفهم في السياسة ولا الموقف الأخلاقي وراء الحرب".

بل إن كتّاباً يمينيين آخرين تجاوزوا ذلك ووصلوا إلى حد أن اتهمها كريستوفر هتشنر أحد الكتاب اليمينيين المؤيدين لسياسة بوش بأنها: "تعاني من جنون الارتياب ومعاداة الصهيونية".

لكن هذه المرأة نجحت في تحدي البيت الأبيض والمؤيدين له واستطاعت أن تجلب تعاطف الرأي العام الأمريكي معها، حيث أجرت كل من صحيفة "واشنطن بوست" ومحطة "إي بي سي" استطلاعاً مشتركاً للرأي بعد أيام من عسكرة سيندي أمام مزرعة بوش أكد غالبية المشاركين فيه أنه على الرئيس بوش أن يلتقي شيهان ويستمع إليها، لكن بوش الذي يعيش كابوس الحرب وخسائرها والهزيمة التي لحقته أصر على رفض لقاءها، وحينما خرج من مزرعته في 14 أغسطس/آب 2005 للمشاركة في حملة لجمع التبرعات تصدت سيندي شيهان لموكبه ومعها عشرات من المتعاطفين معها يحملون لوحاتهم المعارضة له ولحربه في العراق، وانتظرته حينما عاد حاملة لافتة كتب عليها "لماذا تخصص الوقت للمتبرعين وليس لي".

وكان الصحفيون قد أحرجوه قبل ذلك بالأسئلة حول أسباب رفضه مقابلة شيهان في لقاء أجروه معه في 11 أغسطس/آب، فأجاب قائلاً: "حسناً، أنا أتعاطف مع السيدة شيهان، ولها كل الحق أن تعبر عما تؤمن به، ولقد سمعت رأيها من آخرين، وهو "اخرجوا من العراق الآن"، ولكن القيام بذلك سيكون خطأ لأمن البلاد، ولقدراتنا على وضع أسس للسلام على المدى الطويل".

وفي رأي كثير من المراقبين كان تصريح بوش هذا يحمل حجماً كبيراً من الاضطراب الذي نجحت شيهان في أن تسبّبه له. وفي مقال كتبته سيندي شيهان ونشرته الخليج الإماراتية نقلاً عن موقع "كوموندريمز" على شبكة الإنترنت قالت سيندي في مقالها الذي كتبته تحت عنوان "المنافقون والكذابون" أنها لم

تكن تتوقع أن تكبر حركتها وتحظى بهذا الاهتمام الإعلامي والتعاطف والتأييد الداخلي، ووجهت تساؤلاتها لإدارة بوش قائلة: "لماذا قلتم لنا إن هناك أسلحة دمار شامل وصلات بين بغداد وتنظيم القاعدة، بينما أنتم تعرفون أنه لا وجود لتلك الأسلحة أو الصلات؟ لماذا كذبتم علينا؟ لماذا كذبتم على الشعب الأمريكي؟ لماذا كذبتم على العالم؟".

وقد ذكرت سيندي في مقالها أنه قد أُجري معها أكثر من 250 مقابلة صحفية وتليفزيونية خلال أقل من أسبوع من عسكرتها أمام مزرعة بوش التي عكرت عليه فيها صفو إجازته في أغسطس/آب من العام 2005، وقالت بقوة وتحدٍّ: "لقد وقفت وأعلنتها صريحة، لقد قتل ابني من أجل لا شيء، وقد قتله جورج بوش وعصبته الشريرة، وسياستهم الطائشة، لقد أرسلوا ابني ليقاتل في حرب لا أساس منطقياً لها، وقد قتل فيها، وقلت: إن ولدي قتل من أجل الأكاذيب، وأن جورج بوش كذب علينا وهو يعرف أنه كان يكذب، وقد تثبت من مذكرات "داوننج ستريت" - مقر رئاسة الوزراء في بريطانيا - بتاريخ 23 يوليو/تموز 2002 التي جاء فيها أنه كان يعرف أن نظام صدام حسين لم يكن يملك أسلحة دمار شامل، ولم تكن له أي صلات بتنظيم القاعدة، وإنني أؤمن بأن جورج بوش كذب، وأنه كان يعرف أنه يكذب، وجعلنا جميعاً نخاف من أشباح لا وجود لها، وهو يستخدم الخطاب الوطني ليبقي الوجود العسكري الأمريكي في العراق".

ثم تحدثت سيندي عن الحملة التي يقودها اللوبي اليميني المؤيد للحرب ضدها وكيف أنها نجحت في التصدي لها، ثم أضافت: "لقد نما" "كامب كاسي" وازدهر أمام جميع التحديات والهجمات لأن أمريكا أصابها الغثيان وملَّت الكذابين والمنافقين، ونحن نريد إجابات على الأسئلة الصعبة التي كنت أول من تجرأ على طرحها، إن هذه هي لحظة مساءلة جورج بوش وقد سقط بشكل بائس، وقد استهان بي بوش ومستشاروه عندما تصوروا أنهم يستطيعون تهديدي وإرغامي على مغادرة كامب كاسي قبل الحصول على إجابات قبل نهاية أغسطس/آب".

وفي نهاية أغسطس/آب 2005 انطلقت سيندي في حافلة تقلها ومجموعة من أمهات الجنود والمتطوعين وذلك تزامناً مع عودة بوش إلى البيت الأبيض بعد

أن قطع إجازته في تكساس قبل يومين من انتهائها بسبب إعصار كاترينا، وقامت هذه الحافلة بزيارة لعدة ولايات قبل وصولها إلى واشنطن في منتصف سبتمبر/أيلول 2005، حيث قامت أكبر تظاهرة مناوئة للحرب في العراق كانت على رأسها سيندي شيهان، وقد شارك فيها ربع مليون شخص، ووُصفت بأنها كانت أكبر مظاهرة تشهدها واشنطن منذ مظاهرة داعية الحقوق المدنية الشهير مارتن لوثر كينغ في الستينيات من القرن الماضي، وقد قفزت هذه المظاهرة بسيندي وقضيتها إلى مصاف الاهتمام العالمي، وأصبحت تلك المرأة أهم شخصية مقلقة لبوش، حيث كانت مصدراً رئيسياً لمعظم كتاب الأعمدة داخل الولايات المتحدة وخارجها حيث هاجمها اليمينيون منهم، بينما الأكثرية كانت تكتب عنها باحترام وتقدير لما تقوم به.

وقد كانت سيندي صادقة في تهديدها لبوش في مقالها الذي نشرته في الأسبوع الأول من أغسطس/آب 2005 حيث قالت: "لن تموت حركة كامب كاسي إلى أن نحصل على الحقيقة وإلى أن يعود جنودنا للوطن، وعلى جورج بوش أن يعتاد على كامب كاسي لأننا لن نذهب بعيداً".

وفعلاً لم تذهب سيندي بعيداً فقد نقلت كامب كاسي إلى الساحة المواجهة للبيت الأبيض وشاهد العالم على شاشات التلفزة عدة مرات قيام حرس البيت الأبيض بالقبض عليها أكثر من مرة وترحيلها، إلا أنها في كل مرة كانت تزداد قوة وتصميماً وبطولة لدى كثير من الناس، وكانت قضيتها وقضية الجنود القتلى الأمريكيين في العراق تزيد إدارة بوش إحراجاً وقلقاً.

وفي مطلع فبراير/شباط 2006 بينما كان بوش يلقي خطابه عن حالة الاتحاد اعتقلت سيندي مرة أخرى لأنها ارتدت قميصاً كتبت عليه عبارة "2245 قتيلاً، كم سيزيدون؟"، وكان هذا يصادف رقم الجنود الأمريكيين الذين أعلن عن مقتلهم رسمياً في العراق حتى ذلك التاريخ، وطبعاً كل يوم هم في ازدياد، وسيندي لم توقف حملتها وأصبحت الوجه المعبر عن الرفض الشعبي الأمريكي لما يقوم به بوش وعصابته على حد قولها.

إن ظاهرة سيندي شيهان تؤكد على حقيقة هامة هي أن كل الناس الذين يعتبرون أنفسهم أناساً عاديين يمكن أن يتحولوا في لحظات معينة إلى صنّاع

للتاريخ ومؤثرين في صناعة الأحداث، ومصدراً للقلق والاضطراب والأرق لزعماء يبدون مخيفين ومرعبين مثل جورج بوش، لكنهم من داخلهم ينتفضون خوفاً من هؤلاء الضعفاء الذين يصنعون التاريخ، لكنها عادة ما تكون البداية.. البداية لنهاية الغطرسة وغرور القوة الذي ربما يكون على يد امرأة مثل سيندي شيهان.

غير أن معالم الهزيمة العسكرية لا تقف عند حد النعوش والجثث والقتلى الأمريكيين، وإنما هناك هزيمة نفسية كبيرة يواجهها الجنود الذين هم في ساحة المعركة أو شاركوا فيها خلال السنوات الماضية، وسوف أكتفي بتقديم نماذج فقط لحجم الهزيمة النفسية التي يعيشها هؤلاء.

الهزيمة النفسية للجنود الأمريكيين

"لم يكن قد مضى سوى يومين فقط على التحاق الجندي الأمريكي جورج أندرياس بوجاني بوحدته العسكرية للعمل مترجماً ومحققاً مع القوات الأمريكية الخاصة في العراق حتى حدث ما لم يكن في حسبانه، فقد شاهد جثة قتيل عراقي داخل حقيبة لنقل الموتى، وكانت جثة القتيل العراقي مقطعة إلى جزأين تقريباً، وكان بها فجوة كبيرة، في حين تحول صدر الرجل القتيل إلى مجرد قطع من اللحم.

لم يتحمل بوجاني المشهد، لكنه حاول عدم التفكير فيه، لكن بعد ساعات قليلة عاد المشهد إلى ذاكرته بل هاجمه المشهد بعنف، فأصابت بوجاني حالة من الرعشة والقيء، فحاول أن ينام لكن النوم هرب منه، فاعتقد بوجاني أنه على حافة الانهيار العصبي، فعرضت حالته على أطباء نفسيين تابعين للجيش فنصحوا بأن ينقل من وحدته الخاصة إلى وحدة عسكرية أخرى مهامها أقل ضغطاً للأعصاب، حتى يتخلص من نوبات الذعر التي يتعرض لها، وعندما كاد بوجاني أن يبدأ في تنفيذ النصيحة قام قائده المباشر بتوبيخه وإهانته أمام جنود أقل منه رتبة، ونزع منه أسلحته وأعاده إلى أمريكا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية بتهمة من أخطر التهم التي يمكن أن توجه لجندي أمريكي في ساحة المعركة وهي تهمة الجبن، وهذه التهمة قد تصل عقوبتها إلى الإعدام".

هذه القصة ليست من نسج الخيال بل نشرتها صحيفة بريطانية رصينة ودقيقة هي صحيفة "الأندبندنت" في عدد الاثنين 12 يناير/كانون الثاني 2004.

أما في عدد 13 يناير/كانون الثاني من مجلة "نيوزويك" الأمريكية فقد ظهرت صورة لضابطة أمريكية ترتدي الزي العسكري أخذت مساحة قرابة الصفحتين من المجلة حيث ارتسمت على وجه الضابطة كثير من القصص والمعاني التي يصعب شرحها. إلا أن الصحفيين الأمريكيين اللذين أعدا التقرير وهما رود نورد لاند وتي ترنت جيفاكس لم يمهلانا كثيراً لنفكر فيما أقدمت عليه إدارة تحرير المجلة في وضع تلك الصورة بذلك الحجم الكبير في مجلة تعتمد على الكتابة أكثر من الصورة إلا إذا كان هناك دلالة للصورة، فقد بدأ التقرير بقصة صاحبة الصورة قائلاً:

"السرجنت كيم إيمرز تدرك الآن لماذا لم يكن والدها يتحدث عن الفترة التي قضاها جندياً في فييتنام، وهي بدورها لا تعتقد أنها ستبوح بالكثير عن تجربتها خلال الحرب حين تعود من العراق حيث تتمركز مع فرقة المشاة الرابعة في بعقوبة. كانت أسوأ لحظة بالنسبة إليها، عندما تعرضت قاعة الطعام التي ترتادها إلى قذيفة هاون في قاعدة اللواء الثالث خلال وجبة للعشاء، وتقول عن هذه اللحظة: "لقد فقدت أعصابي"، ومع ذلك فإن عائلتها لم تسمع بالحادثة حتى الآن، كانت قاعة الطعام عبارة عن مبنى مزود بسقف من القماش، أحدثت قذيفة الهاون - وهي واحدة من تسعين قذيفة تعرضت لها إيمرز خلال خدمتها في العراق منذ أكتوبر/تشرين الأول 2003 - أحدثت حالة من الهلع حين تدافع الجنود خلال محاولتهم الخروج من الباب".

وقد نُقلت إيمرز إلى إحدى وحدات علاج التوتر القتالي والتي تنتشر بين صفوف الجيش الأمريكي في العراق للعلاج.

لكن السرجنت جانيس سميث التي تتمركز في إحدى أسخن المناطق داخل المثلث السني، والتي تتعاطى حبوباً لمعالجتها من التوتر والقلق حتى تستطيع العودة للحياة الطبيعية تقول: "لا أعلم إذا كان بمقدوري العودة للحياة الطبيعية بعد الآن، من الصعب عليك ألا تشعر بالتوتر حين يموت الجنود من حولك بشكل يومي".

أما الكابتن غلين بالمر فقد روى بعض القصص لكن أكثرها رعباً كانت أسوأ لحظة بالنسبة إليه حين كان يعطي التنفس الاصطناعي من خلال الفم لضابط أصيب برصاص قناص حين كان جالساً في المقعد الخلفي لسيارة الهمفي العسكرية، واصل بالمر النفخ في فم الضابط المصاب، لكنه فجأة شعر بالرعب حينما سمع صفير أنفاسه يخرج من ثقب في رأس الضابط الضحية، ويقول بالمر الذي يعمل قساً في الجيش الأمريكي: "لا يزال من الصعب عليَّ التخلص من ذلك الطعم، إنه طعم الموت من فم شخص تحاول بث الحياة فيه".

ويضيف بالمر الذي عاش مرحلة الكوابيس إن لديه ذكريات لن يتمكن من محوها على الإطلاق: "لقد دفنت أطفالاً رضعاً ممن وجدوا في مرمى النيران، وأمسكت بأيدي جنود جرحى بينما كان الأطباء يحاولون إنقاذ أعينهم أو أرجلهم، لكن الأصعب بالنسبة لي كان محاولة إعادة التنفس للضابط الجريح الذي قضى في ميدان المعركة".

ومن أعراض الهزيمة النفسية التي يعانيها الجنود الأمريكيون في ميدان المعركة بسبب التوتر ـ حسب تقرير "نيوزويك": "التهيُّج المفرط والحاجة للتبول بشكل متكرر والإسهال، والشعور بالتنميل في الأطراف، وعدم القدرة على النوم وفقدان الشهية والوزن". ورغم أن كثيراً من الجنود يعالجون في ميدان المعركة إلا أنه حسب "نيوزويك" فقد عُزل ما مجموعه 583 جندياً حتى بداية يناير/كانون الثاني 2004 في العراق أو أعيدوا إلى ديارهم لتلقي العلاج من جراء الاضطرابات النفسية الكبيرة التي يعانون منها، لكن آخرين لا ينتظرون العلاج وإنما يقررون الانتحار. ولنا أن نتخيل إلى أين وصل العدد بعد مرور أكثر من أربع سنوات على الاحتلال، إن الهزيمة النفسية التي يعيشها الجنود الأمريكيون في المعركة أكبر بكثير مما يمكن تخيله، لأن هزيمة هؤلاء لا تلازمهم وقت وجودهم فقط في الميدان وإنما تبقى حيّة في داخلهم حتى يفارقون الحياة.

وقد نشر تقرير واشنطن في 17 فبراير/شباط من العام 2007 ـ أي بعد ما يقرب من أربع سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق ـ مقالاً عن الحالة النفسية التي يعانيها الجنود العائدون من العراق وأفغانستان كتبته كارا بنتلي تناولت فيه الأوضاع النفسية للجنود العائدين، أكدت في نهاية التقرير المطول

على ما سبق وأن ذكرته حيث قالت: "بالرغم من أن وضع المحاربين يظهر وكأنه آخذ في التحسن، وبالرغم من أن سوقَ العمالة لا يشتكي من أية أعراض أو انخفاض في معدل البطالة، فإن محاربي أمريكا ما زالوا يذوقون مرارة المعاناة. كيف يحدث هذا؟ فالفرد من هؤلاء المحاربين، من الممكن أن يَستغرقَ شفاؤه من الجروحِ النفسية للحرب سنوات وسنوات. فهناك حالياً نسبة عالية مِن الاضطرابات العقلية بين المحاربين. وطبقاً للتقديرات العسكريةِ، فإنه قد تم الإبلاغ عن وجود نسبة تتراوح من 20–30 بالمئة مِن القوَّات المقاتلة في العراق، تشتكي من أعراضٍ مثل اضطرابات النوم وقلقِ ما بَعْد المعركة. وأنه من 10–15 بالمئة سوف تَتطوّر حالتهم فيما بعد إلى اضطراب وضغط عصبي مؤلم. فالمحاربون يحتاجون إلى معالجة فورية من هذه الأمراضِ العقلية، لكن الدِراسات الأخيرةَ أظهرت أنّ الغالبية يتلقون علاجاً ناقصاً وأحياناً لا يتلقون أي علاج.

أظهرت التحقيقات الأخيرة عن المعالجة الصحية الطبية والعقلية للجنود العائدين، أنّ المحاربين يرفضون في أغلب الأحيان العلاج الصحيح بسبب "اضطرابات شخصية أو "سوء سلوك" جندي، أو بعد تلقيه "تسريحاً غير مشرف". وبالتالي فإن هؤلاء المحاربين يصبحون غير مؤهلين للرعاية من قبل إدارة المحاربين، بالإضافة إلى أن المنافع الأخرى تجعل من الشفاء أمراً مستحيلاً في القريب العاجل. ومن أجل القضاء على هذه الأعراض المرتبطة بالاضطرابات العقلية يلجأ الجنود في الغالب إلى المخدّرات والخمر حيث يجدون فيهما الراحة والغوث. وبالتالي فإن هذا من الممكن أن يؤدي إلى مشاكل تأديبية، وبطالة وفي النهاية إلى تشرُّد.

ويبدو أن لعنة الفلوجة ستظل تطارد الجنود الأمريكيين الذين ذهبوا إليها؛ ففي تقرير نشرته صحيفة "الديلي تليغراف" البريطانية في 28 يونيو 2006 حول أحد جنود مشاة البحرية الأمريكية الذي اشتهر بظهوره على إحدى الصور التي التقطت في معركة الفلوجة متسخ الوجه وهو يدخن سيجارة، واسمه بيك ميلر، أنه قد طلب الطلاق من عروسه بعد ثلاثة أسابيع فقط من الزواج، بسبب المشاكل النفسية المترتبة عن الحرب.

وكان ميلر الذي تعاطف معه كثير من الأمريكيين حينما نُشرت صورته

ومولّوا حفل زواجه عبر الصحف والمجلات التي نشرت صورته حينما قال في حوار نشر معه أنه يتمنى حفل زواج يليق بخطيبته جيسيكا، لكن جيسيكا لم تتحمل الحياة معه بسبب الأمراض النفسية التي حلت به بعد معركة الفلوجة، وقالت "الديلي تليغراف": إن حالة الجندي ميلر هي حالة الآلاف من الجنود الذين شاركوا في حرب أمريكا في العراق.

لكن الأمر لا يقف بالجنود عند حد الأمراض التي تفتك بهم، وإنما تدفعهم هذه الأمراض إلى الانتحار والهروب من الحياة. ففي دراسة نشرها أرون غلانتز في 22 مايو/أيار 2007 على موقع المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب نقل عن الطبيبة النفسية كارين سيل التي تعمل في مركز سان فرانسيسكو للمحاربين القدماء قولها لشبكة "إنتر برس سيرفيس" إنها أعدت دراسة هي وزملاؤها عن الجنود الأمريكيين العائدين من حرب العراق وأفغانستان، وقد كشفت هذه الدراسة أن "أكثر من ثلث الجنود الأمريكيين العائدين من الحرب، والبالغ عددهم 100 ألف جندي، بين 30 سبتمبر/أيلول2001 وحتى 30 سبتمبر/أيلول 2005، شوهدوا في مراكز شؤون المحاربين، حيث كانوا مصابين بأمراض عقلية أو بمشكلات اجتماعية نفسية مثل الشعور بالتشرد والغربة، أو كانوا يعانون من مشكلات زوجية، من بين ذلك العنف المنزلي، على أن النصف منهم كان يعاني من أكثر من مشكلة نفسية".

لكن الأخطر كان التقرير الصادر عن المفتش الصحي العام في الولايات المتحدة الذي أكد على: "أن معدلات الانتحار في صفوف الجنود الأمريكيين العائدين من العراق وأفغانستان في ارتفاع مطرد، بسبب التقصير في العناية الطبية التي تقدمها العيادات النفسية المخصصة لهم، وفشلها في منحهم عناية نفسية على مدار الساعة".

وانتقد التقرير افتقار بعض تلك العيادات إلى تشخيص ملائم للحالات النفسية التي تصيب الجنود، إلى جانب نقص الخبرات لدى الأطقم الطبية العاملة، ما رفع حالات الانتحار لدى الجنود الذين يقصدون تلك العيادات إلى 1000 جندي سنويًا من أصل 5000 جندي سابق ينتحر كل عام".

وهذا يعني أن عدد الجنود الذين انتحروا بعد عودتهم من أفغانستان

والعراق يفوق بكثير أعداد الجنود الذين تم الإعلان عن قتلهم في ساحة المعركة؛ وهذا ما لا تتم الإشارة إليه أو الاهتمام به أو الإعلان عنه؛ إذ يقود إلى حقيقة هامة هي أن هزيمة بوش وجنوده ليست فقط على أرض المعركة في العراق، ولكن الهزيمة ستبقى تلاحقهم طوال الحياة، وتدفع من نجا من الموت منهم على أيدي المقاومة في العراق إلى أن ينهي حياته بعد ذلك بيديه في الولايات المتحدة.

هذا ليس سوى بعض ما سوف يتركه بوش للشعب الأمريكي.

تركة بوش

في ظل هذه الصورة ما هي التركة التي سيخلفها بوش للأمريكيين؟ هذا السؤال وجدت جيمس جليزر أحد قدامى المحاربين في فييتنام، قد أجاب عليه في مقال نشر على موقع "ليوروكويل "ونشرته الخليج الإماراتية في 12 أغسطس/آب 2005 حيث قال: "لقد جرت العادة أن نقضي عقوداً في أمريكا لكي نشيد نُصُباً تذكارياً لتخليد أولئك الذين سقطوا أثناء المعارك، لكن حرب جورج بوش على الإرهاب أقامت العديد من هذه النصب خلال فترة قياسية".

ثم أخذ جليزر يعدِّد عدد النُّصُب التذكارية التي أقيمت في طول الولايات المتحدة وعرضها للمئات من الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في العراق، وهذه النُّصُب أقيمت في ولايات جورجيا وتكساس وكنساس وكاليفورنيا وكولورادو وأماكن أخرى عديدة.

وهذه النصب التذكارية للقتلى محفورة إما على قمم الجبال مثل النصب الذي شيّده مشاة البحرية على قمة جبال سان أنغور في فورت ستيورات في ولاية جورجيا، أو النصب الضخم الذي شيد من ثمانية أطنان من الجرانيت الألماني وحفر عليه أسماء 945 جندياً قتلوا خلال الشهور الثمانية عشرة الأولى من الحرب على العراق.

إن هذه الشواهد ونصب القتلى التذكارية ستكون هي التركة التي ستميز فترة حكم بوش لأمريكا، حيث إنه منذ حرب فييتنام التي انتهت في العام 1975 لم تتعرض الولايات المتحدة لهذا العدد الكبير من القتلى.

وقد رصد جاد الحاج في تقرير نشره في صحيفة "الحياة" في 17 أبريل/نيسان 2004 حجم الخسائر الأمريكية بعد فييتنام فكانت كلها مقارنة بما حدث في العراق أعداداً قليلة للغاية، حيث قال: "لم تخسر القوات الأمريكية في كل مغامراتها العسكرية التي قامت بها بعد فييتنام أكثر من 800 جندي خلال ما يقرب من ثلاثة عقود، من هؤلاء 265 قتلوا في انفجار السفارة الأمريكية في بيروت، و19 في الهجوم على غرينادا، و23 في عملية خلع نورييغا، و34 في الصومال، و4 في هاييتي، و382 في حرب الخليج عام 1991".

وبمناسبة تركة بوش والنصب التذكارية، فقد نشرت صحيفة الخليج الإماراتية في 26 أغسطس/آب 2004 تقريراً عن صناعة "شواهد القبور" قالت فيه: إن صناعة "شواهد القبور والنصب التذكارية في الولايات المتحدة قد انتعشت بشكل كبير في الآونة الأخيرة، بسبب ارتفاع عدد الوفيات بين الجنود الأمريكيين سواء من المحاربين القدامى أو الذين يموتون في العراق، حتى إن عدد الجنود الذين يتم دفنهم سواء من القدامى أو الحاليين في مقبرة ألنغتون الوطنية خارج واشنطن يبلغ 100 في اليوم الواحد".

وقد أدت هذه المعاملة التي يلقاها قتلى أمريكا في العراق إلى ازدياد حالات الخوف والتوتر والإحباط والهروب من الخدمة، وعدم الإقبال على التطوع في الجيش، رغم محاولات الإغراء العديدة التي تقوم بها وزارة الدفاع الأمريكية من أجل إقناع جنودها بالبقاء والمشاركة في القتال في العراق.

فالمعطيات كلها تشير إلى أنه لم يعد هناك ما يغري هؤلاء الجنود الذين يعيشون حالة دائمة من الرعب والخوف والإحباط والتوتر، فالجميع يريد شيئاً واحداً هو الخروج من جحيم العراق أحياء بدلاً من العودة في أكياس عبر مستودع الجثث في دوفر، ثم الدفن بعيداً عن الأعين في مراسم أشبه ما تكون بالسرية كأنهم مجرمي حرب تريد أمريكا إخفاء جرائمها وجرائمهم في العراق.. وهذا كله يمثل هزيمة عسكرية كبيرة للولايات المتحدة الأمريكية في العراق.

لكن ما هو المستقبل في ظل هذه الهزائم السياسية والاستراتيجية والعسكرية التي تعيشها الولايات المتحدة والتي لعبت معركة الفلوجة الدور الرئيسي في بلوغها؟

الفصل العاشر

مستقبل العراق والمنطقة بعد هزيمة أمريكا

ستظل معركة الفلوجة علامة فاصلة في تاريخ الاحتلال الأمريكي للعراق، فهي التي وضعت الحد الفاصل بين الطموحات السياسية للرئيس الأمريكي بوش ومشروعه السياسي والاستراتيجي في العراق والمنطقة. وقد قدمنا بالدليل القاطع خلال فصول هذا الكتاب كيف أنهت معركة الفلوجة أسطورة الجندي الأمريكي الذي لا يقهر، وكيف أجبرت بوش وقادته السياسيين والعسكريين في العراق على الرضوخ، وكيف تحول مسار الاحتلال بعد هذه المعركة ليتحول إلى طريق للهزيمة السياسية والعسكرية والبحث عن مخرج.

ولم يجد بوش سبيلاً للانتقام والثأر من الفلوجة التي حطمت آماله ومشروعه الأمبراطوري في أبريل/نيسان 2004 سوى أن يحرقها ويدمرها على رؤوس أهلها بالفوسفور الأبيض والأسلحة المحرمة دولياً في نوفمبر/تشرين الثاني من نفس العام، لكن جنود بوش شهدوا لرجال المقاومة بأنهم دافعوا عن مدينتهم باستماتة وكانوا أبطالاً بأسلحة بسيطة دفاعية في مواجهة القوات الأمريكية التي تملك أحدث الأسلحة في العالم، وقد واجهوها ببطولة دون أن يهابوا الموت.

لقد سجل شهر أبريل/نيسان من العام 2004 وكذلك شهر نوفمبر/تشرين الثاني، وهما الشهران اللذان وقعت فيهما معركة الفلوجة الأولى والثانية، أكبر المعدلات في أعداد القتلى والجرحى في صفوف القوات الأمريكية طوال سنوات

احتلاله للعراق. كما أن كل المخططات العسكرية والاستراتيجيات التي وضعها بوش مع كبار رجاله، أفشلتها المقاومة وعلى رأسها المقاومة التي وقعت في الفلوجة، وأصبحت الفلوجة تتردد على لسان كل مسؤول أمريكي على أنها المدينة التي صنعت الإباء والعزة والصمود والانتصار للعراقيين مع كثير من المدن الأخرى التي لم تكن أقل بسالة في مقاومة الاحتلال، كما أن الفلوجة كذلك هي التي صنعت الهزيمة والخزي والعار لأكبر دولة في العالم وجيشها المدجَّج بأحدث ما وصلت إليه البشرية من تقدُّم في مجال التسلح.

من هنا بدأت الضغوط على بوش كي يسحب قواته من العراق تتصاعد بشكل كبير بعد معركة الفلوجة الأولى مباشرة، ثم أخذت تتزايد شيئاً فشيئاً حتى أصبح بوش عاجزاً مع إصرار الديمقراطيين بعد حصولهم على الأغلبية في الانتخابات التشريعية التي جرت في نوفمبر/تشرين الثاني من العام 2006 على ضرورة تحديد جدول زمني لانسحاب القوات من العراق.

ورغم استخدام بوش لحق النقض الفيتو وحصوله على 100 مليار دولار كتمويل مؤقت إلى شهر سبتمبر/أيلول 2007 على أن يقدم تقريراً عما أنجزه، إلا أن كثيراً من الأمريكيين يرون أن خطط بوش فاشلة ودعوا إلى التفكير في مستقبل الولايات المتحدة فيما بعد بوش.

فهناك عشرات المقالات التي تتحدث عن إخفاق عسكري وسياسي لاستراتيجية بوش الجديدة، وكذلك لأمله الأخير في العراق الجنرال ديفيد بتريوس. منها على سبيل المثال لا الحصر ما نشره في 7 يونيو/حزيران 2007 جوليان بارنز محرر الشؤون الخارجية في صحيفة " لوس أنجلوس تايمز" حيث قال: "يسود اعتقاد متزايد لدى القادة العسكريين في العراق بأن الأهداف الشاملة التي حددها الرئيس بوش في تصريحاته السابقة مطلع العام الحالي - 2007 - عندما أقدم على زيادة عدد القوات الأمريكية لن يكتب لها النجاح خلال هذا الصيف كما كان متوقعاً، وهم اليوم بصدد البحث عن صياغة جديدة لمعنى تحقيق النجاح.

ففي شهر سبتمبر/أيلول المقبل ينتظر من الجنرال "ديفيد بتريوس" أن يقدم تقييماً إلى الكونغرس عن مسيرة التقدم المحرز في العراق. لكن كبار

الضباط الأمريكيين العاملين في العراق، فضلاً عن مستشارين خارج الجيش يشككون في إمكانية بلوغ الأهداف الثلاثة الأساسية التي وضعها المسؤولون الأمريكيون أمام حكومة نوري المالكي وطالبوه بالعمل على تحقيقها. ويبدو أن الإنجاز الوحيد الذي يمكن الإشارة إليه في هذا السياق هو تمرير قانون جديد لاقتسام عائدات النفط بين المناطق السُنية والشيعية والكردية، بل وحتى هذا الهدف الذي يُعتقد أنه سيتحقق أخيراً تواجهه صعوبات لا حصر لها".

وقد عثرت على مقالات شبيهة بتلك منشورة في كبريات الصحف الأمريكية والبريطانية تحمل نفس المعاني أو قريبة منها مثل "واشنطن بوست" و"نيويورك تايمز" و"الفايننشال تايمز" وغيرها.

إذن نحن أمام فشل كارثي للولايات المتحدة ولرئيسها جورج بوش وإدارته تحدث عنه نيوت غنغريتش رئيس مجلس النواب الأمريكي الأسبق، وهو جمهوري من حزب بوش، حيث تحدث بعد صمت طويل واتهم بوش بأنه غير كفوء وميؤوس منه. وأضاف. "يتم توظيف الرؤساء شرط أن يكونوا مؤهلين لإدارة البلاد بشكل جيد".

أما فؤاد زكريا رئيس تحرير مجلة "نيوزويك" فقد تحدث بشكل بارز وواضح في نفس عددها الصادر في 12 يونيو/حزيران 2007 عما بعد بوش فقال: "في كل الأحوال علينا التوقف عن انتقاد جورج دبليو بوش، علينا أن نبدأ بالتفكير في مستقبل أمتنا بعد رحيل بوش، الذي يثير البهجة في أوساط خصومه، والإحباط في أوساط مؤيديه، رغم قلتهم في هذه المرحلة. بعد 19 شهراً سيصبح بوش مواطناً عادياً يلقي الخطابات أمام مديري شركات التأمين، أما أمريكا فيتوجب عليها أن تمضي قدماً وتستعيد مكانتها في العالم، ولتحقيق ذلك علينا أولاً أن نواجه عواقب سياستنا الخارجية المبنية على الخوف، لأن هذه المخاوف دفعتنا إلى الاعتقاد أنه لا خيار أمامنا إلا أن نعمل بسرعة وبمفردنا، بطريقة أحادية ووقائية، نجحنا في غضون ست سنوات في تقويض عقود من النيات الحسنة الدولية، وتنفير حلفائنا وتقوية أعدائنا من دون أن نحل المشاكل الدولية الكبيرة التي تواجهنا".

إذن الولايات المتحدة أمام كارثة خلفها بوش وهزيمته في العراق، وبدلاً من

انتقاد بوش والتباكي على ما يقوم به يدعو فؤاد زكريا إلى محاولة إنقاذ مستقبل الدولة العظمى التي تواجه الانهيار.

وفي مقال نشر على موقع "المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب" في 30 مايو 2007 للكاتب الأمريكي "بول كروغمان" نقلاً عن صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية، قال كروغمان يصف الواقع الأمريكي الذي سيقود إلى مستقبل مرعب: "والآن وبعد أن تحولت هذه الحرب إلى ملحمة كارثية، فإن سبباً رئيسياً في ذلك التحول، يعود إلى أن مهندسيها ومخططيها، وقد بُلِّغنا جميعاً الآن، قد تم تحذيرهم مسبقاً من عواقبها وتداعياتها المحتملة، ولكنهم لم يعيروا تلك التحذيرات آذاناً صاغية.

وفي المقابل، بدا الكونغرس الآن عاجزاً عن وقف الحرب هو الآخر. فكيف قدّر للأمور كلها أن تمضي على هذا النحو الخاطئ؟! وحتى نتمكن من الإجابة على هذا السؤال الصعب، فإنه مما لا شك فيه أن مؤرخي المستقبل سوف يهزون رؤوسهم حيرة ودهشة إزاء السهولة التي تم بها تضليل أمريكا قبيل شن هذه الحرب. وليس أدعى للحيرة والدهشة من توفر كافة الأدلة والشواهد منذ بادئ الأمر، على وجود إدارة "مارقة" عقدت العزم مسبقاً على توظيف هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول واستخدامها ذريعة لشن الحرب".

هذه الإدارة المارقة حسب وصف كروغمان هي التي قادت أمريكا إلى الهزيمة كما يرى كثير من الكتاب البارزين الأمريكيين، ومنهم روبرت داليك مؤلف أحدث الكتب الأمريكية التي صدرت في 2007 عن حرب فييتنام تحت عنوان "نيكسون وكيسنجر شركاء في السلطة" الذي رسم فيه سيناريو للخروج من هزيمة العراق شبيه بسيناريو الخروج من هزيمة فييتنام، حيث قال في مقال نشرته لوس أنجلوس تايمز في 28 مايو/أيار 2007 على موقع المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب: "وعلى الرغم من أن المقربين من بوش يقولون إنه يصرح في السر والعلن، على السواء، بأن الحرب في العراق يمكن كسبها، إلا أن أحداً لا يعرف بالضبط ما الذي يفكر فيه هذا الرجل حقاً، أو ما الذي يقوله لنفسه في هدأة الليل؟.. وهل يفكر على شاكلة نيكسون الذي قرر الاستمرار في الحرب مع إيمانه بعدم جدواها آملاً أن يؤدي الضغط العسكري على حكومة فييتنام الشمالية ـ خصوصاً بعد قيامه بشن غارات على كمبوديا في ربيع 1970 ولاوس

عام 1971 وحملة القصف العنيفة على هانوي التي عرفت بقصف الكريسماس عام 1972 ـ إلى إجبار الفييتناميين الشماليين على الدخول في مفاوضات تؤدي إلى التوصل إلى ما وصفه (نيكسون) في ذلك الوقت بـ"السلام المشرِّف"، أي التوصل إلى صفقة تتمكن أمريكا من خلالها من إنهاء تورطها في الحرب، مع المحافظة في نفس الوقت على مصداقيتها وسمعتها الدولية".

هذا السيناريو الواقعي لما يمكن أن يؤول إليه مستقبل الوجود الأمريكي في العراق يتوافق معه مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق زبيغنيو بريجينسكي في كتابه الأخير "الفرصة الثانية" الذي صدرت طبعته العربية عن دار الكتاب العربي في بيروت في نفس الوقت الذي صدرت فيه الطبعة الدولية في الولايات المتحدة في شهر مارس/آذار 2007، حيث يرسم بريجنسكي مستقبلاً مضطرباً للولايات المتحدة في المنطقة بعد العراق ويقول: "لقد تحولت حرب أمريكا في العراق إلى كارثة من كل الأوجه".

وبعدما يبين عملية التضليل التي تمت لشن الحرب والأوضاع الكارثية للولايات المتحدة في العراق يقول بريجنسكي في الصفحة 165: "سيكون لفقد السيطرة الأمريكية نتائج كارثية على موقف أمريكا في أوروبا والشرق الأقصى، فلا يستطيع حلفاء أمريكا على جانبي الأطلسي ولا الصين أو اليابان أن يكونوا غير مبالين إذا عجلت السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط في حدوث اضطراب جذري شديد يجاهر بالعداء لأمريكا، ويتطور إلى حملة طويلة على الطريقة الجزائرية ضد الولايات المتحدة والدولة الموالية لها في المنطقة أي إسرائيل، فسيكون على الدول الشرق أوسطية وبخاصة المصدرة للنفط إجراء ترتيبات خاصة بها، والبحث عن ملاذات آمنة لاستثماراتها، وطلب الحماية من القوى الصاعدة مثل الصين من أجل البقاء في هذه البيئة المضطربة".

هذه الرؤية التي قدمها بريجنسكي يراها كثيرون أقرب ما تكون للواقع، فهزيمة أمريكا في العراق وخروجها بالشكل الذي رسمه روبرت داليك، يمكن أن يقود إلى تغيرات هائلة في المنطقة كلها في ظل نمو للنفوذ الصيني في إفريقيا ومحاولة اختراق مناطق النفوذ الأمريكية في المنطقة ولكن دون تعجل كما تفعل الصين دائماً.

وفي شهر مايو/أيار 2007 كتب فرانسيس فوكوياما أحد أبرز المحافظين الجدد مقالاً مثيراً في صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" تحت عنوان "أمريكا والعراق تساؤلات ما قبل الانسحاب".

إذن الكل الآن مجمع على التفكير في ما بعد الهزيمة، كما أن معظم هذه السيناريوهات تقود إلى مستقبل مليء بالاضطرابات ليس في العراق وحده وإنما ربما يشمل المنطقة كلها، كما أنها تشير أيضاً إلى عملية تمرد على السياسة الأمريكية ربما تتسع لتشكل مخاطر على مصالح أمريكا في المنطقة وحليفتها إسرائيل، ومن ثم فإن أمريكا سيكون مصيرها هو مصير كل الأمبراطوريات التي سقطت على مدار التاريخ، لا سيما التاريخ الحديث. فكلها سقطت وتفتتت بعد حروب خاضتها مع قوى أقل منها، وآخرها كان الاتحاد السوفيتي الذي كانت أفغانستان المسمار الأخير في نعشه، كما دقت الحربان العالميتان الأولى والثانية مسامير في نعوش أمبراطوريات عديدة مثل الأمبراطوية النمساوية والألمانية والبريطانية، فكل القوى العظمى نشأت وسقطت في أعقاب الحروب.

وحينما يسجل المؤرخون تاريخ الهزيمة الأمريكية في العراق سيضعون معركة الفلوجة التي كانت من أكبر المعارك التي خاضتها القوات الأمريكية بعد حرب فييتنام سبباً رئيسياً في هزيمة أمريكا في العراق، وربما في انحسار الأمبراطورية الأمريكية ونهايتها، لكن المشكلة ليست هنا، وإنما المشكلة الكبرى الآن هي في مستقبل العراق ومستقبل المنطقة بعد هزيمة أمريكا وانسحابها المرتقب.

ملحق الوثائق

UNITED STATES MARINE CORPS
REGIMENTAL COMBAT TEAM 1 (REIN), FMF
UIC 40145
FPO AP 96426-0145

من العقيد/ جون تولان- قائدالمجموعة القتالية الأولى
و(بالشهاده من ناثانيال جينسين- ممثل سلطة الحكم المؤقتة)

إلى مواطنى مدينة الفالوجة اليوم الخامس من نيسان, ٢٠٠٤

من أجل حماية المواطنين الأبرياء فى الفلوجة أثناء عملية محاصرة و قتل أو القبض على الأعداء فى مدينة الفلوجة, و إستناداً على المادة ٦٤ من إتفاقية جينيف الرابعة, نحن نعلن القرارات الأتية:

١- إعتباراً من اليوم, تقرر منع حق المواطنين فى التجمهر أو التجمع أو التظاهر فى مدينة الفلوجة لحين صدور قرار آخر.
٢- تحريم و منع حمل السلاح على كل المواطنين العراقيين على مستوى مدينة الفلوجة حتى فى حالة إمتلاكهم رخصة حمل للسلاح فيما عدا قوات الأمن العراقية.
٣- تم فرض قرار بحظر التجول الفورى يومياً من الساعة السابعة مساءاً حتى الساعة السادسة صباحاً. تعتبر مخالفة هذا القرار من جانب أى مواطن عراقى فيما عدا قوات الأمن العراقية, سوف تعتبر فعل معادى مقصود و عمل عدائى ضدنا و بالتالى سوف تقوم قوات التحالف بالرد على هذا الفعل بإستعمال القوة الضاربة القاتلة من أجل فرض قرار حظر التجول.

فى حالة دخول قوات التحالف إلى بيتكم أو المبنى الذى كنتم متواجدون به, الرجا تجميع كل أفراد العائلة أو الأفراد المتواجدين فى البيت و جمعهم فى غرفة واحدة, بالإضافة إلى واجب الإعلان عن وجود أى أسلحة فى هذا المكان لقوات التحالف.

فى حالة رغبة أى من المواطنين من مدينة الفلوجة فى الحديث مع قوات التحالف, فمن الواجب عليهم أن يحاولوا الإقتراب من أى نقطة تفتيش تابعة لقوات التحالف رافعين أيديهم فى الهواء على شرط أن لا يزيد عددهم عن خمسة أشخاص و يجب عليهم أيضاً على الأقل حمل و رفع علم أبيض واحد أو أى قطعة قماش بيضاء اللون من أجل التعرف عليهم.

لقد قمنا بإتخاذ هذه القرارت و التعليمات من أجل حماية المواطنين الأبرياء فى الفلوجة و محاولة تجنب إصابتهم أو إلحاق أى ضرر بهم. سوف نقوم برفع هذه القرارات و الممنوعات عن مدينة الفلوجة فى أقرب وقت ممكن و عند إستتاب الأمن و الأمان.

جون تولان
John A. Toolan
ناثانيال جينسين

صورة من التحذير الرسمي الذي وزعته القوات الأمريكية على أهالي الفلوجة في 5 أبريل/ نيسان 2004.

الى / السيد أمين عام الامم المتحدة المحترم

السـيد أمين عام جامعة الدول العربية المحترم

السادة رؤساء المنظمات والهيئات الانسانية والحقوقية الدولية المحترمون

م / نداء استغاثة

تتعرض مدينتنا الصابرة البطلة منذ يوم اول أمس (ليلة 4- 5 نيسان /2004) الى حصار ظالم وبدون سابق أنذار او مسوغ قانوني فقد قامت قوات الاحتلال بفرض طوق حديدي على المدينة منع بموجبه المواطنـين مـ الدخول والخروج من المدينة وكذلك تم قطع الطريق المؤدي الى مستشفى المدينة الوحيد مما خلق واقعـاً مريـ ومعاناة انسانية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً وكذلك قامت طائراتهم باطلاق القنابل العنقودية على الاحياء السـكـ وتدمير عدد كبير من الدور على ساكنيها ذهب ضحية هذا العمل العشرات من الابرياء .

لذا نهيب بكل الشرفاء والخيرين في العالم ان يرفعوا اصواتهم ضد هذه الجريمة والطلب من الحكومـة الامريكيـ بفك الحصار فوراً والا فأن المدينة مقبلة على ابادة جماعية .

ونتمنى ان لا يؤخذ أهل الفلوجة بحادثة التمثيل التي أدانها كل أهل الفلوجة لخروجها عـن دينـهم وتقـاليده العربية الاصيلة .

جمهورية العراق

الهيئات والمنظمات السياسية

والدينية والاجتماعية في قضاء الفلوجة

صورة من النداء الذي وجهه أهالي الفلوجة إلى الأمين العام للأمم المتحدة.



تعليمات:

للتزود بالمعلومات المتعلقة بعملية حظر التجول
اضبطوا أجهزة المذياع على إحدى الموجات التالية :
الموجة المتوسطة على التردد ٧٥٦ كيلوهرتز
الموجة المتوسطة على التردد ٨٦٤ كيلوهرتز
موجة الأف.أم على التردد ٩١،٥ ميغاهرتز.

إبقوا في بيوتكم ولا تغادروها
لا تحملوا أسلحة مهما كان نوعها
لا تتدخلوا بقوات الأمن ولا بقوات الإئتلاف.

صورة نموذجين من التحذيرات التي وزعتها القوات الأمريكية عبر الطائرات المروحية لسكان الفلوجة.

Office of Strategic Communications, CPA Baghdad
Arabic Media and Programs Unit

date	time	outlet	media	theme	reporter	location	allegation/report	CPA/CJTF7	categorization	inciteful/emotional?	truth/ response
6-Apr	aft	al-J	sat	disrespect for mosques	Ahmad Mansour	Fallujah	"took position in minaret and fired upon people" Pix of snipers available [illegible] Eyewitnesses saying	FALSE	unverified		Under laws of war, religious sites enjoy a protected status and may not be used for the purpose of combat operations. Insurgents have, however, violated this principle and do not hesitate to occupy and fight from mosques hen it suits their tactics.
6-Apr	aft	al-J	sat	intentional harm civilians	Ahmad Mansour	Fallujah	Sanchez' comments on permitting entry of humanitarian aid: "obviously not true because troops are preventing their entry." [illegible] supplies were prevented	FALSE	bias		USMC has set up a forward humanitarian assistance center just outside Fallujah and is working to make sure supplies get in. Where insurgents make it too dangerous for hum aid to be delivered, CF work to find alternative ways.
8-Apr	eve	al-J	sat	CF losses	Joumana Nammur	Fallujah	Interviewee Abu Hafs: "The resistance men have inflicted heavy losses on the enemy in the Julan area. Yesterday we downed five planes, including a Chinook. We also destroyed two tanks and five Hummer jeeps. Today we downed two planes."	CHECK	bias/ unverified	yes	CHECK

date	time	outlet	media	theme	reporter	location	allegation/report	CPA/CJTF7	categorization	inciteful/emotional?	truth/ response
9-Apr	eve	al-J	sat	cluster bombs	Ahmad Mansour	Fallujah	"The bombing has not stopped. An hour ago, fighter planes dropped containers which the people of Fallujah affirm - through their distinctive noise - are containers for cluster bombs."	FALSE	bias/ unverified	yes	These weapons are not suitable for the kind of fighting we are seeing in Fallujah. Pictures of bombs available eye witness accounts hospital sources
9-Apr	eve	al-J	sat	images	Documentary "A Year Under Occupation."	Baghdad	violent music, graphic images, children crying, men protesting and shouting, Saddam statue face being covered with US flag	FALSE	bias	yes	
10-Apr	mor	al-J	sat	targeting of al-J	Ahmad Mansour	Fallujah	"Al Jazeera is being targeted. Last night we were targeted by some tanks, twice. But we escaped. The US wants us out of Fallujah, but we will stay." we saw with our eyes	FALSE	bias/ unverified	yes	CF does not target journalists and civilians, according to strict Rules of Engagement. We value the right to any organization to exercise freedom of speech, as long as this is done responsibly and without incitement of violence.
10-Apr	mor	al-J	sat	intentional harm civilians	Ahmad Mansour	Fallujah	"We saw a 75 year-old man who had been shot by sniper fire. Snipers are very active." pic available				
10-Apr	mor	al-J	sat	resistance myth	Ahmad Mansour	Fallujah	"Some fight because they want to prove that they are brave, some fight to defend their honor, and others fight to defend their religion. The majority fight to defend their religion, because the city is a religious city, in general. People of all ages and groups are out to defend the city." eye witness account		bias	yes	The fighting in Fallujah is being carried out by a minority of the population, of fighting-age men and boys.

صورة صفحتين من رسالة قوات التحالف الموجهة لقناة الجزيرة التي رصدت فيها تغطية أحمد منصور لأحداث الفلوجة.



DAILY Mirror

Tuesday November 22 2005

A BETTER READ GUARANTEED 35p

JUNGLE BUMS

Now it's getting.. ..even UGLIER

I'M A CELEBRITY DAY TWO: TURN TO PAGES 8 & 9

Posh and the dwarf

WHAT'S SHE UP TO? SEE PAGE 3

BUSH PLOT TO BOMB HIS ARAB ALLY

EXCLUSIVE

By KEVIN MAGUIRE and ANDY LINES

PRESIDENT Bush planned to bomb Arab TV station al-Jazeera in friendly Qatar, a "Top Secret" No 10 memo reveals

FULL STORY: PAGE 7

TOP SECRET Madness of war memo

صورة غلاف صحيفة ديلي ميرور البريطانية 22 نوفمبر/ تشرين الثاني 2005، حول عزم بوش قصف مقر قناة الجزيرة.





لم تكن معركة الفلوجة مجرد معركة خاضتها القوات الأمريكية في العراق وإنما كانت، كما يبين هذا الكتاب، المعركة التى حددت مصير الاحتلال الأمريكي للعراق. لقد دخلت الفلوجة السجل العسكري الأمريكي على أنها رمز المقاومة في العراق، وأنها المدينة التي هزمت الجيش الأمريكي أقوى جيوش العالم، وأنها المدينة التى حطمت المشروع الأمريكي فى العراق والمنطقة، والمدينة التي دقت المسمار الكبير فى نعش الأمبراطورية الأمريكية.

وفي هذا الكتاب سيجد القارىء القصة التى لم تُرو من قبل عن معركة الفلوجة، وسيدرك كيف كانت معركة الفلوجة معركة العراق ومعركة التاريخ الذي بدأ يتغير بالكامل بعدها. فالتاريخ الذي كان يخطط بوش لصناعته فى العراق والمنطقة مستخدماً أقوى جيوش العالم، أُحبط ودُمّر وتغيّر على مداخل الفلوجة. ومنذ تلك المعركة فى إبريل/نيسان 2004، عاشت الولايات المتحدة الهزيمة، ولاتزال، وستظل تعيشها حتى تخرج جيوشها مهزومة من العراق، وربما ستظل تعيشها لعقود يمكن أن تؤدي - كما قال مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق زبيغنيو بريجنسكي - إلى نهاية المشروع الأمبراطوري الأمريكي في المنطقة.

9 789953 277929